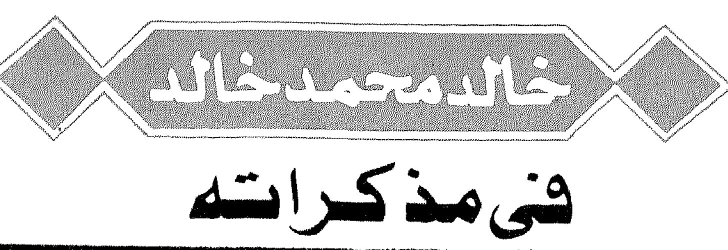


قصتي مع الحياة



الغـلاف بريشة : مصـطفى حسـين

رسوم داخلية : محمـد عفـت

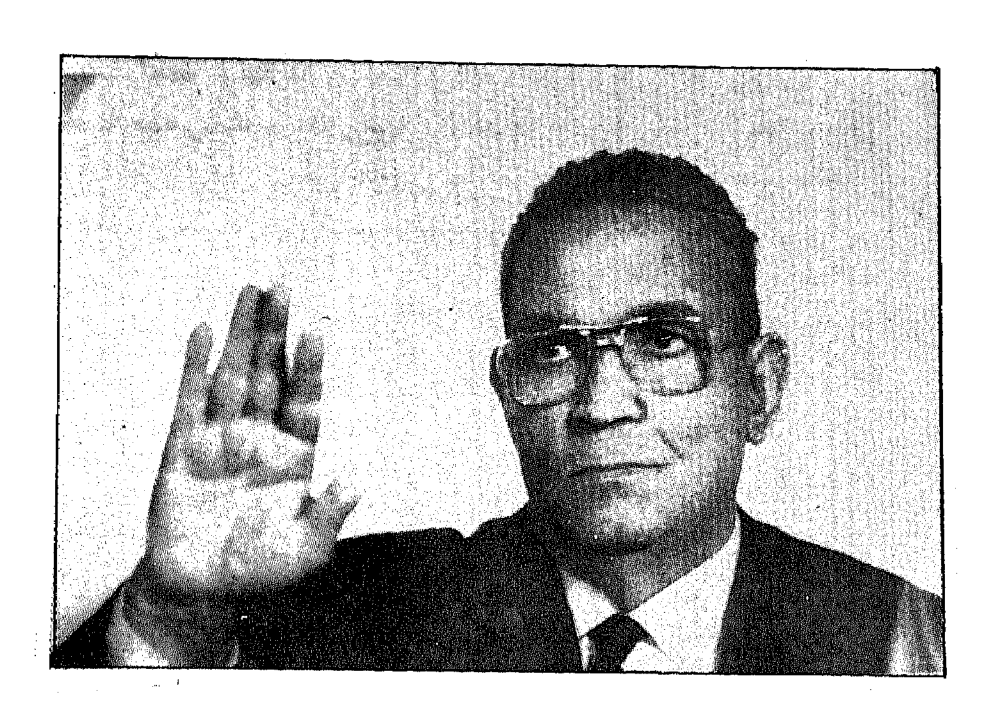
بسم الله الرحمن الرحيم

هَـاؤُمُ اقـرأوا كِتـابِيَـه . .

قصتي مع الحياة

خالد محمد خالد

فى مذكراته



قصتى مع الحياة



مقدمة :

بطاقتى

ليس الذى أسَطِّره هنا مقدمة بالمعنى المألوف ..

إنما أقدم لكم وأضع بين أيديكم « بطاقتى » .. ذلك أن الحلْقة الأولى من هذه المذكرات والتى جعلتُ عنوانها : لماذا يكتبون مذكراتهم ؟؟ تُغنى عن أيّة مقدمة ، وعن أى تقديم.فلتكُن هذه السطور مُمثِّلة لبطاقتى الشخصية والعائلية ، والفِكرية .

ولأبدأ بتلك العبارة الفَكِهَة حينما تريد الأوراق الرسمية التعريف بأحد ، فتقول :

— متزوج .. ويَعُول .. !!

●● فأنا متزوج وأعُول .. رزقنى الوهَّاب الكريم ثلاثة أولاد .

« أسامة » ـ خرِّيج كلية الآداب ـ شعبة اللغة الانجليزية ـ جامعة القاهرة ..

وهو ـ الآن ـ مدير « دار ثابت » للنشر والتوزيع التى يملكها وأخَواه معه .

وهو « مُثقَّف » أدْمَن القراءة منذ السنة الثانية الثانوية ، وما كنتُ أشترى كتابا لى إلاَّ سبقنى لقراءته ، وملأ هوامشه بتعليقاته .. ثم هو « كاتب » أصِيل ، يبحث موضوعه جيدا ، ويُعبر عنه فى رَصانة ويُسْر .

وعندما بدأت الصحف تنشر له ـ لا سِيَّما جريدة الأخبار التى يُؤْثِرها على سواها ـ كان حريصا على السَّير فى الاتجاه المُضادّ لى .. !!

فإذا كتبتُ ـ مثلا ـ أطالب بالمزيد من الديمقراطية ، فاجأنى بمقال يُؤكد فيه أن أى مَزيد منها لن يكون فى صالحنا .. !!

ولو أننى كتبت مقالا عن فوائد « البقدونس » لَفاجأنى وفاجأ القراء بمقال عن مَضارّه ؟ !!

وقد سأل صديقنا الراحل الأستاذ « فيليب جلاَّب » ذات يوم الأخ العزيز الأستاذ « عبدالوارث الدسوقى » قائلا : ألا تعرف مَن هذا الذى يُسلط أسامة علي والده ؟؟ !!

وكنتُ أدرك خَلْفِيَّة هذا الموقف من أسامة ، فهو يريد أن يؤكد وجوده ـ كاتبا ـ ويخشى أن يقول القراء : إن أباه يلَقِّنه أو يُملى عليه !! حتى إذا اطمأن إلى وَضْعِه ، ذهب عنه الحرص على مطاردتى ومخالَفتى ، مُستبقيا من حرصه ذاك مفاجأتى بما يكتب من مقالات وكتب ، شأنى ، شأن أى قارىء غريب . .

وفى طفولته قصّة تذكرنى بالحكام الطُّغاة . . ذلك أنه يوم كانت سِنّه لا تجاوز الرابعة سمع مزامير فرقة موسيقية شعبية تعبرُ الطريق . . فوثب نحو النافذة ليراها ، ووثَبتُ وراءه لأحول بينه وبين السُّقوط . . وهناك جذبته من شعر رأسه . . قائلا له : لو فعلت هذا مرة أخرى ستسقط فى الشارع . .

فنظر إلىَّ كأنه « يَسْتَعْبِطُنى » وقال :

— وإيه يعنى ؟ أنا عارف الباب . . لو وقَعْت ألِفّ وآجى منه . . !!!

كم من الطغاة من لا يعبأون بمصيرهم ، ظانين أنهم حين يسقطون سقوطهم المروِّع ، فلن يُصابوا بسوء ، لأنهم يعرفون الباب . . !!!

* * *

● وولدى الثانى « محمد » خريج الجامعة الأمريكية كلية الآداب والدراسات العربية . .

ويعمل ـ الآن ـ مديرا أيضا لدار ثابت للنشر ، وأحد أصحابها . .

وفى مظاهرات الطلاب العارمة كان أحد زعمائها . . وقُبض عليه ، واحتُجزَ مع زملائه الأكثرين حيث مكث أولياء أمورهم قُرابة عشرين يوما . لا يعرفون أين هم ، وبالتالى لا يجدون حيلة يبعثون بها إلى أبنائهم ما يَطعَمون ولا ما يلبسون . .

وأخيرا عرفنا أنهم فى سجن القناطر . . وكان الصديق الكبير الراحل الأستاذ « فتحى رضوان » قد قرر الانفراد بالدفاع عن « محمد » واتصل بالمسئولين طالبا الإذن بزيارته . . وصحبته فى هذه الزيارة . . ولم يأذن مأمور السجن بدخولى لأن الإذن خاص به ، ومقصور عليه . .

واستضافنى المأمور فى مكتبه .. وذهب الأستاذ فتحى للقاء « محمد » .. مكث معه أكثر من نصف الساعة .. وحين عاد أطلَّ علىَّ مُتهلل الوجه ، ضاحك الأسارير .. وفاجأنى بقوله :

أقسم بالله العظيم إنك لتستحق التهنئة « بمحمد » .. !!

وفى الطريق حكى لى ما كان ..

ونحن الآن نلقب « محمدا » بالشيخ « محمد » فقد دعاه الله تعالى إلى مائدته وحضرته ، وفتح له وعليه فُتوحًا كبيرا .. وإنى لأتقرَّب إلى الله بحبه ؟ !!

* * *

● وثالث المباركين « دكتور أيمن » تخرج فى طب القاهرة ، وتخصص فى التخدير .. وديع ، وَرِع ، تَقِى نَقِىّ .. لو قلتُ إنه بدأ يصلى وهو يحبُو فى قِماطِه لما بالغت كثيرا ..

ذلك أن جَد ته ـ والدة أمه ـ كانَت تزورنا كثيرا وتمكُث معنا أياما كِثارا .. وكانت تقوم الليل وتصوم النهار ، وكان طفلنا العزيز « أيمن » حريصا أبلغ الحرص على تقليدها ، فيصَلى معها ـ على طريقته ـ كلما قامت للصلاة .. وهكذا ارتوى من النَّبع فى مبتكر طفولته .. وإنهْ الآن لَيصلى جميع الفرائض فى جماعة المسجد ، لا يغفُل عن ذلك أبدا .. ويتفانَى فى عمله تفانياً رهبانيا ..

* * *

ولى أبناء آخرون لهم فى قلبى نفس الوُد والحب والإكْبار ـ هُم :

●● مُؤلَّفـاتى ..

— من هنا .. نبدأ ـ مواطنون ، لا رعايا ـ الديمقراطية .. أبدا ـ هذا ، أو الطوفان ـ لكى لا تحرثوا فى البحر ـ الدين للشعب ـ لله ، والحرية « أربعة أجزاء » ـ معاً على الطريق ، محمد والمسيح ـ إنه الإنسان ـ أفكار فى القمَّة ـ نحن البشر ـ إنسانيات محمد ﷺ ـ الوصايا العَشر لمن يريد أن يحيا ـ فى البدء ، كانت الكلمة ـ كما تحدث القرآن ـ كما تحدث الرسول ـ وجاء أبو بكر ـ بين يدَىْ عمر ـ وداعاً عثمان ـ فى رحاب على ـ معجزة الإسلام ، عمر بن عبدالعزيز (وهذه الكتب الخمسة طُبعت أخيرا فى مجلد واحد تحت عنوان : خلفاء

الرسول) ـ مع الضمير الإنسانى فى مَسِيره ومَصِيره ـ رجال حول الرسول ـ عشرة أيام فى حياة الرسول ـ أزْمة الحرية فى عالَمنا ـ لقاء مع الرسول ـ دفاع عن الديمقراطية ـ الدولة فى الإسلام ـ والموعدُ الله ـ أبناء الرسول فى كَرْبَلاء .

* * *

أصدقاء ، جمعت بيننا الأيام :

غير الذين جاء ذِكرهم فى ثنايا المذكرات ، هناك نَفَر من الأصدقاء الذين جمعتنا معاً الأيام . .

● ــ الدكتور محمد عبدالقادر حاتم .

من القلائل النادرين الذين يُخلصون لعملهم ومسئولياتهم التى يُتابعونها بجلَد ومثابرة وصدق وذكاء . . حلو الشمائل ، رَحْب الأفُق ، يحب الناس ، ويُحبه الناس . . كبير فى قلبه ، وفى وفائه ، أتاحَتْ له رئاسته المجالس القومية المتخصصة أن يكون من أكثر القادة فى مصر علما ودراية بمشكلات بلاده وقضاياها . .

وحين نقتنع بحاجتنا ـ ولو مُؤقتا ـ إلى وزارة ائتلافية ، فسيكون أصلح وأنجح من يتولى رئاستها ، ويُبْحِر بسَفينتها .

* * *

●● السيد/ صلاح دسوقى :

محافظ القاهرة الأسبق جمعنى به مقال جرىء كتبه ونشرته إحدى صحفنا اليومية الكبرى . وفى هذا المقال غمَز الكثيرين من الذين بوَّأتهُم الثورة مكانا عَليا ، فجعلوا همهم جمع الثروات واستغلال المناصب . . !! فعل هذا وهو محافظ مسئول ، ومعدود من كبار المسئولين عن الثورة . . قرأت المقال ، فأكبرتُ شجاعته ، واتصلت به تليفونيا أشُد على يديه مهنئا ، فدعانى لزيارته فى مكتبه . . وأيامئذ . كنت قد أصدرت كتابى : ـ « بين يدى عمر » فحملتُ معى نسخة منه وأهديتها له قائلا :

إنك بشجاعتك هذه تستحق أن يُهدى إليك هذا الكتاب .

سألنى : وأين نسخة الرئيس « عبدالناصر » ؟ أجبتُه : لقد تعودت

إرسال كتُبى المهداة إليه بطريق البريد المسجَّل . .

قال لى : إنه كلما صدر لك كتاب اشتريت منه نسختين ـ واحدة لى . . والثانية أحملها للرئيس حين أذهب للقائه . .

وفيما بعد ، حدثنى أنه حين صدر كتابى « أزْمة الحرية فى عالمنا » حمل إلى الرئيس الراحل نسخة منه . . فكانت المفاجأة أن وجد الكتاب على مكتب الرئيس ، وضحك وهو يقدم له النسخة التى حملها معه . فقال « عبدالناصر » إننى أقرؤه للمرة الثانية . .

أعجبنى فى « صلاح دسوقى » ولَعُه بالثقافة وإدمان القراءة واعتداده بنفسه . . وقدْ أطلعنى غَداة هزيمة «٦٧» على رسالة مطولة ، أرسلها لعبد الناصر يذكّره فيها بالأخطاء التى طالما شَجبَها ، والنصائح التى طالما تقدم بها .

* * *

●● الأستاذ فريد عبدالخالق :

من أكثر قادة الإخوان المسلمين نَقاء ، وصفاء ، وتُقَى . . عرف طريقه إليهم فى أوائل الأربعينات . وكان موضع ثقة فضيلة المرشد وتقديره . . ومنذ خطوته الأولى على الطريق ، وحتى يومنا هذا ـ لم يتغير ، ولم يُزايِله هدوؤه وسلامة طويته ونور شخصيته .

عرف « عبدالناصر » قُبيل الثورة وبعدها وكان من القلائل الذين أطلعهم على ساعة الصفر المحددة لقيام الثورة . . ومع ذلك فقد استُضيف فى المعتقل أكثر من مرة ، كان آخر مرة سنة «٦٥» إلى «٧١» . . وتوفيت والدته وهو فى المعتقل ، وطلب الإذن بالخروج ساعة واحدة يودع فيها جثمانها الوداع الأخير ، فلم يُؤْذَن له . . وراح فى سجنه يُعزى نفسه ويعتذر لوالدته بقصيدة شعرية عنوانها « أنا لم أقصِّر » يقول فيها :

أمــاهُ قــد كُنــا افتــرقنــا ذات يــوم
كى نـرانا فى غـد ، هـل تـذكُـرين ؟؟
أمــاه خَــافِى الـغيـب أخلـف ظـننـا
فـإذا الغـد المـرجُـوُّ أبعـد مـا يكـون

أُماه ، كم في السجن شُقتك من سنين
واشتقتُ مثلك للقاء متى يحين
أنا لم أُقصِّر في اللقاء
فَطرْقَةُ الليل التى دوت أطاحت بالظنون
في مثل غَمض الطرف من دار
تؤمِّنني إلى نار تضرَّم في السجون
لا شيء إلا أنه سور
وخلف السور شيء لا تصدقه الظنون

* * *

●● الدكتور شوقي الفنجرى :

مستشار بمجلس الدولة . دمث الخُلق حلو الشمائل يعشق الخير ، ويُسْدى المعروف لمن يعرف ولمن لا يعرف . . كان أحد ضحايا كوبرى عباس فى حادثته الشهيرة والمريرة . . وذلك يوم ٩ فبراير عام ١٩٤٦ - حيث خرج طلاب الجامعة فى مظاهرة لَجبَة عارمة تهتف بسقوط الاحتلال البريطانى وترفض بقاءه جاثما فوق بلادنا . .

يومئذ أصدر « فيتز باتْريك باشا » حكمدار الجيزة أمره لمأمور الجيزة أن يترك المظاهرة دون تعرض لها حتى يتوسط الطلاب كوبرى عباس . . وعندئذ يحول بينهم وبين العودة . . في الوقت ذاته كان « رُسُل باشا » حكمدار القاهرة قد أصدر أمره لمأمور قسم مصر القديمة كى يُسارع بقواته ويفتح الكوبرى . . وهكذا وجد الطلاب المتكدسون فوق كوبرى عباس أنفسهم فى حصار وبيل ، وليس أمامهم من خيار سوى الموت غَرقا . . !!

لكن نفرا من طلبة هندسة القاهرة استطاعوا إغلاق الكوبرى فهاجمت الطلبة من أمامهم شرطةُ بلوك النظام . . فهرول الطلاب إلى مؤخرة الكوبرى من جهة الجيزة ، فوجدوا البوليس الذى وراءهم قد ترك فى الكوبرى فتحة صغيرة تتسع لمرور واحد لا غير .

وعندما يبلغها طالب يُوسعونه ضربا قاسيا مُميتا.وكان الصديق العزيز « شوقى الفَنْجرى » الطالب يومئذ بحقوق القاهرة صاحب أقسى « عَلْقَة »

وأخطر إصابة . . إذ أصيب بكسر فى الجمجمة ـ خمسة فى ثمانية سم ـ كما أصيب بشَلل نصفى فى جانبه الأيمن . . وعندما حمل إلى المستشفى مع من حُملوا أُدخِل غرفة التشريح . . ظنا من الأطباء أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة بعد دقائق . . وسرَتْ إشاعة موته بين الطلاب ، بل نشرت الصحف خبر وفاته . . حتى إنهم فى اليوم التالى ، وعندما قاموا بمظاهرة « ثأر » داسُوا فيها صور الملك فاروق وأشعلوا فيها النيران ـ كان الطلاب يهتفون ـ « تحيا ذكرى الشهيد شوقى الفنجرى » !!!

عُولج الدكتور شوقى وشُفى . . وتخرَّج ثم صار مستشارا بمجلس الدولة . . وأستاذا لمادة الاقتصاد الإسلامى بجامعة الأزهر ، فجامعة الرياض بالسعودية ومُؤلفا فى اقتصاديات الإسلام . . ثم واحدا من أكبر الساعين إلى الخير فى بلادنا ـ جاعلا شعاره قول ربنا سبحانه :

﴿ وافعلوا الخير لعلكم تُفلحون ﴾

لقد أنشأ من ماله الخاص :

(أ) مِنحاً دراسية لصالح الطلبة المتفوقين الذين يريدون الحصول على الماجستير والدكتوراه .

(ب) جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامى راصدا لها « ١٣٠٠٠ » جنيه ، وتشرف عليها هيئة قضايا الدولة . .

(جـ) جائزة خدمة مصر . تحت إشراف المشرف العام على المجالس القومية المتخصصة . .

— جوائز الوافدين من البلاد الإسلامية ، ويشرف عليها شيخ الأزهر . .

وكل هذه الجوائز سنوية ودائمة . .

وإنه لَيقف اليوم وراء مشروع ضخم هو « جمعية دار الخير » التى سيكون لها إن شاء الله تعالى نشاط وارف الظلال . .

* * *

●● الدكتور حسام بدراوى :

وهو طبيب باهر وميمون ـ يمنح جواز المرور لكل قادم إلى الحياة من عالَم النُّطَف والأرحام . . ؟ !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أنه يُدير بكفاءة ممتازة مستشفى « النيل بدراوى » القائم على ضفاف نهرنا الخالد . . ثم هو إنسان ، عَذْب الروح ، نقى السَّريرة ، عَفّ اللسان ، يذكر الناس بخير مافيهم ، ويَشيد بفضل ذوى الفضل فيهم . .

حدثنى بواقعة جرت بينه وبين المشير « أبو غزالة » زاد بها حبى واحترامى للرجل الكبير !!

قال الدكتور . . حسام : إنه كان له صديق أصاب ابنته التى كان عمرها تسع سنوات مرض فى الدم ، يتطلب نقل « نُخاع شوكى » إليها شريطة أن يكون هناك توافُق فى الدم . . بحث والد الطفلة طويلا فلم يجد . . بيد أنه سمع بوجود دواء فى أمريكا لكنه لا يزال تحت التجربة . .

اتصل الوالد من « كاليفورنيا » بالولايات المتحدة بالصديق العزيز « د. حسام بدراوى » مستنجدا به . . فكيف يتصرف الدكتور « حسام » ؟؟

لم ييأس . ولم يُقعِده المستحيل عن نجدة الطفلة البائسة المسكينة . . وهداه الله إلى الاستنجاد بمروءات المشير « أبو غزالة » . .

قصّ عليه المأساة ، وطلب شفاعته لَدَى المسئولين فى أمريكا . . واستمهلَه « المشير » بضعة أيام . . وبعد حين قريب دق تليفون الدكتور حسام . . وإذا المتحدث المشير صاحب القلب الكبير :

— يا دكتور حسام . الدواء المطلوب هو الآن بين يدى الطفلة فى « كاليفورنيا » !!!

لقد اتصلتُ بوزير الدفاع الأمريكى . . الذى بذل جهدا مشكورا . . ثم بشّرنى بأن الدواء تم صرفه للطفلة المريضة . . !!!

ألا حقا وصدقا ما يقوله الشاعر العربى :

« إن العظائم ، كُفؤها العظماء » !!

وفى هذا النبأ ، الْتقينا بعظيمين :

— المشير أبو غزالة . .

— ودكتور حسام بدراوى . .

●● الأستاذ على حافظ :

من الناس مَن يحملونك على حُب البشرية كلها لأنها أنْجبتهُم . . !!

وصديقى الراحل الكبير « على حافظ » من هؤلاء . . صحفى سعودى أنشأ مع أخيه السيد « عثمان » جريدة « المدينة المنورة » فى وقت كان إصدار جريدة جادّة وناجحة يتطلب الكثير الكاثِر من المال والجهود والصبر والعرَق . . ولقد بذل الأخَوان « على وعثمان » كل ذلك بَذْل السَّماح وبارك الله هذا الجهد والجهاد . . ولا تزال جريدة « المدينة المنورة » وستظل إن شاء الله فى مقدمة الصحافة السعودية مُرسِلَة ضِياءها وسَناها . . ثم هو شاعر مُلهم ورَصين ، ينتظمه ديوانه « نَفحات من طَيْبَة » . . يقول فيه وكأنه يصف يومَنا الماثل :

رَبَّـاه كـنـتَ لـنـا فـى كـل نـازلـة
بـالنصـر تـدعَمنا ، والعـون ، والمـدد

والـيـوم يـا رب ، لا نـصـر ولا مـدد
رُمنـا سـواك ، فلم نـظفـر ولـم نَسُـد

يـا رب فتنتـنـا مـن قـومنـا انـدلَعت
لمـا استقمنـا لمـا كُنـا كَمـا الـزبَـدِ

يـا رب مسجـدنـا الأقصى يُعـاث بـه
سـلاحنـا القـول ، لم ينقص ولم يَـزدِ

يـا رب عـفـوك إن المسلمين غـدوْا
فى الذل ، لم يبق شخص غير مضطهد

إن لـم تكـن معـنـا يـا رب تـأكـلنـا
نـار تـأجَّـجُ ، لا تـبـقى عـلى أحـد

كنت قد مكثت حينا من الدهر أكتب لجريدة « الشرق الأوسط » مقالا أسبوعيا . .

و « الشرق الأوسط » هى بحق جريدة العرب الدولية . . ويقود مسيرتها الإخوة « هشام ومحمد وسعود » أبناء الأستاذ « على حافظ » . . يشرف الأستاذان هشام ومحمد على التحرير ، ويشرف الأستاذ سعود على التوزيع . .

ولم أستطع الاستمرار فى كتابة مقالى ، حين وَهَنتْ صحتى . . وإذا

الصديق العزيز يحدثنى تليفونيا من مدينة « جدة » يخبرنى أن سمو الأمير « نايف بن عبدالعزيز » وزير الداخلية السعودية علم بمرضى .. وأنه قرر أن أسافر على نفقته إلى لندن للفحص والعلاج و « خُدوا بَالُكُم » .. كان ذلك منذ عشرة أعوام .. أى قبل حرب الخليج وموقفى فيها بثمانية أعوام .. ؟ !! وحتى اليوم لم أر الأمير نايف ، ولم أسعد بلقائه .. وطلبت من أخى الأستاذ « على » أن يحمل إلى سمو الأمير شكرى .. ثم اعتذارى عن عدم السفر .. وبعد حوالى عشرة أيام أخبرنى الأستاذ « على » أن سمو الأمير يرفض اعتذارى ويُصمم على سفرى ، وقد صدرت التعليمات للسفارة السعودية بالقاهرة ولزميلتها بلندن كى تتخذا إجراءات السفر والإقامة ..

وهناك فى لندن ، كان الملحق الطبى السعودى يحمل إلىّ دائما اهتمام الأمير بى وسؤاله عنى .. كما كان الأستاذ « محمد على حافظ » يغمرنى باهتمامه .. تاركا سيارته الفاخرة لتنقلاتى .. ومُرافِقا ذكيا أمينا هو الأستاذ عبد الرحمن وهو شاب مصرى يحمل بكالوريوس علوم القاهرة ، ويعمل بالشرق الأوسط فى لندن .. كان يصحبنى فى هذه الرحلة وَلدِى « محمد » وكان يتعجَّل العودة إلى القاهرة .. لكن الأستاذ « على حافظ » كلما حددنا للعودة موعدا ، اتصل بى تليفونيا من « جدة » مصمما أن نبقى حتى نأخذ حظنا من رؤية معالم لندن ، وزيارة الريف الانجليزى ذى الخضرة اليانعة التى لا تُؤذِن بانتهاء .

* * *

وذات يوم ، رحل الصديق العظيم عنا إلى رِحاب الله .

* * *

●● الدكتور شاكر النابلسى :

الْتقيت به أول مرة على صفحات جريدة « الشرق الأوسط » حيث كان يدبج أسبوعيا مقالا يتضوَّع جمالا وبَهاء وطِيبا .. وكنت كلما قرأت له تمنيت أن تجمعنى به الأيام ، حتى جاء اليوم المبارك الذى رأيته يقرع باب بيتى .. فكان كالبُشْرَى التى طال انتظارها .. !! وهو أديب باهر الفكرة مشرق الأسلوب .. له بحوث أدبية وقصص مُحكمة ..

وإنه ـ كما قال ـ فى كتابه القيِّم « ثورة التراث » لَيَتتبعُنى ، ويرصُد

خطاى من عام ـ ١٩٥٠ ـ حين صدر كتابى الأول : ـ « من هنا .. نبدأ » !! وأحدث مؤلفاته كتابه : ـ « ثورة التراث فى فكر خالد محمد خالد » حيث تجلَّت مواهبه فى كتابه السِّير والنقد .. !!

وفى كتابه هذا تجد الشمول والغوص والإبداع والمتابعة اليقظى لمسيرتى الفكرية منذ عام ـ ١٩٥٠ ـ وحتى اليوم الذى أصدر فيه كتابه منذ أقل من عامين ..

ويا ليته يعطى التأليف فى السِّير مزيدا من وقته .. إذن لرأينا فى هذا المجال كاتبا يُضاهى أعظم كُتاب السِّير فى عالمنا ..

وإنه لَيزين مواهبه الأدبية أخلاق رفيعة وشمائل قويمة ، وحياة مِعطاءة مستقيمة ..

* * *

●● الأستاذ سيد إبراهيم :

مَلك الخط العربى غير مُنازَع ، والوصِىُّ على التراث الشعرى لأبى العلاء المِعَرِّى .. فهو يحفظ شعره كله ، ويُجيد الاستشهاد به فى لمحَات مشرقة !

ولا يكاد يخطر ببالك معنى من المعانى ، أو موقف من المواقف ، أو سانحة من السَّوانح .. ثم تسأله : ماذا قال « أبو العلاء » فى هذا .. إلا داعب رأسه بأنملة سبَّابته وقال : أُمَّال .. لقد قال كثيرا . وفى مثل لمح البصر ينثر أمامك من شعر « المِعَرّى » ما كأنه قيل فى هذه المناسبة وحدها .. وكم كان يُبهجنا بهذه الظاهرة كلما لَقيناه وسألناه .. !!

ولا أنسى فضلَه الذى أسْداه لى .. حين عرَّفنى بالأستاذ « على حافظ » وأبنائه الميَامين ولا فضلَه فى تحبير كل عناوين مؤلفاتى بخطه المتألّق والمتأنِّق ..

* * *

●● الأستاذ محمد سعيد أحمد :

ذات يوم فى مرحلة تصوُّفى ، حمل البريد إلىَّ خطابا من شاب فى مثل سِنى يسألنى نُصحه وإدْلاَله على الطريق إلى الله ..

وما كدتُ أطالع كلماته هذه حتى انْثالَت الدموع من عيني .. أأنا من

ينصح ويدل على الله ؟؟ وأحسست أن صاحب هذه الرسالة التى حذَّرتْ من العين دموعى ـ شاب صالح ترفع صحبته الهِمَم الفاترة مثل هِمتى . .

وأجبته على رسالته ، ثم التقينا ، فما خاب ظنى ولا أخطأ إحساسى . .

رأيت شابا تقيا نقيا وَرِعا . . كان يقسم وقته بين الإخوان المسلمين ، والجمعية الشرعية . دون أن يَحِيدَ عن التصميم على متابعة الرسول ﷺ فى إنسانياته وعباداته . .

كان الزهد العاقل فى الدنيا ، والتعلق بالآخرة شغله الشاغل . . وكان يُضايقه كثيرا أن أقدمه لمن يلْقانا بأنه أخو « عبدالمقصود باشا أحمد » وزير الأشغال أيامئذ ! !

ونَمت صُحبتنا وبورِكَت أُخُوَّتنا . . حتى سافر إلى السودان وحصل على الجنسية السودانية مع جنسيته المصرية ـ فيما أظن ـ . . ووصل فى السّلم الوظيفى إلى وكيل وزارة لشئون الدعوة الإسلامية . . ثم عاد إلى مصر ـ مَقرِّه ومُستَقرِّه .

حين كان فى السودان دخل الخلوة تحت رعاية أحد الشيوخ الصالحين .

والخلوة عبارة عن غرفة بملحقاتها يتعبَّد فيها المُريد وحده ـ وهى شَعْثاء غَبراء ، ليس فيها من الفُرش ما يشغل العين الناظرة .

حدثنى أخى « سعيد » وهو صادق صَدُوق . . ولعلَّه لم يحدث بما سأنقله عنه أحدا قط سوى شيخه . . حدثنى أنه كان كثيرا ما يسمع ـ أثناء ذِكره وتعبده الحصَى المبثوث فى أرض الغرفة يسبح الله ويحمَده ويكبِّره بصوت عربى مبين . . ! !

وإذا سُئلت : هل تصدق هذا ؟؟

أجيب : نعم أصدقه ، كما لو كنت معه أسمع وأرى . .

ألم تكن الجبال تُسبح والطير مع نبى الله داود عليه السلام عندما قال الله لها :

﴿ يا جبالُ أوِّبى معه ، والطيرَ وألَنَّا له الحديد ﴾

وما أكثر الأنبياء والأولياء والصالحين الذين شهدوا هذه المشاهدة وعاشُوها . .

وبعد ، فكم كنتُ أوَدُّ أنْ أذكر كل الأصدقاء فى هذه البطاقة ، وهم بحمد الله كثيرون . . منهم من قَضَى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر . . لولا أن المساحة المحددة لهذه البطاقة لا تتسع لمَزِيد . .

* * *

أطِبَّـــائى :

لقد مَنَّ الله علىَّ بنفر كريم من الأطباء . . وإنهم لمن الكثرة بحيث لو ذكرتهم جميعا لَشَمَت فى صحتى الشامتون !! وليكن حسْبنا منهم :

●● الدكتور أبو شادي الروبى :

أوَّل من عالج ويُعالج فىَّ الكبد والجهاز الهضمى وهو رجل تتبارى فى علاج مَرضاه بَركته ، وخِبرته !!

عندما سافرت إلى لندن فى الرحلة التى حدثتكم عنها رغبتُ إليه قبل السفر أن يُزوِّدنى بنصائحه . . فطلب منى أن ألْتقى بالدكتور « روجرز ولْيامْز » وهو طبيب عالمى فى الجهاز الهضمى والكبد . . وهناك حجزتُ موعدا مع عيادته . وحين الْتقينا سلَّمتُه خطابا يتضمن تقريرا سريعا عن حالتى من الدكتور « أبو شادى » . . ولم يكد يبصر اسم « أبو شادى » حتى ابتسم ابتسامة عريضة ، وأخذ يردد : آه . . مستر روبى . . الدكتور روبى . . ثم الْتفت ناحية ابنى محمد وقال له ما دام الدكتور « رُوبى » يعالجه ، جَايْ لى ليه ؟؟ !!

ونفس التحليلات التى أجريتُها فى القاهرة بتوجيه من الدكتور « أبو شادى » هى التى طالب الدكتور « ولْيَامز » بإجرائها فى لندن . . ونفس تشخيصه . كان تشخيص دكتور « رُوبى » . . ونفس الأدوية التى وصفها كانت الأدوية التى كتبها الدكتور « أبو شادى » . . !!

* * *

●● الدكتور عبدالعزيز الشريف :

زرته فى عيادته لأول مرة عام ـ ١٩٥١ ـ حاملا معى آلام « القولون » . . فحرَّر لى دواء أتناوله لمدة أسبوعين . . بَيْدَ أنّى تركته بعد اليوم الثالث لأن الآلام كانت قد رحلت إلى غير رجْعة. والدكتور « عبدالعزيز » صاحب دِين وخلُق يشعر مريضه أنه أمام إنسان كبير

يُشاركه آلامَه . . قبل أن يكون ، أو مِثْلَما هو طبيب يُعالج هذه الآلام .

كما تشعر أنك أمام عالم خبير . . ومن ثَمَّ فهو طبيب قدير .

* * *

●● الدكتور أسامة علوان :

أستاذ الأعصاب بطب القاهرة . . زرته مع الأخ الفاضل السيد « عمر مرعى » وأنا فى محنة مرَضِيَّة عاتية . . فكان بَلْسَمها ، وساحرها الذى ألْقى عصاه ، فإذا هى تَلْقفُ المحنة والمرض معا .

وهو مع كونه طبيبى المعالج ، فهو أيضا ، أخ كريم وصديق نبيل .

لا أتخلَّف أبداً عن استشارته التى أجد فيها كل الشفاء وكل الهَناء .

●● الدكتور محمد داود التنِّير :

كان رحمه الله تعالى صديقا حميما وصِهْراً كريما ، إذ كان زوج ابنة عمى .

وهو كطبيب بارع ورائع . . كان متخصصا فى أمراض الفم والأسنان ، ووَلِىَ عمادة طب الأسنان بجامعة القاهرة . .

وكان قادرا على منح الثقة لمرضاه فى كل حركة وكلمة ولَفْتَة منه . .

فمثلا ـ كان يغسل يديه جيدا قبل أن يُدخل أنامله فى فم المريض . .

وإذا دخلَت عليه مساعدة التمريض بورقة عاجلة كى يوقعها ، عاد بعد توقيعها إلى غَسل يديه بالماء والصابون !!

وإذا دق جرس التليفون وأمسك بيده سمَّاعة التوصيلة التى فى غرفة العلاج ، عاد بعد انتهاء المكالمة إلى غسل يديه جيدا قبل أن يمسَّ فم المريض . .

وهكذا تجد نفسك مع طبيب يحترمك بهذا الإصرار على تنظيف يديه وبَثِّ الطمأنينة فى نفسك . . !!

وبقدر ما كان تفوقه كطبيب ، كان تفوُّقه « كأديب » وهو من أذكى الذين يعبرون عن أنفسهم وأفكارهم بكلمات وِضاء . .

ألف أكثر من كتاب . . لكن خير ما ألَّف وكتَب هو سِفره الأنيق فى عبارته ، العميق فى فكرته . . « رِحلة عُمْر » . .

* * *

قُـــرّائى ..

إنهم والحمد لله كثيرون .. لكننى أذكُر منهم بصفة خاصة اثنين :

قارىء اسكندرية ..

و « بهجَت النادى ..

●● أما قارىء الاسكندرية ، فقد زارنى ذات يوم ضيف فى الخمسين من عمره أو دُونَها بقليل ويؤسفنى أننى أُنسِيتُ اسمه الكريم .. وزارنى بعد ذلك مرتين حين كان يجىء إلى القاهرة ..

كان ذكاؤه المُبهر أول ما يأخذك إليه .. فإذا تكلم بهذا الذكاء ، وددتَ لو يمضى فى حديثه ساعات وساعات !!

كان يُناقش أفكارى وكتبى مناقشة مقتدر وعليم .. وكان أحيانا يقرأ من ذاكرته صفحة كاملة من كتابى - أىّ كتاب - ثم يُدير معى حواره الممتع : ماذا أردت بما سمعت ؟؟ ويَرضى عن منطقى وأفكارى تارة ، ويُناقشها ليرفضها تارة أخرى .. وكل ذلك يملأ نفسى بالإعجاب والتقدير والاحترام لشخصيته ، ولثقافته ..

أيها الصديق العزيز - معذرة إذا كنت نسيت اسمك .. وأسَفاً على حرمانى من رؤيتك منذ سنين عَددا ..

حياك الله حيا .. ورحمك ميتا .

* * *

●● أما بهجت النادى ..

فقد بدأ تعارُفنا بلَفتة إنسانية معَه ..

كنت أعبر كوبرى قصر النيل فى طريقى إلى منزل الدكتور « محمد التّنير » .. عند فاجأتنا السماء بأمطار غزيرة .. وأسرعت الخُطى اتقاء للمطر .. وفجأة يقترب منى شاب باسطا يديه بصحيفته وقائلا : تفضل واتق بها المطر ، وإن كانت عزيزة علىَّ لأن بها مقالاً لى ..

سألته : إذن فأنت كاتب ؟؟ قال : أحاول أن أكون كاتبا ..

سألته : من أكثر كتابنا حظا من إعجابك ؟؟

أجاب من فَوْره : خالد محمد خالد ..

عقَّبت عليه قائلا : الجدَع ده اللى له كتاب اسمه إيه .. اسمه إيه ..

آه اسمه « من هنا .. نبدأ »

قال وهو يضحك : أيوه . هذا كتابه .. لكن مش اسمه الجدَع ده !! اسمه الأستاذ خالد محمد خالد .. !!

وانتهى الحديث بيننا إلى الكشف عن شخصيتى فكاد قلبه يطير من الفرح .. وقال لى : تعرف ؟؟ أنا لن أنام الليلة ، سأطوف على زملائى فى بيوتهم واحدا بعد واحد وأخبرهم أنى لقيتُك !!

ثم صمت طويلا . وكنا قد بلغنا نقطة افتراقنا ، وإذا به يقول : أنا مش مصدق إنك الأستاذ خالد .

قلت له : الأمر يسير ..إليك عنوانى وزُرنى غدا ..

وفى غد زارنى .. وابتدأ تعارُفنا ..

وصار « بهجت » أوّل قارىء لكتبى .. أهديه إياها فور صدورها .. وكان كقارىء الاسكندرية حادّ الذكاء ، قادر على مناقشتى ، فتارة يَرضى وتارة يهز رأسه بحركة يعلن بها عدم موافقته .. وهو الآن « الدكتور بهجت النادى » ويشغل منصبا كبيرا فى اليونسكو بباريس .

وقد ألّف مع صديق عمره الأستاذ « عادل » كثيرا من الكتب ، ولا يزالان يؤلفان ..

* * *

إجازات علميـة ..

فيما أعلم ، هناك اثنان نالا شهادة الدكتوراه فى رسائل عنى ..

●● الأولى : السيدة « سميرة عواد » لبنانية .. وقد زارتنى أثناء إعدادها الرسالة ، وتلقّت منى الإجابة عن أسئلة كثيرة .. ثم بعد حين اتصلت بى تليفونيا من السعودية تبشرنى بحصولها على الدكتوراه ..

●● الثانى : طالب دراسات عليا من إيطاليا تقدم برسالته إلى إحدى الجامعتين ـ جامعة ميلانو أو جامعة نابولى .. لست أذكر أيتهما .. وقد زارنى بالقاهرة وهو يتحدث العربية بطلاقة .. وأيضا تقدم بأسئلة كثيرة أجبته عنها ..

وبعد حين ، جاءنى منه خطاب يبشرنى بحصوله على الدكتوراه ..

وكان موضوع هاتين الرسالتين « خالد محمد خالد وأثره فى الفكر العربى والإسلامى المعاصِر » ..

أما شهادتى الماجستير :

فكانت رسالة الأولى لطالبة بجامعة برلين الشرقية قبل التوحيد . . ومن عجَب أنها كانت عن كتابى « مواطنون . . لا رعايا » . .

زارتنى ذات يوم فتاة ألمانية كانت تدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة . . حاملة رسالة من صديقتها التى تُعِدُّ الرسالة المذكورة . .

وسألتها : ومن جمع الغربية على الشرقية ؟

فقالت : أنا كنت من ألمانيا الشرقية . ثم غادرتها إلى برلين الغربية . .

سألتها ولماذا تركت بلدك ؟؟

أجابت : هربتُ إلى الحرية !!!

وسألتنى وأجبتها ، وأرسلت إجاباتى إلى صديقتها صاحبة الرسالة .

●● الثانى طالب دراسات عليا فى جامعة « برنستون »

ذات يوم قرأت فى ركن أخبار الجامعات بجريدة الأخبار نبأ أرسله من أمريكا أثناء رحلته الكبرى الأستاذ « أنيس منصور » يقول فيه :

إنه أثناء زيارته لجامعة « برنستون » علم أن أحد طلابها يعد رسالة ماجستير عن خالد محمد خالد . . وأراد مقابلته والتحدث معه فوجده مسافرا . . وفى نيته العودة إلى الجامعة لمقابلته . .

●● كذلك تقدمت برسالة عنى الآنسة « نادية أبو المجد » المحررة بمجلة روز اليوسف ، ونالت بها شهادة الماجستير من الجامعة الأمريكية . .

●● أنا ، والصحافة :

كتبتُ بصورة منتظمة فى جريدتى الجمهورية والأخبار فى بداية صدورهما . . ثم كتبتُ فى الأهرام على مدى أربعة أشهر . . حيث كنت أكتب يوميا تحت عنوان « لله ، والحرية » إلى أن جاء السبب الذى جعلنى أعتذر عن عدم الاستمرار . .

ذلك أن الأستاذ « محمد حسنين هيكل » كان قد سافر إلى الاتحاد السوفيتى مع المشير « عبدالحكيم عامر » رجاء الحصول على معونة مالية ـ هِبَةً ، أو قرض وقدم « خروشوف » إلى المشير منحة سبعين مليونا أو ثمانين من الدولارات . . وعادا معاً إلى القاهرة ـ هيكل وعامر ـ وإذا الأستاذ « هيكل » يكتب فى الأهرام ثلاث مقالات متتابعة ـ رأيتُ أنا فيها إهانة أو بعض إهانة للذين منحونا وتصدقوا علينا . . !!

فكتبت كلمتى التى أشكر فيها « الشعب » السوفيتى الذى يُضحى بما تأخذه حكومته من قوته لتساعد به الدول النامية .. ولم تُنشر الكلمة ، فامتنعت عن الكتابة واتصل بى المرحوم الأستاذ « على حمدى الجمال » الذى اعتذر بأن ما كتبه الأستاذ هيكل يمثل موقفا مصريا للدولة نفسها .. فقلت له : إنى أدرك هذا ولو أنى مكان الأستاذ هيكل لكتبت ما يعبر عن سياسة الدولة .. ولكن الله حفظنى من هذا الالتزام وهذه المسئولية الوظيفية .. فلماذا أسعى إلى القيود بنفسى .. وانتهت علاقتى بالأهرام .

* * *

مع مقالاتى التى كانت تُنشر ـ كان هناك أحاديث صحفية نشرت وأجراها معى كثيرون .. وفى الصدارة من هؤلاء الكثيرين تقف :

●● السيدة « سناء السعيد »

وكنت ولا أزال ألَقّبها بـ « ملكة الحديث الصحفى » فمعها من الذكاء المضىء ما يمكنها من التسلّل إلى أعماق المسئول والموضوع ـ حيث تظفر آخر الأمر بما تريد .. وحيث تطالع قراءها بحديث شامل وممتع وعميم ..

وقد أجْريت معها أحاديث كثيرة .. وكانت تقدم الحديث بكلمات تناهَت فى الجزالة والعذوبة والإمتاع .

* * *

●● وثانيا : الدكتورة « سهير اسكندر » أجرت معى بعض الأحاديث ، وكتبت عنى كثيرا .

والدكتورة « سهير » تتمتع بأسلوب رشيق أنيق ، وفهم سديد وذكاء لمّاح .. ثم إنها تستحق بكفاحها الإعجاب .

ففى ظروف صحية سيئة أخذت شهادة الماچستير ..

وفى ظروف عائلية سيئة حصلت على إجازة الدكتوراه .

* * *

تحية لكم جميعا ..

والحمد لله رب العالمين

خالد محمد خالد



خالد محمد خالد مع أولاده : صورة عمرها أكثر من ٣٠ عاما

●● لإنى لا اكتب تاريخا ؛ فلا تنتظروا منى تحديد الأعوام ، والشهور ، والأيام ..

●● ولأنى اقدم حياتى فى صدق ووضوح ، حتى لأكَنّكم الأُلَى عاشوها .. فكونوا على يقين بأن الذى لم يَكْذِبْكم ، منذ بدأ يخاطبكم بقلمه عام ـ ١٩٥٠ ـ لن يخدعكُم اليوم عن نفسه ، وهو يُهدى إليكم تجربته ، وينثر بينكم أيامه وأحلامه ..

●● ولأنى منذ ألتقيت بحقيقتى تبتَّلتُ تماما للفكر وللكلمة ـ نائياً عن كل الأضواء ـ فلا تنتظروا أن تجمعكم هذه المذكرات بالسادة الأَعْلَيْن من ملوك ، أو رؤساء ، أو ساسة كِبار .. فما عرفتُ من أولئك جميعا سوى قِلَّة نادرة ، لن تُشبع نَهم القارىء الذى تَقرُّ عيناه بالأحاديث الباذخة عن الكبار والأسرار ..

●● ثم .....

لأنه كانت ـ ولا تزال ـ لى حياة ، فدعونى أحدثكم عن « قصتى مع الحياة » ..



لماذا يكتبون مذكراتهم ؟؟

يَزخر التراث الإنسانى بالمذكرات ، أو بالذكريات ، وبالسير التى تعبر الأجيال حاملة أنباء الذين خلوا من قبل ، تاركين آثار خُطاهم ومسعاهم فى دنيا الناس ، مضيئين ليل الحياة بنور إيمانهم وأعمالهم إن كانوا من روادها البُناة الخيِّرين ..

أو مطفئين نهارها بظلمات بعضها فوق بعض ، تزدحم بشرورهم ولُؤمهم .. ذلك اللؤم الذى قال عنه الشاعر الانجليزى « شيللى » : « ما أجمل الحياة ، لولا لُؤم الإنسان » !!!! ..

* * *

وبعض هذه المذكرات يجنح ذَوُوها إلى مجاملة أنفسهم على حساب الحقيقة ..

كما أن بعض السير يجنح مؤلفوها إلى كثير من المبالغة ـ مدحا أو قدحا ـ على حساب الصدق التاريخى .. بَيْدَ أنَّ العملة الزائفة مكشوفة العورات .. !! وهى إن استطاعت طرد العملة الصحيحة من السوق ، فلبعض الوقت ، وفى بعض الظروف ليس غير .. ثم لا تلبث أن ينصَلَّ بهاؤها .. وتنهار سوقها .. وتُولى الأدبار .. !!!

وصدق من بيده الخلق والأمر جل جلاله :

﴿ فأما الزبَد ، فيذهب جُفـاء ﴾

﴿ وأما ما ينفع الناس ، فيمكُث فى الأرض ﴾

* * *

ولم تكن كتابة المذكرات ، أو الذكريات ضريبة على جميع الذين لهم من حياتهم حصيلة جديرة بأن تُروى وتُحكى للناس .. بل ولم تكن إحدى سِمات الشخصيات التى تألقت فى آفاق العظمة .. ولا تلك التى تفوقت فى غَواشِى الانحطاط .. !!

فمن هؤلاء وأولئك من أطلّ على عصره وعلى التاليات لعصره من عصور وأجيال بتجربته .. ومنهم من أمسك عليه لسانه وقلمه .. وترك للتاريخ هذه المهمة ...

فسقراط مثلا ـ لم يكتب مذكراته ، بل ولم يؤلف كتابا واحدا سوى ذلك الكتاب الوحيد والفريد والذى اسمه « أفلاطون » .. !!!

وشاعر الألمان ومفكرهم الكبير « جيته » لم يكتب ـ فيما نعلم ـ مذكرات . . لكن صديقه وجليسه « إكرمَن » قام بهذه المهمة النبيلة والجليلة ، فكان كلما انصرف من لقائهما اليومى عائدا إلى داره ، سطر كل ما سمعه من « جيته » ورآه . . ثم استودع هذه الثروة الغالية كتابه الكبير الذى أسماه « أحاديث إكْرمَنْ » . .

وفى مناسبة الحديث عن هذا الكتاب ، أذكر هذا المشهد المعبر من مشاهده . . وذلك حين يخبرنا « إكْرمَنْ » : أنه زار « جيته » يوما كعادته . . وعلى غير العادة وجده مبتئسا ومهموما . فسأله عن سر ابتئاسه وحزنه . . فأجابه : كان عندى صباح اليوم ثُلّة من طلبة « اكسفورد » . . ومضوا يحاوروننى بغير تكلف ويُداعبوننى كأنى واحد منهم ، حتى إن أحدهم راح يربت على كتفى ويمازحنى ويقول : كم أنت مسل ولطيف يا جيته . . ؟؟ !!

سأله « إكرمن » وهل هذا الذى أزعجك . . ؟؟ وأجابه : نعم ـ عندما رحت أقارن بينهم وبين طلابنا الألمان . .

فطلابنا ـ إذا رأونى فى الجامعة انحنوا لى فى خشوع يخجلنى . . !! أما هؤلاء القادمون من بريطانيا ، فيعاملوننى كأنى واحد من لِدَاتِهم وأترابهم . . لا تكلُّف ولا مبالغة تفسد بهاء المجاملة . . ولا تنازل عن شخصياتهم أمام الآخرين مهما يكن شأنهم وعَلياؤهم . . !!!

إنه لا تعليق لنا على هذه الواقعة . وإن يكن الذى تعنيه بالنسبة للعلاقات المتبادلة بين حكامنا وشعوبنا أكثر مائة مرة مما كانت تعنيه تجاه المقارنة التى أجراها « جيته » بين الطلبة الألمان ونظرائهم البريطانيين . . !!!

« ولْنعد إلى مَسَارِ حَديثنا . .

* * *

« إن المذكرات والذكريات والسِّيَر ، يمكن أن ننعتها بأنها « ذاكرة التاريخ » . . ومن ثَمَّ ، فكل غش وكذب وزيف يُقحَم على هذه الذاكرة يصيب الحياة الإنسانية بشر ما يُمزقها !!

إن الجهاز السحرى « الكمبيوتر » لا يمنحنا معلومات صادقة إلا إذا كنا قد صدَّقْناه الحديث وائتمناه على معلومات صحيحة وأمينة . . فإن نحن كَذبْناه سرح بنا فى متاهات الخطأ والجهالات . . !! . .

هذا ـ أول . .

والأمر الثانى أنّ كاتب مذكراته ، شاهد على حياته . . فإن صدق كان شاهد عدل . . وإن كذَب كان شاهد زور . . !!

وإن الذى يشهد زورا على سرقة بقرة لا يأتى أمرا مذكورا إذا قُورن بمن يشهد زورا متسترا بشهادته على سرقة عقل ، ووجدان ، وضمير ـ هو عقل الأمة ووجدانها ، وضميرها . . أو على الأقل ، عقل الذين سيقرأون مذكراته وشهادته ، ووجدانهم ، وضمائرهم . . !!

من أجل هذا ، لم تكن كتابة المذكرات والذكريات . . وأيضا لم تكن كتابة سير الصفوة من الأحياء أو الأموات ضربا من ضروب التسلية ، أو التزجية . . ولا سبيلا من سبل الارتزاق والشهرة . . ولا سُلّما

نحو مجد كاذب ، أو انحطاطا إلى التنفيس عن حقد لاَغِب .. !!

وإذا كان ربنا ذو الجلال والإكرام أرسل وعيده كالصواعق على الذين قال عنهم :

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم
ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا
فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم ، وويل لهم مما يكسِبون ﴾ !!

أفلا يُشبه هؤلاء ، أولئك الذين يقدمون للناس شهادتهم ، أعنى مذكراتهم ، على أنها الحق .. وهم يعلمون أنهم غاشون كاذبون .. ؟ !!

وإذن ..

﴿ فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسِبون ﴾ !!

* * *

وكتابة المذكرات ليست بِدْعاً من بدع العصور الحديثة .. بل هى قديمة قدم الإنسان .. !!

واضرب لهم مثلا ـ قدماء المصريين !! فهل كانت كلماتهم المحفورة على الحجارة العتيقة والعريقة إلا ذِكرا لتاريخهم ، وذكرى لأحفادهم .. ومذكرات سجلوا فيها ما استطاعوا من وقائع حياتهم ومشاهد أيامهم .. ؟؟

والشعر العربى فى الجاهلية الأولى ، وما قبل الأولى ..

هل كان فى التحليل النهائى له ـ إلا مذكرات وذكريات ويوميات وحوليات .. ؟ !

إن قارىء المعلقات السبع الأثيرة والشهيرة لا يخطىء هذه الظاهرة ، ولا هى تخطئه .. فمثلا ـ عندما يبدأ امرؤ القيس معلقته قائلا :

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيب ومَنزل
بِسِقط اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَل

ألا ينبهنا إلى أنه بسبيل الهتاف فينا بذكرياته ، وأيضا بمذكراته .. ؟

ثم يستطرد حاكيا :

وقوفا بها صحبى على مُطِيّهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر ، حتى بَلَّ دمعى محملى

ويوم دخلت الخدر ، خدر عُنيزة
فقالت : لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى ، يا امرأ القيس فانزلى
فقلت لها : سيرى ، وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جَناكِ المعلل

فجئت ، وقد نضُت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت : يمين الله مالك حيلة
وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

نحن هنا ـ لسنا أمام مذكرات وذكريات فحسب . . بل أمام نموذج مبكر جدا لأدب الاعتراف . . !
ثم يمضى فى نفس القصيدة راويا تجربته مع الزمن . . ومعاناته الأحداث . . من ليل كموج البحر ، إلى فرسه المِكَر المِفر ، المقبل المدبر معا ، إلى السيل الذى كان يقتلع بعض البلاد بما فيها ومن فيها . .

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة
ولا أُطما إلا مشيدا بجندل

* * *

و« طَرفة بين العبد » ألم يكن يقدم مذكراته أوذكرياته اللمياء الباسمة ، شبيهة الظبى الأحوى فى اكتحال عينيها وسمرة شفتيها ، وجيدها الفارع ، وثغرها الذى سقاه شعاع الشمس ، أوكأن الشمس أعارته ضوءها . . !!

ووجه ، كأن الشمس ألقت رداءها
عليه ، نقى اللون ، لم يتخدد !!

ويقدم لنا شخصيته الموّارة بالعزم والإقدام . .

إذا القوم قالوا : مَن فتى خِلت أننى
عُنيت ، فلم أكسل ، ولم أتبلد
وإن يلتقى الحى الجميع تلاقنى
إلى ذروة البيت الشريف المصمّد

ويُلِمُّ بأدب الاعتراف :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى انفاقى طريفى ومتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها
وأفردتُ إفراد البعير المعبد

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات ، هل أنت مُخلدى

فإن كنت لا تَسْتطِيع دفع منيتى
فدعنى أُبادرها بما ملكت يدى

ثم يحدثنا عن رأيه في نفسه وفى الناس ، وفى العلاقات الاجتماعية كلها . .

وإن أُدع للجلىّ أكن من حُماتها
وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد

وإن يقذفوا بالقذْع عرضك أسقهم
بكأس حياض الموت قبل التهدد

يقول لنا ذلك فى معرض عتابه لابن عمه « مالك » الذى قلاه بغير ذنب جَناه :

فمالى أرانى ، وابن عَمِّىَ مالكاً
متى أدْن منه ، ينأ عنى ويبعد

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة
على المرء من وقع الحُسام المهنَّد

وإذا كنتم تُجلُّون قيسا ، وعمروا لثرائهما وجاههما :

فلو شاء ربى ، كنت قيس بن خالد
ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وزارنى
بنون كُرام ، سادة لمسود

ويدعنا ندرك أنه بمذكراته العابرة السريعة يدعونا إلى أن نعرف له قدره ، ونذكره ، فنحسن ذكره .

فإن مُتُّ ، فانعينى بما أنا أهله
وشُقِّى علىَّ الجيب ، يا ابنة مَعبد

ولا تجعلينى كامرئ ليس همه
كهمى ، ولا يغنى غنائى ومشهدى

ثم يرشدنا لإحدى حكم الزمان والحياة :

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تُزوّد
ويأتيك بالأخبار من لم تَبِع له
بتاتا ، ولم تضرب لها وقت موعد

* * *

وهذا « زهير بن أبى سلمى » يصحبنا إلى الدارْ التى وقف بعدها عشرين حجة لم تكتحل برؤيتها عيناه :

فلما عرفتُ الدار قلت لربعها :
ألا أنْعِمْ صباحا أيها الربع واسلَم

ثم يحدثنا عن اللائى :

بكَرْنَ بكورا واستحرن بسحرة
فهن ووادى الرس كاليد للفم
وفيهن مَلهى لطيف ومنظر
أنيق لعين الناظر المتوسّم

ثم تَنْدَاحُ مذكراته أو ذكرياته فى إيجاز بليغ ، تلقاء الحرب والسلام ، فيثنى على هرم بن سنان والحارث بن عوف ، لإتمامهما الصلح بين قبيلتى عبس ، وذبيان ، وحملهما ديات القتلى منهما :

وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم
ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة
وذبيان ، هل أقسمتموا كل مقسم ؟
فلا تكتُمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ، ومهما يُكْتَمِ الله يعلم

ويترك للقادمين بعده عبر الدهور والأجيال ، تحذيرا صادقا من رزايا الحرب ومآسيها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا
وما هو عنها بالحديث المرجَّم

متى تبعثوها، تبعثوها ذميمة
وتضرَ، إذا ضرَّيتموها، فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح تباعا، ثم تنتج، فتتئم

ثم يفى علينا من حكمة السنين والعمر الطويل، بعد أن يعلن ضيقه وبَرمِه بالحياة:

سَئمتُ تكاليف الحياة، ومن يعش
ثمانين حولا - لا أبالك - يسأمِ

وأعلم ما فى اليوم، والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غدٍ عمى

ثم يتحفنا بـ «المُنَمْنَمات» التى يضمنها تجربته وحكمته:

ومَن لم يصانع فى أمور كثيرة
يُضَرَّس بأنياب، ويُوطَأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عِرضه
يفره، ومن لا يتقى الشتم يشتم

ومن يك ذا فضل، فيبخل بفضله
على قومه، يُستغن عنه ويُذمم

ومن يُوفِ لا يذمم، ومن يهد قلبه
إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ومن هاب أسباب المنايا ينلْنَه
وإن يرقَ أسباب السماء بِسُلَّم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمده ذمّاً عليه، ويندم

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه
يُهدَّم، ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لم يكرم نفسه لم يكرم

ومهما تكن عند امرىء من خَليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

وكَائِنْ ترى من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

* * *

وفى أوراق « لبيد » نلتقى به :

تَرّاكُ أمكنه إذا لم أرضها
أو تعتلِق بعض النفوس جمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة
طلق لذيذ لهوها وندامها

* * *

وفى أوراق « عمرو بن كلثوم »، يقدم لنا حديثه الشجىّ والفتى :

وكأسٍ قد شربت ببعلبك
وأخرى فى دمشق وقاسرينا
وأنّا سوف تُدركنا المنايا
مقدّرة لنا ، ومقدرينا
قفى قبل التفرق يا ظَعينا
نخبرك اليقين ، وتخبرينا
أيا هند ، فلا تعجل علينا
وانظرنا ، نُخبِّرك اليقينا
بأنا نُورِد الرايات بيضا
ونُصدرهن حمرا ، قد روِينا
متى ننقل إلى قوم رحَانا
يكونوا فى اللقاء لها طحينا

ويحدثنا عن قبيلته وقومه حديث الماجدين :

فنحن الحاكمون إذا أطعنا
ونحن العازمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا
ونحن الآخذون لما رضينا
وأنّا المطعمون إذا قدرنا
وأنّا المهلكون إذا ابتلينا

وأنّـا المـانـعـون لـمـا أردنـا
وأنّـا النـازلـون بـحـيـث شِـيـنـا

* * *

ولم تكن المعلقات وحدها ، التراث الشعرى لأصحابها حيث ضمنوها ذكرياتهم ، ومشاهد حياتهم .. بل كان لهم الكثير الكاثر غيرها .. كما كان لغيرهم من شعراء العصر الجاهلى ..

وفى عصور الإسلام - مع الأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين ، والأيوبيين وسواهم - كان الشعر بمثابة المذكرات والذكريات والتاريخ .. كان الموسوعة التى تنتظم سِيَر الخلفاء والشعراء والناس ، حتى سُمى ونعت بأنه « ديوان العرب » .. !! ..

فى عام - ١٩٥٨ - كنا كأعضاء فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، نحتفل بذكرى « عبدالرحمن الكوكبى » فى مدينة « حلب » .. وأذكر ، ونحن نزور بعض آثار الحمَدانيِّين فيها أن سألت أحد مُرافقينا السوريين ، وكان أستاذا بجامعة دمشق : - متى سنزور ضريح سيف الدولة الحمدانى .. ؟؟

فأجابنى ، وهو يضحك بقهقهة عالية : ليس لسيف الدولة قبر معروف أو مجهول .. بل إن سيف الدولة نفسه ، ما كان أحد سيعرفه أو يسمع به ، لولا « المتنبى » .. الذى بعثه بشعره من مرقده .. وأذاع به فى التاريخ ... !! .

* * *

وجاء اليوم الذى أصبح التاريخ فى الحضارة الإسلامية فنا رفيعا له قواعده وأخلاقياته .. وتصدر هذا الفن رجال أفذاذ - فرأينا الطبرى وابن كثير .. وابن الأثير .. وابن قتيبة .. ومن قبلهم « ابن هشام » الذى تبتَّل لدراسة وتدوين السيرة المحمدية الكريمة .. وابن اسحاق الذى أرخ لِثُلّة ماجدة من أصحاب سيدنا محمد ﷺ ، ثم جاء الحافظ « ابن حجر » سائرا على الدرب فى سفره القيم » الإصابة فى تمييز الصحابة » ومعه ابن الأثير صاحب «أسد الغابة » .

وانداح الطريق أمام السيرة .. وكان هناك « معجم الأدباء » لـ « ياقوت الحموى » الذى أختص الأدب - نثره وشعره - بكتابه ذاك ..

وكان هناك الموسوعة الكبرى فى أخبار الكتاب والشعراء وفى تصوير ذكى ومفيض غير متحرِّج ولا متنصِّل للمجتمع الإسلامى فى عصره .. وهى موسوعة « الأغانى » ..

وكان هناك الموسوعة المباركة « حِلية الأولياء » للأصبهانى حيث قدم فى مجلدات عشرة أنقى وأتقى السير لأهل الله من الأولياء والصالحين .. فى كل هذا المسار نرى « مذكرات مفيضة » تجاوز الحديث عن « الواحد » إلى الحديث عن « الكل » ..

وبعد أن كان الشعر وحده الأداة لنقل الكلمة والمشهد والواقعة ، انضم إليه النثر فأبليا معا بلاء حسنا فى مُواكبة حركة التاريخ .

وجاء العصر الحديث ليشهد كتابة المذكرات الشخصية المباشرة ، يقص فيها صاحبها وكاتبها كيف عايشَ عصره . . وفيم أبلَى حياته وكيف عانق قدَره وكادت تكون مقصورة على السياسة والأدب . .

ذلك أن تجربة السياسى والمفكر ـ بحكم موقعها فى الحياة ـ تحملان ثراء أكثر وتثيران شوقا أكبر . .

وإنى لأذكر ـ وفى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرى ـ أننى استحوَذت على الرغبة فى أن أقتنى أول كتاب غير مدرسى . . من مصروفى « الوهْنان » الذى لا يتسع بحال للترف المتمثل فى شراء كتاب بخمسة قروش . . ومضيت أجوس خلال المكتبات الواقعة فى رحاب الجامع الأزهر . . فماذا كان يُتوقع من طالب أزهرى فى هذه السن الباكرة أن يختار ؟؟ إن اختياره لن يذهب بعيدا عن كتاب أدبى نثرا أو شعرا أو كتاب دينى . . أو كتاب فى البلاغة أو فى اللغة . . أو ترجمة يطيق فهمها لحياة زعيم أو رائد فى أى من دروب الحياة ومجالاتها . . لكن صاحبنا جاوز هذا كله إلى كتاب لا يُوائم سنه ولا ثقافته . . إن كان هناك يومئذ حظ له من الثقافة . . ؟ !

أجل ـ لقد ترك عشرات الكتب التى استعرضها ليقبض بكلتا يديه على كتاب مُعرب اسمه « مذكرات لورد جْريبى » الذى كان وزيرا للخارجية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى . .

قد يكون هناك فى أغوار العقل الباطن سبب أو أسباب لهذا الاختيار ، ولكن سيبقى هناك بينها الشوق أو الفضول الذى يشبع نهما وتطلعا حين تكون المذكرات نافذة نُطل منها على عالم من الأسرار والأدوار والمغامرات الكبرى ـ لا سيما حين يقدمها إلينا من يقال عن مثله « ولا يُنبئك مثل خَبير » . .

وبعـــد . . .

فهذه « إطلالة » سريعة على مسيرة المذكرات والسير . . أقدمها بين يدى هذه الصفحات التى تنتظم : « قصتى مع الحياة » . .

وإذا كان هناك ما أرجوه لها وبها ـ فأن تكون إضافة لكثير سبقها . . وأن تكون تعريفا وتفسيرا لأيام وأحداث عاشها الكاتب بفكره ووعيه ووجدانه وتجربته « فى قلب الحياة » . . وليس على « هامش الحياة » . .

* * *



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشمعة السابعة .. !!!

تلك كانت عادة أهلينا فى بقاع القرى والريف التى يضمها وادينا الأخضر ، وأرضنا الطيبة .. وهى عادة تنبثق من أصول إسلامية .. فقد علمنا الرسول ﷺ فى أحاديثه وسنته ـ أن نَسْتَهِم ونقترع ، إذا توزّع اختيارنا على شيئين أو أكثر ، ولم نستطع أن نميز خطأها من صوابها .. وخبثها من طيبها .. أو حتى فاضلها من أفضلها .. عندئذ نجرى « القرعة » بينها .. راجين أن يكون اختيار الله كامنا فيها ـ وكذلك علمنا صلاة الاستخارة أيضا .. هذه كانت فلسفة « الشموع السبع » التى يوقدها أهل الوليد الجديد ، وَاسِمين كل شمعة منها باسم .. حيث يكون الاسم الذى تحمله آخر الشموع بقاء هو الاسم الذى حددته عملية الاقتراع ، ومن ثم هو الاسم الذى يخلع على الوليد فى اليوم السابع من ميلاده ـ اليوم الذى تجرى فيه هذه المراسم المبتهجة والمُبهجة ... !!

وبداهة ، لم أعرف من قبل ، ولن أعرف أبدا الأسماء التى خلعت فى تلك الأمسية على الشموع السبعة التى وضعها حظها فى منافسة ، لا أدرى إلى أى مدى كانت عادلة ومتكافئة ... !!

فهناك احتمال أن يكون بعضها هزيلا ، أو قصير القامة .. ومن ثم تنطفىء ذُبالته ، وينتهى « عمره الافتراضى » قبل البعض الآخر .. !!!

على أية حال ، فقد فازت فى السباق الشمعة التى تحمل الحروف التى ستشكل اسمى بعد لحظات من رحيلها ، وتسليمى الأمانة التى نِيطت بها ، واؤتمنت عليها ..

وينتقل الاسم « خالد » من شمعة ترحل عن الحياة إلى إنسان جديد قادم إلى الحياة .. !!!

وإذن ، فاسمى من تلك اللحظة المُعطية ، وحتى اللحظة المُفنية ، عندما تميل شمس الحياة للغروب ، هو « خالد محمد خالد » .. ولعل الشيخ « محمد خالد » رحمه الله تعالى كان قلبه بكل نبضه الواجف والحريص مع الشمعة التى تحمل الاسم « خالد » .. !!

ذلك أنه كان يطمح إلى أن يجىء الوليد المدثَّر فى مهده امتدادا لجده « الشيخ خالد » الذى كان واحدا من علماء الإسلام ، وعلما من أعلام الهدى والخير والصلاح فى أنحاء القرى القريبة والبعيدة من قريتنا ـ « العدوة .. مركز ههيا .. مديرية الشرقية .. » .

* * *

كانت مدينة « الزقازيق » عاصمة الاقليم ، بعد أن انتزعت هذه المكانة من مدينة « بلبيس » فى عصر « محمد على باشا » ..

وكان السفر إلى الزقازيق متعة وأمنية كالسفر إلى القاهرة ، بل ويكاد يكون كالسفر إلى أوربا بالنسبة للكثرة الكاثرة من الفقراء .. وذلك خلال العشرينيات والثلاثينيات .. !!

وكان أبى ـ رحمه الله تعالى ـ يحبونى بكثير من حنانه وعطفه ، ويختصنى بفيض من حبه .. ربما لأنه توسَّم فىَّ ما لم يتوسمه فى بقية إخوتى .. وربما لأن المقادير اختارتنى لحمل اسم والده العالم العظيم ..

ومن مظاهر عطفه وحبه ، اصطحابى معه فى أسفاره إلى الزقازيق ..

وكانت هذه الأسفار نافذة أُطِلّ منها على بوَاكير الحياة ، وتُطل علىَّ منها تلك البواكير .. ذلك أن أبى ـ رحمه الله ـ لم يكن يقضى الرحلة صامتا ، بل متحدثا إلىَّ فى كل شىء وعن كل شىء .. فإذا مررنا عبر الطريق الذى تهتز أرضه خضرة من حقول وأشجار ـ بشجرة منتشرة الفروع . قال لى : هذه شجرة « الجميز » .. وبشجرة أخرى تتدلَّى فروعها المزدانة بورق مزركش ، أشبه ما يكون بحلى المرأة الذى نسميه « الكردان » ، قال لى : وهذه شجرة الصفصاف .. ثم يشرح لى الفارق بين الشجرتين ..

وهكذا مع كل الأشجار والزروع والثمار ، ثم ينهى حديثه بهزة دهش وعجب يختلج بها رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يقول : سبحانه .. قادر على كل شىء .. وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها .. تَعِسَ من كَفر بالله ... !!

نعم ـ تعس من كفر بالله .. !! هذه هى العبارة التى كان يرددها عشرات المرات كل يوم حين يرى ، أو يسمع ، أو يدير خواطره حول أىٍّ من آيات الله العلى العظيم ومن مظاهر قدرته وحكمته ، ومَجالى عطائه ونعمته .. !!

* * *

كانت وسيلة المواصلات أيامئذ بين القرية والزقازيق « الركوبة » حمار مطهم تغطى ظهره « بردعة » ويتدلى من جانبها « ركاب » تستقر فيهما قدما الراكب .. وينعكس عليها ـ نعمة وبهاء ، أو تقشفا وشظفا ـ حظ صاحبها من النعماء أو البؤس .. !! .. كما تشى بالحس الجمالى لصاحب « الركوبة » ..

وأشهد أن أبى ـ رحمه الله ـ كان حَفِياً بكل ما هو حسن ، ورائق ، وشيق ، وجميل .. وكان يتمثل دائما الحديث الشريف القائل :

« إن الله يحب أن يَرَى أثر نعمته على عبده »

ولعل أول مرة سمعت فيها هذا الحديث ، كانت من أبى ، وإبّان طفولتى الباكِرة ..

والآن ـ تعالوا معنا ـ فنحن اليوم مسافرون إلى الزقازيق .. حيث تشاهدون معى أول صراع واجهته حياتى فى ناشئة العمر بين « الأمة » و « السلطة » .. بين « الحرية » و « الاستبداد » .. فى مبتكر طفولتى !! وانه لمشهد ـ كما ستعلمون عظيم ـ مشهد لا أشك فى أنه كان المفجِّر الأول والمبكر لما نسميه « الطاقة الثورية » أو كان « المؤسس الأول لهذه الطاقة أو العامل الأول فى تكريسها لقضية العدل والحرية .. !! »

أما ، وقد كانت « الزقازيق » مسرح الحدث الكبير الذى ستشاهدونه الآن ، فدعُونى ـ أولا ـ أقدم لكم فى إيجاز هذه المدينة الأثيرة ، تعريفا بها ، ووفاء لها ..

* * *

على « بحر مويس » الذى يخترق مدينة الزقازيق ، كان يوجد سد قديم يختزن المياه الهادرة حيث يستعان بها على رى قسم كبير من قرى الشرقية .. وحين أراد والى مصر « محمد على باشا » التوسع فى زراعة الأرض ، كان لابد من التوسع فى وسائل الرى والصرف ، فأصدر أمره بالبحث عن أفضل مكان لبناء قناطر عليه فوق بحر مويس ، واتفق رأى مهندسى الرى على أن تشاد قناطر الزقازيق فى نفس المكان الذى كان يحتله السد القديم فوق بحر « مويس » .. ووضعت التصميمات اللازمة لإنشاء ست قناطر ، أكبرها القنطرة التى تعرف بقناطر التسعة لأنها تنتظم تسع عيون وتقع على بحر مويس مباشرة ، بينما تقع القناطر الخمس الأخرى على أفواه خمس ترع تأخذ مياهها من أمام القناطر التسعة .. وكان ذلك عام ـ ١٢٤٢ ـ هجرية ، كما يحدثنا السيد « محمد رمزى » فى كتابه القيم : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » .. كما يحدثنا كذلك عن سبب تسميتها بالزقازيق ، فيرفض القول بأن هذا الاسم يرجع إلى نوع من السمك ، يعرف بالزقزوق وجمعه « الزقازيق » كان الصيادون يصطادونه من قناطرها .. ويرى أنها حملت هذا الاسم وأضفاه عليها أسرة السيد « أحمد زقزوق الكبير » والذى

سميت أسرته « الزقازيق » منسوبة إلى السيد « زقزوق » . . وكانت عائلة : الزقازيق » قد استوطنت هذا المكان ، وأنشأت « كفر الزقازيق » قبل مجيء « محمد على » إلى مصر . . وأثناء بناء القناطر توافَد عليها العمال ، والتجار ، والباعة ، واستوطنوها بعد الفراغ من بنائها . . وحين ذهب « محمد على » لافتتاح القناطر قدم المشرفون على بنائها الشيخ إبراهيم زقزوق ، الذى خلف أباه « أحمد » فى زعامة الأسرة ، مثنين على جهوده الصادقة ومشاركته المخلصة فى إنجاز المشروع الضخم الكبير ، فحياه « محمد على » بحرارة ، وشكره على حسن بلائه ثم قرر أن تكون « الزقازيق » عاصمة لإقليم الشرقية ، تكريما لآل « زقزوق » . . وفى عام ـ ١٨٣٣ ـ ميلادية ، تم رسميا نقل ديوان المديرية وجميع المصالح الأميرية من « بلبيس » التى كانت عاصمة الإقليم إلى الزقازيق التى هى اليوم عاصمة محافظة الشرقية . .

* * *

هذه هى الزقازيق ، عاصمة البلاد والقرى والنجوع ، التى أنجبت لمصر ثُلَّة من شوامخ القادة ، والمفكرين ، والعلماء فى كل مجالات الحياة ـ الدينية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والعلمية . .

وهى « الزقازيق » التى شهدتُ فيها ـ كما ذكرت من قبل ـ أول معركة أُتيح لى رؤيتها بين الحرية وأعدائها . . وبين الأمة والمتسلطين عليها . . . !!!!

فهل تصحبوننى الآن إلى هناك ، لنسمع ونرى . . ؟ !!

كنت يومئذ فى التاسعة من عمرى . . ودعانى أبى ـ رحمه الله تعالى ـ لأكون فى صحبته فى السفر إلى الزقازيق . . وغمرتنى فرحتان ، بل ثلاث . .

الأولى : أننى لن أذهب اليوم إلى « الكتّاب » وهذا يعنى أننى سأكون فى اجازة من عصا « سيدنا » الشيخ محمد عبدالمعبود رحمه الله تعالى . . وكم لعصاه من ذكريات . . !!

الثانية : أننى سأرى المدينة ببهجتها ، وبضوضائها ، وبرهبتها التى كان يحسها طفل صغير ، مثلما كان يحس بصداقة حميمة تنشأ بينه وبينها . . !!

الثالثة : الحديث الشيق والممتع الذى كان أبى يبثّه بَثًّا رقيقا وأنيقا ، وكأنه يتحدث إلى صديق . . حتى استعلاء الأبوة لم أكن فى تلك الرحلات معه أشعر بشىء منه ـ وإن كان هذا التعاطف يختفى مفسحا مكانه « مؤقتا ـ لصرامة متجهمة حين كان يجدنى غير مهتم بواجبات « الكتّاب » و « المدرسة الإلزامية » وحين يمتحننى فيما حفظت من القرآن الكريم ، فيتلجلج لسانى . . ويضيق صدره فينفس عن ضيقه ببضع صفعات يتلقاها وجهى فى أسىً حزين . . !!

وصلنا الزقازيق . . وأودعنا « الركوبة » فى « وكالة الركايب » التى يودع المسافرون فيها حميرهم ، وركائبهم ، نظير خمسة مليمات . . والمليم عملة منقرضة . . كنت قادرا باثنين منه على شراء قطعة كبيرة من الجبن ، أو قدر غير قليل من الزيتون الأسود ، أو من العسل والطحينة ، أو ملعقتين من السمن البلدى الخالص . . !!!

ثم توجهت مع أبى إلى « الشيخ محمد اليمانى » الترزى البلدى الشهير . . وكان أبى يُؤثره على غيره لتفصيل وحياكة ثيابه « الكشمير » . . كما كانت تربطهما صداقة حميمة وثقة متبادلة . . وكان الشيخ اليمانى ضالعا فى السياسة ، يتحدث فيها وعنها ، كأنه من كبار السياسيين والدبلوماسيين . . وكان « وفديا » عريقا . . وإنى لأكاد أراه الآن وأسمع حديثه الشهى والذكى ، والمعطر بإخلاص عميق ووثيق لقضيته السياسية المتمثلة فى مناصرة الحرية والدستور وسيادة الأمة التى لم يكن لها أيامئذ ممثل سوى الوفد « حزب الأغلبية ، ورائد الوطنية . . !!

ولم يكد « الشيخ محمد اليمانى » يرانا حتى هتف فى وجه أبى : « إيه اللى جابك النهارده يا شيخ أبو خالد . . البلد مقلوبة . . والمظاهرات فى كل الشوارع . . وضرب النار شغال » . . !!!
وسأله أبى : « ليه . . جرى إيه ؟؟ » . . قال الشيخ اليمانى : محمد محمود رئيس الحكومة جاى يزور الزقازيق النهارده . . والناس هنا واللى جايين زاحفين من البلاد الأخرى مصممين على أن يُحوّلوا حفل استقباله إلى مذبحة . . ؟ !! . .

لم يكن أبى وفديا ، ولا كان ذا هَويّة حزبية أو سياسية . . بيد أنه كان كالأكثرين من شعب مصر - شديد التعاطف مع حزب الوفد الذى أنشأه « سعد زغلول » وخلفه عليه « مصطفى النحاس » . . وما أدراك ما سعد ، وما النحاس . . كان مجرد اسميهما كنداء النجدة ، وبَسمة العافية ، ونشيد النصر والمقاومة . . !!!

وقال أبى : ـ عال ، عال . . نقوم نتفرج !!
وصاح به الشيخ اليمانى : ـ « يا عم خليك قاعد . . تتفرج على إيه ؟؟ على ضرب النار ؟؟
وأجابه أبى : ـ « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . . !! . .
وكانت هذه الآية الكريمة على لسان أبى دائما كلما واجهته مشكلة ، أو تهدّده خطر ، وكانت سلاحه أيضا . . !!

قال الشيخ اليمانى : « إذا كنت لابد ذاهبا ، فدع خالدا هنا . . »
وتعلق الطفل المتوثب بيد والده ، وقال :

— وحياة النبى يابا تاخدنى معاك .. » ثم التفت ناحية الشيخ اليمانى . وقال :

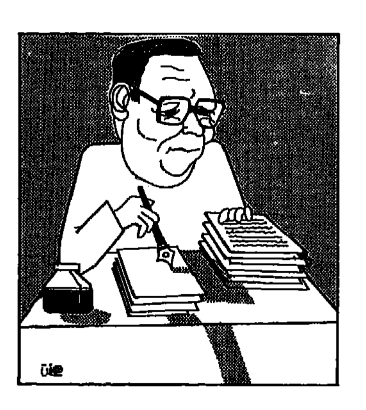
— أنا يا عم الشيخ محمد باسبق كل الأولاد فى الجرى ..

وأدرك الشيخ اليمانى ووالدى ما أعنيه فأطلقا ضحكات محبورة وعالية .. !!

وغادرنا الشيخ اليمانى على موعد بالعودة إليه .. وسرت بجوار أبى أكاد ألاصقه ، وكأنى ألوذ به وأطلب حمايته .. فقد كانت أنفاسى تتردد فى مزيج من الشوق لأن أرى .. والخوف مما سأرى .. !!

وهكذا الحياة كلها ـ شوق ـ وخوف .. ورجاء ويأس .. ومباراة لا تنتهى إلا بالموت ـ بين الإنسان ومصيره ... !!

* * *





اليوم الكبير .. والمثير !!!

رحنا - والدى وأنا - نقطع الأرض وثبا إلى الشوارع الرئيسية التى سيجتازها موكب رئيس الوزراء « محمد محمود باشا » . . وكانت جميع المنافذ الموصلة إلى معابر الموكب مُوصَدة فى وجه السائرين . . وأخذنا نلف وندور حتى وصلنا « ميدان المنتزه » فى قلب المدينة ، فإذا به ثُكنة متحركة ومرابطة حول الميدان !!

كانت معابر الموكب شبه خالية من الناس ، إذ كانت لجنة الوفد بالزقازيق قد دعت المواطنين إلى التعبير عن رفض هذه الزيارة بمقاطعتها . . لكن على العكس من ذلك الفراغ الشاحب كان ميدان المنتزه مكتظا بزحام عارم ، وسكون صامت ، حتى إنك لتكاد تسمع صوت الدم السارى فى الأوردة والعروق . . !!

ويبدو أنه كان هناك خطة أخرى لإفساد الزيارة وفى هذا الميدان الفسيح الذى يتيح لعملية الكَر والفرّ أسباب الفوز والنجاح . . !!

حاولت مع أبى أن نجد مكانا فى الصفوف المشرفة على مسيرة الموكب ، فكان الواقفون جميعا يدفعوننا بالمناكِب حتى بَصُرَ بِنَا ضابط شاب يبدو كما لو كان حديث التخرج . . وكأنما حركته الهيبة التى كانت تشع من شخصية والدى ، فاقترب منا ، ثم أشار لاثنين أن يتباعدا ليكون لنا بينهما مكان ، وهكذا انتصرنا على تلك الخرسانة البشرية ، والسد المنيع . . !!

بدأت طلائع الموكب من عربات الأمن ، والحرس المدجَّجين بالسلاح يعبرون الميدان إيذانا بقرب الرئيس . . واستهوانى منظر الأعلام الخفاقة فى جو السماء والمثبتة فى ذُرَى أعمدة طويلة غائرة فى جوف الأرض . . وركزت عليها بصرى ، ورحت فى براءة الأطفال أحصى مرات انثناءاتها وانفراجها ، وأحيى النسمات التى تُوارِفُها بابتسامة ودُوْد . . !!

وفجأة ، لعلعت أصوات صفارات وأبواق . . وأرسل الناس أبصارهم إلى هناك حيث بدأت سيارة الرئيس تتهادى ، بادئة فى الميدان أولى خطاها . . !!

وأحسست بامتنان كبير لحظوظى السعيدة التى ستجمعنى برئيس الحكومة وجها لوجه . . وفركت كفىَّ فى نشوة ، وكأننى أقوم بتسخينهما استعدادا للتصفيق الحار الذى سنحيى به الرئيس . .

ولكن . . ونعوذ بالله من لكن فى مثل هذا المقام ، قدر عياذنا به من الحظوظ حين تلهو بنا وتسخر . . فما كادت عربة الرئيس تظهر حتى تماوجَت الخرسانة البشرية وتواثبت وكأنها جدار يريد أن ينقَضَّ . . وخرج من الصفوف فى مثل لمح البصر عشرات من الواقفين ، كأنهم اختيروا بالفرازة - طول ، وعرض ، ووثاقة ، وجسارة ، وفى مثل لمح البصر كذلك ، انقضّوا على أعمدة الأعلام والزينة يطرحونها أرضا ، وعلى صور الرئيس يَدُوسونها . . وحين بلغت السيارة وسط الميدان كان طريقها مسدودا بأنقاض الأعمدة الساقطة .

وبرزت مفاجأة ثانية - فالذين كانوا صفوفا مرصوصة لا يسمحون لغريب أن يدخل بينهم كانوا يتحركون وفق خطة الرفض البارعة التى وضعتها لجنة الوفد بمدينة الزقازيق . . فما كادت الأعمدة المتساقطة تقطع الطريق على سيارة رئيس الحكومة حتى انهالوا عليها فى فوضى مخيفة ، صارخين بهتافات مجلجلة : يحيا الوفد . . يحيا الوفد . . يسقط محمد محمود . . تسقط اليد الحديدية . . !!

وجاءت المفاجأة الثالثة : فمن أقصى الميدان انشقت الأرض بغتة عن مظاهرة عارمة تزلزل الأرض بغضبها وإصرارها وهُتافها : النحاس زعيم الأمة . . الحق فوق القوة . . الأمة فوق الحكومة . . الوفد فوق القصر . . !!

يا الله !! يومئذ لم أكن أفهم مما أسمع وأرى شيئا . . ولكن كانت ذرة فى كيانى تختلج وتهتز مع إيقاع المشهد الرهيب الذى أراه . . !

واختفت سيارة الرئيس فى زحام الغضب والناس . . ونظرت إلى أبى قائلا : « ما تحوش يابا . . دول حايموتوا الراجل » . . !!

وضحك أبى فى هذه اللحظات العصيبة ، وربت على كتفى وهو يقول : « ما اتخافش . . مش حايموت . . عمر الشقى بَقِى » . . !!!

ولما كان جزاء سيئة سيئة مثلها ، ولما كان ما حدث سوءا بكل مقاييس السوء والتخريب عند رجال الأمن ، فقد دوت فجأة فرقعات الرصاص ، ورَاعَنى أن ألمح فُوَّهَات البنادق مُصوَّبة إلى أعلى ، وسمعتْنى أقول لأبى : - هم سايبين الراجل يموت ، وبيصطادوا عصافير يابا . . ؟؟ ! وضحك أبى مرة أخرى ، وأمسك كفى بحرارة . ولا أدرى حتى الآن : أكان ذلك إعجابا منه بذكائى ، أم تعجبا من سذاجتى . . !!

ولم تلبث الضحكة على شفتيه طويلا ، فقد اقتحم الميدان حشد من الفُرسان . . وسمعتُ من ينادى : « كُلُّه يضرب فى المليان » . . وسرعان ما غيرت فوهات البنادق اتجاهها ، وأدارت مافثات نارها إلى الحشود المتظاهرة ، وقفز حملة الهراوات فوق رءوس الناس وهات يا ضرب . . ورأيت

ضحايا تسقط ـ قتلى أو جرحى ـ وأخذ الناس يهربون من الجحيم . . ولم يكن هناك بد من أن أكون وأبى أول الفارين . . . !! وعندما ابتعدنا عن أرض المعركة ، ورأينا أنفسنا فوق « أرض محايدة » وقفنا نلتقط أنفاسنا ، ونلقى نظرة من بعيد على ميدان المنتزه الذى دارت فيه المعركة ، فإذا به خال من البشر ، ومن الأعمدة المتساقطة التى أوصدت الطريق أمام سيارة رئيس الوزراء . . ولم أر السيارة ، إذ يبدو أنها استأنفت مسيرتها بعد سحق المتظاهرين الرافضين . . ولم يكن هناك سوى بضع عربات لورى كبيرة من عربات الشرطة ، قد غصت بكثيرين من الذين ألقى القبض عليهم وأخذهم رجال الأمن أسرى مهزومين . . !! ولكنْ شُجعانا صامدين . . !!!

* * *

قلت لكم : إننى لم أكن أعى مما أرى شيئا ، ولا أملك له تفسيرا . . وأنَّى لِصبى فى التاسعة من عمره أن يكون كذلك ؟؟

كان سمعى وبصرى يتلقيان وحدهما وقع الأحداث دون أن يكون هناك مدد من العقل يعيننى على تفسيرها وتقديرها . .

وما كنت أرى إلا شبابا فَوّارا بالحماس . . وأعمدة الأعلام تطرح أرضا . . وصور رئيس الحكومة تنتزع من الجدران وتمزق إربا . . وصرخات وهُتافات . . ثم دوى الرصاص . . وانقضاض الهراوات . . وراكبو الخيل يدوسون الذين أعثرهم الزحام فسقطوا على الأرض . . لكن لماذا يحدث هذا كله . . ؟؟ لم أكن أدرى . . وسأظل بضع سنوات صامتا حتى أبلغ السن التى عندها أستطيع أن أدرى . . !!

فلنقف إذن عند الميقات الزمانى الذى تلقيت فيه هذا المشهد المثير ، مُدْلِفين إلى ما قبله من سنوات ، وملاقين ما بعده من أعوام حتى نبلغ دائرة الضوء التى تكشف لنا سر اليوم الرهيب الذى سيكون فيه ميلاد « قضيتى » فى هذه الحياة ، حيث يجب علىّ أن أختار بين الذين اتخذوا الحرية طَهورا ، وتزكية ، وقِبلة ، وصلاة . . والآخرين الذين اتخذوها ضِراراً ، ونفاقا ، وتفريقا ، وإرصادا لمَن يحاربونها ويبغون عليها . . !

* * *

قلت إننى يومئذ كنت فى التاسعة من عمرى ، أو قريبا من تخومها . .

ولعلى كنت لا أزال مع أترابى الذين ينتظمهم « كتاب القرية » حيث نعكف على حفظ القرآن الكريم . . ولعلى أيضا وإياهم ، كنا تلاميذ فى مدرسة القرية الإلزامية . . أو لعلنا كنا نغدو ونروح بين المدرسة والكتّاب بطريقة لا تسعفنى بها الذاكرة الآن . .

وسترون فى حياتى كثيرا من المواقف أو التحويلات التى قد تكون ضربا من موافقات الحظ . . أو ومضة مِن حكمة الأقدار . . !!
وأحسب أن منها ما سأحكيه لكم الآن . .

كان أخى الأكبر السيد/ حسين محمد خالد « رحمه الله تعالى » يقيم فى القاهرة فى « حضن » وظيفة عادية ، كان قد وفرها له جده لأمه الشيخ « غباغبى » عن طريق أحمد مريديه » إبراهيم فهمى كريم باشا ، وزير الأشغال فى تلك الأيام . . وأحيانا المواصلات . .
ولم يكن أخى « حسين » يزور القرية إلا فى الأجازات والمناسبات . . وفى إحدى أجازات الأعياد جاء . . ثم فى أحد مجالسنا التى تضم أفراد العائلة سألنى أمام أبى : إلى أين وصلت فى حفظك القرآن . . فأجبته : بلغت سورة يس . .

وكنت فى تلك السنوات أكثر ما أكون ضيقا بهذا النوع من الأسئلة التى كانت تنتهى دائما بقول السائل : « طيب قوم هات المصحف » حيث تجرى عملية امتحان ، لا تُحدد درجة الرسوب فيه بالأرقام . . ولكن بالأقلام . . تصفع الوجه ، وبالعصا تفجر الآلام . . !!
وطبعا كان أكثر السائلين هذا السؤال ، أبى . . الذى أساكنه ويرانى فى كل زمان ومكان . . !!
فلما سألنى هذا السؤال المنذر بالسوء أخى « الحاج حسين » ثم تلاه بالعبارة الرَّادِفَة والمُرجفة : « طيب قوم هات المصحف » . . أدركت أن يومه هذا « أسود » و « عصيت » . . !!! وقمت أتماوَح وأترنّح ، مُيمما وجهى شَطْر الحجرة التى كنت أنام فيها وأضع داخل دولابها الصغير الغائص فى جدارها مصحفى ، وكراستى ، ولوحى ، وقلمى « البوص » . . . !!

كانت بيوت الريف أيامئذ ، تتكون من طابقين . . فى كل دور عدد من الحجرات وفق ما تسمح به مساحة الأرض المقام عليها البيت . .
فأما الدور الأول ، وكانت حجراته تسمى « القاعات » ومفردها « قاعة » فكان فى كل قاعة « فرن ريفى » يستخدم فى تدفئتها أيام الشتاء . . والفرن بناء من الطين ، له فم ، وجوف . . وكانوا يسمون الفم عين الفرن ، وجوفه « عرصة الفرن » . . ومن الفم يدخل الوقود الذى لم يكن بطبيعة الحال فحما ، ولا كيروسين ، بل كان من أعواد الذرة الجافة ، ومن أعواد القطن الجافة أيضا ، ويسمونها « الهندى » . . والفرن كله غائر ومنبسط تحت أرض الحجرة التى ترتفع عن سطح الأرض قليلا . .

وهكذا كانت هذه القاعات مَشْتَى الناس فى الموسم القارص ، وكانت تتأجج دفئا وحرارة . . ولو أن الأمور تسير دائما وفق قوانين وضوابط لكان من المحتوم أن يقضى سكان هذه البيوت فصل الشتاء كله فى بلاء مستمر من الزكام وأمراض البرد . . !!

فالفلاح ، وبخاصة فى تلك الأيام كان يحرص على صلاة الفجر . ومن أخطأ الفجر لم تخطئه بواكير الصباح قبل أن تبدأ الشمس رحلتها . . أى أنه اعتاد اليقظة المبكرة . . وتصوروا إنسانا ينفض عنه غطاءه ، ويغادر قاعته التى تضج بالدفء ، ويواجه من فوره زمهرير الشتاء ولفح الهواء ، آخذا طريقه إلى المسجد سَرِيا . . ينتقل من النقيض إلى النقيض ، فاعلا ذلك كل يوم عبر شهور ثلاثة أو أكثر ينتظمها موسم الشتاء . . ؟!!

* * *

ذهبت متلكئا إلى حجرتى فى الدور الأول من المنزل ، وأسرعت إلى مصحفى الذى طلب أخى الأكبر إحضاره ليمتحننى فيما حفظت ودثرته بـ « فوطة » نظيفة تكريما له ، ثم أخفيته فى جوف فرن القاعة . !! وهو مكان لا يكاد يخطر ببال مخلوق أن يُخبأ فيه مصحف ، أو كتاب !! ولكن الأمر كما يقولون : « شقاوة أطفال » . . !!

وعدت إلى « مجلس العائلة » أحمل كراستى ، وقلمى البوص ، ولوحى ، قائلا : لقد نسيت المصحف فى الكتّاب . . وفى لحظة اكتشفت : كم أنا ساذج ومتسرع وعبيط . . ففى حجرة أبى مصحف كبير ، يقرأ فيه بين الحين والحين . . هناك أعطانى مفتاح دولابه ، لأحضر منه مصحفه . . !!

ورجعت إليهم مكروب النفس ، متوجس الخاطر ، فاقد الارتياح لهذا السيد « حسين » أخى الأكبر . . واستسلمت لقدَرى ، وسارت عملية الامتحان من سيىء إلى أسوأ . . ومن صعب إلى أصعب . . وعينى تختلس النظر إلى أبى من تحت جَفن نصف مُغلق ، محاولا أن أتَّقِى أية صفعة مفاجئة من يده الكريمة التى تعودت تقبيلها فى السراء ، والضراء . . !!

ولا شىء أعذب ولا أطيب من نجدة الله حين تُهل فى أوانها . . !! وهكذا ، وبينما أنا خائف أترقب ، إذا أخى « السيد » يُقبل كنداء النجدة حاملا « صينية » الطعام بيمناه والكرسى الذى توضع فوقه بيسراه . . ومن ورائه من إخوتى من يحملون الأطباق المترعة بما يفتح الشهيات وأخذت مكانها فوق الصينية يتوسطها طبق فاخر وكبير من الثريد . . !!

كان أخى « حسين » يحب الأكل ويتذوق أطايبه . . وحين يراه ، يخف إليه فى لقيا حبيب لحبيب . . . !!

وهكذا لم يكد يبصر طلائع المائدة ، حتى طوى المصحف الكريم وناولنى إياه ، مخلفا فى نفسى الإحساس بأنه نسى ما كنا فيه . . !!!

ومر اليوم بسلام . . . !!

قلت لكم : إنكم ستلتقون فى حياتى كثيرا بلعبة الحظ ، وبحكمة القدر . .
وما قصصته عليكم الآن واحد من تلك المواقف التى يقال فيها وعنها : « رُب ضارة نافعة » . . فبعد فراغنا من تناول طعامنا ـ استعرض أبى وأخى تلك الفأفأة التى كانت تغطى سوء حفظى ، واتفقا معا على أن يأخذنى الأخ معه إلى القاهرة ويُشرف بنفسه على تحفيظى كتاب الله العظيم . . !!
وأذكر أننى فرحت يومها بهذا القرار الحكيم ، بيْد أنه كان فرحا مَشُوبًا بالحذَر والخوف . . فأنا أعرف من قسوة الأخ « حسين » أكثر مما يعرفه أفراد الأسرة كلها . . وأرى البسطة التى أعطاه الله إياها فى راحتى يديه وكفيهما . . ولقد رأيته مرة وهو يستخدم كفه اليمنى السمينة والغليظة فى توجيه « الضربة القاضية » . . . !!
لكنها فرصة ـ على أية حال ـ لمباشرة الحياة فى المدينة . . وأية مدينة ؟؟ انها مصر ـ أم الدنيا . . وليكن ما يكون !!!
ولقد طالما كنت أسمع أبى يردد قول الشاعر :

مـا بـيـن طَـرفـة عـيـن وانـتـبـاهـتـهـا
يُـغـيـر الله مـن حـال إلـى حـال

كما يردد أيضا ذلك المثل الشعبى القائل : ·

« مِن عَمود لعمود ، يأتى الله بالفرَج » !!!

ولهذا المثل قصة موحية وموعزة وساخرة لا أدرى أيهما أمثل ؟؟ أن أحكيها لكم الآن ؟؟ أم أرجئها إلى مناسبة أخرى آتية ؟؟ فلنتوكل على الله ، ولنسمع نبأها . .

كان حكم العثمانيين لمصر وما حولها من البلاد العربية قد تحول فى سنواته الأخيرة والمريضة إلى كابوس . . الظلم لحمته . . والفوضى سُداه . .
وكان شعبنا المصرى الذكى يناوىء هذا الحكم ويحاربه بالنكتة اللاذعة والمحرضة والرافضة . . !! فعن طريقة الولاة فى أحكامهم وقضائهم ، يروى الشعب هذه الطرفة الواخزة ، فيقول :
عُرضت على الوالى قضية لا يستحق جانيها عقوبة الإعدام ، ولكن الوالى وهو القاضى فى نفس الوقت كان ينضح قسوة وظلما ، فحكم على المتهم بالإعدام . .
إلى هنا ، والنكتة اللاذعة والهازئة لم تقُل بعد . . فيستكمل الشعب النبأ قائلا : ضرب الوالى المنصة بقبضة يده ، وصاح : حكمنا على المتهم بالإعدام . . والآن نناقش الشهود . . ؟ !! طبعا ـ لا تعليق . . . !!

وعن ضيق الأمل وضآلة الرجاء يروى الشعب هذه الطرفة :

حُكم على رجل ذات مرة بالإعدام شريطة أن يتم الإعدام فى نفس المسجد الذى اقترف فيه جريمته التى ما كانت سوى جمع نفر من الناس حوله ، وتحريضهم ضد ظلم الولاة . . وربط الرجل بحبل شُدَّ إلى « العمود » الذى كان يجلس عنده شدا وثيقا . . ولما كان من طباع الطغاة اتخاذ الرحمة هُزُوا ولَعِبا . . فقد اقترب من الرجل نائب الوالى يسأله : أتشتهى شيئا من طعام أو من شراب فنأتيك به قبل إعدامك ؟؟ . .

أجاب الرجل : نعم أشتهى شيئا واحدا . .

سأله : وما هو ؟؟

قال : أن أُعدم عند ذلك العمود فى آخر المسجد . . !!

قال التركى : ويحك !! ولماذا ذلك العمود ؟؟

أجاب الرجل : من عمود ، لعمود ، يأتى الله بالفرج . . !!!

ليس هناك تصوير لغياب الأمل أبلغ من هذا التصوير ، فالناس الذين يعبر عنهم هذا الفُلْكلُور الذكى ، لم يعد لهم فى الخلاص رجاء . . إنما الرجاء فى أرجاء الكارثة بضع دقائق أو ثوان . . ؟ !

ويَظَلُّ هذا المثل الشعبى لا يرجو حياة تأتيه من باب وسيع . . إنما هو « سم الخياط » « ثقب إبرة » يغدو خلاله الأمل ويروح ، فتكون رغبته الأخيرة إعدامه عند عمود آخر يفصله عن عموده الموثق إليه بضع خطوات . . عسى الله خلال هذه الثوانى أن يقبض روح الوالى الذى حكم بإعدامه ، ويخلفه وال جديد يخفف الحكم أو يلغيه . . . !!! . . ولنعد لما كنا فيه قبل هذا الاستطراد . .

* * *

قلت : إننى رغم كل مخَاوفى ـ فرحت بقرار الوالد والأخ ، رحمهما الله رحمة واسعة . . وبعد ثلاثة أيام ستنتهى أجازة العيد ، وسيكون علينا أن نركب القطار إلى أم الدنيا « القاهرة » . . وأيامئذ ، لم يكن معى من المعرفة ، ولا من التجربة ، ولا من الذكاء ، ما يمنحنى القدرة على فهم مسار حواسنا ومشاعرنا ـ لا سيما حين يفاجأ الإنسان بموقف تتوزُّعه تناقُضات شتى . . كمثل موقفى هذا . . !!

فَرَحٌ بالسفر ، وخوفٌ من السفر . . !!

أملٌ فى أخى الأكبر ، وفزعٌ من قسوته . . !!

الرحلة إلى عالم جديد فى العاصمة ، والوحشة من مغادرة عالمى الرتيب فى القرية . . !!

وتحولت أحاسيسى إلى مضطرب وجيشان . .

●● مَن هناك سيعوضنى عن حنان أبى وأمى ؟؟

●● مَن هناك سيؤنس وحشتى فى البلد الغريب ؟؟

●● مَن هناك سيكون بديلا لأترابى الصغار ألعب معهم « الكرة » نهارا . . و « الاستُغمّاية » ليلا . . ونرعَى النجوم معا فى ضوء القمر . . ؟

●● مَن سيقص علىّ من « الحواديت » ما يقصه علينا عمى « محمود أبو عبدالرحمن » على مصطبته العريضة والفسيحة أمام دكانه الممعن فى التواضع والفاقة ؟؟

●● مَن سيكون بديلا لأخى « السيد » الذى كان يشرف على زراعة أرضنا ، فيأخذنى معه إلى الحقول الخضراء . . ويغازل أمامى سنابل القمح ، وأكواز الذرة ، ويركع فوق النبت الطالع الحديث عهد بربه . . ويقبله بفم مُبتهج وشَكور . . ؟؟

●● مَن سيركب « النورج » الذى يحصد سنابل القمح المحتشدة فى مهرجان الحصاد . . ؟؟

●● ومَن سيكتب الآيات القرآنية على « العُرمة » ذلك الهرم من حبات القمح ، بعد تنقيتها من « التبن » الذى يدخر علفا للسوائم . . ؟؟

●● ومَن سيشهد أفراح القرية ، ويلعب فيها مع الولدان ؟؟

●● ومَن سيشهد مآتمها التى كانت سُرادقات العزاء فيها مبعث فرح وغبطة للأطفال !! لا سيما حين تكون عائلة الفقيد من الميسورين ، فيختارون من القُرّاء أنداهُم صوتا ، وأوسعهم شهرة . . ويتحول المأتم إلى مهرجان !!! .

●● ومَن سينعم بمذاق « المفروكة » التى كانت طعام الإفطار صبيحة يوم السبت من كل أسبوع فى معظم بيوت القرية وعائلاتها متوسطة الحال . . ؟؟

مَن . . ومَن . . ومَن . . ؟؟

تلك الأسئلة الهاجسة ، والهواجس المتسائلة ، حاصَرتْ « خالدا » فى الساعات المتبقية على شد رحاله إلى القاهرة . .

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عَـوْدٌ .. علـى بَـدْء ..

نحن الآن على وشك السفر إلى القاهرة . . أخى « حسين » وأنا . .

وفى الوقت الوجيز الذى سيفصل بيننا وبين موعد السفر المرتقب أرى أن نعود إلى تأمل الأحداث التى أسلفناها . حتى نكون قادرين على أن نحمل معنا إلى العاصمة تجربة القرية . .

قصصتُ عليكم بعض أحداث يوم المعركة الضارية فى مدينة الزقازيق بين « الأمة » و « السُّلطة » حين زارها « محمد محمود باشا » رئيس الوزراء يومئذ ، ورئيس حزب الأحرار الدستوريين ـ رحمه الله رحمة واسعة . .

قلت : إنها كانت أول مرة فى حياتى أرى فيها هذا الصدام العنيف . .

ولم أكن أدرى يومها ما الأمة ، وما السلطة . . ما الوفد وما خصومه . . أما السياسة فحتى اسمها لم يكن ضمن مفرداتى من الكلمات !! لكن تأثير ذلك اليوم كان عميقا . ورغم أن إدراكى الوجدانى لأحداثه انحصر فى أن الناس والحكومة فى حرب . . فإن كل صيحة ، وكل طلقة ، وكل هراوة هوت على ظهر إنسان ، وكل دُفقة دم سالت من جبهةٍ جريحة ، وكل ارتطامة بالأرض أحدثها سقوط جثة طريحة ـ كل ذلك صنع فى ذاكرتى ومشاعرى أخَادِيدَ غائرة واستقر فيها . . !!

ولأن المشهد كان الأول من نوعه فى حياتى ، فقد ظل يطالعنى ويلح علىّ حتى لا أنساه . . من أجل ذلك كنت حريصا على أن أعرف خلفيته فى أول فرصة مواتية . . ولقد افترَصْتُ وعرفت . . أما الفرصة التى افترصتها وانتهزتها فلها حديث قادم إن شاء الله تعالى . . وأما ما عرفته عن يوم الزقازيق الرهيب ، فإليكموه . .

* * *

مات سعد زغلول يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ ، ومصر تحكمها وزارة ائتلافية برئاسة « عبدالخالق ثروت باشا » . . ويوم ٢٣ سبتمبر ، انتخب « مصطفى النحاس باشا » رئيسا لحزب الوفد ، وبالتالى زعيما للأمة . . وأجرى ثروت مفاوضات سرية مع « تشمبرلن » وزير الخارجية البريطانية . . وبعد الاتفاق بشأنها عرضها « ثروت » على مجلس الوزراء المصرى فرفضها . . ونقمت بريطانيا ، وهددت

بسياسة « العصا الغليظة » تجاه مصر . . وكان اللورد « لويد » المندوب السامى البريطانى أداة تحريض على استخدام الوعيد والتهديد والقوة . . وأبرق إلى حكومته بموقف « النحاس » زعيم الأغلبية ، فقال :

— إن زعيم الأغلبية أخبرنى بأنه من العبث البحث فيما يعود على مصر من فوائد ، مادامت المعاهدة المقترحة لا تنص على جلاء الجنود البريطانيين عن مصر جلاء تاما . . !!

ورد عليه « تشمبرلن » وزير الخارجية بقوله :

— إن النحاس باشا يبدو أنه لا يختلف عن « سعد زغلول باشا » . . وموقفه هذا سيجعل الوصول إلى تسوية مستحيلا . . !! وأرجو إخبار « ثروت باشا » أنه فى حالة رفض المعاهدة ستتخذ الحكومة البريطانية موقف الرفض لبعض الشئون التشريعية المنظورة الآن أمام البرلمان المصرى . . وتجاهَ سلوك الطلبة غير المرغوب فيه ، ستستخدم بريطانيا حقها فى حماية الأجانب . . « . . . . » !!!

ورفع ثروت استقالته إلى « الملك فؤاد » فقبلها ، وكلف « النحاس باشا » زعيم الأغلبية بتشكيل وزارة ائتلافية جديدة . . وبدأت الوزارة برفض مذكرة الاحتجاج التى كانت قد أرسلتها بريطانيا إلى « ثروت » ردا على رفض مجلس وزرائه مشروع المعاهدة . . ولقى القرار الوفدى تأييدا عميقا وشاملا . . وردت بريطانيا على هذا الموقف بإنذار إلى مصر بسحب مشروع قانون الاجتماعات من البرلمان ، والحيلولة دون جعله قانونا ، محتجة بأنه يعرض سلامة الأجانب للخطر . . ولم ينس المندوب السامى أن يُنهى تهديد حكومته بالعبارة المنافقة الشهيرة : « وإنى أنتهز هذه الفرصة ، لأجدد لدولتكم عظيم احتراماتى » . . ؟ !!

ولم يكن أمام « النحاس باشا » إلا أحد طريقين : إما أن يرفض الإنذار متحديا « بريطانيا » فتتهور وتقدم على عمل خطير . . وهذا ليس من الحكمة ، لا سيما والحكومة لا تزال فى أيامها الأولى ، والقوى السياسية التى تضمر لها السوء وتتمنى لها الفشل ـ وعلى رأسها « الملك » واقفة بالمرصاد . . !! وإما أن تَهِنَ وتخضع ، وهو ـ لو حدث ـ يحرمها من الرصيد الذى لها فى ضمير الأمة ، وولاء الشعب . . كما أنه تفريط فى كرامة الحكم وشرف الاستقلال . . !!

هنالك ، اختار « النحاس باشا » طريقا وسطا ، فأرسل مذكرة إلى المندوب السامى بدأها بإنكاره على بريطانيا أى حق فى تدخلها غير المشروع . . وختمها بقوله :

— إن الحكومة المصرية ، قد طلبت من مجلس الشيوخ ـ أمس ـ فى حدود حقها الدستورى أن يؤجل مناقشة القانون إلى دور الانعقاد القادم ، وقد أجابها المجلس إلى ذلك . .

ورحب الساسة الوطنيون بهذا التصرف الذكى الذى أنهى أزمة مفتعلة كان يراد بها الانقضاض على وزارة الأغلبية ورئيسها الصلب « مصطفى النحاس » . . !!

* * *

لكن أعداءه وأعداء الوفد كانوا قد أعدوا « نُعوشا » كثيرة لكل الوزارات التى يشكلها الوفد حزب الأغلبية . . !! وسحبوا النعش الأول من مَجْثِمِه . . فاتفقت دار المندوب السامى والسراى ، وحزب الأحرار الدستوريين على تعطيل دستور ١٩٢٣ ـ عقابا للشعب على رفضه مشروع معاهدة « ثروت . تشمبرلن » وقطعا للطريق أمام الوفد حتى تُسلب منه فرض تشكيل وزارات وفدية مقبلة . . !!

يقول مؤرخنا الكبير « عبدالرحمن الرافعى » رحمه الله الذى ننقل عنه تفاصيل هذه المؤامرة :

كانت وزارة « النحاس » قائمة ومؤيدة بثقة البرلمان ، ولا يصح فى هذه الحالة إقصاؤها عن الحكم . . فكان الأمر يقتضى البدء باستقالة الوزراء الدستوريين ، الواحد بعد الآخر . . وبذلك يتصدع بناؤها الائتلافى . . فتتخذ السراى من هذا التصدع سببا لإقالة الوزارة والتخلص منها بعيدا عن البرلمان . . !!

وبدأ تنفيذ المؤامرة يوم ١٧ يونية ١٩٢٨ ، باستقالة محمد محمود باشا ، وكان وزيرا للمالية . . وبعده بيومين اثنين ، استقال جعفر ولى باشا ، وكان وزيرا للحربية . .

واستقال إبراهيم فهمى كريم باشا ـ وكان وزيرا للأشغال . . واستقال أحمد محمد خشبة باشا ـ وكان وزيرا للحقانية . . كما كان حتى ذلك اليوم وفديا . . أسرع إلى تغيير جلده حين علم أن الصراع سيبدأ بين الوفد والقصر ، وانضم إلى حزب الأحرار الدستوريين . . !!

ولم يكتف المحاربون مشيئة الأمة بهذا ، بل توجوا مؤامرتهم بتلفيق اتهام كاذب يجرحون به ذمة زعيم الأمة . . عرفت أيامها بـ « قضية الأمير سيف الدين » . .

وفى يوم ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، بلغت حركة التطويق نهايتها ، وتلقى « النحاس باشا » من الملك فؤاد هذا الخطاب :

« عزيزى مصطفى النحاس باشا . . لما كان الائتلاف الذى قامت عليه الوزارة قد أصيب بصدع شديد ، فقد رأينا إقالة دولتكم ، شاكرين لكم ولحضرات زملائكم ما أديتم من عمل فى خدمة البلاد » . . . !!!

وهكذا بدأ الملك ، والأقلية ، ودار المندوب السامى أول خرق للقانون ، وعدوان وقح على الدستور . . . !!

لقد شكل النحاس باشا زعيم الأغلبية وزارته الأولى الائتلافية يوم ١٧ مارس ١٩٢٨ . . ثم أقيل فى ٢٥ يونية من العام نفسه . . أى أنه لبث فى الحكم ثلاثة أشهر وبضعة أيام . . !! . . وبعد إقالته بيومين اثنين . . كان « محمد محمود باشا » ووزراؤه يقسمون يمين الولاء أمام فرعون مصر « أحمد فؤاد » . .

كانت الوزارة اللقيطة مؤلفة من حزب الأحرار الدستوريين والاتحاديين . . فكم كان عدد أعضاء الحزبين فى البرلمان . . كان لهم خمسة وثلاثون عضوا ـ من مائتين وأربعة عشر عضوا . . أى أن أقلية تعد على أصابع القدمين سرقت حق الأغلبية الممثلة فى مائة وتسعة وسبعين عضوا . . !! لذلك لم يكن أمام « محمد محمود » سوى حل البرلمان أو تأجيل انعقاده فاختار التأجيل شهرا . . وقبيل انتهاء الشهر ، استصدر أمرا ملكيا بحل مجلسى النواب والشيوخ ، وتأجيل الانتخابات ثلاثة أعوام . . ثم قام

بتعطيل الدستور . . وحين كان يُسأل متى يعود ؟؟ كان جوابه : « أنا وحدى أقرر متى يعود الدستور » ؟؟ !!

وقاد « النحاس » الوفد ، الأمة فى صراع مستبسل ضد المؤامرة والمتآمرين ، وأنزلوا الجيش ليضربوا به الشعب . . وأذاعت دار المندوب السامى البريطانى بيانا باركت فيه هذا الانقلاب الوخيم . . وتألق جلال التضحية والكفاح والمقاومة فى مشاهد تبهر الألباب ، سيرويها لكم صاحبنا حين يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، ويبدأ وعيه السياسى المبكر فى رصد الأحداث . . !!

* * *

بعد أن استقر وضع وزارة الأقلية فى الحكم فكر رئيسها « محمد محمود باشا » فى أن يقوم بجولة فى بعض عواصم مصر ليتدثّر بشعبية مصطنعة تدفىء عزلته المقرورة ، ويُرى الانجليز والقصرأنه يستطيع أن يسحب البساط من تحت أقدام الأغلبية وحزبها وزعيمها . . !!

وكانت مدينة الزقازيق من أولويات المدائن التى شملتها زياراته . .

ثم كان الاستقبال الرافض والرهيب الذى شهده طفلنا ، واستقر فى عقله الباطن مشهده الدامى . . ثم انضاف إليه فيما بعد أسبابه وتفسيره ، فتأسست أول قاعدة من قواعد حياته :

« الحرية هى الحياة . . فإما الحرية وإما الموت » . . !!

« وحقوق الشعب من حقوق الله . . والدفاع عنها جهاد فى سبيل الله . . !!

« والاستبداد تدمير لروح الإنسان . . وتقويضه أعظم تبعات الإنسان » . . !!

* * *

وفى الساعة القليلة ، التى سنشدّ رحالنا بعدها إلى القاهرة دَعُونى أقم بزيارة سريعة لـ « كتّاب القرية » ولفقيهه الشيخ « محمد عبدالمعبود » حتى تتم الصورة التى أشرت إليها من قبل فى إيماءة خاطفة . .

ففى هذا « الكتّاب » وعلى يد الشيخ « محمد عبدالمعبود » رحمه الله رحمة واسعة تعلمت « أبجديات » كل شىء . . كما تعلمها معظم المثقفين فى قريتنا . . !!

أبجديات الحروف والكلمات . . وأبجديات الخط والإملاء . . وأبجديات الحساب . . وقبل ذلك كله ، وفوق كله . . بدأت حفظ القرآن العظيم . . !!

كانت أدواتنا فى تعلم هذا جميعه ، ولا سيما القرآن . . قلم البوص . . ودواية الحبر . . ولوحا كبيرا من الصفيح . . !!! نملأ اللوح بالآيات التى يطلب منا « سيدنا » نقلها من المصحف . . فإذا تم ذلك أمرنا أن نستقبل الحائط حتى لا يشغلنا شىء مّا عن حفظ ما كتبناه . . والشيخ « محمد عبدالمعبود » هناك فى مركز قيادته يراقبنا بنظرات لا تفلت منها خائنة الأعين . . فإذا مالت عين أحدنا نحو زميله ومعها ابتسامة للتسلية والتسرية تلقى ظهره ضربة عصا أليمة تخبره أن العبث هنا ممنوع . . !!

كان سيدنا يتمتع ببسطة فى الجسم ووثاقة فى التركيب .. وكان ضربه موجعا ، وأحيانا فاجعا .. ومن عجب ، أنه كان يضرب ، وهو يرسل النكت الهازئة بالمضروب ، ويضحك فى جذَل وسعادة .. !!

●● كان معنا طفل سمين رَضْرَاض ، وحين جاء دوره فى تلقى « بركات » سيدنا ، سأله وعصاه تتهيأ للنزال : قول لى أضرب مين فيكم .. ؟؟ مشيرا إلى سمنته وتفاقمه التى جعلت منه أكثر من واحد .. !

●● وكان معنا فى الكتّاب زميلتان : جالت عصاه على قدمى إحداهن بعد أن جَنْدلَ ساقَيْها فى « الفلَكَة » - والفلَكة عصا غليظة مثبت فى كلا طرفيها حبل متين ، يلف حول أدنى الساقين ، ثم تبرم العصا والحبل معها حتى يضيقا ويضيقا ويصبح القدمان رهن محبسهما .. ثم يمسك أحدنا بطرف العصا ذات الوثاق ويمسك آخر بطرفها الثانى ، ويستوى القدمان كالمائدة الشهية للعصا الجائعة التى لا تكاد تشبع أبدا .. وعندما أُعِدَّ المسرح تماما ظهرت العصا المؤدبة تصول وتجول وندّت عن البنت صرخات مكتومة ، ما فتئت حتى تحولت إلى عويل كصوت المرأة حين تكون فى جنازة .. !! وأقبل بعض الجيران من رجال ونساء ، فإذا « سيدنا » يقول لهم والضحكات تزدحم فى فمه : لا شىء .. لقد أخذتها سِنَةٌ من النوم ، فرأت فى المنام أنى أضربها .. !!! .

●● وذات يوم سرق ولد قلم البوص من زميله .. وكان أبوه معروفا بأن « إيده طويلة » .. فأدناه سيّدنا منه ولوى عنقه تحت ذراعه اليسرى ، وراح ينعش ظهره ويزخرفه بلطع وبقع من عصاه الهاوية والكاوية ، وهو يقول : « مَن أنباكَ أن أباكَ ذِيبُ ؟؟ .. أى ذئب !!

كان رحمه الله خفيف الروح ، مخلصا فى عمله ، دءوبا فيه .. ولعله كان يرى استخدام القسوة من أحدث نظريات التربية والتعليم - على الأقل فى قريتنا السعيدة .. ؟ ! ولعلكم تنتظرون أن أتحدث عن حظى مع « سيّدنا وعصاه » .. ؟؟ وإنه لحظ لو تعلمون عظيم !

* * *

كان « سيّدنا » يعمل ألف حساب لوالدى ، رحمهما الله ، ومن ثم كان يعاملنى برفق كثير .. ولكن الرفق عنده مهما يكن سخيفا ، فغير مسموح له أن يعطل وظيفة العصا بحال .. !! إلى أن جاء يوم .... .

* * *

الداخل إلى بيتنا الفسيح يجد إلى يساره غرفة كبيرة - هى غرفة الضيوف والزوار من أصدقاء أبى الذين كانوا لا ينقطعون ليلا ولا نهارا ..

وكنت حين عودتى من الكتّاب كل يوم ، أسترِقُ السمع من نافذتى الحجرة المطلتين على الشارع ، فإن كان بها ضيوف ، دخلت الدار من بابها الكبير ، مارا فى طريقى بالغرفة المضيافة عادئا ، آمنا ، مطمئنا .. فأبى مشغول بزواره ، ومن ثم لن يقع ما أحاذر وأخشى .. !! أما إذا ألفيته وحده يقرأ فى كتاب الله ، أو يطالع جريدة ، أو يشرب القهوة والشيشة ، فإنى أختار مدخلا آخر .. هناك ، حيث باب

الحظيرة ، التى يسمونها « الزريبة » فأُذْلِفَ منها فى هدوء .. !!

ترى ، ماذا كنت أخشى إذا كان أبى فى حجرة الضيوف وحده ؟

كان حين يرانى راجعا من الكتّاب ، ينادينى ، وتدور أسئلة وأجوبة تنتهى بأن يجرى امتحانا فيما حفظت ، فمرة تصيب ، ومرة تخيب ... !!

فى ذلك اليوم الذى أحدثكم عنه ، كان أبى وحده .. ليس ذلك فحسب .. بل كان يقرأ فى المصحف بصوته الجهير .. ما شاء الله !! إن الفرصة مهيأة تماما ، أو كما يقول أولاد البلد « احلَوّت قوى » !!!

حملتنى خُطاى إلى باب « الزريبة » فوجدته مغلقا من الداخل - على غيرِ العادة - .. منك لله يا أخى سيد !! هل سيسرق الناس ما شيتك فى عز الضهر .. ومن بيت « أبو خالد » الذى يُهاب ويُخشى .. ؟؟

رجعت إلى الباب الكبير ، واجتزته مُتواثِب الخُطى كالمقتحم .. !! لكن عَينَى الصقر لمحتنى . ونُوديت - تعال يا خالد - ودخل خالد ، وبدأ الاختبار .. !!

تلعثم لسانى .. واكتشفت فجأة أن ذاكرتى منحت نفسها أجازة دون أن تخطرنى ، واستقبل وجهى الأسيف والنحيف بضع صفعات .. وأمرنى أبى أن أعود إلى الكتّاب وأدعو سيّدنا لمقابلته .. !! وتم كل شيء فى دقائق ..

قال أبى لسيّدنا : - إيه ده يا شيخ محمد ؟؟

— خيرا ، جرى إيه ؟؟

— جرى إن الولد مش قادر يقرأ ثلاث آيات مع بعض ..

قال سيّدنا ، وعيناه تَرمُقاننى : ليه يا خالد ؟؟

قال أبى : مين اللى نسأله ليه ، هوه ولا انت ؟؟

يا شيخ محمد : أنا نصحتك كتير ، انك ما تاكلش كتير .. !! وتأخذ بالك م العيال .. !!

— والله يا عم الشيخ أبو خالد ، أنا كَاينْ إيدى عن خالد علشان خاطرك .. تسمح لى أضربه وأعامله مثل بقية الأولاد ؟؟

وصاح أبى : هوه انت حتى الآن ما بتضربوش ؟؟ « يا سيدنا - اكسر .. وأنا أجبر » .. يعنى ياخذنى إلى المجبراتى ، ليصلح ما ستفسد العصا الغليظة .. !!

وهكذا تم إلغاء « معاهدة الصداقة » التى كانت قائمة بينى وبين العصا والفلَكة .. وجاء إلغاؤها من طرف واحد .. !!

* * *

وراح سيّدنا يطبق مبدأ « المساواة » بالنسبة لوضعى الجديد بين الزملاء ، ولكن بطريقة « الخطوة خطوة » :

« وكل يوم لنا مِن خيركم زادُ » !!

وجاء يوم الملْحَمة . . !!

كان عليّ أن أحفظ سورة « الجن » وأسمعها اليوم على « سيّدنا » . . كان بيت سيّدنا الملاصق تماما للكتّاب ، يقوم بخبز العجين وإنضاجه ، ليكون زاد الأسرة على مدى أسبوعين تقريبا كعادة أهل الريف جميعا . . وجاءت أم « سيّدنا » رحمها الله تعالى ، حاملة إليه قعبا كبيرا مملوءا بالملوخية ، ونصف دستة من الخبز الطازج الخارج توا من فرن الخبيز . . وتفتحت شهيته ، فأتى على كل ما أمامه ، ثم شرب نصف قلة الماء البارد . . ثم أطلق « تكريعة » طويلة منتشية وسعيدة . . !!

ثم . . ثم . . ثم تفرّغ لى !! وأخذ مكانى أمامه ، وقال : سمّع يا عم خالد . .

لكن « العم خالدا » رأى فى عينيه شيئا غريبا ، فازداد نسيانا فوق نسيان . . وسحب سيّدنا العصا من تحت فخذه اليمنى وقال وهو يضحك : بسم الله الرحمن الرحيم ـ فَصلِّ لربك وانْحَرْ . . !!!

وعَرْبدت عصاه فوق الجسد الضامر للطفل الغرير . . والزملاء بعضهم حزين ، وبعضهم شامت . . ولكن لماذا يشتمون وقد كنت لهم كالعافية ؟؟ إنها طبائع البشر ، فى الكبار والصغار . . !!

وحتى اليوم ، وأنا أشرف فى السبعين من عمرى ، لا أزال أجد فى نفسى شيئا من سورة « الجن » . . ولقد حفظت القرآن كله حفظ الواثقين . . إلا سورة « الجن » وآياتها الكريمة فرغم حفظى لها ، كنت أتهيب أن يسألنى فيها سائل ، أو يمتحننى فيها ممتحن . . !!

وهكذا وعيت فى طفولتى الباكرة خطر الاستبداد على الحرية . . وخطر القسوة على التعليم والتربية . . مما سأزيده إن شاء الله تِبيانا وتوضيحا حين نستضيف إلى مائدة البحث بقية التجربة مع أخى « حسين » الذى سيزرى بجهود « سيّدنا » فى « دغدغة » العظام ورضّ الأجسام !! وسيزيدنى إيمانا حين يشتد وعيى بأن استخدام القسوة فى التعليم أثناء مرحلة الطفولة ، ليست رذيلة فحسب ، ولا مفسدة فحسب . . بل جريمة وعدوانا بغير حق على مستقبل حياة الأطفال . . !!

إنها تدمر فيهم مزايا وخصائص كثيرة وكبيرة . . وتردم ينابيع مواهبهم المتفتحة ، وتنشئهم على الجبن والنقمة والاستهتار ، والخذلان . . !!

وبعد ، وقد دقت الساعة مؤذنة بحلول موعدنا مع القطار . . فسلام لكم ، ووداع إلى حين . . ومن القاهرة سأوافيكم بأنبائى خطوة خطوة و « علقة علقة » . . وستكونون معى فى السراء والضراء !!! .

* * *

الأضــواء الصــــادحــة والمشاعر النائحة !!!

ركبنا القطار قاصدين « أم الدنيا » . . وكان علينا لكى نصل محطة القيام أن نقطع سبعة كيلو مترات ، هى المسافة بين قريتنا والزقازيق . . وطوال هذه المسافة ، وأنا أقاوم حزنا قاتما ، وتشاؤما قلقا . . لقد أنشبتْ كل ذرة من القرية ذكرياتها معى وذكرياتى معها فى مشاعرى المتوترة ـ أنا الذى لم أفارقها إلا من عشرات الدقائق لا غير . . !! ومضيت أنشد النسيان أو الصبر فى كل ما حولى من حياة ـ الناس ، والحقول ، والأشجار ، والسواقى ، والطوابير . . وفجأة وأنا أتلفت ذات اليمين حيث قضبان السكك الحديدية التى تربط الزقازيق بالمراكز ، جذبنى مشهد كنت أراه لأول مرة . .

عربة صغيرة تتسع لفرد واحد ، تجرى فوق قضيبين . . وقد ركب فيها « واحد أفندى » يحمل بإحدى يديه مظلة « شمسية » يوارى بها رأسه ووجهه وصدره من الشمس الحامية . . ويدفع العربة من الخلف رجلان ضخمان ، يقطعان الأرض عَدْوًا ووثْبا . . وبين الحين والحين يرفع أحدهما ذراعه إلى وجهه ليجفف عرقه المتصبب بأحد أكمامه . . . !!

سألت أخى « سيد » رحمه الله ، وكان يصحبنا إلى الزقازيق عن هذا المنظر الذى بدا لى غريبا ومضحكا . . !!

فقال لى : هذا مفتش يمر على القضبان ليرى ما يعتَرِيها من خلل ، وليتأكد من سلامتها .

سألته : ولازم الآدميين هم اللى يسوقوا العربة ، ويِجْروا ويتعبوا ، وهو « مجعوص » كده زى عمدة بلدنا ؟؟

وأجابنى أخى رحمه الله بحكمة لم أنساها : هى الدنيا كده يا عم خالد . . ناس فوق ، وناس تحت . . ناس ينجِعْصُوا ، وناس يِنْفِعْصُوا . . !!

أجل : هى الدنيا كده . . والذى نراه الآن « مجعوصا » سيكون فى مكان آخر ، ومع رؤسائه الأعلَيْن « مفعوصا » . . ولله فى خلقه شئون !!!

ركبنا القطار « القشاش » ولقد حمل هذا الوصف لأنه كان يقف فى محطات كثيرة « يقش » فيها الطريق ، أو « يقش » الناس من الطريق . . وهو كثير الإملال ، قليل الإبهاج ، مَوَّار بالزحام ، مزعج بالأصوات المنكرة من الركاب والباعة . .

وإنى لأذكر الآن كيف ضاق طفلنا بكل هذا ـ على الرغم من أنه كان بحاجة إلى الضوضاء ليدفن فيها وساوس الصمت ، وهواجس الغد ، وشجن الذكريات . . !!!

أريد أن أقول : إننا فى طفولتنا وصبانا لا نواجه التجربة ، إنما نواجه مُفرداتها . . ومن ثَمَّ فنحن لا نعيها إلا فى مرحلة أخرى تالية من العمر . . عندما تَتَضامُّ هذه المفردات وتتجمع فى ظاهرة متكاملة . .

من أجل ذلك فإن للمفردات أهميتها القصوى . . واستدعاؤها من الماضى بداية محتومة لاكتشاف التجربة والانتفاع بها فى اكتساب خير ، أو فى تجنب ضُر . .

وهذا ما يجعلنى أضع فى أُولويات هذه الصفحات تلك المفردات التى قد نحسبها تافهة أو عابرة ، بينما منها تتشكل تجاربنا الكبيرة ، ونتلقى عظة الماضى وحكمة الأيام . .

أقول هذه الكلمات ذات البعد العميق فى حياتنا لنقرأ فى ضوئها ما قَصصنا ، ولنزاملها ونحن على أبواب مرحلة جديدة فى حياة طفلنا العزيز . .

ها هو ذا القطار يهدىء من سرعته ، ويرسل صفيره العالى ، وركابه يتحركون نحو أمتعتهم ليحملوها استعدادا للنزول . . وكذلك فعلت أنا ، وأخى . .

نزلنا الهُوَينا . . واقترب منها « حمَّال » يحمل ما أُذِنَ له أخى أن يحمله ـ قُفتان كبيرتان وسَبَتا كبيرا . . أما هو فحمل حقيبة كبيرة ، وحملت أنا « سبتا » صغيرا . .

تلقانى بَهْو كبير وساحة وسيعة ، لم أر مثلها من قبل . . وأين أراه ؟؟ السقف مزخرف بلمبات الكهرباء الكِثار . . ينبعث منها ضوء ليس فاقعا ولا صارخا . . ولكنه هادىء ووديع . . وما كان هذا المنظر ليمر دون أن تعانقه نظراتى الدهشة . . وهكذا كَلِفَتْ به عيناى ، تاركا قدمىّ تقطعان الطريق دون هاد يهديها من نظر ، أو بصر وفجأة رأيتنى أتعثر فى جذر حديدى ناتىء من الأرض ، فأندلِق عليها وبجانبى السبت الذى أحمله . . كان أخى يسبقنى بخطوات ، ولعله كان يحرس متاعنا مع الحمَّال !! وحين أرسل نظره إلى وراء ليطمئن علىّ وجدنى أنتزع نفسى من الأرض انتزاعا ، والناس من حولى ، يحاولون جمع « البيض » السليم المتبقى بعد أن تهشم أكثره ، وسال على الأرض دمه « . . . !!! »

بيض ؟؟؟ إذن فالذى كان هنا بيض ؟؟؟ وأنا الذى تسببت فى ضياعه ، وحرمان أخى « حسين » منه . . ولما كان « الشيخ حسين » أسرع فى غضبه وانفعاله من نبض الدم فى العروق ، فإنه لم يضيع وقته . . فصفعنى على وجهى صفعة مُهينة ، وهو يقول : انت ماشى أعمى يا ابن الصرمة !!!

وهذه العبارة ـ يا ابن الصرمة ـ كانت الشتمة المفضلة والأثيرة عند أخى حسين ، وفى رأيى أنها لا تنم عن سوء خُلق أبدا . . فلعلها من بقايا الطفولة ، حين كان الأطفال يتشاتمون . . أو لعله استعرض قاموس الشتائم فاختار منها ما رآه أخفها وأهونها . . ؟!!

وحانت منى نظرة أسيفة إلى البيض المسكوب ، كأنى أودعه ، وأودع معه فرحة أخى التى لم تتم ، وشوقه الضائع الذى سأدفع ثمنه بعد حين . . !!

* * *

ها نحن أولاء نغادر بهو المحطة ، ونستقبل ميدانها الفسيح المتراحب المضاء بكهرباء كثيرة وكثيفة . . وها هو ذا ـ الترام ، والأتوبيس ، والعربات الملاكى ، والتاكسى ، والحنطور والكارو . . كل أولئك والناس معهم فى سباق لاهث ، وهرولة مجنونة . . !!

إننى أصف ما لابد أن أكون رأيته فى ذلك المساء . . أما ما رأيته فعلا ، ووعيته وأبهجنى منظره ، فلم يكن هناك !! صحيح أنه كان فى دائرة النظر ، لا فى مجال البصر ـ من باب قوله تعالى : ﴿ وتراهم ينظرون إليك ، وهم لا يُبصرون ﴾ !! . . وصحيح أن بهجته انعكست على العين ، لكنها لم تنعكس على الشعور . . فالأضواء الصادحة ، كانت تغنى لغيرى ، وللمشاعر النائحة ، كانت نصيبى وحظى من ذلك المهرجان . . !! لقد كانت الدنيا ضبابا فى ناظرى وخاطرى . . كنت جيَّاش الحنين إلى مهدى وقريتى . . إلى أمى وأبى وإخوتى . . إلى أترابى وَلِدَاتى . . وملاعب صبانا . . كان هذا كله دنياى . . فكيف أُنتزع من دنياى بهذه السهولة ، ويحال بينى وبينها ، وأعامل قبل الأوان معاملة الرجال . . ؟ !

إن الشيخ حسين أخى وأنا أعرفه ، وأعرف من طباعه أنه لن يعاملنى كطفل فى التاسعة أو العاشرة من عمرى . . بل سيحملنى فوق كاهله ، ثم يقفز بى قفزة واسعةمغايرة . . أو « يشوطنى » كما تشاط الكرة إلى المرمى البعيد . . !!!

ولأنكم تروننى الآن أسبق اسمه بكلمة « الشيخ » فلأنه رغم وظيفته بمصلحة المساحة وارتدائه لباس الأفندية ـ الزى الأفرنجى ـ فقد كان لصلاحه وتقواه ، ثم للحيته التى أعفاهافيما بعد ينادى ويعرف بـ « الشيخ حسين » . .

* * *

استقبلتُ القاهرة واستقبلتنى بهذا الوجوم والانكماش والحزن . . وكانت ليلة مُوحِشة لا أنساها . . وكلما أخضعت للتحليل اليوم ، تهيبى الأسفار وحرمان نفسى من مباهج الكثير منها باعتذارى عنها ـ كما سأقص عليكم فيما بعد ـ لا أجد سببا أوضح ، ولا أعمق تأثيرا من تلك الليلة ، التى شهدت أول سفر فى حياتى ، وكان سفرا مزعجا وحزينا ومُنفِّرا . . !!

* * *

وقفنا خارج الميدان عند محطة الترام ، الذى سيوصلنا إلى ميدان العتبة الخضراء . . ومن العتبة الخضراء كان لابد من مواصلة خاصة لتوصلنا بمتاعنا حتى باب بيت « جدى لوالدتى » الشيخ « غباغبى » هناك فى « كفر الزغارى » خلف الشهيد الحسينى . . أشرنا إلى تاكسى فماكَسَ وساوَم ، مستغلا حاجتنا وأمتعتنا إلى مواصلة خاصة . . ثم أشرنا إلى « حنطور » فلم يك أدنى طمعا ، ولا أكثر قناعة من سابقه . . لم يكن بد مما ليس منه بد ، فلجأنا إلى عربة « كارو » . . وكان منظر أخى « حسين » فى سترته المتأنقة وطربوشه المتكىء على رأسه . . يبعث على الضحك !! ولعله كان يشعر

بقدر من الحرج والخجل . . ولكن إذا كان لليل القاهرة أنواره ، فله كذلك أستاره . . !! . . وأخيرا بلغنا غايتنا . . وأنزل سائق الكارو ، ويسمونه : « العربجى » متاعنا . . وأخرج أخى من جيبه مبلغا من المال ، وإذا الرجل بعد أن فحصه وأحصاه يقول : لسه بدرى . . !! . .

— بدرى على إيه . .

— على حقي . .

— انكسر حُقّك . . مش دا اللى اتفقنا عليه ؟؟

— من فضلك بلاش شتيمة . . انت قلت لى رايحين عند الأزهر . . مش كفر الزغارى . .

— وأخرج أخى مبلغا آخر ووضعه فى يد الرجل الذى عاد يقول : برضه لسه بدرى !

— (صاح أخى) : والله يا ابن الصرمة ما انت واخد ولا مليم . .

تَانِى . . يا عم الشيخ حسين ؟؟ !! هكذا حدثُت نفسى !! . . أخيرا ، انصرف الرجل ، وحملنا متاعنا إلى شقتنا فى آخر دور . . وطعمنا عشاءنا ، وصلينا مغربنا وعشاءنا ورحت فى نوم عميق ، لا أدرى كم لبثت فيه من الساعات ولكننى أحسست بيد تهزنى بقوة :

— ود يا خالد ، اصح عشان تصلى .

— أصلى إيه ، أنا صليت العشا . .

— فز قوم نصلى الفجر . . !!

— فجر ؟؟ أى فجر ؟؟ اننى منذ جئت هذه الدنيا ، وحتى اليوم الذى يوقظنى فيه لم أصل الفجر . . إنى أصلى الصبح ، أى الوقت الذى يسبق طلوع الشمس . . واستسلمت للنوم لكن ركلة قوية من قدمه « الهرقلية » أعاذها الله من شر حاسد إذا حسد رفعتنى عن الأرض شبرا فنهضت قائما ، أتحسس جسمى كله لأطمئن على أن كل عضو لا يزال فى مكانه !! ووثبت إلى دورة المياه فتوضأت مكرَها ، لأصلى بعد ذلك مُكرَها . . وكم تحركت مَغايظى حين علمت أن بيننا وبين الفجر ساعة إلا ربعا . . وأن الشيخ حسين تعود اليقظة كل يوم فى هذا الميقات ، ليصلى الفجر فى مسجد سيدنا « أبى عبد الله الحسين » عليه السلام . .

هل يحب طفل العبادة إذا أُكره عليها وسِيقَ إليها ؟؟ . . إن ربنا ـ جل جلاله ـ كثيرا ما يختم الآيات الداعية إلى الطاعة والتقوى بقوله : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ . . ومن لا يَرحم لا يُرحم . . فهل رحم « الشيخ » الطفل الضعيف الوهْنَان ، حين يكلفه من أمره عُسرا . . ؟؟ أعوذ بالله أن يكون حديثى عنه بهذه النغمة جحودا لفضله ، وإنكارا لجميله ، فلولاه لكان لى فى الحياة طريق أخرى يعلمها الله وحده . . إنما أريد أن أنقل بصدق وتبيان مفردات حياتى وتجربتى عسى أن تُفىء علينا من وضوح الرؤية ما قد يفيدنا ويهدينا سواء السبيل . .

أسرعنا الخُطى إلى مسجد الإمام الحسين رضى الله عنه ، فإذا المسجد يسبح فى موج من النور . . والوافدة إليه كثيرون . . كلٌ يمارس صلاته وتسبيحه ، وقد علم كل أناس مَنْسَكَهُم . . وبدأنا بصلاة ركعتين تحية المسجد ـ هكذا علمنى أخى ، وبعد الصلاة سرنا فى خشوع إلى ضريح سيدنا الحسين ،

وأوصانى « الشيخ حسين » قبل مدخلنا أن أصنع مثلما يصنع ، وأقول مثلما يقول :

وهكذا وقفنا أمام المكان الرامز إلى وجود الرأس الشريف فيه :

وراح يقول ، وأنا أردد معه :

« السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنّا إن شاء الله بكم لاَحِقون . أنتم لنا سلَف .. ونحن لكم خلَف .. نسأل الله لنا ولكم العافية .. اللهم اغفر لنا ولهم .. اللهم ارحمنا وارحمهم .. رحمةُ الله وبركاته عليكم أهلَ البيت : إنه حميد مجيد » ...

ثم خرجنا بظهورنا إلى المسجد ، آخذين مكاننا بين صفوف المصلين .. ورحت أرسل بصرى ذات اليمين وذات الشمال لأرى الناسكين فى دعواتهم ونُسكهم ، وإن لهم لَدويًا كدوىّ النحل ..

هذا يستغفر الله العظيم .. وذاك يصلى على النبى الكريم .. والثالث يُسبّح .. والرابع يُحَوْقِلُ مرددا « لا حول ولا قوة إلا بالله » .. وآخرون يحملون المصاحف بأيمانهم يتلون كتاب الله ..

كان كل شىء هناك يبعث الدفء ، وغبطة الروح ، والتهلل ، والأمل .. ولأول مرة منذ وطئت قدماى أرض القاهرة رأيت الوحشة تُزايلنى ، وسكينة النفس تهدىء من رُوعى ، ورضوان الله يُدثِّرنى .. !!

ترى هل سأستمتع بهذه السكينة والبهجة طويلا ، دون أن يسلبها منى منهج الشيخ « حسين » فى التعليم والتربية ، وحفظ القرآن .. ؟ !! .. لست أدرى .. بيد أننى اكتشفت فى هذه اللحظات المباركة المبهورة ، أنه حتى الأطفال يستطيعون أن يعتمدوا على الله ، وهم يُحسون معنى هذا الاعتماد ... !!

نُودِىَ للصلاة ، وتعالَتْ مع بدايته دعوات المصلين .. ثم نهضوا قائمين ليصلوا ركعتين سنة الفجر ، ثم أقيم للصلاة .. وبعد الفراغ منها ومن ختمها ، أخذنى أخى إلى حلقة وعظ على يمين المنبر .. وكان شيخ الحلقة وواعظها هو الشيخ « صبرة » رجل مسن ، ضامر الجسم ، تكسو وجهه سيماء الصالحين ..

لست أذكر الآن مما قال شيئا .. ولكن لعلى سأعِى عنه الكثير فى الأيام الآتية .. لم ينتظر أخى حتى يبلغ الدرس تمامه .. إذ كان عليه أن ينصرف مبكرا ، ليحضر لنا إفطارنا .. ثم يتهيأ لمغادرة المنزل إلى عمله بمصلحة المساحة .. وكان الإفطار شهيا ـ فهو طبق من الفول المدمس « بتاع زمان » !! مثل الزبدة فى نعومته وسلاسَتِه .. وطبق من البيض « الأملت » لم أرحب به كثيرا رغم حبى المتيم به ، إذ خشيت أن يستنفر فى أعصاب أخى النقمة علىّ من جديد من جراء البيض الكثير الذى أسلت على الأرض دمه !!! ثم طبق ثالث مترع بالحلوى الطحينية « بتاعة زمان » أيضا .. ثم خبز طازج مشرق الوجه .. كأنه قادم لتوه من الجنة . !!

ثم شربنا الشاى الذى له من اسمه أوْفَى نصيب !! ثم ارتدى الشيخ بدلته وطربوشه فى أناقة عاشق يتخذ الخطى إلى موعد حب شَغُوف . . !!

وحدد لى بعض قصار السور مما حفظته فى الكتّاب من قبل ، لأُتقن حفظها . . متوعدا إياى إن هو جاء ولم أكن قد جرى بها لسانى جريان الماء فى جدول ممهّد مُنساب !!

* * *

بقيت فى الشقة وحدى . . وعادت الوحشة تغشانى ، ومرارة الفراق تُراودنى . . ووسط هذه المشاعر المقبضة مضيت أحفظ فى صعوبة ومشقة . . وهطلت من عينى دموع غِزار . . وقررت أن أقطع الأرض وَثْبا إلى المكان الذى وجدت فيه سكينة نفسى بالأمس . . إلى مسجد الإمام الحسين . . بيد أنى تذكرت ما كنت ناسيه ، فأخى الشيخ أغلق علىّ باب الشقة وأخذ مفتاحها معه . . !! لا مفر إذن ، ولا مَلاذ سوى مصحفى أتلو آياته وأحفظ ما سأُمتحن فيه بعد حين !!

وفى تمام الثانية والنصف عاد أخى من عمله . . وسيكون هذا الميقات موعد أوبته كل يوم . . كان يحمل معه غداءنا ـ سمك مقلى ، وفجل ، وطرشى يفتح الشهيات ، وحلاوة طحينية . . وخبز لا تقع العين على مثله اليوم ، ولو صعد ثمن الرغيف إلى مائة قرش مكتملات ؟ !!

— هيه . . حفظت السُّوَر ؟؟

— الحمد لله !!

— طيب ناكل ، وبعدين نشوف . . !!

كانت أمعائى تُقَرْقِرْ من الجوع . . ومَعِدتى تكاد تطحن نفسها لِطُول ما عانت من الخَواء والفراغ . . فما الداعى لهذا النذير الذى « يسد النفس » بين يدى الطعام ؟؟ !

كنت أزدرد اللقيمات ، كأنها دواء مر المذاق . . فنحن لا نأكل بأفواهنا ، إنما نأكل بشهيتنا المفتوحة ، ورغبتنا المتطلعة ، وجوعنا المُشتاق . . !!

على أية حال ، فقد ابتلعنا غداءنا ، أو ابتلعته أنا . . وأوى أخى إلى النوم حتى تنتهى « قيلولة » النهار . . ثم أستيقظ ، فتوضأنا وصلينا العصر جماعة . . ثم . . ثم . . بدأ التسميع والامتحان . .

وكان فضل الله عظيما ، فقد أحسنت تلاوة ما حفظت ، وثَبَّت الله قلبى ولسانى . . ومضى اليوم الأول بسلام . . !!

وقبل أن نمضى مع الأيام المقبلة ـ ما رأيكم فى أن نقف وقفة من تلك الوقفات التى قال فيها الشاعر العربى :

لابـد لـلعـاشـق مـن وقـفـة
مـا بيـن سُلْوان ، وبَيـن غَـرام ؟؟

لقد اكتشفت أن الأطفال فى سن التاسعة يعشقون . . بل يبدأ عشقهم الأثير وحبهم الكبير . . ترى ـ ماذا يعشقون ويحبون ؟؟

إنهم يعشقون أنفسهم ، ويحبون ذواتهم .. وإن كانوا لا يدركون أن الذى معهم ، هو العشق والحب .. !!! إنهم ينفرون من الضرب ويرفضونه ، لأنه عدوان على ما يحبون ويعشقون .. !!

وإن شعورهم بالإهانة لَيكاد يساوى شعور الكبار ، فهم يتميَّزون منها غيظا لأنها انتقاص من قدر الذات التى أحبوها وعشقوها .. !!

وإنهم لَيحبون البهجة والفرح ، لأنهما ينميان مشاعر الرضا ، والألفة مع ذواتهم المحبوبة والمعشوقة .. !!

وإنهم لَيدافعون عن مقتنياتهم الخاصة من لعب وكراسات وأقلام وملابس وأشياء لأن عشقهم لأنفسهم شديد وتَشُوبُه الأنانية المفرِطة ، وهم لا يعرفونها أو يدركونها .. !!

ولكن ، لماذا هذا المُنحنَى فى الحديث ؟؟

سنعرف إن شاء الله بعد حين ..

* * *



سباق مع الزمن

في اليوم الثانى من قدومنا القاهرة ، عاد أخى « الشيخ حسين » ومعه لوح كبير للكتابة وعدد من الأقلام « البُوص » ودواة حبر أزرق داكن . . إيذاناً ببدء الرحلة الطويلة مع كتاب الله العظيم . .

أجل ـ كنت أحسبها طويلة مُسْتَأْنِية ، ولم أكن قد قرأت أفكار أخى ، لأعلم أنه سيخوض بى مغامرة جسورا حيث أكون والزمن فرسى رهان فى سباق غير متكافىء !! . . هذا الزمن المارد الغامض الجبار ، مطلوب منى أن أنازله وأسابقه ، بل وأفوز عليه فى هذه المغامرة غير المحسوبة !!

وماذا يعنى « الشيخ حسين » مما سألاقيه من عناء ؟؟ إن الذى يستهويه الآن أن يُرى أبانا والناس جميعا ، قدرته وبركته المُتَجَلِّيَتَيْن فى تحفيظ القرآن العظيم فى زمن قياسى لا عهد لأحد بمثله ، مصمما على أن أتم حفظه قبل موعد الالتحاق بالعام الدراسى الجديد بالمعهد الأزهرى الابتدائى . . ولما كان شرط الإلتحاق ، النجاح فى الامتحان الشفهى فى القرآن الكريم فلابد من تصميم « الشيخ حسين » رحمه الله رحمة واسعة على القفز فوق كل حواجز الزمن ، وقهر المستحيل ، وليكن بعدها ما يكون !!!

ووضع خطته على النحو الآتى :

بعد إفطار الصباح ، أنقل من المصحف إلى اللوح رُبْعًا ـ أى ربع الجزء الذى يتكون من ثمانية أرباع . . والربع يشغل من المصحف حوالى صفحتين ونصف الصفحة . . وهنا سيكون أخى قد غادر البيت إلى عمله ، فأعكف على حفظ اللوح . . حتى إذا أتقنت حفظه ، مسحت اللوح ثم سطرت عليه « رُبْعًا » آخر ، أُجيد حفظه . . فإذا عاد أخى من عمله ، وتناولنا غداءنا ، سَمَّع لى الرُّبْعَيْن . . ثم نأوى إلى الراحة خلال القَيْلولة . . وبعد قيامنا من مرقدنا نصلى العصر ثم أعكف على كتابة الربع الثالث ، وأستنجد بأقصى غاية الجهد لأحفظه ، وقبيل المغرب أتلوه على أخى . . ثم نولى وَجْهَيْنا شطر مسجد « الإمام الحسين » عليه السلام ، فنصلى المغرب والعشاء . . ثم نعود إلى البيت ، فأنقل إلى اللوح ربعاً جديداً من المصحف ، لكى أقوم بحفظه فى صباح اليوم القادم الذى يمضى وتمضى الأيام بعده على النَّمط ذاته الذى مضى عليه اليوم الأول . . !!!

أهذه « النَّمَطِيَّة » الضاغطة والمفروضة تصلح لطفل فى سِنِّه التاسعة ، أو فى منتصف الطريق بينها وبين العاشرة . . !!

ألا إن « الشيخ حسين » سينتصر أولا . . بيد أن الزمن سينتصر أخيرا ، ويضحك كثيرا . . ! فكما حفظتُ القرآن كله فى هذه السرعة الخارقة ، نَسِيته أو أُنْسِيتُه فى سرعة خارقة أخرى . . !!

إن الطبيعة الإنسانية ، بكل غرائزها ، ونزعاتها ، وارتباطاتها ، جبارة حين تَثَّار لنفسها ، أو لأى من رعاياها ومُواطنى مملكتها . . !! فإذا أُضِيفَت إليها طبيعة الزمن فليس لها من دون الله كاشفة . . !

وإنا لَنُطَالِع فى سيرة سيدنا « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه أنه حفظ سورة البقرة ـ أطول سور القرآن ـ فى بضعة أعوام . . لا لضعف ذاكرته ، أو تَثَاؤُب همته . . ولكن لأنه لم يكن يحفظ بالذاكرة وحدها . بل وبالقلب والعقل والضمير معها . . فلا يجاوز آية إلى حفظ أُخرى حتى يُجِيد فقهها ، وتصبح جزءاً من تفكيره وسلوكه ورؤيته . . !!!

ولم يكن يحفظ القرآن كله من أصحاب رسول الله ﷺ سوى نفر كريم وقليل لا يجاوز أصابع اليد عدداً . . !! وفيما تواصى المسلمون على حفظه فى جميع العصور والأجيال . .

* * *

قَضيتُ حوالى خمسة عشر يوما ، والحفظ مُيسَّر لى ، لا ينالُنى من جَرَّائِه عقاب . . ولكن لم يكن ثَمَّة بد من أن تنوء الذاكرة بحملها وعبئها . . وأَنُوبُ عنها فى تلقى العقاب !! وهكذا بدأت رحلة العذاب ؟ !

وذات يوم ، فوجئت « بالشيخ حسين » قادماً من عمله ، وبيده لُفافة لم يُطْلِعنى على ما فى داخلها . . وطَعِمنا كالعادة غداءنا . . وجاء موعد « التَّسْمِيع » . . ورحت أتلو عليه ما حفظته أو ما المفروض أنى حفظته . . !! وهو مشغول بتفريغ اللُّفافة من محتوياتها . . فإذا هو « سوط » مثبت بيد أنيقة يمسكها الضارب حين يُجِيلُ « السوط » على جسد المضروب !!

والسياط تصنع عادة من التِّيل المجدول ، أو من الجلد . . لكن أخى الشيخ صنعه من سلك الكهرباء المكثَّف والمجدول . . ويبدو أنه ذهب به إلى صانع محترف ، فَثَبَّته بيد أنيقة وهَذَّب من شكله ومنظره . . ومثل هذا السوط القصير القامة نسميه فى الريف « الزُّخمَة » . . وكان العرب يسمونه « الدُّرَّة » ، أو الدِّرة » . .

وعلى الرغم من وَصِيَّة أبى لأخى ، ألا يضربنى إذا كان للضرب ضرورة ، بالليل . . وبخاصة قبيل النوم حتى لا يسبب ذلك لى الفزع أو الكابوس أثناء النوم ، فإن « الشيخ حسين » كان له نهجه الخاص فى التربية والعقاب . . فكان الليل بآنائه ، والنهار بأطرافه ساحة للعبادة . . ولما كان تحفيظى القرآن الكريم عبادة ، وحَمْلى بكل الوسائل على حفظه عبادة . . إذن فجميع الليل والنهار ، ميقات للحفظ ، وللضرب على سُوء الحفظ ، يستوى فى ذلك قبل النوم وبعد النوم ، بل وأثناء النوم أيضا ـ وقديما قيل : « الثواب على قدر المَشَقَّة » . . ؟ !! ومن اليوم ستصير « الزُّخمة » الشىء الوحيد فى حياتى الذى يستحيل أن يقوم بينى وبينه اتفاقية عدم إعتداء . . !! لأنى لن أبلغ فى حفظى المستوى الذى

يريده « الشيخ حسين » وفى المقابل لن يتخلى أو يُفَرِّط فى الثواب الذى ينتظره من هذا العمل الصالح . . !!!

أين عصا سَيِّدنا أيام « الكتّاب » لأُقَبِّلها ، ولأقول لها :

رُبَّ يـوم بـكـيـت مـنـه فـلمّـا
صِـرتُ فـى غـيـره بـكَـيتُ عـليـه !!

وأين الشيخ « محمد عبدالمعبود» لأقول له:

عَـتَـبْـتُ عـلى سَـلْم فـلمـا فَـقَـدْتُـه
وعـاشـرتُ أقـوامـا ، بَكَيتُ على سَلْمِ !!

وهذه هى الحياة ، فَغَداً سأُشبع يد أخى تقبيلاً وشكراً ، حين أجنى ثمار منهجه التربوى القاسى . . بيد أنى سأظل أذْكر وأُذَكِّر سواى أن غير هذا النَّهْجِ كان ـ ولا يزال ـ أَوْلى وأَمْثل وأفْضل . . بل أحكم وألزم . . !

أصبحت أداة العقاب إذن « الزُّخمة » ذلك السلك الكهربائى الغليظ والمجدول فى حذق وعناية . . وسيُثيبنى الله بفضله نظير صبرى على المكاره بتحقيق رغبة عبده الصالح « الشيخ حسين» ، فى إتمام حفظ القرآن الكريم فى الزمن الذى قدّره وأحْصَاه ، وكان حوالى خمسة أشهر . . !

وهكذا صِرْت حديث أهل قريتنا حين علموا أننى وُفِّقتُ لحفظ القرآن جميعه . . وأننى على وشك الالتحاق بالمعهد الأزهرى . .

ولما كنت مقتنعا الآن بقول الرسول ﷺ :

« العَين حق » . . فإنى حين أستدعى من الماضى البعيد ذلك النجاح المثير والمبكر ، أكاد ألمح أثر العيون الحاسدة فىّ ، كما ألمح أثَر عيون حاسدة أخرى طاردتنى فى أكثر مراحل حياتى ، ونجاحاتها .. !!

* * *

فى أُخريات المرحلة الوجيزة التى حفظت فيها القرآن الكريم ، أسلمنى أخى للشيخ « محمد » أحد أصحاب الكتاتيب بالحى الحسينى ، ويقع بجوار منزلنا بكفر الزّغارى ، قسم الجمالية . . طالباً منه أن يعلمنى ما يتيسَّر من أحكام التجويد . . !!

وعلم التجويد ينتظم أحكام التلاوة الصحيحة لقرآن الكريم . . وإذا تُسومِحَ فى هذه الأحكام مع أى حافظ أو قارىء ، فلا تَسَامُح البته مع القراء الذين يحترفون القراءة فى المناسبات . .

وأحكام التجويد هذه نشبهها « بالنوتة الموسيقية » التى تضبط إيقاع العازفين والمطربين . . فالأحكام بما تحويه من « غن ، ومد ، وإدغام ، وإشباع ، إلى آخره » تمنح الإيقاع الصحيح ، الذى يمنح بدوره التلاوة جمالاً . . والمعنى جلالاً . . وتلاوة القرآن الكريم فى سن الطفولة وفق أحكام التجويد خير

ما يَهبُ الطفل « أُذُناً موسيقية » يتذوق بها الموسيقى والأغنية والشعر ، وحلاوة الكلمة ، وطلاوة الإيقاع فى كل ما يتطلب الإيقاع . . !! وتجربتى على ذلك من الشاهدين . . فقد قرأت على « الشيخ محمد » رحمه الله تعالى نصف القرآن الكريم مجوداً وإنى لا أبحث عن سبب مباشر لِمَا أتمتع به من أُذُنٍ موسيقية مُرهَفة الحس والسمع بعيداً عن هذا السبب . . ولقد ازدادت معرفتى بعلم التجويد حين درسته مُوَسَّعاً فى المعهد الأزهرى .

* * *

فى زَهْوٍ كبير أرسل : « الشيخ حسين» خطاباً إلى والدى يُبَشِّرَه فيه بِخَتْمى القرآن كله . . ومن الفرح كاد قلب أبى يطير .'. وجاء إلى القاهرة يسعى . . وعَزَمنا على العشاء عند « الحاتى » ثم إلى شرب الشاى فى مقهى « الفيشاوى » كما شرب هو « الشيشة » والقهوة المضبوطة وأُبْنَا إلى البيت تغمرنا السعادة والغبطة والحُبُور . . !!

وصلينا الفجر فى مسجد « سيدنا الحسين » رضى الله عنه وأرضاه ، ودعانا أبى لتناول الإفطار عند « المالكى » وهو أكثر اللَّبَّانين فى الحى الحسينى شهرة . . فجاء لكل منا بـ « سلطانية » كبيرة ، مترعة بالحليب الطازج والساخن ، ثم بخبز من العيش « اَلْفِينُو » وأكلنا ، وشربنا وطَرِبْنا ، . . ثم عدنا إلى دارنا حيث تَهَيّأ أخى للنزول إلى عمله ، واستأنف أبى النوم ، وأنا على أثره حتى صحونا بعد ساعتين أو ثلاث . . وتوضأ أبى وأدَّى صلاة الضُّحى . . ثم دعانى ليطمئن على أننى حفظت القرآن الكريم كله . . وراح يَتَنَقَّل بى بين آياته المثبوتة بين دفَّتى المصحف كزهور الحديقة !! وكنت أمضى فى التلاوة كالريح المرسلة ، وأبى يضحك رِضا وسروراً . . وأخذتنى ثقة مُفْرِطة بنفسى ، فقلت له : أتحب أن أخبرك عن مكان كل آية فى المصحف ؟؟ . . ودنا من جبهتى فقبلَّها ، وهو يقول :

ـ صحيح . . ؟؟

أجبته : نعم !!

وأنهى عملية « التَسْمِيع » بعد أن وثق بحفظى . . ثم راح يتنقل بين الآيات الكريمة من أول المصحف إلى آخره ، فيختار آية ، ثم يسألنى عن مكانها ، فأقول له مثلا ـ إنها فى منتصف الصفحة اليمنى من سورة كذا . . ويجىء بآية أخرى ، فأجيبه : إنها بين السطور الخمسة فى أعلى الصفحة اليسرى . . أو فى الصفوف الثلاثة من أدنى الصفحة اليمنى ، وهكذا وقف أبى ـ رحمه الله ـ أمام هذا الفتح الإلَهى محبوراً ومبهوراً ، وشكوراً ، وفخوراً . . !! ثم أخرج من جيبه « ثلاث برايز فضة » أى ثلاثين قرشاً وكان لها فى تلك الأيام شأن كبير . . ثم نزلنا معا إلى شارع « الموسكى » فاشترى لى بعض الملابس ، وحذاء جديدا . . ووعدنى بالكَاكُولَة والعمامة قبل دخولى المعهد الأزهرى بأيام . . وعدنا إلى المسجد الحسينى فانتظرنا حلول الظهر لنُصليه جماعة . . وبعد الصلاة زرنا ضريح الإمام الحسين عليه السلام . . ثم غادرنا المسجد إلى البيت منتظرين مجىء « الشيخ حسين » رحمه الله . . وأخيراً جاء ، يحمل معه غداءنا . . فَطعِمناه بشهية مفتوحة ثم أوَيْنا إلى الراحة ، فنمنا بعض الوقت ، ثم نهضنا من مرقدنا . . وغادرنا البيت إلى الدنيا التى استحالت كلها بهجة وإيناسا . . لأن أنفسنا

الراضية عكست عليها ما فيها يومئذ من بهجة وإيناس .. !!!

ومكث أبى معنا ثلاثة أيام ، ثم رحل فى رعاية الله إلى القرية .. ولا شك فى أنه كان أيامئذ ينعم بفرحتين ـ فرحة أزجاها حفظى القرآن الكريم .. وفرحة أفاءها عليه هذا الإرهاص بتحقيق أمله فى أن أكون خير امتداد لجدى « الشيخ خالد ثابت » رحمهم الله جميعا .. وعدت إلى تمكن حفظى ، وتلاوة القرآن مجوداً على « الشيخ محمد » ..

وتراخت القبضة الحديدية لأخى ، واستراحتْ الزُّخمة » وأراحت .. وكنت أُراجع كل يوم جزءاكاملا من القرآن الكريم ، أى ثمانية أرباع ، وأقرأها على أخى كل يوم بلا أخطاء تُذْكر أو أستحق عليها عقابا .. !

وجاء اليوم الموعود .. وتقدم « الشيخ حسين » بأوراقى إلى معهد القاهرة الأزهرى كى آخذ مكانى المُنْتَظر على شوق بين طلبة السنة الأولى الإبتدائية .. !! ولم تكن مرحلة التعليم الإبتدائى أيامئذ ، كالتعليم الإبتدائى اليوم الذى يبدأ مع السنة السادسة من عمر التلميذ .. بل كان إبتدائى الأمس أرفع مستوى ، وتلاميذه أكبر سنا ، وكان الحاصل على الشهادة الإبتدائية ، ينقل رأسا إلى التعليم الثانوى دون أن يكون هناك وَسِيط من التعليم الإعدادى ، وكان ذلك فى الأزهر ووزارة المعارف على كلمة سواء .

ومن ثم ، حين تقدم أخى بأوراقى رُفِضَتْ لِصغر سنى !! فما كان لمن أعمارهم فى العاشرة أن يكون لهم مكان !!

ولكن أخى وخالى الشيخ « أحمد مكاوى » استعانا بـ « إبراهيم فهمى كريم باشا » الذى كان تلميذاً روحياً لجدى « الشيخ غباغبى » وكان وزيراً فى أكثر من وزارة .. فكان أهلًا للرجاء ، واتصل بفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر يومئذ « الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى » الذى أمر بالتجاوز عن عَائِق السن ، وقبول أوراقى .. وامتُحنت فى القرآن العظيم ، وكنت موضع إعجاب وإطراء الشيخين الفاضلين اللذين قاما بامتحانى .. فما كان من المألوف أيامئذ ، أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب صبى فى العاشرة من سِنِى عمره .. ليس ذلك فحسب ـ بل ويتلوه مُحكماً مُتقناً مُجوداً ، لا يكاد يتلو آية ، أو ينطق كلمة قرآنية وفيها أدنى نَشَاز عن أحكام التجويد ... !!

بيد أننا لم نلبث إلا قليلاً حتى أَطَلّت علينا مشكلة أخرى .. فطلاب الأقاليم الجُدد التى بها معاهد أزهرية ، أو هى على مقربة من بلادهم ومديرياتهم ، لابد من أن يبدأوا دراستهم ويقضوا مرحلة التعليم الإبتدائى بتلك المعاهد .. ورغبة أخى الحميمة مثلما هى رغبة أبى والأسرة كلها أن أظل تحت جناح أخى وإشرافه .. فَأَيَّانَ يذهبون ؟؟؟

لابد من واسطة أخرى .. واستحيا خالى من الذهاب مرة أخرى إلى « إبراهيم فهمى كريم باشا » رحمه الله تعالى .. وتقدم أحد أقاربى بإجراء وساطة مع صديق له ذى جاه ونفوذ استطاع الظفر بوعد من مسئول كبير بالأزهر أن أمكث بمعهد الزقازيق شهرين اثنين ينقلنى بعدهما إلى معهد القاهرة . وهذا هو الاحتيال الوحيد الممكن على القانون .. !!

وجاءت الرياح بما تشتهى السفن ، فنقل خالى رحمه الله من أوقاف القاهرة إلى أوقاف الزقازيق بعد التحاقى بمعهد الزقازيق مباشرة فعشت معه تحت رعايته .. وزالت عنى وحشة الاغتراب لأنى قلت لكم من قبل - إن كنتم تَذْكُرون - إن المسافة بين قريتى والزقازيق « سبعة كيلو مترات » أو حَوَالَيْها .. وهكذا كنت أقضى أجازة آخر الأسبوع دائما فى دارنا بين أبى وأمى وإخوتى .. ثم فى القرية مع لِداتى وأَتْرَابِى ، وأحلام صِباى .. !!!

* * *

فى معهد الزقازيق واجهت أول دراسة منظمة وثرية ، وبَنَّاءة ..

وحدث أن اكتشف زملائى صدفة أننى ندى الصوت حين أعطره بتجويد آيات من القرآن الكريم .. وكان أحد شيوخنا رحمهم الله تعالى . واسمه « الشيخ الفُحَيْلِى » بعد أن سمعنى مرة لا ينفكُّ عن التماس الغرص التى تسمح بالقراءة فى الفصل ، إذ كان ذلك ممنوعا - لا سيما أن طلبة الفصول المجاورة كانوا إذا سمعوا صوتى الصُّدَّاح جاءوا إلى فصلنا يهرولون فى هرج وضوضاء يفسدان النظام ..

وكان شيخنا « الفُحَيْلِى » رجلًا كُبَّاراً ، وعالما فاضلًا .. ولم يكن يَعيبه أو يُؤْخذ عليه إلا بُخله .. هكذا كان يصفه العارفون به من زملائه المدرسين .. !! وكانوا يَرْوُون فى ذلك نوادر مضحكة .. وكان تسامحه وخفة روحه ، يُطمعاننا فى مُداعبته ، وأحيانا فى مشاكسته ، لكننى والحق كنت أتحاشى إغضابه .. فإعجابه الشديد بصوتى جعلنى موضع عطفه ، وبالتالى جعله فى مكان أبى ..

وذات يوم و « حِصَّتُه » على وشك أن تبدأ .. تواصى بعض الأشقياء على أن يُحْدِثوا لَغطاً وقعقعة بأدراج المناضد التى نجلس عليها .. وما إن اجتاز فضيلته باب الفصل إلى داخله حتى استقبل بمظاهرة رَغْنَاء .. وذُهِل الشيخ لِما رأى ، ولِما لَمْ يحدث من قبل قط .. وصرخ صرخة غاضبة : يا أولاد الكلاب .. والله لأحْسِنَنّ تربيتكم .. !! وصَمَتوا جميعاً كأهل القبور ، وأخرجوا رءوسهم التى كانت مخبوءة تحت أغطية القِمَطرات .. وفجأة انطلق صوت كَفَحيح الأفعى يُقْسِم بالله أننى صاحب الفكرة ، وأننى أول من أعطى إشارة البدء .. !! ووقف ثان ، وثالث ومن ورائهم معظم طلبة الفصل يُرَدِّدُون قول الزور !! وأَغَذَّ الشيخ خطاه نحوى ، وعيناه ترميان بِشَرَرٍ كالْقَصْر .. وأمسك بأذنى جاذباً إيَّاها إلى أعلى كى أقف .. ونهضت فى اتجاه أُذُنى ، وسحبنى إلى مقدمة الفصل قائلا : أأنت مَن يفعلها ؟؟ !!

ورحت أقسم بالله صادِقاً - إنهم لكاذبون .. ولم يَعْبَأ بكل ما دافعت به عن نفسى ، ومضى يقول : « شاهِدَاك ، قَاتِلَاك » !! يعنى أن شهادة ما فوق الواحد كافية لإدانة المَشْهُود ضِدّه - فى غير الحدود طبعا - !!

وكلما أَقْسَمْتُ على صِدْقِى وكَذِبهم صاح : « شاهِدَاك قاتِلَاك » ثم دفع بى خارج الفصل تشيعنى قهقهات « أولاد الأفاعى » من الزملاء غير المحترمين .. !!!

* * *

وشعرت بالإهانة المفاجئة دون أن أرتكب مِثْقال ذرة من شر أو خطأ . . واحْتَوانى تفكير غامض فى موقفين غامضين ـ موقف الطلاب منى ، وموقف شيخنا « الفُحَيْلى » . . !!

أما الطلاب ، فلماذا دبَّروا هذا المَقْلَب الشيْطانى لزميل فى مثل وَدَاعِة العصفور ؟؟ ولماذا مع شيخنا هذا بالذات ؟؟ أهو الحسد على ما كان يحبونى به من عطف وتقدير ؟؟ !!

وأما الشيخ ، فكيف انطفأ فى لحظة ، نور حبه وتقديره دون أدنى تَبَصُّرٍ أو أناة ؟؟ !!

إذن هذه هى الدنيا . . شَاهِدَاك فيها قَاتِلَاك !! وحيث أن شهود الزور أكثر من الذُّباب ، فحياتك إذن على « كَفّ عفريت » . . لا ـ بل على جناح ذبابة !!! والحب فيها مثل البُغض ـ كلاهما لا تكون نتيجة واثقة ، لمقدمات صادقة . . بل نزوة ، أو عاطفة عابرة كالزَّبَد الذى يذهب جُفاء ، ومن ثَمَّ ، ما لها من قرار . . . !!

ها . . ها . . شاهدَاك ، قاتِلَاك !! و « قالوا للحرامى احلف . . قال : جاءك الفرج » فكيف بالشاهد فى عصر

أَلِـفَ الـزُّورَ ، ولـم يـعـبـأ بـمـا
يـفـعـل الـزُّورُ مـن الضُّـرِ الـوخـيمِ

وراح طفلنا يُسَرِّى عن شَجَنه وأساه بترديد العبارة الفكِهة ـ « شاهِدَاك قاتِلَاك » مستعيداً منظر شيخنا « الفُحَيْلى » ، وهو يقولها أو يَلُوكها بين شِدْقَيْه فى غاية من خفة الدم ، ورشاقة الروح !!

وبقى الشيخ مُغاضبا لى زمناً غير قصير ، حتى جاء يوم . . كان معهد الزقازيق وبقية المعاهد تحتفل بالمناسبات الهامة فى مواقيتها . . فتحتفل بمولد النبى ﷺ وبعيد الهجرة ، وبالأعياد الملكية جميعها . . وفى مناسبة لا أذكرها كان هناك احتفال كبير ، وكما جرت العادة ، يُفْتَتَح الحفل بترتيل آيات من القرآن الكريم . . ويبدو أنه كان هناك أحد طلاب القسم الثانوى ، تَعَوَّد لجمال صوته أن يَفْتَتِح تلك الحفلات . . كما يبدو أنه منعه عذر عارض من المجىء إلى المعهد فى ذلك اليوم . . كان شيخنا « الفُحَيْلى » يجلس مع شيخ المعهد ، وجاء ذكر الطالب الغائب ، وأخذتهم سِنَةٌ من الحيرة حول من يملأ هذا الفراغ . . وقال الشيخ « الفُحَيْلى » فى جَذَلٍ وفرح : عندى من يملؤه . . سأله شيخ المعهد : من ؟؟

قال : سآتيك به الآن . .

كنا آنذاك فى درس الإملاء ، عندما دخل الفصل الشيخ « الفُحَيْلى » مصافحاً مدرس الحِصَّة ومُسْتَأْذِنَه فى ذهابى معه إلى فضيلة شيخ المعهد . .

وفى الطريق قال لى : سأعفو عنك تماماً ، إذا أَظَلْت أعناقنا الليلة . . لم أكن حتى دخولنا غرفة شيخ المعهد أدرى عن الموضوع شيئا . . !! . . صافحت الشيخ مُقَبِّلًا يده ، وسألنى :

— صوتك حلو ؟؟

فابتسمت فى خجل ، ونادى شيخنا « الفُحَيْلى » :

— ياالله ، يا واد يا خالد سَمِّعنا . . !!

وضممتُ ساقىّ ، وجلست الجلسة التى كان يقال عن جالسها أنه « رَبَّع » .. ونظرت إلى شيخنا أسأله فى صوت حيى خفيض : أقرأ إيه ؟؟

فقال شيخ المعهد : إقرأ إنا فتحنا لك فتحا مبينا : لأنها هى التى ستقرؤها فى حفل الليلة إن شاء الله . .

حفل الليلة . . ؟؟ وما شأنى به ؟؟ على أية حال ، فلابُدّ مما ليس منه بُدّ . . !!

وسألت ربى التوفيق ، ومضيت أرتل أعذب ترتيل ـ وسِمَات الإعجاب ، ومَخايل الغبطة تكسو وجوه الشيوخ . . وما إن خَتَمْتُ حتى قال شيخ المعهد ـ باسم الله ما شاء الله ، هذا صوت قادم من الجنّة . . !!!

وغادرت غرفة مكتب الشيخ فى صحبة الشيخ « الفُحَيْلى » الذى حدثنى عن الحفل ومناسبته وعن الشهرة التى سأحققها بافتتاح هذا الحفل . . « ولا تنس يا واد يا خالد أنك ستقبض لقاء هذا مائة قرش » !! . . تصوَّر . . مائة قرش هى أجر أحدنا عن ثلاثة أيام يُبَحُّ فيها صوته وعقله . . ستنالها أنت فى خمس دقائق !! على فكرة يا واد يا خالد ما تزودش عن خمس دقائق . . أيوه ، على قَد فلوسهم ندّيهم . . إنهم يحبون المال حباً جماً . . وكلما ناديناهم : « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . . قالوا : البلد فيها أزمة والميزانية مُرهقة . . وجلالة الملك وعد بتحسين حالكم . .

ثم يقول ، وهو يضغط على الكلمات ، ويلوكها فى غيظ : أزمة ؟؟ والميزانية مرهقة ؟؟ فلماذا لم تقرع الأزمة أبوابكم ؟؟ ولماذا تطفو الأموال فوق جيوبكم ؟؟

وكـيـف يـكـون فـى أيـد حـلالاً

وفى أخـرى من الأيـدى حـرامـاً ؟ !

كنت أسمع لأول مرة كلمات تعمل كل هذا التناقض ، وأرى موقفا كذلك . .

وكان فرسان الشعر فى معهد الزقازيق ثلاثة = الشيخ محمد متولى الشعراوى . . والشيخ محمد العزّازى . . والشيخ عبد المقصود أبو راس . . ولا أذكر تماماً ، إن كان المرحوم الأستاذ طاهر أبو فاشا كان معهم أو لا ؟؟ لأنى لم ألبث فى هذا المعهد إلا قليلاً ثم تَمّ تَحْويلى إلى معهد القاهرة . . وكان الشعراء الثلاثة يستهلون قصائدهم بالغزل الرقيق العذب فى ليلى ، وسُعدَى وعزة وهند ، ودَعْد . . وكل يضمر فى سريرته المشغوفة المحبة حقيقة ليلاه التى يغنى عليها ولها . . فإذا كان الحفل مثلا لمناسبة ملكية كعيد جلوس الملك ، أو عيد ميلاده . قفز شعراؤنا من ليلى وسَعدَى وبقية المعشوقات الغَزِلات ـ ثَيِّبات وأبكارا ـ إلى التَغزُّل فى محاسن الملك فؤاد وحدبه على شعبه ، ومَخَايل العظمة فيه . .

افتتحت الحفل بالصوت القادم من الجنة ـ كما وصفه وأخجل تواضعى بهذا الوصف ـ فضيلة شيخ المعهد رحمه الله تعالى :

ثم تتابع الخطباء والشعراء يخوضون مُباراة ذكاء مُتّقِدة . . ثم اختُتِم الحفل كما بدأ بالصوت القادم من الجنة . . ؟ !!

وانتظرت على شوق صباح اليوم التالى لأقبض المائة قرش التى حسدنى أو غبطنى عليها « شيخنا الفُحَيْلى » ثم انتظرت أياماً ثِقالا ، ترددت خلالها على الموظف المختص الذى كان فى كل مرة يخلع علىّ من الاطراء والثناء ما لابد أنه رأى فيه بديلاً كافياً عن القروش المائة . . !! . . وهكذا ، أخذ يُمَاطِلنى ، حتى فوجئت ذات يوم بمن يدعونى لمقابلة « شيخ المعهد » . فظننت أنه قد استقلّ المائة قرش ، فجاءنى بمزيد . . ورحت ألوم نفسى على سوء ظنها بالموظف المختص الذى أراد أن يجعلها مفاجأة سعيدة حين أعود إليه فيخرج من مكتبه « إذن صرف » بجنيهين أو ثلاثة !! وحين مَثُلت أمام شيخ المعهد دعانى للجلوس ، وطلب لى قدحا من الشاى ثم قال : يا شيخ خالد . . مَثَلُنا وإياك كقول الشاعر :

وما كِـذْنـا نـقـول لـهـم سـلامـا
إذا غَـدُونـا يـقـول لـهـم وداعـا !!

لقد جاءنا خطاب من معهد القاهرة بأنه قَبِل تحويلك إليه ، وأنك منذ اليوم واحد من طلابه . . تُرى هل كنت تسعى لهذا النقل ؟؟

أجبت فضيلته : نعم ـ أخى المقيم فى القاهرة كان يسعى لهذا .

ـــ على كل حال يا شيخ خالد نتمنى لك الخير ، ونسأل الله أن يُبَاركك . . وعليك بمداومة قراءة القرآن حتى لا يُفلِت من صدرك يا ولدى . .

وهنا تقدم أحد الشيوخ الحاضرين بمكتب الشيخ والحافين حوله قائلا :

ـــ لكن يا مولانا ، لماذا نسب الشاعر تحية اللقاء لنفسه قائلاً :

وما كِدْنا نقول لهم سلاما

ونسب تحية الوداع إلى الغد ، قائلاً :

إذا غَدُنا يقول لهم وداعا ؟؟

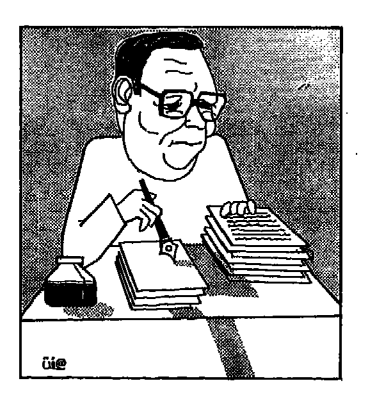
وأجاب الشيخ من فوره :

ـــ لقد أجبت يا شيخ حسن على سؤالك بنفسك . . فهو فى تحية اللقاء ينسبها لنفسه تشريفاً لذاته وتكريماً لضيفه . . لكنه فى تحية الوداع لا يطيق أن يكون صاحبها ولا المسئول عنها لصعوبة الموقف عليه ، فَخَلع ذلك على الزمن أو على جزء من الزمن الذى هو الغد بما ستضمّنه من ظروف لا قِبَل له بها . . ؟ !

وسَرتْ همهمةٌ إعجابٍ بين الحاضرين وثناءٌ مُفِيض على علم الشيخ وذكائه وقَبّلت يده بودٍ ومحبة واحترام كبير ثم قَبّلت أكف الشيوخ جميعاً وعدت فختمت الجولة بتقبيل يمين شيخ المعهد مرة أخرى أستودعتها كل ما فى قلبى له من حب وإجلال . . وفى كلتا المرتين كان يقف لى وأنا أصافحه ـ الأمر الذى لم يَحظَ به طالب قط لا فى القسم الإبتدائى ولا فى الثانوى ـ بل ولعله فات كثير من العلماء المدرسين .

نسيت فى غمرة هذا التكريم أن أقوم بآخر زياراتى اليائسة للموظف المختص إياه . . بَيْد أنى آثرت الاحتفاظ بالنشوة التى أنا فيها على « العكننة » التى ستثيرها رؤيتى له !!

وغادرت المعهد إلى بيت خالى الشيخ أحمد رحمه الله رحمة واسعة وأنْبأته بِقَبول تَحْويلى إلى معهد القاهرة ، ثم غادرت الزقازيق إلى القرية ، فَسُرّ أبى كثيراً ، ومضيت أُعِدُّ نفسى لرحلة جديدة .





العودة إلى القاهرة ..

سافرت إلى القاهرة فى صحبة أبى . . تَمُور نفسى بمشاعر أخرى مُغايرة تماماً لمشاعر الخوف والأسى التى صحبتنى فى سفرتى الأولى . وكانت كل المناظر التى أشرف عليها من نافذة القطار تعكس عَلَىَّ إحساساً بالطمأنينة وراحة البال ، حتى قعقعة العجلات فوق الشريط الحديدى الذى يقطع القطار عليه الأرض وَثْبا . . وحتى صفيره المزعج الذى يَمْخُر به عُباب الريح ، وثَبج الفضاء . . !!

وراح أبى رحمه الله يقلِّب بين أصابع يده اليمنى حبات مسبحته ، مسبحاً معها ربنا وحامده وممجِّده فى همس مُخبِتٍ أوَّاب ، شكور . . !!

ورُحت أرمُقه بنظرات حانية . . وبين الحين والحين تتحرك شفتاى بالدعاء له من قلب مدرك لفضله ، مُفْعم بحبه . . وأحياناً أنظر إلى القرى ، والحقول التى تحتضن عذارى نبتها الطالع ، ونخلها الباسق ، وطلعها النضيد !!!

ثم استغرقنى التفكير فى كل ما رأيت وسمعت أثناء طلبى العلم فى معهد الزقازيق . . وبخاصة ما غمرنى به شيخ المعهد من تقدير واهتمام . .

ما شاء الله !! أهذه بركات القرآن أم هى ، ومعها بركات الأزهر المعمور ؟؟

أهذه بداية السير على الطريق المفضية إلى ما يَطْمَح إليه أبى .

هذا ـ كما قلت آنفا ـ بعد تخرجى والْتحاقى بإحدى وظائف التدريس عام ـ ١٩٤٨ ـ . . وهى بداية مرحلة بَارزة فى حياتى ، سَتُطالبنا بحديث طويل عنها ـ إن شاء الله ونعود إلى حديث نفسى لنفسى ، وأنا أحاور بمشاعرى لا بتفكيرى ، تلك الأيام الخوالى ، والتى لا أزال قريبا منها مثلما هى قريبة منى . . وانْدَاحَتْ دائرة مشاعرى هذه ، فرحت أستدعى أيام الكتّاب ، والمدرسة الإلزامية ، والشيخ « محمد عبدالمعبود » و« الفلَكة » ، و« زُخْمة » أخى « حسين » المصنوعة من أسلاك الكهرباء المجدولة . . وصلاة الفجر بمسجد سيدنا « الحسين » عليه السلام حيث كنت أجد هناك سكينة نفسى . . وروح الربيع تُضمِّخ بعبيرها وُجدانى . . واحتشدت كل هاتيك المْشاهد والمواقف فى موكب واحد ، أحسست فيه ومعه كأنى « عريس » يُزَفُّ إلى « عروسه » . . وتمنيت ساعتئذ لو تَجَسّدت تجربتى هذه كلها فى طيف من النور ، فأعانقه وأَلْثُمه ، وأذوب فيه ، أو يذوب فىّ ـ بما فى ذلك

« الفلَكة » و « الزُّخمة » وبصماتها ، ومعالم جهادهما فى سبيل تعليمى وتقويمى .. !!
أجـل ..

« عند الصباح ، يَحمَـدُ القومُ السُّرى »

وهأنذا فى صباح يوم جديد أُودِّع فيه مرحلة من حياتى الباكرة بِشَذْوِها ، وشَجَنها .. بخيرها وأسَاها .. !! فإن كان ظلام الأمس الغارب ، وصقيعه ، قد خَلَّفا فى نفسى بعض المرارة ، فها هو ذا الصباح يَجِىءُ .. وقطرات النَدَى تُبلل الخضرة بالبهجة .. وتُنْشِى برحيقها الورود والأزاهير ... !!
ولبَّيْك اللهم لبَّيْك ..
الفضـل كله منك ..
والخير مِلءُ يديك .. !!!

* * *

كانت دراستنا بالسنة الأولى من القسم الابتدائى بمسجد « الأقْمر » وهو من الآثار الإسلامية القديمة ، ويقع بالجمالية بين بيت القاضى وباب الفُتوح .. وبالطبع لم يكن به مناضد .. فكان الشيخ يجلس فوق كرسى مُربَّع ، ونحن جلوس بين يديه ، أو مُتحلِّقون حوله فوق أرض المسجد المفروشة بالحصير أو السجاجيد ..

قام أخى « حسين » بأجازة فى اليوم الأول من الدراسة واصطحبنى إلى « مسجد الأقْمر » ليُرينى الطريق إليه .. ثم عاد إلى البيت ليُعِدّ لنا غداء فاخرا إحتفاء بهذه المناسبة السعيدة ..

وبعد انتهاء اليوم الدراسى عدت إلى البيت .. وأخذت أغْدو وأروح بين المسجد والبيت دون أن يعكِّرصفو الرحلة اليومية سوءًا أو حزناً .. حتى كان يوم ، ومررت فى طريقى بمقهى يجلس عليه بعض الفارغين الذين ما إن رأونى حتى تقحمتنى نظراتهم الهازئة ، وتعالت ضَحِكاتُهم المنكرة ، وراحوا يَلْمِزُوننى بإشارات وَقحة من أصابعهم وكأنهم يرون إحدى عجائب الدنيا .. وشَجَّع ذلك نفرًا من الغلمان المشرَّدين ، فتعقبونى ، وهـم يصيحـون :

« شِـدِّ العِمَّـة شـدِّ »
« تحـت العِمَّـةِ قِـرد .. !! »
« شِـدِّ العِمَّـة يا أستاذ »
« تحـت العِمَّـة وابور الجـاز »

ودُرتُ بجسدى كله دورة سريعة ، لأنهرهم وأزجرهم ولكنى فوجئت بكثرة عددهم ، فآثرت التَحَلِّى بصبر المستضعفين وحِلم العاجزين ... !!

وسارتْ الزُّفَّة « خلفى » وأنا أتميَّز من الغيظ .. مع تشبثى بمكارم الأخلاق « .. !! »

وفجأة سمعت سباباً عالياً ، وضوضاء هروب وفرار ، فنظرت خلفى ، لأجد ثلاثة من الطلبة طوال الأجسام عراض المناكب ، ينهالون على غلمان السوء ضربا وركْلًا .. وأمسكوا بثلاثة منهم ، وأصرُّوا

على تسليمهم لقسم الجمّالية الذى كان منا على بعد خطوات .. !!

دخل جميعنا غرفة الضابط ، وقص عليه إخوانى الطلبة ما حدث .. فإذا به يرمقنى بنظرات ظننت أول الأمر أنها معجبة ، حتى تبيّن لى أنها مستعجبة .. !! ثم ضحك ضحكة مكظومة .. وسألنى عن إسمى ، فأجبته : خالد محمد خالد ثابت .. فإذا به يطلق سراح الضحكة المُحْتَجَزة وراء شفتيه ، ويقول : ياه .. دا إسمك أطول منك يا شيخ خالد !!!

كان طولى يزيد عن منتصف المتر بقليل .. وجسمى ناحل ، ضامر ، وهنان .. !! وأخرج الضابط من درج مكتبه عصا قصيرة وراح يجول بها فوق جسوم الغَوْغَائِيين الثلاثة ، ويهددهم إن عادوا لمثلها أن يَضَعهم فى سجن القسم .. ولم ينس ونحن نُغَادر مكتبه أن يُزَوّدنى بنصيحته الذهبية قائلا : يا شيخ خالد ـ شِوَيّة لِفَوْق : .. !! وفهمت ما يعنى ، فهو يريد مزيدا من الطول ، يدفع عنى شغب السُّوَقة من الناس .. !! ولم ألبث إلا قليلا حتى تبينت أن هذه الدُّعابة الماجنة والوقِحَة عادة الأحياء الشعبية المجاورة لتجمُّعات الأزهريين .. !!

لم أخبر أخى « الشيخ حسين » بما حدث ، لأننى كنت قد أخذت قراراً فى هذه المسألة .. وخشيت إن أخبرته أن يُنْقِضه بقرار آخر مُضَاد ..

وهكذا ، وبَدءًا من اليوم التالى ، كنت أخلع عمامتى ، وأُخفِيها داخل حقيبة كتبى الصغيرة وأُسْتلُّ منها « الطّاقِيّة » التى أحضرتها معى ، لتكون « بدل فاقِد » .. !! فإذا وصلت إلى « درب الدُّنَاشَارِى » المتفرع من كفر الزُّغارِى دخلت المسجد المقام على ناصيته ، وأعدتُ كل شىء إلى مكانه ـ الطاقية إلى الحقيبة .. والعمامة إلى رأسى .. واتجهت إلى البيت هادىء السمت ، وَقُور الهيئة !! ولقد ظلت هذه العادة المشاغِبة قُرابة عامين ، ثم اختفت فجأة ، وبلا سبب ظاهر .. وكأن الأرض انشقت وابتلعتها ، وابتلعت معها هُواتها الأشقياء ..

* * *

وجاء يوم تصدّع فيه بناء الدور العلوى من بيت جدى ، حيث كنا نقيم ، ولم يكن هناك بد من ترميمه وترميم المنزل كله .. وبالتالى لم يكن ثَمَّة بد من مغادرته إلى مسكن آخر .. !!

كان مسجد الأزهر يضمُّ فى جوانبه بعض الأروقة لسُكنى بعض الطلاب ..

فهناك « رواق الصعايدة » و « رواق الشراقوة » .. و « رواق المغاربة » و « رواق الشّوام » وأروقة أخرى سواها .. واسم هذه الأروقة يدلك على أصحاب الحق فى الإقامة بها ..

وكان لكل رواق شيخه من العلماء .. وكان شيخ رواق الشراقوة فضيلة الشيخ « عبدالمعطى الشرشيمى » عضو هيئة كبار العلماء .. أما وكيله والقائم بأمره فكان الشيخ « عبدالصمد حسين » الذى هو فى نفس الوقت ابن عم والدتى ، أى أنه بمثابة الخال لى ، وللشيخ « حسين » أخى ..

ولا يمكن أن يقرع اسمه الأسماع دون أن تكون لنا معه وقفة ممتعة .. !!

فخالى « عبدالصمد » هذا ، كان تُحفة من تُحف البشر .. ومزيته الكبرى أنه لم يكن له خَصِيم ولا مُبْغِض !! فهناك إجماع على طيبته ، وخفة دمه .. !!

كانت كل دنياه تتكون جغرافيا ، واجتماعيا من بضعة أمتار هى المساحة الضئيلة الواقعة بين مسجد الأزهر ، ومقهاه المفضلة عنده ، خلف المسجد الحسينى ، والمجاورة لـ « قهوة المجاذيب » . .

هذه الأمتار من الأرض ، كانت بالنسبة إليه القاهرة كلها ، والقطر المصرى جميعه . . لم يغادرها إلى سواها ، إلا يوم غادر الدنيا إلى الآخرة . . رحمه الله رحمة واسعة . .

وكنت إذا رأيته ، وهو يحدث نفسه غاديا أو رائحا بين الأزهر والمقهى ، وهو فى قمة انفعالاته يُخَيل إليك أنه محام جَهبذ يترافع فى إحدى قاعات القضاء المهيبة . . أو كأنه « فيثاغورس » يشرح نظرياته بحماس وحَميّة فى مبنى الأكروبوليس . . أو كأنه « ماركو أنطونيو » يرثى « يوليوس قيصر » المسَجّى أمام الجمع الحاشد من أبناء روما ، مرددا بين المقطع والمقطع عبارته الساخرة : ومع هذا فـ « بروتس » رجل شريف !!!

قلّما تشهد الأيام مثلك يا خالى « عبدالصمد » فى حلاوة شخصيتك ، وغرابة أطوارك . . ؟ ! وإنى لسعيد بمعاصرتك ، وبقضاء فترة من شبابى قريبا منك . . !!

* * *

انْتقلتُ وأخى إلى « رواق الشراقوة » وكان عبارة عن دورين فَسِيحين ، تتكىء على جدرانه من جميع النواحى خزائن خشبية يمتلك كل طالب منها خزانة ، أو اثنتين ، أو ثلاثاً يضع فيها مَتَاعه كله من مطعم وملبس وكتب وغِطاء . . ويقوم ساكنو الرواق بطهى طعامهم ، وغسل ثيابهم ، فإذا أرادوا مذاكرة علومهم دَلفُوا إلى الجامع الأزهر من الباب القائم بين الرواق والمسجد . .

كان معنا فى الرواق من أبناء قريتنا ، ومن ذَوى قُربانا ـ الشيخ « على مصطفى » إمام أحد المساجد ، ويتقاضى ثلاثة جنيهات شهريا . . ويعيش بها ، وكأنه « أغا خان » . . !!

والشيخ « الحسينى فضل » فى الشهادة العالمية . . وبينه وبين النجاح فيها واجتياز عقبتها ود مفقود ، حتى حصل عليها وظفر بها بعد محاولات مُرهِقة ، ، ثم عُيِّن مدرساً إلزاميا . . ولم يكد ينعم بالوظيفة التى طالما انتظرها على شوق حتى دُعِىَ للقاء الله فى مَثْواه الأخير . . !!

وكان هناك الشيخ « عبدالخالق مصطفى » الذى لَبث عمراً طويلاً يتقدم لامتحان « العالمية » دون أن يظفر منها ولو بوعد مَمْطُول . . !!

كان رحمه الله يقضى العام الدراسى الذى لم يكن يشارك فيه إلا أياماً ، وهو يتغزل فى تلك الشهادة ، ويبثها غرامه ونَجْوَاه . . فإذا خانه التوفيق فى امتحاناتها ، قال : « إنها وُرَيْقة ، لا تضر ولا تنفع » . . !!!

وبعد حين ، سنلتقى به ، وهو يرأس وفداً من قريتنا جاء ليشكر « النحاس باشا » على ترشيح الوفد الدكتور « عبدالرحمن عوض » لعضوية مجلس الشيوخ عن دائرتنا . . وكان الدكتور « عوض » من كبار أطباء أمراض النساء والولادة ، وكان يجيد فن الاستئثار بحب الناس وثقتهم . . وصحبت هذا الوفد إلى « بيت الأمة » واستقبلنا « النحاس باشا » رحمه الله فى مكتبه . . وتقدم الشيخ عبدالخالق ليلقى كلمة وفدنا واستهل خطابه قائلا : « لقد جئنا نشكرك يا جلالة النحاس باشا » . . !!! وانتفض الزعيم معبراً

عن رفضه وضيقه ما هذا يا شيخ؟ ! ما هذا يا رجل . . إن كلمة جلالة لا تقال إلا مضافة لجلالة الملك . . أما بالنسبة لى فحسبك أن نقول : يا دولة الرئيس . . يا نحاس باشا . . يا نحاس فقط . . ولما سُقط فى يد الشيخ ، ورأى أنه قد زَلّ زَلّة لا تليق . . ابتلع ريقه . . وبدلا من أن « يُكحّلها . . أعماها » كما يعبر المثل الشعبى !!

وصاح منفعلاً : الأمة تُسمّيك جلالة النحاس باشا . وقبل أن يصرخ النحاس فى وجهه صرخة تبرئة من مسئولية الصمت أو الرضا بما يسمع ، صاح الشيخ - الخالق قائلا : وإنا إيّاك كما يقول الشاعر :

ودَعــاك حُسَّـدُك الـرئس وامسَكـوا

ودعــاك [illegible] ك الـرئيسَ الأكبـرا !!

وضجّت غرفة المكتب بالتصفيق . . واهتزّ الرئيس ورجع بكرسيه إلى الخلف وهو يقهقه بضحكات جهيرة . . وعرف الشيخ المُحَنّك كيف يخرج من الورطة ، ويستر العورة ، ويكسب الجولة . . !!

وعلى أثر انصرافنا ، رجوتُ عمنا الشيخ « عبدالخالق » أن يُمْلِى علىّ هذا البيت من الشعر فقد حسبته « تعويذة » تخرج الإنسان من المشكلات والورْطات . . ؟ !!

كذلك ـ فيما بعد ـ سنلتقى بعمنا الشيخ فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، وكان هتلر قد ابتلع «تشيكوسلوفاكيا » بين عشية وضحاها . . وصار اسمها على كل لسان . . وعزّ على الشيخ « عبدالخالق مصطفى » ألا يحسن نطقها كبقية الناس . . فكان كلما لقينى أخذ بيدى وقال : تعال يا شيخ خالد . .

— نعم يا عم الشيخ عبد الخالق .

— هى الدولة اللى خطفها هتلر امبارح اسمها إيه ؟؟

— اسمها تشيكوسلوفاكيا . . !!

ويحاول قراءة الاسم ، فتتعثّر على شفتيه الحروف والكلمات . . !!

وفى لقاء ثان وثالث ورابع يسألنى نفس السؤال حتى أشفقت عليه من هذا الإخفاق الأليم . . وأخيراً قلت له : شوف يا عم الشيخ عبدالخالق . . هذا الاسم يتكون من ثلاث كلمات : تَشِيكُو . . سُلو . . فاكْيا . . !! وراح يرددها علىّ وأنا أشجعه وأستزيده . . بيد أنه فى اليوم التالى قال لى : لقد حفظتها . . اسمع ثم راح يمضغها كأول يوم صححت له نُطقهافيه . . !!

وأخيراً ، هُدِيتُ إلى حل المعضِلَة . . !! فقلت له : شوف يا عم عبدالخالق . . الحقيقة أن اسم هذه الدولة طويل ورذل . . ولذلك فإن الساسة والصحفيين اختصروه فأسموها « سلوفاكيا » . . وبعضهم يُمعن فى الاختصار ، فيسمِّيها فَاكْيا . . !! وتستطيع أن تصنع صنعهم فتُسمِّيها سلوفاكيا أو تدعوها « فاكيا » فَبَرِقَت أَسَارِيرُ وجهه ودعا لى بخير . . وهكذا حلَلنا مشكلة ممر دانزج ، وتشيكوسلوفاكيا قبل أن يستطيع الحلفاء حلها ببضع سنين . . ؟ !!

صدقونى ، ما فى هذه الواقعة أى « فَبْرَكة » أو تَزَيُّد ، أو تَنَدُّر . . إنما أرويها كما حدثت تماماً ، وكأنكم تَرونَها . . !! ولكن حَذارِ أن تخدعكم طيبة الشيخ عبد الخالق وسذاجته المستملحة عن ذكاء جيله . . فقد كان كَسابِقِيه ولاَحِقيه جيلاً ذكياً عالماً مُجتهدا . . !!

هذه نماذج لبعض من لَقِيتُ وعَاصَرت في « رواق الشراقوة » . . أما من لقيت وعاصرت في الأزهر « المعهد » وفى الأزهر « الجامعة » . . فكثيرون ، وكثير هو الحديث المقبل عنهم إن شاء الله تعالى . .

* * *

لكن قصتى من أخى الحبيب « الشيخ حسين » لم تَنْته بعد . . بل هى لن تُؤذِن بانتهاء قبل وقت طويل !! و « الزُخمة » هل نسيتموها . . ؟؟ ذلك السوط المجدول من أسلاك الكهرباء !! إن مهمتها لم تَنْته بعد . . ولأنها وأخى شَغُوفان بالجهاد فى سبيل كل ما هو خير وصالح ، فهما لهذا مُصَمِّمَان على أن يَحملانى ـ كُرْهاً أو طَوْعاً ، وضرباً لا إقناعاً ـ على ذلك الخير ، وذلكم الصلاح . . !!

ولن يكون هناك أى تسامح معى أو خيار لى ، فأخى قد خاض تجربة السباق مع الزمن بنجاح أغْراه بمُواصلة . . التجربة . . مع إنه فى حياته الخاصة ـ رحمه الله ـ لم ينتفع قط بهذه « التيمة » ومن ثَمَّ فقد أراد أن يُعوِّض فِىَّ ما كان يريده لنفسه ويتمناه . . !!

وتحت سقف « رواق الشراقوة » ستردد صرخات الطفل ابن العاشرة ، أو الحادية عشرة من عمره تحت وقع الضرب المُبَرِّح . . وذا حدث ـ وكثيراً ما كان يحدث ـ أن احْتَجَّ بعض إخواننا فى الرواق على هذا الإيذاء ، فإن أخى يأخذنى إلى الجامع الأزهر الواسع الفسيح ، ويختار مكانا قَصِيًّا ، يستطيع أن يجيل فيه « زُخمَته » بعيداً عن تدخل الفُضوليين . . !!!

لقد انتقلت من مرحلة حفظ القرآن الكريم إلى مرحلة طلب العلم . . وما تُضِيئُه التجربة الخاصة بى يمكن أن تكون تجربة لعشرات الألوف من الدارسين الصغار سِنًّا وقُدرة . . فهل يكون القهر والتجريح هما الأداة الصالحة للتعليم والتربية فى هذه السِّن الباكِرَة . . ؟؟

ثم هل تبقى المعرفة القادمة بهذه الوسيلة فى الذاكرة طويلا ويتاح لها أن تتحول إلى عملية « تثقيف » تَطَالُ بنفعها وبتأثيرها ـ عقل الإنسان ، وروحه ، وسُلوكه ، وطموحه . . ؟؟

وأيضا ـ هل يُثمر هذا الأسلوب فى التربية والتعليم صداقة باقية وحميمة بين الإنسان والعلم . . وبين الإنسان والكتاب . . حتى يتحول من مجرد « عارف » أو « متعلم » إلى مُثقف » له تِجَاه الحياة كلها رؤيته الخاصة ، وعَطاؤه المُفيض . . ؟؟

لابد لهذه « المذكرات » أن تُقدم الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال تجربة كاتبها وصاحبها . . كما لابد من تقديمها إجابات كثيرة وصادقة عن أسئلة أُخَر ، ستثيرها المواقف السياسية والدينية وقضايا العدل والحرية . .

فلنتابع معا قصتى مع الحياة . .

« وعلى الله قصد السبيل » .

* * *



مَنْ جَـدَّ وَجَـد ..
ومَنْ جُلدَ اجتهَد !!!

الحكمة كما نحفظها تقول : « من جَدَّ وَجَدَ » .. ولكن أخى الشيخ « حسين » والمدرسة التى ينتمى إليها ، ولا يزال الكثيرون يستظلون بظلها تُضيف إليها فتقول : « ومن جُلِدَ اجتهَد » .. !!

والمثل الشعبى فى مصر يقول : « إن كِبر ابنَك خاوِيه » !! يعنى آخيه ، وعامله برفق .. هذا ، إذا كَبِر ، وأصبح رجلا يُخْشى تمرُّده ، وبأسه .. !!

طيِّب ـ ولكن الصغير ماذا نصنع به وله ؟؟ إن الطفل كامن فى الشاب ، وفى الرجل ، وفى الكهل ، وفى الشيخ ، كُمون الماء فى العود الأخضر ، وفى الشجرة المورقة ، والنخلة الباسقة ..

الطفل هو قاعدة التمثال .. هو نقطة انطلاق النمو البشرى والشخصية الإنسانية .. وأمام كل جيل ما تغشَّى الجيل السالف والأجيال السابقة ، وما حَاقَ بها حين أهملَت فى تبعاتها عن مرحلة الطفولة ، وخَلَّت بينها وبين الصدقة والعقوبة اللا مبالاة .. وما من قوم إلاَّ خلَتْ من قبلهم المَثُلات تُؤكد دور الطفل فى بناء الرجل ، وأهمية التربية العاقلة السَدِيدة فى مرحلة الطفولة والتكوين .. ولقد بدأنا نُدْرِك هذه الحقيقة منذ حين ، ولكن فى دوائر ضيِّقة ، ولا يزال الأسلوب البدائى فى تعليم الطفل يُسيطر ويَسود .. مع أن الرسول الكريم الذى أنبأه ربُّه الأعلى أن كل شىء عنده بمقدار ، رَفَع القلم ووضع التكْلِيف عن الطفل حتى يبلغ الحُلُم .. أفلا يكفى هذا لفتح أبصارنا وبصائرنا عن حقوق الطفولة فى الرفق ، والرحمة ، وفى ذكاء التوجيه ، ورِقَّة المساءلة .. ؟؟

لِنَعُد إلى « مشوارنا » !!!

* * *

قلت إن نجاح « الشيخ حسين » فى قهر المستحيل المتمثل فى حفظ طفلٍ القرآن كله ، فى خمسة أشهر ، أغراه بالسير على الدَّرْب .. وفى منح « الزُّخْمة » أكثر مما تستحق من الثقة والتقدير !!

وهكذا اعتمد عليها فى تنمية الطفل عقليا وعلميا .. ولا أنْسى ذلك اليوم الذى امتحننى فيه فى المحفوظات ، فلما تألَّق جهدى فى حفظها ، ولم أُخطىء فى كلمة واحدة منها .. إذا هو يُشْبع « الزُّخْمَة » لَثماً وتَقْبِيلاً .. !! ويُنَاجِيها قائلاً : لَوْلاَكِى ما حَفِظ .. !!

قالها « لَوْلاَكِى » بفتح اللام وسكون الواو .. وليس بضم اللام ومد الواو .. وخذوا بالكم فهناك فرق « .... » !!

وهكذا دخلت الأسلاك المجدولة معى أو دخلت معها فى عِرَاك جديد ، وغير مُتكافىء !! ولم يكن ذلك السَوْط وحده مصدر العذاب . . بل إن الصَرَامة التى طَوَّقت حياتى كلها ، والتى ما كانت تصلح لشىء إلا أن تكون « قالبًا » لحذاء . . لا مَراحا لإنسان !! كان أقسى من الصفع ، والركل ، وَوَقْع السِّياط !!

فمثلاً ـ ماذا يُضِير صبى فى دينه ودنياه إذا اكتفى بصلاة الصبح قبل طلوع الشمس بدلاً من إكراهه على النهوض من مَرْقَدِه قبل الفجر بساعة ، أو بنصف الساعة ، والتكهرب فى الشتاء القارس بماء صُبَّ من زمهرير . . ؟ !!

طيِّب !! وإذا أُكره على تَحَمُّل أو مُواجهة هذا الرهَق والعُسْر ، فأىُّ بأس فى أن يصلى الفجر داخل الرواق ، بدلاً من مواجهة صقيع الطريق . . ؟ !!

وإذا تَحمَّل مُكرهاً كِلاَ العُسْرَيْن . . فأىُّ بأسٍ فى تركه يستأنف نومه بعد الصلاة ساعتين يَرْقَأ فيهما جفناه ، ويستعين بهما على مواجهة مسئوليات يوم طويل . . ؟ !!

أضِيفوا إلى ذلك كله أن طفلنا كان رقيق العظام ، ناحل البدن ـ خَفِق الأحشاء ، مَوْهُون القُوَى . . !! . .

على أيَّة حال ، سيكون ما يُريده « الشيخ حسين » فنواياه الطيبة لايُطَالُها شك أو ارتياب . . وحتى إذا كانت أرض جهنم مرصوفة بالنَّوايا الحسنة ـ كما يقول المثل الانجليزى ، فإن أخى العزيز رحمه الله وأكرم مَثْوَاه لا يتعامل مع النار المخُوفَة . . ولا مع أرضها المرصوفة !!! إنما يتعامل ويتناجى مع الجنَّة مُباشرة . . ولقد وَعَى فيما سَمِع عن رسولنا الأكْرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من أحْفَظ مسلماً آية من القرآن ، أو علَّمه مَسْئَلة من العلم دَعَاه الله جل جلاله ، أن يَخْتَار من غُرف الجنَّة أحسنَهَا وأبْهَاهَا . . أما كيف يكون الحفظ ، وما أسلوب التعليم ، فالشيخ حسين فى ذلك حُجَّة ومعه تجربة وَبُرهان . . وهو بهذه التجربة يرى نفسه « ابنَ بَجْدَتِها » ولا يُنبئك مِثْل خبير . . !!!

لا تجعلوا شفقتكم علىّ تَحْجُب عنكم ما أَسْدَاه أخى إلىّ من خير وبِر ونَجاح وفَلاح . . إن الخلاف بينى وبينه . . وبين أجيالنا الماثلة ، والمُقْبلة ، وبين طَريقته يَتلخَّص فى أنّ ما حقَّقه لى بواسطة الأسلاك المجدولة التى تشوى الأبْشَار ، يمكن تحقيقه بالمُثَابَرة فى التَوْجِيه المُؤثِّر والهَادى والوَديع . . وليس بالسَّوْط وحده يَتَعلَّم الإنسانُ . . !

ولعلِّى أكون قد أطلت ـ عن قصد ـ فى عرض تجربتى هذه ، لِنَذْراً بالحسنةِ السيئةَ . . ولتكون تَبْصِرَة ونُوراً على الطريق . . !!

إن أسوأ ما فى هذه الطريقة أنها تَزْحَم الذاكرةُ بما تحفظ لا بما تفهم . . وتُخفى عنَّا مواهب الطفل التى من حَقها أن تجد فُرصتها فى البُزوغ حتى نرى ماذا هناك . . وحتى لا نُقَوْقِع الطفل ونُحاصِر مواهبه بما نريد ، وليس بما يُريد الله له أن يكون . . !!

أجل ـ هنا حَجْر على مستقبل الطفل ، وتَحْجِيم ظالم لِقُدراته وإمكاناته . . !!

ولقد خُضت تلك التجربة بمشاعرى وحدها . . فلما أبعدنى نُموى وثقافتى عنها ، أدركتها بعقلى

وبتفكيرى ، وبالمنطق الهادى إلى سواءِ السبيل .. !!
وتَعَالَوْا معى لنرى ..

* * *

كنت أعرف أن أخى يريد منى حِفْظَ العلم ، لا فهمه .. وكنت أعرف أو أُحسّ أن الشيوخ الذين يُدَرِّسون لنا الفقه والنحو والتوحيد وسِواها ، يريدون نفس الشىء .. مثلما كنت ـ وجميع الطلبة يعرفون ـ أن ورقة الأسئلة فى الامتحان تريد ذات الشىء .. فلم يكن أمامى سوى الحِفْظ ، مُسْتَغنيا به عن الفهم ..

ثم ماذا بعد هذا ؟؟ لا شىء سوى نسيان وإهمال ما حفظتُه بعد أن تحقق الغرض السريع منه .. !!

كنا ندرس فى الفقه كتاب « القاضى أبى شجاع » .. وتسألوننى ماذا أذكر منه ؟؟ لا شىء سوى شروط الوضوء ونواقضه .. !!

وكنا ندرس فى علم النحو « من القطر » .. وتسألنى ماذا بقى معى منه ؟؟ لا شىء إلا بعض أبيات من الشعر الخارج عن أوعلى القواعد المألوفة فى هذا العلم مثل هذا الشاهد :

إن أبـاهـا ، وأبـا أبـاهـا
قــد بلغـا من المجـد غـايتـاهـا !!!

وفى التوحيد ، كُنا ندرس صفات الذات ، وصفات الأفعال .. ولا أذكر الآن وقبل الآن منها شيئا .. !! وكمثال على ما كان لهذا الحفظ المَعْزول عن الفهم من تأثير فينا ـ أقول لكم : إنّنى ظَلَلْت إلى اليوم عازِفاً عن مطالعة كتاب قيم هو « رسالة الشيخ محمد عبده فى التوحيد » .. !!

قولوا : تهيُّبا .. قولوا تحسُّبا .. قولوا تهرُّبا .. المهم أن المعلومة التوحيدية التى فُرِضَ علىَّ فى سنواتى الباكرة أن أتجرعها « حِفْظاً » وحفظا فقط ، لتساعدنى على النجاح فى الامتحان كانت بغير شك وراء ذلك التهيُّب ، أو التحسُّب ، أو الهروب .. !! .

إذن ، فماذا معى الآن من علوم الأزهر التى بدأت معها بداية سيئة .. ؟

أقول : إن الذى معى منها ، هو ما قرأته ودرسته وحصَّلته فيما بعد عن طريق القراءة الحرة التى حاولت بها إعداد نفسى ثقافيا .. ولا سيما تلك المُطَالعات التى كَانت نِعم الزَّاد فى فترة انضوائى تحت راية « الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية » التى سأتحدث عنها إن شاء الله فى مناسبة قادمة .. وحتى اليوم ، فإن مُطَالَعاتى الحرة هى التى يُطْعِمُنِى الله بها ويسقين ، من العلم والمعرفة والإيمان ..

* * *

كانت مناهجنا فى القسم الابتدائى فوق طاقتنا !! وحَسْبُكم مثلاً على هذا ـ ان شرح « من القطر » الذى كنّا ندرسه فى السنتين الثانية والثالثة الابتدائية ، كان يَدْرسُه إلى وقت غير بعيد طُلابُ قسم اللغة العربية بكلية آداب جامعة القاهرة .. بل كانوا يَدْرسُون مُلَخّصات له .. ! وإن الكتاب الضخم الذى كان مقرراً علينا فى السنة الرابعة الابتدائية وهو « شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك » كان ، ولعله

لا يزال - يدرس فى كلية « دار العلوم » بجامعة القاهرة !!!

من أجل هذا ، كان الحفظ وَسِيلة للتعلُّم ، وسُلَّمنا إلى النجاح .. صحيح أنه كان هناك كثيرون من طلاب القسم الابتدائى من استووا ونضجوا ، وكانوا فى السابعة عشرة أو التاسعة عشرة من أعمارهم .. بل كان معنا فى السنة الثانية الابتدائية طالبان متزوِّجان ، هُما الشيخ « على جُودة » والشيخ « سعيد » !!! .. وكان زملائى الذين يعتبرون طَاعِنين فى السِّن إذا قِيسُوا أو قِيسَ بهم طفلنا ابن العاشرة ، أو الحادية عشرة .. أقول : إن أولئك الزملاء كانت ملكة الفهم لديهم مُيَسَّرة ومُسْتَطاعة .. فكانوا يَفْهمون ، وأَحْفَظ .. ويَسْتَأْنون وأُسْرِع .. !!

ومن ثَمَّ لم أبلغ الخامسة عشرة من عُمرى حتى كانت ذاكرتى مثقلة بمحفوظاتى فى الفقه ، والنحو والتوحيد ، وبقية العلوم .. هذه المحفوظات السريعة ، التى سَتُصبح « مَنْسِيَّات » سريعة .. !! .. كُنت سريع الحفظ لأن ذاكرتى وقد أخذت هذا الاتجاه ومُرِّنت عليه ، وتَخصَّصتْ فيه وأَضْحَتْ على ذلك من القادرين ..

وإنى لأكاد أرى الآن مشهد شيخنا « محمد السعدنى » أستاذ اللغة العربية فى الثالثة الابتدائية ، وهو يَخْتار من الزُّملاء من يتلو الجزء الذى طُلِبَ مِنَّا حفظه من « ألفية ابن مالك » فَتَخْذُل الجميع ذاكرتهم .. ثم يدعونى فضيلته لِتَسْمِيع الأبيات ، فأرويها كأنِّى أتْلوها من كتاب !! ثم يدعونى رحمه الله تعالى ويدعو من الْمُخْفِقِين أطولهم قامة .. ويَأْمُرهم بالوقوف إلى جانبى فى مقدمة الفصل مُوَلِّين وجوهنا إلى زُملائنا .. ثم يَقِيس ما بينى وبينهم من مسافة ملحوظة فى الطول والعرض بروح مودَّة وفكاهة .. ثم يقول فى مِثْلِك يا خالد قال الحكيمُ : « المرء بأَصْغريْه - قلبه ولسانه » !! وفيكم أيها السادة قال الشاعر : « جِسمُ البِغَال ، وأحلامُ العَصَافير » ... !!

ولكن هل انتفع « خالد » بما رآه شيخنا مَزِية ، وهو الحفظ ؟؟ فى رأيى أنه لم ينتفع .. ولعلَّ المستقبل كان سيكون أَوْفَى نصيباً لو لم تَتَقَوْقع الذاكرة فى دائرة الحفظ وحدها ، فى تلك السِّن الغضَّة .. ولكن فضل الله أدركه ، فما كاد يبلغ الخامسة عشرة من سنه حتى راح يُنَوِّع قِراءَاتِه خارج الْمُقَرَّر المَعْهَدى .. ثُمّ الجامِعِى .. وراح يختار من الكتب التى لا تَنوء بِشرائِها قُروشه المَعْدُودة والمَحْسُوبة - ما يحتاج إلى إعمال الفكر ، وشَحْذ الذِّهن ، وإتَاحة الرَّحابة للذاكرة ، مكان الرَّتابة التى كانت تُضْجِرها وتُحْجِر عليها .. !!

ولقد حَدَّثتكم من قبل عن أول كتاب ثقافى اشْتَراه من مصروفه اليومى .. فبعد تَطوافِه بالمكتبات المبثوثة فى جنبات الميدان الفسيح أمام الجامع الأزهر ، وبعد تقليبه عشرات الكتب التى سَيَخْتار منها طَلِبَتَه ، اتجه إلى كتاب هو أبعد ما يكون عن ثقافته ، واستعداده .. ألا وهو « مذكرات لورد جْرِيى » الذى كان وزير خارجية بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى .. !!!

إذن فقد تحرَّرت ذَاكِرته من الحصار الذى كان مضروباً عليها ، كما تحرَّرت من رِبْقَة الحفظ وتفتحت نوافذُها ، وبدأت رياح الشمال تَهُبّ عليها من الجهات الأربع .. !!

وسيمضى صديقنا فى رحلته المَيْمُونة ، وطريقه اللاّحِب والمُبْهِج والأثير .. !!

ها أنذا ، أحصل على الشهادة الابتدائية ، وأمامى الباب المفتوح على مرحلة التعليم الثانوى . . ولَكَم يَبْدو هذا حدثا سَعيدا فى حياتى !! فلا شىء هناك يَشْهد بأن عصر الشباب قد أهَلّت أيامه ، مثل أن يرى الشاب نفسه فى التعليم الثانوى الذى سَيُلْمه بدوره إلى التعليم الجامعى ، مصاحباً أمل الدنيا ، ودنيا الأمل . . !!

خلال تقلُّبى فى سِنِى التعليم الابتدائى ، كانت الأجازات الصيفية فُرصتى المُتَاحة لرُؤية القرية ، وأهلى ، وصِحابى . . كذلك كان لنا ـ نحن طلبة الأزهر ـ فى جميع مراحل الدراسة امتياز آخر ، فكان شهر رمضان من كل عام أجازة نقضيها فى مَرَاتع الصِبَا بين الأهل والأتراب . . !!

وإذا كنّا لا نَزال أطفالاً وغِلْماناً ، فقد كنا نقضى الأجازة فى لعب الأطفال والغلمان . . وكانت أحبُّ الألاعِيب إلينا فى الليل لعبة « الإستغماية » وفى النهار لعبة المدرسة ، حيث نخرج إلى الساحة الواسعة القريبة من دُوَّار العائلة » وتُسَمَّى « أرض الجُرْن » . . ونجمع الأطفال الأصغر سِنًا فى فصلين أو ثلاثة . . ثم يكون منّا الناظر والمدرسون . . بينما أشْغَل أنا منصب المفتش . . وأبدأ اتجاهى إلى المدرسة من أول الجرن ، أمتطى ظهر حمار . . ويهرول على أثر خُطاه فراش المدرسة المفروض فيه أنه جاء يستقبلنى من مهبط الأتوبيس الريفى حتى باب المدرسة . . حيث يستقبلنى الناظر ، ثم أبدأ مُرورى على الفَصْلين أو الثلاثة . . ثم تنتهى الزيارة بإعطاء الناظر والمدرسين نَصَائِحِى وتَوْجيهاتِى . . ثم آخذ مكان الناظر ليمتطى هو ظهر الحمار مهرولاً به إلى النقطة التى نبدأ منها خُطانا ، أو خُطى الحمار إلى المدرسة ، ويعود الذى كان ناظراً منذ دقائق مُفَتشاً . . بينما المفتش منذ دقائق الذى كُنْتُه ، يعمل ناظراً . . وهكذا يأخذ كل منا دوره كمفتش حيث يتبادل المدرسون جميعاً نفس الدور . . !! ثم ينتهى اليوم المدرسى بسلام . .

ولست أنسى أول يوم نُمارس فيه هذه اللعبة فى الأجازة الصيفية إذ جاء دور أحدنا فى شغل وظيفة المفتش ، وكان مُسرف السِمْنة ، مُفرط البَدَانة وأخذتنا الشفقة على الحمار العجوز المُتهالِك . . فاتفقنا مع فراش مدرستنا العابثة أن يَغْمِز الحمار بطرف عَصاه فى مكان حسّاس ، بحيث يُسْتَثار فَيُلْقى زميلنا على الأرض ، فنتضاحك ، ونُنْقذ الحمار المَحْطوم . . !! وأنجَز الفراش المُؤامرة بعمل شَيْطانى . . فقد كان يعتاد شَمّ « النُشوق » ويخلطه بقليل من مسحوق « الشُطّة » مؤكداً أن هذه « الخَلْطَة » تستل البرد من الجسم . . !!

وهكذا لم يجد الحمار يخطو نحو المدرسة حتى اقترب منه وتظاهر بأنه يصلح من وضع الشكيمة « اللِّجام » ، وملأ طاقتى أنف الحمار بنشُوقه الأثيم . . لم نكن نحن الواقفين على باب المدرسة فى انتظار حضرة المفتش نعرف شيئا عن المَكِيدة التى وقع فيها الحمار . . لكننا حين بَصُرنا بمنظر المفتش وهو يسقط على الأرض ، والحمار يرفس الفضاء بساقين كليلتين ، ويُعربد هنا وهناك ، كأنما لسعته النار . . صاح أحدنا قائلاً : يخرب بيتك يا هنداوى . . الواد شَمّم الحمار نشوق بالشُطّة ؟ !! أما زميلنا حضرة المفتش ، فلولا بدانتـه وسمنته اللتان صَانتَا عظامه وكَوَّنتا عَازِلا بين العظام والأرض ، لحدَث مالا تُحْمد عُقْباه . . !! ولاضطررنا إلى إغلاق المدرسة لفترة حداد . . !

هكذا كنا نلعب ونطرب فى الأجازة وكأنما هذا اللعب مظهر لتشبث الطفولة بنا ، وتشبثنا بها حيث لا يُريد كلانا أن يُحرمه عامل الزمن من بَراءَتِها وَمَبَاهِجَها واستمرارها . . !!

وفى يوم لابد منه ، يَجِيءُ حاملاً الأمر بالرحيل ، ونعود إلى دراستنا من جديد . .

وفى السنتين الثالثة والرابعة من القسم الابتدائى كان أخى « الشيَخ حسين خالد » رحمه الله تعالى قد اهتدى أو هُدِى إلى التتلمذ على العارف بالله ، إمام أهل السنة والجماعة فى عصره وبعد عصره « سيدى الشيخ محمود خطاب السبكى » رضى الله عنه ، وأرضاه . .

ألا فاحفظوا هذا الاسم جيدا حتى نلتقى به على صفحات قادمة من المُذكَّرات ، فإن له لَنبأ ينفرد بالإعجاب دون غيره من الأنباء . . ثم إن له فى حياتى نَبْضاً باقياً وفريداً . . مثلما لإبنه ولخليفته من بعده ـ « سيدى الشيخ أمين محمود خطاب السبكى » رضى الله عنه وأرضاه . .

أقول : كان « الشيخ حسين » قد عرف طريقه إلى الشيخ الإمام ، فصرنا لا نصلى الجمعة إلا فى مسجده الذى أنشأه بجوار بيته مكان الحديقة فى عطفة « الجُوخْدار » بالخَيَّامية ، شارع المغربلين الممتد بين الغُورية وشارع محمد على . . وكانت الجُموع الحاشدة تَؤُم هذا المسجد الشرعى المُبارك لتُصلى الجمعة مع شيخها وهاديها إلى الله ، ثم لِتَسْمع درسه الحَافِل بعد الصلاة . . كذلك كنت أصحب أخى لَيْلَتى الجمعة والسبت من كل أسبوع فَنُصلِّى العشاء فى جماعة المسجد ، ونتلقى بأُذِن واعية درس الإمام . . « شرح أحاديث سنن أبى داود » ، ليلة الجمعة . . وشرح الأحكام الفقهية ليلة السبت . .

كان مكاننا المختار يوم الجمعة فى « المُبلّغة » بالمسجد وكان مكانا مناسبا جدا لكى نرى الشيخ رؤية نستمتع فيها بكل أنوار وجهه وجمال مُحَيّاه ، وجلال شخصيته . . !! وكنت أصطحب معى إلى المسجد يوم الجمعة كراسة وقلما . . وَفْق أوامر أخى . . فإذا نطق الشيخ خلال درسه بحديث نبوى سطرته فى الكراسة ، ليقوم الشيخ حسين بَعْدئذ بحفظها . . وإذا غفلت وأخذتنى سِنَةٌ من النوم ، استيقظت فَزِعا على أثر « قَرْصَة » فى فخذى يكاد الدم يطفر من مكانها . . !! بيد أنَّه من فضل الله علىّ أن هذه القَرْصة الكاوية كانت قليلة ، وربما نادرة . . ذلك أن ما كان يُضاء به وجه الشيخ الإمام من نور وبهاء وسَنا ، لم يكن يسمح لأدنى سِنَة من النوم أن تخرجنى من هذا المحراب . . محراب جماله وجلاله ، وبهائه ، حتى لكأنَّ الشَمس تشرق من خلاله . . وكان الدرس يطول وتُقَرْقِر أمعاء طفلنا من الجوع . . ومع هذا كان يتمنَّى أن يمتد الدرس ويزداد ، حتى لا يحرم الطفل من أعظم متع حياته يومئذ . . استدامة النظر إلى وجه الإمام . . !!

* * *

وكانت هناك مثوبة أخرى لصلاة الجمعة فى مسجد الجمعية الشرعية . . فبعد مُنْصَرفِنا من الصلاة والدرس ، يصطحبنى أخى إلى محل « السُوبيا » التى يصنعها « الرحمانى » والتى كانت بروعة مذاقها إحدى عجائب الطيبات من الرزق . . وكان رُواد المسجد يقفون صفوفا ، كل ينتظر دوره لينعم بمذاق هذا الرحيق . . !!

وكان محل السُوبيا قريباً جداً من المسجد مما يتيح لعشّاقها أن يُقبلوا عليها فى شوق متجدد وعَوْد حميد !!

* * *

كان لأخى « حسين » صحاب ، هم الذين عَرَّفوه بالجمعية الشرعية وبشيخها العظيم . . وكان لقاؤهم الدائم بالجامع الأزهر يَتَذاكرون العلم وَيَتَدارسونه . . وكان لأبناء الشيخ سمت خاص . . فهم يَعفُون اللحى ، ويَقُصّون الشوارب ، ويتعممون فوق « طاقية » أو طربوش عمامة منزوع الزِّر ، ثم يغرسون طرف العمامة فى جزئها الخلفى ثم يتدلّى فوق العُنق من الخلف وبين المنكبين ، وتسمى هذه الذُّؤابة ـ « العَذَبة » . . وتروى الأحاديث الصحيحة أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يُرسلها هكذا . . وفيما جدَّد الإمام السبكى من أمر الدين إتقان الصلاة وفق منهج الرسول فيها . .
- فالصلاة التى ننقُرها نَقْر الغراب ، ينكرها الرسول ، ولا تُفتَّح لها أبواب السماء . . !! بل لابد من الطمأنينة السابغة فى الصلاة . . بيد أن كثيرين من تلاميذ الشيخ الإمام كانوا يُبالغون فى فهم الطُمأنينة وتَطْبيقها . . ومن هؤلاء كان أصدقاء أخى « حسين » الذين كانوا إذا نُودِى للصلاة التى يكونون حاضريها فى الجامع الأزهر ، انتظروا حتى يفرغ الإمام والناس من الصلاة . . ثم يقومون للصلاة فى جماعة خاصة ، ربما تستغرق صلاة الفريضة فيها نصف ساعة . . !! وكانوا على موعد أن يصلوا الفجر فى الأزهر ، بعد أن علم « الشيخ حسين » أن الصلاة كما تؤدى فى مسجد الإمام الحسين تشوبها السرعة وبعض البِدَع .

* * *

الشيخ حسين يتزوج ..
والعصافير تُفَرد للحرية !!!

كان أخى « يوسف » الأكبر منى ، والأدنى سِنًّا من أخينا الأكبر « حسين » خفيف الروح حُلو الفُكَاهة . . كان موظفا يتقاضى مرتبا يكفى أسرة فى الثلاثينيات ، بيد أنه كان مِتْلافا . . !! ومِن ثَمّ فعلى الرغم من أنه كان « عَزَبا » . . فإن مرتبه لم يكن ليصبر معه أكثر من أسبوع ، ثم يقضى بقية الشهر على الإقتراض . . وتسألنى : وأنّى له سداد ما يقترضه ؟؟ أجيبك : هنا مَربط الفرس الذى لم يكن يعرف سرَّه سِوى « يوسف أفندى » . . !!

كان يقطن مع « محمد » زميله فى العمل بإحدى الشقق فى مصر الجديدة . . وكنت أتردد عليه لزيارته . . فإذا وجدت على نَضَد غرفته اللافتة النحاسية المكتوب عليها : « إن شاء الله ، لابد من الفرج » أدرك أن حالته المعيشية فى مستوى « لا بأس » . . !! فأجد فى نفسى الشجاعة على أن أطلب منه بعض المال ، ولو قَرْضاً . . !! وحين تضغط الحياة على ضُلوعه ، ولا يجد ما يُنفق فإنه يرفع اللافتة النحاسية ، ويضع مكانها أخرى مكتوب عليها : « والله العظيم ، لابد من الفرج » . . !!

أى أنه كان يمتلك لافتتين :

الأولى : إن شاء الله ، لابد من الفرج إذا كانت رِيحُه تَجْرى رُخَاءً . .

والثانية : تقول والله العظيم ، لابد من الفرج ، إذا كانت ريح أرزاقه عَبُوساً قَمْطَرِيرا فهو يَتحدَّاها بهذا القسم ، وتلك اليمين . . !!

ويبدو أن الخبيث الماكر شرع يستخدمها ضِدى . . فصرت كلما زرته يوم الخميس من كل أسبوع كما هى العادة ، يخرج اللافتة الثانية من مكمنها ، ويضعها فى مواجهة الداخل إلى غرفته ـ ليس ذلك فحسب . . بل استبدل بها لافتة أخرى أكبر حجماً وأضخم كلمات . . !! فلما عرفت حيلته معى أو تَحَايُله علىّ ، وعرف أنّى عرفت ، قلت له ذات يوم :

— تعرف يا يوسف . . إن نفسى تستريح كثيراً لهذه اللافتة . . وتستروح منها الخير وتَفاؤُلى بها كثير . . وإنى مقترح عليك ألا ترفعها من مكانها هذا أبدا . . إن القسم بالله الذى يتوجها يدل على ثقتك الكاملة بالله سبحانه وتعالى ، ويمنح التفاؤل والأمل . . وإن عبيرها ليملأ صدرى هو الآخر بالشجاعة فى طلب « المَعُونة » منك !! وضَحِكْنا . . ولنا عودة إليه فإن له فى نسيج حياتى خيوطاً كِثَاراً . . !!

لقد أتيتُ الآن على طرف من حياتنا معاً لأبرز حالتى النفسية التى كنت أعايش بها أخى « الشيخ حسين » فقد كان شِعارى تجاه صَفعَاتِه وَركَلاته و« زُخْمته » ثُمَّ تِلْقاء إكراهى على المذاكرة ، والعبادة بطريقته الخاصَّة هو الشعار الذى اتخذه أخى « يوسف » لأيام العُسرة : « والله العظيم ، لابد من الفرج » . . !!

فهكذا كنت أقول لنفسى عَزَاءً لها وتَصَبُّراً على ما تُلاقِيه ، « والله العظيم لابد من الفرج » . . !! حتى جاء الفرج من أوسع الأبواب . . !! فقد خطب أخى حسين الآنسة « نبوية » بنت زميله فى العمل وأخيه فى الله الشيخ « أحمد يوسف » وكان هو وزوجته رحمهما الله من أكثر الناس جوداً وكرماً . .

ولما كان الزواج عند أبناء « سيدنا الشيخ محمود خطاب السبكى » مُحَرَّراً من وطأة التقاليد الضاغطة والمكلِّفة ، فقد تم زواج أخى سريعاً لِيُسر إجراءاته ، وربما أيضا لدعواتى الملحة على ربى أن يُعجِّل بليلة الزفاف ، التى سيتلوها ـ إن شاء الله ـ نهار خَلاصِى . . !!

وتمَّ المراد ، وهَطَلتْ رحمة الله على العباد . . وأقام أخى « الشيخ حسين » بمنزل صهره بالجيزة . . !!

وحِيلَ بينى ، وبين سوطه وعصاه . . كما حِيلَ بينى وبين صلاة الفجر مؤتماً بالشيخ الورع الفاضل « محمد النوبى » ونجا ونجوت معه من العبارة الوَقِحة التى رَدَّدتها ذات يوم فى سُجودى « يخرب بيتك يا سُنِّى » !!!

* * *

ولكن بزواج أخى ، وبإقامته البعيدة من الأزهر ، برَزَت مشكلة إقامتى . . واشترك فى محاولة حَلِّها أبى وخالى أحمد ، وخالى عبدالصمد ، وأخى يوسف . . فأما الإقامة مع يوسف ، فقد استُبعِدت تماما بسبب سكنه البعيد ـ فى مصر الجديدة . . وأفضى الحوار إلى إقامتى بمنزل خالى « أحمد » مع الإحتفاظ بحقى فى التردد على رواق الشراقوة ، لأحتفظ على الأقل بما كان معنا من خزائن الرواق . . ولأبيتَ فيه عندما تطول أُمسيات المذاكرة مع زملائى فى الرواق والذين تجمعنا سِنٌ واحدة . .

ومن عجب أن خالى « عبدالصمد » الذى كان وكيلا لشيخ الرواق ، والذى حدثتكم عنه من قبل ـ كان يوصى بعدم بَقَائى فى الرواق قائلا لأبى : إنه عفريت !!! ولم أكن عِفريتا ولا نَفِريتا . . كل ذنبى عنده أننى كنت أجلس مع المتحَلِّقين حول الشيخ « إبراهيم » الذى يُضْحكنا ويُمتعنا بتقليده الذَّكِى ومُحَاكَاته العَجِيبة لخالى « عبدالصمد » فى حركاته وكلماته حين يَرْضَى ، وحين يَغْضب . . وحين يَسْتَرسِل فى حديثه مع نفسه . . !! وزاده سَخَطا علىّ أن تقليد الشيخ إبراهيم اسْتَهوانى واستغوانى ، فَرُحْت أحَاكِيه ، حتى صِرتُ مُنافساً خَطِيراً له . . !! وكنت فى أسفارى إلى القرية ، وفى بعض مجالس العائلة ، أقول لهم : أُقلِّد لكم خالى « عبد الصمد » ؟؟ فيرحِّبون . . وأمضى فى مُحَاكاته حتى يَخِرُّوا للأذقان ضَاحِكين . . !!

ولن يرضى عنّى إلا بعد حين ، عندما يعلم أن النقراشى باشا سيصطحبنى معه إلى الاسكندرية لأكون ضمن خطباء حفله الإنتخابى الكبير . . !! ثم حين كان يهم بالخروج من الرواق ، وإذا رجل

أنيق يسأله : من فضلك ، هل الشيخ خالد محمد خالد يسكن هنا ؟؟ فيجيبه : هو الآن غير موجود هنا . . عاوزه ليه حضرتك ؟؟ قال : بعد أن أخرج بطَاقته « الكَارت » من جيبه وقدمه إليه : أنا سكرتير خاص معالى وزير الأوقاف « صفوت باشا » . . ومعالى الوزير يريد أن يراه . . !! فتهللّت أسارير وجه ابن عم والدتى خالى « عبدالصمد » . . وقال له بكثير من الزهو والفخار : أنا يا سيادة البيه خاله . . ويكره إن شاء الله سنكون فى مكتبك ، أنا وهو . . !!

طبعا لم يكن هذا اللقاء فى السِّن التى لا تزال موضع حديثنا ـ بل كان فى زمن قادم ، وأنا طالب بالثانوية أو الثالثة الثانوية . . !!

أما لماذا حَرص « النقراشى » باشا ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة على أن أكون أحد خُطباء حفله الإنتخابى فى إحدى دوائر الاسكندرية على ما أذكر . . ؟ ولماذا أرسل « محمد صفوت باشا » وزير الأوقاف يومئذ فى طلب لقائى ، فلهذا كله حديث مُفيض ، عندما تقدم هذه المذكرات قصة السياسة فى حياتى ، وحياتى مع السياسة . . !!

* * *

تزوج أخى العزيز الشيخ « حسين » إذن ، وأقام فى الجيزة . . وقضى « شهور » العسل خالصة لنفسه . . ولم يَزُرنى خلالها فى منزل خالى « الشيخ أحمد مكاوى » أو فى « رواق الشراقوة » إلا مرتين أو ثلاثا . . وَوَاتت الفرصة نفسى وبدنى لِيَبرآ من آلام الحياة الذَّاهبة والغَاربة . . وأحْسَسْت أنّى أولد من جديد ، فَتى قويًا وشاباً أبيًا . . وتَلَقَّت أُذُناى فى حبور وانتشاء غناء الطيور للحرية ، وتَغْريد العصافير لها . . . !!

وكانت فرحتى الكبرى أن الحرية لم تَجِىء فى الوقت الضائع ، ولا فى الزمن الأخِير . . بل جاءت فى أوَانِها ، لِتكون الضوء الذى أرى فى إشعاعه حقائق الأشياء ، ومَفَاهِيم الحياة ، ولأقف وأسمع ، وأبصر ، وأعيش حياتى مُمَثِّلا نفسى ، ولا أعيش حياة الآخرين ، مُضِيفا إليهم نسخة جديدة منهم . . !!

ولم تعد الحياة أمامى جَفافا وتصحُرا . . بل أصبحتْ غِياضاً ورِيَاضاً ، تجرى من تحتها الأنهار . . يَفُوح منها عطر الأزاهير ، وتَتَدَلّى عَنَاقِيد الفاكهة ، أما أغْصانها المُتَناجية دوماً فتشبه أن تكون فى مؤتمر . . وكأنها أحباب . . !!!

ولكن بعد حين ستنتهى « شهور العسل » التى حقّق الشيخ حسين من خِلالها ذَاتَه وأشبع نهمته . . !! وأصبح لديه الوقت لِيُكثر من « الحَمَلات التَفْتِيشية » على وديعة الله عنده ، والذى هو أنا . . !!

لكنه كان يجىء فى مُفاجآته خالى اليدين من « الزُّخْمة » وكان ماكراً فى اصطناع تلك المُفاجآت . . فقد يجىء ـ مثلا ـ فيلتقى بى ويرانى ، ثم يغادرنى إلى بيته مُخلّفا معى الظن بأنه لن يعاود الكَرَّة قبل أسبوع أو أسبوعين . . ثم إذا به يُفاجئنى غدا بأخرى من زيارته غير الودِّية . . ؟ !

* * *

وأهلّ من جديد موعد أجازة صيفية أُخرى . . وحملت حقيبة ملابسى وكُتبى مُيمّما وجهى شطر وطنى الأول فى قريتى « العدوة » مركز « ههيا » مديرية « الشرقية » . . وقضيت ليلتى الأولى هانئاً سعيداً . . وفى ضُحى غد ، وأنا جالس مع أبى يحتسى القهوة ، ويجذب أنفاس « النارجيلة » ـ الشيشة ـ وحوله ضيوف الصباح من أصدقائه ، إذا أحد أفراد عائلتنا الكبيرة جاء يقطع الأرض وَثْباً من حقلنا « أبو عَفّان » مُخبراً أبى أن ناظر التفتيش ومعه « المُحضَر » فى طريقهم إلى الحقل ليحجزوا على مواشينا ، سدادا لدين مُفْتَعل ومَزْعُوم ، ، اتّخذ مُبرراً لحرماننا من ماشيتنا . . !!! وأسرع أبى إلى هناك . . وشهد توقيع الحجز على ـ بقرة ـ وجاموسة ، وحمار ـ وعلى « قُلّة » كلبة الحراسة الرشيقة الأنيقة التى لم تكن تترك الماشية قط ، لا فى البيت ، ولا فى المرعَى . . وكانت موضع حبنا واعتزازنا جميعا . . !!

كان القانون يقضى بندب أحد الناس ليتسلم الماشية المحجوز عليها . . إلى أن يُبرىء المدِين ذمّته ، وتُرد إليه ماشيته !! وأراد المحضَر أن يُجامل أبى ، فسأله : من تختار يا عم الشيخ محمد ليتسلم موضوع الحجز ؟؟ فأجابه أبى فى تَهَكّم على الناظر وسخرية به : اسأل الأفندى اللى واقف جنبك !! وتَميّز الناظر من الغيظ ، وهتف باسم الحارس الذى اختاره ، وتَمتْ الإجراءات ، وتقدم خفراء التفتيش ليسحبوا الماشية حتى يَبْلغوا بها دار الحارس المعيَّن مِن قِبَلْ الناظر والمحضَر . . وتقدَّم فلاح قريب لنا بحمارته التى كان قد أعدَّها مُسَبَّقا ، كى تصلح لركوب والدى رحمه الله ، عليها . . !! ونادى : تعال يَابَا محمد . . تفضَّل اركب . . وجعل وَقفة حمارته بعرض الطريق لتَسُدّ منافذه أمام الناظر والمحضَر !! وتقدم أبى فى شِمُوخ وامتطى ظهر الدابّة المِضْيَافة . . ولم أر ، ولا أحسُبنى سأرى قط منظراً أعجب ولا أفْكه مما حدث ساعتئذ . . فما كادت الحمارة تستقبل وجه الطريق ، وتستدير موكب الناظر والمحضَر ، حتى أَطْلَقت غازّات جوفها فى صوت كالمدفع جعل الفلاّحين يَتَضَاحكون ويصفّقون . . ونسى الناس مَنْ شَهِد ومن بلغه الخبر أمر الحجز ، وراحوا يَتندَّرون على الناظر والمحضَر ، والحمارة تُطْلق مدافعها من خلفيتها تكريماً لهما وتحية . . !!!

* * *

كان من حق الحارس أن يستمتع بـ «لَبَن الماشية » لكن حارس ذلك اليوم كان رجلاً !! وكم كان يُسعدنى لو أعرف اسمه ، لأعطّر هذه الصفحات والحلقات به . . وأُحَيِّى بكل صدق الكلمة وبلاَغتِها عظمة نفسه . . !

فحين سَجَى الليل جاء يقرع باب دَارِنا ، مُخْبِراً أبى أن ألبان البقرة والجاموسة ـ وكلتاهما ـ كانت يومئذ « حَلَوْبا » ستصله مع إحدى بناته كل صباح قبل طلوع الشمس . وأنه سيضع حماره فى خدمته ، راجياً ألا يُذيع خبر هذه المكرُمة التى خَاطَر بتقديمها . . !!

وهكذا فقد الحجز على ماشيتنا أهميته ، وأصبح غير ذى موضوع . . ولم أشْق بهذا الحجز هذه المرة . . كما شَقِيتُ به من قبل ومن بعده ، حين كان التفتيش فى صراعه مع أبى يختار الحارس من شياطينه وعُملائه ، فَأُحْرم واخوتى من شرب اللبن وثَرِيده بضعة أسابيع !!

* * *

قلت لنفسى : عجبا !! إن « أولاد الإفاعى » لم يتركونى أنْشَقُ عبير الحرية التى فرحت بمقدمها بعد طول انتظار وشوق .. !!!

أتكون هذه هى الحرية .. أن يُحارب التفتيش رجلاً كل خَطِيئَته أنه يسفه أحلامه ، ويطوى رُويدا رُويدا أعلامه ، ويَنْفُخ فى الفلاحين المقهورين روح المقاومة .. ؟؟

ومرة أخرى ـ أتكون هذه هى الحرية ؟؟ ! بَيْدَ أنى سرعان ما رَفَضْت إلحاح هذا السؤال علىَّ .. وحَصَّنْتُ فى سرعة وحَسْم حبى الحرية وتَقْدِيسى لها من كل تساؤل يَرْبُط بينها وبين مظاهر الظلم الاجتماعى بِشَتَّى ألوانه وصُنُوفه .. !!!

كنت أشبه شىء بالأم التى طَالَ شَوْقُها إلى وليد ـ ذكر أو أنثى ـ فلما أشرقت شمس يوم عليها وبين يديها الحانيتين مهد « تُلاعبه » وكان وليدها بنتا فى وجهها قَليلُ من التَشَوُّهات لم تَر فيها إلا شمس الشُموس ، وبدر البُدور .. !! وأسْكنتها مع حَدَقَتَىْ عينيها ، وفى شِغَاف قلبها ، وراحت تعوِّذها وتُرْقيها من شر النفاثات فى العقد .. ومن شر حاسد إذا حسد .. !!

* * *

هكذا استقبلتُ أول موجة من الحرية .. انتماء ، وولاء ، وعشق بلا حُدود .. ورفض للكلمات الزائفة التى تُطَالب برأسها وبطَمْس إغرائها ، وإطفاء نورها ..

لم أنس أيامئذ ، وأنا فى بَوَاكِير شبابى ، بعد أن وَدّعت طفولتى أن الحرية تُسْتغل لِتَمْكِين القَوى من الضعيف ، والغنى من الفقير ، والشِّرير من الخَيِّر ، وذوى المناصب والجاه مِمن تَعَرَّوْا من كل منصب وجاه .. !!

بدأت أعرف ذلك كله وأُدْركه ـ وقرَّرت ألا أَنْسَى .. !!! فى يوم الحجز على ماشيتنا بكيت لا من أجل الحجز ذاته .. بل لانعكاساته على مشاعر أبى الذى أحَسَسْت أنه كالأسد الجَريح ! ولكن ـ ألا تسألون عن أسباب حرب القُفَّازات التى لبثت عهداً طويلاً بين أبى والتفتيش .. ؟؟

ألا إنّى مُجيبُكم ..

كانت فاشِية الإقطاع تَفْشُو فى مصر من أعلاها إلى أدْنَاها .. وبدأ الإقطاع يأخذ صيغة الشَرْعية ، ووضعه القانونى عندما قرّر « محمد على باشا » وإلى مصر أن يَسْلُب من الفلاحين ملكيتهم الأرض التى يزرعونها ، ويعزو هذه الملكية لنفسه ، أو للدولة التى كانت وإيّاه شيئاً واحداً وسلطة واحدة ..

ونَمَا الإقطاع وتَطوَّر ـ كمًّا ونَوْعاً ـ مع خلفاء « محمد على » من أبنائه وحَفَدته .. !!

وأمسى امتلاك المساحات الوسيعة من الأرض الصالحة للزراعة بجهد يسير أو عسير فى إمكان الكثيرين ممن يستحوذون على رِضَا الخديو ـ أىّ خديو ـ ويسيرون على الدَرْب الذى قيل عنه : « مَنْ سَار على الدربِ وصلَ » .. !!

وإذا كان مالكو الأرض الجُدد قد غَنِموا كثيراً فإن الفلاح المصرى الذى كان عاجزاً عن الوقوف وحده قد غَنِم أيضا باستصلاح الأرض التى سَتُخرج له رِزْقه وفيراً رخيصاً .. وغَنِم إمكان امتلاك بعض هذه الأرض يوماً ما ، هو أو أبناؤه .. وغَنِم فُرصَ العمل السخيَّة فى تلك الأرضِين الشاسعة .. وإذا كانت

القِلّة الثرية القادرة هي التي مَلَكت الأرض أولا ، فَغَداً سَتَجيءُ على أثرها « البرجوازية الريفية » فتشاركها في معظم غَنَائِمها ومغانِمها . . !!

* * *

كانت قريتنا واحدة من قُرى أربع تقع ضِمْنَ تفتيش الأمير « محمد عبدالحليم » . . وانتهى ميراثه إلى امرأتَيْن عَجُوزيْن ، تُقِيم إحداهما في مصر والأخرى في تُركيا . . وإليهما معاً ، كانت تُجْبَى ثَمراتُ كل شيء . . !!

كان الفلاح - وكل المواطنين ، كانوا يُسَمُّون بالفلاحين عند أتراك الأسرة العلوية . . !! يعيش مَسْلُوب الجَهْد والرزق . .

وكان المواطنون في البلاد التابعة للتفاتيش المَلَكية ، وغير المَلَكية ، يَسْتأجرون الأرض التي يحتاجونها ويطيقون زراعتها وتَكاليفها . . ويقومون بتسديد الإيجار من محاصيل العام الزراعي كله .

كذلك كان للتفتيش أرض يحتجزها لِنفسه ، ويقوم بزراعتها لِحسَابه . . وفي هذه الأرض كانت تقع مفارقات مُضْحكة ومُفْزعة - منها مثلاً - أن التفتيش كان يستأجر الفلاح في اليوم بخمسة قروش . . ويَسْتأجر حماره أو حمار غيره بعشرة قروش . . !! أي أن « الحمار المصري » كان أغلى وأعلى من « الفلاح المصري » . . !! وكان لكل تفتيش مُفتشه ونُظّارِه ، والعاملون فيه . . وكان لكل من هؤلاء سَطْوة تَتَساوى طرداً وعكساً مع وظيفته . .

أما المفتش فيكاد يكون مَعْبُودًا . . ولولا بقية من إيمان لقال الناس : « سبحان مفتش التفتيش الأعلى » . . ؟ !!

وأشهد أنه كان هناك إجماع من أهالي البلاد الأربعة التي يَنْتَظِمها التفتيش الذي كنّا له تَبَعا - وهي : العدوة . . وصُبيح . . الزُرْزَمون . . والمطَاوْعة . . على أن هناك رجلاً واحداً يُقاوم ظُلم التفتيش وظُلِماته ، ويقف موقف النِّد للنِّد مع مفتش التفتيش . . وهو « الشيخ محمد أبو خالد » . . !!

لست أقول ذلك ادعاء . ولا افتخارا . . فما كان أبي يسعى إلى « عنتريه » يَزْهُو بها ويَفْخَر بل كان - وهذه شهادة أُخرى - يَرى أنه يُؤدى واجباً يَلحُّ عليه ، ويُناديه إليه . . !!!

وكان مستعداً دائما لدفع ثمن إبائه ، وتَمَرُّده . . !! وتصوروا أن أهل قريته الذين كرَّس حياته للدفاع عنهمْ ، كانوا يُقَاطعونه - مُكرَهين - حين يَتَعرض لنوبة من نَوْبات الغضب أو « الصرع » الذي يُصيب المفتش أو الناظِر عندما يتحدَّاهم ذلك الرجل الشجاع ، تَغَمَّده الله بواسع رحمته . . !! بل حتى بعض عائلته كان ينضم لحركة المُقاطعة خوفاً على مصالحهم وذواتِهم . . !! وكان تعليقه الوحيد على هذا ، قوله : « مساكين » !!

* * *

وظلت القيمة الإيجارية تَتَصاعد مع الأيام حتى جاء اليوم الذي كان الفلاح المُسْتأجَر يُطَالَب بتوقيع العقد على بَيَاض . . حيث يقوم التفتيش - فيما بعد - بعد حصاد الأرض والزرع بتحديد المطلوب في ضوء أسعار المحاصيل . . !!

ولم يكن ثَمةَ عسف ولا ظُلم يَفُوقان هذا العسف وذلك الظلم . .

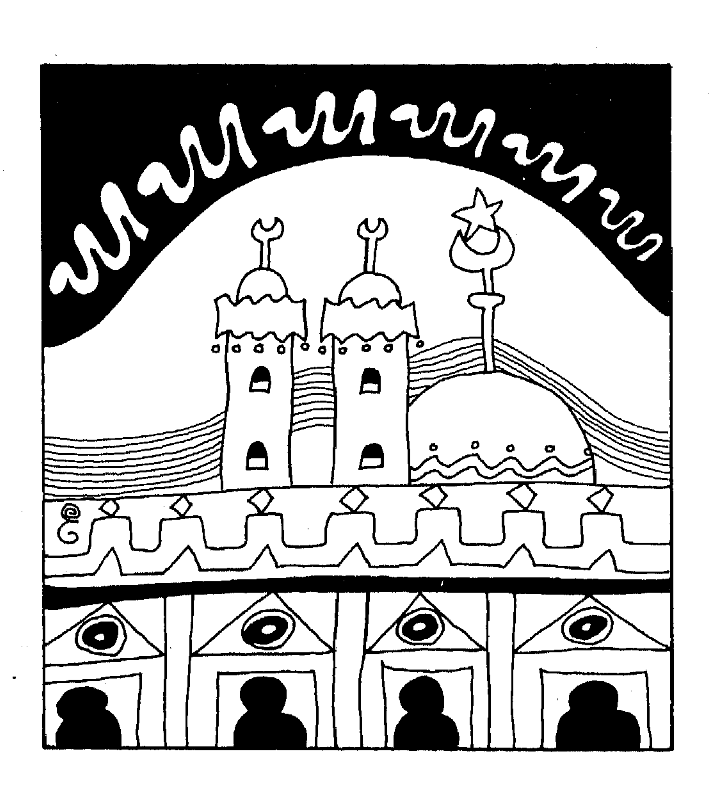
فى ذلك الحين ، فقد أهل القرية صوابَهم ، فذهب نَفر منهم فى غَبَش الليل إلى « الشونَة » التى كان التفتيش يستودعها أقْطَانه ، وأشعلوا فيها النار التى أُسْرعت إليها أجهزة المطافىء ، وانقلبت الدنيا ، وسعى إلى القرية مفتش التفتيش والناظر ، ثم جاء وكيل النائب العام ومأمورالمركز وقوة من شُرطته . . وحين استقروا فى « دُوَّار العمدة » نادى نائبه بأن الشيخ أبو خالد وراء هذه الكارثة بتوجيهه وتحريضه . . وراح من يدعو أبى إلى « الدُّوَّار » عند منتصف الليل وجرى التحقيق معه فأنكر الاتهام واسْتَنْكره ورَفَضه ، مُعلِنا أنه لا يعملَ فى الظلام . . وأن كل مُجَاباته مع مفتشى التفتيش تَتِم فى العَلَن ، وهم أنفسهم يشهدون بهذا . . وقَرّرت النيابة حفظ التحقيق معه ، ورُفِض الاتهام . . لكن لابد من كبش فداء . . هنالكِ اتجهوا إلى « شيخ البلد » الذى زعم يومها أن الذين قاموا بحرق « الشُونة » يقطنون جميعا فى ناحيته . . فلابد إذن من التنكيل به ، لِيُشَرِّدوا به مَنْ خلفه ، لعلهم يذكرون !!! هُنَالك جاءوا به فى الصباح وربَطُوه رَبْطاً مُحكما فى ذيل الحصان الذى يمتطيه أحد فرسان الشرطة . . !! وأخذ سبيله فى الطريق سَرَبا . . وشيخ البلد يلهث على وقع حوافره . . !! . . وأحيانا يَتَعثَّر فيقع على الأرض ويشده الحصان شداً وَثِيقا غير رفيق . . !! وجاء من يخبر والدى ، فماذا يصنع ؟؟

رغم ضَراوة الظروف . لم يتقاعس ، ونَهض مُسافراً إلى المركز ، وقدم للمأمور شَكاةً ممهورة بتوقيعه . . ثم قام بإرسال برقيات إلى وزير الداخلية ، والنائب العام ، ومدير الشرقية الذى أصبح لقبه فيما بعد « المُحافِظ » . . !!

* * *

ومرة أخرى . بل ومرَّات . . جلجل فى روع صديقنا الشاب نفس السؤال : ـ أهذه هى الحرية . . ؟؟ !!

* * *



ثــورة فى الأزهــر .. !!

● إذا يَمَّمتَ وجهك شَطْر الجنوب الشرقى لمدينة القاهرة .. ووقع بصرك على ذلك الصرح العريق والعتيق بمآذنه الصاعدة فى جو السماء .. فهذا هو « الجامع الأزهر » ..

● وإذا اجتزت بوابته الكبرى إلى فِنَائِه الوسيع المتراحب ، فأنت تخطو بقدميك فيما يسمى « صحن الأزهر » .. ذلك البَهْو الفسيح الذى لا سقف له يحجب عنه جلال السماء .. !!

● ثم إذا دَلَفْت من صحن الأزهر إلى داخله ، تَلَقَّاك مسجده المسقوف بقبلتيه ـ القديمة والجديدة ـ واستقبلك منبره العالى يستقر عند منتهاه « هلال »كأنه مبعوث كواكب السماء إلى الأرض .. !!

● وفى مسيرتك هذه التى تبدو جد قصيرة ، تذكر أنك تضع خُطاك حيث وضع خطاهم عبر ألف عام أعداد تَتَجاوز العَد والإحصاء من أَفْذَاذ العلماء وطَالِبى العلم ، من شتى مَنَاجِى الأرض وأَجْناس البشر .. !!!

وإذا سألت التاريخ : من أطلق هذه الشمس فى هذا المدار ، وهذه الديار ؟؟ أجابك : إنه « جوهر الصَّقِلى » قائد جيش « المُعزّ لِدين الله الفَاطِمى » .. حيث احتفل بافتتاحه والصلاة فيه فى شهر رمضان عام ـ ثلاثمائة وواحد وستين من الهجرة ، المواكب شهر يونية ـ عام تسعمائة وسبعين من الميلاد .. أى منذ ألف وثلاثة وعشرين عاماً ..

* * *

كانت الدراسة فى العهد الباكر للأزهر حرة طليقة .. تَنْعقد فيه حلقات العلم ، يَؤُمُّها من يشاء دون قَيْد أو شرط .. وظَلّ يتنقل من إصلاح إلى إصلاح .. ومن تنظيم إلى تنظيم حتى استقر على النِّظام الحديث ، وصار له مجلس أعلى يرأسه « شيخ الأزهر » .. وتَوَسَّع فى تدريس التفسير والحديث ، والفلسفة ، والفقه ، وأصول الفقه ، والمنطق ، والبلاغة ، والنحو .. بل والحساب والتاريخ ، والجغرافيا .. والهندسة ، والرسم ، والجبر ، والتوحيد ..

وأنشئت لهذه الدراسة أربع مراحل :

١ ـ المرحلة الابتدائية ، وميقاتها أربع سنوات ..

٢ ـ المرحلة الثانوية ، خمس سنوات ..

٣ ـ الكليات .. وتنتظم كلية الشريعة .. وكلية أصول الدين .. وكلية اللغة العربية .. وزمن الدراسة في كل منها أربع سنوات ..

٤ ـ مرحلة التخصُّص = تخصص التدريس .. وتخصص القضاء .. وتخصص الوعظ والإرشاد .. ثم أُضيف إليها تخصُّص المادة ، ويحمل المُتخرِّج فيه شهادة تُوازى شهادة الدكتوراه . ثم جاء قانون عام ـ ١٩٦١ ـ فدفع الأزهر بقوة ، وأحدث به مالا ندرى حتى الآن ، أكان « تَطْويراً » أم « تَغْييراً » .. وهكذا كان الأزهر منذ نشأته « جَامِعاً ، وجَامِعة » !!

* * *

فى عام ـ ١٩٢٨ ـ وَلِىَ مشيخة الأزهر ، الإمام الأكبر الشيخ « محمد مصطفى المراغى » ، تغمَّده الله بواسع رحمته ..

والإمام « المراغى » كنت ولا أزال أقول عنه : إنه جاء الحياة ليمثل عظمة الأزهر ، وجلال العلم .. وكبرياء العلماء .. !!

كنا نعرف عنه ، ونحن طلاب نَاشِئُون أنه الرجل الذى يحمل استقالته فى جيبه ، لتكون رهن أنامِلَه حين يَتَعرَّض شخصه أو منصبه لغمز أو تطاول .. !!

وفى مشيخته الأولى تلك ، لم يمكث فيها سوى عامين اثنين .. فقد شجر خِلَاف بينه وبين ملك مصر فؤاد ـ عام ١٩٣٠ ـ وترك له استقالته ، وغادر منصبه قوياً أبياً .. تاركاً الدرس لمن يريد أن يفهم أن « صحن الأزهر » أنقى وأبقى ، وأعظم وأكرم من « قصر عابدين » .. وأن شيخ الأزهر بما يحمل من رسالة .. هو أيضا ، وفى أعلى مستوى ، صاحب جلالة .. !!!

آتاه الله بَسْطَة فى الجسم والعلم .. وكان لِتكوينه المَنْظور إيقاع متناسق وفريد .. !! فهو فى مشيته ، وحركته ، واخْتِلاجته ، وابتسامته ، وصوته المتأنق فى غير تصنع أو تكلف .. وكلماته التى تنحدر فى هدوء ودعة وبريق ، كأنها لُؤْلُؤ منثور .. !! ووجهه المُشِع هيبة وجلالا ـ رغم سُمرته ـ كأنما أُخْتير من بين ملايين الوجوه ليكون وجه « محمد مصطفى المراغى » ينفرد به ، ويُتمم كماله الخَلْقى والخُلُقى .. ولِيَدُلَّنا على « عظمة إنسان » .. !!

ألا تبارك الذى خلق .. !!

وجل جلالك ، يا الله .. !!

ولعل مِنْ أصدق وآنَقِ ما وُصف به « الإمام الأكبر » قول « مكرم عبيد » فى رثائه :

« كان إذا تكلم أقنع »

« وإذا سكت أسمع » !!!

* * *

لم أحظ بلقاء شخصى مع « إمامنا المراغى » إلا مرة واحدة .. وذلك حين أخرجت مجلة « صيحة الأزهر » وتمنيت أن يُشرِّفها ويُتوِّجها بكلمة منه فى عددها الأول ، والذى كان الأخير .. !! وإن شاء الله سيأتيكم نبؤها فى الحلقات الآتية ..

أما الآن ، فلنستمر فى حديثنا عن « ثورة الأزهر » .. وإنها لثورة بكل مقاييس الثّوْرات .. فقد بدأت بالتململ .. ثم الرفض .. ثم إعلان المَطَالب .. ثم تنظيم الصفوف .. ثم فَرض الحق المُرْتَجى .. ثم الإضرابات والمُظَاهرات .. ثم المُقاومة البَاسِلة .. ثم مُجَابَهة السلطة بالقوة حتى استخدام السلاح ..

وقبل ذلك كان التصميم على النصر والقَسم على بلوغه ومهما يكن الثمن ، ومهما تكن التضحيات .. !!

وحين هتف « الباقورى » زعيم الثورة من فوق منبر الأزهر :

« إمّا تحت راية المراغى . وإما إلى
القُرى ، تَنْفع الأهل ، ويَنْتَفِع بنا الوطن »

كان يقدم أجمع صيغة لميثاق الثورة ، وأروع تصميم على بلوغ غَايَتِها .. !!

ولكن لماذا كانت الثورة .. ؟؟

على أثر استقالة الإمام المراغى عام ١٩٣٠ ـ خلفه فى منصب المشيخة « الإمام الظواهرى » رحمهما الله تعالى .. وأحب الملك فؤاد الشيخ الظواهرى خلال السنوات التى شغل فيها منصب شيخ الأزهر ..

كان « الظواهرى » وديعاً مُطيعا .. يكسو وجهه الجميل وَقَار ومَهَابة .. وكنا نسمع أن الملك فؤاد يتفاءل به ، وبصالح دَعَواتِه .. بيد أن الشعب الأزهرى كان فى صدره حرج وضيق بسبب بعض تصرفات شيخهم .. وكان المَأْخَذُ الأكبر على هذه التصرفات ، التَقْتِير على العلماء الذين لم يكن يتجاوز مرتب الحديثين منهم ثلاثة جنيهات .. بينما يكون هناك فَائِض فى ميزانية الأزهر يرده الشيخ آخر السنة المالية إلى وزارة المالية ... !!

ولعل هذا التصرف بالذات كان « القشة » التى قصمت ظهر صَبْرهم واحْتِمالهم ..

وفجأة ، نَادت الثورة ثُوَّارها ، وخَلَعت عن نفسها دِثَار الحلم والمُطاوَلَة .. وفيما يُشبه الخوارق ، تَجَمَّع الأزهريون من كل مكان على قلب رجل واحد .. وارتسمت على وجوههم أصدق سمات الثُوَّار من إجماع عتيد وعنيد ..

كانت هذه أول ثورة يُشارك فيها صاحبكم .. كما كانت معركة « الزقازيق » بين السلطة والأمة ، والتى حَدَّثْتكم عنها من قبل أول مشهد يُبْهِر الطفل من مشاهد الحرية ، والصراع المُسْتَبْسِل دِفَاعاً عنها .. !!

* * *

تَلاَقت الثورة والثُوار على أمر قَدْ قُدِّر ..

وسرت كروح الربيع تُنْعِش الأفئدة . . وتُحَرِّك شباب الروح . . والإرادة . . والضمير . ولن يستطيع أحد أن يذوق حَلَاوتها ـ رغم قَسْوتها ـ إلا الذين عانقوها وعاشوها وثَمِلوا من رحيقها المختوم . . . !!

كان « فؤاد » قد كَلَّف « محمد توفيق نسيم باشا » بتشكيل الوزارة . . وعلى الرغم من ماضيه السياسي غير المُشَجِّع على الطمأنينة إليه ولا سيما من حزب الوفد ، فإن « الوفد » رَحَّب بوزارته لأنها جاءت تُنْهى إلى حين سياسة الوُثُوب على السلطة من السَرَاى ، وأحزاب الأقلِّية . . وتَفْتَح الطريق أمام « الوفد » حزب الأغلبية لِيَسْترد حقوقه المَجْنِى عليها . . أوكما قال « العقاد » يومئذ فى مطلع قصيدته العصماء أمام المؤتمر الكبير والمهول الذى عقده الوفد :

أحسنتُم الصبر ، والعُقْبى لمن صَبروا

نادى البشير ، فقوموا اليوم وائْتَمِروا !!

كانت وزارة توفيق نسيم أُذانا بأن القصر بَدَأ يُنَهْنِهُ من ضراوته ، ويتراجع عن غُروره وصلَفِه . . فهبَّت قُوَى التغيير من مَكامِنها . . وكان فى مقدمتها الأزهر الكبير . . !!

كان علم الثورة المرفوع هو « المراغى » . . الذى كان اسمه يمثل « نداء النجدة » للذين طال عليهم الأَمَد ، وهم مظلومون . . !!!

ومع أننى ونظرائى فى أعمارنا الناشئة ، كنا نسمع اسم « المراغى » لأول مرة ، فقد انجرفنا مع الثورة التى انطلقت كالإعصار ، واعدة الأزهر بعهد جديد وشيخ جديد ، ومستقبل مشرق وسعيد . . !!

وأقبل بعضُنا على بعض نتساءل : من هذا الأزهرى الوسيم الذى يسحر عشرات الألوف حين يصعد منبر الأزهر ، فيُجَنُّ جنونُها ، وإذا الأزهر كله مهرجان من الهتافات والتصفيق والضوضاء الهادرة وكأنها شلالات « نياجرا » . . حتى إذا رأوا حركة شفتيه ، ولما يسمعوا صوته الخفيض بعد ، سكنوا حتى لَتكاد تسمع صوت الدم فى العروق . . !!!

أجل ـ من هذا السَّاحر العظيم ؟؟

ويأتى الجواب : إنه الأستاذ الباقورى . .

الباقورى ؟؟ ومن يكون ؟؟ ونمضى فى تتبع أنبائه حتى نعرف :

★ أنه من أبناء قرية « باقور » التابعة لمديرية أسيوط .

★ ولد فى ٢٦ مايو عام ١٩٠٩ . .

★ حفظ القرآن الكريم فى مكتب القرية .

★ التحق بالمعهد الأزهرى بأسيوط ، حتى حصل على الشهادة الثانوية .

★ ثم التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على شهادة « العالمية » عام ١٩٣٢ .

★ ثم شهادة التخصص فى البلاغة والأدب عام ١٩٣٥ .

★ ثم قائد وزعيم ثورة الأزهر التى نعود للحديث عنها .

* * *

تَشَكَّلت لجان الثورة فى كل المعاهد والكليات ، وشُكِّل الاتحاد برئاسة الشيخ الباقورى ونائبه الشيخ

« محمد نايل » . . وعضوية نفر من الطلبة النجباء . . وكان الشيخان . . الباقورى ، ونايل لا يزالان طالبين فى السنة النهائية للتخصص ، حتى إن « الباقورى » أُخِذَ من السجن لأداء الامتحان ثم أعيد إليه . . !

واستعر عناد « الملك فؤاد » رافِضاًالرضوخ لثورة الأزهريين . . وحَمِىَ وَطِيس الثورة مُعلنة أنها لن تُلقى سلاحها إلا عندما يحمل « فؤاد » قلمه ، ليوقع به مرسوم تعيين « المراغى » . . !!

وهبت رياح الحرية . مبشرة بالنصر القريب . . !! وصار للثورة شعراؤها وخطباؤها . . وفِرْسانها . .

وحين قرأت فيما بعد أنباء ثورة ـ ١٩١٩ ـ لم أكن أجد لها نُموذجا مُخْتَصراً ، لكنه شامل وعَميم ، إلا فى ثورة الأزهر هذه . .

وذات يوم عزفتِ « الموسيقى الجنائزية » فى قصر عابدين . . فقد كان « الملك فؤاد » يُوقع وهو يَبْكِي ، مرسوم تعيين الإمام الأكبر « محمد مصطفى المراغى » شيخا للجامع الأزهر . . !! وبدأ عصر جديد . . .

* * *

ماذا كان دورى فى هذه الثورة ؟؟

وهل لابن الخامسة عشرة دور فى ثورة ؟؟ !!

ومع ذلك ، فقد كان لى يومذاك بعض ـ لا كُلُّ ـ ما لأطفال الحجارة اليوم فى فلسطين من بلاء وعطاء . . !!!

كنت أُوزِّع منشوراتها . . وأُشارك فى إضراباتها ومُظاهراتها . .

وذات يوم وَقَعت واقعة كان يمكن عندها أن تقف لا مذكراتى فحسب . . بل حياتى كلها . . !!

فيومئذ غادرنا الأزهر فى مظاهرة لَجِبَة رهيبة تثير غيظ الحليم من رجال الأمن وسَدَنَته . . وكان فريق منا يحمل فوق مناكبه قائد الثورة ومُفَجِّرها ـ الباقورى ـ الذى كان صامتاً ، وباسطاً ذراعه اليمنى فى اتجاه السماء ، يكسو وجهه هدوء عجيب . . وكأنه « بوذا » فى مَنْسَكِه . . لا ذلك الثائر الذى كان منذ لحظات يملأ الأزهر بخطابه لَهَباً مقدساً . . !!! وعبرنا باب الأزهر . . وعلى مسافة عشرين مترا تقريبا ، اعترضنا « كردون » ضخم من رجال الشرطة ، وتَرَاجَعْنا إلى الوراء . . مثل « الجواد » المُدَرَّب والأصيل ، حين يريد أن يقتحم حاجزاً ويتخطاه ، فيتراجع قليلاً ثم يستجمع قواه ، ويقطع الأرض وَثْباً ، ويَدْهَم الحاجز دون أن يمسه حافره . . !!

حين تراجعنا لم يتقدم الجند نحونا . . وفجأة ، وثب طالب طويل عريض فوق أكتاف زملائه واستل هراوة كان يخفيها داخل « كاكُولَته » . . « والكَاكُولة » هى اللباس الذى كان يتميز به الأزهريون ـ طلبة وعلماء ـ يلبسونه فوق « القُفْطَان » للموسِرين ، و « الجلباب » لغيرهم . .

امتشق زميلنا هذا عصاه مُلَوِّحاً بها كالسيف المرهف ، وصائحا :

« الموت لمن يعترض طريقنا » . . !!

واندفع الموكب إلى الأمام . . وفجأة امتلأ الأفق بالهراوات التى كانت مخبوءة تحت الأردية . . !!

وكان مَشهداً يخطف الأبصار .. !!

واقترب الجنود شاهرى الهراوات والبنادق ، ثم انسحبوا إلى وراء .. والموكب يتقدم ..وهم يتراجعون .. والهتاف = المراغى ، أو الموت = يُزلزل الزمان ، والمكان ، والمُناسَبة .. !!

يا الله .. !!

أهكذا تكون مهرجانات الحرية فى بهائها وبهجتها .. حتى لو تَغَشَّتها الجراح ، والدماء وانتَهَت بالاستشهاد ؟ !!

هنا إذن وليس هناك تصاغ مقادير الشعوب ..

أجل .. هنا فى الشوارع الثائرة .. وليس هناك فى قصور الفراعِين والطُغاء .. !!

* * *

استمر العسكر فى تراجعهم . والثُوّار فى تقدمهم .. حتى تَحَاذَوْا بأول شارع الغُورِيَّة .. وأدرك الأذكياء من الطلاب الخدعة الرجيمة ، فسارعوا نحو « الباقورى » واختطفوه من فوق أكتاف حامليه .. وأرادوا أن يتسللوا به فى غمرة الزحام لإنقاذه . بيد أنه لم تكد قدماه تلامسان الأرض حتى شق الصفوف مُتجها إلى قادة الشرطة ، وقائلاً لهم : أنا الباقورى ، إذا كنتم تُريدوننى .. وأنا المسئول عن هذه المظاهرة .. !!

واصطحبه ضابط إلى إحدى عربات اللورى الخاصة بالشرطة ، وصعدا معاً إليها حيث جلس على مقعدها الخشبى الطويل ، وجلس الضابط بجواره .. !!

ومن جديد أُشْرِعَتْ هِراوات الطلبة .. وهَجموا على البوليس لا يَلْوُون على شىء .. وتَلقَّاهم البوليس بهجوم أشد شراسة .. وهنا ظهرت الخدعة الماكرة .. !! فقد كان البوليس يستدرجهم إلى الأمام ، ليخلو ميدان الأزهر من ورائهم لراكبى الخيل الذين كانوا يختبئون فى مكان قريب .. وفجأة وجد الثُوّار أنفسهم مُحَاصرين .. وهِراوات البوليس من أمام ومن خلف تصعق رؤوسهم وظهورهم .. وأرسلنا البصر بعيداً ، فإذا الباقورى مشتبكا مع حارِسه .. هو يريد أن ينزل إلى المعركة الشرسة الرهيبة ، ليشارك إخوانه فى عذابها ومصيرها .. وحارسُه يمنعه ويحول بينه وما يريد .. !! وانطلق رصاص العسكر يُدَوِّى فى الفَضاء .. أما أنا فقد سارعت إلى سطح مسجد « أبى الذهب » المجاور للأزهر ، أرقب المشهد كله ، وأفتح وُجدانى وفكرى لتلقِّى انطباعاته الموحِيَة والموعِزة والمعلِّمة .. !! وحين هم فريق من الطلاب بالهروب من جهنم عن طريق الشوارع والحوارى الجانبية .. رأيت بعض الطلبة يُسارعون إلى تلك المنافذ يمنعون الهروب منها ويصرخون فى وجوه الآخرين : ارجعوا يا جُبناء .. وموتوا مع إخوانكم .. !!

كان يوماً يتجاوز كل وصف .. انتهى بعربات الإسعاف تحمل الجرحى .. وعربات اللُّورِى تمتلىء بالشجعان الذين خسروا معركة ، ولم يخسروا الثورة .. !!

ونزل صاحبكم من مَرْقَبه الذى كان يراقب الأحداث منه ، متجهاً إلى مسجد سيدى « أبى عبد الله

الحسين » عليه السلام .. وفيما هو سائر سمع صيحة مُدوِّية تقول : ارجع يا عسكرى !! .. والتفت إلى مصدر الصُّرخة ، فإذا عسكرى غليظ الجسم يهوى بهرواته على رأسى .. ولم يكن بينى وبين الإصابة التى قد تكون قاتلة سوى الثوانى التى استغرقتها عبارة الصارخ - ارجع يا عسكرى - .. !!

وكَفَّ العسكرى عن إنهاء جريمته .. وفيما أنا واقف فى ذهول ، اقترب منا شاب يرتدى الملابس المدنية ، فأدَّى له العسكرى التحية إيَّاها .. وتَلعْثَمت يده فسقطت على الأرض عصاه .. وفاجأه حضرة الضابط الذى أنقذنى الله بصرخته قائلا : إيه ده يا عسكرى ؟ احنا جايبينك تقتل ، والاَّ تِتْنيِّل ؟؟ .. فأجابه الرجل ، وهو لا يدرى ما يقول : - أتنيِّل يافَندِم - .. !! وضحك الضابط وأمره بالانصراف .. ثم أخذ بيدى إلى حيث كان زملاؤه الضباط ومأمور قسم الدرب الأحمر يجلسون أمام مكتبة « صُبيح » .. وجَلس .. ثم راح يسألنى : أنت منين ؟؟

قلت له : أنا من الشرقية ..

فقال وهو يضحك : انت من الشَّراقوة اللِّى عزموا الوابور ؟؟ وباعو التُّور لأُم قِويق .. ؟؟

وضحك الجميع .. وكنت أسمع من طفولتى هذه الشائعة أو « النكتة » التى تُضرب مثلاً على سذاجة الشراقوة .. وكنت قد سمعت تفنيدها من عمى الشيخ عبدالخالق الذى حدثتكم عنه من قبل : إذ كان يقول بلغته الفصحى :

— نعم .. عزمنا الوَابور ، أى رُكَّابُه ، لأننا كُرَماء .. وبعنا التُّور لِأم قُويق ، لأننا عُلِّمنا مَنطِق الطير .. !

ذكرت هذا التفسير للضابط الذى شَجَّعنى أدبه وتواضعه على المِزاح معه ..

وكان تعليقه : ما شاء الله .. دا انت مذاكر كويس .. ثم أشار إلى « لورى » كان قد بقى فى الساحة وحده ليلتقط فائض المعركة ، وقال لى : هل ترى هذا اللُّورى ؟؟

أجبته : نعم ..

قال : روح كده زى الباشا ، واركب مع زملائك .. !!

ومضيت .. وما هى إلا بضع خطوات .. حتى دعانى إليه ، وسألنى :

— نسيت أسألك ، اسمك إيه ؟؟

أجبته : خالد ..

فقال مُتندِّراً : تعرف الضابط اللى هناك ده .. اسمه خالد .. فأعْرفكُو من بعض إزَّاى .. ؟؟ ..

وأدركت ما يريد ، فقلت : خالد محمد خالد ..

وهنا قال : اسمع يا شيخ خالد .. انت يا ابْنِى ما تستحملش ليلة على الأسفلت .

— وكنت يومها فعلاً فى مثل حجم العصفور - فاسمع نصيحتى وخلِّيك فى حالك ، وأنا حَفَضْت

شكللك كويس .. تعرف إذا وقعت فى إيدى مرة ثانية .. مش حتنفعك ، لا عزومة الوابور ، ولا منطق الطير .. !!

والمرّة دى سماح .. واتفضّل مع السلامة .. !!!

وانصرفْت لأكمل مسيرتى نحو مسجد الإمام الحسين ، كى أؤدى هناك صلاة العصر كما كنتُ مُزمِعا ...

* * *



أبو الثوار وصانع الثورات !!

بالإضافة إلى ما تلقيته عن أبى رحمه الله تعالى ـ من دروس أومأتُ إلى بعضها من قبل .. وقد نلتقى ببعضها الآخر فيما بعد .. فإن ما طبعنَا الأزهر عليه . وما تركه فينا من آثار كالأقدار لا يمكن أن تمر به وكاننا « عابرو سبيل » فالأزهر وحده تاريخ . يبدأ منه . وينتهى إليه .. والأزهر أمة وَحْدَه وقلعة احتشدت فيها قِلاع .. ولقد كان ميلاده مولدا للعقل الإسلامى . والفكر الإسلامى . كما كان إيذانا بنشر علوم الإسلام . عقيدة وشريعة . ولغة . وفلسفة . وأخلاقا مثلما كان إيذانا ببدء رحلة .. وشروق شمس .. وتتويج ثُلل من العلماء الذين لا يُشق لهم غُبار فى العلم ، ولا يخبو لإيمانهم وعلمهم وصلاحهم ضوء ..

وما أحراه بأن تُقبّل أحجاره .. هذا الذى لاذَ به . وأوى إليه من كل أصقاع الأرض وبقاعها من أحسن استقبالهم .. وأخذهم بالأحضان .. وأنطقهم وعلمهم .. وأعطاهم ولم يأخذ منهم .. وتخرج فيه ـ لا سيما فى القرون السالفة ـ علماء كانوا الأبرار حقا .. والأحرار حقا . والنبلاء العظماء حقا .. والذين لم تتخطَّهُم كلماتُ الله القائلة :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ .. ﴾

* * *

تالله ما أعظمه .. وما أعظم دوره وأكرمه ..

كان فى الصدارة بين أنبغ وأكرم بيوت الله فى الأرض .. وأوسعها رحابا للذين يجيئونه أفواجا .. فيمنح كَلا منهم سراجا وهاجا .. ويتلقون من غيثه وعلمه وكرمه عطاء ثَجَّاجا .

ولا أحدٌ يؤم ذَراه يوما

فيختار الترحّل عن ذَراه ..

* * *

لم يكن الأزهر مجرد جامع وجامعة . . بل كان ـ كما قلنا من قبل ـ شمسا جديدة . تدور فى فلكها رحلة العلم والثقافة والعقل حاملة ضياءه إلى البلاد القاحلة . . وزارعة بذور المدارس والمعاهد والجامعات فى الأقطار الجاهلة كما كان حارسا لقيم الدين والدنيا بما يُنجب من العلماء الذين يمثلون بورعهم واستغنائهم وأخلاقهم وشجاعتهم أسمى خصائص القدرة الصالحة والأسوة الحسنة .

هذا المحرر العظيم للضمير الإنسانى ولإرادة البشر . أفرادا . وشعوبا لا ندرى ماذا كان سيكون حال الذين لم تطلعُ عليهم شمسه . . ولم يُشرق عليهم أمسه .

عندما بدأنا نقرأ تاريخه . . أدركنا كم نحن محظوظون حين حملتنا الأقدار إلى رحابه وقادتنا إلى محرابه . . وحين شرعنا للتعرف إلى شيوخه . . رُحْنا نتغنى بقول الشاعر :

أولئك آبائى . . فجئنى بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

لم تكن هناك فضيلة من فضائل الحياة لم يتحلوا بها . . ولا خلق من أخلاق الرجال وأحرار القلوب إلا اتخذوه شعارا ودثارا . . وكانوا له منارا . . تعالوا نطالع ومضات من أنباء شموخهم أمام المماليك . . وانتصارهم للشعب منهم . وومضات أخرى من جهادهم واستبسالهم . ومعهم طلابهم ضد الحملة الفرنسية .

* * *

هناك عبارة تحمل الكثير الكاثِر من الدلالة على ما كان لعلماء الأزهر يومئذ من شعبية ونفوذ . . وذلك حين كان بعض جبابرة المماليك يبدأون مراسيمهم قائلين :

« هذا على حسب ما رسم سادتنا العلماء . . » !!

وكانت كلمتهم هى العليا . . ولا ينقض هذا وجود نفر من المشايخ ضعاف النفوس . . فلولا هؤلاء . . ما سطعَت أقدار أولئك . .

وبضدها تتميَّز الأشياءُ . .

●● هذا هو سيدى الشيخ « أحمد الدرديرى » رضى الله عنه يخاطب كبار الحكام وهو ممتط ظهر بغلته . . وينهرهم ويزجرهم . . وهم عند قدميه وَجِلُون صاغرون .

●● وهذا مملوك تأخذه العزة بالإثم هو الأمير يوسف الكبير يعارض فتوى أحد العلماء ويهدده بالانتقام منه . . فتكاد تحرقه نظرات الغضب من الشيخ الصعيدى الذى صاح فى وجهه .

لعنك الله . . ولعن من باعَك . . ومن اشتراك . . ولعن من جعلك أميرا . . !!

●● وهذا مملوك وأمير آخر . وهو إبراهيم بك يحاول تعيين شيخ للأزهر على هواه . . فيرفض الشيوخ الأجلاء قراره ويفرضون عليه مرشحهم « الشيخ العروسى » . . !!

كان الفلاحون والصناع . . وجميع الطوائف لا يجدون أمامهم من يلجأون إليه من البشر سوى أولئك العظماء من الشيوخ الرجال .

وكانوا بدورهم أهلا لما يُرتجى منهم . . وكانوا زعماء مقاومة . . وقادة ثورة وصُنّاع أحداث . .

من يظن أنهم . وفى ذلك الزمن البعيد ـ يتزعمون الإضرابات والتظاهرات ويرغمون الأمراء على توقيع الوثائق باحترام الشعب . . وإقامة العدل . . وإلغاء الضرائب المفتاتة والظالمة . . وإبطال المكوس . . والنزول على رأى العلماء وقادة الأمة . . وكأنها « الماجْنا كَارْتَا » . . التى ذل لها والتزم بها ملوك بريطانيا ـ مع فارق كبير هو أن « الماجْنا كَارْتَا » كانت لصالح الأمراء ضد الملك . . أما هنا فالمواثيق يفرضها العلماء على الأمراء وعلى الباشا التركى لصالح الشعب وحده والشعب كله .

هذا قليل من كثير . . وهو خُلْو من أية مبالغة أو ادعاء . . فالذى يرويها لنا ـ مؤرخ عصره وشاهده « الشيخ الجَبرتى » وكذلك ستكون بالغة التوثيق تلك الأنباء التى ستحكى لنا جهاد الأزهر ـ شيوخه وطلابه ـ ضد الغزو الفرنسى حيث استلهموا روح دينهم . وأمجاد أزهرهم . فقادوا الأمة فى كفاحها النبيل ونضالها الجليل .

كان الإسلام هو « الضمير » الذى دفع الشعب الأعزل إلى مجابهة مستبسلة مع الجيش الامبراطورى لفرنسا وللامبراطور نابليون . . حتى إن نابليون نفسه حين اكتشف هذه الحقيقة أعلن على الملأ إسلامه . .

وإذا كان الإسلام هو الطاقة والقوة الدافعة فمن ذا الذى يحمل رايته ويعلن كلمته سوى العلماء الصالحين والأفذاذ .

العلماء الذين أعدهم « الأزهر » لحمل تبعات الدين والوطن .

وإن حديث التاريخ عن ثورة الأمة المصرية بقيادة علمائها الأزهريين ضد الغزو الفرنسى ليكشف ـ كما كشفت ثورة ١٩١٩ ـ من بعد عن أن جوهر شعبنا وأصالته يتجاوزان كل تصور ويشدان زناد الدهشة والعجب إلى أقصاه .

بجوار قريتنا قرية تسمى « بيشَة » ذهب الفرنسيون إليها ليجمعوا منها الخيول التى يمتطون ظهورها خائضين بها معاركهم الغاشمة ضد الشعب . . ونمى الخبر إلى لجنة الشيوخ بالقاهرة فاختارت اثنين من أعضائها الذين سبقوا الغزاة إلى القرية . ونظموا مقاومتها . . وحين أهل جنود نابليون فوجئوا بجحيم يحاصرهم ويبيدهم وانتقل الشيوخ الظافرون إلى « بلبيس » التى كانت عَهدَئِذ عاصمة لمديرية الشرقية . . ومنها إلى طنطا ـ ومنها إلى بعض العواصم التى شبت الثورة فى حضَرها وقرَاها ونُجوعها . . واشترك فيها النساء مع الرجال كتفا إلى كتف . . وذراعا إلى ذراع فى عزيمة واحدة أذهلت القادة الفرنسيين مما جعل أحدهم يقول : إن خسائرنا فى الأرواح والعتاد . . تطُوق أعناق الذين أفهمونا أننا ذاهبون إلى مصر لنتفرج على نوع من الفلاحين رعاة الشاة والبقر . . ؟ !

* * *

وحين أدرك الفرنسيون أن هؤلاء الفلاحين يعتصمون بحبل الله ويستمدون روعة نضالهم من إسلامهم العظيم مرورا بعلمائه ومُبلّغى دعوته . . ومرورا بأزهرهم الجليل .

ثم حين رأوا أن ادعاء « نابليون » اعتناق الإسلام نكتة فرنسية صارت موضع تندّر وسخرية الفلاحين قبل المثقفين . . ركبوا رءوسهم وقالوا : إذن فلنهدم . . الأزهر . . كما حاول « أبرهة » من قبل هدم

الكعبة . .

وإذ توجّسوا خيفة من هذا العمل الأحمق والطائش . . قالوا : إذن فلنهدم قداسته ومكانته التى تُؤجج الصدور باللهب المقدس . . وتَحنى الجباه لكلمته ولتعاليم شيوخه . .

ولكن كيف تهدمون مَهابته ومكانته يا أبناء الحضارة . . وورثة ثورة الحرية والإخاء والمساواة . .

قالوا : أليس هو رمز الإسلام فى مصر وغير مصر من بلاد الله .

إذن . . فلنقتحمه بخيولنا ـ نُذل بحوافرها كبرياءه ونُدنس بروثها مواضع السجود فى رحابه . . !!

ألاَ فتقدموا يا أشباه الرجال . .

تقدموا . . لنرى فى جيشكم كله صدق شاعرنا العربى إذ يقول عنكم وعن نُظرائكم . .

كَحِمار السَّوء إن أعلفتَه

رفَس الناس ، وإن جاع نَهق . . !!

تقدموا بخيلكم . . وارفُسوا . . ونهَقوا فإن « الأزهر » سيشفيكم من وساوس الغزو والبغى . . والتوقح . . والغرور . .

* * *

● رفض السيد « محمد كريم » زعيم الاسكندرية ومحافظها ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ عرض الانجليز عليه ليأذن لهم بدخول الاسكندرية بقواتهم البحرية والبرية لحمايتها وحماية مصر من غزو الفرنسيين المرتقب . . رفض بكبرياء مستخفا بغطرستهم المفضوحة . . وقائلا لهم : هذه بلاد الإسلام والأزهر وحاكمها الأعلى هو « خليفة المسلمين » وليس لكم ولا للفرنسيين هنا مكان . .

هذا البطل الباهر والنادر . . قتله نابليون السفاح شر قِتله . .

● وفى طريق جيشه العُريان من كل شرف . بل من كل آدميه . قتل . وأحرق ودمر القرى والنجوع . .

● وحين بلغ القاهرة . كان الشعب المسلح بالبنادق . . والعصى والمُدى والحجارة . يأخذ مواقعه فى الشوارع والأزقة والبيوت والكهوف ليلاقى الجيش الامبراطورى الذى فتح أوربا بعتاده الذى كان « آخر صيحة » فى تكنولوجيا الأسلحة وصناعتها واستخدامها . . تحت قيادة شيوخ الأزهر ومعهم صفوة من المواطنين الشرفاء الأحرار .

● وحين بدأ بخدعته الماكرة يعلن اعتناق الدين الإسلامى مُصدرا بيانه إلى المصريين بتمجيد الإله الرحمن الرحيم والواحد الأحد . . كان شيوخ الأزهر يسبقونه إلى عقل الشعب ووعيه كى يأخذ حِذره من هذه الأكذوبة المفضوحة والنكتة السمجة والباردة .

● وحين نادى علماء الأزهر بالجهاد لم يبق مصرى نأى عن حمل السلاح ومسئولية الكفاح : رجالا ، ونساء وشيوخا وشبابا . بل وأطفالا . . حتى إن محاولة اغتيال « نابليون » جاءت من سيدة مصرية . عطّر الله قبرها وذِكرها . .

● وحين جمع نابليون كبار علماء الأزهر ليضع على صدر كل منهم وِشاحاً فرنسيا يَخال أنه يكرمهم

ويشترى رِضَاهم . . بدأ بالشيخ الأكبر « الشرقاوى » شيخ الجامع الأزهر . . وما هو إلا أن ثبَّته على صدره حتى جذبه الشيخ الجليل من مكانه . . وألْقى به أرضاً تحت قدميه .

وفكر الشيطان الفرنسى فى حرق القاهرة لكى يتخلص من ثُوَّارها وأبطالها وشيوخها وأزهرها .

ثم انحدر جيشه كالطوفان . . إلى كل مكان امتدت إليه ثورة مصر وشعبها فأَصْلاها سعيراً .

فمن القاهرة إلى طنطا . . فالمنصورة فدمياط . . فالمحلة الكبرى . . فالمنزلة . . ثم إلى أسيوط . . فجرجا فسوهاج فطهطا وفيما بين هذه وتلك من قُرى ونُجوع ـ وفى معركة أبنود .

ونحن نسميها معركة « تَجُوزا » بسبب موقعها المحدود . وإيقاعها السريع ، أما حقيقتها فكانت « حربا » شهدت كل سِعَار الحرب ومعجزات التضحية ومثلها قرية « بنى عَدِى » .

ويوم قامت ثورة مجيدة فى حى « بولاق » على أثر اجتماع مهيب ورهيب فى الجامع الأزهر . . قام الفرنسيون بمحو الحى كله وإزالته من مكانه فوق الأرض . . كما قاموا بقطع عشرات الرءوس من شيوخ الأزهر وعلمائه . . !!

وحين استأنف نابليون غزوه العقيم ، متجهاً إلى « سوريا » و « يافا » ليدير فيها مذابحه ـ مُسْتَخلفاً فى مصر قائده الأول « كِلِيبَر » الذى أراد أن يُثْبت وَلاَءه وبطولته شهدت القاهرة وسواها أبْشع ما عَرِفت غابات الأرض جرائم . . !!

وحين يَئِسُوا من الأزهر مُفَجِّر الثورة صوبوا إليه مدافعهم الرجيمة فدمَّروا الحى المحيط به وقتلوا تحت الأنقاض سكانه . .

ثم دخلوا الأزهر بخيولهم ليلاً ، ففعلوا فيه ما يخجل الشيطان إبليس من اقترافه .

إن الذين اعترفوا بالوحشية الدنسة والمَسْعُورة لنابليون وقُوَّاده وجنوده لم يروها لنا أعداءً لفرنسا . بل حكاها ونقلها بأمانة مؤرِّخون فرنسيُّون ومسئولون كبار فى الحملة الفرنسية . .

ويبقى سؤال : هل كان هؤلاء آدميين مُجرد آدميين ؟ أم كانوا « جِيَفاً » لوَّثت الأرض وملأتها نَتَناً ومرضاً . وقرفاً ؟؟ .

إننى أدعوكم لسماع قول الشاعر العربى :

لا تعذُل المشتاق فى أشواقه . . حتى يكون حشاك فى أحشائه .

وصاحبكم ضحية شوق عارم ومسيطر إلى الأخذ قَدْرَ طاقتى المحدودة بثأر آبائنا وأمهاتنا وإخواتنا وأخواتنا الذين تعرَّضوا لِمحنة حاصدة ، وجَاحِدة ، أراها فى المكان الأول بين كل مِحَن الحياة . .

ومن لم يشفع عنده عُذْرى ، فلْيُجازف بقراءة الكتب الصادقة التى تروى وحشية أولئك الذين شوهوا البشرية واتعسوا الحياة . .

لِيقْرأوا ما كتب « الجبرتى » فى يومياته . . وما كتبه « الرافعى » فى تاريخه . . وما كتبه محمد جلال كشك فى كتابه القيم « ودخلت الخيل الأزهر » وليقرأوا مسرحية « الفريد فرج » عن « سليمان الحلبى » رضى الله عنه . . وليقْرأوا عشرات الكتب المَبْثُوثة فى المكتبات ـ عربية ومُعرَّبة .

ماذا أخذ نابليون وجيشه من غَزْوته الشرسة وحربه الفَاجِرة ؟؟ .

أما هو . فقد انتهت أمجاده وفُتوحاته إلى خُذْلان ما مثله خُذْلان . . ودفعته الأعاصير إلى منفاه المُوحِش فى جزيرة « سانت هيلانه » يحدث نفسه ويجتر أحزانه . .

ومن قبله لقى قائده الأول « كِليبَر » مصرعه الوَخِيم بيد شاب مسلم سورى . جاء من بلدة « حلب » إلى مصر فى مهمة وحيدة وفريدة هى اغتيال كليبر ، انتقاما للأزهر الذى داسته خيوله ، ولَوَّثته جنوده . . وهيَّأت له « لجنة الانتقام » الأزهرية كل وسائل النجاح فى مهمته . .

صحيح أنهم قتلوه ورفاقه الشُجْعان حرقاً ، وَوضْعاً على « الخَازُوق » وقَطْعاً للرءوس . . ولكنها آلام لحظات من الزمن . انتقلت أرواحهم بعدها إلى الرفيق الأعلى والفِرْدَوس الأعلى . .

على حين غادر الفرنسيون مصر خَزَايا نادمين تاركين جُثَث قَتلاهم من ضباط وجنود جِيَفاً لو نطقت لقالت :

« لَكَ يومٌ يا ظَالم » . .

ويعود الأزهر لرسالته العلمية ، فيدخل الناس بدعوته المثابرة فى دين الله أفواجاً . . هناك فى آسيا وأفريقيا ، وأوربا . . وحتى يومنا هذا . . وذات يوم تبتلى مصر بِغَازٍ جديد ، ويهجم عليها من كل صَوْب جيش بريطانيا التى كانت عُظْمى . . ويدعى الأزهر « أبو الثُوَّار » وصانع الثَورات إلى دوره المعهود والمجيد .

وتقوم ثورة «١٩» فيحتضنُها فى شوق عظيم . . ويشاء الله الحكيم العليم جل جلاله ـ أن يكون زعيم الثورة ، ومُلْهِمُها واحدا من أبناء الأزهر ، ونُجباء المُتخرِّجين فيه ـ ذَلِكُم هو « سعد زغلول » . .

كان الأزهر حصن الثورة . . وكان منبره لسانها البَليغ والقدير . . وكان علماؤه وطلابه حملة مشاعلها وأعلامها . وفيه التقى المسلمون والمسيحيون على أمر قَدْ قُدِر . .

وكان القمص « سَرجِيُوس » يصعد منبر الأزهر ، فما هو إلا أن يفتح فاه ويحرِّك بالقول البليغ الثائر لسانه حتى تتحوَّل عشرات الألوف من مستمعيه إلى لظى وسعير . .

وإذا ذكرنا صانعى معجزة توحيد الأمة ووحدة الشعب ، فسيأتى الأزهر فى الصَدارة . والبَدْء . . كان كأنه رَوحٌ من أمر الله . وكان أمر الله قَدَراً مَقْدُوراً .

* * *

عن تلك الأمجاد لأزهرنا العظيم وشيوخه الأجلاء المُبَرِّزين ، كنا نتلقى (نُتَفاً) من الدروس المُوعزة ، والحافزة . . حتى إذا كبرنا ، ونمت معارفنا رأينا يده الباسطة المُقْتدرة تحرك الأحداث الكبيرة ، والثورات المُتَّقِدَة ، وعرفنا من جلال نِضاله ما لم نكن نعرف . كما رأينا الجذور التى استودعها قلوب الأحرار من الرجال والنساء ـ جذور الإيمان والوطنية ، وصدق الانتماء . .

لقد سار الموكب الفريد والمجيد ، من العلماء الأولياء ، والشيوخ الشامخين يقودون الشعب فى الدين ، وفى الحروب والثورات ، وفى السياسة لا تأخذهم سِنَةٌ عن واجباتهم تجـاه هذا كله . . ولا ندرى عن أيهم نتحدث فى هذا المجال ، وهم كانوا كنُجوم السماء . .

لقد حاول الإلمام بمن كان ظاهراً منهم الأستاذ « على عبدالعظيم » فى كتابه العظيم : « مشيخة الأزهر » وأحصاهم عدداً .. ومعهم ثُلَّة مُباركة من كِبَار العلماء .. ومع ذلك لم يَزِدْنا إلا حيرة ، حين نريد أن نختار مَنْ نُقدمه مثالاً وذِكْرَى .

فهل نختار إمامنا « الدَرْدِير » رضى الله عنه ، الذى كَرَّس حياته لِنُصرة المظلوم على ظالمه .. ويجيئه ذات يوم أهل « الحسينية » بالقاهرة شاهرين أسلحتهم وهِراواتهم ، يُخبرون الشيخ الولى بأن طاغية من طُغاة الحكام ـ اقتحم بيت الشيخ أحمد سالم شيخ مسجد سيدنا « على البيومى » ونَهَبُوا ما فيه من متاع ..

رضى الله عنه .. فإذا الشيخ يأمرهم بإغلاق أبواب الجامع الأزهر .. وتصعد طائفة منهم إلى مآذنه ينادون ويَدُقُّون الطبول .. فَيُغْلق تُجَّار الحى متاجرهم ويرسل الشيخ رُسُله إلى أحياء القاهرة ، فيُلَبُّون دعوته على عَجَل ومعهم أسلحتهم .. وينهض الشيخ ، يقود منهم مظاهرة عارمة قائلاً : « نحن الآن ذاهبون إلى بيوت المعتدين لننهب بيوتهم ، كما نَهَبوا بيوتنا .. ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم » ..

ويقطعون الأرض وثباً وراء شيخهم الجليل .. وتسامع إلى أمراء المماليك نبأ الحملة العاتية ، فَيُسارعون إلى إمامنا الشيخ « الدَرْدِير » رضى الله عنه ، ويستعطفونه ويكتبون له عهداً بأن يَرُدوا جميع المنهوبات واعدين بألاّ يعودوا لِمِثْلِها أبدا ..

هؤلاء المماليك الذين قَوَّضُوا الخلافة العباسية رغم بأسها واقتدارها ـ صاروا هباءً أمام علماء الإسلام والأزهر .. وأمام الشعب الذى ربَّاه الإسلام وقاده الأزهر ..

* * *

أم نتحدث عن الشيخ « السادات » الذى قال عنه حسين باشا الجَزائِرْلى الوالى المُعَيَّن من قِبَل الخليفة العثمانى : « لم أر فى جميع المماليك التى عملت فيها من اجترأ على مُخَالفتى مثل هذا الرجل ، الذى أحرق « قلبى » ...

أم نتحدث عن الشيخ الجليل « حسن العدوى » الذى رفض أن يَنْحَنى للخليفة العثمانى « السلطان عبدالعزيز » حين زار القاهرة .. وأفهموه أن من آداب ـ « البروتوكول » أن ينحنى للخليفة والخديو الواقف بجانبه .. واصفر وجه الخديو إسماعيل ، وغَصَّ بريقه .. وأَسَرَّ إلى الخليفة معتذرا ، وقائلا : « أن هذا الشيخ من كبار العلماء ، ولكنه تَعْتَريه جَذْبَةٌ أحياناً » ..

وإذا السلطان عبدالعزيز يقول له « كلا » إنى لم أنشرح لمقابلة أحد ، مثل انشراحى لمقابلة « هذا الشيخ » .. ثم أمر له بألف جنيه ، وبِخَلْعة سَنِيَّة ..

وحين قامت ثورة البطل « أحمد عرابى » وهزمته الخيانة ، وانحاز الخديو توفيق إليهم .. وأُلقى القبض على زُعمائها ومُلْهِميها .. وكان من بينهم شيخنا الجليل « حسن العدوى » سأله رئيس المحكمة العسكرية :

« هل أفتيت بعزل الخديو .. ؟؟

أجابه وهو يضحك ساخراً :

« حتى الآن ، لم أفت بعزله .. ولكن إذا أردتم الآن فتواى ، فإنى أوقعها فوراً بعزله .. وليس فى وسعكم إنكار أن الخديو توفيق مستحق للعزل ، بعد أن خرج على الدين والوطن » ..

قال هذا بعد انتصار توفيق ، واحتلال مصر .. وحكمت المحكمة الْلقيطة بتَجْريده من جميع رُتَبه وامتيازاته !!

ألا ، فانهضوا قائمين ، وخذوا « تعظيم سلام » لشيخ الشيوخ ، وفتى الفتيان !!

* * *

أم نتحدث عن شيخنا « عبد الله الشبراوى » الذى وصفه « الجبرتى » فقال : « إنه الإمام ، الفقيه ، المُحدِّث ، والأُصولى ، المُتكلِّم ، المَاهر ، الشاعر الأديب .. الذى نشأ فى بيت العلم والجلالة » ..

كان حارساً يقظاً للشريعة الإسلامية .. وكان مهيباً ومحبُوباً لدى الوُلاة والحاكمين ، وصَفْوة الناس وعامَّتهم ..

وكان مع ذلك خفيف الروح ، واسع العطاء فى الخير ، والعلم ، والأدب ..

وكان فى شعره يبدأ قصائده أحيانا بالغزل الأنيق والرقيق على عادة الشعراء القُدَامَى فى الجاهلية والإسلام .

فيقول مثلا :

مُـحِـبُّـك يـا شـفـيـق الـروح يَـرْجـو
مَـجِـيئَـك لـلـتـأنُّسِ والـسـرور
فـلا تـتـرك مـحـبـك فـى انـتـظار
فـمـا يـقـوى عـلى الـبُـعْـد الـكـثـيرِ

ولا بد أنكم تَذكرون القصيدة الغَنَائية القائلة :

وَحَـقِّـكِ أنـت الـمـنـى والـطلب
وأنـت الـمـراد ، وأنـت الأرب
لـى فِـيـك يـا هـاجِـرِى صَـبْـوةٌ
تَـحـيَّـر فـى وصـفـهـا كُـلُّ صَـبّ
شـاهـد فـيـك الـجـمـال الـبـديـع
فـيـأخـذنـى عـنـد ذاك الـطَّربِ
ويـعـجـبـنـى مـنـك حـسـن الـقَـوَام
ولـيـنِ الـكـلام وفَـرْط الأَدَبِ

* * *

أم نتحدث عن شيخ الأزهر « الحنفى » الشيخ « السجينى » . . أم « الدمنهورى » أم « العروسى » أم « السفطى » أم « الباجورى » أم « حسونة النواوى » . .

كلهم كانوا شُجْعاناً فى وجه الباطل . . كلهم كانت الوطنية فى فرائض دينهم . وأكثرهم كان يبحث عن أبعاد جديدة لرسالة الأزهر . . ويمشون الهُوَيْنا فى وصله بكل أسباب الحضارة ، وكل فُنون المَعْرفة . . حتى جاء ذات يوم فتى من أعماق ريفنا الطيِّب مُبْتَغِياً العلم فى هذا الجامع المُعَلِّم والأستاذ . .

وحين سئل عن اسمه ، أجاب :

«اسمى محمد عبده حسن خير الله » . . الآن فتقدم يا محمد . . فقد جِئْتَ فى أوانِكَ !! تملأ الحكمةُ فؤادَك ، ويكون العزم طَوْع بَنَانِك . .

* * *

ويا من تُريدون رُؤْيته ولقاءه ، ابحثوا عنه هناك . .

★ عند الخديو عباس حلمى الثانى يُخاصِمه ، ويَزْجره ويُحاول أن يُعيدُه إلى وطنيته التى بدأ بها عهده . .

★ أو مع الصفوة الذين يُؤلِّفون « الجبهة الوطنية » التى سَتُهَيِّىء الشعب وتُعِدُّه لمقاومة تَسَلُّط الخديو ، وحاشيته ، وأعوانه . . الجيش البريطانى الذى كان يَتَربَّص ويَتَنمَّر .

★ أو هناك ، وهو ينصح « أحمد عرابى » بالأناة والحكمة ، حتى لا يعطى المستعمرين الانجليز مُبرِّرا لدخول مصر واستعمارها . .

★ أو هناك حين وقعت الواقعة ، وهَاجَم الجيش البريطانى مصر كالكلاب المسعورة فإذا هو ينسى كل شىء وينضم إلى الثورة العُرابية رغم تَنَكُّر قادتها لِنُصحه وإهمال حكمته وبُعْد نظره . .

★ أو هناك وهو يُتابع الجهاد الفكرى والسياسى الذى بَدَأه مع أستاذه « جمال الدين الأفغانى » الذى قِيلَ عنه بحق : « أنه كان يوزع النُّشوق بيمناه ويوزع الثورة بيسراه » !!! أو هناك ـ وهو يقضى الليل سهران ، بين العبادة والتفكير المُلِح فى إصلاح الحياة العلمية للأزهر . . وتجديدها ، وترشيدها . .

★ أو هناك ـ فى منفاه بأرض الشام بعد الانتصار الرخيص للخديو توفيق ، وحُلَفائه الطُغَاة . .

* * *

ويحدثنا أستاذنا « العقاد » فى كتابه القيِّم عن الإمام حديثا ليس بوُسعنا أن نُحرم المذكرات من ذِكره والتَذَكُّر به . فيقول :

« إن تاريخ محمد عبده فى خدمة القضية القَوْمية ، هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده . ولكنه لم يكن قَطْ تاريخ الاندفاع مع الخفة والعجلة ، لأن نظرته إلى الغرض القريب لم تُعْجله قط عن النظر الطويل إلى الغرض البعيد ، وهو الغرض الدائم وراء جميع الأغراض » . .

« وقد أقدم يوما على التَرصُّد بالخديو إسماعيل عند قصر النيل للقضاء عليه . . ولولا أنه أخطأه فى هذه المرة لزال إسماعيل عن العرش مقتولا فى أغلب الظن » . .

« ولمّا نَشبت الثورة العُرابية كان حذره من السيطرة الأجنبية أشد من حذر العُرابيين وحذر الخديو توفيق . . ففى أدوار الثورة الأولى آثر الأناة خشيةَ الاحتلال الأجنبى الذى يجر على جَالِبه لعنة الأبد كما قال . . لكنه فى مرحلتها الأخيرة أيّدها كل التأييد لأن الخديو توفيق جَنح إلى الدولة المُحْتلة . . وفى كل أولئك كان محمد عبده أشد إقداماً على الخطر من الجميع ـ كان أشد منهم إقداماً فى معارضة الثورة حين عارض ، وأشد منهم إقداماً فى تأييدها حين أيّدها ، وكان أبعد منهم نظراً وأصدق منهم غيرة . . فى كِلْتا الحَالتَيْن » . .

« ولما وقع المحظور ودخل الانجليز مصر محتلّين ، وبارحها محمد عبده مَنْفياً عن وطنه ، كان هذا المَنْفِىُّ أسبق أبناء الوطن إلى عاصمة الدول الانجليزية ليُعلن الحرب على الاحتلال فى عُقر داره . . وقال لهم فى صحافتهم : « إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل . . ولقد قَضَيْتم على عناصر الخير فينا ، لكى تكون لكم من ذلك حُجّة للبقاء فى بلادنا » . . ثم يقول أستاذنا العقاد : « وقد بلغ الشيخ الإمام فى الصراحة معهم ما لم يَبْلُغه قائل من بعده ، حيث يقول لصحيفة ـ البال مال :

« لِمَ لا تُغادرون بلادنا فى الحال ؟؟ لقد علّمنا الانجليز شيئاً واحداً هو أن يتضامن المصريون جميعاً فى مُطالَبَتِهم بالجلاء . . شَكَوْنا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا . . وأردنا لبلادنا إصلاحاً وتَقدُّما فى طريق الحرية . . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام وشر من ظلم الأتراك . . وليس فى مصر من بلغ به الظلم حداً يَرجُو معه عَوْنكم ومُساعدتكم . . إن لنا رجاء إليكم واحدا هو أن تُغادروا بلادنا حالا إلى غير رجعة » !!

« إن « توفيق » أساء إلينا أبلغ السوء لأنه مَهّد لِدُخولكم بلادنا وانضم أيام الحرب إلى أعدائنا ، ولا يمكننا أن نشعر إزاءه بأقل احترام » . .

* * *

من أجل حُرِّيات الشعب ، ودِفَاعاً عن الدين والوطن عاش أولئك الأحرار الكبار ، وقاتلوا ، وقُتِلُوا . . ولم يَخشَوْا فى الله لومة لائِم . .

حُورِبُوا حتى فى الموت . .

فالإمام « محمد عبده » مثلاً كان لموته وتشييع جنازته قصة تكشف عن مدى الرعب الذى خَلّفه فى نفوس خُصومه ، وفى نفس الخديو « عباس حلمى الثانى » بالذات . .

كما تكشف عن عظمة شيوخ الأزهر ورُجُولتهم . . ذلك أن « الإمام » رحمه الله تعالى ، كان قد عاش ومات خِصْماً للخديو عباس ، لا من أجل دنيا مَنَعها عنه ، أو مناصب حرمه منها . . إذ كان الشيخ تُرَشّحه وتَفْرضه كفاءته وعلمه وكرامته وشخصيته المَهيبة الجليلة على ما يشاء من منصب . . حتى لقد كان يدير الأزهر دون أن يكون شيخاً له ، وينفذ ما يستطيع من إصلاحات طالما حُورِب من أجلها عن طريق عُضويته بالمجلس الأعلى للأزهر ، وعن طريق قدرته على الإقناع ، وهيبته وصدق تَوَجُّهه . . خَشِىَ الخديو أن تتحوّل جنازته إلى مهرجان ثَوْرى ، فحاول أن يُطَامِن من كبريائها . . ويُخافِت من

جلالها ، ويُقَلِّل من أعداد المُحْتفين بها والحَافِّين حولها . . ولكن كيف يُحقق غرضه الهابط والحاقد . . ؟ حَسْبه - فيما ارتأى - أن يمنع العلماء والشيوخ من المشاركة فى توديع خصمه اللَّدُود ! !

وهكذا أرسل مندوبه إلى شيخ الأزهر يحمل رغبته ، وربما أمره بألاّ يشترك والعلماء معه فى تشييع الجنازة . .

تصوَّروا « مَلِكاً » « يُحارِب » جُثْماناً » . . أَلَيْس ذلك دليلاً على أن العظمة ليست فى المناصب مهما عَلَتْ ، ولا فى السلطة مهما اسْتَشْرت . . وإنما هى وقف . على الأرواح الكبيرة بجهادها وتقواها . . ؟؟

* * *

ذهب مندوب الخديو إلى شيخ الأزهر الذى كان ينتظر تكامل العلماء . . وأسر إلى الشيخ الجليل رغبة سيده الخديو . . فى أن يُقَاطِعوا الجنازة !! وهز الشيخ رأسه ، ونادى بإحضار فنجان من القهوة لمندوب الخديو . . وظل صامتا ينتظر حضور موعد الجنازة ، ومَجِىء بقية العلماء . . حتى إذا تم ذلك اسْتَلّ شيخنا ساعته من جيب قفطانه ، ونظر فيها عابساً ، وقال :

والآن ، هيا بنا يا مشايخ ، فقد حان موعد تشييع الإمام . .

وبُهِت الذى حمل رغبة أو أمر الخديو . . وتلجلجت ركبتاه . . وعاد يُسِرُّ للشيخ من جديد ، مذكراً إياه بما حمله إليه من رغبة أو أمر « أَفَنْدينا » عباس وإذا الشيخ - بارك الله هذا الشيخ - ينتفض قائماً وصارِخاً فى وجه المَبْعوث .

— « قُمْ يا رجل » إن الله وحده ، هو أَفَنْدينا ؟؟ !! وسارت الجنازة الشامخة يتقدمها الشيوخ الشَّامخون !! وانتصر « النَّعْشُ » على « العَرْشِ » !!

وبدأ الخديو ومُنَافِقوه يُطَارِدون الإمام « محمد عبده » بالتهم الباطلة ، والأكاذيب المُفْلسة ، والشائعات التى حاربوه بها فى حياته ، والتى لم يجاوز تأثيرها نعل حذائه . .

فقالوا . . وقالوا . . وقالوا . .

ومن عَجَب أن أصداء تلك الأكاذيب ظلت تنفث نفسها زمناً غير قصير . . وكان لى معها قصة . .

* * *

كان الجامع الأزهر مَرَاحنا ومَرَاحنا فى مُذَاكرة دروسنا - وكذلك كان ، بالنسبة لتلاميذ الأحياء القريبة منه ، وأحياناً البعيدة ، وطلبة المعاهد والجامعات . . إذ كان مظهر « خلايا النحل » ودَوِيها بالقراءة والمُذَاكرة يَشُد زِناد النشاط إلى أقصاه لدى الجميع . .

وذات مساء وأنا فى طريقى من « رواق الشَّراقوة » إلى الجامع للمُذَاكرة . . وجدت قرابة سبعة من طلاب الأزهر . يتحاورون فى أمر الشيخ الإمام . . منهم الحَاقِد ، ومنهم الحَامِد . .

ووقف أحدهم حالفاً أن « الإمام » رضى الله عنه كان يشرب الخمر . . وأثناء مغادرة الروح جسده خرج لسانه وتدلَّى واندلق فوق ذقنه» وهذا فى رأيه الوقح والسَّفيه بُرهان على أنه كان من أهل الخُمور . .

وتعالت أصوات اللجاج التى نادت من سمعها من الطلبة ، فأقبلوا ليعرفوا ماذا هناك . .

وتحوّل الحوار إلى اشتباك . . واحتدمت الأيدى التى تعلو إلى فوق ثم تهوى على الرءوس والوجوه . . ورأيت الطالب صاحب الكلمات المُتوقّحة ، وكان رِضْرَاضًا ، ضخم الجثة ، يُثْنى ركبته إلى أعلى ثم يَرْطُم بها بطن غَرِيمه الذى كان يدافع عن ذكرى الإمام . .

كان الطلبة الذين يحاولون فض الاشتباك يركِّزون على الأذرعة المُتصارعة فوق الصدور والوجوه وحول الرقاب ، لأنهم لم يكونوا يرون تحركات ولكمات ركبة الآخر الأثيم ، بينما أتاح ذلك لى قصر قامتى . . وفجأة رأيتنى انتصر للإمام ، فأمسك بعد أن أقتعدت الأرض بقدم وساق الولد ، وهو ينفضها محاولاً التخلُّص من الكماشة التى أُطْبقت عليها . .

وكان كلما التفت خَلفه أو تحته ، انتهز غريمه الفرصة فأشبعه صَفْعاً ، وعَضًّا حتى إذا لم يجد بُدا من تخليص ساقه ، المُعْتَقله ، غامر ونظر . . وما إن عثر علىَّ حتى حملنى بين يديه . وضربنى « رُوسية » أو أكثر ، ثم قذف بى تجاه الحائط فارتطمت به جبهتى ، وأُغْمى علىّ ، ولم أدر ما حدث بعدها . . ولما أفقت ، وجدت جبينى مُضَمَّداً بالقطن ، وقطرات الماء تتساقط غزارا من رأسى ووجهى وملابسى إذ كانوا قد استعانوا على إفاقتى بِدَلْو من الماء صبُّوه علىَّ .

ووجدت بجوارى صديقى « مُؤمِّل » يُجَفِّف دموعه المُنْثالة من عينيه الجميلتين والحانيتين . .

لم أدر كم لبثت فى غيبوبتى . . ولا بد أن الزمن كان قريبا من نصف الساعة وهو الوقت الذى يتطلبه الذهاب إلى قسم الدرب الأحمر ، والعودة منه . .

ذلك أنه ـ كما علمت ـ بعد أن صنع معى ما صنع أحاط به نفر من الطلبة وأشبعوه ضربا حتى أدموا جبهته وأسالوا دمه ، فأسرع به قبل أن يجف إلى قسم الشرطة ، ثم عاد ومعه أحد « الصولات » لاتخاذ اللازم .

رآنى « حضرة الصول » . . فسأله وهو « يُطَبْطِب » على الهواء بكفه اليمنى متجهاً بها إلى الأرض مشيراً بذلك إلى « صِغر قامتى » ونُحول جسمى ، وقِلّة حيلتى أهذا ، هو الذى اعتدى عليك . . ؟

وضحك الطلبة لهذه السخرية . . بينما أشار هو إلى ضاربه فقال : بل هو ذا .

وجلس رجل الشرطة وعرف ما حدث ثم قال :

دِلْوقْتِى كُلكم كده تِيجُوا مِعايا إلى القسم . .

وتدخل بعض العقلاء لإنهاء الموضوع ، وإقناعه بالتنازل عن شكواه . . ولكنه يتحسس جبينه الجريح والذليل . ثم يقول : لا . . وشرف أبى . .

وفيما نحن كذلك أقبل الشيخ « ياسين » . . وما إن رآنى وعَلِم ما كان ، ورأى إصرار الأخر على عدم التنازل حتى أخذه وانتحى به جانبا ، ودار بينهما همس طويل وفجأة رأينا صَفَعات الشيخ « تَنْهال » على وجهه ، ويديه القويَّتَين تُحيطان بعنقه . . ويسرع الطلبة نحوهما يسبقهم « الصُّوَل » وبعد فَضِّ تشابكهما علمنا ـ أن أخانا الكبير « ياسين » حين خلا به راح يرجوه التنازل عن الشكوى ، حتى لايُعَرِّض نفسه وزملاءه للإساءة . .

فلما يَئِس من إقناعه ، صاح به : طيب خذ دول معاك ، علشان تبقى الشكوى تستاهل . . فانهمك في ضربه وإيجاعه . .

وأخيراً ، انتهى الأمر بقبوله التنازل . . ومثلما جاء في صحبة الشرطى عاد معه ليكتب تنازله ويوقعه . .

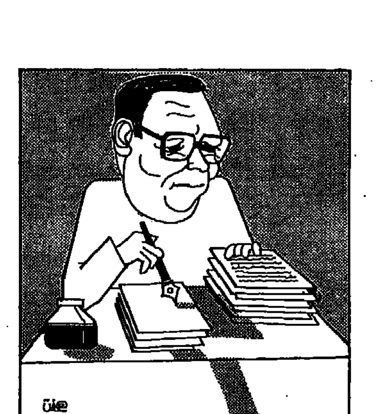
ولعله عرف من هذه الواقعة أن « البعوض » أتفه وأحقر من أن يحوم حول « الصقور ، والنسور » فلا يعود إلى ذكر « الإمام » بسوء . .

والآن أحسبكم مُشَوَّقين لأن تعرفوا شيئا عن اللذين خَصَّصْتُهما بالذكر فى هذا الحديث ـ الشيخ ياسين . . والصديق مؤمل » .

ولو قد فعلت ، لا امتدت هذه الحلقة إلى غير ما هو مُقَدَّر لها من مكان . . فإلى لقاء قادم إن شاء الله تعالى . . وفى الفردوس الأعلى نستودع الله شيخنا الإمام « محمد عبده » .

رضى الله عنه وأرضاه ، وعن بقية الرجال . .

* * *



مرحبا بالسياسة

★ على الرغم من أن الإمام « محمد عبده » قال فى كتابه القيم « الإسلام والنصرانية » إن شئت أن تقول : أن السياسة تضطهد الفكر ، أو العلم ، أو الدين فإنّا معك من الشاهدين . . أعوذ بالله من السياسة ، ومن كلمة السياسة ، ومن سَاسَ ، ويَسُوسُ . . وسَائِس . . ومَسُوس . .

أقول على الرغم من هذه المقولة فإنى أستأذنه فى أن أهتف من أعماقى : مُرَحَّباً بالسياسة . .

★ وحسبنا أن اشتغال « الإمام » بالسياسة حتى الثورة هو الذى عَرَّفنا به قبل أى شىء آخر . .

★ وحسبنا أنه كان « فرقانا » بين السياسة الراشدة النظيفة والسياسة الأخرى الوُصُولية والدَنِسة حتى كان قدوة ومثلا أعلى لمن يُوَلُّون وجوههم شَطَر نهجه السياسى الحَاذِق والطُّهُور .

★ وحسبنا أن الدين والسياسة والوطنية كانت عنده ضميراً واحداً لايتجزأ ولا يتناقض وبالتالى لم يكن تاجراً ولا مُغَامراً بهذه المُقَدَّسات . . بل كان لها نِعْم الرَّائِد ونِعْم الضمير .

* * *

على أن الإمام لم يقل ذلك يأسا ولا تَخَليا عن تبعاته السياسية . . إنما هى تُصَوِّر حنينُه المُتَقَد لنظريته التى كان يود لو كَرَّس لها حياته من شبابه إلى رحيله وغيابه . . ألاّ وهى السهر على تعليم الشعب وتثقيفه والنهوض بوسائل التعليم والتربية . . حتى لقد ذهب فى ولائه لهذه القضية مذهباً بعيداً فاقترح على أستاذه السيد « جمال الدين الأفغانى » رضى الله عنه ، أن يَخْتارا بعض الأطفال النَّابِهين ويرحلا وإيّاهُم إلى مكان بعيد من المدينة وصَخَبِها وإغرائها ومفاسدها . . حيث يَعْكُفان على تنشئتهم المُثْلى وحين تنجح هذه التجربة الأولى تتكرر مع الأيام . . ولو أن الشيخ الجليل استقبل من أمره ما استدبر لما سمح للسياسة أن تُشْغله ساعة من ليل أو من نهار عن هذا الذى آمن به ورأى المستقبل الصالح والواعد ليس لمصر وحدها . . بل للمسلمين جميعاً .

ولم تكن هذه الفكرة« طَوْبَاوية » . . ففى التحليل النهائى للفكر القائل بأن صلاح الجماعة ، يبدأ بصلاح الفرد ، تبقى نظرية « الإمام » عملية وواقعية . . ولايبقى فيها ما هو « طَوْبَاوى » إلا العثور على الرجال الذين يحملون هذا الاقتناع ويواكبون المسيرة فى غير يأس ، أوكسل ، أوتَخَاذُل ، ولقد سأل « الإمام » نفسه : على فرض أننا سنمضى نحو المجهول فَلِمَ لا نكون نحن رُوَّاد ذلك المجهول ؟

إن الرواد الحقيقيين هم الذين يبحثون عن الدروب غير المَطْرُوقة .. فَلِمَ لانستعين بالله ونبدأ ؟ ..

هذا - فى رأيى - هو التفسير الصحيح لاستعاذة الإمام من السياسة ومن سَاسَ .. وسَائِس .. ومَسُوس ..

* * *

ومن ثَمَّ فنحن مشمولون ببركات الإمام حين نهتف قائلين « مرحباً بالسياسة » ولنكُن متَّفقين على أننا طوال حديثنا عن السياسة خلال هذه المذكَّرات فإننا نعنى السياسة المتفوقة فى وطنيتها ، وفى وسائلها وغاياتها وأخلاَقِّياتها .. وحين نقف مع السياسة المُنْحرفة والعرجاء فإننا نَعْرِضُها ونُنَاقِشها وصولاً بها إلى السياسة الرَّشيدة ، التى يجب أن تتأسَّى بها ، وتَحْيَا فى مناخها .

إناَّ الآن فى السنة الأولى الثانوية بالمعهد الأزهرى الثانوى ..

وفى هذه السِّن الباكرة ، كنت شَغُوفاً بقراءة الصحف اليومية جميعُها . وقد تتساءلون : هل كنت قادراً على ذلك مالياً ؟ وإليكم الجواب :

بعد زواج أخى « الشيخ حسين » تَغَمَّده الله برضوانه كنت - كما ذكرت لكم من قبل - تتردد إقامتى بين منزل خالى الشيخ أحمد مكاوى رحمه الله تعالى ، وبين رواق الشراقوة حسب مُقْتضيات المذاكرة .. فإن كان مبيتى بالرواق ، فإننى أصحو مُبكِّرًا واتجه إلى المطعم مطعم الحاج شعبان رحمه الله فأتناول عنده وجبه الصباح طَبَقاً من الفول المدمس المُتَبل بالخضراوات والكمون ، والسايح فى بحيرة من الزيت الطيب ، أو الحار .. ومعه طبق من السلطة المصنوعة بِحِذْق وبراعه .. ومعهما رغيف أبيض كاللبن ، وقد رُشَّت على وجهه حبات البَرَكَة .. وهى طبعا شىء مختلف تماما عن كشوف البركة « .... » ثم الماء المُثَلَّج النقى والبرىء من الطفيليات التى تأتينا مع مياه هذه الأيام ..

وبعد أن يمتلىء البطن بما لَذَّ وطاب أُرْسِل« تَكْرِيعة » طويلة مُنْعشة .. أصفق بعدها للعامل فى مطعم عم شعبان ، الذى يأتى مُسْرعا فاضع فى يده قرش تعريفة ، خمسة مليمات ..

وعلى شباب أجيالنا الجديدة أن يسألوا أباءهم عن مفهوم هاتين الكلمتين قرش تعريفة أو عن معنى وقيمة الخمسة مليمات ..

ثم أغادر المطعم إلى قهوة الفيشاوى حيث كانا - القهوة والمطعم - مُتَجاورين فأضع ساقاً على ساق ، وأصفق فيأتى «النادل» مُسرعاً وقائلاً : طلبات حضرتك فيقول حضرتى له : « بَرَّاد شاى » فيزعق بصوته الجَهْورى : عندك براد شاى بالنعناع .. فأشربه هنيئاً مريئاً .. ثم أُعاود التصفيق فيأتى وأضع فى يمناه قرش تعريفة ، خمسة مليمات .. ومع الشاى أكون قد استعرضت صحف الصباح جميعها التى يُحْضِرها المقهى يومياً لزبائنه ..

كل هذا بخمسة مليمات .. يا بلاش .. ثم أحمل كتبى متوجهاً إلى معهدى ، كُنَّا رغم الفقر سُعداء .. وأنفع وأروع ما تعلَّمته من تلك الأيام هو أن أطايب الطعام فى بلد مُسْتعبد ليست إلا علفاً كعلف السَّوائم وأن الشَّظف بل وقسمة الأيام بين الجوع والشبع فى ظل الحرية هما السعادة والعافية والنَّعيم !!

لم نكن أيامئذ بحاجة إلى أن نُرَدِّد قول أمير الشعراء شوقى :

يـا نـائـح الـطلح أشـبـاه عَـوَادِيـنـا
نَـشْجى لِـوَاديـك أم نـأسَى لِـوَادِيـنـا ؟

فبالنسبة للمعيشة ، كنا نجد ضَرورَاتها . . وكانت الحرية خير بديل للرفاهية الغائبة .

وفيما يختص بالاستعمار وظلم القصور كنا نمتلك حرية سابغة فى المقاومة . . وكانت حرية الرفض ومهرجانات التضحية تملأ أفئدتنا بهجة وعزة وثراء ورجولة ! ألَا ما أروع وأمتع الحياة مع الحرية . . ويَالَيْتَ قومى يعلمون ؟!!

* * *

كيف بدأت أُمَارِس « السياسة » ؟

كان لى شاب من ذوى قُربَاى . . وكانت سِنُّه مثل سنى . . وكان طالباً بمعهد الزقازيق الأزهرى ويبدو أنه أدرك مبكراً أن حظه مع التعليم غير مُوَات ، ولا مُطِيع . . فولَّى مُدْبِراً عنه . . وهارباً منه ، ثم رحل إلى القاهرة وهيأت له حظوظ أخرى غير عَنيدة ولا مُؤنسة العمل كاتباً لدى أحد المحامين المعروفين .

والتقينا فى القاهرة ورُحْنا نتبادل ، اللِّقاءات والزيارات . .

وكان « محيى عبدالمعطى » وهذا اسمه الرسمى والمَألوف . . بيد أننا فى القرية كنّا نُمازحه فندعوه ـ « محك » .

أثبت صديقى الراحل « محيى » رحمه الله تعالى كفاءة واقتداراً فى عمله الجديد ، مما أغراه بأن « يطلع فيها » ويشتغل بالسياسة .

وأظُنُّنى كنت يومها قد انتقلت إلى السنة الثانية الثانوية .

ولهذا الانتقال قصة . . إذ كنت أَعَدْت السنة الأولى لرُسُوبى فيها . . وكانت السنة الوحيدة التى أعدتها ورَسَبْت فيها بسبب هذا! العلم الذى يُسَمّى الحساب . .

وأعوذ بالله من حَسَبَ . . ويَحْسِبُ . . وحَاسِبْ . . ومَحْسُوب . . على حد تعبير شيخنا الإمام « محمد عبده » فى حديثه عن السياسة . .

ولابد من أننى رسبت بعد مرور ورقة الإجابة على لجان الرأفة التى تُجْبِر المُنْكَسِرين ومع هذا لم أعطهم فرصة لِيُجَرِّبوا معى فضيلة الرأفة والرحمة !

كانت النهاية الصغرى للنجاح فى مادة الحساب ست عشرة درجة ـ فيما أذكر ـ فلو أننى ظفرت منها بأربع عشرة لنجحونى . . ولكن يبدو أن آخر محطة لى كانت عند الدرجة العاشرة أو الحادية عشرة . . وهكذا فاتنى القطار !! ومن يومها وأنا لا أستطيع مع الحساب صَبْراً . . وبيننا نُفُور مُتَبَادَل . .

وكنت ـ ولا أزال ـ حين أؤلف كتابا ، يحتاج إلى إحصاءات رقمية وما يَتْبَعها من جمع وطرح وضرب وقسمة أشعر بالصعوبة والسأم والمُعاناة !!

ولَعَلّى كنت سأكرر الرسوب فى مادة الحساب حتى أُفْصل من المعهد .. لولا مَجِىء الإمام المراغى رحمه الله تعالى شيخا للأزهر ، فقد رأى أن للطالب رسالة تتطـلب مِنْهَجاً متخصصاً فى علوم الإسلام عقيدة وشريعة ، ولغة ، وآدابا .. ومِنْ ثَمَّ تكون المرحلة الثانوية إعداداً كافياً فى هذه العلوم يُهَيِّئه بصورة مُثْلَى للالتحاق بكليات الأزهر ـ التعليم العالى ـ فيُعَمِّق دراسته ويتفوق فى تخصصه .. فيلتحق بما يشاء من كليات « أصول الدين » و « الشريعة » و « اللغة العربية » ثم يجاوزها إلى أعلى المراحل فيلتحق بـ « تخصص القضاء » أو تخصص « التدريس » أو « تخصص المادة » ، حيث يتخرج فى هذا التخصص الأخير حاملاً إجازة الدكتوراه ..

أما الحساب والرياضة ومُلحقاتهما ، فلابد للطالب من الإلمام بمبادئها وأُولَيِاتها .. ولكن فى القسم الابتدائى وحده .. لكى يتفرغ فى القسم الثانوى لرسالة الأزهر الحقيقية التى دُعِىَ الطالب لحملها والتَبَتُّل لها ، حيث ليس هناك من يملأ هذا الفراغ سواه !!

وبهذه الفلسفة الرشيدة للتعليم الأزهرى .. قُدِّر لى أن أنجو من مخالب الحساب الذى كان بالنسبة لى « فيروسا خبيثاً ، وقاطع طريق » !

ونعود إلى الصديق « محيى » وبَدْء اشتغالى بالسياسة .. كان « محمود فهمى النقراشى باشا » رحمه الله تعالى قد خرج أو أُخْرِج من حزب الوفد الذى كان من أعلام قادته وأعضائه وذلك بسبب خلافات حادة ومثابرة بينه وبين زعيم الأمة ورئيس الوفد « مصطفى النحاس باشا » عليه رحمة الله .

كان الخلاف سياسيا وإداريا .. وكان « النحاس باشا » قد تعرض لحملة مسعورة من خصومه السياسيين ومن السَّراى ، ومن الآكلة فى كل قصعة والساعين إلى كل مائدة .. أولئك الذين كان شعارهم ـ نحن مع كل رئيس ، حتى يصبح رئيسا سابقا ! وعندئذ نَفْقِد الحاجة إليه ، وبالتالى نفقد ولاءنا له !! وكانت أعصاب النحاس لا تحتمل مزيدا مِمَّا يعده شَغَباً عليه ، وإحباطاً لجهده وجهاده ضد السراى وفرعون مصر « أحمد فؤاد » .

وكان النقراشى باشا يتعجل الإصلاح الحزبى الذى يُنَادى به ويَدْعو إليه ..

وتصادم الموقفان فغادر النقراشى حزب الوفد وشَكَّل فيما بعد حزباً جديداً أسماه « الهيئة السَعْدية » وكان المغفور له « أحمد ماهر باشا » توأم النقراشى وصديق الكفاح والعُمر .. إذ كانا معا المشرفين على التنظيم السِّرى لثورة ـ ١٩ ـ والذى حصر مهمته فى اغتيال الانجليز جنوداً وضباطاً ومسئولين .. وكذلك اغتيال الذين يُمَالِئُونهم من المصريين !! وكم كان عجباً أن نعلم فيما بعد أن هذا التنظيم لَقِى من سعد باشا زغلول ذلك العجوز المُسْتَبْسِل كل التأييد بل والتوجيه ..

وحين اتُّهِم سعد فى ذمته المالية من بعض المُنْشَقِّين بعد رحيله عن الدنيا ، وأذاع هذا الاتهام أحدهم فى كتاب عن سعد وهو المغفور له محمد على علوبة باشا ذاكراً أن سعدا كان يرفض تقديم بعض الحسابات عن الأموال التى يَتَبرَّع بها الشعب لحزب الوفد .. وهذا فى رأيه دليل كاف لإدانة ذمته !!

والآن نعلم أن سعد الرئيس والقائد والزعيم لم يكن بوُسعه أن يقدم حسابا و « فواتير » عن الأموال

الغزيرة التى كان يُمَدّ بها ذلك التنظيم السّرى والمُضَحّى بحياته من أجل مصر ، ومن أجل إرهاق جنود الاحتلال وإزهاق أرواحهم الشريرة !!

* * *

كان النقراشى على اتفاق مع صديق نِضَاله وحياته على ترك الوفد مُسْتقلين أو مفصولين . .
وكانت الخُطة ـ بضم الخاء ـ لا بكسرها ـ أن يبدأ النقراشى بالخروج . . ثم يلحق به « أحمد ماهر » فى مناسبة يختارها وَدَوِىّ يعد له المكان والزمان !!
وجاءت المناسبة الحافلة بالرفض وبالتحدّى الرهيب . .
كيف كان ذلك ؟
كان أحمد ماهر . . رئيساً لمجلس النواب ، وفى إحدى جلساته المسائية جرى نِقاش الأعضاء لبعض الموضوعات المطروحة . . وطلب النحاس باشا الكلمة فَرفض أحمد ماهر إعطاءه الكلمة وثار النحاس وأصر على أن يتحدّث . . وهنا هَدَّد الدكتور ماهر بِفَض الجلسة إذا أصر النحاس على تحدِّيه لائحة المجلس . . وتمسّك النحاس باشا بحقه فى الحديث إلى المجلس . .
وهنا ضغط رئيس المجلس على أحد الأزرار التى أمامه . . فإذا كوكبة من حرس المجلس النِّيابى تقتحم القاعة . . ثم أصدر أمره بإطفاء الأنوار . . وحدث هرج وهَيَاج . وانتهت الجلسة فى ظلام الضوء . . وظُلمات الخصومة والعناد !!
وانضم ماهر بعد فصله من الوفد إلى صديقه النقراشى فى عَلاَنية لا مُدَاراة فيها ولا استخفاء . . وأصبح رئيساً للهيئة السَعْدية . . ثمّ تَوالى خروج بعض الوفديين من أقطاب الوفد وأعضاء الهيئة الوفدية . . مُنْضَمِّين إلى العمل مع النقراشى وماهر فى حزبهما الجديد . . كان النقراشى باشا إثْر إخْرَاجه من الوفد قد اختار مكاناً يلتقى فيه بالمُؤيِّدين له والعاملين معه . . والمكان عبارة عن شقة واسعة فى الدور الأرضى لإحدى العمارات بجوار جريدة الأهرام فى مبناها القديم وفى شارع يُدْعى سِكّة المدابغ ، وكان صديقى وقريبى محيى عبدالمعطى رحمه الله عرف طريقه إلى هذا المكان . . وأدمن التردُّد عليه . . وذات يوم . .
ولكن دعونى ـ أولا ـ أن أسبق هذا اليوم بما كان لى نشاط سياسى فى أيام وشهور تسبقه

* * *

قلت : أننى عَهْدَئذ كنت فى السنة الثانية الثانوية : وكنت أطالع بمثابرة صحف الصباح . . وصَحِيفَتَىْ المساء « كوكب الشرق » . . و « المُقطَّم » . . مع شاى الصباح وشاى المساء ـ بخمسة مليمات صبحاً ومثلها مساء على مقهى الفيشاوى تارة ، وفى غيره تارة أخرى . .
وكانت هذه الصحف أيامئذ المصدر الوحيد لثقافتى السياسية وقد كانت على تنوع مَشَارِبها جَديرة بأن تُعَلِّم وتُثَقِّف . . وكان للمقال السياسى فيها روعته وبراعته ونُفُوذه . . وكان هناك خطيب سياسى لا أظن أن « سِيشْرون » يتفوق عليه . . ذلكم هو « المجاهد الكبير » كما كان الشعب يُلَقِّبه وسكرتير ودينامو حزب الوفد والمحامى الكبير الذى عرف عنه أنه لم يخسر قضية قَطْ مهما يَكُن موقف مُوَكِّله بالغ

الضعف وبعيداً كل البعد عن البراءة .. ذلكم هو « مكرم عبيد باشا» ..

أراد يوماً إهانة « صدقى باشا » رئيس الوزراء وذلك بالهتاف بسقوطه فى قاعة المحكمة ومضى يستدرج النيابة بإطلاق بعض الإشاعات على أنهاوقائع .. وتَهَلَّل مُمَثِّل النيابة فقد جاءته الفرصة ليكشف بضاعة « مكرم عبيد » للناس وراح كلما ساق المحامى الماكر إشاعة على إنها واقعة .. وقف ممثل النيابة قائلاً : هذا غير صحيح .. وفى آخر مرة وقد دخل فى « الفخ » الذى أعدّه له « مكرم عبيد » وقف يرفض صحة ما ساقه الدفاع مما أسماه وقائع قائلا : يؤسفنى أن الدفاع يُلْبس الحق بالباطل ويسوق بيانات كاذبة .

ورأى مكرم أن اللحظة التى ينتظرها لإهانة صدقى فى عرينه قد حانت فصاح فى انفعال مصنوع :

أَوَ كلما سُقت حجة ، أو ذكرت واقعة قالت النيابة هذا غير صحيح .. هذا .. كذب .. إذن فليحيا كذبى .. وليسقط صدقى ودوّت القاعة بالتصفيق ، ورفعت الجلسة للاستراحة « ...... » هذا الخطيب الداهية .. والسياسى الداهية .. والمحامى الداهية .. ربطنى به وجذبنى إليه شغف عظيم .. فما كنت أعلم أنه سيخطب فى مكان إلا سارعت إليه يَحْدُونى الفرح والشوْق وإن كنت تلقيت جزائى على هذا الحب بضربة قاسية على عنقى .. لعلها كانت سببا أو واحداً من الأسباب التى تكمن وراء آلام العنق ، حيث تنتابنى حيناً فحينا !!

كان ذلك فى أحد المؤتمرات التى يَعْقِدها حزب الوفد ولَيْلَتِئِذ كان المؤتمر مُنْعقداً فى حى بولاق .. وكعادتى قطعت الأرض وَثْباً إلى هناك لم يحضر النحاس باشا وأناب مكرم عبيد الذى آثر أن يكون آخر الخطباء ..

ووقف السّاحر الدّاهية فلا تدرى أهو يتحدث ويخطب أم يغنى ويَعْزِف ؟

وبعد أن أسكر الألوف المُحْتشدة قال : مَعْذِرة فقد أطلت عليكم ..

فأجابته الجماهير إلى الصباح يا مكرم . وإذا هو يقول :

كَلاَّ كلاَّ .. فكما امتلأ القلب إحْسَاساً .. امتلأ الجفن نُعاساً !

ووجدتنى أقف وأصيح : « والله مْحضُرها والله مْحضُرها !!»

وإذا عنقى يختلج ويتلوى من ضربة قاسية ، أرسلها إلىّ مع التحية والامتنان الجالس خلفى وهو يصيح : « ما تقْعِد يا جَدَع انت » .. والتفت نحوه فى صعوبة فوجدت شيئا ضخم الجثة ، يرتدى الملابس البلدية وتُغَطّى رأسه البَقرى « لاَسَه » من الحرير . لم أشك حين بَصُرْت به أنه جزار وحتى الآن فإنى لا أُكذِّب فيه ظنى !!

وغادرت الحفل بعد انتهائه وفى عقلى أعذب الكلمات التى صدح بها مكرم وفى عنقى آلام اللكمة المتوحشة التى أهداها إلىّ ذلك الجزار !!

* * *

أما لماذا صحت بهذه العبارة « والله مْحضُرها » فلأنى من متابعته المشْغُوفة ، رأيت ـ وهو رأىٌ إن صح لا يُنْقص من روعته واستاذيته كخطيب نادر المثال ـ أقول رأيت أنه كان بذكاء عظيم ، ودهاء عليم ـ

يحضّر بعض الردود البارعة السَّبْك والروعة على بعض المواقف التى تصنعها أو يفتعلها أثناء خطابه .. فيبدو تعليقه عليها مرتجلا .. فيزداد سحره ويتوهج قدره .. مثلما حدث فى مؤتمر بولاق .. فهو يعلن أنه حين يقول للناس معذرة فقد أطلت عليكم سيجىء ردهم : إلى الصباح يا مكرم أو أى تعبير آخر يُتيح له أن يجيب فى لحظة بهذه الكلمات الساحرة والآسرة :

كلاّ ، كلاّ .. فكما امتلأ القلب إحساساً ، امتلأ الجفن نُعاساً !! على أنى حين هتفت بعبارتى تلك ، لم يكن باعثها سوى الإعجاب الفَرِح بذكائه وبأستاذيته حتى حين يقوم بإعداد مثل هذه المفاجآت السعيدة !! أما قدرته على الارتجال فلا سبيل لإنكارها .. بل إنى لأرى أن هذا الفنان القدير أسهم بجمال كلماته وعذوبة إلقائه فى تنشئة الحِسّ الجمالى عندنا .. واضرب لكم مثلا ..

بعد التوقيع على ـ معاهدة ١٩٣٦ ـ بيننا وبين بريطانيا قُوبِلَت بمعارضة من بعض الأحزاب ، كالحزب الوطنى .. وحزب « مصر الفتاة » ومن بعض المُستقلّين أيضاً ..

وأقيم فى القاعة الكبرى بجامعة القاهرة مؤتمر شاهق وكان خطيبه الوحيد فيما أذكر ـ هو : مكرم عبيد باشا ..

وكان قد أعد خطابه المفُيض ، ووقف يُلقيه من الأوراق المكتوبة حتى بلغ عبارة لم يُمهْله الحضور حتى يُتمّها ويَتَكامل معناها .. فذهبوا يَسْتَعِيدُونها أكثر من مرة .. كانت العبارة تقول : « وها هو ذا سعد فى جلال المشِيب .. ورَوْعة الخَطِيب » .

أفلا ينتظرون حتى تكتمل الفقرة وتبلغ غايتها !! لا .. ولهم الحق ، لأنهم كانوا يتعاملون مع « فنان » لامع « خطيب » .. لذلك أهاجتهم الموسيقى الواضحة فى السّجع المحسُوب والمحبوب حين وصف المَشِيب بالجلال والخطيب بالرائع قائلا :

« فى جلال المَشِيب .. وروعة الخَطِيب » فقاطعوه مرات .. واستعادوا الأغنية مرات !! أظن أنه سيكون لنا لقاء آخر طويل مع مكرم عبيد المجاهد الكبير ..

* * *

وبعد .. فلم أنس وعدى لكم فى ختام الحلقة السابقة أن أحدثكم عن « الشيخ ياسين »ـ وعن أول أصدقاء حياتى « مؤمل » .. وقد كنت مُزْمِعاً ذلك فى هذه الحلقة . بيد أن الرياح حملت «زَوْرَقنا» إلى اتجاه أخر .. فليكن لنا معهما لقاء فى الحلقة القادمة إن شاء الله ..

طبتم وطاب حرصكم على متابعة هذه المذكرات ..

مرة أخرى ـ مرحبا بالسياسة !!!

قبل أن أنسى ـ وإن يك هذه الحديث لا يُنْسى ـ دعونى أفِى بوعدى ـ فأحدثكم عن الشيخ ياسين .. وصديقى « مؤمل » ..

كان الشيخ ياسين ـ كما علمتم ـ هو الذى أكرم بقوة صَفَعاته الطالب الذى شَجَّ جبهتى ، والذى كان يتحدث عن الإمام « محمد عبده » بسفاهة وتَوَقُّح .. !!

وكان « ياسين » فى السنة الرابعة الثانوية .. وثيق بناء الجسم .. كتلة متحركة من الطاقة والقوة ..

أُعيذُه ـ إن كان حياً من شر حاسد إذا حسد ـ!! ولا أظن أننى شهدت أو قرأت عن رجل فى مثل شجاعته واقتحامه .. كأن قلبه لم يكن قلب بشر .. أو كأنه سَرَق قُلوب مائة من الشُجعان ، وأسكنها فؤاده وضلوعه ..!!

وسأعطيكم مشهداً واحداً من مشَاهِد شجاعته الخارقة ..

فذات يوم ـ ونحن نُذاكر فى الجامع الأزهر ـ وقع شجار بين طالب « صَعِيدى » وآخر .. (مُنوفِى) .. ووكز الأول الثانى فطرحه أرضا يتلوى من الألم .. وسارع الطلبة ، وتحلقوا حول الحادثة .. وانضم إلى الصعيدى بعض شيعته .. وسارع طالب إلى حيث كان الشيخ « ياسين » يُذاكر عند القبلة القديمة .. وقال له :

— إلحق .. طالب بيموت .. !!

وكان مجرد اسم « ياسين » كنداء النجدة لكل مُعْتَدى عليه ولكل مَظْلوم .. ونهض « ياسين » فى خطوات عَجْلى .. بل قولوا : فى هَرْولة .. وعند مكان الحادث فرق بذراعيه القويَّتين الجمع المتفرِّج ..

— بِتْتَفَرَّجوا على إيه ، يا أنذال .. ؟؟

وانحنى على الطالب الذى كان لايزال طريح الأرض .. وأخذ يحرك شهيقه وزفيره .. ودعا بماء فصبه على وجهه وغسل به رأسه .. ولما أفاق تحسس « ياسين » جسده ، ليرى حقيقة إصابته .. ومضى الطالب فى إعياء إلى مكانه الذى يذاكر فيه .. ثم قال الأسد الهصور : من المُعْتَدِى .. ؟؟

أجاب الصعيدى : أنا ..

— ولماذا .. ؟؟

— لأنه يقول : الصَعَايدة دُول فهمهم تَقيل .. ودمُّهم أتْقل .. !!

— ولهذا أردت إذن أن تُقْنعه بأن أذرعتكم أثقل .. طيب خُذْ .. !!

وانهال عليه وكزاً .. وضرباً .. وأسرع طالب صعيدى إلى رواق الصعايدة ، طالباً النجدة ، فأقبلوا حاملين عَصيُّهم !!

وحين رآهم « ياسين » راح يجرى ، فظنوا أنه يهرب منهم طلباً للنجاة .. !!

بيد أنه ، كان يسارع إلى حيث تكمن هِراوته الطويلة والغليظة .. ثم راح يعدو إلى داخل الجامع ..

وكان الأحرى به أن يدير المعركة معهم فى صحن الأزهر ، حيث وقع الحادث وحيث تكون فرص النجاة فيما لو هُزم ، أكثر إتاحة ويُسرا .. لكن « الأسد فى براثينه » استدرجهم إلى داخل الجامع ، لينفرد بهم هنا ..!!

وما أن رأى الطلبة العاكِفُون على مُذَاكرتهم بَدْء المعركة حتى جَمعوا كتبهم . وهرولوا إلى صحن الأزهر طلباً للنجاة .. وفى لحظات لم يبق هناك سوى « ياسين » وحده وقُرابة اثنى عشر من الطلبة الصعايدة .. واقترب من الأبواب الفاصلة بين الصحن والجامع ، وصاح فينا ، ونحن واقفون نتابع

المعركة الرهيبة من فجوات الأبواب آمراً أن نُغلقها ، حتى لايتيح لهم فرصة الهروب . . !! يا الله . . إلى هذا المدى كانت ثقته بنفسه . . ؟؟ حياك الله يا ياسين . . وليتنى أسعد برؤيتك إذا قرأت هذه الكلمات ، أو أنبأك بها صديق . .

* * *

راح الشيخ « ياسين » يُلَعْلِع بعصاه فى فن عظيم ، وكأنه « مايسترو » أوملك من ملوك « التَّخْطِيب » . . !! وحده كان بين اثنى عشر من الأشداء . . !! لكأنّى - وأنا أخُطّ هذه السطور - أرى المشهد رأى العين . .

فتى - ولا كل الفِتيْان - يَتَواثب من هنا إلى هناك فى رشاقة الغزلان . . حتى أربك الآخرين ، ففقدوا سيطرتهم على أنفسهم وعصيهم . . فأخذ يسقطها من أيديهم المرتعشة ومضوا بعد حوالى نصف الساعة من القتال يهربون إلى رواقهم عن طريق الباب الفاصل بين الجامع والرواق . .

وعاد « ياسين » إلينا لم يفقد فى المعركة قطرة واحـدة من دمـه الغـالى الثمين . . واستقبله الطلبة بالتصفيق والتهليل . . وتَوّجوه يومئذ نَصِيراً عظيماً . . وحيداً وفريداً . . للضعفاء والمظلومين . . وذاع الخبر . . وفى اليوم التالى حضر وفد من العلماء . . ووثقوا الصلح بين المُتَقاتلين . . وبعدها سارت الحياة فى الجامع فى وُئام وسلام . .

ومرة أخرى - حياك الله ، يا شيخ ياسين . .

* * *

أما صديقى الحبيب « مؤمل » فالحديث عنه ذو شجون . . كان « الشيخ عبد الرحمن » زميلى فى الدراسة . . وكان « مؤمل » ابن خاله . . وآثر الأزهر كمكان للمُذاكرة ، فكان يجىء كل مساء مع عبد الرحمن . . وفى أول لقاء بيننا بهرنى فى « مؤمل » ذكاؤه وبهاؤه . .

أما ذكاؤه ، فكان يبدو أنه يسبق عمره بعشر سنوات . . !!

وأما بهاؤه ، فكان له وجه يتلألأ . . كأنما أعارته الشمس ضَوءها . . !!

وحين يجتمع الذكاء والبهاء لأى إنسان ، أقول :

هنا محط رِحَالى ، وفرحة آمالى . . !!

كان « مؤمل » إذا تحدث تخرج الكلمات من بين شفتيه ، وكأنها لؤلؤ منثور . وبين الحين والحين . . يُرسل بصره إلى السماء فى زيارة خاطفة ، وكأنه يسائلها . . هل له فيها مثيل أو نظير . . ! وكان يكسو وجهه المُضىء وقار أنيق . . فإذ استخدم يديه أثناء حديثه كوسائل إيضاح ، رأيت ثَمَّ الرشاقة كلها ، والجمال كله . . فإذا مرة انفرجت ثناياه عن بسمة ، أو عن ضحكة فرحة ، قلت : إن الحياة كلها فى عيد . . !!

كان مُهَذَّبا ، يمتلك من مكارم الأخلاق القدر الكثير . .

وتوطدت بيننا أواصر الصداقة ، فكان أول صديق حقيقى ، وأول حبيب وكانت سِنُّنا واحدة ، حذو اليوم باليوم . . ولو أن صداقتنا طالت ، لجنينا منها معا أشهى الثمار . . !!

لكننا لم ننعم بها أكثر من عام .. إذ نقل والده ـ ناظر إحدى المدارس الثانوية إلى الاسكندرية ، فرحل إليها معه .. ورحل أيضا زميلى « عبد الرحمن » الذى كان فى كفالة خاله .. وفرقت بيننا الأيام !! وأنا جد كسول عن الأسفار ، حتى تلك التى يسيل من أجلها لعاب الصفوة من الناس .. لكن السفر إلى الاسكندرية يُبهجنى ، وحين أخطو إليها يغمرنى فرح عظيم ..

أترانى أحبها لأن فيها ذكرى عزيزة .. أترانى :

أمــر عــلى الــديــار ، ديــار لــيــلى
أقــبِّــل ذا الــجَــدارا ، وذا الــجَــدارا
ومــا حــبُّ الــديــار شَــغَــفْــن قــلــبى
ولــكــن حــب مــن ســكــن الــديــارا !!

كم نحن أسْرى أول صداقة عزيزة ، وأول حب نقى .. وكم تَسْرِى فى حياتنا ، وتبقى فينا ومعنا أطّايب أول صديق .. وأول حبيب .. ؟!!!

* * *

لعلكم تذكرون ما سقته فى إحدى الحلقات من أن أول كتاب آثرته بالاقتناء والقراءة فى سن مبكرة لم أجاوز فيها الخامسة عشرة ـ كان كتاباً سياسيا مُترجماً .. واسمه « مذكرات لورد جربى » وزير خارجية بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ..

وقد التمست لهذا الموقف بعض التفسيرات سقتها فى حينها ..

واليوم أجد لها تفسيراً آخر .. وكلها تفسيرات اجتهادية ..

والتفسير الجديد يقتضينا أن نعود إلى الصديق الراحل : « محيى عبد المعطى » رحمه الله تعالى ..

قلت فى الحلقة السابقة أنه يُدْمن السياسة ، صاعداً إليها من أدنى السلم .. بل قولوا من « بير السلم » !! لأنه لم يكن مُهْيأ لهذا المجال ..

ومع ذلك شاءت المقادير أن تُجىء أول خطوة لى فى العمل السياسى الحركى عن طريقه ..

فذات يوم التقينا .. ودعوته إلى العشاء معا فى مطعم طه حسين الفوال .. وكان هذا المطعم يُجاور الأزهر أمام « باب الصعايدة » وسمى الباب بهذا الاسم لأنه كان المدخل المباشر لرواق الصعايدة .. أى لطلبة العلم من الوجه القبلى .. واعتذر « محيى » لأنه على موعد مع بعض أصدقائه مساء اليوم فى « مكتب النقراشى باشا » ..

وقد حدثتكم ـ آنفاً ـ عن فصل الوفد له من عضويته ، حيث اتخذ مكاناً للالتقاء مع أنصاره فى « سكة المدابغ » أمام المبنى القديم لجريدة الأهرام .. ولأنه لم يكن قد شكل « الهيئة السَعْدية » بعد ، فقد عرف مقره هذا بـ « مكتب النقراشى باشا » .. وكانت هذه التسمية ـ كما أذكر ـ موضع تَنَدُّر من صحيفة « المصرى » لسان حال « حزب الوفد » فكانت تسأل « النقراشى » على صفحاتها لماذا تفتح « مكتبا » ؟!!! هل أنت محام . ؟ هل أنت خبير . هل أنت محاسب .. ؟ هل أنت مستشار قانونى أو اقتصادى .. ؟ إلى آخر هذه « الهل أنات » .. !!

قال لى « محيى » ما رأيك فى تأجيل العشاء إلى غد ، وتأتى معى الليلة إلى « مكتب النقراشى باشا » وذهبت معه .. كان المكتب متواضعا فى كل شيء .. وكان رُوّاده من الشباب ـ وأكثرهم جامِعيُّون ـ يلتقون فى صالة واسعة نسبيا .. فيتحدثون ، ويهتفون .. ويخطبون .. ولا أذكر أن هذه الزيارة الأولى تركت فى نفسى أثرا يحبب إلىّ تكرارها .. ومع ذلك ، فقد كنت أعد الخُطى إلى المكتب فى مرات متباعدة ..

كانت المعارضة للنحاس باشا ووزارته قد تصاعدت ، أوصعدت إلى مدى يُنْذِر بسقوطها .. وشرعت الأقلام كالسهام ، وأمسى للشائعات سوق رائجة ونافعة .. !! .

ولعل أول محاولة وتجربة لى فى التحليل السياسى دون أن أدرى أن ما أحاوله يقع تحت هذا العنوان .. كل ما كان ، أننى أحاول التفكير بالعمق الذى كنت قادراً عليه ، والذى كان مُتاحا لمن هو فى سنّى وثقافتى ..

ما هذا التمرد على الرجل الذى كان بالأمس القريب زعيما للجميع .. حتى هؤلاء الشُبان ، كانوا منذ زمن ليس ببعيد ، من شباب الوفد .. بل وبعضهم كان من قادة « القُمصان الزرقاء » وهو تنظيم شبه عسكرى ، شكلّه الوفد يومئذ ليواجه به تنظيم « القمصان الخضراء » التى شكلها حزب « مصر الفتاة » .. !! وكان يقوم ببعض الهجمات على شباب الوفد فى الجامعة وخارجها .. !!

وهذا الشباب الوفدى الذى يهتف اليوم بسقوط « النحاس » هو نفسه الذى كان يحمله على الأعناق من عهد قريب .. وهو لم يُغادر الوفد إلا حين غادره « النقراشى باشا » .. !! ما هذا الهياج النابح ؟؟ وهل ما يقال عن أسبابه حقائق أم تَهاتُرات ..؟؟.

كنت أقرأ لمؤيدى « النحاس » والوفد .. وأقرأ لخصوم « النحاس » و« الوفد » وأوازن وأقارن بجهدى المتواضع بين ما يتراشق به الفريقان .. وهدتنى جريدة المصرى إلى التركيز على دور « السراى » فى هذا كله من تعليقاتها ، وغمزها ولمزها ..

والحق أقول لكم : لقد أحسست بمتعة فائقة وأنا أحيا هذه التجربة ، وأعيش فى ذاك المناخ .. !! وأدركت يومئذ أن السياسة ليست دائما « لعبة قذرة » .. بل من الممكن والمُستطاع أن تتصدر فضائل الحياة كسبيل إلى اقرار مبادىء الحرية ، والعدل ، وسبيل إلى خدمة الوطن ، والمواطنين .. حتى حين تغشاها الأنانية والتعصب وعند القول والفعل ، فإنها تبقى ضرورة سياسية ، محتوم على الناس جميعاً أن يبرزوا إليها ، ويمضوا مع موكبها .. !!

ومما كنا نجهله أن العمل السياسى ، ليس واجباً سياسياً فحسب .. بل هو كذلك واجب دينى .. !!

وإذا لم يكن كذلك ، فما معنى ـ إذن ـ قول الرسول الكريم سيدنا « محمد » صلى الله عليه وسلم :

« من لم يهتم بأمر المسلمين ، فليس منهم »

وكيف يباح لأحد أن يهتم بأمر المسلمين ، دون أن يخوض خوضاً فى السياسة ، فيدافع عن حقوق الشعب فى البرلمان ، ويحمى الدستور الذى يُقيم حُدوداً فاصلة بين سُلطة الحكومة ، وسلطة الشعب .. ويشترك فى الأحزاب التى تُخرج « الكَوادر » المهيأة سياسياً وثقافياً للمشاركة فى حكم الشعب .. ؟؟

إذن ، فالسياسة من الدين .. وكَذِب من قال : لا دين فى السياسة .. ولا سياسة فى الدين » ... ؟؟!!!

* * *

ولا مُدعاة للخوف من أن يُرفض الدين ، وبخاصّة الإسلام « قومية الحكم » .. فالحكومة فى الإسلام « إسلامية » وليست « دينية » و « قومية » وليست « إنفصاليّة » ..

والحكومة الإسلامية ، لا كَهَنُوت فيها ، بمعنى أنه لا يشكّلها المَوْسُومون بلقب « رجال الدين » .. إنما تنتظم الأكفاء ، والمُتخصِّصِين .. ويشترك فيها المسلمون والمسيحيون ..

وحين يذكر رسولنا الكريم المسلمين بالتخصيص ، مثلما فى حديثه الشريف :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .. فليس معناه أن المسلمين وحدهم هم موضع الاهتمام .. بل هو تعبير بالكُل الذى ينتظم البعض .. وإلاَّ فأين تذهب الأحاديث الكثيرة التى تُوصِى بأهل الكتاب خيرا .. وتتوعد من يؤذيهم بسخط الله وعقابه .. !!

* * *

وهكذا ـ يا صِحاب ـ بدأت أعرف لماذا كان أول كتاب يقتنيه طالب سِياسِيًّا .. إن السياسة واجب .. والسياسة متْعة .. والسياسة فن .. وإذن فواجبى أن أعرف فن السياسة » .. !!

إن التعامُل مع « الأشياء » لايُفيد .. وإنما الجدْوَى كلها فى التعامل مع « قَلْب الأشياء » ..

ولقد جاءتني الفرصة تسعى ، فَلأفتح لها الأبواب .

* * *

كان أستاذنا « العقاد » عهدَئِذ .. يكتب يومياً المقال الافتتاحى لجريدة « البلاغ » المسائية .. ولا أنسى ، ولن يَنسى الذين قرأوا ذات يوم مقاله العجيب الذى جعل عنوانه : « أحد عشر كوكبا » كيف « مَرْمَط » هذه الكواكب وأشبعها سخرية وهوانا ..

ولهذه الكواكب قصة .. فبعد أن أُخرج « النقراشى » من الوفد ، ثم أُلحِقَ به « أحمد ماهر » أراد « الوفد » أن يُنْسِى الناس هذين اللذين كانا من أبرز قادته .. وفى الوقت نفسه يملأ الفراغ بأحد عشر عضواً آخرين ..

واقتنص « العقاد » هذه المناسبة ، فكتب مقاله ذاك ـ « أحد عشر كَوكبا » .. ولا أظن أنه فى تلك الأونة قد كتب مقالاً أمتع للقارىء ، وأفجع للكواكب ، مثل هذا المقال .. !!

وهنا أسوق مفاجأة قد تَبْعث الضحك .. وقد تَبْتَعِثُ الإعجاب .. !!

* * *

قلت لكم من قبل : إن إعجابى بمكرم عبيد الخطيب .. كان بلا حدود .. وحين أُمارس الخطابة السياسية فيما بعد ، سأقلده فى سجعه ، ومؤشرات يديه .. وفى استخدام كل طبقات الصوت ، صاعداً ونازلاً .. ومُتهدجا ، ومُتَنهِّداً .. وفَرِحاً وحزيناً .. وساخراً ، ومُبشراً ، ومُنذراً .. !! بل لقد أخذت أقلِّده فى مشيته وكانت له مشية فريدة .. فتراه يبرز صدره إلى أمام ، ويدفع رأسه إلى وراء .. ويهتز كتفاه اهتزازة خفيفة ذات اليمين وذات الشمال .. ولقد تلقيت بسبب هذه المحاكاة ضربة أو لكمة قاسية على ظهرى ، حين كنت سائراً فى شارع الأزهر يوما ، وأنا أمشى هذه المشية « المَكْرَمية » التى فاتنى أنها لا تصلح لمن يرتدى كاكولة وعمامة ..

وفيما أنا ماض فى طريقى ، إذا قبضة عاتية تهوى على ظهرى .. وإذا مَنْ يقول لى : إيه ده يا حمار .. !! كان طالباً أزهريا ، فارع القامة .. وأستأنف فقال :

— دى مشية تمشيها .. ؟؟ ولم أُجادله بكلمة ، فقد أدركت فى اللحظة نفسها أننى مخطىء .. وأن للتقليد حدوداً .. وأن المشية التى تصلح لمكرم باشا بقامته الفارعة وصدره العريض ، وهامته المرتفعة ، لا تُصلح لمن لايزيد طوله عن متر .. ويتعثَّر فى ذيل « كَاكُولته » المُسدَلَة حتى الأرض .. !!

* * *

كتبتُ يومئذ مقالا ، وأرسلته مع البريد إلى جريدة البلاغ .. وكان المقال جيداً مُرهفا .. يعتمد على السجع البديع .. هل فى هذا مايُضْحِك ؟؟ لا .. وإن ما يُضْحك قَادم .. !!

فبعد إرسالى المقال ، أخذت أتردد يومياً بعد صلاة العصر على بائع الصحف لأدرك نسخة من « البلاغ » الذى كانت الأيدى النَّهِمة تتخطفه فور وصوله .. وحتى الآن ، ليس ثَمَّة ما يُضحك ..

إنما المضحك ، أننى كنت قبل شرائى الجريدة ، أنظر صفحتها الأولى فإن وجدت مقالى مُتربِّعا عليها اشتريتها ، وإلا أنصرفت عنها .. !!

كان مقال الأستاذ العقاد يأخذ مكانه فى الجانب الأيمن من الصفحة الأولى .. وكانت توقعاتى وتطلعاتى أن يأخذ مقالى المسجوع مكانة فى المكان المقابل لمقاله .. أى فى الجانب الأيسر من الصفحة الأولى - « ومافيش حد ، أحسن من حد » .. !!

هذا هو المُضحك إن شئتم .. فهل كان ذلك غرورا .. ؟ أم طُموحاً مُبكرا . ؟ أم إحدى هفوات النفس ، وهمزات الشياطين .. ؟؟ !!

ما علينا .. المهم أن المقال لم يُنشر ، لافى الصفحة الأولى ، ولا فى صفحة الحوادث .. بل ولا فى صفحة الوَفَيات .. !!

لكن ، إذا لم يجد مكاناهنا .. فإن له مكانا عاليا هناك .. فماذا كان هذا الهُنَاك » .. ؟ !

* * *

كنت قد حفظت المقال حفظاً جيداً بسبب كثرة قراءتى له وإعجابى به .. وذات مساء ، حُبِّبَ إلىّ الذهاب إلى مكتب « النقراشى باشا » ..

وما أن أطْللت على الشباب الحاشد هناك ، حتى نهض قائما ـ كمن وجد ضالّته المنشودة ، واحد منهم ضخم الجثة ، عرفت فيما بعد أن اسمه « بديع » وصاح هذا البديع قائلاً :

أهُهْ .. الشيخ دا اللى حيخطب ، ثم رفعني بين يديه ، ووضعنى فوق منصة الخَطابة .. ووجدتُنى أقول له فى تحدٍّ جرىء : إيوه .. أنا اللى حاخْطُب .. ماذا كان قد دعاهم فى تلك الأمسية .. ؟؟

كان الشباب الوافد إلى المكتب كثيراً حتى ملأ القاعة .. وبحث متزعمو شباب الجالية النقراشية عن خطيب من أى مستوى فلم يجدوا .. وما إن رأونى حتى التقطوا أنفاسهم .. ولم يُضيع الولد « بديع » وقته ، فسارع إلى حملى ووضعنى ـ قائما ـ فوق المنصة .. ومضيت ألقى المقال الذى لم تنشره جريدة البلاغ ، ولكن بنبرة خطابية ألعب فيها بأوتار صوتى ، وكأننى أُغنى .. ! ومع كل « سَجْعَة » تُجَنُّ الأكُفّ المصفقة .. واستغرق المشهد المثير قُرابة ثلاثين دقيقة .. !!

وجاءت المفاجأة التى ما كنت ، ولا كان أحد يتوقعها .. فبعد دقائق من إنهاء الخطاب ، وتهاني الشباب تنهال علىّ كالزهور ، جاء إلى القاعة السيد أبو بكر .. وكان يعمل سكرتيراً للمكتب ومساعداً للحاج عبد اللطيف الذى كان بمثابة مدير المكتب .. جاء يدعونى لمُقابلة « النقراشى باشا » ..

يا الله .. النقراشى مرة واحدة .. ؟؟!!

كانت حجرته رحمه الله ملاصقة للقاعة .. ومعنى دعوتى لمقابلته ، أنه سمع خطابى .. وذهبت اتعثر فى حيائى وتَهيُّبى .. !!

استقبلنى الرجل واقفا ، وشدّ على يدى وهو يصافحنى .. وقد تألّقت على شفتيه بَسْمة ، فيها قليل من الصرامة ، وكثير من الود .. وأشار إلى المقعد المواجه له ، وقال : تفضل ..

وتفضلت !!

— اسمك إيه يا مولانا ؟؟

خالد محمد خالد ثابت ..

* * *

سيـــاسى .. وخطـــيب

كان « النقراشى باشا » أول شخصية سياسية كبيرة ألتقى بها ..

ولصاحبكم إحساس « لاقِط » ومُرهَف ..

وحين يتحدث إلى أحد ، فإنى كثيراً ما أغيب عن حديثه . وأسرح ، وأنا معه فى غير تركيز .. ومع ذلك ، فإن الكلمات التى ألتقطها .. تعطينى فكرة شبه كاملة . عما أراد أن يقول .. وفى الوقت نفسه يقوم عقلى بـ « غَرْبَلَة » ما يقول .. !!

من أجل ذلك ، يقوم بعض أصدقائى وهم يتحدثون إلىّ ، برجاء أن أعود إليهم .. وأركز على الإصغاء لهم ، ولا أدع « السَّرَحان » و « الشرود » يأخُذاننى بعيداً منهم ..

وفى الوقت نفسه .. ودون قصد منى أو جهد ، تتكون تلقائيا صورة النوعية التى ينتمى إليها مُحدِّثى .. !!

ولهذا الأسلوب الذى فُطرت عليه مزايا كِثَار .. فهو يتيح لى فى مثل هذه اللِّقاءات التى تتم بين طرفين غير مُتساويين فى المنصب أو الجاه ، أو الثراء .. أن تملأ المسافة بيننا ثقة بالنفس ، واعْتِدادا بالذات ..

ولنعد إلى حيث انتهينا ..

— اسمك إيه يا مولانا ؟؟

— خالد محمد خالد ثابت .

اسمك أطول منك يا شيخ خالد .. !! نفس العبارة التى قالها من قبل ضابط البوليس يوم مظاهرة الأزهر !!

— صَمْت ..

— وانت فين ؟؟

— أنا فى الأزهر ..

— واضح أنك فى الأزهر ، ونقر رأسه بأنْملته ، مشيرا بهذه المداعبة إلى أن العمامة التى فوق رأسى تحدد « جنسيتى الدراسية » .. !!

— أنا أسأل عن المرحلة التعليمية اللى انت فيها ؟؟

— أنا فى السنة الثانية الثانوية ، فصل رابع ..

وضحك طويلاً عن عبارة « فصل رابع » . .

— ولكن يبدو أنك تحب مكرم باشا كتير ؟؟

— صحيح . . وأُحسن تقليده . .

— أنت معجب به كخطيب ، أم كسياسى ؟؟

الاثنان معا . .

— على كل حال ، مكرم باشا كان أزهرى . . وضحك وضحكت معه وقلت :

— ممكن ، ولهذا يحفظ كثيرا من سور القرآن وآياته ، ويُضَمِّنها خُطبه . . !!

— وبلدكم إيه ، يا شيخ خالد ؟؟

— العدوة ـ مركز ههيا ـ مديرية الشرقية . . وتابعة لتفتيش الأمير « محمد عبدالحليم » . .

— ياه . . يعنى انتو « شَفالِكْ » وضحك . . ولأول مرة فى حياتى كنت أسمع هذا التعبير ، وأعلم أنه يُراد به البلاد الواقعة فى نطاق المِلْكيات الزراعية الكبيرة لأُمَراء عائلة « محمد على الكبير » رأس الأسرة المالكة . . أو التى كانت كذلك . .

— هل والدك أزهرى . . ؟؟

— جدى الشيخ خالد ـ رحمه الله ـ هو الذى كان من العلماء . . أما والدى وابتسمت ـ فعمدة !! .

— عمدة بلدكم . . ؟؟

— لا . . عمدة بلا عمل . . يعنى من الأعيان . . فنحن نستأجر أرضا من التفتيش . . وأخى « السيد » يقوم بزراعتها . . وأبى يُشرف عليها بالتوجيه . .

— طيب ، يا شيخ خالد ـ عاوزينك تكون خطيبا على طول . .

— إن شاء الله تعالى .

— وشربت كوب الشاى الذى طلبه لى . . وهنا دخل السيد/ أبو بكر قائلاً للباشا : الأستاذ « حامد جودة » فاستأذنت ، وودَّعنى الرجل بتحية طيبة . . !!

* * *

من قبل ، وتحت تأثير المعارضة الصارخة للوفد ولزعيمه ـ كان التيار المُعادى للنحاس باشا وحكومته قد جرفنى واستقطبنى . . وجاءت مقابلتى هذه للنقراشى باشا ، إشارة البدء للعمل مع المعارضة . .

والحق أقول لكم : لقد تَرَكت الدقائق التى قضيتها معه ومع حواره ، مَودَّة له واحتراماً لا يزالان حتى اليوم يأخذان مكانهما فى قلبى . . حتى لقد رثيتُه بعد رحيله بمقال فى مجلة الاعتصام التى كانت يومئذ تنطق باسم « الجمعية الشرعية » تحت عنوان : « وداعا . . سيد الشهداء » وأثار العنوان والمقال عاصفة من النقد والهجوم . . وبخاصة من « الإخوان المسلمين » . . !!

ولنا عودة نكمل فيها حديثنا عن الرجل الذى كنت أراه عظيماً ، ولا أزال . . ومن تلك الليلة ، كَثُر تردُّدى على المكتب ، وكنت وأنا فى طريقى إليه أرتجل مع نفسى الكلمة أوعناصر الكلمة التى سأُلقيها ، وأُحَضِّر السجع الذى سأختم به كل فقرة من الخطاب ، ـ حتى تعبر الأيدى المصفقة فى

حماس بالغ عن ولائها لعبقريتى « . . . . » !!

ولقد كانت خطبتى الأولى المُفاجِئة قد أفاءت علىّ مكسباً من أعظم مكاسب حياتى الأدبية . . فلو أننى بدأت أخطب من أوراق مكتوبة ، لربما بقيت حتى اليوم رهين هذه العادة . . أما وقد بدأت مُرْتَجِلاً ، وعزّ علىّ أن أفقد هذه الموهبة ، فقد مضيْتُ - وإلى يومنا - هذا أُرْتَجِل كل خطبى . . التى كانت كثيرة وغزيرة ، كما سأحدثكم عنها فيما بعد . .

وهكذا أصبحت - وبغير خطة محسوبة - أحد وربما أول فرسان خطباء الجمهور الوافد إلى مكتب « النقراشى باشا » رحمه الله . . وشاركنى فى تلك الفروسية الأخوة : المرحوم « عبدالعزيز الشوربجى » الذى كان فيما بعد نقيبا للمحامين . . والمرحوم « عبدالحميد الشواربى » الذى انتقل إلى رحمة الله تعالى وهو طالب بكلية الحقوق . . والمرحوم « عبدالوهاب حسنى » المحامى . . و « عبدالملك هاشم » الذى وصل إلى منصة القضاء مستشاراً - أطال الله عمره . . والأستاذ « رشاد الشافعى » الذى وصل إلى منصب وكيل وزارة التموين لمنطقة الجيزة . أطال الله عمره هو الآخر . . وآخرون . .

وبمناسبة الحديث عن الخطابة ، إليكم هذه الواقعة . .

كنت فى تلك الآونة قد شغفنى حباً ، النشاط الثقافى . . كان يضىء القاهرة . . كانت الأندية الاجتماعية والثقافية والسياسية تزخر بالمحاضرات ، والمناظرات . . وما كان يوم يمر إلا شهد مساؤه عدداً كثيراً من هذه ، وتلك . . وكانت « قاعة إيوَارْت » بالجامعة الأمريكية ، تقيم موسمها الثقافى كل عام ، مُسْتَهِلّة محاضراتها بأستاذنا الدكتور « طه حسين » رحمه الله تعالى . .

وكان الاشتراك فى هذا الموسم رمزياً وزهيداً - ثلاثة قروش صاغ - للعام كله . . وطبيعى أن أكون أحد السّاعين والمشتركين . . وذات مساء ، قامت مُناظرة موضوعها - الغناء القديم والغناء الحديث . . وكان يدير المناظرة الدكتور « محمد صلاح الدين » وزير الخارجية الأسبق ، رحمه الله تعالى . .

وقف المُدافع عن الغناء القديم ، فأطنب . . ثم تلاه المدافع عن الغناء الحديث ، فأسْهَب . . ثم أعلن الدكتور « صلاح الدين » فتح باب المناقشة والتعليق . .

وكتب الذين يريدون الاشتراك فى المناقشة أسماءهم فى جُذاذات من الورق ، وأرسلوها إلى « المنصّة » وكنت واحدا منهم ، مُؤْثِراً الوقوف مع الغناء القديم . . وحُدِّد الوقت لكل منا بعشر دقائق . . ونُودِىَ على طالبى الحديث . . وما هو إلا أن جاء دورى حتى قال الدكتور « صلاح الدين » « الأستاذ خالد محمد خالد » . .

وما أن غادرت مقعدى عابراً الممشى فى طريقى إلى منصة الخطابة ، حتى استقبلتنى من أمام ، وشيعتنى من وراء ، الضحكات والقهقهات . . !! فما شأن هذا الأزهرى الصغير بالغناء . . !!

وحين بلغت المنصة ، صافحنى الدكتور « صلاح الدين » بحرارة ووُدّ ، ثم قدمنى قائلا :

— الشيخ « خالد محمد خالد » يدافع عن الغناء القديم « أوِى » . . فالتفت نحوه باسما ، وقلت : نعم - القديم قوى . . !! وبدأت كلمتى بتحية الفن الغنائى والموسيقى ، مستشهدا بالعبارة الذكية التى

تُعزى إلى الإمام « أبى حامد الغزالى » صاحب كتاب « إحياء علوم الدين » والتى تقول :
— من سَمِع ، ولم يَطْرَب ، فهو « حمار » يسير على سَاقَين .. !!
وقلت : أنه طبعاً لا يريد بالسماع - الأغانى الهابطة والرخيصة ، والمُسِفّة .. ثم استشهدت بعبارة نابليون :
— أنا لم يُهزمنى الأسطول البريطانى ، ولا الجيش ، إنما هزمتنى فِرق الموسيقى الاسكِتْلَانْدِية .. ؟ !! مشيرا بهذا إلى دور هذه الموسيقى المتميزة والصادحة بالألحان القوية والمُسْتنفِرة ، والتى كانت تُصاحب الجنود البريطانيين ..
وقلت : سواء قال نابليون هذا ، أم نُسب إليه ، فالنتيجة واحدة - وهى أن الموسيقى القوية والفتية تملأ الأفئدة حماساً ، وتَشُدّ فيها زِنَاد المخاطرة ..
ثم قلت : خذوا مثلا نُقارن بين قديم الغناء وحديثه ..
فالموسيقار الكبير « محمد عبدالوهاب » يغنى « نشيد العلم » الذى يقول مطلعه :
« أيها الخفّاق فى مَسْرَى الهوى ....
ينشد البيت الأول فى استعلاء وقوة .. لكنه لم يكد يجاوزه إلى البيت الثانى القائل :
خُضْرَةٌ تَبْعثُ فى النفس الأمل
وهلال ، ليس يطويه الأجل
حتى تثَنّى وتكسّر .. وتَنهّد وتأوّه .. ثم رحت أغنى البيت كما غناه عبدالوهاب تماماً .. !!
ثم قلت : بينما المرأة الريفية فى أقصى الصعيد تُهَدْهِدُ وليدها فتقول :
نام واشبع نوامان .. وانعس واشبع نعسَان .. بكرة تروح الجَهَادِيّة .. وتشوف الأوطان ..
ولا أحدثكم عن جنون الإعجاب الذى استقبلنى به جمهور المستمعين ..
وما إن ختمتُ حديثى ، حتى وقف الرجل الكبير الدكتور « محمد صلاح الدين » ممسكا بذراعى ، ومستبقيا إيّاى بجانبه ..
وبدأ حديثه : لعلكم لاحظتم أن الشيخ خالد قد جاوز الوقت المحدد له .. ولكنى أقسم بالله لو أنه ظل يتحدث ساعات ما سئمت حديثه وما طلبت منه إلّا المزيد .. !!
ثم قال عبارة ضخمة اعتبرتها مبالغة فى تحيتى ، وتكريمى ..
قال : لقد ذكّرنا بالأزهرى العظيم « سعد زغلول باشا » .. أستاذ الكلمة ، وبطل المنابر .. وتعانقنا فى مودة حافلة ..
ثم غادرت المنصة فاستقبلنى أكثر الذين كانوا بالقاعة مُصافحين ومهنئين .. ثم غادرتها إلى الخارج ، فماذا وجدت ؟؟
وجدت أمام الباب كوكبة تنتظرنى ، فحيونى تحية صادقة سيدات ورجالا .. وراح بعضهم وبعضهن يقدمون لى « ألْبُومات » لكى أوقّع على صفحاتها باسمى ..
وسألتنى سيدة : تسمح تعطينى عنوانك ؟؟

فأجبتها ضاحكا : ـ فيما بعد .. عندما يكون لى عنوان .. !

إذْ هل كان من اللائق والممكن أن أعطيها عنوانى على « رواق الشراقوة » بالجامع الأزهر .. ؟؟ !! صدقونى ما كذبتكم.. وإنما صوّرت لكم المشهد الذى أراه الآن تصويراً دقيقاً ، حتى لكأنكم تُبصرونه وتُشهدونه .. !!

فى عصر اليوم التالى . كنت أجتاز باب الأزهر إلى داخله ، لأذاكر مع الزُّملاء.. . وما إن وضعت قدمى على أول « بلاطة » من بلاط صحن الأزهر ، حتى سمعت من ينادى فى لهفة :

ــ واد يا خالد .. واد يا خالد .. وأرسلت بصرى نحو الصوت ، فوجدت مجموعة من الزملاء .. وما إن وصلت إلى جمعهم ، حتى وجدت عَجَبا .. !!

وجدت جريدة البلاغ المسائية مبسوطة أمامهم حيث تتضمن صفحة كاملة مُحلاّة بصور لى وللمتناظرين ، وللدكتور « صلاح الدين » ولجمهور القاعة .. وقرأت وصفا كاملا للمناظرة .. وأنعشنى ما كُتب عنى .. ثم قلت للزميل الذى كان ينادينى : واد يا خالد .. واد يا خالد .. وداعبته قائلا : بقى يا جاهل .. كل هذا المجد ، وتنادينى « وَدْ يا خالد » ؟؟ !!

* * *

ويومها أدركت أن النجاح ، وأن تكريم هذا النجاح هما حق لكل ناجح فى أى عمل .. وإن الذين يُضِنُّون على النجاح بكلمات التشجيع والتقدير ، إنما يمثلون آفة خطيرة بين آفات المجتمع ..

إنهم بأحقادهم ، وإعراضهم ، يحتبسون المواهب ويَعْتاقون سيرها ونُموَّها من أجل ذلك ، كان رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر المعلمين والمربين إشادة بكل من يُحقق فى حياته الصالحة نجاحاً وفوزاً .. !!

على أننى ـ فيما هو قادم من السنوات ـ سآخُذُ حِذرِى من النجاح حتى لا يُبْطِرنى ولا يُطْغِينى .. وحتى لا أربط نفسى به إلى المدَى الذى يجعلنى أشتريه بصدقى ومبادئى ..

ووضعت أمام بصرى وبصيرتى دوما ، ما قرأته للطبيب والأديب الفرنسى الكبير « دِيهامِلْ » فى كتابه القيم « دفاع عن الأدب » الذى ترجمه خير ترجمة الدكتور « محمد مندور » رحمه الله تعالى .. يقول « دِيهامِلْ » فى وصاياه للكاتب والأديب :

ــ « احذر النجاح ، فإنه القبر المذَهَّب للموهبة » !! ولابد أنه يعنى بهذا ـ الإفراط فى طلب النجاح ، وشراءه بأى ثمن ، وتسخير الموهبة له ، بدلا من استثمارها فى البحث عن الحقيقة والتبتّل لنشرها والدفاع عنها ..

أما النجاح الذى يُجىء ثمرة الجهد الصادق المتزن والقنوع والمترفّع فهو مَثوبه الله للذين يُحققّونه .. ومن ثم يكون لهم « عُروشا » لا « نُعوشا » .. !!

* * *

وإنى أشهد بأن النجاح « التجارى » الذى يستدرج الكاتب إلى حظائره لم يكن له فى حياتى مكان .. وإن كان قد حدث ، ففى نُدرَة وإيجاز ..

لا .. أقول لكم : إنى ملَك .. ولكن ليس من حقى ألاّ أتحدّث بنعمة الله فيما أنعم وأعطى .. وإنى بدورى ، أنقل إلى الشباب نصيحة « دَيهامِلْ » وأقول لهم : إذا كان مهما أن تكون ناجحا .. فإن الأهم ، أن تكون عظيماً .. !! و « العظمة » للأسف شىء نجهله ، أو نتجاهله » إنها تعنى أن تكون مُتَفوّقا على نفسك وأطماعها .. وعلى إغراءات الحياة الدنيا وهُتَافاتها .. تعنى أن تكون نَاضجاً ، صابراً ، مُتَأنيا مُكبًا بكل وقتك .. مُقبلا بكل طاقتك على ما تصلح له .. وَفْق تعبير سيدنا « محمد » صلى الله عليه وسلم :ـ

« اعملوا .. فَكُلٌ مُيَسَّر لما خُلِق له » ..

لا تقطعوا الطريق قفزاً ..

فإن المُنْبَتَّ ، لا أرضاً قطع .. ولا ظهراً أبقى »

وحاذروا على أنفسكم من العُجب ، والخيلاء والافتتان بالموهبة ..

والشباب المَولِّى وجهه شَطْر الأدب ، والكتابة .. عليه أن يُنْضِج موهبته على نار هادئة .. كما عليه أن يتَوسَّل بالأناة ، وبالتواضع ، ويُكرِّس جهوده للحقيقة ، حتى يكون من « رَعَايَاها » وحدها ، وليس من رعايا مَلِك ولا رئيس ولا عظيم .. !! فإذا فعلوا ، فإنى من خلال تجربة واعية وصادقة أبشرهم بأن سيكون لهم إن شاء الله ما يشتهون .. !!

وبمشيئة المولى عز وجل ، سيكون لى معكم ـ أيها الأصدقاء ـ حديث مُقْبل ومُفيض فى هذا المجال .

اقرأوا .. ثم اقرأوا .. ثم اقرأوا .. واختاروا لأنفسكم ما تَقْرأون .. !!

وفكروا .. وتأملوا .. وارفضوا .. وتقبلوا .. واذكروا الحكمة القائلة :

« بالمثابرة والصبر ، يصبح ورق التوت حريراً » ..

يُشير الحكيم بهذا إلى « دودة القَزّ » التى تحول ورقة التوت إلى حرير ، بصبرها ومثابرتها .. إننى أحزن ـ وهذا من حقى ـ حين أرى الافلاس الثقافى يصيب الألوف من الطلاب والشباب الذين يملكون ـ رغم كل الظروف ـ القدرة على الثَّراء الفكرى والتكوين الرُّشيد .. مثل حزنى على أولئك الذين يضعون عقولهم فى « كُورنر » ويَسْتَسلِمون للتعصّب الذى لا يَخْلف وراءه إلا التَصَحُّر والجدب والجفاف .

معذرة ـ فما أريد أن أتحول إلى « واعظ » وإنما هى محاولة لوضع تجربتى أمام الشباب ..

قلت من قبل : أن « النقراشى باشا » رحمه الله ، كان أول زعيم سياسى ألقاه فى مُبتكر شبابى ، وفى الآونة التى قررت فيها أن أنزل بزوْرقى فى خِضَمّ السياسة ..

وكانَ توفيقاً عظيماً ، لأن يكون هذا الرجل بالذات هو أول من أتعرّف عن طريقه بالسياسة فى

« مجال التَّطْبيق » . . إذ وجدتُ فيه وعنده ، من يجعل المُقْبل عليها ، مَشدُوداً إليها ، فى ثقة ، وطمأنينة ، ورغبة متهلِّلة ومُتفائلة . .

ولن أروى لكم الآن ، ما قرأته عنه . . بل سأحكى ما شهدته منه . . وقد لا يكون كثيراً ، لكنه يكاد ، يصوّر خصاله تصويراً وَافياً ، وكَبيراً . .

كذلك قلت لكم : أننى أخذت أتردد كثيراً على مقره السياسى . . وفى كل زيارة له كان لى خطاب سياسى بين الشباب الذين كانوا يتردّدون على النادى كل مساء حتى يَغُصّ بأعدادهم الكَاثِرة . . وأنهم لينتمون إلى أحزاب مختلفة . .

وكان « النقراشى باشا » يدعونى للقائه أحيانا بعد الفراغ من خُطبتى ويناقشنى فيها . .

وذات مرة قال لى : يا شيخ خالد ، لو كانت نُظم التعليم تسمح بدخولك الجامعة بعد حصوله على الثانوية الأزهرية لنصحتك بدخول كلية الحقوق . . !!

وأدركت ما يعنى ، وقلت أيا معالى الباشا . . إن أبى ، يُردّد دائماً هذه العبارة « المُستقبل بيدِ الله » . .

وهز رأسه وهو يقول : نَعم ، المستقبل بيد الله . .

★ إن شئتم أن تقولوا عن ذلك الرجل العظيم . . أنه غريب الأطوار ، فقولوا . .

★ وإن شئتم أن تقولوا : أنه كان يحمل نفسا عظيمة للمواقف الطارئة والمُتناقضة ، استجابَتِها للمواقف الثابتة ، فقولوا . .

★ وإن شئتم أن تقولوا : أنه « عبد مُطيع » لأخلاقياته التى يَكاد يسبقها فى حالات الرضا والغضب ، فقولوا . . وإليكم هذه المشاهد التى أقدّمها كوسائل إيضاح لِمَا ذكرت : ولقد امتلأ بها بصرى وبِصِيرتى التى أُتِيح لها عهدئذ أن تكتشف شيئا من حب العظمة المُسْتكنة فى أعماق هذا الرجل الفَذّ . . !

أما المشهد الأول ، فكان فى حفل سياسى عَرَمْرَم أقيم كالعادة فى الساحة الوسيعة التى كانت تجاور بيت الأمة . .

كان الخلاف بين النقراشى والنحاس ، قد وصل إلى عنق الزجاجة . . بيد أن قرار فصله من الوفد لم يكن قد صَدَر بعد . . ولأنه لا يزال عُضواً فى الوفد ، فإنه سارع إلى سُرادق الاحتفال . مع يقينه بأن اشتراكه . . هذا يُعرض حياته لخطر يُجاوز حـدود التوقع ، والاحْتمال . .

كان الحفل الكبير من أجل مناسبة سياسية ووطنية لا أذكرها الآن . .

وكان السُّرادق يضم بين جوانبه الأربعة ، عشرات وعشرات من الألوف . .

وبدأ الحفل بتلاوة من القرآن الكريم من الشيخ « محمد رفعت » رحمه الله ورضى الله عنه ، مُسْتهلاً بالآية الكريمة :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقْتَتَلُوا فأصلحوا بينهما ﴾ !!

ثم وقف المرحوم الأستاذ/ حسن ياسين فقدم المجاهد الكبير « مكرم عبيد » . . وكان « حنفى الطرزى باشا » المُشرف على تنظيم الحفل يَغْدُو ويَرُوح . . وعلى وجهه السَّمْح ، توتر واضح .

ووقف « السّاحر » مكرم باشا يُلقى خطابه .. وبين الحين والحين يقذف بكلمات كاللّهب ، شَاجِباً بها موقف النقراشى باشا من الوفد .. ولست أذكر من خطابه إلا هذه الكلمات :

— يقولون أن « مكرم » يَصُوغ الكلمات باقتدار ، ومهارة .. إذن - إيّاك أعنى ، فاسمعى يا جارة - .. !!!

وكأنما كانت هذه ، كلمة السر المتفق عليها .. !!

فما هو إلا أن انفجرت عنها شفتاه ، حتى تَعالى الصُّياح ..

— فلتسقطى يا جارة .. الخروج على الوفد خيانة .. يسقط الخارجون ، والتحم بهذه الهُتافات المتشنِّجة ، هُتافات أخرى .. اكتفت بترديد اسم النقراشى صائحة النقراشى .. النقراشى .. !!

وأجابتها الأعداد الهائلة صَائِحة :

النحاس .. النحاس .. !!

كان من حظى أن ذهبت إلى السُّرادق مبكراً ، فاقتعدت مقعداً قريباً من المنضدة فى أول صف يَلِى المقاعد المُخصَّصة للصفوة ..

ورأيت الدكتور « حلمى الجيار » رحمه الله ، وكان من أنصار النقراشى باشا ، يقف صَائِحاً فى مكرم عبيد :

— يُعجبك كده يا باشا .. الفِتْنة نائمة ، لَعَن الله من أيْقظها .. فيبتسم مكرم عبيد ابتسامته السّاخرة والماكرة ويُشير إليه بيمناه التى كانت تَقْبِض على منديل يُجفِّف به عرقه ، ومشيراً بها نحو الأرض ، كأنه يقول له مكانك ، مكانك .. !!

لكن « حلمى الجيار » يسترسل فى صياحه : جارة إيه ؟؟ وهباب إيه ؟؟ كن رسول سلام ، لا مُثير خصام .. وعادت الصيحات المجنونة :

النحاس .. النحاس .. !!

وأخرى - النقراشى .. النقراشى !

وهنا وقف النحاس باشا .. منفعلاً ، وصاح : ليس هناك « نحاس » ولا « نقراشى » اخرسوا كلكم .. واهتفوا فقط لمصر .. وللأمة .. ولِحزبها الأمين على مصالحها والذائد عن حقوقها .. !!

لكن كلماته الرشيدة هذه ، بعثرت فى الزحام الرهيب ، والصُّراخ العجيب .. وساد الهرج والمرج .. ورأيت - كما رأى غيرى - المقاعد تَتَقاذف فى الهواء ، ويَتَقاذفها الجميع المُنقسم على نفسه والساعى إلى حتفه .. !!

ونظرت إلى حيث يجلس النقراشى ، فألْفيت « الدكتور حلمى الجيار » قد وقف خلفه مُحيطاً بمقعده بكلتا ذراعيه .. !!

وفجأة هوت عصا غليظة على رأسه ، فسقط على الأرض مغشياً عليه .. !! ورأيت - ويا لروعة ما رأيت - .. انحنى النقراشى على الطريح الجريح ، ورفعه إلى صدره ، مُوسِّداً جسده فوق ذراعيه .. وهرولت نحو باب السُّرادق ؟

فما كان من ذلك بد فى هذه الهيجاء والهوجاء .. وإذا النقراشي يَبْزُغ من بين الزحام ، ... !!

أقسم بالله أنى أصف هذه اللَّحظات ، وكأننى أراها الآن رَأى العين .. !!

وكل الذين كانوا فى طريقه إلى باب السرادق أزاحوا مقاعدهم من طريقه .. وسار حاملا نصيره فى خُطوات ثابتة ، رافعا رأسه .. عزمه جميع .. وروحه شامخة .. !

أأقول : كأنه أسد .. ؟؟ لا .. فقد كان فى أعين من يرونه ساعتئذ أعظم وأقوى وأرسخ من الأسد .. !! وعند باب السرادق أمر من ينادى على عربته وحين وصلت أنام فى مقعدها الخلفى « حلمى الجيار » .. وجلس هو بجوار السائق وانطلق به إلى المستشفى .. !! أى رجل كان .. وأنا أثق فى ذكاء القارىء ـ أى قارىء ـ إذا لم أختم هذا المشهد بأى تعليق .. !!

* * *

أما الواقعة الثانية ، فكانت فى مكتبه .. إذ كانت بعض وفود الأقاليم ، قد أخذت تَفِدُ إليه مؤيِّدة له ومُبايِعة ..

كان فى تلك الأيام الأولى من اشتغاله بالعمل السياسى بَعيداً من الوفد . بحاجة إلى نصير .. كان الفرد الواحد يُمثل ويملأ فراغ مائة من النُّصَراء .. ومن ثمَّ فقد كان بحاجة إلى التخلِّى ـ ولو بعض الشىء ، ولبعض الوقت ـ عن صرامته التى يحمى بها استقامته السياسية ، وأخلاقياته المثالية .. ولكن هيهات .. !!

فذات ليلة ، جاء وفد من القليوبية يرأسه الشيخ « منصور بدران » .. وعرفت ليلتها أنه كان ـ قبل أن يعتزل القراءة فى سُرادقات العزاء ـ من أندى القُرّاء صوتاً ، وأكثرهم جُمهوراً ..

جلس الوفد فى قاعة الاجتماعات ، مُنتظراً خروج النقراشى باشا من مكتبه إلى حيث يُصافحهم ويلاقيهم ..

كان مع الوفد زميل لى فى الدراسة الثانوية الأزهرية هو « الشيخ محمد العزّازى » .. وكان يُخيفنا بشعره المُرْتَجَل أحيانا .. وأخبرنى أنه جاء مع وفد القليوبية ، لأنه « قَلْيُوبى » .. وسألته : هل ستُلقى خطبة الوفد أمام الباشا فلكَزنى فى صدرى ، وقال :

ـ خُطبة إيه ؟؟ نسيت أنى شاعر .. ؟؟

وصحبته إلى القاعة ، وجلست بجواره .. ولم ينس أن يُسِرَّ إلىّ بهذه الوصاية : ـ وَدْ يا خالد .. أنا عاوزك تُقود حملة التصفيق .. قلت له : طبعاً ، إذا أعجبنى شعرك .. فلكَزنى بكتفه كتفى ، وقال : لا .. أنا عاوز تصفيق حاد ، عمال على بطّال .. !! وأنهى حديثنا تقدم النقراشى باشا .. وصافح الجميع ـ وحين رآنى صافحنى مبتسماً وقائلاً : إيه الحكاية يا شيخ خالد ؟ انت من الشرقية .. إيه اللى جمع الشرقاوى على القليوبى ؟؟

وأجبته فى حياء ؛ احنا جيران ، يا معالى الباشا ..

وجلس يتحدث إلى أعضاء الوفد الزائر .. ثم وقف العزّازى لِيُنشد شعره ولست أذكر من قصيدته سوى مطلعها الذى يقول :

قــل لــلوفــود إذا أتــتــه تــســارعُ
هــذا ، هو الـرجل العـظيم ، فَبـايعـوا . .

ومَضى يُنشد ، والنقراشى باشا مسرور ومحبور بشعره . . ومع كل مقطع ، يُصفق له بحرارة . ثم راح يُوجِّه من خلال قصيدته نقداً لاذِعاً لسياسة « النحاس باشا » والنقراشى يحييه بابتسامة شاكرة ، وتصفيق مُثابر . . حتى وصل الشاعر التعس إلى بيت يقول مطلعه :

« لكنَّ زينب » . .

وفجأة انتفض النقراشى صارخا فيه : ـ اخرس يا ابن الكلب . . ؟ !

وكادت المفاجأة تصعق الجميع ، والشاعر قبلهم . . ونظرت إلى وجه « النقراشى » فإذا هو فى لون اللّيمونة !! . . وصمت ، وصمت الوفد وشاعره . . وأنفاس النقراشى تتدافع . . وبعد حين استردّ هُدوءه ، ووجّه الحديث إلى الشيخ العزازى :

— ليه يا ابنى كده ؟؟ انت كنت ماشى كويس . . شعر رصين ، وألفاظ عفيفة . . إيه اللى أدخل « زينب » فى الموضوع . . ؟؟

واعتذر الوفد ، واعتذر الشاعر . . وصمت النقراشى العظيم قليلا ثم قال يُخاطبه :

— إن كان عندك كلام جميل زى اللى بدأت به القصيدة ، نسمعه . . لكن أحد أعضاء الوفد وقف ليقول : احنا يا باشا جايين نسمعك . . ودار الحوار بينه وبينهم . . وعند هَمِّهم بالانصراف ، نادى النقراشى الشيخ العزّازى وابتسم فى وجهه ابتسامة صافية . . وربت على كتفيه قائلاً : بلاش زينب يا مولاى . .

هذه حُرمات . . هذه أعراض . . !!!

* * *

ستقولون ، أو يقول بعضكم : كيف يستخدم هذه الطريقة ، وهذه الكلمات فى إحراج الشاعر وإهانته . . ؟؟

وأجيبكم : هذا كثيرا ما يكون نهج الذين تقودهم طبائعهم النقية ، والمترفّعة والعظيمة والمسيطرة ، حيث تنفعل وتهتز كحركة « الرادار » أو كومْضة البرق ، ومس الكهرباء ، فلا يملكون إلا الاستجابة الفورية لها . . ومن ثم فهم أمام المواقف التى تزجيها ، يكونون « مُسَيَّرين » لا « مُخيَّرين » ويعجزون تماماً عن الرضا فى موضع السُخط ، وعن السخط فى موضع الرضا . . كما يعجزون عن وضع « النَّدَى » فى موضع السيف . . أو وضع السيف فى موضع « النَّدَى » . . كما يقول شاعرنا العربى : ـ

ووَضْعُ النَّدَى فى موضع السيف للفتى
مُضِــرٌّ ، كــوضــع السيف فى مــوضــع النَّــدَى !!

على أن ذلك لا يعنى ، أنهم حين يستردُّون هدوءهم . لا يتخذون موقفاً سَلِساً ، ووديعاً ، مُستأنياً . . وكذلك فعل « النقراشى باشا » . . رحمه الله تعالى . .

* * *

وتَعَالَوْا معى إلى واقعة ثالثة :

ذات يوم كنت فى وزارة الأوقاف ، وحين غادرتها وجدت مظاهرة قوامها بضع عشرات من الشباب ، فأتبعتها بصرى .. لأرى أين وِجهتُها .. وإذا هى ماضية فى اتجاه مبنى الإذاعة القديم .. وأمامه وقفوا يرددُون الهتاف بحياة النقراشى .. وفيما أنا أسائل نفسى .. إذا عربة سوداء من عربات الوزراء تقف أمام باب المبنى ، وارتفعت عقائر الهاتفين ، وأسرعت الخطى لأنظر .. فإذا النقراشى باشا والسيدة قرينته يُغادران العربة .. وما هو إلا أن لامَسَتْ قدماه الأرض ، حتى راح فى غضب صادق يَنْهر الشباب المتجمع .. ويصرخ فيهم وهو يُفرِّقهم بكلتا يديه :

— امش يا ولد من هنا .. اخرس انتَ وهُوّه .. ثم نظر ، فإذا قائدهم (حسين عباس) الطالب يومئذ بالهندسة .. وحين رأى غضبه انْزَوى بعيداً فشَقَّ الطريق إليه :-

— بقَى كِدَه ؟؟ انت يا مجنون اللى جايبهم .. طيِّب .. تقابلنى اللِّيلادى فى المكتب .. !!

هذا رجل يُرَحِّب بالمواقف إذا كانت فى زمانها ومكانها .. ويرفُضها إذا كانت « نَشازاً » مهما تكن فى صالحه .. !

* * *

وإليكم هذا المشهد الرابع ..

بعد إقالة وزارة « النحاس باشا » عام ١٩٣٧ - وتشكيل وزارة ائتلافية برئاسة « محمد محمود باشا » كان النقراشى ضمن أعضائها .. ولا أذكر الآن أى وزارة كانت .. كان خالى السيد/ أحمد عطية مكاوى ، وفى الوقت ذاته زوج عمتى ، ناظراً للتفتيش على زراعة بلدة « الزُّرْزَمُون » .. المجاورة لقريتى .. وشجر خلاف بينه وبين مفتش التفتيش .. وسعى لفصله ، وهكذا - من غير إحِم ولا دستور - كما يقول مثلُنا الشعبى .. !!

وجاء خالى إلى القاهرة .. وطلب من عمى الأستاذ « عمر خالد » أن يكلفنى بالسفر إلى الاسكندرية ، حيث كانت الوزارة كلها فى مصيفها هناك بـ « بُولُكْلِى » وأرسل العم فى طلبى فأسرعت الخُطى إليه فى منزله يومئذ بِشارع طُوسون « حى شبرا » .. وهناك عرفت مهمتى المطلوبة منى . وهى مقابلة النقراشى باشا . كى يتوسَّط لدى « أحمد ماهر باشا » وكان يومئذ يتولى الإشراف العام والأعلى على تفتيش الأمير « محمد عبدالحليم » الذى كنَّا من رعاياه .. !

وقال لى خالى رحمه الله : ضَعْ فى اعتبارك أننى لا أطلب مجرد العودة إلى وظيفتى .. بل أطلب تحقيقاً عادلاً فى هذا العزل غير المشروع .. !!

وخفف هذا التحفظ من عبء مهمتى .. فقد كنا نَسمع ونَعلم أن « النقراشى » يرفض الوساطة تماماً - سواء أكانت منه ، أم إليه .. !!

وإذن ، فاسْتِنْجادِى به ليس لصالح شخص .. بل لإقرار حق .. وهذا ما يخرجنى من دائرة الحرج ..

أعطانى خالى النقود الكافية لسفرى ولإقامتى . . وما إن ألقيت فى الثغر عصاى ، واستقر بى النّوى ـ كما يقول شاعرنا العربى ـ حتى أخذت طريقى إلى « بُولَكْلِى » بعد أن عرفت مكانه أو مكانها . .

وهناك ولَّيت وجهى شَطر وزارة النقراشى باشا ومكتبه . .

كنت قبلئذ ، قد زرته فى مكتبه الوزارى بالقاهرة حوالى مرات ثلاث أو أربع . .

وطبعا كانت زياراتى بغير موعد مسبق . . وكنت أجد حجرة « سكرتيره الخاص » غاصة بطالبى المقابلة ، وأكثرهم نوابٍ وشيوخ من أعضاء « الهيئة السّعدية » التى كان قد شكلها النقراشى باشا ورأسها الدكتور أحمد ماهر باشا . . ولعل الكثير منهم كان قد حجز لنفسه موعداً للمقابلة . . !!

لكن النقراشى ـ رحم الله النقراشى ـ كان كأنما أوصى سكرتيره بأن يُدخلنى إليه فور وجودى . . وكان ذلك طبعا بعد المقابلة الأولى التى تمت بعد وقت مكثْته فى الانتظار . . وبعدها لم يكن الأخ السكرتير يرانى حتى يلج غرفة الوزير . . ثم يعود ليدعونى إلى المقابلة . . فأنهض متعثرًا فى خُطوى ، حياءً منَ الكبار والصُفوة الذين يرمُقوننى بنظرات متسائلة :

من هذا الذى تُفَتّح له الأبواب . . ؟؟ !!

لا تَحْسدونى على هذه المكانة . . وانتظروا حتى تَرَوُا دُموعى أثناء مقابلة معالى الوزير . . ؟ !

صافحنى بوُد ، وسألنى :

— انت بتْصَيِّف هنا يا شيخ خالد ؟؟

وأبْسَمَتْنِى كلمة « تُصَيِّف » . . وقلت : ـ بل جئت لمقابلة معاليك . .

— خيراً ، إن شاء الله . .

وقَصصتُ عليه النبأ كله . . حريصاً أبلغ الحِرص على تِبيان أن خالى لا يطلب العودة إلى وظيفته . . إنما يطلب التحقيق معه . .

— طيب ، وأنا إيه علاقتى بالموضوع ؟؟

قلت : إن « ماهر باشا » الوكيل على هذا التفتيش من جانب الأمراء والأميرات صاحبات التفتيش . .

وهنا تغير لون وجهه فجأة . . وكَسَتْهُ صَرامة رقيقة بعض الشىء . . لكنها على كل حال صرامة . . وقال فى نغمة رافضة :

— لا يا شيخ خالد . . أنا ضد الوساطة ، والوُسَطاء . .

وأنا حين أتوسط لدى الدكتور ماهر ، سيعنى ذلك أننى أعطيه حق الوساطة إلىّ . . وكانت هذه الكلمات أعجب منطق أسمعه فى حياتى . . فقلت :

يا معالى الباشا ـ هذه ليست وساطة ، إنما هى دفع لظلم وقع على رجل مظلوم . . إنها وساطة لو أنه يطلب إلغاء قرار عزله . . أما وهو يطلب التحقيق معه ـ ولو على الأقل لإبراء ذمته وتطهير سُمْعته ، فلا وساطة ولا وُسَطاء . .

وعاد يقول : لا . . لا . . هذا مبدئى ، ويجب أن تعرف ذلك عنى . .

وعزّت علىّ نفسى ، فتبلَّلتْ عيناى بالدموع التى تَعمّدتُ ألاّ أجَفّفُها حتى يراها . .

— شكرا ، معالى الباشا . . ونحن نتعلّم منك المُثل العُليا ، وهذا يكفى . .

ونَهضتُ واقفاً ، ومستأذناً . . لكن الرجل الفريد فى سمو روحه ، ونُبل خصاله ـ الفريد جداً ـ أشار بيده وقال : اجلس يا شيخ خالد .

— سِيبْنا من موضوع خالك دلوقت . . أنا عاوز أطمئن على حالتك المعيشية . . ومن غير تفاصيل انت مرتاح فى معيشتك ؟؟

ياه . . لقد صوب الكرة إلى مكان بعيد ما كان يخطر بالبال . .

ومع ذلك أجبته :

— الحمد لله . . مستورة يا معالى الباشا . .

ومن فَوْره ، طلب من سكرتيره ـ تليفونيا ـ أن يصله بمحافظ القاهرة . . وكان أيامئذ « عبدالسلام الشاذلى باشا » وقال له :

— جاى لك دلوقت الشيخ خالد ـ طالب أزهرى مجتهد ، وسَعْدى أيضا . . ولم يَزِدْ . . وإنما انتقل إلى الحديث معه فى شئون أخرى . .

وبعد الفراغ من المكالمة ، قالى لى : توجه الآن لمقابلة المحافظ . . وفهمت كل شىء . . ووجدتنى أقول له وأنا أبتسم : أشكرك على هذه « الوساطة » يا معالى الوزير . .

ونَدَّت عنه قهقهة عالية ، وقال : لا يا شيخ خالد ـ هذه ليست وساطة . . وتوجهت إلى « الشاذلى باشا » فألفيته قد ترك مع سكرتيره أمرا بدخولى فور حضورى . .

وأحسن الرجل استقبالى ، وأمر بصرف مرتب شهرى لى . . ولا أدرى حتى الآن من أى صندوق كنت أتقاضى هذا المرتب . . من صندوق « الغرامات » التى تحصلها المحافظة قَسْرا ؟؟ أم من صندوق « الإتاوات » التى تبتزُّها قَهْراً ؟؟ أم من الضرائب التى تُجْبى من الترخيص بالمقابر ؟؟ أم من أموال العقوبات التى تُفرض على ورثة الأموات ، لأن الفقيد غادر الدنيا دون الحصول على إذن من وزارة الداخلية . . أو غادرها وذمته مُثقَلة بديون للحكومة . . أو غادرها دون أن يُسَلِّم « العُهْدَة » ـ « . . . . » على أية حال ، فإنها لم تدُم طويلاً . . فبعد عامين قطع الله دَابِرَها . .

ولعلَّ الفُضُول المباح والمشروع يدفعكم إلى الرغبة فى معرفة مقدار هذا المرتب ؟؟ وأسارع إلى هواكم ، فأقول : إنه كان سبعين قرشا . مبلغ ضئيل جداً . . أليس كذلك ؟؟

ومع هذا ، فتلك السبعون تُعادِل الآن سبعين جنيها . . وكما رويت لكم من قبل ، فإن السبعين قرشا كان بوُسعها أن تُمَتِّعك بإفطار شهرى عند « عم شعبان » ثم « برَّاد » شاى بالنعناع الأخضر الطازج مع قراءة صحف الصباح جميعها لدى المقهى السياحى الشهير « الفيشاوى » . .

أما « عمك شعبان » فثمن وجبته خمسة مليمات . . والشاى وقراءة الصحف خمسة مليمات . . أى قرش صاغ يوميا . . أى ثلاثون قرشا فى الشهر كله . . ويبقى من السبعين قرشا ، أربعون . . تستطيع بها أن تظفر فى وجبة الغداء بطبق خُضار باللحم الحَنِيذ والشهى . . وطبق أرز مَطْهُو بالسمن البلدى الخالص . . وطبق من السّلاطة التى تفتح الشهيّات . . وكل ذلك بعشرين مليما ـ أى قرشى صاغ . .

فإذا رصدنا لها الأربعين قرشا المتبقية من السبعين ، ظفرنا بثمن وجبات الغداء الفاخر على مدى عشرين يوما . . ؟؟

كان الجنيه المصرى عِمْلاقاً . . ومن ذوى الجباه العالية ، بين عُمْلات العالم أجْمع . . ومن ثمّ كان أبناؤه وبناته من العملات الفضّية ذَوات العشرين قرشا ، وتُسمَّى « الرِّيال » وذَوات القروش العشرة ، وتسمى « البَرِيزة » وذَوات القروش الخمسة وتسمى « شِلِن » . . ثم كان أحفاده من القروش الصاغ . . والتعريفة . . والعشرين تعريفة . . والنُكلة . . والمليم . . كل هذه العائلة الملكية للجنيه المصرى ، كان لها احترامها الوَسِيع ، ونُفُوذها الضّلِيع ، على الجزّارين ، والبقالين ، والخبّازين ، والجِرَفيين جميعاً . .

وحين يَقْتحم مَلّيمان اثنان حانُوت بقالة ويَطْلُبان ملء إنائِهما من عسل القصب والطحينة البيضاء النقية ، فإن البقال يأخذ لهما « تَعْظِيمْ سَلاَم » . .

وإذا كان المليمان قد بَكّرا ، وكانا أول طارق للدكان ، فإن البقال يُقَبِّلهما تَفاؤلا بِهما ، ورجاء أن يكون صباحهما نَدِيًّا . . ويومهما ثَرِيًّا . .

ويالها من أيام . .

* * *

وبعد ـ فكم مشهدا لهذا الرجل الكبير « النقراشى » قصصتها عليكم . . ؟؟ أربعة مشاهد . . ؟؟ إذن ، فإليكم هذا المشهد الخامس : ـ

قبل إقالة الزعيم الجليل « مصطفى النحاس باشا ، عام ـ ١٩٣٧ ـ كان والوزراء معه قادمين من الاسكندرية بعد عودة « الملك فاروق » من المصيف ، حيث جرت العادة أن تعود الحكومة أيضاً . .

وفى فِناء محطة مصر ، وحين وُصول النحاس باشا كان فى استقباله ألوف تَتَجاوز كلّ حَصْر . . وكنت يومئذ حاضرهم . . ولم يكن ثمّة موضِع لقدم . . لا داخل المحطة ، ولا فى ساحتها الواسعة ، ولا فى الشوارع المحيطة بها . . والهتاف بحياته يَمْلأ الأفق . . وفى هذا الزحام المُتَفاقم ، وبعد مغادرة النحاس باشا المكان فى عربته ، أخذت العربات الأخرى التى طال انتظارها كى تجد طريقاً تَجْتازُه إلى شبرا وغيرها ، تُطْلق عِواءها . . ثم تتقدم ببطء سبيلها إلى الخروج من هذا المحشر . . وحدث أن طالباً أزهريا ـ رحمه الله ـ تَعَثّر ووقع على الأرض فَدَاسَتْه إحدى العربات ، حيث قضى نحبه تحت عجلاتها . .

كان ذلك فى نَاشِئة الليل ، وأخذت طريقى إلى مكتب النقراشى باشا . . وألقيت كما هى العادة خِطاباً ضافياً ، نَعَيْت فيه الزميل الأزهرى ورَثَيْتُه . . وربطت ـ فى غباء شديد ـ بين مصرعه ، ومسئولية النحاس باشا عنه . .

وبعد انتهاء خطابى ، جاء السيد « أبو بكر » يدعونى لمقابلة الباشا . .

— هيه . . يظهر إن خطبتك الليلة دى ، كانت سُخنة قوى يا شيخ خالد . . ؟ هيّ . . كان موضوعها إيه . . ؟؟

— تحدث - يا معالى الباشا - عن مصرع الزميل الذى راح ضحية الاستقبال ..
وإذا الرجل - وحق جلال الله - ينتفض انتفاضة المَأْخُوذ ، ويقول :
— أوعى تكون ذكرته بسوء .. ؟
— أبداً ، يا معالى الباشا .. وإنما رثَيْته وتَرَحَّمت عليه ..
— وإيه كمان ، قلت فى خطبتك ؟؟
— قلت : أيها الناس ، من كان يعبد النحاس ، فإن النحاس قد مات .. ومن كان يعْبد الوطن ، فإن الوطن حى لا يموت ..
وإذا الرجل يصفق ، ويقول : الله .. الله ..
ويَتَماوَجُ فى انتشاء عظيم . وكأنه يسمع تغريدة من تغاريد « أم كلثوم » ..
وراح يردد العبارة ، وهو ينقر بأنامله على مكتبه ، وكأنه يلَحِّنها ويُغنيها ..
انظروا اهتماماته النبيلة .. إنه يخشى أن أكون قد ذكرت الزميل الضحية بسوء .. ويسألنى فى فزع : هل فعلت ذلك ؟ هذا رجل منحته الأقدار طبيعة حُرة ، مستوعبة ، يَقْظَى .. لا تُفلِت منها كلمة ، ولا حركة ، ولا اخْتِلَاجَة ، دون أن تقيسها بمعاييرها ، ثم تحكم عليها فوراً بالإدانة أو تحكم لها بالرَّصَانة ..

* * *

ولم يفرغ بعد حديثى عن الرجل الذى تعلمت منه فى بَواكير حياتى : كيف يحمى الإنسان الشريف اقتناعه بسياج من شجاعته إلى حد المُخاطرة .. وكيف تتلاشى وساوِسُ الترغيب ، وهَواجِس الترهيب ، أمام خصائصه المستعلية ، وعزيمته القاهرة ..





لا نــزال .. معــه

★ سار حبي الجارف للنقراشي باشا جنباً إلى جنب مع احترامي المُتنامي له .

وكانت كل معلومة أعرفها عنه تزيدني إعزازاً له واحتراماً . .

وكما حدثتكم من قبل ، كانت حظوظي الوافية في أني بدأت المشاركة في العمل السياسي بجوار هذه الشخصية الجيّاشة بكل ما هو كبير وعظيم . . !!

وكان لابد من أن تبدأ معلوماتي عنه من أسباب خروجه أو إخْرَاجِه من الوفد . . فعرفت أن الخلاف يرجع إلى عهد الوزارة الوفدية الثالثة والتي شُكِّلت بعد تولي الملك الراحل « فاروق » . . وكان النقراشي باشا ـ رحم الله الجميع ـ من بين وزرائها وبدأ ضَجَرُه من عبارة جاءت في خطاب النحاس باشا ردّ به على خطاب تكليفه بتشكيل الوزارة من مجلس الأوصياء على العرش . . وها هي ذي :

« إن تحقيق استقلال البلاد ، يكون بإبرام معاهدة مودة وتحالف مع الدولة البريطانية الصديقة « . . . » ولابد من تصديق أن تكون هذه العبارة المرفوضة من النقراشي سبباً كافياً للإنكار والاسْتِنْكار . . فالنقراشي كان « دينامو » الجهاز الفدائي ، الذي كرّس حياته وجهاده لاغتيال الانجليز ـ ضباطاً وجنوداً ـ إبان ثورة ـ ١٩ ـ الخالدة والماجدة . . ومعه « أحمد ماهر » و « عبدالرحمن فهمي » . . ولا يمكن لوصف بريطانيا بالدولة الصديقة أن يمر إلاّ على جثته . . !!

ولسوف يظل ضِغْنُه على المحتلين بلاده مشبوبا ومتأججا حتى يسافر إلى هيئة الأمم المتحدة عام ـ ١٩٤٧ ـ وهو يومئذ رئيس الوزراء . فيُجَلْجِل بصوته الناقم وكلماته المُقاتِلة قائلاً : أيها السادة الأعضاء . .

— لقد جئت إلى هنا ، لأقول للانجليز أمامكم :

« أيّهاالقراصنة ـ اخرجوا من بلادنا » .

ثم تَنامى الخلاف داخل الوزارة ، حين كثر النَّقْد من جانبه ، والإصرار من جانب النحاس باشا . . حتى ناقش مجلس الوزراء مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان . . فقد أصر النقراشي ، ومعه « محمود غالب » وزير الحقّانية . . و « محمد صفوت » وزير الأوقاف . . و « على فهمى » وزير الحربية . على إعطاء الوزراء فرصة كافية لدراسة الطريقة التى يُنَفذ بها المشروع كما أصروا على طرح المشروع فى مناقصة عالمية بعد استشارة خبراء عالميين . . بدلاً من إرسائه على شركة انجليزية كانت قد اختيرت لهذا . . .

ورفضت هذه المطالب جميعاً . . بل ورفض طلبهم بعرض الموضوع كله على البرلمان قبل الاتفاق مع أى شركة من الشركات التى يَرْسُو عليها العطاء بعد المُناقصة . .

وكان من الطبيعى أن يثير هذا الموقف مع أشياء أخرى . . الأحاديث والشائعات عن نزاهة الحكم التى سنرى ـ إن شاء الله تعالى ـ مدى احتمالات الصواب والخطأ فيها ، عندما نتحدث مع وعن « مصطفى النحاس » باشا . .

* * *

فى شهر يولية عام ـ ١٩٣٧ ـ وقف فاروق فى برلمان الأمة يتلو اليمين الدستورية « أقسم بالله العظيم أن أحترم الدستور « وقوانين الأمة المصرية ، وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » . إذ كان قد بلغ السن القانونية ، ليكون ملكاً بلا وصاية . . ووفقا لِمَا جرى به العرف قدم « النحاس باشا » استقالة وزارته الثالثة . . وفى الوقت ذاته ، كَلَّفه الملك « فاروق » بتشكيل وزارة جديدة .

ومع هذه الوزارة ، جاءت مفاجأة تَعِسة . . فقد أُسْتُبعد منها ـ النقراشي ومحمود غالب ، ومحمد صفوت ، وعلى فهمى ـ وحل مكانهم أربعة آخرون ، لم يشغلوا من قبل ، أى منصب وزارى . . وفُسِّر هذا من الناس بل فَسَّره « النحاس باشا » بأنهم كانوا عقبة أمام التآخى والتواصى والانسجام ، داخل مجلس الوزراء . .

وبهذه الضربة القاضية على كل فرص التفاهم ، استخدمت « البُومة » حقَّها فى النعيق . . وكذلك « الغربان » . .

واتسعت شُقَّة الخلاف . . واتخذ الوفد قراراً جماعياً بفصل النقراشى من الوفد . . ما عدا الدكتور ماهر الذى رفض القرار ودَارت الرَّحى . . وغطَّت الغُيوم السماء واقترب زَئِير العاصفة ونَذِير الكارثة . . .

ونادت المعارضة بعضها بعضاً . . وأصبحت الجامعة والمعاهد والمدارس والشارع مَسْرحا للمُظاهرات النَّاقِمة . . وتعرض « النحاس باشا » لمحاولة اغتيال من « عز الدين عبدالقادر » أحد شباب حزب « مصر الفتاة » وتَفَاقمت الخُصومة والقَطِيعة بين القصر والوفد . . واتهم « النحاس باشا » « على ماهر باشا » الذى كان قد عاد لرئاسة الديوان الملكى ، بأنه المُحَرِّض الأول على هذه الفتنة .

ولم تمكث وزارة الوفد فى مكانها سوى خمسة أشهر . . تلقَّى « النحاس باشا » على أثرها خطاب الإقالة الذى كان بمثابة وثيقة اتهام وَسَمَتْ الوزارة الوفدية بأنها تجافى روح الدستور . . ولا تحترم

الحريات . . مما أفقدها ثقة الشعب . . وجعل حتْماً على الملك أن يتدخل ويَكِل الأمر إلى حكومة صالحة . . هكذا قالوا . . وبعد هذا كله ، ختم منشىء هذه الإقالة - علي ماهر - رئيس الديوان الملكي خطابه بهذه العبارة التقليدية :

« وانى أشكر لِمقامِكم الرفيع ، ولحضرات زملائكم » .

« ما تم على أيديكم من الخير للبلاد » . .

تُرى ما هذا الخير الذى قدّمته الوزارة الوفدية ورئيسها للبلاد ، إذا كانت - كما زَعَموا - قد تنكّرت للدستور ، وللحريات ، حتى فقدت ثِقة الأمة بها . . ؟؟ لكنه نفاق « البروتوكول » وعبثه بالعقول . . ؟

* * *

أفلحت المعارضة - إذن - فى إقصاء وزارة النحاس الرابعة عن الحكم . . وألّف خِصْمه اللّدود « محمد محمود باشا » الوزارة . . وبعد حين أجرى فيها تعديلاً فأصبح « ماهر » و« النقراشى » و« محمود غالب » و« حامد محمود » و« سابا حبشى » أعضاء فى الوزارة ممثلين لحزب « الهيئة السّعدية » . . الذى رأسه « أحمد ماهر » بعد فصله من الوفد هو الآخر . .

* * *

أين كان « النقراشى » أثناء هذه التطوّرات المُتلاحقة ؟؟ كان فى مكتبه ومنتداه السياسى ، نائياً كل النأى عن المُهاترات والدّسائس ومبشراً بمنهج جديد فى أخلاقيات السياسة . . والحكم . .

وفى انتخابات ١٩٣٨ - وقبيل اشتراكهم فى وزارة « محمد محمود » ظفرت الهيئة السّعدية بثمانين مقعدا فى مجلس النواب . .

وبينما أنا جالس فى النادى مع الوافدين إليه من الطلبة والشباب . . والاستعداد يومئذ للانتخابات على قدم وساق . . جاء « الحاج عبداللطيف » رحمه الله ، وقد عرفتم من قبل أنه كان مديرا للمكتب . . ودعانى لمقابلة الباشا . .

كانت غرفته مكتظة بالذين رشّحوا أنفسهم على مبادىء « الهيئة السعدية » واستقبلنى كعادته بمودة حانية ، ووجه بشوش . . وقدّمنى للحضور ، قائلاً :

الشيخ خالد « مكرم » الهيئة السعدية ثم ضحك وقال : لكن بدون مساوىء مكرم باشا !!

وأخْفَيت فَمِّى المُبْتسِم بانحناءة من رأسى ، فقد كان يأخذنى الحياء الكثير ، كلما جالست هذا الرجل الكبير . . ولا يزال الحياء حتى اليوم يَنْتَابنى أمام كل الذين أحبهم وأحترمهم . .

ومن فوره قال لى : يا ترى عندك مانع تكون معانا فى الحفل الختامى الانتخابى بدائرتى فى الاسكندرية . . ؟

وأجبته : هذا تشريف لى وتكريم . . وهممت مُستأذناً . . لكن قال لى : اجلس ، يا شيخ خالد . . ودار حديث مُتنوّع بينه وبين الجالسين ، وراح يسأل كلا منهم عن مركزه فى دائرته الانتخابية . . وعن متاعبه المرتقبة - إن كان ثمّة - متاعب . .

ثم قال لهم :

— لى عندكم رجاء واحد . . تجنبوا العنف ما استطعتم واحذروا أن تُسْتَدرجوا إليه - إن « القمصان الزرق » هاجموا مكتبى هذا . . وحطموا ما استطاعوا تحْطِيمه من الأثاث وأثاروا الفوضى . . وأغلق شبابنا عليهم الباب ، هامين بطلب البوليس كى يقبض عليهم مُتلبِّسين . . وحين علمت أمرت بأن يُتركوهم ولا يَشْتبِكوا معهم ، ويَدَعوهم ينصرفون فى داهية . . كان المقصود بهذا العدوان أن يصطنعوا مذبحة تتخذها الحكومة - يعنى حكومة الوفد يومئذ - مُبررات لإغلاق المكتب بالضَّبة والمفتاح . . ثم ضحك وقال : إن شاء الله أريد أن أراكم فى البرلمان ، وليس فى أجسامكم عاهات ولا ضمَّادات . . ؟

وضحك الجمع الحاشد فى الغرفة ثم انصرفوا . . وضغط الباشا على أحد أزرار مكتبه ، فجاء الحاج عبداللطيف حسين « مُسرعاً » فقال له : يا عبداللطيف . . الشيخ خالد حايسافر معانا إلى الاسكندرية . . ثم أشار بحركة من يده ، ثم صافحنى قائلا : مع السلامة يا شيخ خالد . ونلتقى هناك إن شاء الله . .

وغادرت الغرفة مع الحاج عبداللطيف رحمه الله تعالى إلى غرفة مكتبه . . وما إن جلسنا حتى فتح درج مكتبه ، وأخرج منه مبلغا من المال وضعه فى ظرف ، ثم ناولنى إيّاه . .

— ما هذا يا حاج عبداللطيف ؟

— هذه مصاريف سفرك وإقامتك ؟

— انتو فاكرينى من المُرتزقة ؟؟

وانفجرت باكياً . . وحاول الحاج عبداللطيف إقناعى بأن الحملة الانتخابية موضوع لها ميزانية خاصة لتغطية احتياجاتها . . وسفرك لا يمكن أن تتحمّل وحدك نفقاته . . وبسطت يدى إليه مصافحاً ومُودِّعاً . . ودموعى تَنْثال دون توقف فاستَمْهلنى قليلاً ، ثم عاد ليقول لى : تفضل معالى الباشا عاوزك . . ولم أجد فى جيبى منديلا ، فجففت دموعى بأطراف أكمامى . . واستقبلنى النقراشى باشا باسطاً ذراعيه فى حركة تعبر عن استغرابه موقفى وقال : جرى إيه ، يا مولانا . . اتفضل . . وجلست بينما انصرف الحاج عبداللطيف وقال الرجل الكبير :

— يبدو أنك لم تعرفنى حتى الآن . .

أنا مش فاتح دكان ، أشترى وأبيع . . أنا لا أشترى التأييد ولا الولاء . . ولا أبيعهما . .

وهطلت دموعى مرة أخرى . . واستحييت أن أجففها أمامه بكم الكَاكُولة . . فتركتها تُجَفِّف نفسها . وقلت :

— والله يا معالى الباشا ، إنى لأعرف ، عنك ذلك - وهذا ما أحْزننى وأخْجلنى أمام نفسى . . فمعاليك لا تشترى ولا تبيع . . ولا تَرْشُو . . وإذن فلم يبق تفسير لعطائك إلا أنه « صَدَقة » . .

وأطلق قهقهة صاخبة ، وقال : يا سيدى ، أنا لا أشترى ، ولا أبيع وأيضا لا أتصدَّق لأنى فقير . . يا شيخ خالد - الفكرة باختصار ، إن كل حزب يدخل الانتخابات يَعد ميزانية خاصة لنفقاتها . . يعنى أنا شخصياً إذا لم أستطع أن أغطى احتياجات معركتى الانتخابية ، وحدى ، فإن الحزب يساعدنى . . فهل هذه صدقة ؟؟ .

وابتسمت وقلت : إن معاليكم تغمرني بعطفك وتقديرك منذ أول أمسية زُرْت فيها هذا النادى . . وإنى سأكون أكثر سعادة لو أعْفيتنى من هذه المكرمة ، وهزَّ رأسه وقال :
كما تحب . . ثم ضَغَط على الزِّرْ مرة أخرى فجاء الحاج عبداللطيف ، وقال له الباشا :
— الشيخ خالد ، دِمَاغُه ناشفة . . فاحجزوا له غرفة فى إحدى اللُوكَانْدات وادفعوا أنتم الحساب . .
وسَرَت الغِبْطة فى نفسى وجوانحى وقلت وأنا أضحك : هذا حل سعيد يا معالى الباشا . . وعلّق قائلاً : خلاص يا شيخ خالد . . إنى أريد أن أراك سَعِيداً دائماً . .
ثم وجه الحديث إلى الحاج عبداللطيف قائلاً : على فكرة . . حاول أن تُدَبِّر مكاناً للقمص « سرجيوس » وياريتك تجعل العِمَامتيْن البيضاء والسوداء فى لوكاندة واحدة . . لنغيظ النحاس باشا بالبيضاء ، ونغيظ مكرم باشا بالسوداء . .
وسألت فى لهفة : هو القمص سرجيوس سيكون معنا ؟؟ فأجاب : نعم . . نعم وأمامك امتحان عسير يا مولانا . .
وأجبت : سأكون سعيداً لأنى لم أره من قبل ولم أسمعه . . وكل معلوماتى عنه أنه كان من أمتع وأروع خطباء ثورة ١٩ ـ هو وفضيلة الشيخ محمد عبداللطيف دِرّاز . . وفضيلة الشيخ محمود أبو العيون . .
— وهل تعرف الشيخ دراز . . ؟؟
— حتى الآن لم أسْعد بِلقائه . .
— عال . . عال . . الشيخ دراز قادم الآن ، فانْتظر حتى تَلْقاه . . إنه ثائِر كبير . .
وبقيت معه ، يُحادِثنى تارة . . ويُقَلِّب الأوراق التى أمامه تارة أخرى .
وأخيرا وصل فضيلة الشيخ دِراز . . وسيكون لنا معه ـ أنتم وأنا ـ لقاء قادم إن شاء الله تعالى . .
وبدأ « النقراشى » تحيته له قائلاً : مساء الخير والسعادة ، يا مولانا . . هيه طمنى على دايْرتك . .
فَعَلمت لحظتئذ أن فضيلة الشيخ مرشح فى الانتخابات وطال بينهما الحديث ، وامتدت النَّجْوى ـ وهَممت بالاستئذان لكن فضيلة الشيخ سألنى : إنت ساكن فين يا وله ؟؟
— فى الحى الحسينى يا مولانا . .
— خلاص أقعد لما نمشى سوى . . فطريقنا واحد . . فى هذه اللَّحظات . . أطلت علىّ روح والدتى . . إذ تذكرت الدعوة الأثيرة التى كانت تَخْتَصنى بها دون بقية اخوتى : رُوح الله يحَبْبْ فِيك خلقه . .

هذا هو النقراشى باشا يغمرنى منذ رآنى بحب مُفِيض . وهذا فضيلة الشيخ دِراز يمنحنى وُدّه من أول لقاء . . والجموع التى أحبَّتنى خَطيباً وصديقاً . . وفيما بعد ، وحتى يومنا هذا ، ودعاء أمى يُظَلِّلنى ويفتح لِى القلوب . . وإن سعادتى لتَتَنامى كلما ذكرت مع هذا الدعاء ـ قول ربنا الأعلى :
﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُم الرَّحْمنُ وُدًّا ﴾

فأناجي ربي من أعماقي :

إن جلَّ ذنبي عن الغُفران لي أمل
في الله يجعلني في خير مُعْتَصِمِ
ألقي رجائي إذا عز المجير على
مفرج الكرب في الدارين والغُمَمِ

* * *

صافحنا معالي الباشا وانصرفنا ـ فضيلة الشيخ دراز وأنا ..

كان فضيلته يسكن في حي الحِلْمية ، أمام المحكمة الشرعية العُليا .. وأثناء سيرنا راح يناقشني في قضايا سياسية .. كنت معجبا « بدِيفالِيرا » مُحَرِّر « أيرلندا » فَشَرعت أُقارن بين موقفه من مؤتمر الصلح بباريس وموقف « سعد زغلول » مفضلا موقف الأول على الثاني .. والشيخ يُحاورني وقد وضع ذراعه في ذراعي ويُصَحِّح لِيَ بعض أخطائي واستنتاجاتي .. وكان مما قاله لي :

« شوف يا خالد ، يظهر إنك ذكي ، وذكاؤك السياسي يُبشر بالكثير ولكن أنصحك أن تقرأ كثيراً وكثيراً .. ثم قال وهو ضَحُوك : ومين يعرف يمكن تطلع منَّك حاجة كُويسة ..

وأمام باب « الفيلاّ » التي يسكنها ودَّعت فضيلته ومَضَيْت لسبيلي ..

* * *

سافرت إلى الاسكندرية قبل الحفل الانتخابي للنقراشي باشا بيومين .. ونزلت في اللُّوكاندة التي اخْتِيرت لي .. وكانت في ميدان محطة مصر بالاسكندرية .. وفي سُرادق الحفل فوجئت بجموع لا مُنتهى لصفوفها حتى لَيُخيَّل إليك أن أهل الاسكندرية جميعاً قد زَحَفوا إلى السُّرادق .. وتحدثت ، وتحدث القمص سرجيوس ، ومكثت بالثغر يومين آخرين ثم عدت إلى القاهرة .. وفي النادي السَّعدي ـ فقد أصبح اسمه كذلك فيما أذكر ـ سألني الباشا رحمه الله : هل رضيت عن الحفل ؟؟

فأجبته رضي الله عن صاحبه .. هل كنت يا معالي الباشا تتوقع هذه الأعداد الهائلة والحماس المتأجِّج الفيَّاض ؟؟

وأجابني : ولم لاَ ؟؟ إن ردود الأفعال ـ يا شيخ خالد ـ كثيراً ما تكون مذهلة .. ولقد أفلح النحاس باشا بسياسته أن يجعلها كذلك ..

ثم قال : عاوْزينك تشرِّف الحفل الانتخابي الذي سيقام إن شاء الله بشبرا بعد غد ..

وبعد غد ـ كنت هُناك .

كان الحفل مُقاماً في الفضاء الوسيع الذي أقيم عليه فيما بعد نفق شبرا .. وكان مرشح الهيئة السعدية ـ فيما أذكر ـ الأستاذ عزيز مشرقي المحامي الكبير .

وكان مكرم عبيد باشا إمعاناً في الثقة بنفسه وفي الاستهانة بالنقراشي وشيعته قد رشَّح نفسه في شبرا ، وفي قنا ، مرة واحدة ..

وكان أول الخُطباء لَيْلتئذ ـ القمص سرجيوس . . وهو خطيب بارع يُضَمِّن خطبه الكثير من الطرائف التى تُثير الضَّحك والمرح . .

وفى خطابه ذاك . . قال :

« إن مكرم باشا مثله كمثل المَسيحى الذى أسلم وبعد إسلامه بنصف ساعة مات . . فأخذت أمه تبكيه وتندبه قائلة ـ آه يا حبيبى يا ابنى . . ياللى « محمد » ما يسمعش بيك . . و « عيسى » ما عـدْش قَابْلَك ـ ؟؟ !! .

ودعيت للكلمة بعده فبدأتها قائلا :

— أيها السيداتِ والسادة إن لى عظيم الشرف أن أقول كلمة الأزهر « المصرى » بعد كلمة الكنسية « المصرية » . .

ثم مضيت فى خطبتى ، أقلد مكرم باشا فى سَجْعه الآسِر ، والناس مَبْهورون وفجأة اعتلى مقعده أحد الحضور . وصاح : ينصر دينك يا عم الشيخ . . أهوكده . . من دَقْنُه وافْتِلُه . . وضجَّت عشرات الألوف بالضحك والتصفيق . .

وغادرت المنصة بعد إنهاء خطابى . . أتعثَّر فى حيائى الذى تبتعثه فى مواقف أو كلمات الإعجاب بى . . وإذا صوت مُجاور تماماً لمنصة الخطابة يناديني :

— يا شيخ خالد . . وأدرت بصرى ، فإذا الرجلان والزعيمان الكبيران ـ ماهر والنقراشى ، واقفان . . والنقراشى باسط يمينه صوب رفيق عمره وكفاحه يقول لى : الدكتور ماهر عاوز يَهنِّيك . . وصافَحنى الرجل بحرارة وهو يقول مستقبلك عظيم إن شاء الله يا شيخ خالد . . صافحت النقراشى باشا . . وانتهى الحفل بسلام .

وصِرْت مَطْلباً كبيراً وهاماً للمرشحين السَّعديين . . فكلهم يريدوننى خَطيباً فى حفلاتهم الانتخابية . . وكان ذلك فوق طاقتى . . فاخترت حفلتين اثنتين لا غير ـ هما حفل دائرة بولاق ، وكان المرشَّح لها ، أمين بك سعيد ، وكان يُلقَّب بملك الحديد ، لأنه أكبر تجَّاره . . ثم حفل دائرة مركز قليوب . . وكان المرشح له « ميمون بك إسماعيل » عُمدة « قَلْما » قليوبية . وافضَت الانتخابات إلى فوز السعديين بثمانين مقعدا .

* * *

قبل ذلك ، وقبل إقالة وزارة النحاس باشا ، دُعيت لقضاء دورة تأديب وتهذيب وإصلاح فى سكن « أَرَمِدَان » بالقلعة . .

وكان لهذا قصة . .

فشيخ معهد القاهرة الأزهرى الثانوى ـ كان يومئذ فضيلة الشيخ « فرغلى الريدى » رحمه الله . . وكان وفديا عريقا وكذلك كانت أسرته جميعاً . . ووكيله يومذاك فضيلة الشيخ « الصاوى » الذى صار فيما بعد شيخاً لمسجد سيدنا أبى عبد الله الحسين عليه السلام . . وكان هو الآخر وَفْدياً . .

وأيامئذ كنت خطيب المعهد ، وأملك قدْراً كبيراً من التأثير على الطلبة . . وفى أحد تلك المواقف

أطلّ فضيلة شيخ المعهد من شُرفته فى الجمع الحاشد وأنا أخطب وأقول : - إن النحاس باشا وقد أخلّ بالتزاماته تجاه الشعب . . لم يَعُد أهلا لثقة الشعب « !! » وسمعها الشيخ الريدى . . رحمه الله ، وسمع ما بعدها . . ولما انتهت الخطبة تعالت الهُتافات ضد النحاس باشا رحمه الله تعالى . . وسارت الجموع ناحية الباب لتخرج فى مُظاهرة . . وفى اللحظة نفسها أُغلِقت الأبواب وحاصر البوليس المعهد ، ووقف الطلبة يردِّدون هُتافاتهم داخل مبناه . .

وجاء الشيخ « سعد » والشيخ نُعمان الفقى رحمهما الله تعالى وكانا كبيرَىْ مُلاحظى المعهد . . يدعواننى لمقابلة شيخ المعهد . .

واستقبلنى فضيلته غَضْبانَ أَسِفا سائلاً إيّاه : انت جَاىْ هِنا تَطْلب علم والا تُهَيِّج الطلبة وتعمل مُظَاهرات . . ؟؟

— أطْلب علم يا فضيلة الشيخ !!

واللِّى بتعمله هنا - طلب علم . . والاّ تهريج وفوضى ؟؟

طيِّب رُوح واشتغل بالعلم . . وان عدت فَستلْقى جزاءك . .

وفى اليوم التالى : ونحن جُلوس فى الفصل نستمع فى الدروس فاجأنا الزميل « محمود الخيّال » بعصا غليظة ترتفع إلى أعلى ثم تهوى على رأس الزميل « محمد » وكان مقعده أمام مقعد الخيّال تماماً ، فسقط على الأرض فاقداً الوعى ، مُهْراق الدماء . . وهَاج الفصل ومَاج . . وجاءت عربة الإسعاف على عجل ، وأسرع الخيّال إلى الخارج ليخفى عصاه . وكان يوماً عصيباً . .

كان الخيّال وفديا . . أما « محمد » فلم يكن صاحب هوية سياسية إلا أنه كان يُشارك فى لغو الحديث عن النحاس باشا . مازِحاً لا جادًّا . وأغاظه مَازحة للخيّال بصفة خاصة . . ولم نكن نتصور قط أن تتداعى الأخطاء إلى حد ارتكاب جريمة كهذه . . ؟؟

واحتوت إدارة المعهد الموقف حتى لا يصل إلى النيابة العامة ، ولما أفاق « محمد » طلب منهم الاتصال بأخيه الأكبر تليفونيا ودَعْوَته للمجىء إليه . . وجاء الأخ سريعاً . . وحزن وبكى . . ثم رضخ للصلح والاكتفاء بتحقيق إدارة المعهد . . لا سيما وحكومة النحاس باشا كانت لا تزال يومئذ فى الحكم . .

وتكفل المعهد بعلاج المُصاب على حسابه . . وشفاه الله تعالى . .

* * *

لا أدرى لماذا تزورنى هذه الواقعة كثيراً حتى يومنا هذا فَتقْتَحِم ذاكرتى على غير موعد ، وبغير مناسبة ؟؟ هل لأن تأثُّرى بها ، كان عميقا واستقر فى أغوار الذاكرة . . واللا شعور ؟؟

أم أن للإنسان « آلام اليقظة » مِثْلما له « أحلام اليقظة » ؟؟

أم أن الذاكرة تُقيم فى مكان كل حادث أليم نُصُباً وشاهدا يتراءيان لها بين الحين والحين وتنقله بدورها إلى صاحبها وإنسانها .

أم هى النفس أو الروح ترتبط ارتباطاً غيبياً بالحَدث الكبير أو الخطير . . ثم تُذكِّر به صاحبها حيناً

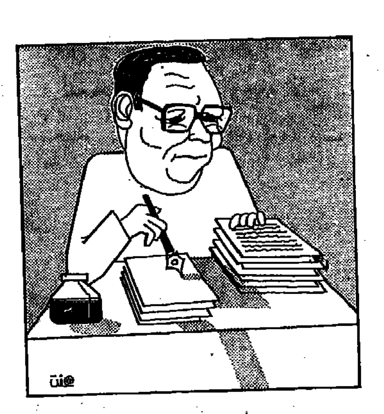
فحينا ليظل ذاكراً ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .. وليبقى فى صفوف الرافضين للظلم والمَدَمْدِمين عليه .. ؟؟

على أية حال ، فعند علمائنا النفسيين الخبر اليقين ..

* * *

وبعد فبتستمر خطبى السياسية فى طلاب المعهد ، مثلما هى مستمرة فى النادى السعدى .. حتى تُدَبَّر لى مؤامرة تنقلنى من « قاعة » الدرس إلى زنزانة السجن .. فانتظرونى هناك ..

* * *



لا السجن يرهبنا .. ولا السجان

بعد أيام من حادث « الخيّال » . . وقف طلبة المعهد الثانوى يصفرون ويصفقون فى فِنائه الفسيح . . وفجأة رأيت أحدهم يحمل مقعداً من الخيزران ويضعه فى وسط الجمع : ثم رأيت أيادىَ ترفعنى لأقف فوق « الكرسى » . . ثم تصفيق حاد يعنى دعوتى لإلقاء كلمة ، وهو أمر لا يُعصى وبعدها استأنفوا هُتافاتهم ضِدَّ « النحاس باشا » ثم خرجوا فُرادى . . وانتظرت قليلًا ثم تَبِعْتُهم . . وعلى باب المعهد فُوجِئْت بمن يقبضون علىَّ . . !! ثم أخذونى إلى عربة البوليس « البُـوكْس » ففوجئت بسبعة من الزملاء قد سبقونى إليها كان بعضهم ينتمى لحزب الأحرار الدستوريين . . والبعض الآخر من حزب مصر الفتاة . . وكنت وحدى ممثِّل السعديين فى هذا الحفل !!

وذهبوا بنا إلى قسم الدرب الأحمر . . حيث أجلسونا ـ القُرفصاء ـ فى فنائه . . وكانوا رُحماء بظهورنا وبأعمدتها الفَقرية فوضعونا حيث نستطيع أن نسند ظُهورنا إلى الحائط . . ودُعينا واحداً واحداً للعرض على ضابط المباحث . . وهناك كان فى انتظارى مفاجأة سعيدة . .

أتذكرون يوم مظاهرة الأزهريِّين الكبرى . . ؟؟ والضابط الذى صاح : ارجع يا عسكرى . . ؟ والْتَفَتُّ ورائى ، فإذا هراوة غليظة تفصلها عن رأسى المستهدف بضعة سنتيمترات . . ؟

هأنذا أمامه مرة أخرى . . ولقد رُقِّىَ إلى وظيفة ضابط مباحث القسم وما إن رآنى وحملق فى وجهى حتى قال : انت تانى ؟ ! أنا مش حذرتك يوم ما كان العسكرى حَيْهَشِّم رأسك ؟ وهززت رأسى أريد أن أقول له : نعم . . أنا هو !!!

وسألنى : انت منين ؟؟ أجبتُه : من الشرقية .

— وكمان من الشرقية .

— نعم . .

— بلدك إيه ؟؟

— العدوة مركز ههيا .
— من عائلة مين فى العدوة ؟
— والدى من عائلة ثابت .. ووالدتى من عائلة مكاوى .
— مش العائلتين دول اللى بيتبادلوا منصب العمودية ؟
— نعم .. نعم ..
— طيب اقعد .. اقعد .. أنا من « كَفر أبوحَطب » .
— مركز ههيا برضه ..

وحين دعانى للجلوس اطمأننت وذكرت قول الشاعر :

وكُــلُّ الـحــادِثــات إذا تَــنـاهَــتْ
فَـمــوصــولٌ بـهــا الـفــرَجُ الـقــريــبُ

هذا ضابط المباحث بِقَضّه وقَضِيضه صاحب الكلمة النافذة فى إعداد تقريره وهو « بَلدِيَّاتى » .. وقد كرَّمنى بدعوتى للجلوس .. وقرار الإفراج عنى إذَن فى جيبى .

ولكن : ـ

مــا كُــلُّ مــا يـتَـمــنَّــى الـمــرء يُــدركُــه
تــأتــى الــريــاح بمــا لا يـشتـهـى « الـسُّـفِـنُ »

والسُّفِن ، هو ربَّان السفينة وقائدها ..

ولقد كان السيد « محمد على صالح » ضابط المباحث كريماً معى حتى لقد استبقانى فى غرفته حتى استجوب زملائى جميعاً .. وحين ضمَّنا مكتبه وحدنا .. قال لى : كنت أتمنى أن أبعد عنك الاتهام .. ولكن الشهود الذين أدْلَوْا بشهادتهم لم يجعلوا ذلك فى استطاعتى ..

* * *

كان سؤاله حين استجوبت مقصوراً على : ـ

هل خطبت اليوم فى طلاب المعهد وضمَّنت خطابك تَحْريضاً على رئيس الحكومة .. ؟ وهل تزعَّمت حركة الإضراب عن الدروس والتظاهر فى فناء المعهد ؟ ولكنه لم يكشف عن عبارات التحريض هذه .. وحين سألته عنها قال : غداً ستعرفها من النيابة .. ؟

— نيابة ؟؟ هو فيه نيابة ، يا محمد بيه ... ؟؟

فضحك وقال : طبعا ـ فيه نيابة ومحكمة وهَلُمَّ جَرًّا .

وهززتُ رأسى فى أسى .. وضغط على زر الجرس فدخل العسكرى المرابط على باب مكتبه وقال له :

— الأخ ده حيقعد مع زملائه تحت .. وفى المساء وبعد مغادرتى المكتب تجىء به وينام فى مكتبى على الكنبة دى .. ويبقى حتى أعود صباحاً ..

ورفعت بصرى إلى السماء حامداً ربى وداعياً لهذا المِضْياف الكريم وأخذنى العسكرى إلى

إخوانى . . فى المساء جاء العسكرى واصطحبنى إلى مكتب « حضرة » ضابط المباحث .

وفى الطريق إليه سألنى : انت قريب البيه ؟؟

أجبته : لا . . ولكننى بلدياته . .

فعلق بعبارة كنت أسمعها لأول مرة :

— طيب تعال يا عم « يا بختِ من كان النقيب خاله » .

وسألته : أمّال زملائى حيباتوا فين ؟

فأجاب : بعيد عنك . . حَايْنَامُوا فى حجرة الحبس مع النشّالين والبلْطَجية والسكْرانين .

وقلت : سترك يا رب . . اللهم احفظنا من كل سوء .

* * *

فى ضُحَى اليوم التالى جاء السيد « محمد على صالح » ضابط المباحث رحمه الله رحمة واسعة . . وطلب منى النّزول إلى زملائى - استعداداً للذهاب إلى النيابة وهناك وجدتهم قد وقفوا صفاً واحدا أمام باب غرفة الحبس وما إن رأوْنى حتى بادرونى بالسؤال الذى كان لابد أن يسألوه : انت كنت فين ؟؟ فأجبتهم فيما بعد أخبركم . . وأخذت مكانى بينهم . . وفوجئنا بعسكرى جاء يحمل مجموعة من « الكَلَبْشات » مغاليق الحديد التى تُوضع فى يدى المتهم بعد ضمهما إلى بعضهما ، ولم يكد يقترب من أولنا حتى صاح زميلنا الشيخ حنفى أبوزيد إيه ده - . . هو احنا مجرمين ؟؟ مُستحيل . . لن يكون هذا أبداً ونادى العسكرى آخرين من زملائه ليكونوا له عَوْنا . . وأصْرَرْنَا على رفض هذا الإجراء وسمع السيد « محمد على صالح » ضابط المباحث ضوضاءنا فأطلَّ من نافذة مكتبه ونادى : فيه إيه يا عسكرى ؟

— إنهم يا سعادة البيه يرفضون وضع أيديهم في الحديد . . !!! وجاء يسعى . . ووقف يستعرضنا بنظرات كَالحة وقال : لَبِّسْهُم يا عسكرى .

وهنا تقدم منه بطلنا المِغْوار الشيخ « حنفى أبوزيد » وقال بلهجته الصعيدية : مش حَيلبس يا بيه . . إحنا مش مجرمين . .

كان الشيخ « حنفى » يحمل فى فروة رأسه آثار « قَرع » يبدو أنه أصابه فى طفولته . . وفى مؤخرة رأسه كانت تبدو « لُطعَتين » أو ثلاث لم تُفْلح العمامة فى إخفائها . . ولمحها رجل البوليس المدَرّب « محمد على صالح » فقال ساخراً وحياة قرعتك دى حَيِلْبِسُه . . وغضب الطلاب السبعة لهذا التعبير وهَاجُوا ومَاجُوا ، أما أنا فَلُذْت بالصمت - لا جُبْناً - ولكن حياء من الرجل الذى أكرمنى وأحسن مثْوَاى .

وصاح الشيخ حنفى : نحن قَتْلاَكُم اليوم . . ولا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى إلامَ كانت المعركة ستنتهى ؟؟ ففى هذه اللحظات المتوترة والمنذرة أهلّت نجدة الله فجأة . . إذ دخلت عربة بوليس واستقرت فى وسط ساحة القسم وهبط منها رجل أنيق ، انصرف العسكر وضابط المباحث نفسه إلى تحيته بتعظيم سلام . . ومن فوره وجه السؤال إلى ضابط المباحث : فيه إيه ، يا محمد بيه . . ؟؟ فلخص له الموقف فى كلمات قِصَار . . واتجه « البك المأمور » نحونا ، مُؤنِّبا ، ومُوبِّخاً ومُتّهما إيّانا

بالتمرد على القانون . . وتحاور قليلاً مع الشيخ « حنفى » وفى النهاية قال :

— معلهش يا محمد بيه . . سيبهم يغوروا من وِشّنا . .

وركبنا العربة . . مُنْتَشِيين بهذا النصر . . واقترحت فى غمرة الضحك والسرور أن نُبايع « الشيخ حنفى » زعيماً لنا وقائداً . . وصفقنا جميعا إيذاناً بمباركة البيعة !!!

* * *

من هذا المشهد تعلمت درسا من أحكم وأعظم دروس حياتى وهوذا : ـ

« حينما يكون الرفض حَازِماً . . والمقاومة صَلبة فإن تغيير الأوضاع السيئة يصبح أمْراً مَقْضِيا »

﴿ وكم من فئة قليلة ، غَلَبَت فئة كثيرة بإذن الله ﴾

* * *

أمام وكيل النائب العام عرف كل منا حقيقة اتهامه . . أما أنا فقد كانت تهمتى : أننى قلت فى خطابى بين زملائى الطلبة : نؤيد عز الدين عبدالقادر وهو الذى أتَيْنا على خَبره فى حلقة سابقة والذى أطلق الرصاص على سيارة «النحاس باشا» وهو فى طريقه من داره بمصر الجديدة إلى مقر رئاسة الوزراء فى لاظوغلى .

— والله يا سيادة البيه ما قلت هذا أبداً . . ولا أقوله أبداً . .

— لكن فيه شهود يكذبونك .

— وَاجِهنى بهم إذا سمحت .

وضغط على زِرّ الجرس فدخل العسكرى وقال له : هات محمود حسن الخيّال .

— وتمتمت فى سريرتى : محمود الخيّال . . . ؟؟؟؟ أىّ خيّال أصاب عقله ؟ !

ودخل « الخيّال » ممتقع الوجه من الخزى . . وسأله وكيل النيابة ، بعد أن أشار بيده نحوى :

— تعرف زميلك ده ؟؟

— نعم أعرفه .

— اسمه إيه ؟؟

— اسمه خالد محمد خالد .

— انت كنت مرجود أثناء إلقاء خطابه ؟؟

— نعم . . وسمعت خطبته كلها .

— ماذا قال فيها . .

— أخذ يسب الحكومة والنحاس باشا . . ويتهمهما بالفساد . . ويقول لم يعد للوفد قيمة بعد خروج ماهر والنقراشى منه . .

— كم استَغْرقَت خطبته ؟؟

— أكثر من نصف الساعة .. وختمها قائلاً : نحن نؤيد عزالدين عبدالقادر .

— يؤيده فى إيه ؟؟

— فى محاولته اغتيال زعيم الأمة طبعاً ..

وأدار وكيل النيابة وجهه نحوى قائلاً : إيه رأيك ؟ ومن فورى فتحت حقيبة كتبى التى كانت معى ساعة القبض علىّ وأخرجت المصحف منها وقلت : -

— إما أن يحلف بكتاب الله أنه صادق .. وإما أن أحلف أنه كاذب ..

وسأله المحقق : إيه رأيك يا خيّال ؟ تحلف ؟؟

وأجاب الخيّال : نعم أحلف ، ومد يده ليأخذ المصحف فمنعته من أخذه وصرخت : يا سيادة البيه .. هذا مخبول !!! وأنا لن أعرِّضه للعواقب الوخيمة التى تُحِيق بمن يحلف على المصحف كاذباً .. لكننى أنا الذى سأحلف وقبّلت المصحف وحلفت ..

أقسم بالله العليم وبقرآنه العظيم

«أن محمود الخيّال هذا كاذب .. كاذب .. كاذب .. »

وأمرنا بمغادرة حجرته لكى يستجوب الآخرين ..

وخارج الغرفة قذفت على الأرض بصقة ناقمة فاقترب منّى وأمسك بتلابيبى وقال : انت بتبصق علىّ يا حيوان .. ؟؟

أجبته : إننى أبصق على الأرض - يا حيوان - فإن كنت جزءًا منها فقد أصابك البُصاق ..

— طيب .. إنت عامل شجاع .. لانك فى حماية البوليس لكن بكرة أورّيك .. ومضى عنى يتَمزَّع ويُرعَد من الغضب .. وبعد قليل نُودى علىّ طالبين آخرين ليشهدا على الزملاء بأنهم - كما علمت فيما بعد - هم الذين حملونى على الكرسى بعد أن جاءوا به - وتَوَلّوْا كِبْرَ التظاهر والهتاف ضد رئيس الحكومة .

وبعد انتهاء التحقيق صدر القرار بحبسنا جميعاً أربعة أيام على ذمة التحقيق .. وحُمِلنا فى البوكْس إلى سجن « أرَمِذَان » بالقلعة ..

وهُناك بدأنا بكشف طبيب السجن على أعضائنا التناسُليَّة وبطريقة مهينة من اليسير عليهم تهذيبها بقليل من الذّوق .. ثم أخذونا إلى « زنزانة » حجرة ضيقة لا تزيد - مع السخاء - فى تقدير مساحتها على مترين فى مترين .. وبها نافذة عالية فى اتساع فَم الغُراب .. ومُصَفَّدة بأعواد الحديد المُتلاصقة لِتصُدّ مُحاولى الهرب من الهروب .. وجلسنا « القرفصاء » فى مشقّة بالغة .. وكنا نتبادل الوقوف لِنُريح الرُّكَب والسيقان الملتوية ، ثم لنسمح للقاعدين بفرصة التراوُح فى المسافة الضئيلة التى يمنحها وقوفنا .. !!!

وقضينا بقية اليوم وجميع الليل على هذه الحال وحتى وجبة العشاء حرمونا منها .. !!!

وفى الصباح سُمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه .. وهناك التقينا بمجموعة كبيرة من شباب الجامعة والمدارس الثانوية أخبرونا أنهم شرّفوا السجن من ثلاثة أيام وأنهم يقيمون فى الحُجرات أو الأقفاص

المقابلة لِقَفَصِنا . .

وحين عُدنا إلى مَقرنا جىء لنا بوجبة الإفطار . . خبز جاف كالح ، كأنما اصطُنع لتخلع كل « قَضْمَة » منه « ضرسا » من مكانه . . وحبات من الفول المدمس المتبِّل بأعرق عائلات « السُّوس » !!!

وكنا حين دخلنا الزنزانة أول مرة وجدنا فى أحد أركانها « جَرْدَلَيْن » أشار العسكرى إلى أحدهما . . وقال : هذا ماء تشربون منه . . ثم أشار إلى الثانى قائلاً : وهذا تتبوَّلون فيه . . !!

وجرت النكتة على لسان « محمد عبدالكريم » فقال ضاحكا : ـ

ـــ طيب ، وفين الجردَل « الثالث اللِّى حا . . . فيه ؟؟

وكان العسكرى مَرحاً ، فضحك وقال : الحاجة التالتة دى من الممنوعات من الصبح للصبح . . ؟؟؟

هنا . . إلاَّ

وجاءت الظهيرة بأسعد البُشْرَيات . .

* * *

كان « محمد محمود باشا » رئيس حزب الأحرار الدستوريين وكان يُنظر إليه كزعيم للمعارضة . . وبهذه المثَابة . . ثم لأنه عريض الثَّراء . . ومشهود له بالكرم . . فقد تولَّى إطعام جميع المسجونين السياسيين ودفع كَفالاَتِهم حتى يُفرج عنهم القضاء . . وقد كون من شباب حزبه وأعضائه ومحاميه ، من يقومون بتنظيم هذا كله فى دقة وإتقان . . وفيما يختص بالطعام كان يصل لأى مسجون طعامه الشهى والأنيق أينما يكون .

وهكذا فُتح باب زِنزانتنا لنفاجأ بأكياس بِعدَدنا يفوح منها عبير الشِّوَاء وأخرى تضم خبزاً طازجاً شَهِىَ المذاق . . وثالثة ، تحمل أنواعا مختلفة من السلاطات وتناول كل منا نصيبه . . وقضينا نتلمَّظ بالكباب الدافىء الذى يفتح الشَّهيات ومَضينا أو مَضَوْا معنا على هذه الوتيرة حتى غادرنا السجن إلى المحكمة وغادرنا المحكمة إلى الانطلاق . . !!

فى اليوم التالى لتشريفنا السجن أخذوا نصفنا وأسكنوهم زنزانة أخرى وكنت معهم . . ولم يكن الفارق بينهما من حيث إيوائنا إلا نفس الفارق بين جلوس القرفصاء « ونوم القرفصاء » . . ؟؟ وأول ما دخلت القفص الجديد وقعت عيناى على كلمات مسطورة على جُدُرِها . . بعضها بالحفْر وبعضها بالقلم الرصاص وهى كلمات سجَّل بها نفر من الطلاب الجامعيين ومن المحامين تاريخ تشريفهم مع عبارات الإصرار على مواصلة الكفاح . .

ولفت نظرى بصورة أشد وأكبر ـ عبارة تقول :

لا السِّجن يُرهبُنا ولا السُّجان .

وتحتها توقيع « عبدالوهاب حسنى » . . رحمه الله رحمة واسعة . .

وواضح من العبارة أنها شَطْرة من بيت شِعْرىٌ وأنا لا أجيد الشعر ، لكنى أقترِفُه أحيانا . . !! وأكثر

قصائدى طولا تنتظم بيتين وإن زادت فخمسة أبيات وسأحدثكم عن هذا فى حديث مُقْبل إن شاء الله

أعجبتنى كثيراً هذه الشطرة أو هذه الفقرة ..

واستهوتنى كى أُضيف إليها جديدا .. وهكذا أصبحَتْ ..

لا السّجن يُرهبُنا ولا السّجان
فَلْيبطش الطاغون والطغيانُ
فلقد نَذَرْنا للكفاح حياتنا
وجزاؤنا الجنّاتُ والرُّضوانُ

وفى نشوة فرحى بميلاد هذين البيتين صِحْت اسمع يا ولَد انت وهوه وأنشدت البيتين وإذا الشيخ « حنفى » يُصفق ويقول لَنَجْعَلَنَّها « نشيد السجن » انتظروا حتى يجىء الليل ..

ولما جن علينا الليل ، نهض « حنفى » قائما وقال : الآن نردد النشيد فحذَّرتُه ورجوته ألَّا يفعل ولكنه انطلق كالمجنون وراح ينشد الشعر شَطِرة شطرة ونحن نُردد وراءه .

ولم تكد أصواتنا تبلغ مسامع زملائنا فى الزنزانة المجاورة ثم الزنزانات الأخرى المقابلة لنا حتى رُجّت طرقات السجن رجًا من الأصوات الزّاعقة والشاهِقة وما هى إلا دقائق حتى سمعنا قَعْقَعة الأحذية الثقيلة حاملة إلينا نفراً من حرس السجن وقَرّعوا بشدّة وصخب البابين اللذين قَبْلنا .. ثم قرعوا بابنا .. وتقدم منا ضابط المجموعة المُداهِمة :

— انتوا اللى عاملين « الأوركِسْترَا » ده .

ولم يكن فينا من عرف مفهوم هذه الكلمة الغريبة علينا ..

فأجاب الشيخ حفنى :

— أوركِسترا إيه يا بيه ؟؟

— انتوا اللى بتقولوا الكلام الفارغ ده ؟؟

— يا بيه ، احنا قاعدين فى حالنا . لا لنا ، ولا علينا .. وهز الضابط رأسه يتوعّد وقال طيب .. الصباح رَبّاح ..

وأغلق الباب علينا وراح يطوف على زنزانات العنبر كلها بهذه الأسئلة حيث تُلْقى نفس الإجابات المتنصّلة .

وفى ضُحى اليوم التالى قادوا نُزلاء العنبر أجمعين وكانوا جميعا من الطلبة إلى حيث وجدنا أنفسنا أمام صليب خشبى كبير فى حجم الإنسان .. !!

وأقبل بعضُنا على بعض نتساءل : ما هذا ؟؟

وعرفنا أنها « العرُوسَة » يُصلَب عليها من خَالَفوا لوائح السجن ، وحُكم عليهم من إدارته بالجلد .. !!

يالها من وليمة للسّت العروسة ؟؟ وهل سيتسع جوفها لِلُحوم ما يقرب من الثلاثين سجينا . . ؟؟

الله يخرب بيتك يا شيخ حفنى . . هكذا صرختُ فى وجهه . . ألَم أنْهَكَ عن إنشاد الشعر بصوت مرتفع ؟ !

فصرخ : اسكت يا جبان ؟؟ !!

وأجبته : إنى أفضل أن يكون جباناً على أن أكون طائشاً . . ؟؟ !!

لقد أخطأت حين اقترحتُ أن تكون زعيمنا وأميرنا فى هذه الرحلة النكراء . . ولكننا نخلعك من بيعتنا ، ونستردها ممن لا يستحقها . . ولما كان شر المصائب ما يضحك فقد ضَحِكنا وضَاحَكنا . .

وفجأة دوّى صوت شاويش ضخم آمراً إيَّانا أن نُقسم أنفسنا إلى ثلاثة صفوف فى مواجهة عَروس السّوء . . ولم يبق لدينا شك فى أنه « أزِفَتِ الآزفة » .

الله ينتقم منك يا خيَّال « أوكُل هذا بسببك يا شاهد الزور . ؟ ! والله يعلم كم وراء هذا الشباب النَّضِرِ من « خيَّالين » مثلك ، جاء بهم إلى « العروسة » تلفيق الملَفِّقين ، وزُور المبطنين . . !!

وسألت الشاويش الذى يُنظم صفوفنا :

— طبعا يا بشْجاويش ، سيجلدوننا فوق ملابسنا . . ؟؟ !

وضحك الرجل الأمير وقال : جلْد إيه ياسى الشيخ ؟؟

مش انتم اللى حتنجلدوا . . داواحد تانى كان عاوز يهرب . .

— أمَّال جابونا هنا ليه ؟؟

— علشان تشوفوا . . وتْخافوا . .

— الله يكرمك ، ويعزّك ، ويحفظ لك أولادك . . واكتسى وجهه بحزن طارىء وقال :-

— انت اسمك إيه ؟؟

— اسمى خالد محمد خالد ثابت .

— ياريتك يا شيخ خالد دعوت لى هذه الدعوة من سنة . .

— ليه ؟؟

— تعرف اللى حَينجلد دلوقتى مين . . ؟؟

— مين ؟؟ قريبك أو صديقك ؟؟

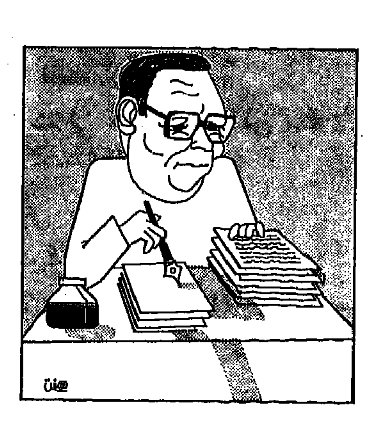
— ياريت . . إنه ابنى البِكْر . . أكبر أبْنائى . . !! اتُّهم فى سرقة وحكم عليه بالسجن ٣ سنوات انقضى منها عام . . وضُبط بمحاولة الهروب فحُكِم عليه بسبعين جلدة . . والحبس الانفرادى ثلاثة أسابيع . .

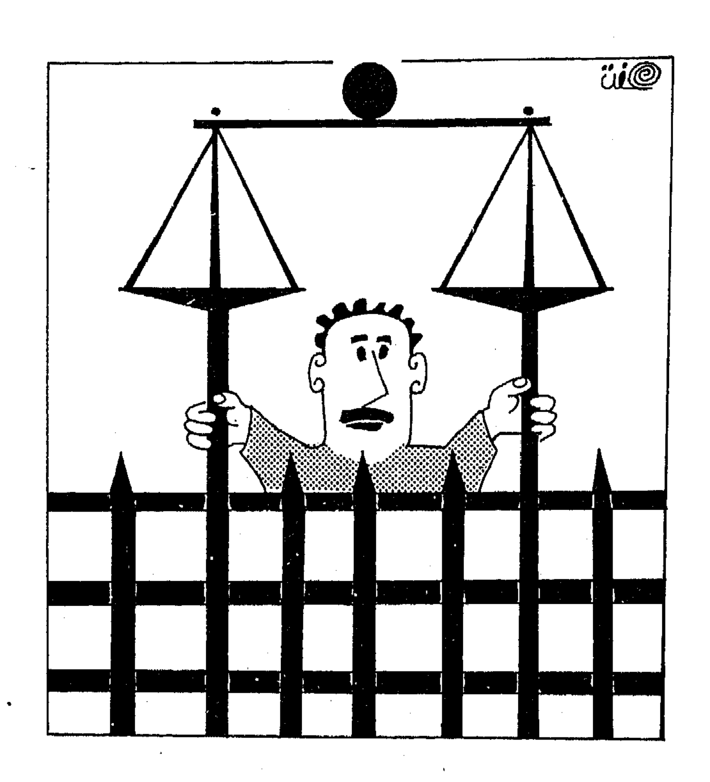
— لكن يا أخى انت كنت بتضحك دلوقتى .

— أمُّه فِضلَت تبكى عليه حتى ماتت من الحزن . . عاوزنى ألْحقها . . وبَعدِين انت ما سمعتش المثل . . اللى بيقول : الولد الْفَسْدَان يجيب لأهله اللعنة . . !!

ده خَلّى رقبتى بين زملائى هنا زى السمسمة . .
ابن الكلب يسرق وأنا رجل شريف . . وبعدين عاوز يهرب علشان يقولوا أبوه هو اللّى هرَّبه . . ؟
يا الله . . !! إلى هذا المَدَى يتسبّب فساد الأبناء فى شقاء الآباء حتى تتحجّر قلوبهم ، وتَقسُو . . بل وَيشْمتُون فيهم إذا دارت عليهم رِحَى العذاب . . ؟؟ !!
اللهم لُطفَك ، وعَفوك ، وعافِيتك ، يا أرحم الراحمين . .

* * *





فى المحكمـة !!

جيء بالمذنب ـ كما يسمونه فى السجن ـ وجرَّدُوا نصف جسده الأعلى من ثيابه وأحكموا وَثاقه وتقدم الجلادُ بسوطه الطويل وراح يمطر الجسد العريان بسوطه وأجْلَتُ بصرى لأرى أباه فوجدته واقفا هناك يُخفى عينيهِ براحَة كفه اليمنى ودموعه تنثال على وجنتيه ، ورأيتنى أبكى معه وأبكى له . . ومع كل جَلْدَة تهوى على ظهر الرجل أتمتِم فى سِرى : ـ « الله يخرب بيتك ياشيخ حفنى أنت الذى جئت بنا وبالشباب الآخر البرىء إلى هذا المكان المَقِيت . . !!

وبعد انتهاء الوليمة المنكَرة استقبَلنا أحد ضباط السجن يَلْفَحُنا بموعظة طويلة ومَمجوجة . . ختَمها بقوله : النهارده وقفتم متفجرين . . ولكن فى المرة القادمة سيكون مكانكم هنا ـ وأشار إلى العروسة ـ وأما مكانكم الذى تقفون فيه الآن فَسيحتلّه متفرجون آخرون . . ؟؟؟ وساقُونا إلى أقفاصنا فى مَقْت مُتبادل بيننا وبين حُراسنا .

وأراد ربنا الرحيم أن يُخفِّف عنا . . فبعد يومين آخَرين ، أُمِرنا بالاستعداد للذهاب إلى المحكمة . . . . كانت الدائرة التى ستنظر قضيتنا تُباشِر عملها فى المحكمة الشرعية العليا بميدان الحلمية . . ولا أدرى ما العلاقة بين دائرة مختصة بالقضايا السياسية والعادية وبين المحكمة الشرعية . . !! لعلها كانت أزمة أماكن ومساكن . . وزُجَّ بنا إلى قفص الاتهام . . وآنَسَنا وشَجَّعَنا أن رأينا القاعة مكتظة بزملائنا الطلبة . . ودارت بيننا المفاجَآة وتبادلْنا التحية والضَحِكات حتى أفقْنا فجأة على صوت خَشِن أجَشّ يقول : محكمة . . !!

ووقفنا ووقف كل من فى القاعة من محامين وجمهور . . ولما استقر المستشارون فوق مقاعدهم جلسنا والآخرون وافتُتِحت الجلسة ـ ونُودى علينا واحدا واحدا إثْر واحد حتى إذا اطمأن رئيس المحكمة إلى وجودنا جميعا شرَع ينادينا من جديد . . وكان أول اسم دعاه هو : خالد محمد خالد . . . »

ولِمَ لا . . ؟؟؟ ألستُ أنا الذى تَوَلَّيْت كِبْرَ الخطيئة بتأييدى المزعوم لمحاولة اغتيال النحاس باشا « ثم إلقاء خطبة ساخنة ضد الوفد وحكومته . . . ؟؟؟!!

أجبت النداء بوقفة سريعة تلاها سؤال رئيس المحكمة لى : اسمك إيه ؟؟

ـــ خالد محمد خالد .

— انت يا شيخ خالد متهم بأنك خطبت فى طلاب المعهد الأزهرى الثانوى وهاجمت الحكومة ، وحرّضت على التظاهر . . وأيدت محاولة « عز الدين عبد القادر » لاغتيال رئيس الحكومة . . هل فعلت هذا . . ؟؟

— أقسم بشرف المحكمة الموقرة . .

وقاطعنى : لا . . ما فيش هنا حلف بشرف المحكمة . . !!

أجِب . . هل حدث هذا منك ، أم لم يحدث . . ؟؟

لم يحدث أبدا أن قلت : نؤيد عز الدين عبد القادر .

ولم يحدث أن حرضت على التظاهر . . ولكن حدث أنى ألقيت خطبة انتقدت فيها حكومة الوفد دون أن أهاجم رئيسها أو أعضاءها . .

طيب ، انتقادك كان زى إيه . . ؟؟؟

— انتقدت موقفها من كهربة خزان أسوان ، الذى رفضت إجراء مناقصه عالمية حوله ، وسلّمت المشروع لُقمة جاهزة لشركة انجليزية . . مما نَجَم عنه فساد العلاقات بين الوفد ، واثنين من عمالقته الكبار « أحمد ماهر ، والنقراشى » حيث تمَّ بعد ذلك فصلهما من الحزب . . . !!!

وهنا رأيته يميل مبتسما على عضو اليمين ، وعضو اليسار اللذين شاركاه الضحك . . !! ومرَّت بى خاطِرة سريعة تقول : لعلّه قال لصاحبيه :

ما شأن « أزهرى » بكهربة خزان أسوانِ . . . ؟؟؟!!!

هييه . . . ياشيخ خالد . . وإيه كمان ؟؟؟

— كذلك انتقدت النحاس باشا والوفد فى فصل النقراشى ، ثم أحمد ماهر ضاربين عرض الحائط بتاريخهما فى ثورة ـ ١٩ ـ وبالفِدائية النادرة التى قادا بها معركة الانتقام من ضباط الاحتلال وجُنوده . . !!

وصَببتُ نقدى كذلك على فِرق « القمصان الزرقاء » التى كانت تبعث الرعب فى أنفس المواطنين ـ لا سِيَّما المختلفين مع الوفد فى سياسته . .

أنا أعلم ياسيادة الرئيس أن الوفد صنع هذا ليحمى نفسه وشبابه من فرق « القُمصان الخُضر » التى شكلَّها حزب « مصر الفتاة » والتى روَّعَتْ هى الأخرى الناس فى أمْنِهم . . واعتدَت أحيانا على بعض طلبة الجامعة الوفديين بالخناجِر داخل الحرم الجامعى . . ولكن ما فضلُ الوفد على الآخرين إذن ، وهو الذى كان مُلْتحداً للشعب وملجأ لحريته ـ إذا كان يسلك نفس الطريق . . ؟!

— ثم ما كنا نسمعه عن الفساد . . وهذا مَسَسْتُه برفق ، لأنى لم أكن على بَيِّنة من أمره .

هذا ما حدث منى يا سيادة الرئيس . .

— طيب ـ اتفضّل ، اجلس . .

ثم نُودِىَ الزملاء واحدا واحدا . . حيث سُئل كل منهم عن دوره فى التحريض على التظاهر والهُتافات بسقوط الحكومة .

ودعا رئيس المحكمة الدفاع ليتحدث ويترافع ..

وهنا نهض رجل أمْيَل إلى القِصَر .. ممتلىء الجسم ، وجهه قريب بانشبه بوجه الأسد ، أشْيَب الشعر قليلا ، تُومِض عيناه ببريق تمتزج فيه الهيبة بالرهْبة .. وتقدم إلى المنصّة .

— معذرة - فقد نسيت أن أذكر استدعاء الرئيس الشهود - شهود الزور - ومناقشتهم .. قبل أن يدعو الأستاذ الكبير « عبدالمجيد نافع » للترافع .. وللأستاذ « نافع » لقاء آخر سيجمعنا إن شاء الله حديث مُقبل حين تَطوّع للدفاع عنى فى أبريل عام ١٩٥٠ حيث اتهمنى الأزهر بالهرْطَقة - واتهمتنى النيابة بالشيوعية فى أول مؤلفاتى .. « من هنا .. نبدأ » ..

وقف عبدالمجيد نافع فى شُموخ .. وألقى على قفص الاتهام نظرة غاضبة ثم ولّى وجهه شَطْر القُضاة قائلا :

لى رجاء قبل البدء فى المرافعة ..

— تفضّل .

— أن يجىء الشيخ خالد ليقف هُنا أمام منصة القضاء بضع دقائق .. !!

وغادرت القفص تُعثرا فى حيائى « وأمسك الأستاذ الكبير بذراعى قائلا : قِف هُنا .. ووقفت حيث أشار .. لكنه استدار قليلا نحوى وقال : لأ .. هنا .. ورجعت إلى الوراء خطوة .. ووقف ملتصقا بالمنصة .. ووجهه نحوى ثم قال : تمام : هنا وحتى الآن لم أجد لحركته هذه تفسيرا إلا أنه أراد أن يضعنى فى مستوى نظر القضاة تماما ليرونى جميعى - طولا - وعرضا ووجها ، وكَتِفين ، وساقين ..

ثم دفع رأسه الكبير الأشْيب قليلا إلى أعلى .. وبدا وجهه تحت هالة من الهيبة والوقار .. ثم قال : -

— يا حضرات القضاة .. مما أثِرَ عن « نابليون بونابارت »

قوله :

« إننى لا أنتظر فعل الشِّرِّير لكى أعرف »
« أنه شرير .. ولكنى أقرؤه فى لحظة ومن »
أوّل نظرة »

فتأمّلوا معى الشيخ خالد - وبهذه المناسبة أقول : لقد سعدت أيّما سعادة والسيد رئيس المحكمة يقول له بعد استجوابه : -

— « تفضّل .. اجلس » .. !!

تأمّلوا جسمه الناحل .. وطِيبته الظاهرة .. ثم تأمّلوا وجهه السّمح الوديع .. ثم تأمّلوا طريقته فى الحديث ومَخارج كلماته ، وهو يجيب عن أسئلتكم الذكيّة .. أترون فى هذا كله شَخْصا شِرِّيرا ..

أقسم بشرف المهنة التى أمثلها الآن أمامكم : لو رآه « نابليون » لقال : هذا أول « خَيِّر » ألقاه فى حياتى ..

أفهذا ، من يُؤيد محاولة اغتيال رئيس ، أو حتى خَفِير .. ؟؟

وأفاض فى مرافعته .. ثم قال :
يا حضرات المستشارين : « إن خالد محمد خالد » جاءكم ومعه أصدق شهود النفى ..
وفى حركة خطابية رائعة ومفاجئة ، أشار إلى الرئيس قائلا : مهلا سيادة الرئيس .. لا تناد عليهم ، فهم ليسوا بالباب .. ثم راح يشير بكلتا يديه نحوى ، ويقول : إنما هم هنا .. فى هذا الشاب .. فى هذا الكتاب .. فى سَمْته .. فى دَعَته .. فى هدوئه .. فى صدقه .. فى شخصيته المبشرة برجل عظيم ..
وهزتنى كلماته وتحياته التى لم أسمع مثلها من قبل .. وشَرِقَت عيناى بالدموع .. ثم انهمرتْ .. ودوَّت القاعة بالتصفيق .. وازدادت دُموعى انهمارا ..
واستأنف الرجل الكبير دفاعه .. ونادى بصوت عاصف :
— يا حضرات القُضاة .
إن شهادة « الخيّال ـ منسوجة من الخيّال » .. !!
وهنا وقف أخونا إيّاه « الشيخ حنفى » ، قائلا : ـ ومن « الخَبال » أيضا يا أستاذ .. ؟
فطالبه القاضى بالصمت ، وصاح الأستاذ « نافع »
« أجل .. ومن الخَبال أيضا » .. !!

* * *

وتقدم محامون آخرون ، ليترافعوا عن بقية الزملاء .. وقالوا قولا بليغا ..
ووجه أحدهم إلى زميل لنا هذا السؤال :
— انت يا ابنى ، ليه تِشْتِم الحكومة .. ؟؟
فأجاب : لأنها تضربنى .
— يعنى هى بتضربك .. وانت ترد عدوانها بالشَّتم فقط .. ؟؟
— لأ ، يا بنى .. ما عنتش تشتمها .. أوّلا : لأن الشتيمة عيب .. وثانيا : لأن الشَّتم لا يُودِّى ولا يْجيب « ... »
وهنا نقر الرئيس المنصة بقلمه .. وقال : بلاش دى ، يا أستاذ ..
ذلك أن المحكمة ، ومعظم الموجودين بالقاعة فهموا أن الأستاذ المحامى يريد أن يقول :
﴿ فَمن اعتَدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾
« ومن لَطمك على خَدِّك الأيمن ، فالْطُمه على خده الأيسر » .. !!!

* * *

رُفِعت الجلسة للاستراحة .. وما هى إلا دقائق حتى عادت لتعلن الحكم ..
— خالد محمد خالد ـ براءة مما نُسِب إليه ..
— حفنى أبو زيد ـ براءة مما نُسِب إليه ..
— محمد عبدالكريم ـ براءة مما نُسِب إليه ..

— أحمد محمد شريف ـ براءة مما نُسِب إليه . .

ومضى يبشر كُلاًّ منا ـ نحن الثمانية ـ بالبراءة . .

وجرت المراسم المعروفة فى مثل هذه المناسبات من التصفيق ، والهتاف بحياة العدل وقضاته . . أما أنا ، فبادرت إلى فخر المحاماة والخُطباء والبُلَغاء الأستاذ الكبير ـ « عبدالمجيد نافع » وأشبعتُه لَثْماً وتقبيلا . .

وفجأة أحاط بنا رجال الشرطة ، وقادونا إلى العربة التى حملتنا إلى سجن القلعة مرة أخرى . .

— لماذا ؟ أَلَمْ يُحكم لنا بالبراءة ؟؟

— قال قائلهم : نعم . . ولكن الإفراج يتم هناك . من السجن الذى كنتم فيه . .

وهناك تم اتخاذ الإجراءات . . وفُتح لنا الباب الكبير . . وكأنّى الآن ـ وأنا أخط هذه السطور ـ أعيش تلك اللحظات ، فمع أول خطوة خارج السجن رُحت أَشَمُّ أنفاسا عميقة . . وأقول :

— الله . . ما أحلَى الحرية . . !!!

وفتحت عينى على الوجود كله ، من خلال الرقعة الصغيرة الواقعة أمام السجن المعْتِم والمُوحِش . . ووجدنا فى انتظارنا عربة رَافِهَة ، وأحد المحامين من أعضاء حزب الأحرار الدستوريين . . جاء ليوصل كُلاًّ منا إلى منزله . . كانت المعارضة وقتئذ فى ذُروة التنظيم واليقظة . . كانت تقف على أخبار المسجونين والمعتقلين السياسيين أولا ، بأول . نتعرف أسماءهم ، ونُزُلَهم ، وتهمة كل منهم . . وكان جهاز الدفاع من الأساتذة المحامين ، قد كرّس وقته لمهمته . . وكان « محمد باشا محمود » رحمه الله تعالى قد حمل عن جميع الأحزاب مسئولية الإنفاق فى كافة المجالات التى يتطلبها الموقف . . ومن الطريف حقا ـ أننا حين عُدنا إلى معهدنا ، وأخذنا نَقُصُّ على زملائنا طعامنا ، والكباب الذى يفتح الشّهيات ، تحسّروا لأنهم لم يكونوا معنا . . !!

فى مساء يوم الإفراج ، توجهت إلى مكتب « النقراشى باشا » ـ وكان قد علم نبأ القبض علىّ فى نفس اليوم الذى قُبِض علينا فيه . .

ولقد استقبلنى الزملاء ليلتئذ بحفاوة بالغة . . ووقفت فيهم خطيبا .

وترامى صوتى إلى مسامع « النقراشى » فى غرفة مكتبه ، وإذا به ـ على غير عادة ـ يُهِلُّ علينا ، آخذاً مكانه بين صفوف المستمعين . .

وإذا كان فى حياتى كلها ثلاثة مواقف ، أو أربعة ، أو خمسة ، لا تزال تثير فى نفسى الفرح دائما والزّهْو أحيانا ، فإن ما فعله الرجل الكبير فى تلك الليلة العظيمة . . واحد منها . .

وبعد الفراغ من خطابى ، أمسك بيمينى ، واصطحبنى إلى مكتبه . . وهناك قال لى : احكى لى بَأه ، اللِّى حصل يوم بيوم . . بل ساعة بِسَاعة . .

وحكيت . . ولكنى وقفت طويلا عند الحديث عن الأستاذ الكبير « عبدالمجيد نافع » تالياً بعض فقرات من مرافعته . .

وعلّق « النقراشى باشا » قائلا :

— عبدالمجيد نافع محام كبير . . ثم قهقه وقال : لكن فيه عيب كبير أيضا . . كان يغَار غيرة شديدة من « سعد زغلول » . . ويرى أن الزعامة كانت آتية إليه هو ، ولكن « سعدا » قطع عليها الطريق ، وأخذها لنفسه . . !!

ثم استرسل فى ضحكه ،وقال :

— تعرف يا شيخ خالد . . يا ريتك دخلت السجن من زمان . . !!

— ليه يا معالى الباشا . . ؟ دى تجربة قاسية . . !!

— لأن سجنك يا مولانا عجَّل بالفرج . . فيه أخبار سارَّة للشعب كله ، قادمة فى الطريق . . وفهمت كل شىء . . ومنعنى الأدب معه من سؤاله عن نوع هذا الفرج ، وهذه الأخبار وكِبر الرجل فى عينى ، وفى نفسى . . واعتبرت تصريحه هذا ، منتهى الثقة بى . . فكَبرْت فى نفسى كذلك . .

* * *

فى اليوم التالى للإفراج عنا ، أخذت طريقى إلى المعهد ، وفى منتصف الطريق ، فُوجئت بوالدى قادماً منه . . وبسطت يدى إلى يده كى أقبِّلها ـ كما هى العادة ـ بيد أنه فاجأنى بصفعة قاسية على وجهى . . ومضى يُعَنِّفنى بقارص الكلم ، بينما أخذت أقلب بصرى بين عابرى الطريق فى لهفة وخجل ، راجيا ألا يكون هناك من رآنى ، وأنا فى هذا الموقف المهين . . !! فماذا كان قد حدث . . ؟؟

كان أبى رحمه الله تعالى ، قد توجَّه إلى المعهد ليرانى ويُتحِفنى بقدر من المال . . ولَقِيه فى المعهد بعض المُلاحِظين ، فرجاهم أن ينادينى أحدهم من الفصل . .

فقالوا : أى فصل ؟؟ هل حضرتك والده ؟؟

— نعم ، أنا أبوه . .

— ابنك يا عم فى السجن . . !!

— سجن . . كيف ، ولماذا . . ؟؟

وقصُّوا عليه النبأ كله ، وأتبعوه بقولهم : يا خسارة !! ابنك طالب مُمتاز . . لكن سيقضى على مستقبله اشتغالُه بالسياسة ، والمظاهرات ، وشَتْم الحكومة . .

هذا ما قصَّه علىَّ أبى ، ونحن فى الطريق إلى منزل عمى رحمه الله ، ليشكونى إليه . . وعَنَّفنِى عمى كثيرا ، وتوعَّدنى إذا أنا عُدت لمثل ما صنعت . .

وتظاهرت بالموافقة . . بينما طويت نفسى على النقيض بكل الإصرار والتصميم . . !!

* * *

لم تكن هذه الواقعة ، الحادث السعيد الوحيد الذى جابهنى فور خروجى من السجن . . !!

ففى اليوم التالى ليوم الواقعة ، أخذت طريقى إلى المعهد لأواصل دراستى . . وإذا بى أُمْنع من دخول المعهد . . إلى حين يصدر قرار بفصلى . . !!

وضاقَتْ علىَّ الأرض بما رَحُبَت . وحاولت مقابلة شيخ المعهد ، فَمُنِعت . . وفكَّرت مَلِيًّا ، فَهُدِيت

إلى أفضل الحلول ـ إن كان هناك حل على الإطلاق ـ ، واتخذت طريقى إلى فضيلة الشيخ « محمد عبداللطيف دراز » . . وكان يشغل منصباً كبيراً بالأزهر . . وأقرب العلماء والشيوخ من قلب الإمام الأكبر الشيخ « محمد مصطفى المراغى » . .

وما هو إلا أن قَصَصْت عليه النبأ حتى أجرى اتصالا تليفونيا مع فضيلة الشيخ « أحمد الصاوى » وكيل المعهد . . وسمعت أكثر ما دار بينهما . .

قال الشيخ الصاوى بعد أن ذكَر له الشيخ دراز اسمى : إنه ـ أى أنا ـ يتزعَّم بعض الطلبة المشاغبين ، وفضيلة شيخ المعهد مصمم على فصلهم نهائيا . .

وأجابه فضيلة الشيخ دراز ـ قائلا : أنا لا أعرف ماذا تقصدون بالشغب . . ولا أعرف هؤلاء المشاغبين . . وإنما أعرف أن « خالد محمد خالد » طالب مجتهد . . وذُو « عقل رشيد » وأرجو أن تكون شهادتى هذه كافية لتصحيح موقفكم منه . . وسأرسله لك الآن ، ليواصل دراسته . . لكن فضيلة الشيخ « الصاوى » رجاه أن أُرجىء حضورى إلى غد . . وانتهت المكالمة . .

وقال لى فضيلة « الشيخ دراز » أظنك سمعت المكالمة . . اذهب غداً ـ أن شاء الله ـ إلى معهدك وإذا حدث أى شىء فتعال إلىّ فوراً . . !!

* * *

فى اليوم التالى ذهبت فى صحبة والدى . . وتقابلنا مع الشيخ الصاوى ، الذى مضى بنا إلى فضيلة الشيخ « الريدى » شيخ المعهد . . الذى دعانا للجلوس ، ومضى يوجِّه إلىّ النصائح ، والعظات . .

لم أشعر قط ، وشيخ المعهد يتحدث إلىّ أنه يبدو كمَن تَشفَّى من غيظه . . بل بَدا أباً رحيماً ، وأستاذاً كريماً ، يتَنَدَّى على أبنائه ، ويسخُو بمشاعر المودة والتعاطُف ، مما جعل فؤادى يُصغى لِنُصْحه . ويتَفتَّح لكلماته . . !!

قال لى فضيلته : أنا أطالبكم بأمر واحد ـ أن تتفرغوا للعلم . . حتى إذا تخرجتم ، اشتغلتم بالسياسة كما تشاءون . . إن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه كان يقول لتلاميذه :

— « تفرغوا للعلم ، فإن العلم لا يُعطيك بعضَه . . حتى تُعْطِيه كُلَّك » . .

هذا ما أنصحكم به . . وإذا غلبتكم السياسة على أمركم ، فاشتغلوا بها خارج المعهد لا داخله . .

وشجعتنى كلماته الحانية على الشفاعة لزملائى السبعة ، مؤكداً لفضيلته أن زميلنا « محمود الخيَّال » لفَّق لنا جميعا هذا الاتهام . . وإذا فضيلته يقول لى : أنظر . . فى اللحظة التى سبقتنى بشفاعتك هذه ، كنت على وشك أن أنصحك بالابتعاد عنهم . . إنك يا ولدى تبدو بَرِىء الصدر من الغَرض . . أما هم فإدارة المعهد تعرف كل شىء عنهم . . ومع ذلك سنعطيهم فرصة أخيرة . . غداً إن شاء الله ائتنى بهم . .

قلت : يا سيدنا الشيخ : إنهم ممنوعون من الدخول . .

أجاب رضى الله عنه : سأعطى أمراً بدخولهم . .

وقبَّلت يده . . وقبَّلها أبى . . وانصرفنا بسلام . .

وفى اليوم التالى أبلغت زملائى برغبة الشيخ فى مقابلتهم .. وذهبنا .. وكرر علينا نصائحه الأمينة .. وعدنا إلى فصولنا .. واجتمعنا مع زميلنا الشيخ « محمود الخيّال » وتعاتبنا .. وتصافحنا .. وتعانقنا .. وعرفت يومها مالا أزال أنعم بدفئه ، وهو : أن الدنيا كلها لا تساوى لحظة حقد واحدة .. وأننا حين ندفع بالتى هى أحسن السيئة ـ كما أوصانا ربنا العظيم جل جلاله ـ فإن أيام حياتنا تتحول إلى روضات يانعات ، نتأنّق فيها ، وتتألّق فينا .. !!!

* * *

سافر أبى رحمه الله تعالى إلى قريتنا رَاضِياً مَرْضِياً ، بعد أن كرّر وَصَاتَهُ لى بتجنُّب السياسة .. وبعد أن وعدتُه بالسّمع والطاعة ..

ولكن : هل كان ذلك ممكنا .. ؟؟

تعالَوْا ، نُفكر معاً ..

ولعل تفكيرنا يكون أقرب إلى الصواب .. إذا وضعت أمامك ظاهرة نفسية ، بدأت أشعر بها خلال تجاربى كلها وأنا أغادر الطفولة إلى الشباب .. !!

وأقول : ـ أشعر ـ لأنها لا ريب تخلّلت نسيج حياتى فى مرحلة الطفولة ، حيث كانت موجودة دون شُعورى بها .. أما فى بَوَاكِير شبابى ، فقد وَاتانِى الإحساس بها ، وفهمها .. !!

وكانت هذه الظاهرة تتمثل فى رغبتى فى التّحدّى والمقاومة ..

كنت مِثل « الأم » إذا « مخضت » وضربها طلق الولادة ، فإن صراخها واختناق أنفاسها ، يحملان فى الوقت ذاته تحدِّيها لآلام المَخاض ، وإصرارها على إرادة الانتصار ، وتخطيها كل العوائق التى تؤكد سيادتها وهى تقدم للحياة ضيفاً جديداً ..

وطبعا لم يكن هذا المعنى فى هوامش مشاعرها حتى تحسه وتراه .. بيد أنه كان فى « بُؤرة الشعور » ..

« فِطرَةَ الله ، التى فَطَر الناسَ عليها »

* * *

هكذا ، رُحْتُ أشعر بالرغبة فى التَحدِّى .. فأنا ـ يجب أن أكون « أنا » .. بفكرى ، ورأيى ، واقتناعى بصوابى ، وخَطئى .. بأحلامِى ، وآلامى .. يجب أن أتنشّق الهواء بأنفى ، لا بأنوف الآخرين .. وأسمع بأذنى ، لا بآذانهم ، وأبصر بعينى ، لا بعيونهم .. وأفكر بعقلى ، لا بعقولهم .. وأختار ما أريد .. لا ما يريدون .. وأريد ما يختاره لا ما يختارون ..

وبعبارة واحدة ـ يجب أن أكون نفسى ـ دولة مستقلة ذات سيادة .. يربطها بالآخرين التواصى بالحق ، والاحترام المتبادل .. وليست التّبَعية « التى تُجرد صاحبها من شخصيته ، ومن سيادته على نفسه وحياته .. شريطة أن يتم ذلك كله وَفْق الاقتناع الرشيد ، والسديد بصواب تصرفاتى ومواقفى ، وخياراتى ..

أما الناس بمُواضَعاتِهم وأعرافِهم ـ فَأَذِعْ نَعْيَهم .. وصَلِّ عليهم « صلاة الغائب » .. وقل : ـ

رحـــم الله أعـــظُمــاً فـــى ثـــرى الأَرْ
ضِ ، مُـــســتــقَــرُّهــا والـــمـــصـــيــرُ .. !!!

* * *

لقد بَزغَت ـ إذن ـ إرادة التحدى فى أُفُق حياتى ، بمفهومها المتنوِّر ، لا المتهوِّر .. والمتَّزن ، لا المستهتر .. يُزجِيها اقتناع مُسْتَأنٍ ، ومُتأمِّل . ومُفكر .. كونته تجربتى ومعرفتى معاً .. ولسوف يَظل ممثلا فى حياتى « البُوصْلَة » التى أهتدى بها .. وأُعَوِّل عليها .. !!

* * *



الغـــرائزُ تتفـتّح ..
والجِنسُ يَترك بطاقَتَه !!

تمضى حياتنا عَبْر مراحل مُتفاوتة فى التأثر .. مُتباينة فى التأثير ..

وخلالها ، نكون كالورقة البيضاء بين اسطوانَتَى المطبعة ، تتلقى الحروف والكلمات من كِلَا الجانبين .. !! ويكون ذلك كذلك فى طفولتنا وشبابنا ..

وتبقى غرائزنا الكامنة فى طوايانا هاجعة .. مُنفعِلة وفاعلة ، وَفق قوانينها الخاصة ..

وغرائزنا قُوَى حيوية ، مسيطرة وآمِرَة .. والدخول معها فى مَعارك ، صفقة لا محالة خاسرة .. وأقْصَى ما نقدر عليه من أمرها ، هو ترويضها .. وللدين فى هذا الترويض وسائله .. كما أن لعلم النفس محاولاته . لكن مجاوزة الترويض إلى القتال والصراع يُفضى إلى شر ما يصيب المرء ويُمزقه .. !!

تلك حقيقة لا يَزيغ عنها إلا جاهل أو هالك ..

وما أكثر الغوائل التى نوفرها على شبابنا الغَضّ ، لو أننا كشفنا غطاءها .. وتَلَوْنا عليه نبأها ..

فأنت أيها الشاب فى كل زمان ومكان ، تستطيع إذا استمسكت بحقك فى أن تعرف .. وبحقك فى أن تتفاهم مع غزائزك بدلا من أن تُصارعها ، تكون قد أسْدَيت لنفسك خيراً كثيراً ..

وتـكـونُ لَـيْـلَاكَ الـتـى أَحْـبَـبْـتَـهـا
أَمَّـا رَؤومًـا فـى مـعـاطِـفـهـا الـيُـمْـنُ
تـتـطـوّع الأيـام عِـطـر حَـنـانـهـا
ويـروقُـكَ الـخُـلُـق الـمُـؤَثّـلُ والأمْـنُ

* * *

وتتفتَّح غرائزنا حين يجىء وقت إهلالها .. ـ ثم وَفْقَ طريقتنا فى استقبالها ، يكون خبرها أو إعْناتُها .. !! والويل لمن يُخطىء فى أسلوب التفاهم معها ..

ولْنَضرب مثلا بغريزة الاقتناء والتملُّك .. إنك إذا تركْتَها تفرض نفسها عليك دون محاولة منك لتَرْويضها وتَعْليتها . حوَّلَتك إلى كلب مسعور فى طلب الثروة بكل أزيائها ، وأمسيت مَلكا من مُلوك

الجشع والشره ، والشح . . لا تبالى بمصدر ثرائك واقتنائك ، حلالاً كان أو حراما . . بل إنك ترحب بالحرام أكثر من ترحيبك بالحلال . . لأن الحرام كثير ، بينما الحلال قليل . . والحلال يتطلب حصانة نفسية وأخلاقية محفوفة بالمكاره ، . . بينما الحرام يوعز بالانفلات المحفوف بالشهوات . . !!

وما يقال عن « غريزة الاقتناء والتملك » يقال عن بقية غرائزنا ونزعاتنا . .

ولغريزة « الجنس » من التأثير الضاغط أكثر مما لزميلاتها الأخريات . . وهى حين تبلغ « سِنّ الرُّشد » ، تبلغ فى الوقت ذاته « سِنّ الغَىّ » . . !! فتُملِى ـ كما يُملَى لنا . . !!

ولا يعرف دينا ، ولا فلسفة عالجت أمر هذه الغريزة كما صنع الإسلام ـ الدين الوسط ـ فى كل مذاهبه ، وعِظاته ، وتوجُّهاته . .

فهى بين يدى الإسلام ، لا تعُودُ شرِسَة ، ولا شَكِسَة . . لا مُتَغَطرِفة ، ولا مُتَغطرِسة . . ولا جَشِعة ، ولا نَهِمَة . . بل ولا قَاطِبة ، أو عَابِسة ، أو مُكْفَهِرَّة . . !!

هذا ، عندما نُجيد فهم الإسلام ، ونعرف مقاصده وغاياته . . وحكمة تشريعاته . ونُعايشه فى آفاقه الطُّلَقة ، لا فى أنفاقنا المغلَقة . . !!!

* * *

ومثل ما يحدث لأى شاب فى بَواكِير شبابه ، ونَاشِئة مراهقته ، حدث لصاحبنا . . وهو لا يذكر الآن كيف كانت البداية . . لكنه يذكر أنه صَحَا ذات يوم من نومه ، ليرى آثار ما رآه فى حُلمه « . . . » ثم رَكن بعدها إلى ما يركن الفتيان إليه فى مثل سِنّه . .

ويصادق فى شغف مُتَنام مع الأيام ، ما يُسَمَّى بـ « العادة السِّرِّية » . . أو ما تَنْعَت الشريعة صاحبها بأنه « نَاكِح يَدَه » . . !!

لقد أخذت غرائزه ـ إذن ـ فى التفتّح . . وطرَق « الجنس » بابه ، وترك له بطاقته . . مُرَحّبا به كواحد من رعاياه . . !! وكمُواطِن فى جمهوريته المقتدرة ، المتمادِية . . المقتحمة ، والغامضة . . الحكيمة ، والطَّائِشَة ، المنعشة والمشَوِّشة . . البصيرة ، والضَّرِيرة . .

وبعبارة واحدة : « جمهورية الجنس » وكَفى . . !!!

* * *

استقطَبتنى العادة السِّرِّية إذن ، وراحت تَستحوِذ علىَّ شيئا فشيئا . . والْملعُونَة فى سن المراهقة سِحر لا يُقاوَم . . لكن المسحور لها والمبهور بها يدفع الثمن غاليا ـ من أثمن عطايا الله له . . من عافية نفسه ، وعافية جسمه ، وعافية عقله ، وعافية ضميره . . !! ذلك أنها لا تَردُّ يدَ لامس . . ؟ !! وإتيانها ميسور كل اليسر ، فى أىِّ مكان وأىّ زمان . . !!!

ولن أنسى فى حديثى المختنق عنها ـ تلك الطُّرفة المُسَرِّبة والمضحكة . . !!

ففى تلك الأيام ، كان أخى « الشيخ حسين » قد انتقل من مسكنه بالجيزة إلى شقة أخرى بحى « الصَّليبة » قريباً من القلعة . . كما كان « يوسف » أخى رحمهما الله رحمة واسعة ، قد انتقل من مسكنه بمصر الجديدة ، إلى مسكن آخر بالدِّراسة . . وكانت إقامتى مع أخى « حسين » مع التردد

أحيانا على أخى « يوسف » والمبيت معه ..

كنّا ننام معاً فوق سريرٍ عريض وفسيح ، ويَضمُّنا غطاء واحد مُسْدَل وعريض ..

فى ليلة من تلك الليالى أُرِقْت ، وتَجافى النوم عنى .. وأَخَذَنى الحنين إلى العادة الملعونة ..

كان منتصف الليل يحتوينا .. وأخى « يوسف » مِستغرق فى « أحلى نومه » .. واسترسَلْتُ فى عَبثى .. ؟ .. وإذا لوح خشبى من « مُلّة السرير » يهوى إلى الأرض ، وإذا بقية الألواح تَتداعى له وتتضامَن معه فى فَرْقعة شديدة ، وإذا بنا ننطرِح أرضا فوق الألواح الممتقعَة .. وحرَّك المشهد الأليم مَغايِظ أخى الذى صرخ فى وجهى قائلا :

يعنى الهِباب اللى بتعمله ده ، ما حَبَكْش إلا دلوقت .. ؟؟ !! وراح يُرغِى ويُزِيد ، وأنا أكتم ضحكاتى - ثم قلت له :

يا أخى أنت السبب .. لأنك لم تخبرنى أن سريرك هذا ، عضو فى جمعية مكارم الأخلاق .. !!!

ولم أتركه حتى ضحك ، ونزعنا المرتبة من الألواح المشتبكة معها .. ونمنا فوقها على الأرض الطيبة ..

* * *

لا تظنوا أننى بهذه المشاهد ، أقدم لكم طرفا مما يُسمَّى « أدب الاعتراف » .. فهذا النوع من الأدب أرفضه تماما .. ولا أراه إلا من لَغْوِ الحديث .. !!!

ثم إنه وإن بدا من أماثِر الشَّجاعة الأدبية ، فهو فى التحليل النهائى له ليس إلا محاولة لتبرير الخطأ الخُلقى .. كما أنه محاولة للنزوع من أرض الغُرْبَة إلى الالتحام من جديد مع المجتمع والناس ..

أو كما يقول الفيلسوف « برجسون » وهو يتحدث عن « كرسى الاعتراف » الذى يُعتبر واحداً من طُقوس الكنسية :

— ليس فى كرسى الاعتراف بَركَة غير منظورة ترد المخطىء إلى تعاليم دينه ووصاياه .. إنما هو تفريغ لما يثقل ضميره من الخطايا .. ومحاولة لإخراج خطاياه من السِّر الذى يُؤَرِّقه إلى العلانية المطمئنة .. والقسِّيس الذى يعترف المخطىء أمامه ، يبدو له وكأنه ممثل المجتمع كله أمام المعترِف .. فهو لا يتحدث إليه وحده باعترافاته .. وإنما يتحدث إلى الناس كلهم .. وهكذا تستريح نفسه ، وتهدأ خواطره ، ويلتحم بالناس كواحد منهم .. بعد أن يكون ، أو يظن أنه قد سَلَبهم وحرقهم من شغَفِهم بالغمز واللَّمز .. لقد عَرَّى أمامهم أخطاء ، فلم يَعُد يُبالى بهم ، أو يتخوف منهم .. !!!

* * *

وأدب الاعتراف - على فرض أنه مقبول - لابد أن يُحكَى فى أضيق الحدود ، مُراعِياً الأعراف ، والقِيم ، والتقاليد ..

فليس لـ « أبى نُواس » أىّ حق فى أن يحدثنا عن الغلام الذى نَسِىَ أن يُعيد أزراره إلى مكانه « ... » فمكَّنه عند الصباح من فَضْحِه والتشهير به .. !!

وليس لأديب فرنسى كبير مثل « اندريه جيد » أن يحدثنا عن عَبثه وهو طفل ، مع قريبه الطفل

أيضا .. تحت مائدة الطعام .. ثم يحدثنا عن « المِثْليَّة الجنسية » التي صاحبت حياته كلها .. حتى أصابه مرض الموت من جراء سقوطه على الصخر وهو يطارد غلاماً شَهِيًّا بين شجرات الأَرْزِ فوق جبال لبنان .. !!

لا أدب الاعتراف ، ولا أدب «العُرف» يسمحان بهذا .. بل إنه ضِدّ طبائع الأشياء .. !!

فأنت تستطيع أثناء جلوسك وسط حشد هائل من الناس أن تخرج « منديلك » من جيبك ، وتتمخط فيه دون حرج أومَلامَة !!

بيد أنك لا تستطيع أن تَنْتَبِذ منهم مكاناً قَصِيا داخل حشدهم ، وتتبوَّل هناك .. !!

لمــاذا .. ؟؟

والمُخاط كالبول ـ كِلاَهُما من نِفَايات الجسم ؟؟ !

لا شك أن محاولتي تِبيان الفارق بين النِّفايَتين ، اتهام لذكاء القارىء .. بل ولما دُون الذكاء بكثير ..

* * *

ثم ماذا يُفيد الناس من أدب الاعتراف ، إذا حدثهم صاحبه عن ليلة « حمراء » قضاها مع فتاة غُرِّر بها .. ؟ ! أوعن ليلة « صفراء » قضاها مع زوجة جاره .. ؟ ! أوعن ليلة « سوداء » قضاها مع زوجته النافرة والمشاكِسة .. ؟ !

من أجل ذلك : نهى سيدنا رسول الله ﷺ عن مثل ذلك .. واعتبره نوعاً من المَجَانة المرفوضة ، فقال ما معناه :

وإن من المجَانة أن يبيت الرجل مع زوجته ، فيصبح يتحدث إلى الناس بما كان من أمرهما ، فيفضح نفسه ، وقد بات في ستر الله تعالى .. !!

بل أنه عليه السلامُ يوقع عقوبة الجلد على من يقذف الأخرين ، حتى ولوكان صادقاً في قَذفِه .. !!

إذن هناك أخطاء لا يُسمح بإشاعة الحديث عنها ، فكيف إذا زيَّنتْ نفسها بعبارة « أدب الاعتراف » .. ؟ !!

* * *

ولْنعُد إلى موضوعنا ..

قلت إن التعبير الذى اخترتُه للنشاط الجنسى ، تمثَّل فى « العادَة السِّرية » .. وهى « سِرِّية » فى اسمها وفى ممارستها .. لكنها جَهيرة فى آثارها .. فترى مُدْمِنَها كالمغشِيِّ عليه من الموت .. قد غارت عيناه وانطفأ بريقها ، وتَغضّنت شخصيته ، وانهارَتْ إرادته ، وهَزُل عقله .. وغامَتْ أو غَابَت ذاكرته ، وشُلّ طموحه .. وخَبَتْ مصَابيحه .. ثم إن الإقلاعَ عنها يحتاج إلى جُهد جهيد ، كان من الخير أن يُستثمر فى مجال آخر مما تنمو فيه الشخصية وتزكُو ..

ولقد واجهت هذا المأزق حين أخذت أُنفق أكبر جُهدى وجهادى فى قمع ذلك الوافد الثقيل

والمرذول . . وأفلحت فى تقليم أنيابه ، لكننى فشلت فى انتزاعها ، أوتَهْشِيمِها . . !!

ورُويْداً ، رُويْدا ، رُحت أحقق بعض الانتصارات « الْوَهْنَانَة » . . وشَغَلْتُ نفسى بما عساه يكون وراء هذه المحنة من أسباب . .؟

●● أيكون السبب تلك الصّرامة التى أحاطت بطفولتى . . طيّب . . هناك أطفال غُذُوا بالتّدليل والرفاهية . . ومع ذلك ، فهم فى مراهقتهم تصطادهم نفس الشّباك . . !!

●● أيكون أثر من آثار « الطّفرة » التى تقذف بنا فجأة ـ رغم التدرُّج الخَفِىّ لنمونا ـ إلى عالم جديد ، سَاخن ، ومتطلع ، وشَهِىّ ، ومُغَايِر . . ؟ !!

●● أيكون ، إفلاس التربية بكل وسائلها ، فى جمع الشباب ـ فوق أرض مشتركة ـ مع مطالب مرحلة شبابه ، وإذكاء روح الحرية الملتزمة ، وإنعاش وجدانه بكل البدائل الصالحة والمُناسبة . . ؟ !!

●● أيكون الافْتِيَاتَ على حقه فى توفير الصحة النفسية والجسَدية له . . ؟ !!

●● أم يكون فراغ الشّاب الطموح المتزن الذى يختار له أحلامه ورُؤاه ، ويَضع يده فى يد مثَل أعلى يُناسبه ، فيشد أزْرَه . . ويضع عنه إصْرَه . . ؟ !!!

حول هذه المعانى رُحت أُدَنْدِنُ ، وأبحث . . وأعترف ـ مسروراً مَحْبُوراً ـ أننى انتفعت كثيرا بهذه المحاولة . . وكان أوْلَى بركاتها علىّ أنها أخرجتنى من « القُمْقُم » باعتبار المحنة شخصية وذاتية ، إلى الرُّحب والسَّعَة ، باعتبارها مشكلة عامة يشترك كل الشباب فى بلائها . . ومن ثَمّ يجب أن يشتركوا جميعاً فى دَفْعِها ، وتوفير جميع الوسائل المُفْضِية إلى الشفاء منها ، والإقلاع عنها . . ؟ !

وهكذا ، بعد أن أمْضَيتُ زمناً فى محاولة قَمْعِها ، أدرت « مُدافعى » عنها إلى البحر . . واخترت أسلوب « التفاهم » معها . . ولكى يحقق نفعه ، كان لابد أن يجرى الحوار بيننا بـ « لُغة مشتركة » ، هناك عكف على قراءة بعض المؤلفات فى « علم النفس » . . بيد أنها ـ وإن أفادت فى شرح المشكلة ، وتبيان أسبابها ووسائل الانتصار عليها ، فإنها فى ذلك الوقت بالذات لم تُفْلِح فى انتزاع المَرارة والنّدم اللّذيْن كان يُغِصُّ بهما حَلْقِى . . وكانا يتمثّلان فى هذا السؤال :

ـــ لماذا تركت هذه « الملعونة » تستدرجُنى ؟؟؟؟ صحيح أننا لم نجد فى مدارسنا ومعاهدنا ، ما يُفتح أعيننا على ذلك المجهول ، الذى سيفاجئنا ، ذات يوم ، أوذات ليلة . . دون أن نكون قد سمعنا كلمة واحدة تعرفنا بخطره وبشراسَة إغرائه . .

ولكن . .

ثم لا يجد كلاما أضعه بعد « لكن » هذه . . !!!

وأعود أسأل : لماذا . . ؟؟

ويعود نفس التعقيب . . وأمضى فى الحلقة المفرغة . . لاعِناً الذين وضعوا مناهج التعليم لمرحلتى الطفولة ، والمراهقة . . !!!

وتلومنى نفسى : لماذا تتجنّى عليهم . . أليس مُحتملاً أنهم آثروا ذلك حَذراً من أن يتعجَّلوا إيقاظ مشاعر « الجنس » فى الطفل ، والفَتى . . ؟؟

وأجيبها بالمَثل الشَّعبى القائل : ـ هذا قُصْرُ دِيل يا أزْعُر » . . !!

فما أشبه ذلك ، برجل يعلَم علم اليقين ، أن عَدوًا لك يرصُدُك ويتربص بك فى خَفاء الطريق ، لينقَضَّ عليك ويقتُلك . . فلا يُخبر المسْتَهدَف بالمصيبة التى تنتظره . .

لماذا ؟؟ خوفاً عليه من الخوف . . أو حتى لا يتعجل مخاوفَه . . مُؤثِراً أن يدعه يلاقى مصرعه ، وهو مُطمئن وَقُور . . !!!

* * *

أفأت علىَّ مطالعاتى الطفيفة والخفيفة فى « علم النفس » حباً جَمًّا له ، وثقة وطيدة به . . فأقبلت عليه اقتناءً وشراء بما كان يتسع له جَيبى . . كما رُحت أقرأه ـ عَلَلًا بعد نَهَل ـ فى مؤلفات عربية ، وأخرى مُعَرَّبة . .

وما أخذته من نفعه ، ومَزاياه ، يتجاوز كل وصف ، وكل تقدير . . حتى لقد تملكتنى الرغبة ـ بعد تخرجى فى الأزهر وحصولى على أعلى شهاداته ـ أن أبدأ الدراسة من جديد فى شتى المراحل حتى أتخرج « طبيبا نفسيا » ؟ !!

وحتى كنت أنعَتُه بأنه ـ « وَارِثُ الأديان » . . ليس وارِثَها فى العقيدة ، أو فى الشريعة . . إنما فى علاج النفس البشرية . وارْتِيادِ مَجاهِلها . . وكَشْف خَبْئِها . . ولعله فى هذا يكون مِصداقاً لقول الله عز وجل : ـ

﴿ سنُريهم آياتِنا فى الآفاق ـ وفى أنفُسِهم ـ حتى يتبيَّن لهم أنه الحق ﴾ .

فعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، واكتشاف الغرائز والنزاعات ، وظاهرة « التلباثى » وهى الرؤية عن بُعد ، والسمع عن بُعد ، والإيحاء عن بُعد . . وأمثالُها معها ، مجرد أولَيات لما سيكشفها العلم كافّة ، وعلم النفس بخاصّة ، من أسرار أنفسنا التى أودعَها فينا خالِقُنا وبارئُنا ذو الجلال والإكرام .

ولسوف يأتلِفَان ويمتزجان فى وعيى وخاطرى ـ الدين ، والعلم ـ حتى يهديانى معاً إلى الصواب ، وإلى الاعتصام بهذا الصواب من كل هَرطَقة ، وسَفْسَطَة . . ومن كل حَيرة ، وبَلْبَلَة . . وحتى يُسْلِمانى إلى اقتناع لا أبيعه بملء الأرض رغَبا ، ولا بمِلْئِها رَهَبا . . !!!

وآنئذ ـ لا قَبْلَئِذ ـ تُواتينى الطمأنينة على أن « زَوْرَقِى » يتهادى بسلام فوق الموج الهادر . . ويُقاوم ـ وهو يبتسم ـ كل إعصار مُغامِر . .

* * *

فى نفس الوقت الذى استغرقنا فيه حديثنا هذا عن النفس وعَثَراتها . . كان نَشاطى السياسى ـ فكرا وعملا ـ يُواصِل مسيرته . . ويحمل رايتَه . . وكان حزب « مصر الفتاة » بقيادة زعيمه الراحل الكريم « أحمد حسين » يتولَّى كِبْرَ المعارضة لحزب الوفد ، ولحكومته . .

والحديث عن « مصر الفتاة » وزعيمها . . ذُو شُجون . . وهو خَليق بكتاب ، بل بِكُتب تَروى نَبأه العظيم . . وليس مجرد حلقة ، أو حلقات ضِمن هذه المُذكرات . .

لم أكن عُضواً عاملاً فى هذا الحزب .. ولكن لم يكن فى مصر كلها شاب ، لم يشغل الحزب تفكيره . يستوى فى ذلك المؤيدون له ، والمعارضون ..

وإنى لأذكُر أول زيارة قمت بها لدار الحزب .. وأول خطاب استمعت فيه لزعيمه .. ولا أدرى ، لماذا لا تغفو ذاكرتى عن مشهد بدا لى غريبا .. فما هو إلا أن دخلت القاعة التى اكتظَّت بالشباب فى انتظار الأستاذ « أحمد حسين » حتى أبصرت فى صدرها « كُرسِيا » عاليا ، أقرب ما يكون شبها بـ « كرسى العرش » الذى كان يُؤَثَّل على نمط فريد لا يُباح ولا يُتاح لغير الملك ..

وظل هذا « المقعد الملكى » يشدُّ إليه خواطرى طوال الوقت الذى ننتظر فيه مقدم الأستاذ .. ورحت أسأل نفسى :

— أهذا نوع من الزَّهْوِ والاستعلاء ؟؟ أم هو أحد التَّحدِّيات التى كان الحزب وزعيمه يتحدَّيان بها الملِك « فؤاد » ، ومن بعده الملك « فاروق » ؟؟ .. كان « أحمد حسين » يُغار على زعامته .. وكانت هذه الغيرة تدفعه إلى العُنف فى خصومته .. ولن أنسى أحد مقالاته ، ضد « النقراشى باشا » وهو يومئذ وزير للداخلية .. إذْ جعل عنوان ذلك المقال :

« إنى أحـتقـر النقــراشى »

« وهو يعرف لماذا أحتقِرُه » ...

ثم فجّر فى موضوع المقال وكلماته كل الشَّتائِم والسُّخائم والنقد المحرِق ، كلَفْحِ الحميم .. ولنا ـ إن شاء الله تعالى ـ لقاء قادم مع الراحل الكريم الأستاذ/ « أحمد حسين »

* * *

أيامئذ ، وبعد مغادرتنا السجن ، كانت لنا جولات بين الأندية السياسية ، ودور الأحزاب .. وكانت لنا مُظاهرات آناء الليل ، وأطراف النهار .. كانت تُضيف إلى قوانا النفسية جديدا من العزم والاعْتِزاز .. وتُضْفِى علينا شُعوراً غامِراً بأننا سادة وقادة وأحرار ... !!!

وفى إحدى هذه التظاهرات ـ التى بدأت من ميدان الأوبرا ، وتَمادَت بنا ، أو تمادَيْنا بها حتى ميدان « عبده باشا » بالعباسية ، لم نكد نقترب من مدرسة الفنون الصناعية الثانوية ، حتى تَرامَت هُتافاتنا إلى أسماع طلاَّبها .. فإذا بهم يلقَوْننا خارج المدرسة فى مظاهرة انتَظمتْ جميع طلبتها .. ثم إذا بهم يقطعون علينا الطريق ، ويُكرهوننا على دخول المدرسة أو المعهد ، لعقد مؤتمر طلابى بداخلها .. !!

كنت قد أصبحتُ ذا شُهرة فى الخطابة تسبقنى إلى كل مكان .. وهكذا دورى فى الحشد الذى غَصَّت به أفنية المدرسة ، صوت ينادى : الشيخ خالد .. الشيخ خالد ..

والتقت الأصوات كلها كدقَّات الطُبول ـ تنادى : الشيخ خالد .. الشيخ خالد ..

وجِىء لى بمقعد مرتفع ، فَعَلَوْتُه ..

لم يكن فى خاطرى أن هذا الموقف ينتظرنى .. أو أننى سأرحِّب به وأستجيب له إذا فاجأنى .. ولكن مقاديرى السعيدة ، كانت كأنها تُدَرِّبُنى على الخطابة ، وتُعِدُّنى ليوم ، بل لأيام قادمة ستكون أسعد أيامى .. وسأظل أقول عنها كلما طوَّفَتْ بخاطرى ..

« لَيْتَهـا دامَتْ » ؟؟ !!

بدأت كلمتى بهذه العبارة التى فجّرت حماسهم وإعجابهم :

ــ إننا نسمع الأمثال تقول : « الجنُون ، فنُون »

ولكنى لم أكد أبصر حماسكم ، وأشهد وجوهكم ، وأسمع هُتافاتكم حتى قلت لنفسى : إن هذه العبارة مقلوبة .. وأن وضعها الصحيح هو : « الفُنون ، جُنون » ... !!

وهذا المطلع من كلمتى هو وحده الذى اختزَنْته ذاكرتى .. !! ثم توالَتْ كلمات الطلبة ، واتخذوا فى ختام مؤتمرهم الطارىء هذا ، بعضَ القرارات ..

* * *

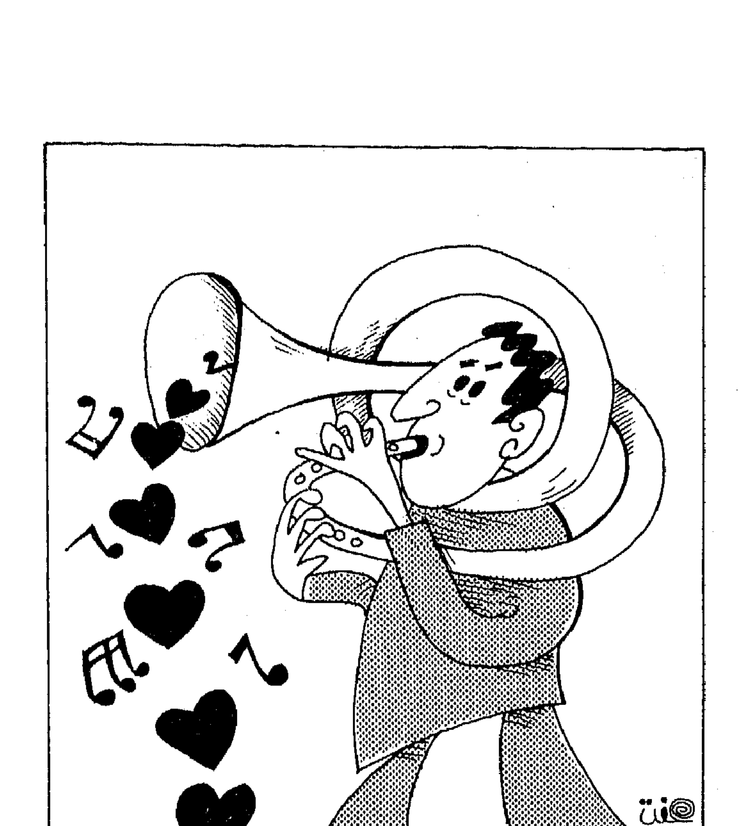
كل تلك الأيام والأحداث كانت ، وحكومة الوفد ناهضة بأعباء الحكم ، تُخرج للمعارضة لسانها .. وكأنها تقول لها : ـ « عَلى قَلبك ، لِطَالُون » .. ؟

وهو مثل شعبى يردده من يرفُض أن يتزحْزَح عن مكانه الذى يحاول آخَرون أن يخلعوه منه .. !!!

بيد أن المعارضة كانت فى تَزايُد مُستمر .. ولها كل يوم مزيد من الأنصار .. وكانت « السَّراى » تُباركها وتُساندها ، لا سيما ، والملك « فاروق » يومئذ كان محبوبا من الشعب ، وقريبا من قلبه ، ومَحْبُوًّا بولائه ... !!

حتى جاء اليوم المنتظر ، والمرقُوب ... ؟؟

* * *



الجمال .. والحب .. والفن فى حياتى ؟ ..

قلت إننى مضيت أعايش العمل السياسى من خلال المعارضة لوزارة الوفد برئاسة « النحاس باشا » رحمه الله تعالى .. حتى جاء اليوم المنتظر والموعود ..

ولكن . لا .. فذلك اليوم الذى أعنيه لم يُهِلّ بعد .. ولابد من عودة إلى السنين الخوالى ، لنقُصّ أيامها ، وأحلامها .. ونتسمّع نَبض الحياة فى خُطى نُموّها .. !! ثم لنرى مشيئة الأقدار فى اختيار مصائرنا ..

● فماذا كان أثر الجمال ـ كل الجمال ـ فى حياتى .. ؟؟

● وكيف سقانى « الحب » من كئوسه الشهيات والمترَعات حتى رَوانى .. ؟؟

● وكيف لقيت « الفن » ـ على غير موعد ـ وتَبادَلْت معه عشقاً لا يبلَى ، ولا أظنه سيبلى ، حتى آخر أيامى .. ؟؟

ذلك كله مما لابد لهذه المذكرات أن تتضمّنه ، وتَبُوح به ، وتروى نبأه ، فى غير تلعثُم ولا كِتْمان ..

والآن : إلَيْنا ، يا من أتعبكُم الظلام .. !!

* * *

عن الجمال :

الجمال زينة الحياة الدنيا .. بل زينة الكون كله .. !!

وإن ربنا جل جلالُه لَيمنّ علينا بهذا الجمال الذى اتّشَحَ به كَونُه العظيم .

لننظر قوله تعالى :

﴿ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ﴾ .

ثم يقول فى آية أخرى من كتابه الكريم :

﴿ وزَيَّناها للناظرين ﴾ ..

فَربْط النظر بالزينة توكيد لما للجمال والبَهاء من مكانة حتى فى مجال الإيمان والعبادة !!

﴿ ولقد جعلنا فى السماء برُوجاً ، وزيَّناها للناظرين ﴾ .

﴿ إنا زيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى ، قد وشّح السماء بالجمال والزينة ليستمتع بها الناظرون .. فأى شأوٍ

بعيد حَظِّىَ به الجمال فى دنيا الناس ؟؟ !!

* * *

ولقد كان من آداب الإسلام وفضائله ، حَثُّه الولاة والحكام ، إذا أرسلوا رسولا من بعض المهامّ السياسية أو الدينيـة ـ أن « يستَصْبِحوا » الوجوه . . أى يختاروا مبعوثهم من الذين تكسو وجوهَهم النُضْرَة والبَهاء ، والوقار الأنيق . .

والذين يَضيقُون بمثل هذا التفسير ، ويحسبونه جَهْراً بالسوء من القول لا نملك لهم إلّا الرِّثاء . .

وإنا لَنهْدى إليهم قول الشاعر العربى :

والـذى نـفـسـه بـغـيـر جَـمـال
لا يـرى فى الـوجـود شيئـاً جميـلا

فَمن عساه يكون هذا الذى يستوى نبضه وشعوره تجاه القبح والجمال ؟؟ إنه الذى أجدَبت روحه ، وتصحّر وجدانه . . فليس فيهما وردة ، ولا زهرة ، ولا نَبْتَة رَيَّانة خضراء . . !!

* * *

ولقد أحببْتُ الجمال ـ ولا أزال ـ حباً ملأ شغاف القلب وأيقظ كل رؤى الخيال . . أحببته فى كل مَواطِنه ونماذجه . .

فى الأزاهير المُزْهَوَّة بحسنها وعبيرها . . فى النبات الأخضر يُبلّله قطر النَّدَى . . فى الحجَر المشَذَّب يشدُّ أزر الجدار . . فى « تكعِيبة » العنب على حوافى الحديقة ، تُغرد فوقها العصافير والأطيار . . فى الليل إذا يغشى والنهار إذا تَجلّى . . ثم أُحبه ، وأُحبه . . وأُحبه فى وجه الإنسان . . لَكأنى و . . « تولُوسْتُوى » فى هذا « المَشْعَر » توأمٌ ، أو شقيقان . . !!

فلقد رَوى . . مكسيم جوركى « أنه كان يسير ذات يوم بصحبة « تولستوى » فى أحد شوارع « بُطْرُسْبُورْج » وإذا شابان وَسِيمَان يَرتديان ملابس الجندية ، فارِعاً الطول . . رَشِيقاً الخطَى . . على شفاههما ابتسامة كضوء الفجر . . يقابلانهما فى الاتجاه العكسى من الطريق . .

وما إن وقع عليهما بصر « تولستوى » حتى سُمِّرت قدماه بالأرض ـ وراح يرمُقهما فى انتشاء عظيم . . !! وحين أصبح الجميع وجهاً لوجه تقدما من « جوركى » وتولُسْتُوىْ » وصافحاهما ثم استأنفا سيرهما ، فالْتفت « تولستوى » نحوهما ، مستغرقا فيما سكَباهُ فى روحه من حب وفُنون وإعجاب . . !!

ولم يُخرجه من سُباته إلّا ذراع « جوركى » التى تأبّطت ذراعه وحرّكَتْ خُطاه . . وإذا هو يقول بعد أن صَحا من حلمه الجميل :

ـــ . . أنظر يا جوركى . . ما أروع جمال الإنسان . . ومعَ ذلك ، فإن أصدقاءك الملحدين يشقَوْن فى البحث عن دليل على وجود الله وعظمته . . أوَلَمْ يكْفِهِم هذا الدليل . . ؟ »

* * *

ولعلكم تعجبون ـ إذْ تعلمون ـ أن أول شغف لى بالجمال كان مع أطباق الأكل على مائدة الطعام . . !!

ذلكم أن أبى رحمه الله تعالى كان يحب التأنّق فى اختيار ما يقتنى من حاجات .. وعندما تزوّج اشترى .. « طاقما » من الصينى الفاخر .. ولا أدرى كيف عشقته ذلك العشق الوثيق . بل ولا أذكر متى ولا كيف انْسابَ فى وجدان الطفل الغَضّ الغرير .. ؟

إن الأشياء التى تبدو لنا هامشية وصغيرة ، كثيرا ما تلعب فى تكويننا دوراً كبيراً .. !!

فمع النمو البطىء والحثيث لطفلنا « خالد » جاء اليوم الذى أحس فيه بالصداقة الحميمة مع الأطباق الجميلة ، والملاعق المجلُوّة .. لا سيما « طبَق الثريد » .. كان أكثر البيوتات فى القرى تستخدم للثريد وعاء كبيرا من النحاس ، يسمونه « الأَنْجَر » .. أما ثريدنا فكان يتربّع فوق الطبق الصينى الذى يكفى منظره لفتح الشهيّات ..

ومن عجب أنه حتى يومنا هذا ، لا أكاد أجلس إلى المائدة حتى يتراءى لى ، وكأنه بين يدى .. وحتى أذكره ، فأشكره لأنه كان ـ فى تقديرى ـ أول ما حرّك فى وجدانى هواتف الشوق إلى كل ما هو جميل ..

وذات يوم ، وكانت والدتى رحمها الله تُعد طعام الغداء ، قالت لى : روح هات طبق « الفَتّة » أى الثّريد من الدولاب .. وهرولت سميعا مُطيعا .. وعدت بالطبق الحبيب . لكن عثرة طريق أسقطته من بين ذراعى ، فهو إلى الأرض حُطاما وهَشِيما .. وبكيتُه بُكاءً حزينا .. وقامت الوالدة ، فأحضرت « الأَنْجَر » وكانت تستخدمه فى الطوارىء .. وحان موعد الطعام .. وسأل أبى عن سر هذا التغيير ، وغياب طبق الثريد .. وعرف ما حدث للمسكين الذى غاب عنا إلى الأبد .. أما أنا فانفجرت بَاكِياً ، ومُضْرِبا عن الطعام .. وأنا أصيح : عاوز طبق غيره .. !!

ولبثت أياما لا أقرب الثريد .. وأنأى عن « الأَنْجَر » الذى يحتويه ، بل وشعرت بالحقد عليه .. حتى سافر أبى ـ رحم الله أبى ـ إلى الزقازيق ، وعاد يحمل طبقين من الصينى الجميل .. ووضعهما أمامى ، وهو يقول : خد يا سيدى .. هذا الطبق بدل الذى كسرته .. وهذا الطبق الثانى بديلاً للذى ستكسره .. وتضاحكْنا وعاد إلى نفسى حُبورها ورضاها ..

قد يعجب بعضكم لإفاضتى فى الحديث عن هذا المشهد ، ظانين أنه نَفْضُ ذكريات هشة .. أما أنا فأراها على قدر كبير من الأهمية حين نتتبع مسرى طفولتنا فى تكوين الإنسان ـ أى إنسان ـ ..

قد يكون الذى يربط الطفل بالجمال أو القُبح ، طَبقا .. أو ثوبا .. أو نَعلا .. أو قَلما .. أو وجها .. ولكنه مهما يكن رباط ، وعُروَة ، ولَبِنة فى البناء .. !!

ودَعُونا نكرر قول الشاعر :

والذى نفسه بغير جمال
لا يرى فى الوجود شيئا جميلا

* * *

عن الحب :

يقول شاعرنا العربى :

ومـا الحب عـن حُسـن ولا عن مَـلاحَـة
ولـكـنـه شـيء بـه الـروح تَـكْـلَفُ

يريد أن الحبيبين لا يجمعهما الحسن وحده ، ولا المَلاحة وحدها .. إنما يجمعهما أحيانا تلاقى الأرواح ، حتى حين يكون الحُسن والمَلاحة فى درجة « مقبول » .. لأن الأرواح العاشقة تُغطى ما غاب من حسن وجَمال ..

وحين يكون ذلك كذلك .. فكيف إذن الحب الذى يبتعثُه الجمال المسْكِر ، والرونَق المبهج .. ؟؟

لقد سعدتُ ، كما شَقِيت بهذا الرَّوْح والريحان من الحب العَبق ، والأيسر ، الجذْلان .. !!

ولِحُبى هذا قصة .. فتعالَوْا أحدثكم عنها ، متحمِّلا ما تُثيره فى نفسى من شَجن وآهات ..

* * *

● كان ذلك فى مطلع شبابى ..

● وكان « مُؤَمِّل » - إن كنتم تذكرونه - قد ضاع منى فى زحام الحياة ..

● وكان وجدانى وحُبِّى قد بلغا رُشدهما ، ووَلَّيا وجْهيهما شَطْر حب جديد « ... »

وكان فى قريتنا فتاة ، تقضى الأجازة الصيفية كل عام بالقرية مع أسرتها التى كانت تقضى بقية العام مع عائلها الموظف ببلد آخر بعيد .. !!

كانت وليدةَ بيت ذى سمعة طيبةَ طاهرة نَقِيَّة كعبير الورود .. !!

أما هى - وما أدراكُم ما هِىَ - فقد الْتقَتْ فيها عبقرية الجمال وعبقرية الأخلاق ..

كان حُبا من طرف واحد - هو أنا ..

ولو كنت أحفظ الشعر أيامئذ ، لما كَفَّ لسانى عن ترداد ما حفظته فيما بعد :

خـيـالُـك فى عـيـنـى ، وذكـرك فى فـمـى
ومـثـواك فـى قـلـبـى ، فـأيـن تـغـيـب ؟؟

أحببتها حبا ليس كمثله حب .. وما كان لى يومئذ أمنية من أمنيات الحياة جميعا سوى أن يجمعنا زواج سعيد ورغيد ..

وكان هناك زميل من أبناء القرية ينافسنى سِراً فى حبها .. وكل منا يحاول أن يكون أكثر من الآخر مكراً فى إخفاء أوراقه وكتمان نواياه ..

وانتهت الأجازة .. وغادر الجميع القرية ..

وكـنـتُ عـلـى وجـدٍ تـغـردتُ دونـهـم
فـلـلنـاسِ أشـجـانٌ ، ولـى شَـجَـنٌ وحـدى

* * *

ويوم سفرى إلى القاهرة عائداً إلى معهدى ودراستى التقيت على رصيف محطة الزقازيق بذلك الزميل المنافس تصافحنا ، ووقفنا معاً ننتظر القطار ..

ولكن حركات غريبة راح يصطنعها فى خبث وبلاهة .. فهو يجمع كفيه ، ثم ينفخ فيهما ،، ثم يفركهما ، ثم يقبلهما . وقَدْ رَنَا ببصرة نحو السماء قائلا : الحمد لله .. اللهم لك الحمد يا رب .. »

وأنا أتأمل حركاته هذه فى صَمت ، وعدم « مُبالاة » !! حتى إذا استَيْأَسَ من استجابتى لما أرى ،

قال : يا أخى مش تهنينى ؟؟

سألته : خيرا .. عَمَّ أهنيك ؟؟

قال ـ وكأنه يرطمنى بحجر قاتل ـ ليلة امبارح خطبت « ... » ، ذهبت وأبى وجَدّى ، ومعنا بعض الهدايا ، وقرأنا فاتحتنا .. وعاد يفرك كفيه ، ويُتَمْتِم ، ويُنَمْنِم ، ويُحملِق فى السماء ، ـ حامداً الله ـ ..

أما صاحبكم ، فقد غاصَتْ روحه فى قدميه ، ولم يدر فى ليل هو أم فى نهار .. حيٌّ هو أم ميت .. !!

وجاء القطار وحمله إلى المجهول .. !!

* * *

قضيت تحت وقع الصدمة شُهورا ، لا أفكر إلا فى حبى الضائع .. حبى الذى لم أَكَدْ أُحْيِّيه حتى وَدَّعا ولم يبق لى من علاج سوى المسَكِّنات .. فكنت أَهِيم فى الطريق مستعرضا الغاديات والرائحات ، سائلا نفسى : أنظرى .. أليست هذه أجمل وأحلى .. وهذه وتلك .. مُحَاولا أن أجد عَزاءً عنها ، وصبراً على فَقْدها ..

لكن نفسى المفجوعة والوالهة تجيبنى : أبدا .. ليس للتى فقدتَها مثيل ..

صدقونى : ما أنا بشاعر ، ولا مُبالغ .. وإنما أضع المشهد كله ـ ظاهره وباطنه ـ أمامكم . حتى لكأنكم الألى عاشره .. ولم يكن الصبر والسُلوان بُد .. ولكن بعد شهور كِثَار قَضيتُها فى حيرة وضَياع .. !!

وجاءت المفاجأة التَّعِسَة التى أُرْخِى بعدها الستار !!! ففى الأجازة التالية ، أى بعد عام من « ليلة الرصيف » لفظت الأكذوبة آخر أنفاسها .. وتكشفت الحقيقة ، فإذا الزميل « ... » قد خَدَعَنى وكَذب علىَّ .. وإذا الحقيقة أن والده وجده قد ذهبا لخطبتها ، فاعتذر والدها رحمه الله بأدبه الجمّ ، وخُلُقه الرفيع ..

ولكن ، لماذا كان كذب زميلى ؟؟

قلت لكم من قبل : إن المنافسة بيننا كانت تدور فى صَمْت وتكتُّم .. ولقد أراد أن يخرجنى من اللعبة بالضربة القاضية .. فكانت كذبته الكبرى التى أخرجتنى من المسابقة وأَرَاحته من منافس كبير وخطير ..

وجاءت ظروف وظروف أخرجت كلانا من الجنة .. إلى أن التقى كل منا بنصيبه المقدر ..

* * *

حين أُطالع فى الصحف ، أو أسمع من حملة الأنباء أن شابا أو فتاة . انتحرا أو انتحرت لفشلهما فى

الحب ، أذكر من فورى ، قصة حبى .. وأتمنّى لوكانا قد انتفعا بتجربتى .. !!

فحبنا الأول يجىء عادة فى سن المراهقة .. ومن الذكاء أن نعترف بأن أمد المراهقة فى بيئتنا كثيرا ما يتطاول ويطول .. وقد تجد بعضنا « مُراهقا » فى سن الأربعين .. ولا تعجب إذا قلت : فى سن الستين .. !!!

وحُب المراهقة يكون جارفا وأنانيا ، حتى يبدو المحبوب وكأنما حِيزَ له كل ما فى الدنيا من جمال ودلال وجلال .. هناك تَكْلَفُ الروح به ويحيا المحب فى عالم من المرايا .. فحيث ولّى وجهه لا يرى سواها .. وتستقر شيئا فشيئا فى « بُؤرة شعوره » مبهُورة ومُسيطرة ..

وإنه ليَظن ألاّ فِكَاكَ له من أَسْرها .. ويقع فى وَهْم كبير - هو صانعه وهو - إن شاء - ضحيته .. !!

فما واجبنا تلقاء هذا الحب الأول فى حياتنا ..

أولا : نتعامل معه برفق وأناة .

ثانيا : لا تحسب أنه الأول والأخير فى حياتنا ..

ثالثا : نمزجه بالصداقة ، فنرى فيمن نحب - الحبيب ، والصديق معاً .. فتخف الصداقة من ضَراوة المُراهِق ، ويستظل الحب بهدوء الصداقة ..

رابعا : تذكُر دائما أن الصبر من أكرم عطايا الله لخلقه . فإذا أخفق حبك وطُوِىَ كتابه ، فاستَعِن بالصبر .. ولا تحسبن الحياة قد انتهت ، أو الأرض قد كَفّتْ عن الدوران .

خامسا : وَثّق علاقتك بالغد .. فى الغد خير - لو عشت - كثير .

سادسا : لا تحجر على مستقبلك ، ولا تُوَدّع أَمَلك ..

فـالـلّيـالـى مـن الـزمـان حُـبَـالَـى
مُـثْـقَـلاتٌ يَـلِدْن كـل عـجـيـبـة !!

* * *

لقد سعدت بأول حب لى ، وشَقِيت .. بيد أنى آخر الأمر - لاذ بى زورقى إلى المَرفأ الأمين ، حين أدرتُ خواطرى حول الاعتبارات أو الوصايا التى ذكرتها الآن ..

ولقد يسأل سائل : ما شأن أزهرى بالحب ..

لكن الأزهرى يجيب :

يـا قـوم إنـى بَـشَـر مـثـلكـمُـوا
وفـاطـرى ربـكُـم الـفـاطـرُ
لـى كَـبِـدٌ تَـهـفُـو كـأكـبـادِكـمُـو
ولـى فـؤاد مِـثْـلكُـم شـاعـرُ

إن الحب فطرة ، وطبيعة . ومِن سُموّه وعدَالَته يرفض أن يكون سلعة ، أو صفقة ، أو احتكارا ..

إنه الأسمى ، والأعلى ، والأعدل ، والأمثل بين كل مكوِّنات الإنسان .. لا يستغنى عنه ذكر ولا أنثى .. ولا شاب ولا شيخ .. ولا صالح ولا طالح .. هناك فقط للصالحين حبهم الشريف ..

كما هناك للطالحين حبهم غير النضيف . . ولا يَغيض الحب فى وجدان إنسان . إلا تَحوَّل إلى شىء أبعد ما يكون عن الإنسان . .

أتسألون : أى حب أعنى ؟؟

أُجيبكم الحب كله : الحِسىّ والروحى . . ما اجتُنبت الكبائر . .

الحب الذى يقول فيه الشاعر لمن يُحب :

ولقد نزلتِ ، فلا تظنى غيره
منى بمنزلة المحَبِّ المُكرَم

والحب الذى يقول عنه الشاعر :

وألْثُم فاها ، كى تزول صَبابتى
فيشتدّ ما ألقى من الهيَمانِ
ولم يَكُ مقدار الذى بى من الجوَى
لِيَشفِيه ما تَرشُف الشُّفتانِ
كأن فؤادى ليس يَشفِى غَليلَه
سوى أن يَرى الرُّوحَين تَمْتَزجانِ

والحب الذى أنشده شعرا « كعب بن زهير » بين سيدنا رسول الله ﷺ :

بانَتْ سُعادُ فقلبى اليوم مَتبولُ
مُتَيَّم عندها ، لم يُفْدَ ، مكبولُ

والحب الذى غرد به الشاعر :

سألت الفَتى المكىَّ ، هل فى تَزاور
وضَمَّة مُشتاق الفؤاد جُناح ؟؟
فقال : معاذَ الله أن يُذهِب التُّقَى
تلاصُق أكبادٍ بهنَّ جراح !!

والحب الذى قال فيه الشاعر :

إذ كان حَظُّ المرء ممن يحبه
حراما ، فَحظى ما يحلّ ويَجمُلُ

حديث كماء المُزْنِ بين فصوله
عتاب به حُسن الحديث يُفصَّلُ
ولَثْمُ عذب اللَّثاتِ كأنما
جَناهُن شهد فُتَّ فيه القرنْفَلُ
وما العشق إلا عِفَّة ونزاهة
وأُنسُ قُلوب ، أُنسهُن التَغزُّلُ
وإنى لأستَحيى من التى
تَريب ، وأُدْعَى للجميل فأقبِلُ

* * *

لم ينته حديثنا عن الحب ، ولا عن تجربتى معه .. فلا يزال هناك الكثير الكاثر مما يقال .. ومما ينفع الناس الذين يُؤْثِرون الفهم على اللَّغط .. ويريدون أن يَتَبيَّنوا الرُشد من الغَيِّ .. والحق من الضَّلال ..

* * *

لا أزال أتحدث عن الحبّ ..

لم أرد أن أُقحم النصوص الدينية ، وأنا أحدثكم عن تجربتى مع الجمال ..

مثل قول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده ﴾

ومثل قول رسولنا عليه السلام :

« إن الله جميل ، يحب الجمال »

ومثل قول الله جلا جلاله ، وهو يُطْرى جمال أهل الجنة :

﴿ ولَقّاهُم نَضْرَةً وسرورا ﴾

﴿ وجُوه يومئذ ناضِرَة ﴾

ثم وهو ينعت نساء الجنة :

﴿ حورٌ مقصورات فى الخيام ﴾

﴿ وحور عِين ، كأمثال اللُّؤلؤ المكنون ﴾

والحور ـ البيض .. والْعِين ـ واسعات العيون والأحداق ..

ومثل قوله تعالى :

﴿ إنا أنشأناهُنّ إنشاء ، فَجعلْناهُن أبكارا ﴾ ﴿ عُرُباً أترابا ﴾

ومثل وصف الرسول عليه الصلاة والسلام لِبهائِهن وحسنهم :

« صفَاؤهُن صفاء الدُّرّ .. عَذارَى عُرُبا .. مُتعشِّقات مُتحبِّبات .. أترابا على ميلاد واحد .. أُلبس الله وجوهَهُن النور ، وأجسادَهُن الحرير . بيض الأجسام .. خُضْر الثياب .. صُفر الحُلى ، مَجامِرهُن الدّر .. أمشاطهن الذهب .. يَقُلن : نحن الخالدات ، فلا نموت أبدا .. نحن الناعمات ، فلا نيأس أبدا .. نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ـ طُوبى لمن كُنا له وكان لنا .. »

* * *

أقول : لم أكن أريد ـ ولا أزال ـ إقْحام شواهد القرآن العظيم والسنة المطهرة فى حديثى عن الجمال والحب .. وذلك حتى أرتع فى حدائقها دونما شعور بتأثم أو حرج .. وحتى أعبر عنهما وعن تجربتى معهما بحرية سَابِقة ، مادامت نائية عن الجَهْر بالسوء من القول ..

وحسبى إذا أردت اسْتِثْناسا أن نَقْطف بعض الأزاهير مما قاله فى هذا المجال بعض الكبار والصفوة من أصحاب الرسول الكريم ، ومن صفوة التابعين .. غير قاصد بهذا تزكية وجهة نظرى فى الجمال والحب .. ولأدْعمْ تجربتى التى تحتمل الصواب والخطأ ، بأقوالهم ورؤيتهم للحب وللجمال ..

* * *

فصاحبكم يرى الجمال زينة الحياة الدنيا .. ويرى الحب روح الحياة .

وإنى إلى حد مّا لَمع الشاعر القائل :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فَقُم . واعْتَلِف تِبْناً ، فأنت حمارُ !!

الحب كله فِطرَة .. وبقدر ما تكون الفطرة سويَّة ناضرة ، يكون الحب كذلك ..

والجمال مُثير الحب وموضوعه .. الجمال فى كل مَظهره ، وفى كل مَخْبَر .. لا يَفِرُّ من إساره .. ولا يَغْشَى من أنواره .. إلاّ تَعِسٌ ذميم !!

فإذا أنكره ناكر ، وسفَّهه بَغِيض ، فهو مريض ومرفوض !! ومن نَكِرَهُ ، وأوجس منه ومن الحب خِيفَة ، فهو خامد الشعور ، سَقِيمُ الوجدان .

ومن عجَب أن ترى بين المتدينين من يَختَصُّ الجمال والحب بالجنس والإثم ، فلا يراهما إلا من خلالهما . !!

فإذا سمعوا من يحيى الجمال ، ويحب الحب ، التهمته منهم نظرات حانقة خائفة .. !!

كأن الجمال لا يعنى إلا جسد المرأة .. وكأن الحب مغموس دائما فى عُكَارة الخطيئة والفُسوق .. !!

وكأن التعبير عنهما والحديث معهما إفْك من القول ، وفُحش وزُور .. !!

وهذا الشاعر فاسق ، لأنه قال :

وإن علاماتِ الجنانُ مُبينة
عليكِ ، وإن الشَّكلَ يُشبهه الشَّكلُ
تناهَيْتِ حسنا في النساء فإن يكن
لِبدرِ الدُّجى نَسْلٌ ، فأنت هو النَّسْلُ

وزميله الآخر أكثر فسقا ، لأنه القائل :

أنِيري مكان البَدْرِ ، إن أُفَل البدرُ
وقومى مقام الشمس ما استأخر الفَجْرُ
فَفِيكِ من الشمس المنيرةِ ضَوْؤُها
وليس لها منك التَبَسُّم والثَّغرُ

وثالثهم ، أوزَرُهُم لأنه يقول :

ولقد ذكَرتُكِ والرماحُ نَواهِلٌ
منى ، وبِيضُ الهند تقطُر من دَمِى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
بَرِقَتْ كبارق ثغركِ المُتَبسِّم

ويتبعهم فى النكر والإنكار من قالوا :

نظرتُ إليها نظرة فَهَويْتُها
ومن ذاك عقل سليم ولا يهوَى
وما سرَّنى أنى خَلِىٌّ من الهوى
ولو أن لى ما بين شرق ومغرب
ولا خير فى الدنيا إذا أنتَ لم تَزُر
حبيبا ولا وافى إليك حبيب

* * *

حدثتكم عن حبى العظيم - لفتاة قريتى الرائعة خَلْقًا وخُلُقا . . وحدثتكم كيف لَبِثت عاماً أو قريبا من العام أحاول نسيان حبى الذى أضاعه منى أكذوبة صديق . . !!

ولقد أحببت بعدها من ذوات قُرباى . . ومن غيرهن . . ولكن مَطالع النُّجح فى حبى كله لم تكن تُشرف أول النهار حتى تَغِيمَ آخِرَه . .

ربما لأنه كان حبا من طرف واحد . . أو ربما جاء مبكرا . . أو لعلّه كان مترددا ، وجبانا . . !!

على أية حال ومهما يكن من أمر ، فقد كان فى كل فقراته قصيدة عذبة وشهية . . وكان إحساسى به مشتعلا ومشويا . .

وفيما بعد حين أنزل ضيفا على « التصوُّف » الخالص والحقيقى وأنعم بحياة روحية عامرة وغامرة ستُطالبنى شعائر الحياة الجديدة ومشاعرها بنسيان تجربتى تلك . . ولَسَوف أحاول حتى أتبين سريعاً أن للجمال وللحب فى حياة التقوى ، وسُبُحات الروح مكانة أسمى وتأثيراً أقوى مما لهما فى حياة الحِسّ ودنيا الغرائز . . !!

وفى عصر التصوف « ذاك - سأقص عليكم نبأه بعد حين أقبلتُ فى شوق ونَهم على مؤلفات الإمام الكبير « ابن القيمّ » رضى الله عنه . . وكان من بينها كتابه « روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين » . .

كما أسلمنى كتابه هذا إلى كتاب « طَوْق الحمامة » للإمام النفيس « ابن حزم » رضى الله عنه » .

وفيهما ألتقيتُ بأمتع وأروع ما يمكن أن يكتبه عن الجمال ، والحب فقيهان كبيران ، وإمامان عظيمان من أئمة الإسلام . . !! وهما بادىء ذى بَدء - لا يُشايعان الجمال الشَّائِه ولا الحب الدَّنِس - ولكن كتابيهما مع ذلك يُعْطِيان الجمال حقه من الإجلال ويُجِلاَّن الحب دار المُقَامَة فى القلب . . !!

ولعلّك تنتهى بعد قراءتهما إلى الأخذ بقول الشاعر :

تَمتَّعوا بعيونكم فى حُسنها
وانْهَوْا جوارحَكُم عن الآثام

* * *

لننظر حب الجمال وقدْره ، وجمال الحب وطُهره ، فى وجدان وضمير الإمام العالم التقى النقى « ابن القيم » وهو يقول :

سألت فقيه الحب عن عِلَّة الهوَى
وقلت له : أشكو إلى الشيخ حاليا
فقال : دواء الحب أن تُلصق الحَشا
بأحشاء من تهوى إذا كنتَ خاليا
وتتّحد من بعد ذاك تعانُقاً
وتلثُمَه حتى يُرى لك ناهيا
فتقْضِى حاجات الفؤاد بأسرها
على الأمن مادام الحبيب مُواتيا
إذا كان هذا فى حلال فحبَّذا
وصالٌ به الرحمن تلقاه راضيا
وإن كان هذا فى حرام فإنه
عذاب به تَلقَى العَنا والمكَاويا

هذا رجل أرضى وأشبع حِسَّه « الجَمالى » وحِسَّه « الدينى » دون أن يُفْرِّط أحدهما على الآخر أو يَطْغَى . ؟ !!

ولم يرأى انتقاص لقدره فى هَدْهَدة الكلمات بنشوة الحب وعلة الهوى والْتِصَاق الحَشَا ـ والإتحاد فى عناق .. وقُبلة المشتاق .. مالم يكن هذا كله وبعضه فى حرام .. »

ورأيته يقول :

يُدمِى الحريرُ أديمها من مَسِّه
فأديمُها منه أرقُّ وأنعَمُ

أرأيتم وصفا غَزِلاً ، ونَسِيباً جَزْلاً ، كهذا النسيب ؟ !!

وإذن فليست كل تحية للجَمال إثما .. ولا كل إطراء لجميل وزرا .. بل دعونى أنقل لكم من « روضة المحبين » أبياتا من قصيدة طويلة للإمام « ابن القيم » يَتغنَّى فيها بجمال وبسحر الحُور العين فى الجنة فنرى فيها هُيَامه بالجمال والحب ، ونسمع الإيقاع نفسه للكلمات والتشبيهات ذاتها التى يرسلها الأحباب للأحباب فيضاً من مشاعر مُرهفَة ومن وجدان يتندَّى برحيق الورود والأزاهير . . . !!!

الشمس تجرى فى محاسن وجهها
والليل تحت ذوائب الأغصان
فيظلُّ يعجب ، وهو موضع ذاكَ من
ليل وشمس ، كيف يجتمعان

حُمر الخدود، ثغورهن لآلىء
سُود العيون فواتر الأجفان
ريّانة الأعطاف من ماء الشبا
ب فَغُصْنُها بالماء ذو جرَيان
لما جَرى ماء الشباب بغُصنها
حمل الثمار، كثيرة الألوان
فالورد، والتفاحِ، والرمان فى
غُصْنٍ تعالى غارس البستان
لكنهن كَواعِبٌ ونَواهِدٌ
فثُدِيُهُنّ كأحسن الرمان
والمعصمان، فإن تشأ شَبِّهْهما
بسبيكتين عليهما كفّان
والصدر متسع على بطن لها
والخصْرُ منها مُغرمٌ يشمان
والسّاق مثل العاج ملموم به
مُخُ العظام، تنالُه العينانِ
والريح مسك والجُسم نواعِم
واللون كالياقوت والمرجان
تستنطق الأفواه بالتسبيح إذ
تبدو، فسبحان العظيم الشّان
فَسَلِ المتيَّم هل يحل الصبر عن
ضمٍّ وتقبيلٍ، وعن هَيمان
وسَلِ المتيِّم، أين خلّف صَبره
فى أى واد، أم بأى مكان
وسَلِ المتيِّم، كيف عيشته إذَن
وهما على فَرشَيْهما خِلْوان
يتساقطان لآلِئاً منثورةً
وهُما بثوب الوَصْل مُشْتَمِلان
وسَلِ المتيِّم. كيف مجلسه مع الـ
مَحْبُوبِ فى روح وفى رَيْحان

يـاربُّ عــفــواً ، قــدْ طـغَــتْ أقــلامــنـا
يـــارب مــعـــذرةً مـــن الـطُّغـــيـــان

* * *

★ أرأيتم كيف يَسْبِى الجمال وكيف يُغَرِّدُ الحب . . ؟؟ !!
★ أرأيتم القلوب النقية والأرواح الورعة التقيَّة ، كيف تُغَنِّى للجمال وللحب . . ؟؟ !!
★ أرأيتم شجاعة الرجال ذَوِى المَهابة والتُّقى والجلال وهى تواجه أسرار الجمال والحب . . ؟؟ !!

لقد أثلَج صدرى كتاب « ابن القيم » هذا منذ الْتقيت به فى مُبتكر شبابى . . ولا أزال أستفتيه وأرتَجيه كلما طاف بى طائف من سَنَا الجمال وبهجة الحب . . وأذكر أننى فى تلك الأيام أو فى أُخرى بعدها أنشأت شِعْراً . . على الرغم من أننى لا أنظم الشعر إلا نادراً ولِمَاماً . . والقصيدة عندى تبدأ بالبيت الأول ، وتنتهى به أيضا . . بيد أنها فى ذلك اليوم تَرامَت ومَادَت حتى بَلَغت ستة أبيات ـ قلت فيها :

إنـنـى أهْــوى ، ولــكـن لــى طَــرِيـقـة
صُــغــتُــهـا والــحـب فــى أغــلـى وثـيــقــة
وَجْــنَــةُ الــعِــفَّــة لا أخــدِشــهـا
وعَــذارَى الــورد فــى حُـضـن الـحـديـقـة
كــل مــا أبــغـى مــن الــحــب شَــذًى
يـمــلأ الــروح سُــطُوعــا بــالـحـقـيــقــة
وحــبــيــب كــلـمــا نــاديــتُــه
جــاء يسعى ، حــامــلاً رُوحــاً مشُــوقــة
وعَــذُولٌ ، كــلـمــا أبــصــرَنــا
وجــد الــعُــذرَ لآهــات صــديــقــة
أحــلالٌ ؟ أم حــرامٌ ؟ لــســت أدرى
كــل مــا أدرى هُــيــامــى بــالـحـديـقــة

كذلك نَظمتُ فى مرة أخرى هذه العُجَالَة :

وحــبــيــب كــلـمــا قــلــتُ تــعــالَ
غــمــزَ الــثَّــغــر دلالاً ثــم قــالا
فــى غَــدٍ آتــيــك إن الــوقــت طَــالا
وإذا فــى غَــدٍ لاقــيــتُــه
كــان كــالــطــيــف تــبــدَّى ثــم زالا

وبمناسبة الحديث عن الشعر ـ ولما كان الشَّجَن ينادى الشَّجَن ـ فقد نظمت أيضا قصيدة زَجَليَّة يوم استشهاد بطل الكوماندو الشهيد « أحمد عبدالعزيز » فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ قلت فى مطلعها :

صُفُّوا رِجال جيشنا وجُندُه
رُوحْ البطل جَيًّا تْشَاهْدُه
وَاخِدْ أجازة من الجَنَّة
وجَايْ يزور الكومانْدُه

* * *

فى القِلّة النادرة من شعرى العابر فى الغزل والنَّسيب تسمعون نبض الحرمان وأساه .. وحنين الشوق ونَجْواه .

فكل حب لى كما ذكرتُ سلَفاً كان من طرف واحد ـ وهو أنا .. ولم يكن ذلك لإعراض الأطراف الأخرى .. فما كان لهم أولهن من علم بِحُبى ..

لذا كنت أعانيه وحدى .. وأناجيه وحدى .. واحيا تجربته المعبورة حينا والممرورة أحيانا وحدى ..

* * *

إن كل ما أرجو أن يُضيفه علينا حديثى هذا عن الجمال والحب هو إحسان تقديرهما وتَوْقيرهما .. فلسنا أكثر وَرَعاً وتقوى من الصفوة المؤمنة الذين قَدَّروهما حق قَدْرِهما .

لقد كان الجمال الوقور ـ المُضِىء والوَضِىء ـ موضع الإطراء والثناء فهذا سيدنا « عمر » رضى الله عنه يصف « جرير ابن عبد الله » بأنه « يوسف » هذه الأمة ..

وهذا مصعب « بن الزير » يمتدحون بهاءه وجماله فيقولون :

إنما مصعب شهاب من الله
تجلت عن وجهه الظُّلماء

وهذا « أبو حازم » العابد الأواب يروى عنه أنه بَصُر وأصحابٌ له وهم يقومون برمى الحجارة فى الحج ـ جارية ترمى الناس بطرفها الفتّان يمنة ، ويسرة فيقول لها : ـ إتقى الله فإنك فى مَشْعَرٍ من مَشَاعِرِ الله عظيم ثم يلتفت نحو أصحابه ويقول لهم : ـ تعالوا نسأل الله ألا يعذب هذا الجَمال بالنّار .. !!

بل هذه أم المؤمنين « سيدتنا عائشة » رضى الله عنها تَرْمُق الرسول عليه السلام وهو جالس يَخْصُف نعلَه والعرق يتصبَّب من وجهه الشريف كالدُّر المنْثور ، أوكحبات الجُمَّان ، فتقول له ولقد ازدهاها جمالُه وجلالُه ـ لكأنك المَعْنىُّ بقول الشاعر يا رسول الله ، فيسألها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وماذا قال الشاعر يا عائش ؟؟ فتجيب قال :

ومُبرَّءٍ من كل غُبَّرِ حيْضة
وفسادِ مُرضعةٍ وداءٍ مُغْيلِ
وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه
بَرقتْ كبرقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ

فيبتسم الرسول العظيم لها ولذكائها ويقول : لا فُضَّ فُوكِ يا عائشة » !!

* * *

وبعد ـ فهذه نظراتٌ من ذكرياتي :

كيفَ أنساها وقلبي ؟؟

لم يزل يسكنُ جنبي ؟؟

إنها قصة حُبِّي !!

* * *



قصـتى مـع الفـن

فى منتصف الثلاثينيات وضع الموسيقار « محمد عبدالوهاب » مَعْزُوفة موسيقية أسماها « حُبى » وتسلَّلت إلى جُماع نفسى ، أو قولوا : تسَلْسَلَت وانسابَت انسِياب السَّلْسبيل . . !!

لم تكن معها كلمات تُغَنّى . . بل كانت الأوتار وحدها هى التى تتكلم وترقص وتغنى ، وتَبوح .

كانت رائعة الوسَامَة تنساب فى تأنُّق وتألُّق . . وكنت بها شَغُوفا حتى « الثُمالة » . .

كـانت تُوقظ أحـلام يَقظتى وتُفجِّـرها تفجيرا . . وحين أسمعها يتحرك فى داخلى مهرجان من الحب ، والبهجة ، والرُّوى ، والجسارة ، والتصميم ، والأحلام . . !!

ليس حتماً أن يكون لكلِ الناس نفس الانطباع . . ولكن هكذا كنت معها وكانت معى .

ولقد لعبَتْ فى شبابى دوراً بالغ التأثير وأحسب أن لهَبَهَا المقدس لم يُزايِل وُجدانى بل تحوَّل إلى جزء من فاعليته وتكوينه ، ولكن لماذا أبدأ تجربتى مع الفن وبخاصَّة المُوسيقى والغِناء بهذه المعزوفة ؟؟ لكى أُجِيبَ لابد من الرُّجْعى إلى وراء . . إلى مرحلة « اليَفاعة » التى تعقُب الطفولة وتسبق الشباب . .

ذلك أننى فى تلك البَواكِير من أيامى ، أمتلِك حنجرة مرهفة وصوتاً مفرداً وجميلا .

وكنت شَغوفاً كل الشُّغف بتقليد « قيثارة السماء » شيخ القُرَّاء الراحل الشيخ « محمد رفعت » رضى الله عنه وأرضاه . . وأجيد مُحَاكاته إلى درجة قُصْوى من حَلاوة الأداء ونَدَاوة الصوت .

هذا فيما يخص تلاوة القرآن العظيم . .

بيد أننى فى الوقت ذاته كنت مُغْرماً بتقليد « عبدالوهاب » فى إجادة وفَن وأداء مسكوب وطَرُوب . . !!

كنت مع أغانيه الشَّجِيَّة على موعد لا أُخْلِفُه . . وكنت صديقاً حميماً للأوقات والمناسبات الإذاعية التى تُتيح لى سماعها فى أى زمان وأى مكان .

ولنبدأ قصتى مع الفن من بدايتها السعيدة . .

* * *

أيامئذ كان الفن عندى يعنى الموسيقى والغناء وبعدهما يجىء التمثيل .. أما الرسم بكل صُنوفه والنحت والتصوير وغيرها إن كان لها غَيْر .. فما كنت أدرى عنها ولا يعنينى أن أدرى عنها شيئا ..

اكتشفت جمال صوتى ، واكتشفه أبى ومَن حولى فى مطلع يفاعَتى .. وكنت أُدَنْدِن وحدى فأطرب .. ومن ثَم حُبِّب إلىّ الخروج إلى الحقول فى الأجازة لأطلق لأوتار حنجرتى العَنان .. وأشرك الأشجار والأطيار والزروع والخلجان معى فى الاستمتاع ، فقد كانت هذه هى « جُمهورى » بادِئَ الأمر !! ..

وفى كل يوم كان ولَعِى بالغناء وبالموسيقى يتنامىَ ويزداد .. وجاء يوم قدّم فيه « عبد الوهاب » فيلما من تمثيله وغنائه حمل عنوان : « الوردة البيضاء » وقام بإخراجه شيخ المُخرجين يومئذ المرحوم « محمد كريم » .

شاهدت هذا الفيلم مرة . ثُم أدمنت مُشاهدَته فى سينما « أوليمبيا » التى لاتزال قائمة فى مكانها أول شارع عبد العزيز بجوار فندق « ريش » .

كم مرة تظنون ؟؟ ست عشرة مرة !! حتى حفظت أغانيه ووعيت كل حركات - الممثلين وخَلجَاتِهم .. وشَغَفَنِى الفن المتألق والكلمات الطروب التى تخرج من بين شفتى عبد الوهاب لآلىء ودُرَرا ... !!

وجاءت الأجازة الصيفية فسارعت إلى القرية تسبقنى أفراحى . إذ كنت قد عقدت العزم على القيام بعمل مبهج وكبير ... !!!

وبعد خُطى مشيناها وأيام لَبِثناها .. نتبادل فيها اللُّقاءات والتحيات ونرى الأشواق الظّامِئات اقترحت عليهم ماكنت أُضْمِره فى نفسى .. وسألتهم ما رأيكم فى تكوين فريق للتمثيل يبدأ نشاطه بتمثيل فيلم « الوردة البيضاء » ؟؟ وبادى الأمر أعرضوا بقدر ما أقبلوا .. !!

أقبلوا لأن الفكرة استحْوَذَت على إعجابهم .. وتكَاسَلوا لأنهم لم يشهدوا الفيلم وتوهّموا من الصعوبة والمشقّة أكثر مما تتطلبه المناسبة .. ومضيت أهوِّن عليهم وأُهَدْهِد خيالهم . وأشد أزرهم حتى استجابوا مُغتبطين .. واخترنا المكان الذى سنجرى فيه التدريب والبُروفات وكان فوق سطح دار أحد أعضاء الفريق .

ومكثنا أسبوعاً فى هذا الإعداد ..

واخترنا المكان الذى سيشهد أول عُروضنا .. وإذا كان قد اكتظّ بالزحام فقد اصطف الذين لامكان لهم فى الخارج حول النوافذ المفتوحة ...

كانت قاعة العرض تنتظم الممثلين « والكُورس » معاً حيث يقف فى ركن منها الذين ينتظرون أدوارهم ...

كُنا أترابًا ذوى سِن واحدة لاتُجاوز الخمسة عشر عاماً .. وكنا ذوى قربى من أسرة واحدة .

كنت أقوم بدور « عبد الوهاب » ويقوم بدور البطلة ... زميل لنا وقريب ورشحه لهذا الدور تفوقه على الفريق كله فى وسامَته وجمال رَوْنَقه .

وتتطّلب مشاهد الفيلم أن يمسك البطل بذراعى البطلة أحيانا ، ويُقبلها فى هُيام وغرام .

وكان زميل آخر يمثل دور الشيخ « مدبولى » واقفاً مع « الكورس » ينتظر دوره . كان اسم البطلة فى الفيلم « رجاء » أو « نوال » لست أذكر تماما . .

وجاءت اللحظة التى أتقدّم فيها من البطلة وأطوّقها بذراعَىّ الحانيتين وأنا أغنى لها وأُناجِيها . .

« يانوال . . فين عُيونك » .

ووَفْقَ تعاليم المخرج الذى هو أنا . . !! ومراعاة للنص الأصلى فى الفيلم تقدمت من نوال . . وأدْفَأت بصدرها صدرى ، وثَنّنا حبنا بقبلة جيّاشة . . !!

كل هذا ومشاهد الفيلم التى نؤديها تنساب الهُوَيْنَىَ والمشاهدون يعبرون عن إعجابهم بصمت وَدُود ، بيد أننى لم أكد أقَبِّل « نوال » حتى انبعثَ أشقَاها . . وكان واحداً من الواقفين بالخارج المتسلّلين بأبصارهم من خلال النوافذ فصاح موجها حديثه إلى الشيخ مدبولى « حوش ياشيخ مدبولى ، يا عرص . . . ؟!

وركبتْ شياطين الغضب زميلنا « مدبولى » وتحوّل إلى شظايا من النار تتقاذف وغادر مكانه بين « الكورس » مُنطلقاً كالعاصفة إلى الخارج . . وإن هى إلاّ لحظات حتى تحوّل الحفل فى الداخل والخارج إلى عِراك مُدَمْدَم . . وتلاشت كلمات الأغنية فى خِضَمٍّ من الصفعات واللطمات والصرخات . . واتسعت رقعة المعركة حين انحاز لكل منهما شِيعته . . وهزمت الحماقةُ الفنَّ الرفيع . . وتحوّلت « الوردة البيضاء » إلى أمسية سوداء . . وحلت على الفريق بركات عبد الوهاب » . . . !!!!

ولأن الحياة كثيراً ما تقدِّم من العَناء طُرفة أو نُكته أو بسمة فإنها لم تبخل علينا ببعض مُسَلِّياتها . . فما كدنا نهم بالانصراف إلى بيوتنا حتى واجَهَنا فلاحٌ خبيث قائلا :

أنتو مروحين ليه ؟؟ هى الخناقة دى كانت جدّ ؟؟

دَنا فاكرها حِتّة من الفيلم اللى بتشَخْصُوه . . . !!

ووجدتْ دُعابته فوق شفاهنا مكانا مُناسبا لبَسمة عابرة . . !!

* * *

استغرقنى حب الفن الغنائى ـ ولازال حتى اليوم يَسحرنى أيْكه ونُبوغه وسحره « فى خَفِىِّ الهمس أو جهر النداء » . .

والحق أن الموسيقى والأغنية من أسمى عطايا الحياة . وما أصدق أمير الشعراء « شوقى » وهو يُحييها فى رثاء الشيخ « سيد درويش » فيقول :

أيـهـا الـدرويش قُـم بـث الـجَـوى
واشـرح الـحـب ونَـاجِ الـشـهـداء
اضـرب الـعـود ، تَـفُـهْ أوتـاره
بـالـذى تـهـوى ، وتـنـطِق مـا تـشـاء

حَـرِّك الـنـاى ، ونُـحْ فـى غـابِـهِ
مـن تَـبَـاريـح وشـجـو وعـزاء
واسْـمُ بـالأرواح وادفـعـهـا إلـى
عـالـم الـلطف وأقـطار الـصَّـفـاء
لا تُـرِق دمـعـاً عـلى الـفـن فـلن
تَـعـدِم الـفـنَّ الـرعـاةُ الامـنـاء
هـو طـيـر الله فـى رَبْـوتِـه
يـبـعـث الـمـاء إلـيـه والـغِـذاء
رَوْحَ الله عـلـى الـدنـيـا بـه
فـهـو مـثـل الـدار والـفـز الـغِـنـاء
تـكـتـسـى مـنـه ، ومـن آذاره
نـفـحـه الـطـيـب وإشـراق الـبَـهـاء
وإذا مـا حُـرِمـت رِقَّـتـه
فَـشَـتِ الـقـسـوة فـيـهـا والـجـفَـاء

* * *

يومئذ تمنيت أن أكون « فناناً » وأن أقضى حياتى مع الفن فى روضاته اليانعات وأفسحت صدرى لهذه الأمنية المثابرة فى إلحاحها .. وقررت أن أبحث عن الفرصة التى تمكننى من الدراسة بمعهد الموسيقى العربية ولعله كان يُسمىَّ المعهد الملكى .. ولكن كيف عرفت يومئذ أن ثمّة معهداً بهذا الاسم .. ؟؟

كان هناك مجلة مُتخصِّصة فى أخبار الفن اسمها « الصباح » تصدر أسبوعية ويملكها ويرأس تحريرها المرحوم الاستاذ « مصطفى القشاشى » وكان حبى العارم للموسيقى والغناء يُغْرينى بقراءتها أسبوعياً من الغُلاف للغلاف .. وهكذا كانت نافذتى على دنيا الفن والفنانين « كما كانت الوقود الذى يُؤَجِّج رغبتى فى أن أكون موسيقاراً ... !!

وتقدمت للامتحان أمام لجنة يرأسها المرحوم « مصطفى بك رضا » مدير المعهد . كان جسمى نَاحلا وضئيلا .. ولم أشعر بهذه الضآلة كما شعرت بها يومئذ وسألنى مصطفى بك : حاتسمعنا إيه يا شاطر ؟؟

شاطر ؟؟ إذن فأنا ضئيل حقا .. !!

وأجبته : ياوردة الحب الصافى .. وفجأة بدا عليه الامتعاض وقال : أيه ده ؟ كلكم عبد الوهاب .. عبد الوهاب ؟ وعلمت بعد مُغادرتى اللجنة أن كل الذين سبقونى إليها كانوا يختارون أغانى عبد الوهاب وأن « مصطفى رضا » لا يستروح عبد الوهاب ولا أغانيه .

ويوم إعلان النتيجة لم تَزْدَن كشوف الناجحين باسمى الكريم .. !! فحزنت ولكننى لم أيأس .. !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومضت شهور . . حتى جاء يوم كنت فى زيارة ابن عم والدتى خالى الاستاذ سيد مكاوى والسيدة قرينته بنت عمتى ، التى كانت أكثر المُعجبين بصوتى والمُشَجِّعين لى فقصصت عليهما نبأ المعهد الملكى للموسيقى العربية . . وإذا خالى « السيد » رحمه الله تعالى يزف إلىّ بشرى صداقته لأحد أساتذة المعهد ثم حدَّثه فى الأمر فحدَّد لى موعدا لزيارته فى منزله بحى الروضة الذى أقطنه الآن .

ذهبت إليه وأسمعته الأغنية ذاتها التى غنّيتها أمام لجنة الامتحان بالمعهد .

ياوردة الحب الصافى .

تِسلم إدِين اللى سَقاك .

وكان الرجل يتماوَج طَرباً وإعجابا . . وعند فَراغى من أدائِها قال فى استغراب : أهذا الصوت يسقط فى الامتحان ؟! واتفق معى أن يكون لقاؤنا بالمعهد يوم الثلاثاء القادم . .

وانظروا مشيئة الأقدار !!

فبدلاً من الذهاب يوم الثلاثاء أُلقِىَ فى رَوْعى أن الموعد يوم الأربعاء .

كيف نَسيت أو أُنسيت وذاكرتى أيامئذ كانت فى ذروة القوة ؟؟

أخبرنى سكرتير المعهد أن الأستاذ يحضر إلى المعهد يومى الثلاثاء والأحد من كل أسبوع . . وأنه مسافر غداً ـ الخميس ـ إلى العراق فى مهمة فنية :

إذن تُقدِّرون وتضحك الأقدار !!

وتخلَّيت تماماً عن هذه المحاولة . . وأحكمتُ وضع عمامتى فوق رأسى قائلاً لها : معا يا عزيزتى إلى حيث ترسو بنا المقادير . .

* * *

لكن ولائى للفن وارتباطى به بَقِيا مشحوذَين . . فأنا بين الأوتار العازفة والأغنيات المرهفة طير صدَّاح ، وعبير فوَّاح ، ونحلة تتهادى بين الزهور ، وتغتذى برحيقها المختوم . . وفيما بعد سألتقى بأم كلثوم فى صوتها الفتى الشهِى الرخيم . . وسيزيدنى صوتها الآسر وأداؤها الساحر ، وعبقريتها الفنية المعجزة ولاء للموسيقى وللغناء . . . .

ولن أنسى أغانيها الوطنية التى كانت تستجيش بها أحلامنا وعزائمنا فى الأربعينات وبداية الخمسينات ، لا سيما تلك الرائعة بين روائعها قصيدة شاعر النيل « حافظ ابراهيم » رحمه الله تعالى « مصر تتحدث عن نفسها » .

أمِنَ الحق أنهم يُطلقون الأُسْدَ
منهم ـ وأن تُقيَّدَ أُسدى ؟!
أمِنَ العدل أنهم يَرِدُون الماء
صَفْواً وأن يكدَّر وِرْدى ؟!

لقد رأيتها من قُرب وهى تُغنى على مسرح الأوبرا القديمة فى حفل أقامه المجلس الأعلى للآداب والفنون فى ذكرى أمير الشعراء « أحمد شوقى » وكانت تغنى .

سـلوا قـلبـى ، غَـداةَ سـلا وتـابـا
لـعـلَّ عـلى الـجـمـال لـه عـتـابـا

وأشهد لقد رأيت دموعها تتثال على وجْنتيها وهى تردد فى إستغراق وهُيام :

أبـا الـزهـراء قـد جـاوزت قـدرى
بـمـدحـك بـيـد أنَّ لِـىَ انـتـسـابـا .

وراحت كالثَّمِل المأخوذ تُبْدِىء فى البيت وتُعيد .. وأحسست كأن الحياة كلها تُؤَرِّبُ معها .. سلام لها .. وسلام عليها فى الخالدين .

وبعد ....

أليس عجبا أن يُطارِدَ اليوم هذا الفن الرفيع المتسامى بعض الشيوخ ويملأون قلوب الشباب المتدين « على طريقتهم » بُغضاً له وَمْوجِدَةً عليه .. ؟؟

أنا لن أُقْحِمَ الدين فى هذه القضية ـ فهناك فعلا بعض الأحاديث المعزُوَّة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تُحذِّر من الموسيقى والغناء .

ولكن أيَّه مُوسيقى ؟ وأى غِناء ؟؟

إن كثيراً من العلماء الورعين يقصرون التحذير على ما يتحول منهما إلى لَهو يَشغل عن طاعة الله ، وأداء الفرائض .. ثم إننا نتقدم إليهم بسؤال :

— هل كل ما لم يكن فى عصر الرسول لا ينبغى أن يكون فى العصور التالية له ... لاسيما فى القرن الخامس عشر من الزمان ؟؟

ألم يقل الرسول للسيدة عائشة رضى الله عنها :

« لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية » .

« لهدمتُ الكعبة ، وأعدتها على قواعد إبراهيم » .

أى أن أكثر أمنياته عليه السلام حُبا وقُربا تركها دون إنجاز لقيام اعتبارٍ حال بينه وبين ما يتمنى ويريد .. ؟؟

هل أريد بقولى هذا التدليل على أن الرسول ربما كان يهفو إلى حِل الغناء كله ، لولا وجود بعض الاعتبارات .. ؟؟ أبدا .. لا أريد هذا ولايخطر لى ببال .. فالحِل والتحريم من صميم الشريعة التى لاتخضع أحكامها للأمانِىّ .

إنما أردت القول بأن ثَمَّة اعتبارات يتحتم علينا وضعها فى دائرة الضوء ونحن نقيس ونستنبط ، ونجتهد فى المتغيرات والمستحدثات من القضايا والأمور ، وأننا يجب أن نقف فى امتثال وأدب أمام قول ربنا سبحانه وتعالى :

« ولا تقولُوا لِمَا تَصِفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلال .. وهذا حرام .. لتفتروا على الله الكذب » .

ولا أن نَحرِمَ الناس من الترويح المُباح الذى دعا إليه الرسول فى قوله :
«روِّحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة» .
لقد سُئل إمامنا الشافعى رضى الله عنه عن الشعر فقال :
« حَسَنُه حسن .. وقَبِيحُه قبيح ... »
وبمثل هذا يُقال عن الموسيقى والغِناء .. وعن الفنون قاطِبة فى غير غُلُوٍّ أو هبوط .. ودُونَما إفْراط أو تفريط .. !!



التَّحَدِّى .. يُنَادى بَعْضُه بَعْضًا !!

أتيت فيما سبق من هذه المذكرات على علاقتى الوثقى بالنقراشى باشا الرجل الذى بوّأته وطنيته ونزاهته مكاناً عليا فى الوفد ، وبين صفوف الشعب ، مما جعل خسارة الوفد فادحة عام ١٩٣٧ حيث فُصلَ فيه النقراشى باجماع أعضائه من الوفد ، ولم ينقص هذا الاجماع سوى صديق عمره ، وكفاحه ، وتوأم مصيره ، الذى كانت حبال المشنقة تتلمّظ بهما معا ـ الدكتور « أحمد ماهر باشا » وإيّاه . .

من ذلك العام ـ ١٩٣٧ ـ وما تلاه تعثّرت خُطى الوفد واشرَأبّت المعارضة له ولزعيمه الجليل « مصطفى النحاس باشا » .

وأذكر فى تلك الأيام وقد أراد الوفد أن يملأ فراغ النقراشى فى ذاكرة الأمة وضميرها بأحد عشر وفديا من قادته وصفوة رجاله ، أن كتب الاستاذ عباس محمود العقاد فى صدر جريدة البلاغ ـ وكان يتوّجها بمقال يومى . .

كتب يومئذ مقالاً ساخراً وهازئا بعنوان « أحد عشر كوكبا » شرّح فيه هذه البدائل تشريحاً بالغ القسوة لاسيما « بشرى حنا باشا » الذى أشبعه هَمْزاً ولَمْزاً وسُخرية .

وبعد حين غير بعيد غادر « أحمد باشا ماهر » مكانه فى الوفد وانضم إلى صديقه الحميم « النقراشى » وصارا يُشكّلان مَنبراً من أعلى منابر المعارضة صوتا ونشيدا . .

فى تلك الأيام كنت ـ كما أسلفتُ فى الجزء الأول آخذ مكاني مع « النقراشى باشا » مَحْبُوراً بِقُربى منه وبإعجابه بى . .

وبخروج النقراشى وماهر من حزب الوفد ورفعهما لواء المعارضة ، أتاح الوفد لعدوه التاريخى ـ القصر الملكى ـ فرصة العمر لكى يدير صورة النحاس باشا إلى الحائط !! ويُؤلّب قطاعات كبيرة من الشعب على وفدهم الأثير ويبسط كلتا يديه بالأذى والسوء لحب الأغلبية الكبير . . وفُوجئنا ذات يوم من نفس العام ـ ١٩٣٧ ـ بالملك فاروق يُعَين رئيسا لديوانه الملكى عدو الوفد الماكر ـ على باشا ماهر ـ الذى راح يُدير معركة التحدى للوفد من غرفة مكتبه بالسراى ، ويبنى فى براعة المهندس المقتدر أسوار الحصار التى يحاصر الوفد داخلها ، ويستخدم كل نُفوذ المعارضة بشتى أحزابها وفَصائلها فى عزل الوفد عن الشعب ، وعزل الشعب عن الوفد ، وذلك بمحاولة تَوْريط حكومته برياسة « النحاس باشا »

فى حماية نفسها باضطهاد الكثيرين من خصومها ـ لا سيما بعد أن أطلق على الرئيس والزعيم الرصاص محاولا اغتياله شاب قيل يومها أنه من حزب مصر الفتاة هو ـ عز الدين عبد القادر ـ فلم تجد حكومة الوفد مَنَاصا من عدم ترك خصومها يَعْبثون بمصايرها وصُولا إلى استخدام القتل والاغتيال .

وأذكر أننى شهدت مع كثرة كَاثِرة من الشباب إحدى جلسات مُحاكمة عز الدين هذا بعد أن قرأنا فى الصحف أن الاستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة سيترافع بنفسه عن « عز الدين عبد القادر » وكان الشباب فى الجامعات وخارجها يَهِيم حُباً وإعجاباً بالاستاذ « أحمد حسين » وكانوا يُقْبلون على حزبه ويَسْعون إليه زُمرا كأفواج النحل الساعية إلى رحيق الزهور . . !! بَيْدَ أنَّ ذلك كان قبل أن يحتل « الاخوان المسلمون » المسرح كله ويغزو مُرشحهم القدير عقل الشعب والقلب والضمير . !!

ذهبنا إلى قاعة المحاكمة وكانت فيما أتصورها الآن رحيبة واسعة واكتظت بالحضور اكتظاظا لم يَدَع لقدم موضعا .

ونادى الحاجب المُنذر « محكمة » . . ونهض الجميع وُقوفا وراح رئيسها يوجه الأسئلة إلى المُتهم القابع فى قفص الاتهام . .

ونودى الدفاع فوقف الأستاذ « أحمد حسين » ودَوَّت القاعة بالتصفيق . . وسريعاً جداً قرع رئيس المحكمة المنصة بِقَدُومه قَرْعاً فيه احتجاج وغضب . . وتلا ذلك تحذير منه . . اذكروا أنكم فى قاعة محكمة ، ولستم فى صالة حزب . . !!

وأذكروا أن الأستاذ « أحمد حسين » تلقَّى اللَّمز فى هدوء ورده بهدوء أشد :

— يا سيادة المستشار رئيس المحكمة . . ليس فى الأحزاب صالات . . بل هى أيضا قاعات محاكم .

وإذا كانت هذه القاعة تشهد محاكمة أحد من المُجرمين العاديين . . فقاعات الأحزاب تشهد مُحاكمات عشرات أو مئات من المجرمين الكبار الذين يسرقون الوطن ويمكرون بالشعب . . !!

— خلاص يا أستاذ تفضّل . وترافع . وبإشارة من يده جهة اليَسار . فهمنا أنه يأمر سكرتير الجلسة بعدم تسجيل هذه المشادة فى مضبطة الجلسة .

كان « أحمد حسين » ظاهر الزهو وهو يترافع عن المتهم .

وكنت قد قرأت من قبل كتاب « كفاحى » الذى كتبه الزعيم الألمانى هتلر . . قرأته فى الرابعة عشرة من عمرى وذكرنى موقف الأستاذ المترافع بموقف لهتلر حين وقف فى إحدى مُحاكماته ونفر من حزبه النازى وقف ـ على الرغم من أنه لم يكن محاميا ولم تتوافر له دراسة القانون ـ يترافع عن رفاقه المتهمين . . وعن نفسه أيضا . . وبدلا من أن يتحدث عن مبررات جرمهم التى قد تشفع لهم بالبراءة أو بعقوبة مُخففة !! راح يُبْدِىء ويُعيد وينثال ويُفيض فى الحديث عن حزبه ومبادئه ورسالته وعن ألمانيا التى أخرجها الحلفاء من الحرب العالمية الأولى مُثْخَنه بالجراح شقيه بالإهانة والهوان حتى استغرق نصف اليوم فى مرافعته تلك . . وكسب بها من الدعاية والاعلام الشىء الكثير . . !!

وهذا تماما ما فعله الأستاذ « أحمد حسين » بمرافعته قَدّم المتهم فى كلمات عاجلة ثم مضى نصف

النهار أيضا فى الحديث عن مصر الأم ومصر الفتاة ..

ولا أشك أنه كان فى موقفه هذا متأثرا بهتلر مُعجبا به مُحاكيا له إذ أنه قرأت عنه أضعاف ما قرأ ونُظرائى !!

وفى براعة المحامى الذكى الضليع راح يُبرر الجريمة وينكرها فى وقت واحد.

فهو يُبررها أو يكاد بحديثه عن النحاس باشا وعن الوفد حزباً وحكومة نَاسِباإليهم كل مافى مصر من البلاء والمصائب - بل والاحتلال ..

وهو يُنكرها بإعلانه أن حزبه لا يتوسل بالرصاص ولا بالخناجر فى تصفية خُصومه الذين أسماهم خصوم مصر .. إنما يفعل ذلك أفراد القمصان الزرق الذين شكل الوفد منهم جيشا عَرَمْرَماً ليضرب بهم معارضيه ؟؟ !! »

قلت : أنه كان ظاهر الزهو .. وأيضا أقول : إن إحساسه بالزعامة فى ذلك اليوم المشهود ، فاق أو ربما فاق إحساسه بها فى أى يوم آخر ومناسبة أخرى !!

فها هو ذا يقف فى أكثر مواطن الدولة قداسة ونفوذا ، وجلالا ثم يقضى الساعات الطُوال فى الحديث عن حزبه ورسالته وإصراره على التغيير القادم والحاسم .. هو الذى طالما سيق إلى المحاكم لبضعة سطور كتبها فى جريدته متهما بالإساءة غير المشروعة للملك ، أو للحكومة ..

ها هو ذا يَصُول ويَجُول أمام سلطان الدولة وقضاتها - رافضا ما يريد رفضه .. لاَعِناً ما يريد لَعنه .. محرضا على جميع المؤسسات والأجهزة التى تتحداه وتحاول تقويض حزبه ووقف نشاطه .. !!

ثم ها هو ذا يغادر القاعة محمولا على الأعناق .. يهتز فوق أكتاف حامليه كأنه راية تحركها رياح النصر الذى اقتربت أيامه .. أجل - كان الأستاذ « أحمد » يستشرف النصر قادماً من قريب ..

ولقد شهدت فى تلك الأيام مؤتمرا للحزب وقف فيه خطيبا ..

وعن يمينه وقف « مصطفى الوكيل » نائب الحزب مرتديا البِزَّة العسكرية لفرق القمصان الخضر التى كان الحزب قد شكلها محاكيا فرق القمصان السود التى شكلها موسولينى وغزا بها - واغتصب حكم إيطاليا اغتصابا ..

وإلى يساره وقف « عبدالحميد المشهدى » الذى كان رئيسا للقمصان الخضر - مرتديا نفس اللِّباس العسكرى الخاص بها ..

وتكلم الأستاذ أحمد حسين طويلا - لا أذكر من خطابه إلا هذه العبارة التى كأنى أسمعها الآن :

« يا أبناء مصر الفتاة بعد ثلاث سنوات ستأخذ مصر الفتاة الحكم » .. !!!

ولنا عودة إلى الحديث عن الأستاذ « أحمد حسين » فالحديث عنه شَجِىّ وثَرِىّ ومُثِير .. !!

ومضت معركة التحدى ينادى بعضها حتى جاء اليوم الذى سمعنا الهُتافات فيه تنادينا إلى جمع مشهود ..

خرجنا نحن من الأزهر كلياته ومعاهده .

إلى أين يا قادة المظاهرة ؟؟

— إلى سراى عابدين حيث طلبة الجامعات والمدارس فى انتظارنا ، وانتفض زميلنا الشيخ المغاورى المرح الطريف إلى أعلى قائلا :

والملك أيضا .. !

ودوّت فى جنبات الطريق هُتافات الجُموع الزاحفة :-

الملك .. الملك .. لا نحاس ولا دسّاس وكانوا يعنون بالدساس « مكرم عبيد باشا » ، وفى ساحة عابدين بدت وكأنما زُلزلت الأرض زِلْزَالها ..

جموع تحتل المساحة ، وجموع زاحفة إليها من كل صوب وحدب .. وحناجر تُمزق الأفق بهُتافاتها وأبصار شاخصة إلى شرفة السراى كأنما تنتظر مَوْعِدا وُعِدَتْ إيّاه ..

وإنا لكذلك فى هذا المضطَرب من الموج الهادر والهائج ، وإذا الملك فاروق يخطو فى الشرفة خطوات تقترب به من حافتها الأمامية حتى لكأنه يريد أن يسير خارجها على الهواء المنبعث من أنفاس الشباب المحبور ، ويُعانق الحشود الزاخرة بوجوهها الناضرة .. وجُن جُنون كل شىء شهد اللحظات المفعمة - كل شىء - الناس ، والأسوار ، والأشجار ، والأطيار ، والأرض ، والجو ، والشوارع والآفاق .. وبدأ الملك الشاب الوسيم المضىء الذى لم يكن قد دنَّسته بعد أضاليل الحاشية ومناكر الخطيئة والخطاة .. بدا وكأنه موجة من النور والوقار والأناة .. تغسل الحياة وتسكُب فيها حكمة وجمالاً وجلالاً ..

وحيث رفع يُمناه مُحييا الجموع ، رقصت ساحة عابدين على إيقاع بسماته ونظراته ومُحيّاه .. !!!

منذ أيام شهدت نفس المساحة جموعا من نوع آخر - كان هتافها - النحاس أو الثورة - وكان الملك وكبار المسئولين فى قصره هم الذين يوجّه إليهم هذا النذير .. ولم يخرج الملك طبعاً يومها إلى شرفة القصر ليتسلم الإنذار « !! » وكأنه كان يدَّخر طلعته البهيَّة لهذا اليوم الذى أحكم تدبيره وإخراجه ليسمع هُتافا آخر - الملك .. الملك .. لا نحاس ولا دسّاس .. !!

وبعد حين سارت المظاهرة اللَّجبة إلى حيث طاب لها أن تسير ، ووقفت مع نفر من الزملاء تشهد عودة السكينة والهدوء إلى الساحة الكبيرة ..

وفجأة يحدث مالَمْ نكن نتوقَّع أو نترقَّب ، فها هو ذا فضيلة الشيخ « محمد عبداللطيف دراز » يغادر القصر خارجاً من الباب الواقع تحت الشرفة مباشرة .. ورأسه مرفوع إلى أعلى فى وضع يميل به إلى الخلف كعادته دائما حين يسير ، وسارعنا نحوه مُصافحين .. وإذ علمنا أنه فى طريقه إلى مكتبه بإدارة الأزهر مشيا على قدميه أحطنا به وسرنا معه ..

وكان أول ما قاله لنا: خلاص يا أولاد .. الوزارة ستسقط خلال أيام ..

وقطع لسان الشيخ المغاورى حديث الشيخ وهو يقول مَازِحا - وكان الشيخ يتقَبَّل فى سرور مُزاح أبنائه الطلاب :

— الله .. إذن فضيلتك كنت هنا ليؤخذ رأيك فى اختيار الوزراء الجُدد ؟ !!

وأجاب الشيخ : رأى إيه واختيار إيه يا شيخنا المغفل .. ! ؟

إن الذى يرى ويسمع ما حدث اليوم لابد أن يتنبأ بسقوط عاجل للوزارة . . فملك البلاد يخرج إلى شُرفة القصر محييا المظاهرة الكبرى التي تهتف بين ما تهتف بسقوط الحكومة وحزبها ورئيسها لابد أن يكون قد قرر التخلص منها ومَالَتْ شُمسها للغروب .

وكان فضيلة الشيخ « دراز » شخصية فتيَّة دائمة الشباب والازدهار والتوهُّج . . بوَّأته وطنيته وشجاعته وجهاده مكانا عَليا بين قادة ثورة ١٩١٩ وخطبائها . . وبين المجاهدين فى سبيل العروبة ، والعاملين من أجل تحرير الوطن العربى ، والإسلامى . .

ولعلنا ندهش حين نعلم أن الثوار فى الأزهر قلَّدوه منصب « حكمدار القاهرة » فى ثورة (١٩) وكان الأزهر أيامئذ يمثل أهم مراكز الثورة وقيادتها . . !!

وكان الثوار فى كل مصر يكادون يُسيطرون تماما على مقاديرها . .

ففى القاهرة أعلن ثوارها من فوق منبر الأزهر تعيين فضيلة الشيخ محمود أبو العيون « حكمداراً للعاصمة » .

وبعد اعتقاله ، أعلن الثوار تعيين فضيلة الشيخ دراز الذى كان بارزا ومبرزا بين خطباء الصف الأول لثورة ١٩١٩ م .

ولقد صدقت نبوءته . فلم يمض من الأيام إلا ما يقرب عشرة حتى تلقَّى « النحاس باشا » خطاب إقالة حكومته ـ ذلك الخطاب الذى بدأ بعبارة حفظها الناس يومئذ . . ولا أزال أحفظها إلى اليوم :

— « نظراً لِمَا اجتمع لدينا من الأدلة على أن شعبنا لم يَعُدْ يؤيد طريق الوزارة فى الحكم . . » إلى آخر الخطاب الذى اتهم الحكومة المُقالة بالعبث بالدستور ، وإهدار الحريات ، وإهمال الصالح العام . . !!

وعهد الملك إلى « محمد محمود باشا » رئيس حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل الوزارة الجديدة .

* * *

كان الوفد قد فصل الدكتور « أحمد ماهر » الذى شكَّل مع رفيقه المفصول قبله « النقراشى باشا » حزباً جديداً سمَّاه « الهيئة السَّعدية » وقد شهدتُ ميلادها . .

وفى التعديل الوزارى الذى أجراه « محمد محمود » بين وزرائه دخل ماهر والنقراشى الوزارة ومعهما بعض أعضاء حزبهما .

وجرت انتخابات جديدة بعد أن حل « محمد محمود » مجلس النواب . . وفى هذه الانتخابات فازت الهيئة السعدية بعدد كبير من المقاعد . .

وفرح الشباب الحزبى من السعديين والأحرار والدستوريين ومصر الفتاة بهذا التغيير .

والذى كان يطلب صيدا هيأ شباكه للاصطياد !!

وعلى الرغم من أنى لم أكن طالب صيد فقد كان من حقى أن أتلبث ولو قليلا مع الرياح الوافدة بالغنائم والخير ، وبثمرات النصر الحزبى الذى شاركت فى العمل لقدومه بالكثير من خطبى ومسعاى . . ولكن الذى حدث جاء عكس ذلك تماما فلم يكد الرجل الذى كان يحمل لى إعجابا ومودة

ـ النقراشى ـ العظيم يتولى الوزارة حتى رأيتنى أنسحب فى هدوء من الحياة السياسية كلها ، يحملنى زورق من نور إلى الشاطىء الآخر لابثا هناك بضع سنين كانت أجمل وأمثل سنوات عمرى وحياتى . . !!

نحن فى الدنيا بين شاطئين ، نركب ثَبج البحر العميق ، ونمتطى أمواجه المسافرة بنا نحو المجهول . . على الشاطىء الأول نلهو ونلعب ، ونبنى كالأطفال قصورا من رمال . .

وعند الشاطىء الآخر تتفتح لنا الأبواب على مالا عين رأت . . ولا أُذن سمعَتْ . . ولا خطر على قلب بشر . . !!

وهناك ـ لا قَبْل هناك ـ نرى الحقائق الكبرى ، ونسمع الحكمة الصافية والآتية من قلب الأشياء . . ولقد شاء فضل الله علىّ أن أقضى بضع سنوات ، كأنها لحظات فى فَرَادِيس ذلك الشاطىء المُبارك الميْمُون . .

وفى حديثى عن تلك الرحلة العلوية سأحدث القارىء عن أروع وأنقى وأبقى تجارب جميع الحياة . . وبالنسبة للناس جميع الناس . . !!

ولا مبالغة فى القول بأن الذى سيعى عنى هذه التجربة ، أو هذا النَّذر اليَسِير الذى قُدِّر لى منها ، سيكون ذا حظ عظيم ، لأنه سيرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، ويُدرك بفؤاده ما يدخره ذو الجلال والإكرام لعباده من هدايا وعطايا إذا هم وَلُّوا وجوههم شطر أبواب رحمته . .

* * *

ألا ما أروع الذى رأيت ، وسمعت وفهمت . . ؟ ! وما كانت تجربتى تلك لتساوى شيئاً لو لم تكن جزءا من كُل . . وقطرة من بحر . . وشعاعة من ضوءٍ باهر عظيم . .

وتعالوا الآن أقصُص عليكم النبأ كأنكم ترونه وتشاهدونه . . بل كأنكم أصحابه وذَوُوه . .

كنت أيامئذ أقيم مع أخى الشيخ حسين فى منزل بحى الصليبة قسم الخليفة ، قريب من القلعة وبجوار سبيل أم عباس . .

وكان المسكن عبارة عن حجرتين وحمّام ، يتراحب أمامهما سطح وسيع وفسيح . .

وكان هذا السطح يُنادينا بالليل هواؤه وهدوؤه فنقضى معه من الليل نصفه إلا قليلا . .

وأحيانا ، كنت أسهر مع هذا السطح وحدى وما أجمل الوحدة مع النسمات العذبة الرِّقاق . . وذات ليلة . .

وأنا فى مجلسى ذاك وحدى ، أحسست بغبطة الروح ، وأرسلت إلى السماء بصرى أتملأها وأتأملها . .

كم استغرق هذا الوقت الذى اختصر فيه الزمان والمكان ، وتألقت المناسبة ؟؟

لعله لم يزد على دقيقتين أو ثلاث أو على الأكثر خمس دقائق ، عاد بعدها البصر مُفعماً نَشْوان !!

ولست أدرى ماذا حدث خلال هذه اللحظات ؟؟ كل ما أدرى أنها كانت رحْلة خاطفة فيها أسرار ، وفيها أنوار وفيها مالا يُدركه العقل وحيدا . .

وكل ما أدرى كذلك أن هذه الرحلة اللحظية شهد بدايتها شخص ، هو : أنا . . وشهد نهايتها شخص آخر أستطيع أن أشير إليه بأنه هو . . !!

لقد عدت من هذه اللحظات إنسانا آخر ، يحمل روحا غير الروح . . وقلبا غير القلب . . ورُؤىً غير الرُؤىَ . . ويمتلك من التّبتل والتّجرد والشوق والإخبات ما كأنه يمتلكه منذ سنوات . . وليس منذ لحظات . .

يا الله . .

إنى لأجد الآن ريحها ورَوْحَانها رغم أنها تبتعد عنى مسافة خمسين سنة أو تزيد . . ولعل من حُسن الحظ أن تلك اللحظات التى وقع خلالها هذا المشهد وذاك التحوُّل ، كانت سريعة ومَعْدُودة وخاطفة . . إذ لو طالَت ، لتحوَّل المشهد إلى رحلة عقلية ، تسائل النجوم ، وتبحث فى عظمة الكواكب والمَجَرَّات ، ونشأة الكون وخلق الأرض والسماوات . .

لكن إيقاعها السريع سرعة الضوء ، جعل منها رحلة روحية ، تلقَّت الروح والنفس خلالها غِبطة الحق ، ونَشوة الشهود وأنوار الطريق . .

* * *

قمت هادئا فَرِحاً إلى مضجعى . . ومع أنى كنت أغادر هذا المضجع كرها مع فجر كل يوم تحت ضغط الأوامر والزواجر من أخى الذى ينتزعنى انتزاعا من فراشى لصلاة الفجر معه . رُحت فى فجر ذلك اليوم الجديد من حياتى أتَجَافَى عن المضجع راغبا لا راهبا . ومحبورا ، لا مأمُورا . . بل سبقت أخى إلى الاستيقاظ والوضوء والتهيُّؤ للصلاة . .

إنى أنقل إليكم التجربة من بدايتها ، وبكل تفاصيلها لِتُحيطوا بها خُبرا . . فلعل فى هذه الإحاطة خيرا ـ لو تعلمون ـ عظيما . .

لم أنَمْ بعد صلاة الفجر كعادتى . . بل أخذت أتلو ما تيسَّر من القرآن العظيم . . وجاء النهار الذى كان بالنسبة لى « نَهارَيْن » ـ النهار الزمنى . . والنهار الروحى .

ومضيت فى طريقى إلى معهدى ودِيعا هادئا صامتا وقضيت اليوم كله بين زملائى على هذه الوَتِيرة وتتابعت بنفس الأسلوب الأيام والشهور والسنوات التى قضيتها ضيفا على التصوُّف وعالمه الفريد والمجيد . .

أفلا يكون من الخير قبل أن أقدِّم إليكم مُمارساتى ورؤيتى ـ أن أقدِّم أمامها وبين يديها حديثاً سريعاً عن التصوف ذاته . .

بلى ـ فليكن ذلك كذلك . . وعلى بركة الله . .

* * *

عندما بدأت شريعة الإسلام تتخذ وجهات شتَّى فى عالم المعرفة والفكر والاجتهاد ، وطفق التنوّع والتخصُّص يقودان خُطى الدارسين والباحثين وأصبح هناك الفقه والفقهاء . . والحديث والمحدِّثون . . والتفسير والمفسِّرون . . وعلم الكلام . . ثم علم الأصول إلى آخر هذه المُعطيات والمُسمَّيات ـ نشأ

التصوف كعلم ، وفلسفة وسلوك . . وجاءت نشأته واتساع نُفوذه وذيوعه حيث تَغْشى المجتمع الإسلامى من الترف واللهو والإقبال الوَلُوع على الدنيا وتتبع حَذافيرها ما تغشى . . !! هنالك قال الإسلام الحنيف كلمته الثانية وأخرج بعض خَبَيْه النفيس فى صورة نفر عظيم أجادوا فن السفر إلى الله جل جلاله كما أجادُوا فن العُزُوف عن الدنيا والزُهد فى مُغْرَياتها . . وفى الاتجاه المُضاد للغارقين فى شهوات الحياة ، راحوا يعكفون على عبادة الله ، ويُحققون أرقاما قياسية فى الانتصار على النفس وفى تعلية الذات والتفوُق البعيد والمجيد فى بعث المُثل العُليا للوحى وللإسلام . .

وأقول المُثل العليا ، لنَعلم أنهم لم يُقصروا جهادهم على العبادة من صلاة وصيام وذكر فحسب . . بل كانت عبادتهم تستوعب كل أركان الإسلام وأوامره . . ففى الجهاد تراهم فى الصفوف الأولى للمُقاتِلين . . وفى الدعوة تراهم سُيوفا مُشْرَعة فى وجوه الطُغاة والظالمين . . دون أى إثارة للفتن ، أو إزهاق للأرواح بغير حق . . أو بغى بين الناس وفساد فى الأرض . .

وكانوا كما يقول الشاعر :

هُـم المـلائـك فـى زى المـلوك وهـم
أُسْدُ الحروب ، وأقطاب المُحَاريب . . !!

فبين الحرب والمحراب ، كانت حياتهم تزخر بكل عظيم من معالى الأمور . .

ويعتبر الإمام « الجُنَيْد » رضى الله عنه رائد التصوف والطريق . .

والتصوف بالمعنى الذى ذكرناه فى مناسبة وجوده ونشوئه ، لم يكن « رد فعل » لِمَا غَشِى المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية من استهتار وخَطَايا . . بل كان « فِعْلاً » مُتميزا ووثيق الصلة بالإسلام كشريحة من أهم شرائحه وكجزء مُلتحم بالكل التحام العقيدة والشريعة . .

وهذا ما لم يفهمه الكثيرون ، فراحوا يرون فيه بدعة وخروجاً على أصول الإسلام وحقائقه . وكانت كلمة « التصوف » الشَجَى الذى تَغُصُّ به حلوقهم . . زاعمين أن الكلمة لأنها لم تكن موجودة أيام الرسول ﷺ ، فإن ما تدل عليه لم يكن له وجود . . أى أن التصوف لَغْوٌ « ما دام الرسول لم يجعل له من قبل سَمِيا » . . وقد كان لى من عهد بعيد حوار مع بعض المنكرين حول هذا الموضوع .

قال : لو كان التصوف خيراً ومشروعاً لأمر به الرسول . .

قلت له : إن الرسول نفسه بدأ حياته متصوِّفا . . ذلك أن أُولى بدايات التصوف وخُطواته هى الخُلوة ، والتأمل ، والعُكوف على العبادة . .

وكلها كانت نَهْج الرسول . . فالخُلوة فى « غار حراء » والتفكير فى خلق السماوات والأرض ، والاستغراق فى عبادة الله ، كانت بعض سُبْحاته وصَلَوَاتِه . . ثم إن التصوف كان موضع وَصاية الرسول وتزكيته والحث عليه ـ وإن يكن قد أعطاه اسما آخر ، هو « الإحسان » .

جاء ذلك فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الإمام مسلم ، رَاويا إيَّاه عن سيدنا « عمر » رضى الله عنه ، حيث يقول :

★ بينما نحن عند رسول الله ﷺ : . . إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد

الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه .. ووضع كفيه على فخذه .. وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ..

★★ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد ألاّ إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتُقيم الصلاة وتُؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ..

★★ قال : صدقت .. فعجبنا له يسأله ويُصدقه ..

قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟؟

★★ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكُتبه ، ورُسله ، واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر ..

قال : صدقت ..

★★ قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟؟

★★ قال : أن تعبد الله كأنّك تَراه .. فإن لم تكن تراه ، فإنه يَراك » ..

★★ « قال : فأخبرنى عن الساعة » ؟؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من الساعة ؟؟

قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟؟

قال : أن تلدَ الأمة ربَّتها .. وأن ترى الحُفاة العُراة العَالة . زعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .

★★ قال عمر » ثم انطلق ، فلبث مليا ثم قال لى الرسول : يا عمر .. أتدرى من السّائل ..

قلت : الله ورسوله أعلم ..

★★ قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

* * *

إذن فَشِرْعة الإسلام ومِنهاجه ينتظمان أركاناً أوأعمدة ثلاثة :

الإسلام .. الإيمان .. الإحسان ..

هذه هى أعمدة الشريعة سواء بسواء .. فإذا تأملنا تعريف الإحسان كما ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام واستشرفنا حقيقته ، وجدناه يُضاهى تماما التصوف ، فى حقيقته ، ونَهْجه . وسُلوكه ..

فقول الرسول : أن تعبد الله .. كأنك تَراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يَراك .. ارتفاع بالإسلام وبالإيمان إلى آفاق الإحسان .. إذ ماذا يُراد بالإسلام من شهادتين وصلاة وصيام وزكاة وحج ..

وماذا يُراد بالإيمان بالله وبملائكته وبكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر ..

ماذا يُراد بهذا كله إلا تعلُّق القلب بالله . وإسلام العبد كلّه لله ، ومُراقَبته فى السِرّ والعَلَن .. وأن يكون عبد « المنعم » ، لا عبد « النِّعم » ..

وبعبارة واحدة : دوام العُبودية ، فى شهود الرُّبُوبية ..

وهذا معنى « أن تعبد الله كأنك تَراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك ... » .

فإذا قال الأعلام من المُتصوِّفة :

« العُبودية شهود الربوبية » .. فهم يردِّدُون نفس المعنىْ الذى قاله الرسول الكريم بصيغة أخرى

كثيرة الشبه وكثيرة القُرب من صيغة سيدنا الرسول ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ..

* * *

قلت هذا للذى كنت أحاوره وهو يرفض التصوف ـ اسمه ، وفكره ، ومنهجه وسلوكه ـ اتدرون بِمَ أجاب ؟؟

قال : لكن الرسول أسْمَى ذلك بالإحسان ، ولم يسمه التصوف ..

فأرسلت قَهْقَهَةً ساخرة هو لها أهل وبها جدير ..

وقلت له : المسألة إذن فى غاية اليُسر : سَمِّ التصوف إحسانا ، وتنتهى المشكلة ..

* * *

وما التصوف فى تعريفات شيوخه واعلامه ؟؟ لَعَلِّى من بين التعريفات الكِثار له ، أوثِر وأختار تعريف سيدى « أحمد زَرُّوق » رضى الله عنه ..

وهو :

« التصوف ، صِدق التوجُّه إلى الله ..

إذن هناك تَوجُّه إلى الله .. وهناك صِدْق فى هذا التوجُّه ، بحيث لا يعْتَرِضُه ولا يُصرفه عن الله صَارِف ..

يقول الشيخ « أبو على الدَّقَّاق » :

ـــ أنت عبدٌ من أنت فى رقِّه وأسْرِه .. فإن كنت فى أسْرِ نفسك ، فأنت عبد نفسك .. فإن كنت فى أسْرِ دُنياك ، فأنت عبد دنياك ..

وهكذا يُصير صِدق التوجُّه إلى الله تَحْقِيقا لعبودية المخلوق ، أمام ربوبية الخالق .. كما يُصير تحريراً لصاحبه من الأسْر ، ووضع الأصارعنه ، وعِتْقه من كل عُبودية زائفة ..

لقد كان العارفون ينأوْن بالمؤمن عن كل عُبودية لغير الله .. حتى النِّعَم الوافدة إليك من السماء ، يريدون ألَّا تكون عبداً لها .. بل عبداً لِواهِبِها وصاحبها ، لِمَانِحِها ومُعْطِيها ، وهو الله وحده لا شريك له ولا مَعْبود معه ..

ويقول الشيخ « الجريرى » رضى الله عنه :

عبيد « النِّعَم » كَثِيرٌ عددهم .. وعبيد « المُنْعِم » عزيزٌ وُجُودِهم .. ويقولون :

ليس هناك شيء أشرف من العبودية .. ولذلك قال ربنا سبحانه فى وصف النبى ليلة المعراج ـ وكان أشرف أوقاته فى الدنيا ـ

﴿ سُبحان الَّذى أسْرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقْصى ﴾ ..

وقال تعالى :

ـــ ﴿ فأوْحَى إلى « عبدِه » ما أوْحَى ﴾ .. فلو كان هُناك اسم أجَلّ من العُبودية لأسْماه به ..

* * *

إنى من خلال تجربتى وقراءتى وتتبُّعى أنباء العارفين أستطيع الهُتاف بحقيقة تقول : « التصوُّف أعلى مراحل التَدَيُّن » . . هذه حقيقة لا مِرَاء فيها أسْتَخْرجتها كما قلت من تجارب الأفْذَاذ ومن تجربتى . .

ولئن كان أشق ما فيه قهر النفس فَهو فى الوقت ذاته أعذب وأجمل ، وأروع وأمتع ما فيه . .

صحيح أنه تَحَمُّل مَصاعب ، وركُوب مَتاعب . . وظَمأ الهَواجِرَ وسَهر اللَّيالى فى غير لَهْو أو اشتِهاء . .

ولكن « عند الصباح ، يحمد القوم السُّرى » . .

وكما قال الشاعر :

يـغـلبـنـى شـوقـى فـأطْـوِى الـسّـرى
ولـم يَـزَل ذُو الـشـوق مَـغْـلُوبـا .

* * *

أما كونه أعلى مراحل التديُّن : فلأنه أصدق استجابة لقول الله عز وجل :

﴿ فَفِـرُّوا إلى الله ﴾ .

وإذا كان فِرَار الأشقياء ـ الفِرَار من الله . . فَفِرَار السُّعداء . . الفِرَار إلى الله . .

يقول سيدنا « عبد الله بن العباس » رضى الله عنه فى قوله تعالى : « فَفِرُّوا إلى الله » فِرُّوا منه إليه . .

وهذا الفِرَار منه إليه . هو فِرار الأولياء . . والفِرار إلى الله يعنى كمال توحِيده وتمجِيده ، لأنه يعنى التخَلّى عن حُظوظ النفس ومُغريات الحياة ومُضلاّت الفِتن .

* * *

وهو أيضا أعلى مراحل التديُّن والعبادة ، لأن فيه وعن طريقه يرث المُؤمن من النبوة بعض أنوارها وأسرارها . .

يرث : ـ « مازَاغَ البصرُ وما طَغَى . . لقد رأى من آياتِ ربِّه الكُبْرى » . .

فالمتصوِّف بحق . . والمُحسن بصدق ، له بَصر ومعه بَصِيرة . .

وهو يرى من آيات ربه مالا يراه سواه . .

فهو المعنى بقول الله عز وجل فى الحديث القدسى :

« كنت سَمْعه الذى يَسْمَع به . . « وبصرُه الذى يُبصر به » . ويده التى يَبطش بها » . « وساقه التى يمشى بها » . « ولئن سألنى لأعطينّه » . « ولئن استعاذ بى لأعيذنّه » . « وإذا مشى إلىّ شبراً ، مشيت إليه ذراعا » .

« وإذا مشى إلىّ ذِراعا ، مشيت إليه بَاعاً » . .

« وإن أتانى يمشى ، أتيْتُه هَرْوَلة » . .

* * *

أهُناك مما يُفيئه التديُّن الصادق أعظم من هذا وأكرم ..

ألا إن هذه جميعا بعض مَثُوبات الله وعَطَاياه لأوليائه الذين سَلَكوا إليه الطريق - طريق القوم .. رضى الله عنهم أجمعين ..

إن الإمام « ابن القيم » رضى الله عنه ، لَيعجَب من الذين يستكثرون على أولياء الله أن يَرُوا فى البلد البعيد مالا نراه وهم بيننا مُقيمون .. أويسمعون فى البلد القريب والبعيد مالا يسمع سواهم من جُلَسائِهم ..

أو تُطوى لهم الأرض ، فيكونون بينا فى حين من الزمان .. وبعد دقائق يكونون هناك فى المسجد الحرام ، أو المسجد الأقصى ، أو أى بلد قَصِىّ بعيد ..

يعجب « ابن القيم » لإنكارهم ويقول : أيظن هؤلاء أن أصحاب هذه الخَوارق والكَرامات يَرون بأعين كأعينهم .. أويسمعون بآذان مثل آذانهم .. أويمشون بِخُطًى مثل خُطاهم ..

إذن أين قول الله عز وجل : - كنت « سمعه » الذى يسمع به .. و« بصره » الذى يُبصر به .. فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يسير .. ؟ وصدق الإمام ..

ترى : لَن يأت أولئك نبأ « عمر وسارية » إذ رآه من فوق المِنبر بالمدينة وناداه وهو هناك فى البلد البعيد البعيد :

« يا سَارِيةُ الجَبَل »

فيسمع سارية صوته ، ويفْزَع إلى جيشه الذى كان على وشك أن يَنْهَزِم ويضيع على أثر مُباغتة أعدَّها له عدوه .. لولا صيحة « عمر » أمير المؤمنين ؟ ..

أو لم يأتِهم نبأ الوحى يَغْدُو ويَرُوح بين السماء والأرض فى لحظات .

ألا صدق ربُّنا العظيم - ﴿ وما يَعْقِلها إلا العالمون ﴾ .

* * *

والتصوف كذلك أعلى مراحل التديُّن ، لأنه بصفائه يَهَبُ صاحبه البصيرة .

والبصيرة كما عَرَّفَها القوم :

« ما خلَّصَك من الحيرة ، إما بإيمان وإما بعَيان » .

وهكذا نرى العارفين بالله غَادِين رَائِحين ، بين الإيمان والعَيان .. ومن ثَمّ فالحيرة وضبابية الرؤْيَة أبعد ما يكونان عن عقولهم وأفئدتهم ..

ثم إن البصيرة - وهى خير عَوْن على رؤية الحق واتباعه - تَهَبُ « الفَرَاسَة » ..

والفراسة نور يقذفه الله فى القلب .. وفيها يقول سيدنا الرسول ﷺ ..

« اتقوا فَرَاسَة المؤمن » « فإنه ينظر بنور الله » ..

والتصوف أيضاً أعلى مراحل التديُّن لأنه يعنى اجتياز كل العقبات التى تَعْتَاق السفر إلى الله .. ويقتحم العقبة الكُبْرى المتمثلة فى شهوات النفس وإيعازها بكافة النقائض والرذائل من غُرور ، وكِبْر ، وبَغْى ، وكَذب ، وحقد ، وقعود مع المخالفين ..

ولأن التصوف « فن الروح » و« جَوْهر الضمير » و« نُور العقل » .. فقد صاغ له شُيوخه وأساتذته من لغة الروح والضمير والعقل فلسفة ومِنْهَاجا ـ لن يتسع الزمان ، ولا المكان ، ولا المناسبة للإفاضة فى تبيانهما ، وحَسْبُنا إذن كلماتٍ عابرة عن المَقَامَات والأحْوال .. فهم يُقسِّمون الطريق إلى خَصَائص ، فضلا عن تقسيمه إلى مراحل ومَنازل .

فمن حيث الخصائص يرون هناك ـ مقامات .. وأحوالا ..

والأحوال أعلى شأنا من المقامات .. حتى أن بعضهم ليفرِّق بينهما بأن المقامات « كسبيّة » . والأحوال « وهبيّة » .. أى أن المقامات تُكتسب بالمُجَاهدة والأحوال تُوهب ، ويرزقها صاحبها بطريق الأُعطية والهِبة ..

ولعلهم فى هذا يضعون بصائرهم على قول الله سبحانه :

﴿الله يَجْتَبِى إليه من يشاء﴾و﴿ويَهْدِى إليه من يُنيب﴾، فهناك « اجتباء » مَرَدُّه إلى اختيار الله .. وهناك « اهتِداء » مردُّه الإنابة إلى الله .. ولا نقف طويلا مع حديث رُوَّاد التصوف الأبرار عن المقامات والأحوال .. بل نكتفى برأى بعضهم إذ يقول :

« الأحوال نتيجة للمقامات » « والمقامات ثمرة الأعمال » « فكل من كان أصلح عملا ، كان أعلى مقاما » .

« وكل من كان أعلى مقاما ، كان أعظم حالا » .

وعندهم أن المقامات تَتَدَاخل ، ويَنْدَرج بعضها فى بعض .

فالتوبة ـ مثلاً جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف .. والتوكُّل ـ جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا ..

والإنابة ـ جامعة لمقام المحبة والخشية ..

ومقام الحياء ـ جامع لمقام المعرفة والمراقبة ..

وهكذا ـ مما يُفِيض الإمام « ابن القيم » رضى الله عنه فى شُرحه وتِبْيَانه فى مؤلَّفه العظيم : « مدَارِك السَّالِكين » ..

كان شيخ الإسلام « ابن تيمية » رضى الله عنه يقول :

« إن فى الدنيا جنّة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .. »

ويقول أحد العارفين :

« إنه لَيَمر بالقلب أوقات ، أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم إذن لفى عيش طيب .. » .

وقال بعضهم :

« مساكين أهل الدنيا .. خرجوا من الدنيا وما ذاقوا ما فيها .. سُئِل : وما أطْيب ما فيها ؟؟ قال : محبة الله .. والأُنْس به .. والشوق إلى لِقائه .. والإقبال عليه .. والإعراض عما سواه .. » .

وهل التصوف الحق إلاّ هذا كله ؟؟ .

إنى لأشهد الّا وجود لما ذَكَر العارِفون إلاّ فى التصوف السَّديد والمَجِيد . .

بقيت كلمة . .

فحديثى هذا لا يعنى بحال السلوك الذى يحمل من التصوف اسمه . . وقد تعرّى من حقيقته . .

لا يعنى تلك المَظَاهِر الفارغة من مضمون التصوف واستقامته وعظمته . .

إنما يعنى ما ذكرنا من قبل . وما سنذكره الآن خلال حديثى المتواضع عن تجربتى مع التصوف الحق والرشيد . .

كما إنه لا يعنى الهروب من تبعات الحياة ومسئوليات العمل والمُثَابرة .

* * *





خَلِّ نَفْسَك .. وَتَعَالَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلت إننى تحوَّلت إلى إنسان آخر إثْر عودة بصرى وروحى من رحلتهما الخاطفة فى السماء .. ومن صباح تلك الليلة المُباركة ، وأنا أحْيا فى نَشْوة وهُيام .. وأقبلت على ما تيسر وجوده من كتب التصوف .. وفى أحدها قرأت أن الشيخ « أبا يزيد البَسْطَامِىّ » رضى الله عنه كان يقطع بعض الفَيافِى ذات ليلة وحيدا .. وفجأة استوقفته السماء بنجومها وبما زَّينها الخلاق العظيم بها من زينةٍ الكواكب .. وفجأة نَدَّتْ عنه صيحة ضَارعة :

« يَارب كيف الوصُول إليك » ؟

فإذا نداء يملأ رُوعَه :

« خَلِّ نفسَك ، وتَعالَ » .

ونحَّيتُ الكتاب غيرَ بعيد ، ورُحت أُتَمْتم وأردِّد : خَلِّ نفسك وتَعالَ :

خَلِّ نَفسَك وتعَالَ ..

ومع كل مرة من تِرْدادِها أجد لها مذَاقاً مُختلفاً ، وحلاوة جديدة ، ونشوة فريدة ..

فعذوبة التعبير ، وليس عمق المضمون وحده ، تجعل القارىءأمام قِيثارة تَعْزفِ .. لا مجرد فكرة تَهْتِف ..

وأحسست كأن هذه القصة أو الواقعة كُتبت لى .. أو كأن قَدَرى جمعنى بها على غير ميعاد ليكون لى فيها عظة ، ومِنْهاج فذ ودليل ..

وقررتُ أن أجعل هذه العبارة سُلوكاً لِى .. فَخَلَّيتُ نفسى ، وتَخلَّيت عنها وحملْت عزمى على كَاهِلى ، وقبل كَاهِلى فى قلبى .. وأخذت مكانى بين المُسافرين إلى الله ، يَحْدُونى شوق مُتَّقِد مَبْرُور .. وبصر شَاخِص إلى هناك .. ولسان حالى يقول :

ومـا أحـد يَـوْمَ ذَراك يـومـا
فيختـار الترحُّـل عـن ذَراكـا ..

كيف مضيت ؟؟ وإلى أى زَوْرق وَلَّيْت وجهى ؟؟

* * *

لعلكم تذكرون ما سطرته آنفا فى هذه المذكرات ، إذ تَعرَّف أخى « الشيخ حسين » على الجمعية الشرعية ، لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية . . وتَتَلْمَذَ على شيخها الراحل فضيلة الإمام والقطب الكبير الشيخ « محمود خطاب السُّبكى » رضى الله عنه ، وأرضاه . .

وذكرت كيف كان يصطحبنى معه إلى مسجد الجمعية ليلة الجمعة ، ويومها وليلة السبت لنسمع دروس الإمام ونقضى ساعات كأنها لحظات فى حضرته التى كانت تُذَكِّرُنا بالجنة وبما فيها من نَضْرة النعيم . .

كنت أيامئذ فى الحادية عشرة والثانية عشرة من سِنِى البَاكِرة . .

وانتقل فضيلة الإمام إلى الرفيق الأعلى وتزوَّج أخى « حسين » وأقام فى بيت أصْهاره بالجيزة . . وكنت قد كبرت ، وأخذت أتردَّد فى إقامتى بين بيت خالى « الشيخ أحمد » ورواق الشراقوة بالجامع الأزهر . . إلى أن انتقل أخى إلى حى الصليبة ، فدامت إقامتى معه ، بالمنزل الذى تلقَّيت فيه ذلك ، الإلهام الذى حدَّثْتُكم عنه من قبل .

خلال تلك الأعوام القليلة ، كنت قد عشقت السياسة . . ومَكَثْت مع « النقراشى باشا » حيناً من الدهر . . حتى إذا تربَّع وحزبه فوق أريكة الحكم عام ـ ١٩٣٨ ـ وجدتنى تِلقائيا أعتزل العمل السياسى كما أسلفت فى حديثى . ولبثت وقتا بلا تفكير . . صامتا ، هادئا ، مُنْطويا كمن ينتظر قَادِما لا يدرى هَوِّيته ، ولا يعرف عنه شيئا . . حتى جاءت الليلة الواعدة ، فَغمرَنى الإحساس المُفاجِىء والعجيب الذى حدثتكم عنه . . وذات يوم تحسَّسْتُ وجهى فإذا شعرات تُعَد على أصابع اليد الواحدة قد نبتت فى أدنى الذَّقن . . فداعبتها فى حنان وحب . . رحلت أُناجِيها : مَا أَعْجَلك يا عزيزتى . . ومع هذا فمرحبا بحبيب جاء على شوق . .

وفى يوم آخر ، وأنا أُداعبها فى حفاوة بأناملى اليمنى ، انتزعت إحدى شعراتها فحزنت على فراق صديق . . .!!

ولكن لماذا الفِراق ؟؟ إنه سيكون لو أَلْقيتُ بها إلى الأرض . . أما إذا احتفظت بها فستبقى معى أجمل تذكار . . وفعلا وضعتها بحذر شديد ورفق أشد فى جيب « كَاكُولتى » . . وطَفِقْتُ أتحسَّس كل يوم مكانها لأطمئن على وجودها . . حتى جاء يوم افتقدتها فيه وفقدتها . . هناك انتابنى أسف وأسى . . !!

سيظن بعضكم أننى أتطرَّف بِطُرفة مُختلقَة ولكنى أُقسم بالله العظيم أن هذا حدث . . وأترك لكم مهمة تَقْدِيره وتَفْسِيره . .

ولا ريب أن من دَلالات هذه الواقعة فَرحى الكبير بحيِاتى الجديدة ، وتقْدِيس كل مُفرداتها . . ولئن تمثَّلت بدايتها فى هذه اللَّفْتة الغريرة ، فإن مسيرتها ستنتظِم من عَظَائِم الأمور وجَلاَئِلها وما يجعلها حياة جديدة بأن تكون موضع حفاوتى . . ولقد أعطيتها من الحفاوة فعلا قَدْرَ ما أعطتنى هى من غِبطة الروح ، وذكاء القلب وسعادة الأيام وسكينة الضمير . .

عشت فى شوق حميم إلى الله ـ إلى طاعته . . إلى عبادته . . إلى نوره . . إلى محبَّته . . وصارت الدنيا كلها فى خَاطِرى مجرَّد طَيفٍ بَاهت . . أما الآخرة التى هى خيرٌ وأبقى فقد جذبتنى إليها جذبا حَانيا رَفِيقا شَغُوفا . . وفى وقت وجيز تعلَّمت لُغَتَها ، ومنحتنى ثقتها ، وصارت لِىَ مبعث طُمأنينة لا تنفد ولا يَنْصل بهاؤها . . وأحسست بروح التصوف والصُّوفية تَتَقَمَّصُنِى وتتملَّكنى .

كان شعورى بالآخرة عجيبا . .

أهى صديق ؟؟ بل أكثر من صديق . . أهى حبيب . . بل أكثر وأبَرْ من حبيب . . لقد قهر حُبُّها ميراث الطفولة ، ومَحا من الذاكرة تماما ـ تلك المَخَاوف التى كانوا يملأون بها رَوْعَنا خَوفامِن الآخرة وجَزعاً وفَزَعاً ، بَدْءا من القبر حتى يوم البعث المشهود حتى جهنَّم ذات الأَخَادِيد . .

أصبحت الآخرة عِشْقِى وهَواى . .

أتسألوننى : كيف ؟؟

أجيب : لا أدرى . .

فعنـدى الهَوى مَـوصُـوفُـه لا صفـاتـه
إذا سألونى : ما الهوى ؟ قلت مَـابِيَا

* * *

وجاء اليوم الذى تمضى فيه تجربتى مع التصوف فى بُعدِها الجديد . . والذى من حقكم أن تُنادونى اليوم قائلين :

مَـشَّـاءَ هـذا الـعـصـر قِـفْ
حَـدِّث عن العصـر القـديـم

كان فضيلة الإمام الشيخ «أمين محمود خطاب السبكى» قد ورث أباه الإمام فى رئاسة الجمعية الشرعية ورعاية أبنائها .

وكان كعادة أبيه يجلس كل يوم بعد العصر بجوار المسجد ، ويَحُفُّ به بعض تلاميذه ومُريديه ، يسألونه ويستفتُونه . . ويُحادِثهم ويُحادِثُونه . . فإذا جاء ذِكْرُ والده الشيخ ولو مائة مرة بَكى وبلَّلت الدموع عينيه . . وكان أخى « الشيخ حسين » رحمه الله تعالى يأخذنى بين الحين والحين إلى هذا المجلس المبْرور فنجلس مع الآخرين بين يدى الشيخ الإمام حتى يُؤَذِّن للمغرب فنصليه مع الجماعة ثم نقفل راجعين . . وذات يوم غادرنا مجلس الشيخ مُبَكِّرين ولم نكد نبلغ باب الجمعية حتى جاء فى أثَرِنا من يدعُونا للقاء الشيخ من جديد .

عُدْنا وجلسنا بين يديه واستهل حديثه لأخى قائلا : يا حسين . . لمَّا أُخُوك بيعرَف يخطب كويس ما قلتش لى ليه ؟؟

ثم أمر مَن ينادى الشيخ « أحمد الفار » وكان مُوظَّفا بالجمعية . . ومِن اختصَاصِه الإشراف على حركة اختيار خطباء الجمعية بمساجد الجمعية المُنتشرة فى كل مكان داخل القاهرة وخارجها . .

وحين جاء وبيمينه « دفتر » الخُطباء قال له الشيخ : أُكتب .. ثم الْتفت ناحية أخى وسأله : أخوك اسمه إيه ؟؟ ثم استأنف حديثه مع الشيخ الفار : أكتب خالد فى خطباء الجمعة القادمة .

ولا أذكر هل تلقَّيت هذا الأمر بفرح أم بِخيفَة ، أم بهما معا ..

على أية حال ، لم يكن من الاستجابة بُدّ .. ولكن أنَّى للشيخ العلم بأننى أصلح للخطابة ؟؟

لم يَكَد أخى وأنا نبلغ باب الجمعية حتى لَحِق بنا أحد الذين كانوا فى مجلس الشيخ وصَافَحنا ، ثم قال لى : مبْروك هذا خيرٌ وأبْقى من خُطب السياسة .. وعَرِفنا أنه الأستاذ « رستم » .. موظَّف بإحدى الوزارات .. وأنه كان قد استمع لى فى الحفل الانتخابى الكبير الذى حدَّثتكم عنه من قبل ، والذى كان مُقاما مكـان نفق.شبرا .. وعندما رآنى مع أخى فى حضرة الشيخ أخبره على أثَرِ انصرافنا أننى خَطِيبٌ بَارِع نستطيع الجمعية أن تنتفع به حين تَضُمُّنى إلى وعَّاظها .. وهكذا استدعانا فضيلة الشيخ ، وأمر منظِّم حركة الخُطباء والوعاظ أن يُضيفنى إليهم ..

وبهذا صِرْت واحدا من أبناء الجمعية ووعاظها ..

* * *

ومن هنا ، دخلت رِحاب التصوف من باب وَسِيع ..

ذلك أن فضيلة الإمام الشيخ « محمود خطاب السبكى » الذى وُلِد فى يولية عام ١٨٥٨ وتُوفِّى فى يولية عام ـ ١٩٣٣ ـ كان مُتصوِّفا فى مُبتكر حياته ..

وفى أوائل العِقْد الثالث من عمرة المبارك ، جاء القاهرة من قريته « سُبْك الأحد » ـ منوفية ، والتحق بالأزهر على كِبَر .. وكان قد حفظ القرآن الكريم على كِبَر أيضا .. وثَابَر على الدراسة فى الأزهر حتى حصل على شهادة العالمية ، فى ١٥ يناير ١٨٩٦ وفور تخرُّجه عُيِّن أستاذا بالقسم العالى بالأزهر ..

وفى ١١ ديسمبر عام ـ ١٩١٤ ـ أنشأ الجمعية الشرعية التى ظَلَّ يرعاها ويُنفق عليها منذ نشأتها وحتى لَقِى ربَّه رَاضِياً مَرْضِياً ..

* * *

هذا الإمام العظيم كان من الأولياء الكِبار ، والعَارفين المَبْرُورين ..

وكان دوره الذى اختاره الله له ـ إحْيَاء السنة ، وإمَاتته البدعة .. أى المضى قُدُماً على منهج سيدنا رسول الله ﷺ فى العبادات والعَادات ..

وكان قبل مَجِيئه الأزهر وطلبه العلم يشرف على بلده على أرض أبيه الزراعية .. بَيْدَ أنه فى الوقت ذاته كان قريب الصلة بأهل الله ، فأخذ العهد على بعض شيوخهم ، وركب ثَبَج أشواقه العظيمة مُبْحِراً إلى عالم الصالِحين والعارِفين ..

ولقد سار على الدرب حتى وصل . وغمرته بركات التصوف النَقىّ الصَّدوق .. من أجل ذلك لم تُزايله الأنوار ، ولا غابت عنه الأسرار .. حتى بعد أن صار واحدا من كِبار علماء الأزهر إذ ظلَّت رَوْحَانيَّةُ العَالية تَلِفُّ بضيائِها وسَنَاهَا كل من يتتلْمذ عليه ويقترب منه ..

وهكذا صاحبنا ابن الثانية عشرة فبهره نوره .. وكان لا يَمِلّ النظر إلى وجهه إذا كان يُرى فى بهائه

وجماله وجلاله وجه سيدنا الرسول عليه السلام ..

وحتى اليوم - وأنا فى السبعين من عمرى - كلّما اشتقت إلى وجه الرسول وشَغَفَنى الشّوق إلى رؤيته ، أتذكّر وجه الإمام محمود خطاب السبكى وأتَمَلاّه وأطيل النظر إليه فى تألُّقه وإشراقه وهيْبته ووقاره .. فما أظن أن وجهه فى هذا كله كان بعيداً من وجه الرسول ..

وعلى الذين قد يرون هذه المذكرات أو الذكريات ضَحْلَة ، لأنها لا تجمعهم بالكُبَراء والزُّعماء والسَّاسة ، ولا تَحْكِى طَرفا ولا طُورفا من نوادرهم ..

عليهم أن يعلموا أن حظوظهم وافية حين تجمعهم هذه الصفحات بهذا الطراز الرفيع من الأقطاب - أساتذة الروح ، وأُساة النفس ، وهُداة الضمير ..

* * *

كنا - أخى وأنا - نستحِثُّ خُطانا يوم الجمعة لنُدرك مكاناً فى الحشد الهائل الذى يكتظ به المسجد من العابدين والوافدين ..

وكان يخطب الجمعة فضيلة الشيخ « عبد الله العفيفى » فلا تدرى أيهْدِر هدير البعير الأصْهب ، أم يهْدِل هديل الحمام ؟؟ أم يجمع بين الاثنين فى إلقاء ساحر ، وأسلوب آسر ؟ .. والشيخ الإمام العارف بالله جالس بجوار المنبر رافعاً رأسه وشَاخِصا ببصره إلى وجه الخطيب ، لا تُغادره نظرة مهما استطالت الخُطبة وامتد بها الحديث ..

فإذا قُضِيت الصلاةُ بقى الألوف من المصلين فى سكُونهم وخُشوعهم يَخْتِمون الصلاة .. وما إن يفرغوا حتى يُوَلُّوا جلستَهم ووجُوهم شَطِرَ « الكرسى » الذى يتوسط المسجد فى انتظار الشيخ الإمام ليلقى درس الجمعة .. ويا لَبَهاء الدنيا كلها الذى كأنه اجتمع ليكْسُوا هذه الطَّلعة . وهذا الوجه ، وهذا الجبين .. كان الحضور ينتشون عندما يرون الإمام متجها إلى مقعد الدرس ..

أما صاحبكم فدعوه يبحث عن الكلمات التى يصف بها غِبْطة الروح التى كانت تغمره حين يُطَالِع الوجه النَّدىّ المُمتلىء صباحا واصباحا .. شُروقا وإشراقا ، وحين كانت تنشره وتطويه صَبَابة الشوق ، ورِقَّته ، وحَرارته ..

هنا عظمة التصوف يا صِحَاب .. إذ ترى قلب الأشياء فى كل شىء تراه .. فما كانت ملامح وجه الشيخ على مَلاَحتِها وجَمَالها المُسْتفِيض بآخِذه القلوب والأبصار إليه .. إنما كان الروح السَّارى ، والنور المؤلِّق هذا الوجه . وهذه الشخصية ..

وهكذا يكون الشأن فى كل شىء . لا ترى فيه شكله بل قلبه وجوهره ..

فى الصلاة . فى ذكر الله .. فى تلاوة القرآن .. فى الدعاء .. فى ممشاك إلى صديق تزوره ، أو مريض تعُودُه ، أو رَحِم تَصِلُه ، أو علم تطْلُبه .. فى كل الأشياء ترى قَلْبها ، لا شكلها الخارجى ..

ذلك أنك مع التصوف الحق النقى تعلم علم اليقين أن الله جل جلاله فى كل شىء إنشاءً ، ومشيئةً ، وعلماً ، وتَسْييراً وتقديراً .. وإذن فأنت هناك وهنا - فى النبتة الطالعة ، والنسمة الرضيَّة ، والقطرة النَّديّة .. وفى الشمس وضُحَاها .. والقمر إذا تَلاَها ، والنَّهار إذا جلاَّها والليل إذا يغْشَاهَا ..

وتراه فى السماء وما بَناها . . والأرض وما ضَحَاها . . ونفس وما سَوَّاها . .
كذلك تراه فى وجوه الصالحين وقلوب العارفين وسُبحات المتقين . .

* * *

كان الشيخ الإمام من هذا الطراز العالى . .

وقبل وفاته بعام تقريبا بدأ يفسّر فى درس الجمعة سورة « المُزمِّل » . . أما فى مساء يومها وبعد صلاة العشاء ، فكان يشرح أحاديث سيدنا الرسول ﷺ ، مقدِّما « سنن الإمام أبى داود » . . وفى مساء السبت ليلة الأحد كان موعده مع درس الفقه . .

ظل ـ رضى الله عنه ـ يفسر سورة المزّمِّل عاما إلا قليلا . . ولعله لقى ربه وهو يتابع آياتها شرحا وتفسيرا . .

ولا تعجبوا متسائلين : وهل تحتاج سورة « المزمل » لأكثر من درسيْن أو خمسة على الأكثر ليبلغ تفسيرها نهايته ومَدَاه .

وأجيبكم : نعم ـ لا يحْتاج تفسيرها لأكثر من ذلك ، لو أن فضيلة الإمام كان يفسرها تفسيرا لغويّا ، أو بلاغِيا ، أو غير ذلك من أنواع التفسر . .

لكن الشيخ كان يستنطق أسرارها الكامنة فى الأعماق ، ويتتبع أنوارها السارية فى الآفاق . . ويرى فيها قلبها لا حروفها . . وكنوزها المخبُوءَة . . وعطاياها المِعْطَاءَة . . فكان ربما يمكث فى الآية الواحدة شهرا يفسرها نَاثِراً لآلِئها . . باثًا حكمتها . . وهو مثلا حين يتحدث عن الجزء من الآية :

﴿ ورتّلِ القرآن ترتيلا ﴾ .

يقضى معها وحدها خمسة دروس أو أكثر ، لأن جمال القرآن وجلاله وطريقة تلاوته ، وثواب قراءته . . كل هذا يجذبه جذبا لا يستطيع عنه حِوَلا . . !!

ولن أنسى ذلك الدرس الذى كان يفسر فيه الآية الكريمة :

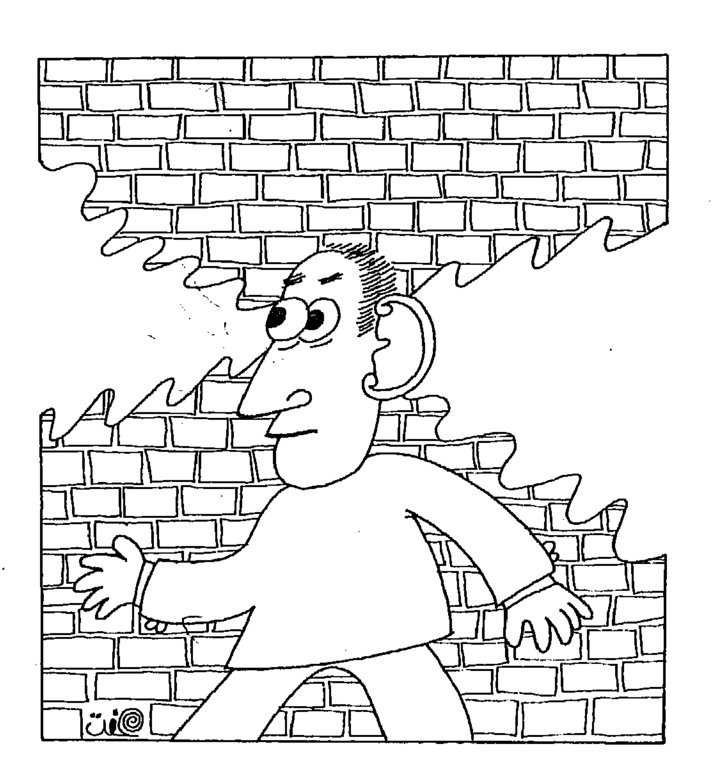
﴿ فكيف تتّقُون إن كفرتم يَوْما يجعلُ الوِلْدَان شِيبا ﴾ . .

وفجأة يتهاوى فضيلته تحت وقع شعور ضَاغِط يهز جسمه كله هزاً عنيفاً ، ويميل رأسه على صدره ثم يستسلم لسكون رهيب ، لبث دقيقتين أو ثلاثا دون أدنى استجابة لحركة أو اختلاَجة . مما فتك بهدوء الحضور وصبرهم ، إذ ظنّوا أن شيخهم قد قُبِض وغادرت روحه الجسد ، فراحوا يبكون وينشجون ، ويصيحون مكبِّرين الله وسائليه لطفه ورحمته ومرددين ـ ﴿ إنا لله ، وإنا إليه راجعون ﴾ .

وإنهم لكذلك ـ إذ رفع الشيخ الإمام رأسه رُوَيْدا رُوَيْدا . . كمن ينتزعه من تحت ثِقَل ضاغط . وإذا وجهه تكسوه صُفْرة جليلة وديعة حُلوة . . هو الذى كان يتمتّع بوجه أمْغر ، شديد البياض مُشْرَب بالحُمرة . .

كنتُ ساعتئذ أجلس مع أخى وبقية المصلّين فى « المبلّغة » حيث رأيت المشهد كله . . فبصرت بحجر الإمام ، وقد ملأته الدُّموع التى انهمرت من مآقيه وهو فى رحلته العلوية الخاطفة . . ورأيت جسمه المُنْهك وكأنه يحاول أن يبعد ترتيب نفسه بحيث يستقر كل ضلع وكل عضو فى مكانه . . ومرت

دقيقتان والشيخ فى صمت مهيب قَبْلما يستأنف حديثه بصوت مُرْهق ، وكلمات تُعانى . .
ولم يُطل الحديث ، بل جمعه واختصره واستَدْنى نهايته وختامه . .
يا الله . . شيخ فى هذه المنزلة العالية من التقوى . . والوِلاَية ، والقَبُول ثم تصنع به آية واحدة مُنْذِرة كل هذا الذى صنعته ؟؟ حقا :
﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ .
وذات ليلة ، وكان يُلْقِى بعد صلاة العشاء درس الفقه . .
كان يجلس ثانيا إحدى ساقيه ، رافعا الأخرى فى وضع رأسى لأنها كان بها ألم لا يمكنه من ثنيها . .
وأنه لَمَاضٍ فى درسه على هذه الجلسة . وإذا به يَثِبُ من مقعده ويضم كلتا الساقين إلى بعضهما ثانيا إياهما صائحا ـ « النبى حضر يا ولد » . . !!
وولّيت وجهى شطر أبواب المسجد لأرى من أيّها الرسول قادم . .
والآن ، وقد قرأت للمؤمنين وللملْحِدين . . للشرقيّين والأوروبيين . . ومرت بى فترات شك وشوامخ إيمان . . لو سُئلت : ماذا تظن أن الشيخ فى ذلك المشهد قد رأى . . أوتصوّر ، أو تخيّل . . ؟؟
أجيب بملء وعْيِى ويقِينى : ساعتئذ رأى الرسول ﷺ رؤية بصر وبصيرة . . رآه كما كان أصحابه يَرَوْنه يَغْدُو بينهم ، ويرُوح . .
أما كيف يحدث هذا فأدنى الأمثلة دلالة صورة التليفزيون .
فهناك غرفة واحدة « استديو » يجلس فيها المُتحدِّث بشحمه ولحمه وحيداً فريداً . . والاستوديو مُغْلق النوافذ والأبواب . . يُفصله عن المشاهدين فى منازلهم عشرات الألوف من الأميال . . وكلهم يرونه ويسمعونه وكأنه يتحدَّث إلى كل واحد منهم . .
ولو أن جهاز « التلفاز » فى بيتك عُطِّل ما رأيت شيئا . . ولو أن بمحطة الإرسال خَلَلا معوقا ، ما رأى الناس شيئا . .
أما محطة الإرسال الإلهية ، فإنها لا تَتعطَّل أبدا ولا تَخْتَلّ ، لأنها تعمل بقدرة من لا يعجزه شىء ولا يؤوده شىء جل جلاله . .
وأما أجهزة الإستقبال التى زوّد بها الفتاح العليم رُسله وأنبياءه وأولياءه ، فهى وحدها تستقبل ، وتتلقّى ، وتسمع ، وترى . .
هذا مثل هامشى لتوضيح الفكرة وتفسير المشهد . .
وهو يُضرب للذين لا يؤمنون بالغيب . . ولا يرون إلا تحت أقدامهم . .
أما الذين رزقهم الله « فقه العقيدة » وبصيرة الإيمان ، فإنهم يرون فى هذا الذى تلألأ به موقف الإمام أقل العَطَايا والهدايا والنَّفحات .
ومن حُسن الحظ أن معى تجربة شخصية صادفتنى فى سنوات تصوُّفى العميق والصدوق وقبل أن أخرج ـ واحسرتاه ـ من الجنة . .
وإليكم النبأ كأنكم تُبصرونه ، بل كأنكم أصحابه وذَوُوه . .



رأت عيناى .. وسمعت أذناى

ذات يوم ، ذهبت لزيارة سيدى « أبى عبد الله الحسين » عليه السلام . . وأعَجلَنى أمر ما عن الدخول إلى المسجد والضّريح ، فوقفت أمام أبواب المسجد ، وانت فى طريقك إلى بيت القاضى . . حيث يقع على يسارك خان الخليلى . .

وأردت إرسال التحية والسّلام إلى بطل « كَربَلاء » العظيم ، وشَهيدها المُمَجّد وفجأة لم أر أمامى مسجد الإمام « الحسين » . . وإنما وجدت مكانه مسجداً أقل حجما وأصغر مساحة مبنياً بالطوب ، مَسْقُوفاً بِجذُوع النخل وسِيقَانه . وأُلقِىَ فى رَوْعِى لَحْظَتئِذ أنّ هذا الذى أراه مسجد الرسول ﷺ .

كان المسجد خَالياً تَماماً إلا من واحد يلبس عمامة وقد أرْخَى ذُؤَاءبَتِها وتسمَّى « العَذْبة » وكان مُتَّجِهاً نحو القبلة . . وأُلْقِىَ فى رَوْعِى أنه سيدنا « أبى هُرَيْرَة » رضى الله تعالى عنه . .

لم أستطع مع المشهد صَبْرا ، فقد خشيت أن أكون قد أصابنى شىء . . فاخترقت صفوف المارّة أحَمْلِق فى وجُوههم . . وأسأل بعضهم عن التَوْقيت . . وبلغت إلى مَضَايق خان الخليلى أتأمل التُحف المَعْروضة وأسأل أصحابها عن أثْمانِها ـ كُل ذلك لأتأكّد أننى بخير ، سليم العقل ، يَقِظ الوُجدان . . !! والآن ، وقبل الآن ، كلما تذكّرت الواقعة العظيمة ينتابنى ندم ، لأننى لم أستغرق فى المشهد ، ولم أتركه يبلغ فى أمره . . فلعلّه كان ـ بل لا أحسب إلاّ أنه كان ـ بداية لحياة حافلة واصلة تنقلنى إلى أفق جديد من آفاق التصوف والمُشاهدة والمعرفة والوصول . . لكن لله حكمته . . ولله مشيئته . . !!!

ماذا أُرِيد أن أقول . . وما العلاقة بين هذا الذى صادفنى ، ورُؤية شيخُنا الإمام الرسول ﷺ على النّحو الذى قَصَصْتُه عليكم من قبل ؟؟

أريد أن أقول : أنى ـ وأنا يومئذ ـ تلميذ مُبْتدىء أحْبُو على الطريق . وأتَانِى من شفافية الروح وفُتوح الله ، ما جعلنى أرى مسجد الرسول الأول والذى زال من الوجود منذ أربعة عشر قرنا وحل مكانه بناء متجدد فى فخامته ورَوْنَقه . . أقول : إذا فزت بهذه النعمة ، وأنا كما ذكرت ، فماذا عساه ينال من

عطاء ربنا وفُتوحه رجل من المقرّبين الكبار كشيخنا الإمام . . ؟ أكَثِير عليه وعلى نُظَرائه من العارفين أن يَروا سيدنا الرسول فى يَقظَة لا سِنَة فيها ولا وَهم ولا نوم . . ؟؟ .

* * *

هذا المشهد الذى أرانى مسجد الرسول وغيره من المُشاهد والتَجارب الآتية . . لم تحدث فى سِنّى البَاكِرة - الحادية عشرة إلى منتصف الثالثة عشرة والتى قضيتها بين يَدَى شيخنا المُبارك العظيم . .

إنما حدثت فيما بعد ، وأنا أُعايِش خليفته فضيلة الإمام الشيخ « أمين محمود خطاب السبكى » الذى خَلَف أباه الإمام فى رئاسة الجمعية ورعاية أبنائها عام ١٩٣٣ - وَلَبث فى مكانه حتى عام وفاته - ١٩٦٨ -

وفى هذه الأعوام الخمسة والثلاثين فَتح الله للجمعية أبواب فضله ، ودخل الناس فيها أفْواجاً . . وحتى السنوات الأخيرة من عصره المَبرُور ، ورغم الأسقام التى كان يجب أن يُعالجها بالراحة ، لم يُعط هذه الراحة من وقته ولا من جهده كثيراً ، ولا قليلا بل كان يَحْيَا غَادِياً رَائِحاً بين الأزهر - كأستاذ فيه ، وبين الجمعية يحمل تَبعَات قِيادَتِه لها . . وبين أبنائه الرَوْحِيِّين وتلامذته يسعى فى قَضاء حوَائِجهم . . وفى معظم لياليه وأمْسِيَّاته ، كنت تَراه مُسافراً ومعه كَوْكَبَة من وعَاظ الجمعية ، مبشّرين ومُنْذِرين . . ما كان يطمح بسعيه الحثيث فى سبيل الله إلى غرض من أغراض الدنيا - منصب ، أو جاه - أو مال . . إنما يُحَقّق سعادته الروحية بالدعوة الصالحة إلى الله . . وبالسهر على الأمانة التى حملها من والده الإمام فى نشر السنة ومُقاومة البِدَع ، ورعاية الجمعية التى تقوم بهذا الواجب خير قيام . . وكم من اللّيالى الكِثَار ، كان يقضيها ونقضيها معه فى بعض المُدن التى تشهد أحْفَالاً دينية ومُؤْتمرات وَعْظِية حاشدة . . ويطول الوقت ويمتد وهو مُغْتبِط نشط ، لا سَأمان ولا مَلُول . . وكأَىّ من مرة كان ميقات الفجر يُدركنا فى الطريق ونحن عائدون إلى القاهرة . . فنتلمس مُصلّى على شاطىء « ترعة » حتى إذا وجدناها غادرنا السيارة إلى المُصلّى وتوضّأنا ، وصلّينا الفجر ، ثم استأنفنا سفرنا . .

هذا هو الشيخ « أمين خطاب السبكى » خليفة والده الإمام « محمود خطاب السبكى » ، والرجل الذى قضيت مع عهده المُبارك كل سنوات تصوُّفى التى لا أذكرها الآن ، وغدا ، وبعد غد إلا غشينى حزن وأسى ، وأقول فى زفرة الأسى الأسِيف : « لَيْتَها دامت » . .

* * *

فى منتصف رحلتى مع الشيخ حدث تَحوُّل عجيب فى حياتى أخرجنى من الجنَّة التى كنت فيها وردَّنى إلى السياسة والأدب ، والعكوف على قراءة التاريخ والفلسفة والصحافة التى كنت طوال فترة تصوُّفى أضِنّ عليها بدقائق من وقتى . .

بل حدث ما هو أخطر مما سأُطْلِعكم عليه إن شاء الله تعالى بعد أن يبلغ حديثى عن تصوفى مَدَاه . .

* * *

كان الإمام الأكبر الشيخ « محمود خطاب السبكى » قد كتب بين مؤلّفاته الكثيرة والجامعة ، رسالة مختصرة أسْمَاها - « العَهد الوَثِيق ، لِمَن أراد سلوك أحسن طَريق » - وهو دليل سريع لِمَن يُريد المُضِىّ على طريق القوم المهتدين بكتاب الله وسنة رسوله . .

فالتصوف الحق المُضَاء بنور النبوة هو الذى يَسير على نَهْجِ النّبوة ..
كان سيدنا الرسول يقول :
« شَيَّبَتْنى هُود ، وأخَواتُها » يعنى سورة هود .. حتى إذا سأله أصحابه :
وما الذى شيَّبك منها يا رسول الله ؟؟
أجاب : قول الله تعالى :
﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرت ﴾ ..
فالإستقامة ضمير التصوف ، وحقيقته ، وَوجْهتُه .. من أجل ذلك ، كان العارفون يصفون ما هُم فيه من سَبْق وتوْق بأنه كما قال الإمام الغزالى :
﴿ نُور يُقذفه الله ويمنحه ﴾ ..
وكما قال الإمام « ابن الفارض » :

أنتم فُروضى ونَفْلِى
أنتم حديثى وشُغلى
يا قبلتى فى صلاتى
إذا وقفت فى صلاتى
جلالكم نصب عينى
إليه وجَّهت كلى
وسركم فى ضميرى
والقلب طوْر التجلى

ونعود إلى « العهد الوَثِيق » الذى كان أول كتاب قرأْته من مؤلفات الإمام ، وتعلمت منه وِرْد المُبتدئِين الذى كان الشيخ يَنْصح بقراءته كل ليلة قبل النوم ، وأنت مستقبل القبلة ، وعلى وضوء ..
وهو وِرْد يسير أبلغ اليُسْر ، إذ ينْتظِم :
الاستغفار ـ بأية صيغة ـ مائة مرة ..
الصلاة على النبى ـ بأية صيغة ـ مائة مرة ..
ثم الذكر بـ « لا إله إلاّ الله » مائة مرة ..
وهذه المئات الثلاث تُمثّل الحد الأدنى .. ومن يشاء المَزيد ، فالمَزيد خير وبركة ..
ولكن إذ أكْثرتَ من « لا إله إلاّ الله » فالأفضل والأمْثَل أن تقف عن الذكر عندما تجد نشْوَته وحُبوره ، التى لا تَسْأمه أو تَمَله .. وحتى تظل على شوق إليه إلى أن تعود إليه فى الليلة التالية .. لقد صادقت هذا الوِرْد وثَابرت على أدائه ، وكنت أكثر مُثابرة عندما كانت بركاته تَتْرَى ، وأنواره تنسكب فى قلبى وروحى ..
وعكفت على التَهجُّد والصيام ، ورفعنى الورع والزهد فوق كل مُستويات الإغراء والتَّطلع واشتهاء الدنيا وفتنتها ..

لكننا لم نتعلم فى الجمعية التصوف الداعى إلى اعتزال المجتمع والانقطاع عنه ، أو الداعى إلى التّواكل ، والانهزامية ، والتخلّى عن مسئوليات الحياة .. بل تعلمنا التصوف بمعنى صِدْق التوجُّه إلى الله ، وتوْثِيق العلاقة بالله ، وتحمل مسئولياتنا كاملة كمواطنين فى مجتمع ..

ويكفى أن نعلم أن الإمام الكبير الشيخ « محمود » مُنْشِىء الجمعية والجماعة ، أقام مصنعا للنسيج من الأنوال التى كانت تُنْتِج أبدع أقمشة العَبَاءات والملابس والفُوط .. كما كان يشجِّع على العمل والتجارة .. بل ويَحض على مقاومة الانجليز المستعمرين .. ويُبارك الاشتراك فى المُظاهرات المتحدِّية استعمارهم .. مما دَفع « النقراشى باشا » أيام كان عضوا بالوفد ، ومُشرفا مع صديق عمره « أحمد ماهر باشا » على المقاومة السرِّية لجيش الاحتلال - يسعى إلى فضيلته زائِراً ، وشاكِراً ..

ومن طريف ما حدث فى هذا اللقاء سؤال الإمام له : - ماذا تعمل يا ولدى ؟؟

— أعمل عضواً بالوفد المصرى يا فضيلة الشيخ ..

— يا بنى - أنا أسألك عن العمل الذى تعيش منه أنت وأهلك ؟؟

وضحك النقراشى والحضور .. مُدْرِكين حرص الإمام على أن يكون لكل إنسان عمل يعيش من دخله عَيْش الكرام ..

وأنا مثلا ، تصوفت وبلغت مستوى روحيا لا بأس به ، إن لم يكن عاليا ورفيعا .. ومع هذا ، فقد كنت أطلب العلم فى كلية الشريعة ثم فى تخصص التدريس بالأزهر .. وكنت أعلِّم الناس وأمارِس الوَعظ نظير مكافأة مالية نتقاضاها شهريا من الجمعية ..

وبعبارة واحدة - كان التصوف الذى تعلمناه تصوفا « دينَاميكيا » إن جاز هذا التعبير ..

* * *

وأيامئذ تزوجت عام - ١٩٤٠ .. كنت شابا يافعا لم أجاوز العشرين .. ولا أدرى : هل تسرَّعت بهذا الزواج ، أم جاء فى أوانه .. كذلك لا أدرى : مبلغ التوفيق فيه ..

والذى جعلنى أردِّد هذا التساؤل : أنه جاء اعتبَاطاً ..

ذلك أننى كنت أتردَّد بأمر فضيلة الشيخ « الأمين » على إحدى القُرى التى بها أحد فروع الجمعية الشرعية ، وأحد مساجدها .. وكان الشيخ الإمام يُرسل إليها - كما يرسل إلى مَثِيلاتها - أحد الوعاظ يخطب فيهم الجمعة .. كما يُرسل من الوعاظ إلى هذه القُرى والمدن من يمضى شهر رمضان كلّه واعِظاً ومُعَلِّما .

وفى أحد الأعوام ، وبين يَدَىْ « رمضان » جاء إلى الشيخ وفد يرجوه أن أقضى معهم الشهر الكريم .. وكان ذلك بعد فترة طويلة كنت أصاحِبهم أيام الجُمعات وبعد العيد ، أو ليلته ، أهدانى الحاج « أحمد مصطفى » بنت أخته حيث نشأ زواجنا الموعود ..

كانت أغلى أمانى أن أسكن بجوار الجمعية ومسجدها الكبير فى عطفة الجوخدار بالخَيَّامية .. وقد أجاب الله رغبتى ودُعائى ، ورزقنى قبل زواجى بعام بشقة « سلاملك » فى بيت جديد مُلاَصِق للجمعية .. فأتيحت لِىَ كُبرى النِّعَم يومئذ - وهى صلاة الفجر يومياً فى جماعة ، وصلاة بقية الصلوات

عدا تلك التى كنت أغيب عنها مُشتغلا بالدرس فى الكلية .. كما أُتيح لى الأذان لصلاة الفجر دائما .. والمغرب والعشاء كثيرا ..

وإذا لم تكونوا نسيتم ، فقد حدثتكم فيما سبق ، من هذه المذكرات أو الذكريات أن الله المُنعم الوهَّاب منحنى صوتاً رَخِيما ، عَذْبا نَدِيًّا .. كنت أجيد به تقليد « الشيخ محمد رفعت » فى تجويد القرآن الكريم .. وأُقلِّد به « محمد عبدالوهاب » فى أغانيه وتَواشِيحه ..

أما اليوم ، فقد كان مُسخَّرا للقرآن وللآذان وحدهما ..

كان يُخَيَّل إلىّ وأنا أؤذن أن سيدنا بكل ما أتى صوته من نَدَاوة وحلاوة ، هو الذى يُؤذن ..

وكان شيوخنا فى الجمعية وإخواننا يُحبون هذا الأذان ويُطْرونه ويتمنّون سماعه .. وذات مساء أذنت لصلاة العشاء .. ولم يكن هناك من شيوخنا من يؤم المصلِّين فقدمونى لأكون الإمام .. وتلوت بعد الفاتحة إحدى السور الطوال .. وبكيت كثيرا ، وأنا أرتل آياتها المُبَشِّرة والمُنْذِرة ..

ورأيت فى منامى تلك الليلة رُؤيا عجيبة .

رأيت سيدنا « جبريل » عليه السلام يحملنى رسالة إلى الرسول قائلا :

اذهب إلى رسول الله ، وقل له : إذا أردت ألا تنسى .. فاعمل بما تعلم .. أيامئذ كنت أشكو من النسيان ، وضَعْف الذاكرة ..

وإذن ، فهذه الرؤيا ذات موضوع .. وتجىء فى أوانها تماما معلِّمة ومُرشدة ..

بيد أن الأمر لم يقف عند الرؤيا ، بل جاوزها إلى مشهد لا يقل عَجَبا ..

ذلك أننى كنت بعد صلاة الفجر على موعد كل يوم مع القرآن العظيم أتلو ما تيسّر ثم على موعد مع أحاديث الرسول الكريم ، أُطالع منها وأعِى عنها .. وفى ذلك الصباح ، فتحت كتاب « تَيْسير الوُصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ، وعفو الصدقة وقبل أن ألتقى بالباب الذى أريده .. وقع بصرى على حديث يَرْويه أحد الصحابة :

— (مَنْ عَمل بما عَلِم ، ورَّثه الله عِلْم ما لَمْ يكن يَعْلَم) .

ما شاء الله كان ..

فى نومى أرى « جبريل » عليه السلام .. وكأنه يقول لى : لكى لا تنسى : اعمل بما تعلم .. ويَجىء الدرس فى أعلى مستويات الإبانة والبلاغ ..

وفى يقظتى : يقول لى حديث الرسول ﷺ : اعمل بما تعلم يورِّثْك الله علم ما لم تكن تَعْلم ..

ومع أنى كنت أيامئذ شَغُوفا بالعمل الصالح ، فقد التقى الحديث والرؤيا على أمر قد قُدر .. وهو النُصح بالمزيد من العمل ..

* * *

لست أذكر هذا خُيلاء ، ولا زَهْوا .. إنما لتكون تجربتى بين يدى القارىء ، وتحت بصره ، كيْما يعلم أننا بحق حين نمشى إلى الله ذِراعا ، يمشى إلينا بَاعا .. وحين نأتيه نمشى ، يأتينا هَرْوَلَة ..

ودعونى لا أنسى هذه الواقعة الوضيئة ، لقد كان الشيخ الإمام « محمود خطاب السبكى » عالما

ومُربِّيا . .

ومعنى « المُربِّى » فى عالم التصوف ـ الذى له من المَقامات والأحوال ما يجعله بولايته قادراً على الأخذ بأيدى المُريدِين إلى الله ومُراقبة أحوالهم وخُطَاهم . .

أما نجله وخليفته فضيلة الشيخ « أمين » فقد كان عالما وداعيا إلى الله . . وقائدا للأشياع والأتباع فى هذا المجال من التخصص . . بينما « المُربِّى » شيخ استكمل صفات القيادة فى الطريق وفى الدعوة . . فى الشريعة وفى الحقيقة . .

يقول الإمام القُشيْرى :

— يجب على المُريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له شيخ فهيهات أن يكون له فى الطريق فلاح » . . !!

والشيخ المُربِّى « مُجْتَبى » و « سَالِك » وتلك حكمة الله سبحانه . .

يقول الإمام المفسّر « الرازى » :

« لابد للشيخ المُربى أن يكون قد سلك الطريق ، وعرف مراحلها ومنازلها وأطلع على متالفها ومعاطبها ، حتى يُمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل » . .

وكل هذا وِفق الكتاب والسنة ، ولا يزيغ عنهما ولا يسْتعلى عليهما . . والمُريد السعيد المحظوظ المُوفَّق ، هو من يُرزق صُحْبة شيخ من هذا الطراز .

ومن ثمَّ يقول الإمام « الجُنَيد » مُوجِّها المُريد وناصحه :

— « يزن أقواله ـ أى الشيخ ـ وأفعاله بميزان الشريعة ، فإن رأيت منه شيئا مُخَالِفاً للشرع فاتركه ولا تتخذه مُرشدا » . .

ويقول الإمام « ابن عطاء الله السكندرى » :

— ليس شيخك من وجَّهَتك عبارته . . إنما هو من سَرَت فيك إشارته » . .

« وليس شيخك من وجَّهك مقالُه . . وإنما هو من نَهَض بِك حالُه » .

« وليس شيخك من دَعَاك إلى الباب . . وإنما هو من كشف عنك الحِجَاب » . .

« شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك ، حتى تتجَلَّى فيها أنوار ربِّك . . أنهضك فنهضت . . وقادك إلى نور الحضرة ، وقال لك : هانتذا ، وربُّك . . !!

* * *

لقد أفضت فى الحديث عن منزلة الشيخ المُربِّى فى التصوف . .

فهل أعود إلى المناسبة التى جمعتنا بهذا الحديث ؟؟

فى تلكم الأيام كان قلبى يطير شوْقاً إلى شيخ يُربِّينى على منهج القوم ، ويرعى مَسْلَكى ورحلتى إلى الله العلى الكبير المتعال . .

وذات يوم من أيام الأجازة الصيفية وكنت أقضيها بقريتى . . آويت إلى غرفتى بالدور العُلوى من منزلنا . . وإنى لأتهيَّأ لنوم القَيْلُولَة . . حين سبحت خواطرى حول الشيخ « المُربِّى » الذى أتمناه وأتطلع

إلى لُقياه .. وانثال الدمع من عيني انثيالاً مُتداركاً .. واحتواني مضجعي بنوم عميق ..

وإذا بي أرى في المنام شيخا وَقوراً مُشرق الوجه والروح ، يقول لى :

ــ « هوه .. لا تخف .. أولياء الله كلهم معك » .. !!

واستيقظت نشوان مَحْبُورا .. وكأن ملك الدنيا كلها بين يدى .. ورَهْن مَشِيئَتى .. وكذلك كنت دائما طوال فترة تصوفي ونُسكي .. كانت الدنيا عندى لا تساوى جناح بعوضة .. وكانت القناعة كَنْزِى الذى لا يَفْنى .. والزُهد حديقتى وبُستَانِى ..

ذات يوم بعد زواجي جلست وإيّاها في صالة الشقة ، تهب علينا من سقفها الفضاء نسمات عذبة رطبة منعشة ، ونحن نتناول طعام الغداء ..

مِم كان يتكون ؟؟

من قطعة جبن بيضاء بعشرة ملِّيمات وخيار نَدِى طارج بعشرة مليمات وخبز أبيض نظيف ..

وبجوارنا « قُلّة ماء » بارد .. وأنا في سعادة لو علمها المثْرون والمُترفون لحسدوني عليها .. وأقسم ، لقد طاف بي في هذه اللحظات خاطر يتساءل : تُرى لو أُعطِيت ملك الأرض ، وأُلبِست تاجُها على أن تتخلّى عن السعادة التي تجدها الآن ـ أكنت فاعلا ؟؟ .. ووجدتنى أهز رأسى بقوة رافضة ، دَاحِضاً هذا الخاطر ، ورادًا إيّاه على عقبيه ، صارخا فيه : لا .. لا .. لا .. !!!

ألست محقاً حين أذكر تلك الأيام ، فأنَادِيها ـ « لَيْتَها دَامَت » ؟؟ ..

* * *

لَبِثْتُ في هذا الفِرْدَوْس سبع سنوات ، إلا قليلا .

أحيا في درجات مُتفاوتة من القَبُول والتفوق وغبطة الروح واستقامة الضمير .. كنا على الطريق معاً ـ أنا .. والشيخ سيد سابق .. والشيخ عبداللطيف مشتهرى .. والشيخ فرحات حلوة .. والمرحوم الشيخ عبد العزيز عيسى .. والمرحوم الشيخ عبدالباسط عبدالرحمن .. والمرحوم الشيخ أحمد عيسى عاشور .. والمرحوم الشيخ محمود العفيفى .. والشيخ محمد مسعود .. والمرحوم الشيخ محمود العطفى .. والشيخ محمود فايد .. وآخرون من الإخوة والصحاب ..

أما شيوخنا في الجمعية ، فكانوا : ـ فضيلة الإمام « أمين خطاب السبكى » ، والمرحوم الشيخ « درويش الجعبرى » .. والمرحوم الشيخ « على حلوة » .. والمرحوم الشيخ « قطب هلال » .. والمرحوم الشيخ « عبدالله العفيفى » .. والمرحوم الشيخ « سالم هلال » .. والمرحوم الشيخ « محمد القلقيلى » .. وآخرون معهم رضى الله عنهم أجمعين ..

أما بقية الإخوان من أبناء الجمعية ، فكنت إذا أبصرت بهم تحسبهم ملائكة في أزياء بشر .. !!

وكما قلت : لَبِثت في ظلال هذا النَّعيم الروحى الوَارِف سنين عَدداً . حتى بَاغتنى تحوُّل عجيب ..

وبادِيء ذِى بَدْء أقرر أنه ليس في حياة الناس ما يستحيل تفسيره .. مهما يتلفَّع بالغموض والاستبهام .. وقد يصعب عليك تفسير حدث أو موقف يمر بك ، ولكن يكون عند غيرك تفسيره ، وفض مَغَالِيقه .. وما حدث لى ، أملك الكثير من معرفة أسبابه وبالتالى من تفسيره ..

ولكن فوق كل ذى علم عليم . . ومِنْ ثمَّ أحسب أن هناك من يملك المزيد من المعرفة والتفسير . .

وهنا تَسْتَبِين قيمة كتابة المُذَكِّرات أو الذِكْريات لكل من يكون فى حياته ما يُقال . . فعند القُراء والنُقَّاد ما يُثْرِى أى مذكرات ، ويزيد من فُرص الانتفاع بها واستنباط أسرارها . .

. . وقديما قال « سقراط » :

« ليس من الضرورى أن يعنى الشاعر ما يقول ، أو أن يسبر أغواره ويعرف أسراره . . بل إن كثيرين من الشعراء يعرفون من شعرهم ظاهره . . تَارِكين بَواطِنه ومكَامِنه للأذكياء من القُراء ، والحَاذِقين من النُقَّاد الذين يُدرِكون من معانيه ومراميه مالا يُدرك الشعراء أنفسهم » . . !!

نعم ـ وكذلك المذكرات والذكريات هذه كلمات أُخطها بين يَدَىْ حديثى عن التحول الهائل الذى نقلنى من حال إلى حال . .

وأبَادر إلى القول بأنى أشك فى أن هذا التحوُّل جاء بَغْتَة ، أو أنَّه منفصل وأن جذورا له فى الماضى . . ولعله جاء بعثا وئيدا ، وامتدادا جديداً لمرحلة سابقة من الحياة لم تأخذ حظها من الإشباع ، ورغبات صدت عن طريقها وتسلط عليها قهر جسيم وعَظِيم . .

على أية حال ، لِنَمض معاً لنتظر ونسمع ونَسْتَبِين . .

* * *

فى أيام ذلك التحول كنت لا أزال فى عالمى الصوفى . . فتحوُّلى لم يكن وثْباً ولا قفزا . . بل بدأ وأنا فى حياتى النَّاسِكة ، لم أغادرها بعد . . وسار الهُوَيْنا ـ خُطوة خُطوة . . وحين بدأ استسلمت بلا مقاومة لما كنت قد ودَّعته من عهد بعيد . .

فالصحافة ، والكُتب المُعرَّبة ، والمُوسيقى ، والغناء ، والتمثيل ـ أقبلتُ عليها وأقْبَلت علىّ ، وشَغَفَتنى حُبا . . وعادت تحتل من مشاعرى وخواطرى وفكرى ما كانت تملؤه قبل تصوفى بسلطانها المحبوب والمَرْغُوب . .

ورحت أنتظر على شوق بزوغ النهار لأمضى وثبا إلى بائع الصحف الذى كان يُؤَجر لى الجرائد والمجلات كل يوم لقاء عشرة مليمات ـ أحملها إلى البيت وأُطَالعها ثم أعيدها إليه . .

وكثيرا من الوقت الذى كنت أدَّخره لمطالعاتى الدينية ، زحفت عليه تلك الغَرَانيق الجديدة . . وسمعى الذى كان يصغى فى تبتل وإخبات وغبطة لنجوى الروح وهمس الغيوب ، استحوذت عليه الأغنية والموسيقى وشَجَن العاطفة وشَجَاها . .

هأنذا أعود لهويتى الأولى ، ونشأتى البَاكِرة بكل ما كنت أحبه فيها وأهواه . .

والبصر الذى قضى سنوات لا يرى غير السماء مُتأمِّلا ، وغير الأرض مُتعفِّفا ، راح هو خلال عبوره ومسيره يتملَّى وجوه الحِسَان ، ويُتْبع النظرة النظرة ، ولكن فى تحفُّظ وحياء . . واكببت على الفكر الغربى فى مؤلفاته المعرَّبة أقرؤه رُوَيْداً رُوَيْدا . . ثم بعد ذلك جاء الوقت الذى تفرَّغت فيه له ، ورُحت أُطَالعه فى نَهَم وإعجاب . . « تولستوى . . ومكسيم جوركى . . وفيكتور هيجو . . وجوليان والدوس هكسلى . . وفولتير . . وروسو . . وأناتول فرانس . . وويلز . . وإمرسون . . وقرأت لماركس ،

وإنجلز ، ولينين . . »

وبمناسبة ذكر « ماركس » أذكر أننى اشتريت نسخة من كتابه « رأس المال » وكان المرحوم الدكتور راشد البراوى قد قام بترجمته ..وفرحت باقتنائه ، وشرعت أهيىء نفسى لقراءته ، ودراسته . . بيد أننى لم أكد أجاوز فيه بضع صفحات حتى أرهقتنى ، وكلفتنى من أمرى عُسرا . .

فالكتاب ليس فيه مسحة من الأدب أو الإنشاء وكله مصطلحات وكلمات فنية.دقيقة وبعيدة كل البُعد عن طَلَاوة الأسلوب وحلاوة التعبير . .

وعلى الرغم من أن « ماركس » كان فى شبابه شاعرا ، إلا أن العَالم فيه قَهَر الأديب ، وأخلاه تماما عن فكره ووجدانه . . عندما عكف على دراسة التاريخ والاقتصاد وصَياغة فلسفته ونظريته . . وهكذا تميَّز مؤلَّفه الضخم « رأس المال » بجفاف أدبى لم أستطع عليه صبرا ، فتركته وودَّعته . . واكتفيت بأن أقرأ لغيره عنه وعن فلسفته . . ولقد أفادتنى قراءاتى عنه وعن مذهبه الفلسفى فائدة كبرى ، عندما ناقشت فيما بعد رأيه فى الحرية ، ودكتاتورية البروليتاريا على صفحات كتابى ، أزمة الحرية فى عالمنا ، الصادر فى أواخر عام ١٩٦٣ ـ والذى سيأتى الحديث عنه إن شاء الله تعالى .

* * *

فى هاتيكم الأيام تعرفت إلى مفكر شاهق ـ هو الأستاذ « عبد الله القصيمى » . . وإن وصفه لمن الأمور الصعبة . . وإن حياته كلها لُلغز كبير . . كان مكانه أيام يفاعته وصدر شبابه على أول مقعد ، فى أول صف ، بين المتديِّنين المتزمتين أكثر ما يكون التَّزمت ضَراوة وانغلاقا . . ثم بعد ذلك بسنوات كِثَار ، صار مُلْحداً . . أكثر ما يكون الإلحاد إرْعاداً وإبْرَاقاً . .

كان فى بداياته ـ كما عرفت عنه ـ طالب علم بالقاهرة وكان فى شبابه البَاكِر الممثل الذكى للمذهب الوهَّابى ، والمُبشر القدير به ، والمحامى الضَّليع عنه . . حتى إن الملك « عبدالعزيز آل سعود » كان يقول : ـ إن ابننا عبد الله القُصيمى ، هو سفيرنا الحقيقى فى مصر . . كان يكتب المقالات ويؤلِّف الكتب فى الدعوة إلى « الوهابية » والتبشير بها ، والدفاع عنها . . والوهابية هى مذهب الإمام « محمد بن عبدالوهاب » الذى يُعتبر امتدادا لفكر الإمامين الجليلين ـ ابن تيمية ، وابن القيم ـ ووطنه ووطن دعوته هو أذكى « السعودية » .

ومن مؤلفات الشيخ القصيمى كتابه « البروق النجدية فى اكتساح الظلمات الدِّجوية » ناقش على صفحاته فى عنف ولَدَدَـ الشيخ الراحل « يوسف الدِّجوى » عضو جماعة كبار العلماء . .

وكان الشيخ الدجوى من أنصار التصوف والذَّائِدين عنه ـ ومن المؤمنين بالتوسل وفضل زيارة الأولياء الصالحين فى أضْرِحتهم وقُبورهم ، كما كان نَاقِدا لاَذِعا للمذهب الوهَّابى ، وداعيا إلى دحضه ورفضه . .

هذا بينما المذهب الوهابى يَرى فى التوسل بالصالحين ، وزيارتهم فى قبورهم جاهلية ووثنية وشركا . .

هنالك كتب « القصيمى » كتابه ذاك ، مثلما كتب غيره ، داعيا إلى مذهب الشيخ « محمد بن

عبدالوهاب » ومشيدا به ومُتحدِّيا خصومه ومُناوِئيه . .

ومرّت الأيام . . وإذا بالأستاذ القصيمى يُخرج مؤلَّفا آخر من نوع آخر . . فلا دفاع عن المذهب الوهابى . . بل ولا دفاع عن الدين بعضه أو كله . . وكان عنوان ذلك السفر الخطير وموضوعه : ـ « هذه هى الأغلال » . . كان الكتاب هو أذكى قناع تنكرى أخفى به الأستاذ القصيمى اتجاهه الجديد . .

فهو يتظاهر بأنه يُحرِّر الدين من أغلال الأساطير والخُرافات . .

بينما يُدرك الفاحص المُدَقِّق والخبير ـ أن الكتاب مُحاولة مَاكِرة لتحرير الدين من الدين . .

وبالتالى تحرير الإنسان من الدين . .

لم نُدرك ذلك تماماً إلا بعد أن تَوالَت مُؤلَّفاته تحمل إلْحاداً فواحا وصريحا . .

أما قبل ذلك فكنا نحن القراء ، ونحن الأصدقاء نُحسن الظن بـ « هذى هى الأغلال » . . وأذكر أننى نشرت مقالا مُطَوَّلا فى الدفاع عنه ورفض الذين هبوا فى السعودية ينادون بكفره ، ويُطالبون الملك بتنفيذ حد « الرِّدة » فيه . . حين ظهر الكتاب لم يكن فى مصر كاتب كبير ، ولا زعيم شهير إلا ناصر الكتاب والمؤلف ، ويعجب بهما غاية الإعجاب ـ ولا غرو . . فَلِلْقُصيمى أسلوب ساحر وأسِير ومتمكن . .

وله عقل جدلى من أثمن طراز . . وفكره المتوقِّد والمُقْتحم لا تستطيع عنه حِوَلا وأنت تقرؤه ، أو تُحاوره أو تصغى إليه . .

ولو أن المؤمنين اليوم يبذلون من التضحية المستعلية فى سبيل إيمانهم مِعْشَار ما ضحَّى به هذا « المُتمرِّد » العنيد فى سبيل إلحاده واقتناعه ، لكان الإيمان اليوم فى أعلى ذُرَى الحياة الإنسانية جميعها . . لقد أُضطهد وطُورِد وشُرِّدَ وحُرِم على نحو كان أحيانا فوق طاقة البشر . .

ولو أنه كَتَم إلحاده ، وأسكت صوت عقله واقتناعه ، لكان الآن ـ وفى السعودية وطنه ـ يتربَّع فوق واحد من أعلى مناصب الدولة ، ويملك من الثَّراء العريض المُفيض ما إنَّ مَفَاتِحَه لَتَنُوء بالعُصبة أُولى القوة . .

لكنه ركل بقدميه كل مُغريات الدنيا فى سبيل احترام عقله ، وحتى إن ضلَّ السبيل . .

إنه لم يُنافق الناس . . ولم يخدعهم . . ولم يكذب عليهم . . بل واجَهَهُم بوضوح وصراحة ـ كَاشِفا حقيقته ، مُخرِجا خَبَأَه . .

من هنا يجىء إعجابى الشديد والأكيد به ، مع دُعائى له بأن يُعِيد الله القدير إليه إيمانه ، عن اقتناع أيضا ـ كما كان إلحاده عن اقتناع . .

* * *

قلت إن حنينى إلى الأيام الخَوَالِى قد استيقظ ، ومضى يقودنى نحو أحلام تِلْكُم الأيام . . كل شىء عاد . . ولكن فى مستوى أقل . . القراءة . . والسياسة . . وعشق الفن . . والأخطاء ـ حتى الأخطاء . .

فيم كانت تلك البداية إذن ؟؟

ثم فِيَم كانت رحلتى مع التصوف ؟؟
ثم فِيَم كانت هذه العودة الآن ؟؟
لكل موقف تفسيره .. ولا شىء هناك فى حياة الناس يَسْتَعصى على التفسير ..
« فالبدايات فى حياتى يمكن تصورها على أنها كانت إعلاناً ، أو على الأقل « إيمَاءة » إلى وجود شىء ثمين فى داخلى .. يجب أن يُصَان ، ويُنَمّى ويُزَكّى ويُحَافَظ عليه .. »
★ ومرحلة التصوف كانت إمداداً للروح ، وإعداداً للنفس كى تستعد وتتهيأ لحمل مسئولياتها تجاه ذلك الشىء .
★ وبعد .. رحلة العودة كانت سيراً إلى البعد الرابع فى حياتى ، ومواجهة الحياة بكل طاقتى ومُدَّخراتى ..
وأضرب مثلاً لذلك ..
فلقد جاء اليوم الذى غادرت فيه التصوف بشعائره ، وشكله الخارجى .. ولكن بَقِىَ معى وسيظل معى إن شاء الله تعالى جوْهره ومضمونهُ ونبضه وقيمه ..
فالشجاعة فى الحق .. والقناعة .. والزهد .. والصدق .. والتوكُّل على الله والتفوق على هَواتف الزَّيف والباطل ..
كل هذه ومثلها معها ، أفَاءَها علىّ التصوف وزوَّدَنى بها ..
والبدايات المُبكرة فى حياتى علَّمتنى الحرية ، وحقوق الإنسان ، وكرامة الفرد ، والشعب، ومَقْت الظلم والاستغلال ..
ثم جاءت النهايات ، فوظَّفت ذلك كله فى خدمة القيم الكُبرى التى آمنت بها واحتضنتها .. ووضعتها موضع التنفيذ الأكثر قوة ، والأكثر رُشْدا .. حتى أخطائى كانت متسقة مع مراحل حياتى واقتناعى بظروفها صِنْو تقبُّلى لها وتسامُحى معها ..
فهى - أولا - لم تكن نِتاج هوى مريض وضال .. بل كانت ردُود أفعال ما كان منها بُدّ لمُبالغتى فى الأخذ بفضائل فَرِضت من قبل سلطانها على تفكيرى وضميرى وسلوكى ..
★ وأما ثانيا ، فيغفر الله لى رأيى فى نفسى التى كانت تُوعز لى دائما : ان « قدرى أجَلّ من خطئى » ..
وبعد : فإلى هنا تنتهى الحلقة الثالثة والأخيرة عن التصوف الذى لَبِثْت فى رحابه سنوات ، لَيْتَها دَامت .. والذى كانت لى معه تجربة شاهقة ومتألِّقة - قَصَصْت عليكم ما أذكر منها ..
ولعل حديثى عن التصوف قد طال ، لا لِطُول التجربة وغِنَاها فحسب .. بل وليعلم الذين لا يعلمون أن التصوف بمفهومه الصحيح ذُرْوَة سَنَام الدين كله ..
ولأقول للذين يبخسونه قدره ويرفضون - لا سيما من شيوخ الدين فى السعودية - ما هكذا يا سعد تُورَدُ الإبل ..
أنتم تزعمون ، أنكم فى مَقتكم التصوف تتأسَّوْن بالإمام « ابن تيمية » .

وبذلك تقترفون وِزْرَيْن .. أولهما :

رفضُ ما عبَّر عنه سيدنا الرسول بقوله الكريم : « أن تعبد الله كأنَّك تَراه .. فإن لم تكن تَراه فإنه يَراك » ..

وثانيهما :

الإفتراء على الإمام العظيم « ابن تيمية » ودعونا نسألكم :

أكان « ابن تيمية » سيرفض التصوف ويستهجنُه ثم يرفع شيوخه ورُوَّاده وأقطابه إلى أعلى مراتب التمْجيد ، ومنازل الحب والتكريم ؟؟ .. إنه ليقول فى الإمام « الجُنيد » رضى الله عنه :

— كان الجُنيد رضى الله تعالى عنه سيد الطائفة وإمام هُدى » ..

وافتحوا أعينكم على قوله « سيد الطائفة » فهو يعنى بالطائفة المتصوفة .. وليس « الجُنيْد » وحده موضع تكريمه من شيوخ التصوف .. بل يقول :

— كان الجنيد وأمثاله أئمة هُدى » ..

كذلك يقول :

— كان الجنيد رضى الله عنه سيد الطائفة ، ومن أحسنهم تَعْليماً ، وتأْديباً وتقْويماً .. وقال عنه أيضا :

— « الجُنيد شيخ عارف مستقيم .. من اتبعه هُدِى ، ومن خَالفه ضَل » .

كذلك أثْنى الشيخ الجليل « ابن تيمية » على الشيخ « عبدالقادر الجيلانى » وهو من أعلام الصوفية فقال فى الجزئين ـ الثامن والعاشر من مجموع فتاوى ابن تيمية :

— والشيخ عبدالقادر الجيلانى ـ رحمه الله تعالى ـ « من أعظم مشايخ زمانه أمراً بالتزام الشرع والدعوة لترك الهوى والحظوظ النفسية » .. كما عدَّه من أئمة الدين ..

كما تبعه فى هذا الثَّناء تلميذه « ابن القيم » فى الجزء الأول من كتابه الجليل « مَدارج السَّالِكين » حيث قال عن « الجيلانى » :

— « هو الشيخ العارف القُدوة » .. !!

كذلكم الشيخ الصوفى الكبير « بِشْر بن الحارث » يقول عنه الإمام « أحمد بن حنبل » يوم موته :

— « مات بشر رحمه الله » ومَالَهُ فى هذه الأمة نظير إلاّ « عامر بن قيس » ..

وكان سيدنا « عامر » هذا من أعلام الطريق النَّاسِكين العَارِفين ..

ويقول عنه « الدارَقُطْنى » :

— بشر بن الحارث ثقة ، زاهد ، جَبَل ..

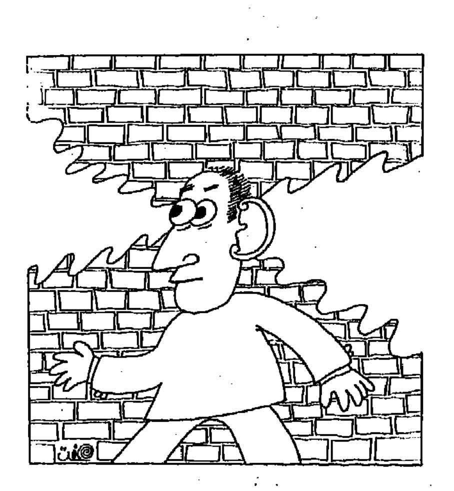
كذلك « الفُضَيل بن عياض » يقول عنه « ابن تيمية » :

— « الفُضَيل بن عياض سيد المسلمين فى وقته ، كذلك » « إبراهيم ابن أدهم » وعشرات من شيوخ الطريق وأئمة التصوف ، حَظُوا بتقدير « ابن تيمية » و « ابن القيم » بل قولوا أنهما ـ ابن تيمية وابن القيم ـ كانا مَحْظُوظَيْن بإجلال هؤلاء الشيوخ الهُداه ..

فأيان يذهبون ـ أولئك القابعون على كراسى التعليم والإفتاء من الذين يَشْجبون التصوف وينقمون على رجاله وفتيانه ؟؟

ومرة أخرى نقول : « أننا لا نعنى بالتصوف السلبية تجاه مسئوليات الدين والحياة ، لأن التصوف ليس مَهْربا ، ولا منفى اختياريا » يأْرِزُ إليه العَجَزة والكَسَالى واللاَّهون ، إنما هو عبادة تضبط العمل .. وعمَل يُزكِّى العبادة ..

* * *



« لقائى بالإخوان المسلمين »

هل كان الإخوان يريدون حكما تطاول استبطاؤه . . ؟؟ سؤال لابد من وقفة معه حين نصحبكهم من يوم بدأوا ، إلى يوم عرَّضوا أنفسهم لِلمِحن الجِسام . .

ولقد زرت دارهم فى سِن مبكرة أيام كانوا يَثْوون فى « شقة » بميدان العتبة الخضراء . . زرتهم مرتين أو ثلاثا ، ولم يكن لى عليهم أى تعليق . وبعد سنوات ، وأنا فى منتصف المرحلة التى قضيتها فى الجمعية الشرعية ـ وربما فى أولها ، أخذت أتردد عليهم فى دارهم الجديدة بميدان الحلمية . وكانت تقع فى مواجهة الدار التى انتقلوا إليها فيما بعد والتى هى الآن مقر لقسم شرطة الدرب الأحمر . .

كنت أغدو إليها وأروح مع الصديق العزيز الشيخ « سيد سابق » . . وكنا كثيرا ما نجد فضيلة المرشد جالساً وسط فنائها يَسْتروح نسمات الأصيل ومعه بعض الإخوان ، فنُجالسه ونستمع لحديثه المُفيض ودَعاباته المُمْتعة . .

وإذا ذهبنا مساء جلسنا معه فى مكتبه ، أو فى الصالة نصغى لمحاضراته . . وكان ذلك قبل أن ينتقل بمحاضراته الأسبوعية إلى الساحة الوسيعة للدار . .

وأيامئذ تعرَّفت بالصديق الفاضل الشيخ « محمد الغزالى » . وسيكون لى حديث طويل عن الشيخ سيد والشيخ الغزالى إن شاء الله تعالى . .

كما تعرفت إلى الشيخ زكريا الزوكة ، والشيخ عبد المعز عبدالستار ، والأستاذ أحمد السكرى ، والدكتور إبراهيم حسن ، والأستاذ توفيق أحمد ، والأستاذ صالح عشماوى . .

وكنت قبل هذا بسنوات قد تعرفت بالصديقين الكريمين ـ الشيخ أحمد حسن الباقورى . . والشيخ محمد نايل . . إبان زعامتهما لثورة الأزهر التى جاءت بالإمام « المراغى » شيخاً للأزهر رغم أنف « الملك فؤاد » الذى قيل يومها أنه بكى وهو يوقِّع مُكرها مَرْسُوم تعيين الشيخ المراغى . .

* * *

كان إعجابى بالأستاذ « البنا » يتنامى دَوْما . . فكل ما فيه يدعو للإعجاب به وبالمودة له : علمه ، وخلقه ، وسَمْته ، وزهده ، وتواضعه ، وتبتُّله ، وجهاده ومُثابرته ، وتفانيه ، وسحر حديثه ، ورُواء بيانه ، وشخصيته كلها ـ الآسِرة والمضيئة . .

ولكن مع هذا الإعجاب المُتنامى به ، كان ينتابنى الحذر . .

أكان حذراً منه ؟؟ أم حذراً عليه ؟؟ لم أكن يومها أدرى . .

كل ما كنت أجده ، شعور غامض بالحذر . .

ولعل هذا الشعور هو الذى حدد علاقتى بالإخوان كمجرد زائر للدار ، ومستمع للأستاذ . . دون أن أرتبط بعضوية أو أى التزام . .

بينما أوْغَل الشيخ سيد سابق فى علاقاته وصِلاته حتى أصبح « مُفتيا ومُعلما » للنظام الخاص . .

وأصبح الشيخ « محمد الغزالى » عضواً بالهيئة التأسيسية وواحدا من قادة الإخوان وحَمَلة الدعوة . .

* * *

كان الإمام « البنا » مُدرسا بمدرسة عباس الابتدائية (نظام قديم) الكائنة بحى السبتية . . وكان عمى الأستاذ « عمر خالد » وكيلا للمدرسة . . وذات يوم كنت فى زيارته . . ورحت أحدُّثه عن تَفَانى الأستاذ المرشد فى الدعوة ، وجهاده العجيب والدُّءُوب الذى لا يترك له وقتا يفىء إلى راحة أو دَعَة . فهو يقطع الأرض وَثْبا ويجوب البلاد سَعْيا من أسوان إلى العريش دَاعيا ومُعلما ومُرشدا . .

فأجابنى عمى قائلا : أضف إلى معلوماتك أنه لا يتخلَّف عن المدرسة يوما واحدا . . وأنه كثيراً ما يَقْرع باب المدرسة فى وقت الفجر . فيعلم بواب المدرسة أنه هو ، وينهض من مضجعه فيفتح له ، ويدخل الشيخ حسن ـ هكذا كانوا يدعونه ـ فيصلى الفجر . . ثم يتجه إلىْ غرفة المدرسين ، فيخرج من قِمْطَره وسادة صغيرة ، وعباءة يلتحف بها وينام فوق « كنَبة » بين مقاعد المدرسين ، مُوصِياً البواب أن يُوقظه قبل موعد الحصص . . حيث ينهض ويتوضأ ويصلى نافلة الضحى ويبعد الوسادة والعباءة إلى مكانهما فى انتظار يوم جديد . . ثم يتجه إلى فصله وتلاميذه . .

وقبل أن يزدحم وقت المرشد بالتبعات والمسئوليات ، كان يقضى بعض الليالى فى بعض المساجد مع أُسَر الجماعة بالتناوُب . .

ولقد شاركناهم أنا والشيخ سيد سابق فى إحدى تلك الليالى ـ حيث صلينا العشاء ـ ثم ألقى فضيلة المرشد محاضرة ، وأجاب على بعض الأسئلة . . ثم وُزِّعت علينا بعض السندوتشات الخفيفة . . ثم صدر الأمر بالنوم فنام الجميع . . وقبل الفجر بأكثر من ساعة استيقظنا بالأمر أيضا ، وتوضأنا ، وراح كل منا يتهجد ويصلى ، حتى جاء الفجر وصدح آذانه ، فصلينا وراء المرشد ، وختمنا الصلاة مُستغفرين ومُسبِّحين . . واستمعنا لدرسٍ من الأستاذ . . ثم صدر الأمر بالانصراف إلى بيوتنا ، كى يتهيَّأ كل منا للذهاب إلى وظيفته ، أو إلى مدرسته ومعهده . .

هذا نموذج لاجتماعيات الأُسَر التى كان يشهدها الأستاذ ، ويقضيها مع الإخوان فى بيوت الله عندما لا يكون على سفر قريب أو بعيد . .

وهذا الرجل المتصوف الأوّاب ، كان أستاذاً فى « فن الزعامة » . . والزعماء السياسيون الذين عاصرتهم ، بل وكثيرون من زعماء العالم الذين قرأت عنهم ، تتقاصر هاماتهم عن هامَته فى الزعامة ألتى كان يتناولها بِيَد أستاذ حاذق وقدير . .

صحبناه أنا والشيخ سيد سابق إلى مؤتمرين كبيرين فى ليلتين مُتتاليتين . . كان المؤتمر الأول بمدينة « طنطا » وكان الثانى فى مدينة « المحلة الكبرى » . .

فى مؤتمر طنطا انتظم السُّرادق بين جنباته مالا يقل عن مائة ألف من الحضور . . دعانى فضيلة المرشد لإلقاء كلمة ، كما دعا قبلى الشيخ سيد سابق . .

وأذكر أننى استشهدت فى كلمتى ببضعة أبيات الشعر كنت قد قرأتها فى « كتاب المواهب اللَّدُونِّية » وتدعو فيها أصوات منبعثة من جوف الأصنام سيدنا عمر إلى الإيمان بالله وبرسوله . .

وبعد فراغى من كلمتى أخذت طريقى إلى مقعدى ، بينما كان الأستاذ المرشد فى طريقه إلى منصة الخطابة فصافحنى مُبتسما وهو يقول لى « أهلا بمُسْتَنْطِق الأصنام » . .

ووقف الأستاذ يواجه الجموع أتدرون كيف بدأ . . ؟؟

بدأ بِلفتة أو بحركة من أذكى ما يُبهر بها زعيمٌ جماهيره . . فقد راح يستعرض مركز مديرية الغربية ، وشهيرات قُراها ـ وأنا لا أعرف أسماء هذه ولا تلك ـ ولكن الأسماء الكِثار الكِثّار التى هتف بأسمائها تُنبىء بأنه ذكرها جميعاً ، أو أتى بأكثرها . .

وبعد كل مركز أو قرية كبيرة ، يُنادى عدداً غير قليل من الإخوان . . ـ الشيخ فلان معنا ؟ الحاج فلان ؟ الأخ فلان ، وكل من يسمع اسمه يقف مُعلناً حضوره ـ نعم يا فضيلة المرشد . .

لبث هذا الاستعراض للأسماء والبلاد والإخوان ، قُرابة نصف ساعة . . وهُتافات التَّكبير والحمد تَتَعالى انبِهَاراً بهذه الذاكرة ، وهذا الوعى ، وهذه الزعامة الفِطِنة العَليمة الحافظة لحق الإخوان على كثرتهم فى أن يكون لهم فى نفس مرشدهم هذه العناية والرعاية . . وهذا الاهتمام والتقدير . . وكان يَقِظاً لكل شَارِدة وَوارِدة . .

ففى صباح اليوم التالى لليلة المؤتمر . . وكنا ـ المرشد والمرافقون له ـ نَبِيت فى منزل الأستاذ (البهى الخولى) وكان المشرف على الإخوان فى محافظة الغربية كلها . . جلسنا إلى مائدة الإفطار فى أعداد كثيرة وبَسط الأستاذ « البهى » يده إلى الراديو لنستمع إلى تلاوة الصباح ، وإذا القارىء يتلو هذه الآية الكريمة :

— ﴿ إن تُريد إلاّ أن تكون جَبَّاراً فى الأرض وما تُريدُ أن تكون من المُصْلِحين ﴾ .

كان يمكن لهذه الآية أن تترك من التشاؤم والتساؤل ما يَتَفاقم خطرُه ، لو تُركت بلا تَعْليق . . والأستاذ المرشد يُدرك هذا تماماً . . لذلك سَارَع يقول ، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة :

— « هكذا قالوا لموسى رسول الله . . وهكذا اتهموه بأنه يُريد أن يكون جبَّاراً لا مُصلحا . . فالحمد لله الذى جعل لنا فى رُسله أسوة وقدوة . . »

وتتبعتُ وَقْع الكلمات على الوجوه فوجدتها منفرجة الأسارير . . مُستريحة ، بَاسِمة وكذلك كنت

أنا أيضا . .

كل ذكاء الزعامة ويقظتها وشمولها ، كان للأستاذ البنا منه أوْفَى نصيب . . ولقد كان فى الصدارة من الذين يألَفون ويُؤلفون . . وكانت شمائله تفتح له القلوب الغُلْف والآذان الصُّم . . ولا يقترب منه أحد إلا أحبَّه . . ولا يحبه إلاّ هَابَهُ . .

ولقد أنشأ جماعة الإخوان عام ـ ١٩٢٧ ـ ومنذ بدأ ، وهو ينتقل من نجاح إلى نجاح ، ويُشرف على تربية الإخوان ـ لا سيما الشباب منهم ـ تربيةً مُثْلى . . ولَكَمْ هَدَى الله به عباداً كثيرين . . حتى كان الهُدى وَبْلاً تجود به سماؤه . . !

فما الذى حَمَل رجلا هذه صفاته وهذه نجاحاته ، على أن يُنْشِىء أو يُوافق على إنشاء « جهاز » النظام الخاص بكل احتمالاته الماثلة ، ومخاطره المقبلة ؟؟ هذا هو اللغز الكبير فى مسيرة الإخوان فلنواصل سَيْرَنا لنرَ . .

* * *

٤ فبراير عام ـ ٤٢ ـ يوم فاصل وزاخر فى تاريخ الإخوان المسلمين . .

ولنا عن ذلك اليوم حديث قادم إن شاء الله . .

وحديثنا هنا علاقته بحركة الإخوان . . وليس عن الأداء السياسى له بالنسبة للقصر ، والوفد ، والانجليز ومصر كلها . .

مع بدء عام ١٩٤٠ أخذَت دعوة الإخوان يعلو أُوَارُها ، ويتَعَاظم انتشارها ، وراح الانجليز يحسبون لها ألف حساب ، إذ كانت الحرب العالمية الثانية تجتاحهم اجتياحاً رهيباً ، وتجتاح العالم معهم . . لذلك طالبوا الملك « فاروق » بأن يعهد للنحاس باشا بتأليف حكومة جديدة بوصفه زعيم الأغلبية بين الشعب . . وعلى أثر تشكيل الوزارة ، كان لابد من إجراء انتخابات جديدة تأتى بمجلس نواب جديد . .

هنالك بدا للأستاذ البنا ، أو أُبْدِى له أن يرشح نفسه عن دائرة الإسماعيلية . . وفرح الإخوان لترشيح المُرشد نفسه ، وسافرت قيادات الشباب إلى الإسماعيلية رافعة لواء الدعوة ، ومبشرين المدينة بنائبها الجديد ، ومهيئة الأسباب لنجاح ساحق يستريبون فيه !

لم يكن هناك ما يُعادل فرح الإخوان فى مصر كلها ، سِوَى حزنهم حين فاجأهم المرشد بالانسحاب من الترشيح !

والذى حدث بين الترشيح والانسحاب يتلخَّص فى أن « مصطفى النحاس باشا » طلب الأستاذ البنا لمُقابلته ، حيث أخبره فى صراحة أن الانجليز طلبوا منه منعه من دخول البرلمان . .

وذكَّره النحاس باشا بأن الانجليز فى حرب ستقرر مصيرهم إلى أماد بعيدة . . وأن العرش البريطانى نفسه لو وقف حجر عثرة أمام انتصارهم لضحوا به غير آسفين عليه . .

كما ذكره بأنه وحده فى برلمان كل أعضائه وفديون لن يكون شيئا مذكوراً ، ومهما يكن صوته عاليا ، فيذهب هباء وبَدداً . .

كما ذكّرهُ بأن الحكومة تستطيع إسقاطه فى الانتخابات حين تشاء ، ولكنه أى النحاس باشا يرجو ألا يضطره المرشد إلى تَلْويث سمعته بإسقاط مُرشح توافرت له فُرص النجاح .

وسمعنا يومها أنه سأله : هل أنت داعية دين أم رجل سياسة ؟؟

إذا كنت تُريد الإسلام حقاً ، فإنى سأمنحك فرصة العمر .. واعداً إيّاك بأن تبذل الحكومة كل ما تستطيع فى سبيل مُعاونتك ، وتهيئة فُرص الدعوة والانتشار لجماعة الإخوان ..

كان منطق الرئيس الجليل قويماً ومُستقيما .. وكان اقتناع الأستاذ المرشد به دليل فطنة ، وآية رُشد ..

وهكذا قرر الانسحاب من الترشيح .. وأقام الإخوان المآتم .. وسُرادقات العزاء فى كل بلد ..

وجاءت أفواجهم مُهرولَة إلى دار المركز العام . يَنْتَحِبون انتحَابَ الشيعة فى ذكرى استشهاد الإمام « الحسين » عليه السلام ..

وعبثاً يحاول الأستاذ تذكيرهم بصلح « الحُدَيْبِية » الذى أعطى الرسول فيه لكفار قريش تنازلات زَلْزَلت أصحابه زِلْزَالاً شديداً .. ثم اعتبرها الحق جل جلاله فتحاً مُبيناً .. إذ نَزّل الوحى يتلو على الرسول ﷺ سورة الفتح التى مطلعها ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ .

وفعلا كان ذلك كذلك ..

فالصلح الذى كان هَواناً للمسلمين أى هَوان ، أفْضَى إلى نصر مُؤَزر ، ثم إلى فتح مكة فوز ساحق وعظيم ..

كان الأستاذ البنا يضرب على هذا الوتر ، قائلا لهم :

ليكن انسحابى هزيمة .. ولكن لا تنسوا درس « الحُدَيْبِية » .. وانتظروا ـ فالليالى من الزمان حُبَالى مُثقلات يَلِدْنَ كلَّ عجيبة ..

ولم يكن أمام الإخوان سوى الصبر والانتظار ..

* * *

ولقد وفّى النحاس باشا بوعده .. وبينما توقف النشاط السياسى للأحزاب جميعها .. وخلا الجو تماماً من مُنافس الإخوان « حزب مصر الفتاة » ، إذ أعتقل زعيمه الأستاذ « أحمد حسين » ونفر من قادته .. تُرِكت الساحة للإخوان يملأونها هُتافا ، وحركة ، ونَشاطاً ..

وما جمعته الدعوة من أنصار قبل ذلك ، وخلال خمسة عشر عاما .. جمعت أضعافه الكثير فى شهور .. ولم يبق بيت فى مصر من أقْصاه إلى أقصاه ، ليس فيه واحد أو أكثر من المُنتمين لجماعة الإخوان المسلمين ..

وصارت لهم مُؤتمرات عَارِمة واجتماعات زَاخِرة دائمة ، تملأ أحياء القاهرة .. كانوا يَحيوْن فى أعياد موصولة ، ومهرجانات لا تُؤذِن بانتهاء ..

ونمت الجماعة نمُواً كبيرا بكل أقسامها ـ لا سيما الأقسام المختصة بالعمال وبالطلاب وبالشباب ..

وكان أسرعها فى النمو وأكثرها نشاطا ـ « النظام الخاص » الذى مهما يُطل الحديث فى تبرير وجوده ،

والدفاع عنه فقد كان تنظيما سِرِّياً ، يُعَدُّ أفراده إعداداً مُسلَّحا ليوم يعلمه الذين يُعدونه .. ولأمر يعرفونه .. ولهدف يُبصرونه ..

وزخر درس الثلاثاء بالألوف الكثيرة التى تحرص على حضوره ..

وكنت أنا ، والشيخ سيد سابق ، والشيخ أحمد عيسى عاشور منَ الحَرِيصين على شُهوده .. وأحياناً كان يصحبنا الشيخ عبداللطيف مشتهرى ، والشيخ فرحات على حلوه .. وكنا جميعا من وعاظ الجمعية الشرعية ..

وأذكر أن الأستاذ المرشد تحدث فى أحد تلك الدروس عن شيخه فى الطريق الشيخ « الحُصافى » رضى الله عنه فقال :

أنه عندما صح منهما العزم هو والأستاذ أحمد السكرى على تكوين جماعة الإخوان ذَهبا إلى الشيخ يستأذِنَانِهِ ويسألانِهِ النصح والدعاء ..

فأذِن الشيخ لهما ، وقال :

سيجمع الله حَوْلَكُما خلقاً كثيرين ، فاتقوا الله فيهم ..

وما إن فرغ الأستاذ من ذكر هذه النبوءة حتى وجدتنى أسرح مع خاطر مُلح ، يقول لى : إذا صحت نبوءة فضيلة الشيخ ، فإن الأستاذ البنا لن يصل إلى منتهى الطريق التى رسمها لنفسه ولجماعته .. لأن الشيخ وقف عند قوله : (سيجمع الله حولكما خلقاً كثيرين) ولو كان هناك مزيد لتنبأ به ..

وها هم أولاء الخلق الكثير يتجمعون - وسوف يتجمعون أكثر وأكثر .. فماذا بعد هذا ؟ ..

بعد انتهاء المحاضرة ، وأثناء عودتنا إلى منازلنا قصَصْتُ على إخوانى نبأ هذه الخاطرة ، فتلقَّوْها بمزيج من التأمل والضحك ..

وبعد يومين أو ثلاثة كنت أسير فى شارع الأزهر بصحبة الشيخ محمد الغزالى ، والشيخ زكريا الزوكة ورويت لهما ما حدث .. فإذا الشيخ الغزالى يقول فى أسى واضح : إن هذا الإحساس يُلم بى كثيرا .. ويقول الشيخ زكريا : وأنا أيضا .. وفى رأيى أن الأستاذ البنا « زعيم تَهيئة » ولن يزيد ..

وفعلا كشف المستقبل أن الأستاذ المرشد كما وصفه الشيخ زكريا تماما « زعيم تهيئة » فقد هيأ الأرض والمناخ والناس .. ثم مضى إلى لقاء ربه محبورا ..

* * *

ولكن يبقى السؤال الذى استهللنا به هذا الحديث ، وهو :

— هل كان الإخوان يُريدون حُكما ، تَطَاوَل استبطَاؤُه .. ؟؟

وأبدأ إجابتى مُؤكِداً ، أن من حق كل حزب سياسى ، وكل جماعة مُصْلِحة أن يطلبا الحكم ، ويَسْعَيا إليه ، ما دام سبيلها لهذا ، الوسائل النظيفة والمشروعة .. والإخوان حتى على فرض أنها جماعة إصلاح دينى واجتماعى لا غير ، فإن من حقها الوصول إلى الحكم لأن الله يَزَعُ بالسلطان ، مالا يَزَعُ بالقرآن ..

فكيف وهى تضيف إلى دورها الإصلاحى دوراً سِياسِياً لم تُنْكره على نفسها ، ولم تَخْفِه عن

الناس . . إذ يهتفون صَباح مَساء : « الإسلام دينٌ ودولة » . . فمعنى « دينٌ » أنه مسجد . . ومعنى « دولة » أنه حكومة . . !!

إذن ـ فمن أين أُتِىَ الإخوان ؟ وما الذى أزلَّ خُطاهم عن الطريق ؟

وأطفأ النور الذى كان يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ؟؟ . .

من مُعاصرتى الأحداث فى تلك الحُقبة من الزمان أستطيع حَصْر عوامل التَعرِية التى أصابت الجماعة فى اثنين لا ثالث لهما :

فأولهما : التنظيم السرِّى بسوْءاتِه وحَماقَاتِه وجَرائِمه . .

وثانيهما : غياب الإيمان بالديمقراطية واحترامها وبَثْ الولاء لها فى ضمائر الإخوان ، وفِكر الجماعة ، وسلوك القادة . . !!

* * *

فى حديث صحفى أذكره تماما قال الأستاذ البنا لمجلة الاثنين التى كانت تصدر أسبوعية من دار الهلال :

— « أننا نؤمن بأن الغد سوف يختصُّنا بِتَبعاتِه » . . !!! فالإيمان بأن الغد سيخْتَص جماعة دون غيرها بِتَبعاتِه ومسئولياتِه واحتياجاتِه ـ يتطلب إدراكاً ذكياً ومُخلصاً وسديداً لظروف الغد من خلال اليوم . . ولِحَتْمِيَّات المستقبل من خلال الحاضر . . وقبل ذلك يتطلب تجرداً كاملاً وتفرُّغاً أكيداً لجعل الغد خطوة إلى الأمام ، وصديقا حميماً للمعاصرة . . وتوشيته بكل القيم الكبرى دينية ، وأخلاقية ، وسياسية ، وإنسانية ، واجتماعية . .

وأن يكون ملكا للناس جميعاً . . وليس ملكا لحزب أو جماعة أو طائفة ، أو قائد أو زعيم . .

فهل كان الإخوان كذلك بالنسبة للغد الذى سيختصُّهم بِتَبعَاتِه . . ؟

وهل كان الأستاذ المرشد كذلك ؟؟

إننى أريد لهذه المذكرات أن تكون شهادة حق أؤدِّيها . . وليست كلمات أُنمِّقها ، أو خطبة ألقيها . . ومن ثم يجىء جوابى عن التساؤل السالف فى كلمة واحدة هى : « لا » . .

فلا الإخوان ، ولا قيادتهم كانوا فى مستوى تَبعَاتِ الغد . . بل ولا فى اليوم بالمفهوم الذى أسلفناه لهذه التبعات . .

ولقد كان الأستاذ البنا بخصائصه المتفوِّقة قادرا على الصعود فوق هذه المستويات لو أنه خَطا ثلاث خُطوات :

أولاها : الرفض المطلق لقيام ـ النظام الخاص ـ لا سيما بعد أن أقبل الناس على دعوة الإخوان أفواجاً وأسراباً . .

ثانيتهما : بَثْ الولاء للديمقراطية فى نفوس الشباب ، بنفس القدر الذى يبث به الولاء للدين . . فالديمقراطية السياسية والاجتماعية هما سِياج الدين المنيع ، وسِياج الوطن أيضا . .

ثالثتهما : الصبر على المكاره مما يصيبه ويصيب الإخوان معه . . لا سيما وهو القائل كثيرا والمُردِّد

دَوْماً : الزمن جزء من العلاج . كما أنه المُتَأسى بسيدنا الرسول القائل : « اللّهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون » . . والذى لبث قومه بمكة ثلاثة عشر عاماً يَتلقّى الأذى والسُفالات ، ويرى خيار صَحْبِه يُعذبون أنْكَى العذاب ، فلا يستطيع لهم نَصْراً ، ولا يملك إلاّ دعوتهم للصبر ، وموعدهم الجنة . . !! لم يشكل منهم أو من بعضهم ـ تنظيماً سِرِّيا ـ وكان عليه من القادرين . .

ولقد ظل صابراً ومُصابِراً حتى أقام بالمدينة مجتمع الإسلام ودولته . . وهناك ـ لا قبل ذلك ـ كان لابد أن يحميهما ـ المجتمع والدولة ـ من كل عدوان وبُهتان . . السيفُ بالسيفِ ، والرمحُ بالرمحِ . . وفى القصاص حياة . . !!

* * *

قلت : أن الخطوة الأولى نحو مستقبل رشيد للإخوان يجعلهم أهلا لأن يختصهم الغد بِتَبِعَاتِه ـ كانت الرفض المطلق لقيام التنظيم السرى الذى أسموه النظام الخاص . .

فماذا كان هذا النظام أو التنظيم ؟؟

إنه المسئول عن كل ما أصاب الإخوان من بلاء وشقاء . . ومن مخاطر وأهوال . .

وأبادر فأعترف بأننى حين سمعت عنه ، وأُنبئت به تمنيت أن أكون أحد أعضائه ومجَنَّدِيه . . لكن الله سلّم . .

وأذكر أننى كنت يوماً والشيخ سيد سابق نركب مع فضيلة المرشد عربة متواضعة ، وأفضت فى حديث عن التضحية التى تَقَاعَس المسلمون عنها فباءوا بخذلان . .

ولعله ظفر باستحسان المرشد وإعجابه ، فسألنى :

— هل الشيخ خالد متزوج ؟؟

وأقسم بالله أننى أحسست فى اللحظة التالية لتوجيه هذا السؤال إلىّ أنه يعنى أو ربما يعنى رغبة الأستاذ فى ضمّى إلى النظام الخاص . . وحسبت أن زواجى سيحول بينى وبين هذا الترشيح المظنون . . من ثم سارعت مجيبا : نعم . . أنا متزوج . . ولكن ما الزوجة . . وما الولد ، وما الأهل جميعاً إذا مَنَعُوا عن الإنسان نعمة التضحية ومثوبتها ؟؟ ألاَ صدق ربنا العظيم :

﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عَدُوًا لكم ، فاحذَرُوهُم ﴾ .

وتهلّل وجه فضيلته المرشد رضاً بما يسمع ، وَرَبت بيمينه على كَتِفى ودَعا لى : « وفقك الله ، وبارك فيك » . .

إذن تمنيت الالتحاق بالنظام الخاص ، وأعجبت بفكرته . . قبل أن تتلوث يداه بالدم الحرام . . ولكن ، ماذا كان هذا النظام ؟؟

* * *



(فذكر .. إن نفعت الذكرى)

سأبدأ حديثى عن التنظيم السرى ، من حيث بدأت أسمع به وأعرف أنباءه .. ولعل ذلك كان عام ـ ١٩٤٢ ـ أو ـ ٤٣ ـ .. ويومها عرفتُ طريقة تشكيله ، وأهدافه وغايته كما عرفت اسم قائده ، والمشرف عليه وهو :

« عبدالرحمن السندى » شاب متدين تقى .. مريض بالقلب ، مُرشح للموت المباغت ..

والعجيب أن مرضه هذا وترقبه الموت فى كل لحظة ، كانا وراء ترشيحه واختياره ليقود التنظيم السرى (!!!) الذى تتطلب قيادته عافية الجسد والنفس والعقل ..

لذلك سنرى كيف الْتَاثَت الأمور بين يديه واضطربت وتمرَّد حتى على « المرشد » نفسه !! كذلك عرفت أن الأستاذ المرشد لم يفاجأ بهذا التنظيم يقتحم عرينه .. بل هو الذى فكر فيه وأنشأه ، واختار له قائده الأول الأستاذ « محمود عبدالحليم » ولما غادر القاهرة سعيا وراء عمله ورزقه اختار قائده الثانى ـ « عبدالرحمن السندى » الذى لم يتم تعليمه الجامعى ، ووقف عند الثانوية العامة ، حيث التحق بإحدى وظائف وزارة الزراعة ..

وكانت حيثيات تشكيله ، كما أعلن الأستاذ البنا فى حينه :

أولا : شنّ الحرب على الاستعمار البريطانى ممثلا فى نفوذه وجيوشه ..

ثانيا : قتال الذين يخاصمون الدعوة ويحاولون إعاقة سَيرها ..

ثالثا : إحياء فريضة الجهاد ..

والذى يعنينا ونحن نشجُب هذا التنظيم السرى ، هو البند الثانى ـ قتال الذين يُخاصمون الدعوة ، ويحاولون تعويق سَيرها ..

فلقد أسرف التنظيم فى هذا السبيل إسرافاً كان السبب الأوحد فى تدمير الإخوان من الداخل والخارج .. وكان السبب الأوحد فى فقد الإخوان أثمن ما يملكون حياة الأستاذ المرشد الذى ذهب فى معركة ثأر شرسة وضارية .. ؟ !

* * *

كانت أولى جرائم النظام الخاص ـ اغتيال « أحمد ماهر باشا » رئيس الوزراء فى الممشى الواقع بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ بدار البرلمان . .

ولنبدأ الواقعة من أوّلها . .

فى أكتوبر ـ ١٩٤٤ ـ أقال فاروق وزارة النحاس باشا . . وعهد بتأليف الوزارة الجديدة إلى الدكتور أحمد ماهر باشا ، الذى قام بحل مجلس النواب ، وإجراء انتخابات جديدة فى يناير ـ ١٩٤٥ ـ تذكرون أن الأستاذ المرشد كان قد رشح نفسه لانتخابات عام ـ ١٩٤٢ ـ ثم انسحب نتيجة لتفاهمه مع النحاس باشا . .

وفى وزارة أحمد ماهر هذه رشح نفسه لمجلس النواب ، وحصل على نصيب كبير من الأصوات . بيْد أنه أعيدت الانتخابات بينه وبين مُنافسه ، فنجح مُنافسه بطريقة لم يشك الإخوان معها فى تزوير الانتخابات لصالح المُنافس . .

وأسَرّها النظام الخاص فى نفسه . وأسَرَّ معها ما كان يجهر به الدكتور ماهر من عداوة للإخوان وتَوعُّد لهم بسوء ، انتظر التنظيم السرى الفرصة المواتية التى سُرعان ما جاءت تخطِر فى زينتها . . ؟ !

وكانت على النحو الآتى :

فى أوائل عام ـ ١٩٤٥ ـ وكانت الحرب العالمية الثانية تلفظ آخر أنفاسها . . تلقَّى « أحمد ماهر باشا » من الحكومة الأمريكية نبأ بأن « الدول الخمس الكبار » أمريكا ، وروسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين الوطنية التى كان يرأسها « كاى شيك » ستعقد مؤتمرا بسان فرنسيسكو للبحث فى إنشاء منظمة دولية تقوم مقام « عصبة الأمم »وأن هذا المؤتمر سيكون وقفا على الدول التى تعلن الحرب على المحوَر . .

كان إعلان الحرب شكليًا بحتاً ، لن يكلف المُعلنين إطلاق رصاصة واحدة ، لأن الحرب قد انتهت بانتصار الحلفاء . . وإعلان الحرب على دول المحوَر ، وعلى اليابان بصفة خاصة ، لن يُكلِّف مصر أية تضحية . .

واتفق الرأى بعد طول بحث وحوار على إعلان مصر الحرب على اليابان ، كى يتسنى لها الاشتراك فى مؤتمر « سان فرنسيسكو » بالولايات المتحدة الأمريكية ومن اللجنة السياسية التى عَهِدَ إليها ببحث الأمر ، واتخذت قراراً بالموافقة ، انتقل الموضوع إلى مجلس الوزراء الذى وافق بدوره . . ثم انتقل إلى مجلس النواب ومجلس الشيوخ . .

وألقى الدكتور ماهر بيانه فى مجلس النواب . . وبينما هو آخذ طريقه إلى مجلس الشيوخ فاجأه فى البهو الفرعونى شاب أطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلا . . !!

كان كل مثقف مُنصف يعلم علم اليقين أن إعلان الحرب قرار شكلى . . وإن كان حزب الوفد لأغراض حزبية تولى كِبر الدعوة إلى اتهام الوزارة بالخيانة ، وبتعريض مصر لخطر أكيد . . وهو يعلم علم اليقين أنه غير صادق فى دعواه ، وأنه لو كان يومئذ فى الحكم لَمّا ارتجف لحظة وهو يُوقِّع نفس القرار ـ نوابه ، وشيوخه ، ووزراؤه ، وزعيمه . . !!!

كان موقف الوفد هذا ، ومعه المُرجِفُون في المدينة أعلى الأصوات المُنادية للإخوان كى يتقدموا لاقتناص الفرصة النادرة .. !!

هناك ذهب أربعة من شباب التنظيم السرى وانتظروا اجتياز الدكتور ماهر البهو الفرعونى فى طريقه إلى مجلس الشيوخ ، وتقدم أحدهم مُتظاهرا بمصافحته ، فلما بَسطَ أحمد ماهر إليه يمينه فاجأه برصاصات استقرت فى قلبه .. وهرب الثلاثة الآخرون وحاول هو الهرب أيضا فأُحِيطَ به ..

وعُرف اسمه « محمود العيسوى » محام تحت التمرين ، ومن أنصار اللجنة العليا للحزب الوطنى ..

* * *

كان التنظيم السرى بَارِعاً فى التنكُّر .. فهو بعد تدريب أعضائه على كل أفانين الإرهاب ، يأمر بعضهم أن يلتحق ببعض الأحزاب أو الجماعات ، حتى إذا اختير يوما لعمل من أعمال الاغتيال أو الإرهاب ، لم يَبْدُ أمام القانون ولا الرأى العام من أعضاء الإخوان .. ناهيك عن أعضاء التنظيم السرى ذاته .. ؟ !

ومن هذا النوع ، كان محمود العيسوى .. فهو عضو فى الإخوان ، وفدائى من النظام الخاص .. وقد بقى الناس زمنا طويلا ، وهم يجهلون عنه هذه الصلة .. وحين ارتكب جريمته لم يُعرف عنه إلاّ أنه شاب متحمِّس من شباب الحزب الوطنى ..

فى الصباح التالى لليلة الاغتيال ، فوجئت وأنا أطالع الصفحة الأولى من جريدة الأهرام بـ « مانشيت » ضخم يقول ـ مصرع أحمد ماهر باشا فى دار البرلمان ..

وفى نفس اللحظة وجدتنى أتمتم قائلا : قتلوه ..

ومرت دقائق ، وأنا واقف على رأس الحارة الموصلة إلى منزلى .. والمارة يتجمعون حول الخبر الأليم ..

وإنى لكذلك إذ رأيت قادما نحوى ، وقد جاء لزيارتى فى هذا الوقت المبكر من الصباح ، صديق كان من الصفوة فى قيادة النظام الخاص .. ولم أنظره حتى نبلغ المنزل بل سألته : أفعلتموها ؟؟ فهز رأسه وعلى فمه ابتسامة عريضة .. وعدت أسأله متأكداً : أأنتم الذين اغتالوه ؟؟ فأجاب نعم .. وكان وجهه يَكْتسِى بزهو المنتصرين .. !!! ولقد لُذْتُ بِكتْمان الأمر كله ولم أَبُح به إلاّ بعد سنوات كِثَار فى حديث أجرته معى مجلة « روز اليوسف » ..

ماذا كان موقف الأستاذ المرشد من هذا الاغتيال ؟؟ وهل رضى به وباركه أو امتعض منه ورفضه ؟؟ هذا ، مالا أعرفه حتى يومنا هذا .. عكس اغتيال النقراشى باشا فمبلغى من العلم أنه وافق عليه ، وشجَّع وبَارك .. لأنه اعتبر حل جماعة الإخوان ، ومُصَادَرة دُورها ومُمتلكاتها حرباً لله ، ولرسوله ، ولدينه ..

ولقد أظهر القاتل « محمود العيسوى » ثباتا عجيبا فى التحقيق معه رغم مالابد أن يكون قد تعرض له من ضغوط قاسية ـ حتى لكأنه من الذين عناهم الشاعر بقوله :

أبنـاء مَـوتٍ يَـطرحـون نفـوسَـهم
تحت المنـايـا ، كـلَّ يـومٍ لقـاء !!

بعد مقتل الدكتور ، ماهر قتل التنظيم السرى للإخوان القاضى « الخازندار » . .

وكانت كل جريرته وخطيئته عند زعماء التنظيم القاتل أنه حكم بالسجن ثلاث سنوات على اثنين من الإخوان ارتكبا عملا إرهابيا . .

قتلوه فى الشارع أمام بيته بحلوان ، أوعلى مقربة منه . . وكان قد غادر منزله فى الصباح الباكر مُتجها إلى عمله . .

وأمام جريمة اغتيال المستشار الخازندار لم يستطع التنظيم السرى التنصُّل أو الإنكار . . وعرف الناس مصدر الخطر الوَبيل ، وعرفه كذلك « النقراشى باشا » رئيس الوزراء ووزير الداخلية .

وتوالت عمليات النسف والترويع . . فى دور السينما ، وأقسام البوليس والشركات والبيوت ، وعلى رأسها شركة الإعلانات الشرقية . وفيما بعد محاولة نسف دار المحكمة بباب الخلق التى كانت ستودى بحياة العشرات من الأبرياء لولا لطف الله ، والعثور على المواد الناسفة قبل انفجارها . . وأُلقيت قنبلة من فوق سطح مبنى كلية طب قصر العينى ، فقتلت اللواء سليم زكى حكمدار العاصمة . .

هنالك رأى « النقراشى باشا » أن مسئوليته كرئيس للوزراء ووزير للداخلية تدعوه إلى مُجابهة الإخوان ، فأصدر فى ديسمبر - ١٩٤٨ - قراراً بحل الجماعة ومُصادرة أملاكها وأموالها . . وعبثاً حاول أصدقاؤه صَرْفَه عن هذا القرار فرفض . . حتى أن أحدهم قال له : هل تعلم أنك بهذا القرار ، إنما توقع نبأ نَعْيِك ؟؟

فأجابه : أجل أعلم . . ولكنى لا أستطيع التخلّى عن مسئوليتى فأكون خَائِناً لها . . ولا أستطيع التخلّى عن الحكم ، فأكون جبانا . . !!

قبل حل الإخوان بأيام ، أوقع القدر بالتنظيم السرى كارثة أليمة ، إذ ضبطت الشرطة صدفة سيارة « جيب » بها أسماء أفراد التنظيم ، وكَثْرة كَاثِرة من القنابل والمسدسات والمواد الناسفة . . فزاد هذا الكشف رئيس الحكومة اقتناعا بقراره وحل الجماعة .

وكانت حياته هى الثمن . .

ففى أواخر ديسمبر - ١٩٤٨ - ألبس المُشرفون على جرائم التنظيم السرى أحد شبابه زى ضابط ، وقاموا بتدريبه بضعة أيام على إنجاز جريمته . . وفى اليوم المُحدَّد لها ، وبينما النقراشى باشا فى طريقه إلى المصعد بوزارة الداخلية ، أطلق عليه القاتل بضع رصاصات هوى على أثرها صَريعاً . . !!

كان اسم الشاب « عبدالمجيد أحمد حسن » طالب بالطب البيطرى . .

وإن تَعْجَب فَعَجبٌ أمر النقراشى معه . . فقد كان أحد شباب الطلاب المطلوب اعتقالهم وشطب النقراشى إسمه من الكشوف بخط يده . .

وكان أبوه موظفاً بالداخلية ، ولما مات قرر النقراشى تعليم ابنه بالمجان . . !!

هذا هو الذى جاءت نهاية النقراشى على يديه . .

ولعل العطف هو الذى أيقظ ضميره بعد أن انطلقت مع رصاصاته كمية الحقد التى كان النظام الخاص قد شَحَن بها نفسه وحقن بها وجدانه بالإضافة إلى الكلمة التى نشرها الأستاذ المرشد بجريدة المصرى تحت عنوان « لَيْسُوا إخواناً .. ولَيْسُوا مسلمين » ..

ذلك أنه أنه لم يكد يسأل عن جريمته حتى كانت الإجابات جاهزة ، والاعترافات يسابق بعضها بعضا .. فاعترف أنه من الإخوان المسلمين .. وأنه عضو بالتنظيم السرى .. الذى اختاره للمهمة التعسة ، وتقدم بأسماء الذين كلفوه ، وأفتَوْا له ولم يترك مما يعرف صغيرة وكبيرة إلا أحصاها وباح بها ..

وفى مغرب أحد الأيام فوجئنا بالبوليس يقتحم عطفة الجوخدار بالمغربلين حيث يقع مبنى الجمعية الشرعية ومسجدها ، ويأخذون بعض المصلين إلى مبنى المحافظة .. حيث أجلسوهم فى فنائها فى أزيائهم المختلفة وسماتهم وأعمارهم المتباينة لكنهم جميعاً مُلتحون .. ثم جاءوا بالشيخ سيد سابق فأجلسوه بينهم حاسِرَ الرأس ومُرتديا جلباباً أبيض - وكان القاتل قد اتهمه بأنه هو الذى أفتى له بحلّ قتل النقراشى باشا .. ثم جِيءَ بعبدالمجيد حسن وطُلب إليه أن يُخرج الشيخ سيد من بين الصف الطويل ويتعرف عليه .. وفى لحظات اتجه صوب الشيخ سيد وأشار إليه .. ثم أعادوه إلى حيث كان ، وأعادوا ترتيب الجالسين وغيّروا أماكنهم .. وجِيءَ بعبدالمجيد مرة أخرى ورغم انتقال الشيخ سيد من مكانه ، فقد اتجه القاتل نحوه مثل لمح البصر مشيرا إليه .. وانتهت المُعاينة بعد المرة الثالثة .

* * *

بعد مرور أقل من شهرين ، دُعى الأستاذ البنا للقاء فى جمعية الشبان المسلمين فى حفلة من لقاءات كانت تمثل مَسَاعِى للصلح .. وإنه لبسبيله إلى مغادرة الدار ، وإذا الرصاص يَنْهال عليه .. ويُنقل إلى مستشفى قصر العينى بين الحياة والموت .. وهناك أسلم روحه لبارئها .. وأذكر أننا توجّهنا صباح اليوم المُحَدَّد لتشييع الجنازة أنا والشيخ محمد الغزالى لنُودِّع المرشد الوداع الأخير .. فإذا بميدان الحلمية غاص بالجنود والضباط والمُصفّحات ، وكأنه ساحة حرب .. ولم يكد أحد الضباط يرانا نَحُوم شَطر « شارع المدارس » حتى نَهرنا وأمرنا بالانصراف .. وإذ أخبرناه بأننا نُريد الاشتراك فى تشييع الجنازة ، قال :

الجنازة شُيعت من بدرى ..

لم يكن هناك أى أثر لجنازة شُيعت ، أو جنازة ستُشيع ..

هناك رأينا - الشيخ الغزالى ، وأنا - أن نتوجه إلى جريدة الأهرام وننشر بها نَعْيا للأستاذ .. وإذ نحن سائران فى شارع محمد على ، لَقِينا أحد الإخوان من أصدقاء الشيخ الغزالى .. ولمّا عرف عزمنا قال : إذن ، حمدا لله على الصدفة التى جمعتنى بكما .. فإنكما لو ذهبتما إلى الأهرام لم يكن النعى سينشر ، ولا كنتما ستعودان ..

إنهم حين سلّموا جُثمان المرشد لوالده اشترطوا عليه ألا تكون له جنازة ، ولا سُرادق ولا نعى يُنشر فى الصحف .. وهكذا شَيّع جُثمانه إلى مقره الأخير - أبوه .. ومكرم عبيد باشا ..

قُتل النقراشى باشا . . وتبعه الأستاذ حسن البنا . . وخسرت مصر الرجلين . .

فماذا أفاد النظام الخاص ؟؟ وهل كان له مما حدث ما يجعله يتذكّر أو يخشى ؟؟ أبدا ، ، فقد سَدَر فى غَيِّه ، وراح قادته يخبطون خبط عشواء غير مُبالين بقتل الأبرياء ، فوضعوا فى محكمة الاستئناف بباب الخلق حقيبة مملوءة بالمُتفجرات كى تُدمر مضبوطات سيارة « الجيب » وقال لى من يعرف خفايا التنظيم وخَباياه . . إن الذى أمر بوضعها أحد قادته وكان اسمه فى الكشوف المضبوطة ، فأراد أن يخفى الآثار كلها . . وهو لا شك يعلم أن الانفجار المروِّع لن يخفى معالم جريمة النظام وحدها . . بل سيقتل أبرياء كثيرين ، ويهدم بيوتاً كثيرة فوق رءوس الذين يَقْطُنونها من نساء وأطفال . . ولكن ماذا يعنيه وماذا يُضِيره ، إذا دفع هؤلاء حياتهم ثمناً لِنَجاته هو من العقاب . .

قال لى العليم بتلك الخفايا . . إن الذى أمر بوضع المتفجرات ، كان « المهندس سيد فايز » الذى اختلف فيما بعد مع « عبدالرحمن السندى » حول زعامة الأستاذ الهضيبى للإخوان ، فقتله « السندى » قتلة تناهت فى النذالة والغدر . .

كذلك حاول التنظيم السرى اغتيال « إبراهيم باشا عبدالهادى » رئيس الوزراء الذى خلف النقراشى بُعَيْد اغتياله . . لكن قنابلهم ورشّاشاتهم أخطأته إلى « حامد جُودة » رئيس مجلس النواب فنجا . . أمّا القتيل فكان حوذيا بريئا تصادف مروره فقضت عليه إحدى شظايا القنابل المشئومة . . !!

* * *

هل ظلّت جنايات النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين موجهة إلى الخارج فقط ـ خارج الجماعة والدعوة ؟؟ أم انقلبت على الجماعة نفسها تَعِيثُ فيها وتُدمر أمنها ونظامها ومستقبلها . .

لقد كانت آفة النظام كامنة فى تَعَجُّله الوصول إلى الحكم . . ثم فى تعصّبه للفكر الإخوانى ونَبْذ كل ما عَدَاه . . ثم فى غياب الوعى السياسى الرشيد عن تفكيره . وكُفْرانه بالديمقراطية . . ولقد كانت هذه جميعا سمة مشتركة بين الإخوان المسلمين إلاّ قليلا منهم . . وفى مثل هذا المناخ يفرخ العنف ويبيض ، ويصبح التطرف ـ إلى حد استباحة الدماء ـ شعيرة أو فريضة . . وقد كان للأستاذ المرشد من ذكائه ما يَفِىء عليه يقينا بأن قيام تنظيم سرى فى مثل هذا المناخ الخانق سيكتوى بناره ذات يوم الإخوان أنفسهم ، والمرشد ذاته . .

فكيف أَذِنَ بقيامه ، وأشرف على اختيار قُوّاده ؟ !!

يقول بعض الإخوان أن الأستاذ لم يكن يعلم عن هذا النظام الخاص شيئا . . ونقول لهم : هذا كلام له خبىء . . معناه ، ليست لنا عقول !!

فليقولوا : إن بعض الجرائم فُوجىء بها ـ مثل جريمة اغتيال المستشار الخازندار مثلاً . . ومحاولة نسف المحكمة بمن فيها أو ما فيها . . فقد يُسيغ العقل ذلك القول . .

أما النظام الخاص فبشهادة الأستاذ نفسه أنشىء بعلمه ، وإن كان فيما بعد قد انقلب عليه . . ويحدثنا « صلاح شادى » أن الأستاذ المرشد أراد أنْ ينشىء نظاما خاصا ثانيا اختاره لقيادته وأسماه « قسم الوحدات » ومهمته استقطاب ضباط الجيش والشرطة . . ولكن « السندى » رفض هذه

الازدواجية !!

كما يحدثنا فى كتابه « صفحات من التاريخ » أن الأستاذ المرشد عرَّفه بعبدالرحمن السندى باعتباره المسئول عن النظام الخاص « التنظيم السرى » وأنه دُهِش حين رأى « السندى » يعامل « المرشد » معاملة النِّد للنِد . . !!

ولقد بلغ من تحدى « السندى » لقيادة الإخوان أنه حاول يوما أن ينفصل بنظامه عن الجماعة ، مُتهما قيادتها بالجبن . . !!

ولقد كان الأستاذ « البنا » قد جعل الدكتور حسين كمال الدين والأستاذ صالح عشماوى مُشْرفين على النظام الخاص ، وأمر « السندى » بالرجوع إليهما . . لكنه لم يفعل وكان ردُّه على هذا التوجيه الانفراد بقرار نسف شركة الإعلانات الشرقية . .

وحين اختلف مع المرشد الجديد الأستاذ « الهضيبى » قال : إنه بنى هذه الدعوى مع الشيخ حسن البنا ، وإنه سيهدمها طوبة طوبة كما بناها . .

هكذا يهدمها طوبة طوبة بسبب خلاف شخصى مع الأستاذ « حسن الهضيبى » مرشده وقائده . . ليس ذلك فحسب . . بل إنه طلب من الشيخ السيد سابق فتوى باغتياله . . واسْتَأنَاه الشيخ سيد حتى يفكر . .

يقول لى الشيخ ـ سيد ـ إنه لم يكد يُغادر منزل « السندى » إلى الشارع حتى سمع قارىء الإذاعة يتلو الآية الكريمة : ﴿ ولا تَقْتُلوا النفسَ التى حرّم الله إلاّ بالحَق ﴾ . . وكأن القارىء ينتظره بها . . فأخذ الشيخ سيد العِظَة ، وامتنع عن الذهاب إلى السندى ـ لا بالفتوى التى كان ينتظرها ، ولا بدونها . .

وسرت روح التحدى لقادة الجماعة بين غير السندى من رؤساء التنظيم السرى . .

فعلى الرغم من أن « سيد فايز » كان يحاول أن يكون مُلتزما ومُطيعا . . فقد ذهب إليه « صلاح شادى » قائد النظام الخاص رقم «٢» ليبلغه أوامر المرشد « الهضيبى » بعدم الإقدام على نسف المحكمة ، وكان الأستاذ المرشد قد أطلعه بعض الإخوان على خطة النسف . . لكن سيد فايز المعروف باحترام أوامر قيادته تجاهل أمر المرشد ، وحاول نسفها لولا أن الله سلَّم وكشف القدر فى اللحظات السابقة للانفجار تلك الجريمة النُّكراء !! وانعكست قَتامة التنظيم السرى على الإخوان وتحوَّلوا إلى مِزَق ونِثارات ، وأمسى كل فريق عَيْناً للثورة على الفرقَاء الآخرين . . !!

فكنت تسمع عن « جماعة حلمى المنياوى » . . و « جماعة منير الدلَّة » . . وجماعة « محمود جودة » . . التاجر بالموسكى . . واضطربت الخيوط فى أيدى القيادة العليا للإخوان . مما زاد الأمور تعقيداً . .

فقد أصدر المرشد قرارا بفصل عبدالرحمن السندى ونفر من شيعته . .

ثم أصدرَ قرارا آخر بفصل الأستاذ صالح عشماوى ، والشيخ محمد الغزالى ، والأستاذ أحمد عبدالعزيز جلال ، وإيقاف عضوية الشيخ سيد سابق لتعاطفهم مع « عبدالرحمن السندى » . .

وهاجم التنظيم السرى مسكن الأستاذ الهضيبى فى منتصف الليل لإرغامه على الاستقالة . . وقام

هنداوى دوير بتَصرّف شخصى بَحْتٍ دون إذن من قائده المُباشر فى التنظيم السرى ، وكان « يوسف طلعت » الذى عيَّنه الأستاذ الهضيبى بعد فصل « السندى » . .

أرسل هنداوى دوير دون إذن من قيادته محمود عبداللطيف ، الذى أطلق الرصاص على « جمال عبدالناصر » فى حادث المنشية بالاسكندرية . . ؟ !

وطفق الإخوان يكيد بعضهم لبعض ـ وحين أقول الإخوان ، فإننى أعنى بعضهم الردىء ، ولا أعنى الكثيرين من الخيرين المخلصين الشرفاء . . !! بعد أن حلّ جمال عبدالناصر جماعة الإخوان عام ـ ١٩٥٤ ـ كان المتعاونون معه من الإخوان يرشحون من يفرج عنهم من المعتقلين . . ومن يبقون رَهْن الاعتقال .

فالحاج « أحمد حسنين » مثلاً كان من قادة الإخوان وقادة التنظيم ـ وحوكم فيما بعد وأظن أنه حُكِم عليه بالسجن المؤبد . .

بعد الإفراج الأول عن معتقلى الإخوان تقدم المتعاونون مع الثورة يساومونه على الانضمام إليهم . . ولما رفض أعيد اعتقاله مرة أخرى . . !!

والدكتور حسين كمال الدين وكان من زعماء الإخوان وصالحيهم ـ رُوى أنه اعتقل بناء على توصية أحد الإخوان من جماعة « حلمى المنياوى » وجاءت كُبرى الجرائم حين اغتال تنظيم السندى أخاهم فى الله « !! » وفى الدعوة ، وفى التنظيم المهندس « سيد فايز » . .

فلما اشتد الخلاف بين الأستاذ الهضيمى وعبدالرحمن السندى . . انحاز سيد فايز لجانب المرشد إحتراماً لقيادته . . وأوغر ذلك صدر السندى عليه ، وتفاقم الخلاف . .

ونلاحظ أن السندى أيامئذ كان للثورة ظهيرا . . وكانت الثورة ضد الأستاذ الهضيبى وتعمل جاهدة لخلعه من زَعامة الإخوان . . وعبدالرحمن السندى قنّاص مَاهِر للفرص المواتية . . وكما رصد من قبل الفرصة التى تُتيح له قتل الدكتور أحمد ماهر . . وجد الفرصة التى يصطاد بها غريمه « سيد فايز » . .

وكان ذلك يوم مولد الرسول ـ ﷺ ـ إذ ذهب مبعوث السندى إلى منزل سيد فايز ، وقرع الباب ففتح له وهنا سأل : الأخ سيد هنا ـ وخدوا بالكم من كلمة الأخ فى هذا المقام ـ وأجيب : أنه لم يأت بعد . . ـ طيب ـ كل سنة وأنتم بخير وهذه حلاوة المولد . ولما يرجع بالسلامة يلموا عليه . . !!

وعاد سيد فايز إلى بيته وفتح علبة الحلوى ـ حلوى مولد الرسول . . فى يوم عيد الرسول . فانفجرت وأحالته جُذَاذاً . . وقتلت من قتلت وكان أبأس الضحايا ـ طفلة صغيرة نضيرة لم تكن من أسرته . . ولكن من جيرته . . ودفعت حياتها ثمناً لهذا الجوار الذى لم تُستشر فيه !!!

والعجيب أنه حين كُلّف الأستاذ صالح عشماوى ، والشيخ الغزالى ، والشيخ سيد سابق لاستجوابه فى هذه الجريمة حَدَجَ الشيخ سيد بنظرة حانقة ، وقال : لقد نفذت فتواك يا شيخ سيد !! وبُهت الشيخ سيد بهذا البُهتان المفاجىء وقال مُستنكراً . . أنا أفتيْتُك بقتله ؟؟

أجاب بكل استخفاف : نعم ـ أنت !!

* * *

هكذا كان لقائى بالإخوان . .

فماذا بقى مما كان ينبغى أن يُقال ؟؟

لعله بقى كثير . .

وكثيراً جداً ما أريد أن أقوله اليوم للمتطرفين . . فها هم أولاء يرون فيما ذكرت - وإنه لصادق كله - كيف صنع العنف بدعوة ، قيادتها أذكى . . وبناؤها أقوى . . وإيمانها أكبر . . وجهادها أعظم . . وتنظيمها السرى أوثق . . وأعْتى . .

ومهما تكن قوة المتطرفين وأعدادهم وإعدادهم ،فلن يبلغوا مِعْشَار ما كان يملك تنظيم الإخوان من وسائل الهجوم والدفاع . .

وعلى الرغم من هذا فقد قضت الجماعة نَحبها بأيدى تنظيمها . .

لذلك إن القتل والتخريب والإفساد والترويع - كلها موضع مقت الله ومقت رسوله . .

وكلها وباء يرفع الله يده عن ذويه وحامليه ، فلا يُبالى فى أى واد هَلَكوا . .

وليس الشديد - فى مجال الدعوة إلى الله - بالصرعة . . إنما الشديد من لا ييأس من روح الله ولا يقعد به عن الدعوة عَجَزٌ ولا وَهَن . . هو من يصبر على الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

لقد شكّل الإخوان المسلمون تنظيمهم السرى ليدَرِّبوا شبابهم على الاستعداد للجهاد . .

وها هم المتطرفون اليوم يزعمون إحياء « الفريضة الغائبة » . .

واستباح النظام الخاص دم بعض قادته وزعمائه ، وها هم المتطرفون اليوم يستبيحون دم بعضهم بعضا . . واعتمد النظام الخاص على العنف المستهتر فى تصفية حساباته ودعم دعوة جماعته . . تماما كما يفعل المتطرفون اليوم - لا فى مصر وحدها - بل فى كل البلاد العربية . .

وكان التنظيم السرى يختار منفِّذِى مشيئته من الشباب الغرير مُضحياً بمستقبلهم مثل أحد قاتِلى الخازندار ، الذى انتقل من دراسته الثانوية ، إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . .

فليعد المتطرفون إلى رُشدهم وليأخذوا من الذين سبقوهم درسا وعِبْرة .

وليتقوا الله فى دينهم ووطنهم وأمتهم . . أليسوا مؤمنين ، أو على الأقل يُريدون أن يكونوا كذلك . .

إذن فالقرآن العظيم يناديهم :

﴿ ألم يَأْنِ للَّذين آمنُوا أن تخشعَ قُلوبُهم لِذِكْرِ الله ، وما نَزَل من الحقِ . . . ﴾

ألا وإن الإسلام لفى شوق إلى أن يَسْمعَهُم يُجِيشون :

« بـلَى آن . . »

« بـلَى آن . . »

اختيار الذات

يتقلّب الإنسان فى ترائب الليالى وأصلاب الأيام . . من الطفولة إلى اليفاعة فالمراهقة ، فالشباب ، فالرجولة ، فالكهولة ، فالشيخوخة ، فيوم المآب . . !!

ومع نمو هذه المراحل من نمو سِنّه وعمره ، يتقلّب فى أصلاب الأحداث والتحوُّلات والوعى والتجارب . .

ولقد قطعت نفس الشوط ، ومشيت ذات الخُطى .

« ومن كُتبت عليه خُطًى مشاها » !!

وكثيراً ما أسائل نفسى : فيم كان هذا المسار ؟؟ من طفل يحبو . . إلى غلام يلهو . . إلى مراهق يحلم . . إلى شاب يزهو . .

من حِفْظٍ مبكر للقرآن الكريم . . إلى مستمع جْيد للعلم فى الأزهر ، وللوعظ من شيخنا الإمام . . ومن مراهق يعشق الفن ، ويبحث عن الحب . . إلى شاب يتولى السياسة ، ويهز المنابر بخطبه السياسية ، فى نبوغ مبكّر له كخطيب . .

ثم إلى عابد ، يخلّف السياسة ومباهج الحياة وراءه ظِهْريا . . فمتصوف صادق النزوع والخشوع ، وواعظ فى الجمعية الشرعية . . وعضو « من منازلهم » فى جماعة الإخوان المسلمين . .

ثم تطوى الأقدار هذه الأيام والأحلام كطى السِّجِلّ للكتب . . لأعود فأبدأ « المشوار » من جديد . . نفس الأحلام ، ونفس الآلام . . ذات الآمال ، وذات الأنشطة والاتجاهات والأعمال . . ولكن فى مستوى أعلى ، وأكثر نُضْجاً ، كالحركة الحلزونيّة . أنها تعود إلى نفس النقطة التى عبرتها من قبل ، ولكن فى مستوى أعلى مما كانته من قبل . .

وتلقاء هذا كله أسائل نفسى : فيم كل هذا ، ولماذا ؟ . .

فيم كنت ؟ وفيم أنا الآن ؟ وهذه المسيرة الطويلة ، أيّان مُرسَاهَا ؟؟

هل هذا بحث عن الذات ؟؟

لا ـ فالذات موجودة فى شتى أزيائها ، وأشكال نموها . .

والتعبير الشائع « البحث عن الذات » ليس إلا نوعاً من الترف البلاغى أو اللُّغوى ..

إذن ، فما هذا الذى كُنْتُه بالأمس ، وأكونه اليوم ، وأعده للغد ؟؟

إنه « اختيار الذات » !!!

فأنا من بين التجارب التى بَلَوْتُها ، أختار ذاتى .. أختارها من وقائع حياتى الدينية ، والأخلاقية ، والثقافية والسياسية ..

أختارها ، وأنا على بينه من أمرى وأمرها ، وأخرجها من ظواهر التجربة وسراءُها ، ومن مجال الأشياء ومكامنها ـ هاتفا :

« هذه ذاتى » ..

هذا هو النموذج الذى أريد أن أكونه بصوابه وأخطائه .. بفضائله ونقائصه .. بصدقه الذى يرفض الزَّيف .. وبشجاعته التى تستعلى على الخوف .. وبكل حريتى وإرادتى ، وعافية نفسى ، وعقلى ، وضميرى ، أختار هذا النموذج لأنه أنا .. وأنا هو ..

ولن أذُوبَ فى الآخرين وأتلاشى وسط زحام الصفوف ..

بل مع الجموع فى هُمومها ، وفى اهتماماتى النبيلة بها ..

أما الطريق ، فطريقى .. والخطو خطوى .. ما دُمت أفكر بحريتى ، وأمضى مع إرادتى .. ومن شاء أن يتبعنى فليفعل .. وإن كنت لا أنصح أحدا أن يعش إمَّعَةً أو تَابِعاً ..

هذا ما أفاءه علىّ تقلُّبى من حال إلى حال .. وتنقلى من ديار إلى ديار ..

أننى اخترت ذاتى ، ولا أقول : وجدتها لأنها لم تكن فى العدم فأوجدها ، ولا فى الغَيَاهِب ، فأعثر عليها .. بل كانت معى بين جنبى وتحت جَوانِحى .. تختارُنى كما أختارها .. وتختار لى ، مثلما أختار لها ..

ودعونى أواصل رحلة اختيار ذاتى .. فأنا الآن ـ أى فى الزمن الذى تحدثكم عنه مذكراتى ـ أعطى السياسة الكثير من وقتى وتفكيرى ، على الرغم من أننى لا أزال مُتصوِّفا وواعظا بالجمعية الشرعية ..

وفى ـ ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ وقعت أحداث ملأت دنيانا وشغلت الناس ..

وبدأت قبل ذلك بوقت ـ حين كان النحاس باشا يزور الصعيد .. وبالتحديد يزور مقام سيدى « عبدالرحيم القنائى » فى قنا .. وكان النحاس يتفاءل بزيارته .. وقلَّما زاره مرة إلا عاد فَدُعِى إلى تشكيل الوزارة ..

وهناك ألقى خِطَاباً رأى فيه الانجليز تحريكا للرأى العام ضدهم ، وكانوا فى حرب ضَرُوس مع هتلر ودول المحوَر ..

وبلغ اهتياجهم أشُدَّه ، حين زلزلت المُظاهرات شوارع القاهرة صائحة : « إلى الأمام يا رومل » !!

وكان رومل القائد الألمانى يقطع الصحراء وثْباً ، فى طريقه إلى الاسكندرية ..

هنالك طلب اللورد كيلرن السفير البريطانى بمصر من الملك فاروق أن يعهد للنحاس باشا بتشكيل وزارة برئاسته ..

ولم يحدد الطلب البريطانى نوع الوزارة ـ أتكون وفدية خالصة ؟ أم قومية تشترك فيها الأحزاب الأخرى . .

* * *

كان الملك فاروق يومذاك فى الثانية والعشرين من عمره . . شاب وسيم بشوش . . لا تمل العين النظر إلى وجهه المُتألِّق تحت الأضواء أضواء بهائِه وشبابه . . وكان حتى تِلْكُم الأيام محمود السيرة ، مُستقيم المَسْلك . . فى شخصه وسياسته . . ومن ثمَّ كان الشعب بكافة طبقاته وطوائفه يُغدق عليه حبه الأثير والغَزير ـ لا سيما وهو يراه يؤم بيوت الله كل يوم جمعة ليشهد الصلاة مع الوافدين إليها . .

كما كان معروفاً بوطنيته وبالحدب على مصر وشعبها . وطَفِق يتأقلم ويتعلم سريعاً منذ وُلِيَ العرش . . بعد رحيل أبيه . .

فمثلاً ـ بعد أن كان يظن أن المقصود بسيدنا « محمد » الذى نصلى عليه فى تشهدنا ـ هو محمد على باشا رأس الأسرة المالكة . . وأن المُراد بسيدنا إبراهيم الذى نصلى عليه أيضا فى تشهدنا ـ هو إبراهيم باشا نجل محمد على باشا . . راح يعرف أن جده الأكبر ، وجده الثانى بعيدان كل البعد عن المقصودَيْن بمن نصلى عليهما ونسلم فىَ الصلاة وخارج الصلاة . .

* * *

فى تلك الأيام وهو يغزو القلوب بِسَناه البَهى . . وبسلوكه الرَّضِى ، واجه أقسى امتحان فى حياته يومى ٣ ، ٤ فبراير عام ١٩٤٢ .

وقيل يومها أن مصر قد اصطلت بعذاب ما حدث يوم ـ ٤ ـ فبراير بالذات :

أما أنا ـ فحتى يومنا هذا ـ لا أحسب أن أحداً طحنته المِحنَة سِوى المتفعين بالحكم وتولى الوزارات . . وسوف نرى . . !!

كانت الحرب فى الشمال الأفريقى مثلها فى كل أرض تدور فيها رحاها ، تسوق إلى الانجليز كل يوم خيبة أمل جديدة ، وهزيمة قاسية . .

وكانوا يتهمون بعض المُهَيْمِنين على سياسة القصر والحكومة بأن هواهم مع المحوَر . . وزاد الطينَ بِلَّة اتخاذ وزارة حسين باشا قراراً بقطع العلاقات مع حكومة « فيسى » الفرنسية والتى كان الحلفاء يضعونها فى قائمة المُوالين لهتلر . .

كنا فى إحدى أمسيات تلك الأيام من فبراير نجلس فى مقهى جروبى مع الأستاذ « على أيوب » المحامى المتفوِّق الكبير ، أنا والصديق العزيز الراحل الشيخ « محمد سعاد جلال » الذى عرَّفنى بالأستاذ على أيوب ـ وسيأتى الحديث عن الشيخ سعاد . .

وكان الأستاذ « أيوب » عضواً بالهيئة السعدية . . وصار فيما بعد وزيرا سعديا لوزارة المعارف . .

وكان ذكاؤه الحَاد ، وحديثه الطلِّى ، يجعلانك وأنت تستمع له تُردِّد قول الشاعر :

« وَدَّ المحدث أنه لم يُوجِزِ »

قص علينا فى تلك الأمسية أن حسين سرى باشا اتخذ هذا القرار من وراء ظهر الملك الذى كان غائبا

فى منطقة البحر الأحمر ، وأن « أحمد حسين باشا » . . رئيس الديوان الملكى اعتبر ما حدث إحراجاً بل لطمة له ، فاتصل تليفونيا بوزير الخارجية ـ وأظنه كان صليب سامى باشا ، وحمّله مسئولية عدم الاعتراض على هذا القرار ، وأمره ألّا يتوجه لوزارته ـ الخارجية حتى يعود الملك من رحلته . . وبعد عودة الملك عرض رئيس وزرائه الأمر عليه ، شارحاً مبررات قراره وراجيا الملك أن يأذن بعودة وزير الخارجية إلى عمله . .

وعاد الوزير . . لكن بعد ثمان وأربعين ساعة تلقّى خلالها مكالمة من « رئيس الديوان حسنين باشا » ، بأن يلزم بيته . .

وأضاف الأستاذ « على أيوب » اللّماح » قولة : ان الخوف يتجسد خطراً من أن نشهد غداً مُظاهرات عاصفة ضد الحكومة . . أو ضد القصر . . أو ضد الانجليز . .أو ضدهم جميعاً ، لتتخذ سبباً فى جر مصر إلى أسوأ عاقبة وأوْخم مصير . .

كانت كلمات الأستاذ « على أيوب » مثَاراً للفزع وهو ينقلها إلينا . . ولكن حواراً خفيفاً وسريعاً جرى بين الشيخ سعاد جلال والأستاذ أيوب فأضْفَى على المَجلس بعض المرح . . إذ ختم الأستاذ على أيوب وصفه الموجع لحال مصر قائلا : وهكذا ترون أن مصر لم تشهد أياماً بالغة السوء ، كما تشهد الآن .

وعقب الشيخ سعاد قائلاً : الآن فقط ؟؟ كأنها قبل الآن لم يكن للسوء عليها سلطان ؟؟ وضحك « على أيوب » وقال ملتقطا القفاز من الشيخ سعاد : يا مولانا أنا قلت « بالغة السوء » . . لا مجرد السوء . .

وعاد الشيخ سعاد مستخدما مرحه وذكاءه الجدَلِىّ قائلا :

يعنى إذا كانت مصر قبل « الآن » تُعانى من مجرد السوء خمسين فى المائة ـ فما نسبة معاناتها « الآن » من أبلغ السوء ؟؟

وأجاب الأستاذ على أيوب ضاحكاً : تُعانى بنسبة تسعين فى المائة . .

وهنا بدا للشيخ سعاد أنه يحكم قبضته وقفشته ، فقال : يعنى الفارق ٤٠ ٪ فقط . . إنها نسبة تافهة تحققها فى بضع دقائق حماقة أوحماقتان يتجشأهما أحد ساستنا الكبار . .

جرى هذا الحوار العابر والساخر ، واللابثون بمجلس الأستاذ على أيوب من زملائه . . وأصدقائه ، وتلاميذه ، ، يَتضاحَكون ، حتى وفد على الندوة أحد أعضائها مهرولاً يقول : لقد شهدت اليوم مشهدين يُنذِران بالسوء . . أولهما : رأيت معركة عنيفة بين البوليس والشعب . الشعب ، مرة واحدة ؟ . .

أجل ، فقد تعودنا المُبالغات إلى حد الإدمان . . فإذا تظاهر عشرة أوعشرون قلنا : ان الشعب يتظاهر . . وإذا جاع عشرة أوعشرون ، قُلنا : ان الشعب فى مجاعة . .

وأخبرنا بما رأى ـ مجموعات من المواطنين تتخطف الخبز من العربات التى تنقله إلى منافذ توزيعه . . ورآها أكثر من مرة وفى أكثر من مكان . . وآخرين يُهاجمون المخابز حاملين ما يجدونه من خبز طازج قد خرج لتوه من الأفران . . والبوليس يحاول منع هؤلاء وأولئك ، فلا يجد للمنع سبيلا . . وكان الخبر مُفزعا حقاً مهما تكن أعداد القائمين بالأمر ـ فإذا كانوا اليوم قلة فغداً يملأون شوارع

العاصمة ، وتتطاير العَدْوى إلى الأقاليم . . وتقع الواقعة . . وهل كانت بداية الثورة الفرنسية إلاّ على أيدى مجموعات من الأيدى التى راحت تتخطف الخبز الذى اختفى من باريس حيث عمَّ الجوع والحرمان . .

إذن هى الفوضى . . إن لم تكن الثورة . . لكن الانجليز فى حرب حياة أو موت ومصر يومئذ تُمثِّل لهم « عُنق الزجاجة » أفيسمحون تحت أى اعتبار أن تسود الفوضى أو تشتعل الثورة ؟؟ كلاّ ، ولو أدى ذلك إلى احتلال أرضها وسمائها وردم نيلها ؟ فكيف حين يجىء شَجى يوم جديد تشهد فيه القاهرة مُجَلْجِلة ، تهتف : « إلى الأمام يا روميل » وكان روميل القائد الألمانى القدير يكنس الجيش البريطانى من ليبيا ويقترب من مرسى مطروح فى طريقه إلى الاسكندرية ، ثم مصر كلها . .

ولقد جاء يوم ٣ فبراير حَامِلاً النذير والأمل الجَلَلَ الخطير . .

★ فالسفير يتحرك فى سرعة وحسم ، مُجَدِّدا رغبة البريطانى « كيلرون » كان قد أبداها الملك فى تشكيل وزارة قومية يرأسها « النحاس باشا » . .

★ والملك يستدعى النحاس لمقابلته يوم ٣ فبراير ويعرض عليه تشكيل وزارة قومية . .

★ والنحاس باشا يعتذر ، فيطلب منه الملك أن ينتظر دعوة أخرى للقائه بعد أن يستشير الزعماء الآخرين . .

★ ويعلم السفير البريطانى بالموقف ، فيقابل رئيس الديوان « أحمد حسنين باشا » ويطلب إليه أن يرفع إلى الملك نصيحته - أى السفير - بدعوة النحاس باشا لتأليف وزارة وفدية مادام قد رفض تشكيل وزارة قومية . .

★ ويقبل يوم ٤ فبراير بهمومه وغيومه . . بصواعقه ورجومه . .

ويدعى زعماء مصر للاجتماع بالملك ، وكان فيهم النحاس باشا طبعا .

★ وألقى الملك عليهم بيانا سريعا قال فيه : إن السفير البريطانى طلب اليوم مقابلة رئيس الديوان الملكى ، وسلمه هذا الإنذار . .

« إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء ، أن النحاس باشا قد دُعِى لتأليف وزارة ، فإن جلالة الملك فاورق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

وغادر الملك الاجتماع داعيا المجتمعين إلى تبادل الرأى والعمل على تجنيب مصر ما يغشاها من صعوبات وأخْطَار .

* * *

★★ والآن ، لنراقب ما حدث جيدا . . فأغلبية الزعماء المجتمعين لم يتجهوا إلى رفض الإنذار . . بل رأوا أبلغ رد مناسب عليه هو تشكيل وزارة « قومية » برئاسة النحاس باشا . .

★★ لكن النحاس يرفض تماماً الاشتراك فى وزارة قومية ، لأن تجربته معها من قبل لا تشجعه على تكرارها . .

ولعل من الخير أن نترك أحد الذين شهدوا ذلك الاجتماع الكئيب يحدثنا حديث من سمع ورأى وشارك . .

ذلكم هو الدكتور محمد حسين هيكل فى الجزء الثانى من مُذكّراته .

يقول : « بدأت مُداولاتنا بطلب النحاس باشا أن يبدأ المناقشة فقال : إنه يود قبل بدء المناقشات التأكيد على أنه ساعة حضر هذا الاجتماع لم يكن يعرف شيئا مما حدث وجاء ذكره فى الرسالة الملكية . . فهو لم يكن يعلم أن الانجليز طلبوا من الملك أن يعهد إليه بتأليف الوزارة . ولم يكن يعلم أنهم طلبوا إلى رئيس الديوان إبلاغ الملك رغبتهم المُلحة فى ضرورة إسناد الوزارة إليه . . كما لم يكن يعلم بهذا الإنذار الأخير ، ولا سمع به إلا وهو فى طريقه إلى القصر لمقابلة الملك ودعوته إيّاه كَىْ يشهد هذا الاجتماع . . أمّا وذلك موقفه ، فهو لن يرفض تأليف الوزارة إذا عهد إليه الملك بتأليفها » .

وساد الصمت قليلا ، ثم تكلم الدكتور « أحمد » فأطرى وطنية النحاس باشا ، وشهد بحرصه على استقلال بلاده وسيادتها ، وخاطب النحاس باشا قائلا : إنى أهيب بوطنيتك أن تنقذ استقلال بلادك وسيادتها ، فأنت الذى تستطيع ذلك الآن « وحدك » . .

وعقب النحاس بقوله : انه لا علم له بهذا الإنذار . . وأنه لا يتلقى أمراً بتأليف الوزارة إلا من الملك ـ وليس من الانجليز ـ فإذا عهد إليه الملك بتأليفها فإنه لا يتردد أبدا . .

وتحدث الدكتور هيكل ، فقال :

إن النحاس باشا رفض ما عرضه عليه الملك البارحة من تأليف وزارة قومية ، فإذا قَبِل اليوم تأليفها ، فسيكون هذا حلا كريما للموقف . .

وكأنما أراد النحاس باشا إغلاق باب المناقشة والمزايدة فقال فى حسم : « إنه لا يقبل تأليف وزارة قومية . . أو وزارة ائتلافيّة . . أو أية وزارة غير حزبية . مهما يكن لونها . .

وعاد الزعماء للبحث عن مخرج ، فقبلوا أن يشترك فى وزارة النحاس باشا وزير واحد من كل حزب ـ فرفض . .

واقترح « شريف صبرى باشا » أن تُؤلّف وزارة إدارية تحل مجلس النواب ، وتجرى انتخابات جديدة ، فإذا فاز الوفد فيها بالأغلبية ألّف النحاس باشا وزارة وفدية خالصة . . ورفض النحاس هذا الاقتراح . .

فاقترح آخرون أن يرأس النحاس باشا وزارة وفدية يشارك فيها كل حزب بوزير واحد وتجرى الوزارة برئاسة النحاس انتخابات جديدة . . ولن يستغرق إجراء الانتخابات أكثر من شهرين اثنين . .

وكان واضحا من هذا الحوار الذى استغرق أكثر من ساعتين أن هدف الزعماء المجتمعين مقصور على إنقاذ كبرياء الملك أولا . . ثم على اشتراكهم فى الحكم ثانيا . .

وانتهى الرأى إلى أضعف الإيمان ، متمثلا فى صياغة كتاب احتجاج يُرسل إلى السفير البريطانى بعد توقيعه ـ وكان نصه كما جاء فى الجزء الثالث من تاريخ مصر القومى للأستاذ عبدالرحمن الرافعى :

« إن فى توجيه ـ التبليغ ـ البريطانى ـ لاحظ تسميته بالتبليغ ، لا الإنذار ـ اعتداء على استقلال البلاد ـ ومَساساً بُمعاهدة الصداقة ـ لاحظ اعتبارهم ما حدث مساسا لا بمعاهدة ٣٦ بل بمعاهدة الصداقة . ـ ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد . ويُخل بأحكام المعاهدة » .

إن هذه الكلمات من غير أن نراها وهى تُكتب لَتُحدِّثنا أن الأيدى المرتجفة كانت تَخُطُّها ، وهى خائفة تترقب . .

عاد الملك إلى الإجتماع وتُلى عليه الاحتجاج فَسُرّ ورضى . . وحمله رئيس الديوان إلى السفير الذى لم يكد يُطالعه حتى قال : هذا ليس رداً . . وأنه سيحضر لمقابلة الملك فى الساعة التاسعة مساء . .

وأخبرهم « حسنين باشا » بموقف السفير الذى لابد أنه زادهم هَلَعاً . . وطلب إليهم البقاء فى بيوتهم انتظارا لدعوة الملك إيّاهم من جديد . .

فى ذلك الوقت زحفت الدبّابات البريطانية على قصر عابدين محيطة ومحاصرة له . . وفى الوقت ذاته ، كانت قوات بريطانية ضخمة تحتل الطريق المُفضى من ثُكَنات الجيش بألماظة إلى القاهرة .

وفى الوقت ذاته ، كانت دبابة بريطانية تقتحم الباب الحديدى الخارجى للقصر وتتوسط فناءه . . ثم يغادرها « لورد كيلر » السفير البريطانى ، والجنرال « ستون » قائد القوات البريطانية تتبعهما قوة من الجُند مسلحة بالمسدسات المهيأة لإطلاق رصاصها . .

واتجه السفير والقائد إلى مكتب الملك دون إذن ، ودون أن يمرا بمكتب رئيس ديوانه ، وسمعنا أيامها أن السفير استنكف أن يفتح الباب بيده ، فدفعه بقدمه . . ورآهما الملك أمامه على حين بغتة . . وكان معه ساعتئذ رئيس ديوانه . . وأخرج السفير من جيبه ورقة مهلهلة تتضمن تنازل الملك عن العرش طَالِباً منه توقيعها . .

وأبدى « فاروق » تَماسُكًا محموداً حين قال للسفير : إننى مستعد لتوقيع هذه الوثيقة التى أظنك توافقنى على أنها وثيقة تاريخية خطيرة ، من حقها أن تُكتب على ورقة لائقة بها ، ولائقة بتوقيعى عليها . .

ثم دعنى أسألك ما الداعى لتقديم هذا التنازل ؟؟ لقد طلبت من النحاس باشا بالأمس أن يُؤلف وزارة قومية معتقداً أنها خير لنا ولكم من وزارة حزبية . . أمّا وقد أصررتم على أن يُؤلف وزارة حزبية كما يُريد ، فسأكلفه كطلبكم بتأليف هذه الوزارة . .

إذن قَبِل الملك الإنذار وأنقذ نفسه وعرشه ، ولم يعد هناك ما يدعو بريطانيا إلى الاستمرار فى طلب التنازل . .

هنالك انسحب السفير والقائد العام والقوات المحاصرة . .

* * *

كنا يومئذ شبابا ، نُفكر بعضلاتنا أكثر مما نفكر بعقولنا . .

وكانت التوتّرات والنزَق يدفعاننا أكثر مما تدفعنا الأناة والحكمة والتبصر . .

ولكنى أجحد نعمة الله علىّ إذا لم أشهد أننى فى تلكم الأيام قد أفدت من التصوف فكرا ، وتعبدا ، ومنهجا ، وطريقة ، أجزل الفوائد . . فقد أفاء علىّ هدوء التفكير ، والتبصُّر فى الأمور والسكينة أمام الأحداث ومحاولة تفسيرها بدلا من لعنها . مما جعلنى أكثر من الشباب الذى كان فى مثل سنى ، وفى

مثل ثقافتى ـ أكثر قدرة على الاهتداء إلى الصواب بعيداً عن إغواء الهوى ، وضلال الإشاعة ، ومشاحنات السياسة التى تفقد التائه فى ظلماتها حاسة الاتجاه ، وصِدق الوسيلة ، ونُبل الغاية . .

وإنى الآن لقادر على أن أتصور وأتذكر أفكارى ومشاعرى التى واجهت بها وانعكست عليها أحداث ـ ٤ ـ فبراير . .

كما أستطيع القول أننى فى سنى البَاكِرة تلك ، وَعِيتُ الكثير مما وعاه الناس فيما بعد ، ومما ازددت به وَعْياً . . بل ومما أصبح بعد سنين عددا تاريخا يعتمد على التَمْحِيض ، ويحترم الصدق التاريخى ، والحقيقة المُبتغاة . .

فى تلك الأيام كان أكثر المواطنين عامة . . وأكثر الشباب بخاصّة يُرسلون عواطفهم على عواهنها ويسارعون بالخُطى إلى كل ناعق . .

فالملك الشاب الذى طوّقته المحنة ، كان حتى تِلْكُم الأيام مَحبوباً من الشعب بأسْره . . والرجل الذى طاردته الأحقاد والاتهامات بأنه المسئول عن المحنة ـ زعيم الأمة ، غير مُنازَع ، ورئيس الوفد ، وخليفة سعد ، والمُهيِّج القدير للشعب ضد الاستعمار البريطانى ، والذى يعيش على الكفاف إذا قيس ببقية الزعماء والباشوات . . فأين العقول الرشيدة المستأنية والمُثابرة التى تستطيع حل هذه المُعادلة الصعبة ـ أو على الأقل عدم المسارعة إلى تخطى المحاولة اللازمة للبحث عن الصواب وسط كتل الضباب . .

لقد انتشرت يومئذ « موضة » الأحكام الجاهزة والمبتسرة . . فمن شاء حمل منها فوق ظهره ما يريد حمله ، ثم يذهب به إلى أغلى الأسواق كى يبيع ويربح . .

وسط هذا الشتات ذهبت أسأل نفسى : أين الحقيقة ؟؟ مَنْ الظالم ومَنْ المظلوم ؟؟ من الجانى ومن المسئول عما حدث ؟؟ أهو الملك ؟؟ أم حاشيته ؟؟ أهو النحاس باشا ؟؟ أم هم الزعماء الآخرون ؟؟ أهم الانجليز وحدهم ؟؟ أم هم ومعهم عملاؤهم والمنتفِعُون بوجودهم ؟؟

أم هؤلاء جميعا هم المسئولون ؟؟

انّى لشاب فى مبتكر عمره الزمنى ، ووعيه السياسى أن يكون له مثل هذا الموقف المُتزِن ، والعادل والحَصِيف ؟؟ . .

مرة أخرى أنحنى إجلالا للتصوف . فهو الذى سَكَب فى روحى كل ما رَوى ظمأها إلى الخير والسكينة والمَرْحمة والمَعْدَلة . . وكلُ ما بقى لى بعد مُغادرتى إيّاه من قُربات ومغانم ومَناعِم . . ومن فضائل وقدرة وإصرار ـ فإليه أولاً يرجعُ الفضل بين كل الأسباب ، وقبل كل الأسباب . . !!!

* * *



عَوْد على بَدْء مع ٤ فبراير

في الفصل السابق ونحن نتحدث عن اختيار « الذات » . . تَمادى بنا الحديث المفيض إلى - ٤ - فبراير - موقعه . . ووقائعه . . وكان لابد من محاولة التعرّف إلى أسبابه ، والعثور على مَكْمَن المسئولية والمسئولين عنه . . وهو أمر في منتهى اليُسر ، مادام إجماع الساسة يومذاك ، انعقد على توجيه الاتهام إلى النحاس باشا . .

فتتبُّع السلوك السياسى والوطنى له تجاه ذلك اليوم حَرِىٌّ به أن يكشف مسئوليته وبراءة الآخرين . . أو براءته ومسئولية الآخرين . . أو مسئوليتهم جميعا . . من خلال تبادل الاتهامات ، وشهادة الحقيقة والواقع . . والقصة كما أسلفناها لم تولد يوم ٤ فبراير ، بل وُلِدت قبله بأعوام . ومن خلال العبث بالدستور وإرهاق حزب الأغلبية بالاستقالات والإقالات . .

وكان أحدث نزوات حاشية الملك ، وأخبث محاولات أحزاب الأقلية هو إقالة الوزارة الوفدية فى ديسمبر ١٩٣٧ بعد أن كان للنحاس باشا اليد الطُولى فى تولية « فاروق » سلطته الدستورية فى يوليو ١٩٣٧ - أى بعد خمسة أشهر لا غير من تَتْوِيجه ، وإعلانه أمام مُمَثِّلى الأمة فى البرلمان احترامه الدستور قائلا :

« أحلف بالله العظيم أنى أحترم الدستور ، وقوانين الأمة المصرية » . .

وبعد أن ضمن خطابه للنحاس بتأليف الوزارة الجديدة قوله :

« أنكم أحرزتم الثقة الكبرى بعظيم إخلاصكم وولائكم ، وصادق وطنيتكم ، وقدمتم الخدمات المجيدة بِحُسن جهادكم وسدَاد رأيكم وثبات عزمكم . .

ولكن لم تكتمل عدة الشهور الثلاثة حتى كانت السراى تُجلِس وزارة الوفد على « خازوق » كبير بتعيينها على ماهر باشا رئيسا للديوان الملكى متجاهلة الوُد المفقود تماماً بين النحاس وعلى ماهر . . الذى راح يُحَرِّك مغايظ الحكومة ، ويُلَغِّم خُطاها ، ويضع ثِقَل منصبه فى كفة المُعارضين لها . . ولعله أخذته نوبة سرور حين أطلق عز الدين عبدالقادر أحد أعضاء حزب مصر الفتاة النار على النحاس باشا محاولا اغتياله ؟ . .

— وهنا لفتة جديرة بالاهتمام . . فعندما ساءت العلاقة بين القصر والحكومة إلى حد التفكير فى إقالتها ، حاول السفير البريطانى « كيلرن » التوسط للإبقاء على وزارة النحاس باشا ، فرفضت وساطته .·. وأقال الملك ، أولِنَقُل : أقال على ماهر وزارة النحاس فى ديسمبر ١٩٣٧ .

* * *

وجِيءَ يومئذ بوزارة « محمد محمود باشا » فأجرت انتخابات زائفة أفضت إلى نجاح أو إنْجاح مائة وثلاثة وتسعين عضواً من الدستوريين والسعديين .. يُقابلهم اثنا عشر عضوا من الوفد ..

ثم إنه لم يمض سوى عامين حتى أُقيلت وزارة محمد محمود فى صورة استقالة طُلب إليه أن يقدمها ..

ثم ألَّف على ماهر الوزارة الجديدة .. ولم يمض من زمن الانقلابات هذا أكثر من عشرة أشهر وسبعة أيام حتى كان على ماهر يأخذ طريقه إلى داره مستقيلا من الحكم ومُسَرَّحاً من مَلِيكِه سَراحاً جَمِيلا ..

ثم ولِى الحكم « حسين سرى باشا » لابثاً فيه حتى ٤ فبراير ١٩٤٢ .

كل هذه التغييرات بل الانقلابات ، والوفد صاحب الأغلبية مُستَبْعَد وطَرِيد ..

وحين اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، واقترب الجيش الألمانى من مرسى مطروح ، كانت الساحة المصرية تَمُورُ مَوْراً بالتشفِّى فى الانجليز والإشادة بهتلر .. حتى حاشية الملك اتهمت بِمُمَالأة الألمان ..

أفلم تكن الأحداث التى سقناها كافية وكفيلة بصنع - ٤ - فبراير ؟؟

ألا فلندعها تُحَدِّث أخبارها وتروى أسْرَارها ..

لقد حُوصِر النحاس باشا فى تلك الأيام باتهامات مقْذِعة ، وقُدم للناس على أنه المسئول عن كل ما حدث .. وأنه حين شكَّل وزارته أبقى الأحكام العرفية عاملةً ناصبة .. وأنه كان على اتفاق مع السفير البريطانى على تولية الحكم بعد تدخل الانجليز لفرضه على القصر ..

وأنه قَرَّب أمين عثمان باشا واصطفاه وزيراً للمالية مع ولائه المشهود لبريطانيا ، وأنه استغل سلطاته الاستثنائية فى اعتقال على ماهر باشا ، ومحمد طاهر باشا ، والأستاذ أحمد حسنين ، وكثيرين ممن كان الوفد يعتبرهم خُصوما له .. وأنه - إلى آخر هذه « الأنَّهات » .. التى كُنت يومذاك ، وفى سِنِىِّ الباكرة أتقبل بعضها ، وأرفض بعضها ..

ودعونا نبدأ بـ ٤ فبراير - يوم حَاصرت الدبابات والمصفَّحات البريطانية قصر عابدين وأرغم الملك فاروق على الإذعان للإنذار البريطانى ..

ونسأل : هل كان ذلك اليوم أول ٤ فبراير يُمْلِى فيه الانجليز إرادتهم على الملك ويُذْعِن لها الزعماء والكبراء ..

أبدا .. فقد كان هناك ٤ فبراير وقعت واقعته فى يونية من عام ١٩٤٠ .. وانتظم كل العناصر التى شكَّلت أحداث ٤ فبررابر ١٩٤٢ ، باستثناء مُحاصرة السراى ودعوة الملك للتنازل عن العرش ، ولربما كانت العُقوبتان ذَاتِهما ستحلاَّن بفاروق وحاشيته ، لو لم يستجب الجميع لمشيئة الانجليز - تماما كما حدث عام ١٩٤٢ حين نجا الملك من الحصار والتنازل لما أعلن قبوله الإنذار البريطانى كامِلاً غير منقوص ..

وإليكم تفصيل الأمر وبيانه .

* * *

فى منتصف عام - ١٩٤٠ - دخلت إيطاليا الحرب مع ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا . إذ كانت الولايات المتحدة لم تُشارك فيها بعد .

وكانت إيطاليا تستعمر ليبيا . . أى أن جيشها والجيش الألمانى سيكونان « الجار الجُنب » للقوات البريطانية فى مصر . .

★★ هنالك أرسلت الحكومة البريطانية لسفيرها فى القاهرة كى يُعلن الملك فى صورة تبليغ أو إنذار بضرورة استقالة أو إقالة « على ماهر باشا » من رئاسة الحكومة لِمُيوله وبعض وزرائِه نحو إيطاليا وألمانيا . .

★★ دعا الملك زعماء الأحزاب ورؤساء الحكومة السابقين إلى اجتماع بقصر عابدين للتشاور فى الأمر ، وشرح لهم الموقف ثم غادرهم طَالِباً منهم بحث الموضوع بكامل حريتهم .

★★ قرر الزعماء المجتمعون أن يقدِّم « على ماهر » استقالة حكومته ، ونصحوا الملك بقبولها . .

★★ دَعا الزعماء إلى اجتماع آخر قرَّروا فيه تأليف وزارة قومية ، فَرفض النحاس باشا المشاركة فيها بحزبه ، حتى لو أُختير رئيساً لها . . ورأى أن المَخْرج من هذا المأزق هو تأليف وزارة مُحايدة . تقوم بحل مجلس النواب الذى كان قائِماً ، ثم تجرى انتخابات حرة - ليس وقتها بالضرورة . . ولكن عندما تسمح ظروف الحرب بهذا . .

★★ عاد الملك ، وأرسل للنحاس باشا كى يُؤلِّف وزارة قومية ، فأصر على رفضه . . وألَّفها « حسن صبرى باشا » من السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والمُستقلِّين . . ومضت الأحداث لمُستقرٍّ لها حتى وقفت وجهاً لوجه أمام ٤ فبراير ١٩٤٢ . .

فأى فارق هُناك بين اليومين :

اليوم الذى شهد فى يونية ١٩٤٠ إنذارا بريطانيا بتنحية رئيس وزراء مصر . . وتَقَبَّلَهُ فى خضوع الملك والزعماء ؟؟

واليوم الذى شهد إنذاراً آخر فى ٤ فبراير عام ١٩٤٢ ، وتقبّله الملك مُكرها وصاغ منه الزعماء وَثِيقة إدانه للنحاس باشا . .

★★ فى كِلاَ اليومين - كان هناك إنذار . . واجتماع للزعماء دعا إليه الملك . . والاتفاق على تأليف وزارة قومية برئاسة النحاس باشا . . ورفْض من النحاس لهذا القرار . .

ويومئذ لم يتهم النحاس بالخيانة ، ولا بالاتفاق المُسبق مع الانجليز بالتدخل لصالحه . .

وإذا اعتبرنا ما حدث يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ - تدخُّلاً وإنذاراً - قبل محاصرة السَّراى طبعاً - فسيكون الملك والزعماء جميعا قد قَبِلُوا الإنذار وأذْعَنوا له . .

لماذا . .

لأن السفير البريطانى لم يطلب بادِىء الأمر أكثر من وزارة يرأسها النحاس باشا دون أن يُحدِّد هويتها - قومية ؟ أو وفدية ؟ والملك وجميع الزعماء وافقوا على تألِيف وزارة قومية يرأسها النحاس باشا . . إذن ، فقد قَبِلُوا الإنذار جميعاً بقبولهم رئاسة النحاس الوزارة . . !

أى أنهم إذا اشتركوا فى الحكم فلا إنذار هُناك ولا خِيانة . .
وإذا أبعِدوا عن الحكم ، فالإنذار عار وقبوله خيانة ؟ !!
أى أن الأمر كما يقول شاعر قديم :

إذا قلتُ يـا ليلى سَلَلْتُم سيـوفَكم
وإن قلتُ يا هند استمعتم نـدائيا !!

وإن قلت كانت حجة النحاس باشا فى رفضه الوزارة الإئتلافية أنه جرّبها من قبل مع الأحزاب الأخرى ، فكان عاقِبتُها خُسْراً . .

ومعه الكثير من الحق - لا سيما حين نعلم أن إفشال الإئتلاف كان بشهادة بعض خُصوم النحاس ، ثمرةَ اتفاق بين السّراى والانجليز ، وحزب الأحرار الدستوريين لتعطيل دستور ١٩٢٣ ، الذى الْتَقَت مصلحتُهم المشتركة حول ضرورة تعطيله !!!

ولَمّا كان مُستحيلاً أن يعطِّله النحاس باشا ، ولَمّا كانت إقالتُه يومئذ عبثاً مَفْضُوحاً وعُدوانا مكشُوفاً ، لأنه مُحَوَّط بثقة البرلمان وتأييده ، فقد لجأت « عصابة الأربعة » الانجليز . . والسراى . . والأحرار الدستوريون . . ومعهم الخُصوم التقليديون للوفد منذ عهد سعد باشا زغلول إلى هدم الوزارة عن طريق هدم الإئتلاف . حيث يُتَاح للملك أن يُقِيل الوزارة فى هُدوء . . كانت الوزارة القومية برئاسة النحاس باشا تتكون مع وزراء الوفد من محمد محمود باشا - حُر دستورى - وجعفر ولى باشا - حُر دستورى وإبراهيم فهمى كريم باشا - مُستقل . .

وبدأت المُؤامرة باستقالة « محمد محمود » معتذراً بمرضه . . ثم تَلاهُ « جعفر ولى » وزير الحربية . . و « إبراهيم فهمى كريم » وزير الأشغال . .

على أن المؤامرة بلغت ذُروتها أو قولوا . . قاعها حين استقال معهم « أحمد خشبة باشا » وزير الحقانية - العدل - وكان وفديا . . فاستجاب فيما يبدو لأهواء المُتآمرين وتنكر للصفة التى اشترك بها فى الوزارة .

وما إن رأى السفينة تترنّح بركابها حتى فر هاربا . . وخَلَصَ نَاجيا . . وتلقّى النحاس باشا خطاب الإقالة من الملك فؤاد :

« عزيزى مصطفى النحاس باشا . لما كان الإئتلاف الذى قامت على أساسه الوزارة ، قد أصيب بصدع شديد ، فقد رأينا إقالة دولتكم . . »

أيكون النحاس باشا كُفْأً للرئاسة والزعامة إذ أقيل فى حرب عالمية ضروس تقرع أبواب الاسكندرية بألويتها التى كانت حتى ذلك اليوم تبدو ظافرة مُنْتصرة . ثم يأمن الآخرين الذين كانوا سيُفَاجِئُونه حتما فى يوم باستقالاتهم ، ثم يفاجأ من فاروق بنفس الخطاب الذى تلقّاه - قُبْلاً - من « فؤاد » :

« عزيزى مصطفى النحاس باشا . لما كان الإئتلاف الذى قامت على أساسه الوزارة قد أصيب بصدع شديد ، فقد رأينا إقالة دولتكم . . » ؟

ولو حدث هذا والحرب فى أَوْج اشتعالها ، وأعصاب الانجليز تُشْوَى على لهب انتصارات

« المحوَر » في أوروبا وأفريقيا .. فماذا كان سيمنعهم من دك قصر عابدين على رأس الملك وحاشيته ، وضرب كل مواطن الخطر وَمَظَانّه بلا إشفاق ولا رَوِيّة .. ؟ !

الحق ـ أن النحاس باشا كان فى رفضه الوزارة القومية على حق ..

بيد أنه لم يكن على حق حين أمره الملك أن يمر بالسفارة البريطانية ، ويُخبر السفير أن الملك عَهِد إليه بتأليف وزارة وفدية .. فامتثل .

كان واضحا أن المقصود بهذه الحركة إحراج النحاس والسخرية منه .

كان يجب أن يرفض ولتبحث السراى عن ساعى بريد آخر .. وليكن رئيس الديوان الملكى مثلا .. !!

كذلك لم يكن النحاس على حق حين ذهب للسفير البريطانى لتهنئته بمكتبه فخرج معه إلى شُرفة المكتب ليشهده وهو يتلقى جنون القطيع الذى راح يهتف بحياته ـ أى حياة السفير ، بعد أن حمله على الأعناق وهو فى طريقه لمكتب رئيس الوزراء .. لن أنسى هذا المشهد الذى رأيته يومها بعينى ، وملأ نفسى حُزنا ، وفَزعا ، ومَرارة ..

ثم سنفترض أن السفير البريطانى تفاهم مع النحاس باشا ليقبل تشكيل الوزارة إذا استطاع إقناع الملك نُصحاً ، أو أنذاراً . ؟ ! دون أن يحتوى هذا التفاهم على عنصر محاصرة السراى ، واقتحام مكتب الملك ـ الأمر الذى أكّد النحاس باشا أنه لم يعلم به إلاّ وهو فى طريقه للاجتماع الثانى الذى دعا إليه الملك ..

سنفترض أن هذا التفاهم حدث ، فهل ليس له تفسير سوى الخيانة والاستسلام .. إذن ـ فماذا كان ذهاب رئيس الديوان الملكى « أحمد حسنين باشا » بموافقة الملك فاروق طبعاً إلى السفارة البريطانية للاتفاق مع السفير على إقالة النحاس باشا وقيامه هو بتأليف وزارة جديدة تتعهّد بحماية مصالح بريطانيا ، مع تعهد بريطانيا بعدم رفض تأليفه إيّاها ..

ولماذا مرّت هذه المحاولة المقيتة بسلام ، من الزعماء الذين استنْكَفُوا تدخل السفير يوم ٤ فبراير ؟؟ !! وبُهِتُوا أمام رد وزارة الخارجية البريطانية على محاولة رئيس الديوان بكلمة واحدة هى ـ « لا تغْيير » .. وكنا نتندّر بها جميعاً وليس الوفديّون وحدَهم ..

ثم لماذا رفضت حكومة على ماهر باشا عرض بلچيكا ـ قبل غزو هتلر لها ـ شراء مصنع للأسلحة والذخيرة .. عرضته بثمن بَخْس ، وجاء الرفض على لسان وزير الحربية « صالح حرب باشا » ..

« إن مصر لا تستطيع إتمام الصفقة فى ظروف الحرب من غير موافقة بريطانيا » !!

كلهم يريدون موافقة بريطانيا ويُسارعون إلى هواها ..

* * *

أما الأخذ على النحاس باشا أنه كان حَفِيًا بأمين عثمان باشا ، حتى صَيَّره وزيراً للمالية .. فقد كان أحمد حسنين باشا سكرتيراً للجنرال البريطانى « مكسويل » فى الحرب العالمية الأولى ـ وظل يترقى حتى صار رئيسا للديوان الملكى .. ولم يكن فى ذلك أى مأخذ على الملك فؤاد حين اختاره رائدا

لولى عهده ، ولا على الملك فاروق حين اختاره رئيساً لديوانه . . أما الأحكام العُرفية ، فالذى أصدر قانونها لغير ضرورة كان على ماهر باشا ، مع أن بريطانيا نفسها ـ وهى تخوض الحرب ـ لم تعلن الأحكام العرفية فى بلادها . . واكتفت ببضعة تشريعات وضعتها لتأمين سَيْر الحرب .

فكيف تقرِّرها حكومة والحرب تَتَهادى ، ثم تُلْغِيها أخرى والحرب مشبُوبة . .

* * *

هذه وجهة نظر لمواطن شَهِد الأحداث شاباً برىء الصدر من الهوى .. واستعادها واستوعبها شيخاً ، يُجاهد ألاّ يَفْتات على أحد . . ولا يرى دوره ماثلاً فى لعن الأخطاء والخَطايا . . بل فى تفسيرها . . ولقد فعلت وَفْقَ اقتناعى ، وقُلت أحسبه صوابا وحقا . من خلال تجربتى ومُعاصرتى . . وما كان لمثل هذه المذكرات ، أو الذكريات أن تخلو من مثل وجهة النظر هذه مهما تكن الكَثْرة الكَاثِرة مما كتبه عن ٤ فبراير المُؤَرِّخون والمفكرون .

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل جئتُ فى الزمن الأخير ؟

شر ما يصيب الإنسان أن ييأس .. ويحسب حين تُعْيِيه الحِيَل ، أو يُضْنِيه التردُّد ، أو يُساء فهمه ، أو تتعثّر خُطاه بين الأقدام والأحجام أنه جاء الحياة فى الزمن الأخير .. ويُردِّد مع المتنبى قوله :

أتى الـزمـانَ بنـوهُ فى شَبِيبَتِـه فسـرّهم ، وأتيْنَـاهُ على كِبَـرِ !!

ولعل أكثرنا ـ نحن الشباب ـ كنا نعبر هذه الأيام من حياتنا ، فبعضنا يقف عندها مُستسلما .. والبعض الآخر يُجاوزها إلى مستقبل يحسن صنعه ، أو يحس اكتشافه .. ولقد تَدَاولتنى الأيام تداوُلاً جعلنى أتساءل : هل جئتُ فى الزمن الأخير ؟؟ فقد أسلمتنى يفَاعتِى إلى مُراهقتى .. وأسلمتنى مُراهقتى إلى شبابى .. وأسلمنى شبابى إلى الرجولة .. والرجولة إلى الكُهولة .. والكُهولة إلى الشيخوخة .. ليس فى تطور متساوق منساب ذى قرار واستقرار .. بل فيما يشبه قَذْف الكرة فى الملعب الفَسِيح .. يُقذف بها إلى مكان ، فيتلقّاها من يُقذِفُها إلى المكان الذى جاءت منه .. وهكذا يظل أمرها بين أخذٍ ورَد ، وجذبٍ وشَد حتى تنطلق صَافِرَة الحكم ، وتنتهى المباراة .. فهل جئت الحياة فى الزمن الأخير ـ زمنِ التصفيات و « الهرجلَة » ؟ !

وإذا لم يكن ذلك كذلك ، فما سر هذا التأرْجُح والتردُّد ، فلا تتطور حياتى فى تتابع متناغِم ومنسجِم ومتآلف تآلف الحبات فى عِقْدها المنظُوم ؟؟

فمثلا ـ لماذا تبدأ حياتى بالسياسة ، ثم تنتقل إلى التصوف ، ثم تعود إلى السياسة ، ثم يأخذها حنين جارف إلى التصوف .. ؟؟

ولماذا أبدأ مؤمنا ؟ ثم أدخل مع الإلحاد فى سباق ؟ ثم أعود إلى الإيمان أصلب عوداً وأقوى يقيناً ؟ ..

لماذا لم تحقّق كل مرحلة ذاتها ، وتستوفى حظّها ، وتبلغ نُضجَها فى عبور واحد دون أن تتبعثر مع المناسبات ؟؟

صحيح أن وراء ذلك « إيقَاعاً » نفسياً لعلى أشرت إليه فيما سلف من حديث ، ولكن ماذا يطمئننى إلى أن هذا « الإيقاع » هو التفسير الصحيح والسبب الأكيد لما حدث معى من بلبلة مراحل تطورى ؟؟ !!

وأخيراً قلت لنفسى : فلأكُون أحيانا فى الزمن الأخير كما تقول هواجسى .. فما الزمن إلّا ثمرة تصورنا وإرادتنا ..

وقديماً سُئل الفيلسوف « أوغسطين » عنه ، فقال : « أنا أعرف الزمن مالم أُسأل عنه فإذا سُئِلْت عنه ، فعندئذ لا أعرف عنه شيئا » ..

فمرحباً بالزمن ـ أوله . . وأوسطه . . وآخره . . فلن يكون إلا ما تُريده أن يكون :
« وأن لله عباداً ، إذا أرادُوا . . أراد . . » .

* * *

والآن ـ هل تسمعون دقات الساعة ؟ إنها تدق مُعلنة بدء الرحلة الجديدة مع الزمان ، والأفكار ، والأحداث ، والناس . .

وإنى لَفِى أصيل يوم من الأيام ، إذ مربى فى منزلى صديق العمر الشيخ « سيد سابق » . . وشربنا الشاى وسألنى إن كنت أرغب فى زيارة الشيخ « محمد الغزالى » وسألته فرحا ـ متى وأين ؟ قال : الآن . . وفى مسجد « عزبان » بالعتبَة الخضراء حيث كان يومئذ إمام المسجد وخطيبه . .

لم تكن معرفتى بالشيخ قد توثقت بعد ، وإن كنا قد التقينا لِمَاماً فى مناسبات عابرة وعاجلة . .

لكن الشيخ الغزالى كان ، ولا يزال يسبقه ذِكْرُه . . وكنت أتمنى أن تجمع بيننا صداقة وطيدة ، وولاية حميمة . .

وقد حقق الله سبحانه أمنيتى ورجائى . . وصِرْنا صديقين حَميمَيْن . . ومرّت بنا أيام ، كان أحدنا يقول فيها للآخر : يا . . أنا !!!

وإن شاء الله سيجىء حديث أكثر تفصيلاً عن الأخوين الكريمين ـ الغزالى . . وسيد سابق ـ أما الآن فلمن شاء منكم أن يصحبنا إلى الشيخ الغزالى لنُصلّى معه فريضة المغرب فى مسجد عزبان فليتفضل .

* * *

أمّنا الشيخ لصلاة المغرب . . ثم انتقلنا معا إلى غرفة الإمام المُلحقة بالمسجد . .

وفيما نحن جالسون هناك نتهيّأ لنتبادل الحديث ، إذ صوت الموسيقار الراحل « محمد عبدالوهاب » يتهادى إلى أسماعنا من مذياع محل تجارى للملابس مُلاَصِق للمسجد . .

كان يُردِّد إحدى أغنياته الجديدة ويقول :

« هذه ليلة حبى » . .

ورأيت الشيخ الغزالى يُلامس صدره براحة يمينه ، ويكتسى وجهه بشجن رقيق ، ويقول : سبحان الله . . إن هذه الأغنية تملأ نفسى بالشَجَنِ الجميل . .

وابتسمت فى رضا وانتشاء . . وأسررتُ إلى نفسى كلمات لم تتحرك بها شفتاى ـ نعم الصديق إذن أنت . .

فأنا كما حدَّثتكم فى بدايات هذه المذكرات كنت أهيم حُبا للموسيقى وللفن الرفيع . وهأنذا ألْتقى بعالم فاضل نَشِط ومُجتهد ـ يصل السرى بأصيله وضُحائه ـ لا ينأى عن تحريم الموسيقى والفن فحسب . . بل ينفعل بهما وتهزه الأغنية الجميلة والصوت الرَّخيم . .

ورغم علم الشيخ الغزالى الغزير ، وأسلوبه المتأنِّق والنَضِير ، وذكائه المقتحم والجسور ، فقد أضفت إلى هذا كله ـ وربما قبل هذا كله ـ إنتشاءه الطروب بالموسيقى كلمةً ولَحْناً وأداءً كما تبدَّى لى فى ذلك اللقاء . .

أما أخونا الجليل والعزيز الشيخ « سيد سابق » فقد عقّب على المشهد قائلا : إن « الإمام أبا حامد الغزالى » رضى الله عنه يقول - من لم يُطرب بالسماع ، فهو حمار يمشى على ساقين . .

وهكذا استمرأنا الحديث فى هذا الموضوع واتسعت أمامنا مَنادِح القول ، حتى نادى المؤذّن لصلاة العشاء فأقمناها ، وعُدْنا نستأنف الحديث . .

ومن تلك الأمسية وذلك اللقاء ، أخذت أسعد بصداقة وُثْقَى مع أخى الشيخ الإمام « محمد الغزالى » . .

ولسوف تجمع بيننا الأفكار والتوجهات - سياسية ، وإسلامية - موثُقة عُرى تفاهمنا المشترك حول كثير من القضايا والخُطى . .

فمثلا - عندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، ونشطت الأحزاب السياسية والهيئات والزعامات فى استقطاب الجماهير والمتحفّزة للعمل الثورى ، وتسابقت فى ركوب الموجة الهادرة - كان الإخوان المسلمون أكثرها وافدة ، وأغزرها أتباعا وأنصارا ، وبالتالى أقواها شكِيمة - وأشدها على الخصام عِتيًا . . !!

وفوجئنا بخصومة حادة بين الإخوان والوفد . . كان عزِيزاً على الوفد أن يتلقّى الطعنة من الذين مكّن لهم فى الأرض خلال سنوات الحرب . . كما كان يُقلق الإخوان أن يظل الوفد بتاريخه الوطنى قاطعا عليهم الطريق ، ومُجتالاً إليه صفوفا طويلة وعريضة من الشعب .

وطبعا رحّبت السراى بهذه الخصومة ، مثلما رحّبت أحزاب الأقلية . . ولعلهم جميعا تواصلوا على صَبّ الزيت على النار الموقدة ، فازدادت اشتعالا . .

كان للوفد جريدة مسائية اسمها « صوت الأمة » ويرأس تحريرها أيامئذ المرحوم الدكتور « محمد مندور » . . وكان عليها أن تتلقى السّهام عن الوفد وتُطلق السّهام على خُصومه . . وكانت الملاحاة بينها وبين الصحف المعادية بالغة العنف . . ومثيرة للضحك كثيرا . . فمثلا - كانت هناك جريدة « السوادى » يملكها ويرأس تحريرها الأستاذ محمد السوادى وكان قد « سبل » جريدته لمحاربة الوفد وزعيمه ، وكان يكتب مقالاته تحت عنوان « نوراً يا رب - . . مزيداً من النور » . . ؟

فترد عليه « صوت الأمة » بمقالات تحت عنوان « فُلوساً يار ب . . مزيداً من الفلوس » . . متهمة إيّاه بأنه لا يُريد نورا ، بل يريد فُلوسا ، ومزيدا من الفلوس . .

وكان للإخوان جريدة أو مجلة غير جريدتهم اليومية « الإخوان المسلمون » وجعلوا من المجلة مباءة للشتم والمُهاترة - نائين بالجريدة اليومية عن كل ما يخدش حياءها ويُؤذى وَقَارها . .

وكانت الصحيفة المتخصصة فى المُهاترات تسمى « صوت الأمة » - « صُطلْ أمة » ؟؟ فترد عليها صوت الأمة بهذه التسمية - « الإخوان لمتد » . .

ووجد الصراع ضوءه الأخضر أو الأحمر ، يوم نشرت الجريدة اليومية للإخوان على صدر صفحتها الأولى تصريحا للأستاذ البنا ، يحمل تهديدا للوفد وزعامته ، إذ يقول : « سنستَعْدِى عليهم سِهَام القدر . . ودعاء السّحر . . » . . وفزعت رُعباً من هذا التهديد . . إذ خشيت ألّا يقف الأمر عند دعاء السحر ، وسهام القدر ، بل يُجاوزهما إلى استدعاء واستعْداء النظام الخاص ، فيُصيب النحاس باشا

منه ما أصاب من قبل « أحمد ماهر باشا » الذى اغتاله التنظيم السرى للإخوان فى دار البرلمان . .

* * *

والتقيت بالشيخ الغزالى : وقلت له : حتى لو لم تكن مخاوفى واردَة ، فإنه لا ينبغى أن يخوض الإخوان والوفد هذا الصراع الوبيل الذى سيفيد الملك ، وحاشيته وأحزاب الأقلية وزعماؤها . .

وسألنى الشيخ فى أسى : وماذا نصنع ؟؟ أجبته : نذهب معاً إلى فضيلة المرشد ونناقشه فى الموضوع .

ووافقنى فى غير تردد ، كأن تفكيرنا كان على موعد . .

والحق أنه كان كذلك فى الكثير الكَاثِر من المواقف السياسية ، فكنت أنا والأخ الجليل كأننا نفكر بعقل واحد . .

وفى الموعد المحدد الذى حدّدناه مع الأستاذ المرشد كنا هناك . .

وأمر فضيلته من مسئول مكتبه ألاّ يدخل علينا أحد ، كان الشيخ الغزالى يرتدى « كَاكُولة » جديدة زادته بهاء . . والعمامة فوق رأسه متقنة التكْوير ، فتلقاه فضيلة المرشد مُتهلّلا وقائلا :

ما هذه « الأبّهة » يا مولانا . . لكأنك المعنى بقول الشاعر البحترى . .

حسن الفعِل والرّواء ، وكم دَلّ
على سُؤدِدِ الشريف رُواءُه ؟ !!

وضحكنا فى حبور ، وشجعتنا هذه البداية على قول كل ما جئنا من أجله . .

وبدأ الشيخ الغزالى الحديث :

— يا فضيلة المرشد ـ أظن أن ولاءنا للإسلام وللدعوة لم يكن موضع ريب فى يوم من الأيام . .

قال المرشد ـ ولن يكون إن شاء الله .

وحين نُقارن موقف الوفد من الإخوان بالأحزاب جميعها ، فإن الوفد صاحب فضل لا يدركون أوله ولا يطمعون فى بلوغ منتهاه . .

وإذا كان للوفد أخطاؤه معنا ، ومع الأمة ، فإن له معنا حسنات لا تُذكر ولا تُغْمَط . . وله مع الأمة جهاده وأمجاده . .

واخترقت مسار حديث الشيخ الغزالى قائلا : نعم ـ وحسبه أن الفتح الأكبر للإخوان تم فى عهده ووزارته المؤلفة فى ٤ فبراير . .

وحسبه جهاداً فى سبيل الأمة والدستور أن كان وحده دون الأحزاب جميعا الذى يُمثل كبرياء الشعب فى وجه الملك . . وأنه لكذلك حتى أيامنا هذه . .

وعقب الأستاذ المرشد على عبارتى التى ذكرت فيها جهاد الوفد من أجل الدستور قائلا :

— يا شيخ خالد ـ نحن لنا دستور واحد ، نمَجّد من يمجده . . ونؤيد من يُؤيّده . .

وهنا تقدم الصديق الكبير « الغزالى » بكلمات أصفى من زلال الماء .

فقال : ـ يا فضيلة المرشد ـ إلى أن يأذن الله بنصر من عنده ، ويصبح القرآن دستورنا واقعا لا هُتافا ،

فيظل دستورنا هو دستور «٢٣» . .

قلت : ـ هذا حق اليقين ، لأن دستور «٢٣» هو خير تمهيد لِمَجِيء القرآن يوم يَجِيء ، لأنه بما يحفظ من حقوق المواطنين ، وبما يصون من كرامتهم ، وبما يرفع من أقدارهم ، فإنه بهذا يُهَيِّئهم ليكونوا أهلاً لاستقبال القرآن دستوراً لهم ، وحُكما فيهم . .

واستأنف الشيخ الغزالى حديثه القوى فى استمرار موصول قَرابة نصف ساعة وفضيلة المرشد مُصْغ تماماً لِمَا يقول . . وبين الحينِ والحينِ يسجل بقلمه بعض العبارات وبعض الملحوظات . .

وختم الشيخ جولته قائلا :

— إن الله سبحانه لَمَّا عرض الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأَبَيْن أن يحملنها وأشفقْن منها ـ تقدم الإنسان وغامر بحملها . . وهذا فى رأيى سر عظمته وسر عظمة الأبناء والذَّرارى ، الذين سيتوارثون حملها فى قوة وصدق . . فهل يمكن أن يكون فرد ما حاملاً للامانة أو جماعة ما حاملة لها مع التَّفريط فى حقوق شعب بأسره ؟؟ وهل نُصرة الذين يغتصبون الحكم لحساب الملك ولحسابهم ، هل نُصرتهم على حزب الأغلبية الذى يجيء الحكم بإرادة الشعب مسلك تُقِرّه اعتبارات الأمانة التى حملناها ؟؟

كان موقف الغزالى هذا يفوق كل ثناء . . ولقد أَلْفيتَنى أبتسم ابتسامة عريضة مَمْرُعة وأنا أستعيد فى نفسى بيت الشعر الذى حياه به الأستاذ المرشد :

حسنُ الفعلِ والرواءِ وكم دَلّ
على سُؤْدِدِ الشريف رُواؤه ؟ . .

واندفعت أقول للمرشد :

— الحق يا أستاذنا الجليل أن الإخوان وضعوا أنفسهم فى مأزق أليم بحملتهم الظالمة على الوفد وزعيمه . . وهنا تلقيت من الأستاذ عبارة كاللَّطمة . . إذ قال لى :

— يا شيخ خالد « كن فى الفتنة كابن اللَّبون . . لا ظهر فَيُركب . . ولا ضَرْع فيُحلِب » . .

وابن اللبون هو ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل فى الثالثة . . وهو يُضرب مثلاً لمن يخلُص نَاجياً من الفتن لعدم لبانة وحاجة الفاتنين والمُتصارعين إليه ، حيث هو ناشيء وصغير ـ لا يحمل رُكوبا ولا يَدِرُّ حليباً . .

أحسست أن الأستاذ يرفض تدخلى فى الموضوع كله ، وكأنه يقول لى :

« وأنت مالك ؟؟ » فأنا لست عضواً بالجماعة . . ولست بينهم أكثر من عابر سبيل . . بينما الشيخ الغزالى عضو عامل بالهيئة التأسيسية للإخوان . . فمعه ما ليس معى من الحق فى توجيه النقد أو مُحاسبة القيادة . . ثم لعل وصفى حملة الإخوان بأنها ظالمة ، كان غير لائق وغير سديد . .

على أية حال ، فقد آثرت الصمت ، ومضى الشيخ الغزالى بالحديث إلى مُنتهاه . . ثم ودّعنا فضيلة المرشد بعد أن قال : اطمئنوا ، فالخلاف بيننا وبين الوفد لن يكون حاد الخصومة . . والإخوان أذكى من أن يَدَعُوا الأطراف الأخرى تَصْطَاد فى الماء العكر أو تستثمر لصالحها هذا النزاع . .

ومرة أخرى أتساءل : هل جئت فى الزمن الأخير ؟؟ !!

كيف يكون ذلك ، وقد أخذت أشارك على نحو فعّال بالفكر وبالحركة فى الأحداث السياسية والدينية والعامة ـ كما أشهدتكم موقفى من ٤ فبراير ، ومن قبله مع الإخوان المسلمين ، ومن قبله مع التصوف ، ومن قبله مع السياسة فى الشباب البَاكِر وكما ستشهدون النّشاط المتساوق والعميم من منتصف الأربعينيات إلى اليوم . .

أقول هذا وأؤكده لشباب هذا الجيل وكل جيل ، إذا ضاقت عليه الأرض بما رَحبت ، واثَّاقَلَتْ مع الزمن خُطاه ، وظن أنه جاء فعلا من الزمن الأخير . . أقول له : انهض وواجه الزمن مهما يكن ميقاته بذكاء موهبتك ، وقوة إرادتك ومضاء عزيمتك ، ونور بصيرتك ـ فإذا الزمن قيظه مثل الربيع . . وليله مثل النهار . . وإذا أنت والنجاح صديقان . .

* * *

فى الأدب اليونانى القديم أن غلاماً خرج للقتال مع قومه فأعطوه سيفا قصيراً يناسب حجمه ، فهزه بيمينه ثم بكى وخاطب أباه : إن هذا السيف قصير . . فأجابه أبوه : تقدم به إلى الأمام فإنه يصير طويلا . .

وكل ما فعله جيلنا فى الثلاثينيات والأربعينيات أنه تقدّم إلى الأمام بإمكاناته المحدُودة ، فإذا خطوه الحثيث يربو مضاؤه ، وإذا النّدى وَبْلٌ تجود به سماؤه . .

* * *



« القافلة تسير »

كانت الأربعينات سنوات حافلة بالأحداث ، والطموحات ـ لا سيما بعد انتهاء الحرب مباشرة . . وأثناء الحرب ، كانت مجلة « ريْدَر دايجست » العالمية تصدر طبعة باللغة العربية أسْمتها « المختار » وكانت نبعا لا يَغيض للثقافة السياسية وخارطة متحركة لحركة التاريخ والسياسة والحياة . .

كان يشترك فى تعريبها صفوة من أعلام الترجمة المصريين ـ كالدكتور زكى نجيب محمود ، الأستاذ على أدهم . . ويرأس تحريرها الأستاذ فؤاد صروف . .

وهى غير الطبعة التى أخرجتها فيما بعد دار أخبار اليوم ـ وكان يرأس تحريرها الأستاذ محمد زكى عبدالقادر . . وغير الطبعة التى تُخرجها الآن دار أخرى أظنها لبنانية . .

كانت الطبعة الأولى التى أعنيها بحديثى فائقة الامتياز ، رائعة الإخراج ، متمكنة فى مادتها المُتنوعة ، وعَطائِها العَميم . . !!

واشهد لقد أفدتُ فوائد جَمّة مِمّا كانت تُقدمه من معارف وبحوث ومقالات وكتب الشهر التى كان ينتظم كل عدد مُلخصاً لواحد منها يُختار على عِلم ـ هذا عدا المُتابعة الطّازِجة لأحداث الحرب والسياسة والعالم . .

وفى واحد من أعداد مجلة المختار هذه ـ قرأت ، مُلخصا لكتاب عنوانه ـ « لن نخسر سوى سَلاسِلنا » ولست أذكر الآن تماما ـ هل كان بحثا ؟ أم تاريخا ؟ أم رواية ؟؟

المهم أننى لم أكد أفرغ من قراءته حتى أحسست أن قائداً يستعرض جيشاً عَرمْرَماً يتهيّأ للنِّزال ، فى تردُّد كظيم أمام خصمه ، ومخافة وَجِلة من عَدُوِّه. . وأنا أصرخ فى جنوده :

ـــ تقدَّموا . . خُوضُوا إليهم النار والبِحار ، فلن تخسروا سوى « مخاوفكم » . . !! وتتغير الصورة ، فإذا الجيش المتخيَّل شعب مقهور ، وأنا أصيح بى وبهم :

ـــ لِننهض جميعا . . ولنتقدّم ، فَلنْ نخسر سِوى « سَلاسِلنا » . .

ومن ذلك اليوم أصبحت هذه العبارة . . دليل نِضَالى وشِعَار حياتى . . « لن نخسر سوى سلاسلنا » . . فماذا نُحاذِر من لقاء عدونا الذى يلتهم أرزاقنا ، ويُصادر حرياتنا ، ويغتصب شَرفنا وكَرامَتِنا . .

لم يكن الانجليز المستعمرين المعنّيين وحدهم بهذه الأوصاف الذّميمة . . بل كان القصر أيضا الذى أخذ الفساد يغزوه مَلِكاً وحاشية . .

وكان الزعماء والحكام الذين يعتمدون على السلطة لِكَبح إرادة الشعب ، وتزييف أصواته الإنتخابية ، وتسليط بأس الإقطاع عليه ..

* * *

وخلال ذلك ـ أو قبل ذلك ـ جمعتنى صداقة حميمة بالأستاذ « توفيق أحمد » والأستاذ « البنا » وهى صداقة أعتز بها وأحرص عليها ، وأستدفىء بمَودَّتِها ..

كان الأستاذ توفيق من الإخوان المسلمين ، ومن موظفى الدار والجماعة ، كما كان فى الوقت ذاته من أبناء الجمعية الشرعية التى سلف الحديث عنها وعن مُنْشئها فضيلة الإمام الشيخ « محمود خطاب السبكى » . . ولم أدركه هنا ولا هناك ـ وإنما تعارفنا فيما بعد .

وكان قد ترك الجماعتين . وعكف على توسعة ثقافته بالاطلاع على كتب لا علاقة لها بالكتب الدينية التى كان عاكفا عليها من قبل .. والتحق بالمعهد البريطانى دارسا اللغة الإنجليزية ، ثم التحق بالجمعية الزراعية الملكية موظفاً بها ..

فى تلكم الأيام كنا نلتقى كثيرا .. وأتلقى منه وعنه مبادىء اللغة الانجليزية .. وعرفنى أيامئذ بالمرحوم الدكتور « سيد عويس » الذى بدأ من الصغر تقريبا ثم اجتهد وثابر حتى صار رائدا كبيرا من رواد الإصلاح الاجتماعى فى رعاية الأحداث وخلاصهم ، وتوج مواهبه الجادّة بالحصول على إجازة الدكتوراه .. كذلك عرفنى الأستاذ توفيق أحمد بأخ عزيز وصديق كريم هو » الأستاذ « جمال البنا » .. والأستاذ جمال هو الشقيق الأصغر للأستاذ « حسن البنا » ..

ولم يكن أكثر ما يُبهرنى فيه فى بَواكير شبابه ذكاؤه المُتّقد ، وثقافته الواسعة وعشقه القراءة وإدمانه الإطلاع ، وأسلوبه المشرق والمتمكّن .. بل مع ذلك ـ وربما قبل ذلك ـ استقلاله الفريد ، واعتزازه العجيب بنفسه .. حتى أنه وهو شقيق المرشد العام للإخوان ، والمجد يسعى إلى فضيلته ، طارحا نجاحاته بين يديه .. والقريب والغريب والقَاصِى والدانى ، كل يحاول أن يقترب من مائدته .. وينال ولو من فُتات مجده كان أخونا « جمال » فى عالم آخر يُعد نفسه لزعامته .. ويرى أفكاره ومبادئه أكثر من الإخوان حظاً ونصيبا من تركة الحاضر ، وفَىْءِ المستقبل .. !!

كنت لهذا أراه إنساناً فذّا ، وشيئاً كبيرا .. وذات مساء دعَانا لحفل شاى أقامه على شرف حزبه الجديد الذى كان ذاك المساء يشهد ميلاده .. لم يسمه حِزْباً .. إنما أسماه « جماعة العمل الوطنى الإجتماعى » ووزّع علينا برنامجه ومنهاجه ..

ودُعيت لإلقاء كلمة ، قلت فيها :

لقد أُتِيح لِىَ أن أعرف من أى طراز تفكير أخى جمال وضميره .. ولما كان من التفكير والضمير تَجِىء أعمالنا ومبادؤنا ، فإنى أكاد أرى مستقبل العمل السياسى لجمال البنا مُضِيئاً كتفكيره .. وَضِيئاً كضميره ..

هذا ما أذكره من كلمتى .. أما مالا أذكره فكثير ..

وفى هذه الأيام أخرج جمال كتابه السياسى الثانى وكان موضوعه وعنوانه : « ديمقراطية جديدة » ،

أما كتابه الأول فكان « ثلاث عقبات فى الطريق إلى المجد » وظل جمال ولا يزال يكتب فى الدين والسياسة كتابةً حاذق وخبير ولا يقتصر نشاطه على التأليف فحسب .. بل أنشأ الإتحاد الإسلامى العالمى للعمال ، حيث يعمل أميناً عاماً له ، مُنطلقاً به إلى كل أفق مُتاح وميسور ..

أما الأستاذ « توفيق أحمد » ، فقد استهواه الاقتصاد حتى كنا ننعته بأنه « أحمد عبدالوهاب » المستقبل ، وكان أحمد عبدالوهاب باشا وزيراً للمالية ردحا من الزمان .

وانسحب توفيق من حياته السابقة كلها بتدينها ونُسكها .. ومكث كذلك سنين طويلة ، ثم ناداه ماضيه ، فركب ثَبَج الحنين إلى بداياته .. وأخرج كتابا قيّما عن شيخه الإمام الشيخ « محمود خطاب السبكى » .. ويتهيأ الآن لوضع مؤلف عن فضيلة المرشد الأستاذ « حسن البنا » .. والإخوان المسلمين .

* * *

وفى تلك الأيام قرأت للأستاذ « عبدالحميد الكاتب » بحثا عن جيش الخلاص .. وجيش الخلاص هذا مؤسسة ذات نشاط اجتماعى واسع وغزير ، أنشأه مصلح بريطانى اسمه « بوث » وأدى به للمجتمع الانجليزى خدمات باهرة ، فتأثرتُ كثيراً بالفكرة ومِنْهاجها وخدماتها ، وبدا لى أن أدع السياسة جَانِباً ، وأدخر كل نشاطى لمثل هذا المشروع النافع العظيم .. وأقنعت بالفكرة ثلاثة من إخوانى واستأجرنا غرفة من شقة تنتظم عدة مكاتب بشارع « قنطرة الدكة » وأنشأت « كُتيّبا » ضَمّنته الفكرة والأهداف والوسائل .. وأسمينا مشروعنا « جيش الخلاص » وزرت الأستاذ « عبدالحميد الكاتب » بأخبار اليوم » أبشّره بأن ما كتبه عن « جيش الخلاص » الانجليزى قد أتى ثَمَرُه ويَنْعَه .. وأعطيته مجموعة من نسخ الكُتيّب الذى كتبته تعريفاً بالفكرة وتبْياناً لها .. ووعد بزيارتنا التى أسعدنا بها وبصحبته الشاعر الأستاذ « عامر بحيرى » الذى كنت أراه لأول مرة .. وفيما بعد صار الأستاذ عبدالحميد عبدالغنى - الكاتب - من أقرب الأصدقاء إلى نفسى .. وصار الأستاذ الشاعر « عامر بحيرى » زميلا لى فى الإدارة العامة للثقافة .

* * *

وذات مساء ، فُوجئنا باثنين من ضباط القسم السياسى الذى كان مُختصاً بمراقبة النشاط السياسى وتعقبه - فوجئنا بهما يزوراننا ، ويَنْهالان بسيل من الأسئلة :

مَنْ نحن ؟ ومَا نحن ؟ ومَنْ مَعنا ؟ ومِنْ أين نكسب رزقنا ؟ وما جيش الخلاص ، ولماذا أسميناه جيشاً ؟ والخلاص ممن ؟ أى من ماذا ؟ ومَن ألّف هذا الكُتيّب ؟ ومن يُنفق على الجيش ؟ وما علاقته بالسياسة وبالأحزاب ؟ وما رأينا فى الإخوان المسلمين وفى حزب مصر الفتاة الذى صار اسمه « الحزب الاشتراكى » وهل سبق لنا الإنضمام إلى أحدهما ، أو كلَيْهما ؟ .

كان صدق نوايانا وسلامة موقفنا ونظافة وسائلنا وغاياتنا تمدّنى برباطة جأش ورُسوخ قدم وشجاعة قلب كافية لمواجهة الموقف ، وعشرات المواقف مثله ..

بيد أن زملائى الثلاثة بَدُوا وكأنهم استشرفوا خطرا فى الاستمرار ، فآثروا الخَلاص من جيش

الخلاص ؟ . . مُحتجّين بحاجتهم إلى الوقت للمذاكرة ، إذ كنا فى السنوات النهائية من فترة تعليمنا الجامعى بالأزهر الشريف . .

وفيما بعد ، زارنى نفس الضابطين ـ ودارت أسئلتهما هذه المرة حول الشيوعية . . ماذا أعرف عنها ؟ ما رأيى فيها . . وما علاقتها بالدّين ؟ وبوصفى أزهريا هل هى حرام أم حلال ؟ . . ثم ألم أجد فى اللغة العربية إسما سوى جيش الخلاص ؟ وضحك أحدهما وهو يقول : ألا يمكن اعتبار جيش الخلاص « بتاعكم » أحد كتائب الجيش الأحمر ؟ وآذَتْ كلمة « بتاعكم » مشاعرى . فتجاهلتها . . ولم يعودا بعد ذلك قط ، فقد حدث ما جعلنى أَزْوَرُّ عن الموضوع كله ، وأطوى أوراقه . .

ذلك أنه كان هناك من تجمعنى وإياه معرفة لا صداقة . وكان يسكن وأسرته فى حجرتين برَبْع قديم بالغورية ، خُصِّص أحدهما لماكينة طباعة صغيرة تُدار باليد . . وكان من بداية الأربعينات يصدر مطبوعة من عدة صفحات يشتم فيها الانجليز ويحرض على قتالهم ، مُحاولا ابتزاز انجليزى كان يُدعى « جمال » وكانت مهمته ترويض المُناوئين لبريطانيا فى مصر بإغداق المال عليهم . .

وذات يوم مررت به ، ولم أكد آخذ لى مكانى فى غرفة الطباعة حتى فوجئنا بمن يقرع الباب قرعا مُزعِجا . . وفتح للطارق فما إن رآنى حتى صاح : خالد : إنت بتعمل إيه هنا ؟؟ . .

كان الزائر المباغت ـ هو الأستاذ « عبدالجليل عابدين » وكان طالبا أزهريا قبل أن يلتحق بوظيفة سكرتير اللواء محمد إبراهيم إمام وكيل القسم السياسى قبل أن يخلف فى رئاسته اللواء زكى سليم باشا الذى لقى مصرعه فى إحدى المُظاهرات الكبرى . .

وكان بينى وعبدالجليل عابدين تعارُف . . وطلب منى أن أصحبه ففعَلت . . وقريبا من باب الرَّبْع كانت تنتظره عربة بوليس ، توجهت بنا إلى مبنى المحافظة بباب الخلق . . وتركنى فى مكتبه قليلا ثم عاد يدعونى لمقابلة « إمام بك » الذى كان فى لقائه مُهذَّباً غاية التهذيب . .

سألنى : ما علاقتى بصاحب المطبعة « رفاعى » فأجبته : علاقة عابرة جداً فقد عرفنى به صدفة صديقى الأستاذ « جمال البنا » . .

قال لى : هذا رجل مشاغب . . وعندما رآك عبدالجليل صُدفة تدخل عنده تبعك وجاء بك لنحذِّرك منه ، ولنعرف مدى علاقتك به . . وإنى أنصحك أن تبتعد عن مواطن الشبهات ـ لا سيما فى هذه الأيام ، ولا تبعثر وقتك فيما لا يعود عليك بالنفع . . بل ربما عاد بالضرر ووجع الدماغ . .

كان الرجل وَدُوداً فى لقائه وفى حديثه ، ووعدته أن أكون عند نصحه وحسن ظنه . .

وصافحته مُودّعا . . وفى طريقى التقيت بالأستاذ عبدالجليل عابدين الذى راح يكرر ما سمعته من إمام بك بروح الحريص علىّ ، والقريب إلىّ . . وغادرته قاصداً منزلى ، وأنا أفكر فى هذا « السيناريو » المُثير . . !!

لطالما كنت أتردد على « رفاعى » ويطلعنى على مطبوعته التى تتجدَّدْ دَوْماً حاملة الضغن على الانجليز ـ وبالذات على « مستر جمال » الذى كان يستجيش أحقاده عليه بحرمانه من الأموال التى كان يبذرها فى سبيل الدعاية للانجليز . . فلماذا هذه المرة بالذات رصد القسم الخاص خُطاى ؟ وإذا كان

عثور عبدالجليل عابدين علىّ بالمطبعة وليد الصُدفة ، فلماذا اصطحبنى إلى المحافظة . . ؟ ولِمَاذا تمّ عرضى على إمام بك نفسه . . وقد كان يكفى أن يقوم بالأمر ضابط من مرءوسيه . . ؟

ثم ما علاقة هذا بجيش الخلاص ؟؟ إنه لا ريب فى أن إمام بك كان على علم به منذ نشأته ؟؟ كما كان على علم بالضابطين اللذين زارانا مرتين فى مقر الجيش ؟؟ بل لعله هو الذى أرسلهما . ثم لماذا ركّز فى نصحه على عدم بعثرة وقتى فيما لا يعود بالنفع . . بل ربما عاد بالضرو ووجع الدماغ ؟؟ .

على أية حال ، فقد ربطتُ بين هذه المفاجآت وجيش الخلاص . . ثم آثرت الأناة فى الأمر وإرجاء المشروع بأسره . .

* * *

وأسلمت نفسى ووقتى لاستذكار الدروس والاستعداد للامتحان . .

كنت وإخوانى نتلقى بالجامع الأزهر كل يوم لنُذَاكِر فيه معاً . . إذ كنا فى مرحلة واحدة من الدراسة . . وكان « صديق العمر » الشيخ السيد سابق هو « كابتن » الفريق لأنه كان أكثرنا علما وفقها وتُقى . . كنا نُلقبه أو نَصِفُه بالمحيط الهادى . .

أما « المحيط » فلعلمه الجيّاش والغزير . . وأما « الهادى » فلهدوئه الشديد ووقاره . . مما سيجعلك تُعجب أكثر العجب حين تسمع ـ فيما بعد ـ عبدالمجيد حسن قاتل النقراشى باشا يعترف بأن الشيخ سيد هو الذى أفتاه بمشروعية قتل النقراشى بحجة أنه حارب الله ورسوله بحلّه جماعة الإخوان ، ومُصادرة أموالها ودورها واعتقال شبابها ؟ . .

أما أنا فلم أعجب ، لأننى كنت للشيخ سيد عَيْبَةِ سرّه ، كما كان كذلك بالنسبةلى . .

ليس معنى هذا أنه كان يُطالعنى بصورة مباشرة على ما أؤتمن عليه من أسرار النظام الخاص الذى أختير مفتياً له ومُوجّها . . بل كنت أستخدم حَدَسِى وظنى أمام حادث ما ، ويحدث أن يصمت ويبتسم ، فأدرك أن الأمر كما ظننته . . ومرة واحدة هى التى باح لى فيها بسر كبير ؟ ! .

قضى الصديق العزيز شبابه فى طُهر وورع وتُقَى تكاد تُجاوز كل وصف وكل تقدير . . وكانت شفافية روحه ، والنور المُضاء به وجهُه ومُحيّاه ، يفتحان له القلوب حتى ليصدق فيه قول ربنا جل جلاله :

﴿ إن الذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وُدًّا ﴾ .

وذات يوم دوّت رصاصات فى عرين الأسد أطلقها طالب بالطب البيطرى من أعضاء النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين على النقراشى باشا رئيس الوزراء فى قلب وزارة الداخلية المُدجَّجة بالحرس وبالسلاح . .

وقيل يومها أن والد القاتل ، كان موظفا بالداخلية ، وبعد موته أكرم النقراشى مَثْواه ، وأمر أن يستكمل عبدالمجيد (القاتل) دراسته كلها حتى يتخرج على نفقة الوزارة ألا ما أعجل صُنع المقادير . .

واعترف القاتل فى التحقيق بكل ما يعلم عن النظام الخاص ، وعن دور الشيخ سيد مُوجّهه ومُفتيه . .

ولنا عودة إلى الحديث عن الصديق الكبير عندما نشهد قضية مقتل النقراشى باشا ، ونَبْلو أخبارها . .

أما ـ فيما قيل ـ وبعد أن طَوِيْت أوراق « جيش الخلاص » فأين اتجهت مع القافلة التى كانت تسير ، مصممة على أن تظل تسير ؟؟

* * *





« أفسحوا الطريق فإنا قادمون »

كنت قد اقترحت على الصديق العزيز الأستاذ « جمال البنا » إنشاء نادٍ للكتاب المُعرَّب ، إعترافا بفضل التَّعريب علينا ، وتَعْميماً لفائدته . .

ونهض الأستاذ جمال بحماسة وبمضاء عزيمة فوجّه الدعوة إلى « ثُلّة » كبيرة من المثقفين ، لَبّى الدعوة منهم كثيرون . . في مقدمتهم الأستاذ سلامة موسى . . والدكتور أنور المفتى . . والأستاذ أحمد بهاء . . والأستاذ جمال هو الذى ذكّرنى بهذا الاجتماع وهذه الأسماء إذ لم تكن هذه الواقعة فى ذاكرتى وأنا أسجل هذه الذكريات حتى ذكّرنى بها . . ويومها سألت نفسى : إذا كنا شديدى الاهتمام بـ« استقدام » الفكر الغربى . . فأين اهتمامنا بـ« تقديم » الفكر الإسلامى والعربى ؟؟ إن كِلَا الاهتمامين جليل ونبيل . . وإن علماءنا الأقدمين ، قد خلّفوا تُراثا هائلا لفكرهم الثَّر العظيم . . لكن نحن ؟؟ جيلنا نحن ؟؟ ماذا أعطى العالم من فكره العربى والإسلامى فى عصر يمُور مَوْرا بالقضايا الكبرى ـ كالديمقراطية . . والاشتراكية . . وبالقضايا الفلسفية ، والاجتماعية ، والتربوية . .

لابد أن نحمل تبعاتنا قدر إمكاناتنا وجهدنا . . وحملت خواطرى هذه إلى أخى الكريم الشيخ « محمد الغزالى » . . واتفقنا على أن يُبادر أحدنا بإصدار كتاب فى أى من موضوعات الساعة ، وآثر الشيخ أن يكون الموضوع : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » . . ثم يتلوه كتاب عن « الإسلام ، والمناهج الاشتراكية » . .

قلت : وإذن فأنت خير من يكتب هذين الكتابين ، ويُجلّى فقه الإسلام فى هذين الموضوعين . . ومضى الشيخ فى حماس وشوق يؤلّف الكتاب الأول ـ الإسلام والأوضاع الإقتصادية ـ فشهدت المكتبة الإسلامية ـ ربما لأول مرة ـ كتاباً فى الإقتصاد مُحكَم التأليف ـ قوى الحجة ، ريق الكلمة ، مُمتع العبارة ، حتى كأنك تُطالع قصة حب لا كتابا فيه جفاف الاقتصاد كعلم له مُصطلحاته العسرة ، وأرقامه التى تتوه فى بَيْدائها . . !!

وأسلمنا الكتاب ، لإحدى شركات التوزيع ، وانتظرنا فى شوق عَجول صباح الغد الذى سيبدأ فيه توزيعه . .

وإنى لأسرع الخُطى فى أول بزوغ النهار ، لأشترى نسخة من الكتاب . . وإذا بائع الصحف الذى كنت أتعامل معه ، يخبرنى أنه صُودِرَ . . وأنه منذ دقائق معدودات جاءه مخبران وحملا النسخ التى جاءته مع الصحف لبيعها ، وحذّراه من المجىء بنسخ أخرى وبيعها ، لأن الكتاب مُصادر . . !!

ورأيت دموع الفرح تَيْبَبُ من عينى . .

لقد أصبح لنا فكر يُرهب ، وكُتب تُصادر ؟ !!!

أية بداية سعيدة هذه ، وأى إرهاص ، وأى انتصار؟؟ !!

ومضيت أقطع الأرض وثْبا إلى منزل الغزالى ، فألفيته لم يعرف نبأ المُصادرة بعد .. وغادرنا منزله إلى الطريق نستعرض باعة الصحف ، فما وجدناه إلا عند واحد منهم ، أنبأنا أنه استطاع إخفاء نسختين ، فأخذناهما منه .. وراح يسألنا : لماذا صُودر؟ وماذا فيه ؟ ومن مؤلفه ؟ ومؤلفه واقف معه .. وإذا كنتم تعرفون المؤلف فدلونى عليه لأشترى منه مجموعات من الكتاب أقوم ببيعها ؟

وبعد حين أُفرج عن الكتاب ، وشَحذَ الشيخ الغزالى قلمه ليكتب مؤلَّفه الثانى : « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ..

* * *

وانْداحَ الطريق أمامنا ، وداعبت خُطواتنا الأحلام ..

كان المرحوم الحاج « محمد حلمى المنياوى » من الصف الأول فى الإخوان المسلمين ، كان يملك داراً كبيرة للطباعة ..

وكنت أنا وأخى الشيخ الغزالى نفكر فى إصدار مجلة أسبوعية باسم : « الأزهر الجديد » تحمل رسالة الأزهر إلى مصر التى كانت تتهيأ للانقضاض والثورة ، وتُدحِض بعض كبار العلماء الذين كان القصر يستقطبهم ، ويحاول تسخير نفوذهم الدينى لدعم سلطته وسطوته ..

ولكن أين الطريق إلى ذلك الإنجاز ؟؟

لم أكن حتى ذلك الحين أعرف الحاج حلمى المنياوى ، بينما تؤلف بينه والشيخ الغزالى علاقة وُثقى ..

ومن ثَمّ عرض عليه الشيخ فكرتنا فرحّب بها أعظم ترحيب ..

ونهض بتقديم طلب رخصة المجلة ، واستأجر لها شقة مجاورة لدار الطباعة ، وأمدها بالأثاث المناسب .. والتقينا ثلاثتنا ـ هو ، والشيخ الغزالى ، وأنا ، لنتحدث عن خطة المجلة : قلت له : إن لك عندنا شرطا .. وإن لنا عندك شرطا :.

أما شرطك الذى نلتزم بوفائه ، فهو ألاّ نجنح بالمجلة أبداً لهوى أو غرض ، وأن تظل إن شاء الله تعالى كلمة صدق للإسلام والوطن ..

وأما شرطنا عندك ، فهو ألا تتدخل فى تحريرها الذى هو مسئوليتنا وحدنا .. وألا تُحملنا يوماً على ما نكره من تسخيرنا لجماعة أو حزب أو تسخيرها .. وألاّ نُفاجأ يوما بآخرين تحلهم مكاننا ، مادمنا قائمين بواجبنا حاملين أمانة عملنا ..

وفرح الرجل بما سمع وقال : اكتبوا هذا وسأوقع بالموافقة فوراً .. لكننا لم نكتب شيئا ، فما كان الأمر بحاجة إلى توثيق مكتوب ..

وإنا لنعد بروفات لخمسة أعداد ، وإذا بنا نفاجأ بزائر بعث به إلينا الحاج « حلمى المنياوى » .. وكان طالبا بالسنة النهائية بكلية آداب القاهرة .

كان الغرور دثاراً يغطى فجاجة إمكاناته .. بيد أنه راح يحدثنا أنا والشيخ الغزالى من فوق منصته

الأستاذية .. وسُرعان ما أشهدناه تفوقنا واقتدارنا الصحفى فانسحب شاكياً إلى الحاج حلمى الذى سرعان ما اقتنع هو الآخر بأنه أساء الاختيار ، واعتذر بأنه لم يرسله ليقود التحرير ، بل ليكون فردا بين كُتّابها أو مُحرّريها ..

والحق أننا وُفِّقنا فى إعداد مجلة صادحة وناجحة ..

ومن طرائف ذكرياتها أننى اقترحت إجراء حوار مع الدكتور « طه حسين » موضوعه وعنوانه :

— « لو قابلت هؤلاء » .

سيدنا محمد .. وإبراهام لنكولن .. وماركس ..

وصادف الاقتراح قُبولاً من الشيخ الغزالى .. واتفقنا على المضى للدكتور « طه » معا .. فاتصلنا بداره وظفرنا منه بموعد لم يخلفه معنا ..

وجلسنا وإيّاه فى غرفة مكتبه ..

كان الشيخ الغزالى قد حمل معه نسخة من كتابه : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » مُعتذرا بُمصادرته عن تأخره فى إهدائه إليه ..

ثم أفلتت منه عبارة لعلها لم تكن موضع ارتياح من الدكتور « طه » وإن يكن قد رَد عليها برفق رقيق ..

قال الشيخ الغزالى : إننى سأكون سعيدا إذا سمح وقتك بقراءته ، ثم سمح بالكتابة عنه دون أن أرنو إلى مجاملة .. فأجابه الدكتور :

— هذا مالا ينبغى لك ولا ينبغى لأحد أن يطمع فيه .. يعنى المجاملة على حساب الفكر ..

ثم تبسط معه فى الحديث حول الكتاب وموضوعه .. انتقلنا بعده إلى الحديث عما جئنا من أجله ..

فقلنا له : إننا والقراء ستكون سعادتنا غامرة ، إذا توجنا العدد الأول من المجلة بحوار معك ؟ ..

قال : وأى موضوع اخترتماه للحوار ؟؟ ..

وتلوت عليه العنوان :

لو لقيت هؤلاء :

سيدنامحمد .. وإبراهام لنكولن .. وماركس .. ؟

وتبسم ضَاحِكاً من قولنا .. ثم أرسل قهقهةعالية ، وقال :

— وما العلاقة بين « محمد » و « ماركس » ؟؟

وأجاب « الغزالى » لتكن علاقة تضاد ..

وقال : قد يكون مفهوما هذا اللقاء الذى أردتماه بين الرسول ، ولنكولن ..

ولكن ماليس مفهوما أبدا هو اللقاء الذى دبرتماه بين الرسول وماركس ..

ومضى بنا الحديث شهيا وذكيا .. وأخيرا وعدنا بأنه سيفكر فى الأمر .. ولتكن لنا عودة ..

* * *

وإنا لعاكفون في نشاط وحُبور على صنع مجلتنا : وإذا بنا نُفاجأ بزائر جديد له أسبقيته وقدرته ومواهبه .. وكان المرحوم الأستاذ « سيد قطب » .

جاء ومعه بعض إخوانه الذين كانوا يعملون معه في كل صحيفة يتولّى أمرها وقال بعد تبادل التّحايا : إن الحاج حلمي كلّفه بالإشراف على تحرير المجلة ، وسيكون سعيداً بالعمل معنا من أجل إنجاحها ..

وأبدى عدم ارتياحه لإسمها - « الأزهر الجديد » .. دَاحِضاً إيّاه بحجة أنها بهذا الإسم تبدو متخصصة في علوم الأزهر ، وشئونه .. وبالتالي ، تُشعر القارىء غير الأزهري بأنها لا تعنيه .. ثم بالتالي - مرة أخرى - لا يكون لها في السوق ذيوع ولا مكان ..

قلنا للأستاذ « سيد » أننا لا نهتم بالذيوع ولا بالتوزيع .. كما أننا لن نبحث عن القارىء بل سنحمله على أن يبحث هو عنا .. ثم وهذا أهم ما في الموضوع ، نريد أن يحمل الأزهر العريق رسالته التي طالما قاد بها الثورات في هذا الوطن العربي كله .

وأن ينفي عن نفسه اللّغو والكثير الذي يُحاول تسخيره لأهواء القصور والاستبداد والاستغلال ..

نريد أن نقول للشعب : - هذا هو أزهرك العظيم يتصدّر زحفك نحو الحرية والعدل والنور ..

وقلت للأستاذ سيد : لقد كان في بالنا تسمية المجلة بـ « الفكر الجديد » .. ولكننا عَدلْنا عنه إلى « الأزهر الجديد » للمعاني التي ذكرناها ..

واستفاض النّقاش ليلتين كاملتين - وكلٌّ عند رأيه لا يَريم .. !!

وفي الصباح التالي للقائنا الأول قابلت الحاج « حلمي المنياوي » فألْفَيتُه مُؤثِراً للأستاذ « سيد قطب » كرئيس للتحرير ومُقتنعاً بوجهة نظره كلها ..

ونقلت إليه عزمي على نفض يدي من المشروع واتفقت مع الشيخ الغزالي على ترك المجلة - إشرافاً عليها ، وكتابة فيها ..

وفي الليلة التالية جاء الأستاذ « سيد ومعه بطانته » وأخبرته أنني والشيخ الغزالي ننسحب من المجلة ..

سأل : لماذا ؟ أجبته : عن نفسي أفسّر السبب .. عندما أُوجد في عمل ما بصفتي المسئول الأول عنه ، فإني أرفض أن أتحول إلى المسئول الثاني ، ما دمت لم أفشل ولم أخفق ..

من أجل ذلك اخترت موقفي هذا على علم .. وعلى الرغم من أني والشيخ الغزالي متفقان على هذا بل وعلى عدم الكتابة في المجلة . فإن له كامل الحرية في تغيير موقفه ، والاهتداء برأيه ..

وغادرت المكان ولم أعد إليه قط .. وصدرت المجلة ، وفوجئت بالشيخ الغزالي يكتب فيها ؟ ..

وعلى أية حال ، فقد صدرت مرات قليلة في أعداد ضئيلة . ثم كفّت عن الظهور بعد أن حققت خسائر كبيرة حملت الحاج حلمي على تسريحها ..

ومضى الشيخ الغزالي في طريق التأليف ، وعما قريب ألحق به مؤلفا أنا الآخر ..

* * *

تتابعت أحداث رهيبة نادى بعضها بعضا . . فقد تكشفت أخطار التنظيم السرى للإخوان كما لم تنكشف من قبل . .

ورأى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية يومئذ ألّا مندوحه من وقف نشاط الجماعة كلها وحلها . . وعبثا حاول أصدقاؤه ثَنيه عن هذا الإجراء فأبى ، وحذّروه من عاقبته فازداد إصراراً عليه باعتباره ـ من وجهة نظره ـ أن الهروب من هذا الإجراء خيانة لمسئولياته ولوطنه . .

هنالك أصدر قراره بحل الجماعة ، وإغلاق شُعبها ، ومُصادرة دورها وأموالها وأنشطتها . .

ولم تمض سوى أيام حتى اغتاله التنظيم السرى للإخوان وهو متجه إلى مكتبه بوزارة الداخلية . .

وبعد أيام ، اغتيل الأستاذ حسن البنا إثر انصرافه من جمعية الشبان المسلمين ، حيث كان على موعد فيها ببعض الشخصيات الكبيرة والبحث فى تسوية ومصلحة تُطفئان الفتنة المشبوبة . .

عندما اغتيل النقراشى باشا ألقى القبض على الشيخ سيد سابق نتيجة لاعتراف القاتل « عبدالمجيد حسن » بأن الشيخ سيد هو مفتى التنظيم السرى . . ومن ثَمّ فقد أفتاه بوجوب اغتيال النقراشى ، لأنه حارب الله ورسوله بإلغائه جماعة الإخوان المسلمين . .

كانت تلك الأيام أيام عُسرة وضياع للإخوان . وسارع كل أخ إلى الإختفاء وشعار كل منهم :

« انجُ سعد . . فقد هلك سعيد » !!!

وهكذا لم يكن للشيخ سيد ملجأ ولا مُلْتَحد ولا نصير . . !!

ورأيتنى أواجه اختبارا صعبا . . تَنُوء به العُصبة أولُو القوة . .

فالشيخ سيد صديق عمرى . . والاغتيال أمقت الخَطايا إلى نفسى . . وحين أُلْقى القبض على الشيخ سيد ، ونشرت الصحف اعترافات قاتل النقراشى ، لم أستبعد أن يكون صديقى قد تورّط فى الخطيئة . .

ومع ذلك فلابد من الوقوف بجانبه ، فلست أعرفَ وجه الحق فى اعترافات عبدالمجيد حسن . .

وظنى بإمكان تورُّطه ، لا هو بالدليل الشرعى ، ولا بالدليل القانونى . .

إن إدانته لن تزيد عن كونها أمراً مُحتَملا . .

أما محنته الأليمة . . ومحنة والديه وزوجه وأسرته وأخوانه فأمر واقع ومُسْتَيقن . . فهل أترك اليقين من أجل الظن ، والواقع المشهود من أجل ما هو مُحتمل ، ولا يزيد . . ؟؟ !!

هنالك بادرت إلى حمل كل مسئوليتى تجاهه . .

* * *

كان والده شيخاً كبيراً ، وريفيّا لا خبرة له بالقضايا وبالمحاكم . . وكانت زوجته رحمها الله لا تدرى ماذا تصنع . . ثم هى لا تُريد أن تلجأ لأحد حتى لا يشعر بالحرج أو يناله أذى من السلطان . .

لكنها أحسنت بى الظن ، وتذكرت ما بيننا من صداقة عائلية وثُقى . . وبينما أرتدى ثيابى منبئا زوجى أننى ذاهب إلى منزل الشيخ سيد ، وهى جزاها الله خيرا ـ تُشجّعنى على الذهاب وتَشُد أزرى . . إذا من يطرق الباب ، وفتحته فإذا هى ـ الحاجة الفاضلة قرينة الشيخ ومعها الحاج سابق والده . . وأحسنتُ

وزوجتى استقبالها .. ثم أخذت أهدّىء من رَوْعِهما ..

وأخبرتنى الحاجة الفاضلة أن الحاج سابق يقصدنى لأوفر أحد المحامين المقتدرين .. يحضر التحقيق مع الشيخ سيد ويترافع عنه ..

وأشار أحد أقاربى باختيار المرحوم الأستاذ/ محمود سليمان غنام ..

وأول أيام المحكمة دخل الأستاذ غنام القاعة حاملاً مالا يقل عن عشرة مجلدات من الحجم الكبير مما أثار عجب الحضور وابتسامتهم ..

وترافع عن الشيخ سيد مرافعة عادية جدا . واكتشفت أننى أخطأت الاختيار ، لأن الأستاذ غنام كان متخصصا فى المدنى لا فى الجنائى ..

كذلك اكتشفت للأسف المرير أن قريبى لم يمحضْنى النُّصح ، لأنه كان يرنو إلى مصلحة خاصة « سمسرة » اتفق عليها مع وكيل الأستاذ المحامى .. ولم نعلم ذلك إلا بعد انتهاء القضية تماما ـ وكان درسا قاسيا أدركت معه أن الناس هم الناس « لا خير فى كثير من نَجْوَاهم » وحتى فى مصائب الآخرين لابد أن يصطادوا منها ويُتاجروا بها ..

ومع ذلك فمن يدرى ؟

« لعلّ له عُذراً ، وأنت تَلُوم » ..

* * *

ولن أنسى ما حييت أن حُظوظى الوافية جمعتنى فى هذه القضية بقاض من أعظم قُضاة مصر وبمحام من أعظم مُحاميها ..

أما القاضى ، فهو المرحوم المستشار « محمدمختار عبد الله » وأما المحامى فهو المرحوم الأستاذ « عبده أبو شقة » ..

كان المستشار يملأ القاعدة هيبة وجلالا وعلما .. وكان المحامى يملؤها روعة .. !!!

لا أذكر عمن كان يترافع ..

ولكنى أذكر كيف سحر رئيس المحكمة وعُضويها وسَحَرنا جميعاً .. !!

ساعتان أو أكثر وهو يرتجل فى انسياب بديع لا يبحث عن الكلمات ، ولا يستخدم إشارات خطابية مُثيرة ..

صوت خفيض وئيد كأنه يعزف لحناً جميلاً عذبا ..

وكلمات مفكرة أنيقة متواضعة ، لا تكرار فيها ، ولا استعلاء ، ولا ابتسار ..

عيناه مُثَبّتتان على وجه رئيس المحكمة ، كأنه يُنَوِّمه مغناطيسيا .. !!

والرئيس المُنبهر فى حالة من التركيز المُفرِط .. قد ثبت مِرْفقيه بالمنصة ، ورفع ذراعيه إلى أعلى بَاسطاً كَفَّيْه ، واضعاً رأسه بينهما .. وعيناه كعينى الصقر ترقبان الكلمات التى تنبثق من شفتى المحامى كالدُر المنثور واللُؤلُؤ النَضِير .. !!

حتى إذا قال الأستاذ « أبو شقة » :

معذرة سيدى الرئيس عن هذه الإطالة وأن من حقكم علىّ أن أدعكم تستريحون بعض الوقت ، حيث أعود - إذا أذنتم - لاستئناف مرافعتى ..

إذا برئيسَ المحكمة يُناجيه كالثَّمِل المأخوذ :

قائلا : - استمر يا أستاذ .. استمر ..

وفرح كل الذين فى القاعة حين رأوا البُلبل الغرد يستمر .. !!

وساعة نطق السيد رئيس المحكمة بالحكم ، ولّى وجهه شَطْر الشيخ سيد قائلا :

— أما أنت ياشيخ سيد ، فدوْرُك واضح ومبين .. ولكن للأسف فالقانون لا يطالك بعقاب !! فاتق الله فى الشباب .. اتق الله فى دينه وعباده .. !!

خرج الشيخ سيد من المحاكمة سَالِماً مُعافىً ..

وعكف على تأليف كتابه القيم العظيم : - « فقه السنة » الذى ينتفع به الألوف الكثيرة من القراء فى العَالَمَيْن - العربى ، والإسلامى ..

* * *

الهجرة إلى المستقبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من كنت أعنى بقولى :
أفسحوا الطريق ، فإنا قادمون ؟؟ كنت أعنى الناس ، والسلطان ، والأيام ، والأحلام والظروف . . كنت أعنى جميع الذين ينتظرون كلمتى ، والذين لا ينتظرونها . .
الذين سيرحّبون بها ، والذين سيرفضونها . ومع هؤلاء جميعا ـ أو قبلهم جميعا ـ كنت أعنى نفسى بكل ما تحمله من مشاعر الماضى ، ومحاولات الحاضر ، ورُؤى المستقبل . .

ألم أقل إن ذوى العزم ليس من حقهم الاعتقاد أو الظن بأنهم جاءوا الحياة فى الزمان الأخير ؟ . . وإن مكانهم فى القافلة الماضية إلى الأمام مخجوز لهم يدعوهم ويناديهم منتظراً بلاءهم الكبير ، وجهدهم المشكور . . !

فهأنذا قد حاولت . . وسأظل إن شاء الله أحاول . . سائراً إلى الأمام . . مُهاجرا إلى المستقبل . .

* * *

فى عام ـ ١٩٤٧ ـ تخرجت فى الأزهر ، حاملا شهادة العالمية ـ من كلية الشريعة وإجازة التدريس فى تخصص التدريس . .

وبدأت أبحث عن وظيفة ، فقد كان هذا العام وعام ـ ٤٨ ـ من السنوات العُجاف أشبه ما يكونان بأيامنا هذه عام ـ ١٩٩١ ـ من حيث البَطالة ، ونُدرة الوظائف ، وكثرة العاطلين . . ؟ ! وكان الناس يعانون أزمة وجَدْبا مما يجعل الحاجة إلى العمل واستدرار الرزق ماسّة .

ولقد طال بحثى عن الوظيفة التى كنت أراها حقاً لى وواجبا على الدولة ، بعد أن شَقِيت فى طلب العلم ، وفى الحصول على الإجازات العلمية التى تؤهلنى للعمل وتحمينى من البطالة التى تُرهقنى من أمرى عُسرا . .

لقد أدّيت واجبى . . وعلى الدولة أن تؤدى واجبها تجاهى وتجاه كل خِرِّيج متعطل . . وإذا هى لم تفعل ، أو عجزت عن أن تفعل ، فلْتختر أوسع أبواب الخروج لتُغادر منه مكانها فى الحكم مُفسحة المكان لمن يستطيع أن يوفّر للمأزوم حلا ، وللعاطل عملا . .

هكذا مضيتُ أفكر ، حتى جاوزت التفكير إلى التقدير والتدبير . . ولأول مرة تقع نفسى تحت وطأة الرغبة فى الانتقام . .

وأذكر أن حرمانى من الظفر المواتى بوظيفة لم يبلغ فى إيلامى ما بلغه موقف عمى من المشكلة . . فقد كان عمى المرحوم الأستاذ « عمر خالدى » ناظراً بوزارة المعارف ـ كما كانت تُسمى يومئذ ـ . . وكان خَدوما لأهله الأقربين وللغرباء الأبعدين . . يحب الخير ومساعدة الناس ، وتفريج الكُربات ، وقضاء الحاجات ما وجد لهذا سبيلا . . ولطالما ساعد العاطلين على بلوغ العمل الذى يعيشون به ومنه . .

أفَيَكْتوى ابنُ أخيه بنار البطالة شُهورا طويلة . دون أن يجد له عملا ؟؟ !!

كانت هذه المشاعر تُقلقه وتُؤرِّقه . . وكنت أعيش معه فيها ، مُحاولا كلما لقيته أن أخفف من وطأتها الضّاغطة عليه . .

وكان المرحوم الأستاذ « حسن الخطيب » مديرا لمنطقة الجيزة التعليمية التى يعمل عمى ناظرا لإحدى مدارسها . . ورجاه عمى أن يساعده فى إلحاقى بوظيفة مدرس بإحدى مدارس المنطقة . وكان عمى أثيراً لديه ، يحبه ويحترمه ، ويتمنى أن يستجيب لرجائه . . ومع هذا ، فقد انقضى وقت طويل حتى استطاع تحقيق الرجاء . . فعيننى مدرسا بمدرسة الفيوم ، واعِداً عمى بنقلى إلى القاهرة ، فى أول فرصة مُتاحة . . وأنجز الرجل وعده ، فنقلنى إلى الجيزة . .

وفرحت فرحتين ـ الأولى : لأن عمى قد انزاح عنه الهَمُّ الثقيل والألم المُمِضّ اللذان كان يعانيهما ، إذ يرى نفسه غير قادر على إنقاذى من براثن البطالة . . !!

والثانية : لأنى أخيرا وجدت عملاً ، وصار لى مُرتب ودخل ثابت يَدُرّا عنى القلق والهاجسات !! وقبل سفرى إلى الفيوم ذهبت إلى عمى لأشكره . وهناك فاجأتنى السيدة حرمه ـ رحمها الله تعالى ـ بقطعة فاخرة من القماش ومعها أجر « الترزى » الذى سيحيك منها « كَاكُولَة » جديدة وأنيقة . . وسرحت وأنا أتحسسها بأناملى الشاكرة . . وسألتنى زوجة عمى :

فيم أفكر ؟؟

قلت لها : إن أول كاكولة أرتديها وأنا فى طريقى إلى السنة الأولى من المعهد الأزهرى ـ كانت هدية منك . . وها هى ذى أول كاكولة أتحلّى بها وأنا أتسلم وظيفتى تجىء هدية منك . . فشكراً ما بقى فى الدنيا شكر . . !!

لبثت فى الفيوم شهراً أو يزيد قليلا . . ثم نُقلت إلى الجيزة . . وبقيت مدرسا ـ إلى عام ١٩٥٦ ـ فالتحقت بالإدارة العامة للثقافة . . وانتهى عملى الوظيفى فى الهيئة العامة للكتاب مُشرفا على تحقيق التراث . ثم سَويتُ معاشى واعتزلت كى أتفرغ للتأليف والكتابة . .

وكان هذا الاعتزال المبكر للوظيفة ولمرتبها الثابت مخاطرة من رجل لا يملك سوى مرتبه . . ولكن قناعتى التى أفاءتها علىّ فترة تصوفى ، وتحديد مطالبى من الحياة . . ورغبتى النبيلة فى التفرغ للتعبير عن أفكارى ومبادئى والإسهام فى البحث عن الحقيقة ونشر نورها وشذاها ـ كل ذلك حَبّب إلىّ المخاطرة . . وبث التفاؤل والأمل والإشراق فى نفسى وعندما أكتب فى مُقبِل الأيام كتاب « الوصايا العشر » حاملا الوصية الثامنة :

« تقبّل وجودك وطوّره
واختر حياتك ، وعِشها
وابق إلى النهاية حاملاً رايتك »
ستكون المخاطرة التى آثرتُها من قبل ، خير إرهاص بفكرى القادم ، وخُطاى الآتية .. ؟

* * *

من عام ـ ١٩٤٥ ـ رحت أقرأ وأقرأ وأقرأ .. وجذبنى الفكر الأوربى إليه جذبا غير وئيد !! وبعد التخرج زاد بالقراءة شغفى ونهمى ..
وتعرفت إلى كثيرين من كبار المفكرين فى الغرب عن طريق مُؤلفاتهم ، وسعدت بصداقتهم .. وفى الوقت نفسه ، كنت أحيا نبض الأحداث نبضة نبضة من خلال المشاركة الوجدانية لأمتى ووطنى ..
ومن خلال قراءاتى ومشاركتى ووعى المُتنامى كان بحثى عن « سلوك الحقيقة » أعظم ما يحببنى فى الحياة ، ويملؤنى احتراما لها ، وشوقا إليها ..
و (سلوك الحقيقة) أمر مختلف عن الحقيقة ذاتها .. إن الحقيقة قد تبزغ فجأة فى أفئدة الأنبياء والعباقرة والمُلْهمين ، فيعانقونها مجردة عن مقدماتها ونتائجها ..
أما من يجعل همه معرفة « سلوك الحقيقة » فهو لا يتلقّاها ، إنما يستنبطها بفهمه الفاحص والدارس ، فيُتاح له إدارك مأتاها ومغزاها ومَسْرَاها .. ويعرف علاقتها الخافية والمعلنة بالزمن وبالتاريخ .. ومن ثم يمتلك زمام المعرفة . لا مجرد الإحساس .. ويسمع صوت الحقيقة ، لا همس الإلهام .. فى وهج الحوار ، لا فى مناجاة الأسرار .. !!
والذين تقدمت البشرية على أيديهم فى العلوم ، والفلسفة ، والاجتماع ، والرياضيات والمخترعات .. بل حتى فى الدين ، كانوا من هذا الطراز ..
ونصيحتى للباحثين فى حركة التاريخ ، وتقدم الإنسان وتطور الحياة ـ أن يتتبعوا « سلوك الحقيقة » أكثر من تتبعهم الحقيقة ذاتها .. فإنهم بهذا ، يضعون المقدمات قبل النتائج ، التى تجىء أنذاك ثمرة ولادة شرعية .. أما الحقيقة وحدها بعيدة عن سلوكها ، فوضع النتائج قبل مقدماتها .. وفى هذا ابْتسار أكيد للحقيقة وللمعرفة .. !!

* * *

من أجل هذا عُنيت بسلوك الحقيقة ـ الدينية ، والسياسية ، والتاريخية .. أما سلوكها دينيا ، فقد اقتضانى البدء من جديد ، أو من الصفر ، على حد التعبير المعروف ..
ولم أفتعل هذا الموقف افتعالا .. بل كانت له هواتفه ودواعيه التى حملتنى على أن أضع علامة استفهام كبيرة أمام كل نص دينى ، أو عقيدة ، أو خاطرة ، أو إرث وثيقته شهادة الميلاد ..
وكان معنى ذلك أن أمنح عقلى ما يُسمى « كارت بلانْش » أى حرية التصرف والاختيار .. وأذكر إننى فى أحد أوقات عناده وتمرده قلت له ـ كأننى أخاطب شخصا أمامى :
إذهب ، وأبحث كما تشاء عمّا تشاء .. ثم عد إلىّ متوشحا بإيمان .. أو مُغرقاً فى إلحاد ..

أو « لا أدْرِيًا » بين هذا ، وذاك . .

كل ما أطالبك به ـ أن تتصرف كعقل ، وتبحث كعقل ، بعيداً عن الغوغائية والعبث والاستهتار واللا مبالاة . .

واستطعت بكثير من التوفيق والذكاء إغراءه بأن يبحث عن الحقيقة من خلال سلوكها . . ولا أزعم أننى وضعته تحت رقابتى . . بل الحق أننى استسلمت له تماماً ، مُختاراً الوقوف بعيدا فى أرض محايدة . . ؟ !

كنت فى هذه المرحلة من حياتى أقف موقف المهاجر إلى المستقبل . . حاملا تجرد المهاجر ، وواعيا معنى المستقبل . .

وسأحدثكم الآن نيابة عن العقل بعد أن قص علىّ ما رأى . .

كانت أولى نزعات تمردى تتمثل فيما أصابنى من فاقة وخَصاصة ، فى وقت كنت قد رُزقت فيه من زواجى المبكّر بأطفال ثلاثة ، كان حبى لهم يتجاوز كل وصف ، وكان حرصى على سعادتهم يجعلنى أطمح إلى ما لا قدرة لى عليه من أطيب مطعم ، وأجمل ملبس ، وأهنأ حياة . .

كانت لى إذن أسرة . . وكنا نعيش من اليد للفم . . !!

وحتى بعد توظفى ، كان المرتب ضنينا وشحيحا . . حتى لقد كنت فى بعض الأيام أذهب من بيتى بميدان باب الخلق إلى عملى بالجيزة راكبا ساقىَّ ، ممتطيا قدمى لأوفر (قرش صاغ) ثمن تذكرة المواصلات . .

وأذكر ذات يوم وقد أحاط بى حاجتى وخصاصتى أننى خاطبت الله بهذه الكلمات :

— يا سيدى ، ما ثمن هذا العناء الذى أعانيه ؟؟

الجنة ؟؟ أنا لا أريد جنتك ؟ ! وما ستعطينى إيّاه هناك ، أعطنيه الآن فى هذه الدنيا . .

أعطينى حياة بلا ديون وبلا فاقة ، وبلا حرمان . . !!

أرنى رحمتك . . وأرنى عدلَك . . وأرنى رزقك . . فإنى إليها جميعا على شَوق . . !!

كم كنت جريئا على ربى سبحانه . . ولكن هذا هو الذى حدث . . وكان عجيبا أن يحدث منى بالذات . . فدعونى أتم حديثى ، فلست أشك فى نفعه وجَدواه . .

* * *

لا تنسوا أننا فى مجال البحث عن « سلوك الحقيقة » . .

والحقيقة فى حالة وجودها معنا ، أو فى حالة غيابها عنا ، لها سلوك لا يغيب أبدا ، لأنها هى لا تغيب . . والمسألة لا تعدو أن تكون : هل نرى هذا السلوك أو لا نراه . . ؟؟

وهنا تتبدى قيمة البحث عن سلوكها كسبيل أمثل لاكتشافها . .

والدين كحقيقة حاضرة معنا ، أو غائبة عنا . . يكشف عنها سلوكها . . وسلوك حقيقة ما تتطلب معرفة سلوك نقيضها . .

فإذا كان نقيض الإيمان ـ الكفر . . فلننظر ـ إذن ـ كيف يسلك هذا النقيض طريقه ؟؟ وما حدث

معى لم يكن كل طريق النقيض ، بل كان خطوة أو أدنى من خطوة على هذا الطريق .. وإذن ، فالجوع كافر كما يقولون ..

أوكما يروى عن الإمام « على بن أبى طالب » رضى الله عنه ، وكرم وجهه .

«لو كان الجوع رجلاً لَقتلْتُه » ..

أوكما يقول الصحابى الجليل « أبو ذر الغفارى » رضى الله عنه :

« عجبتُ لمن لا يجد القوت فى بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه » !!

إنى حين تذمرت وتمردت ، لم أكن قد بلغت مرحلة الجوع .. إنما كنت فقط لا أجد ما يكفينى لكى أعيش وزوجى وأطفالى فوق مستوى الضرورة والكفاف .. ومع ذلك تمردت على الدين وتعاليمه ، والإيمان ومراسيمه . فكيف بمن يجوعون ؟؟ إن الإلحاد كخصم للإيمان يستمد غذاءه من شقاء الإنسان ..

أترى الرسول ﷺ كان يعنى الإيمان ونقيضه حين يضرع إلى الله العلى الأعلى بهذا الدعاء :

« اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » .

فيقرن الفقر بالكفر ، كأنهما توأم أو حليفان ؟؟ ..

لست هنا بصدد الإفاضة فى الحديث عن سلوك الحقيقة ، إنما أضرب الأمثال لا غير .. والحقيقة أن الدين ـ والإيمان شطره وشرطه ـ يترعرع بين مناعم الحياة ، وبعيدا عن شظفها وأجدابها .

من أجل هذا يقول ربنا سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التى أَخْرج لِعبَادِه ، والطيباتِ مِن الرزقِ ﴾ ؟ ! .

ويُوصينا الرسول قائلا :

« كُلوا أطيب الطعام .. والبسوا أجمل الثياب .. وانتعلوا أحسن النعال .. وكونوا فى الناس كأنكم شامَة » !!

ويقول العارف بالله « أبو الحسن الشاذلى » رضى الله عنه :

« إذا طعم المرء طعمة رَضيّة ، وشرب شربة هنية ، ثم قال : الحمد الله .. أوَّب بالحمد معه كل ذرة فى جسمه » ..

« وإذا أكل العيش الجشِب ، وشرب الماء العكِر ، ثم قال : الحمد لله ، خرجت من بين شفتيه ضَجرة متعثرة .. !! »

إذن ، فما بال أقوام يُسرفون فى الأخذ من الحياة ولا يشكرون ؟؟

هنا ينبئنا « سلوك الحقيقة الدينية » أن ثَمَّة فارقاً بين النعمة والترف . فالنعمة مَرجُوَّة ، والترف مرفوض ..

وحين نتبع سلوك الحقيقة فى قضية الدين نجد وراء بقائه فى النفس أسبابا كثيرة ليس هنا مجال تعدادها .

* * *

والآن ـ ماذا أفاء عليّ البصر بسلوك الحقيقة فى زيها الدينى .. ؟؟

أفاء أن الله حق .. والرسل حق .. والبعث حق .. وأفاء أن الدين الخالص جوهر ، قبل أن يكون عنوانا .. وموضوع قبل أن يكون شكلا .. ورَوْح ، قبل أن يكون مظهرا .. وفى منطق وبراهين بثثتها فى إسلامياتى مثل : كما تحدث القرآن ، وكما تحدث الرسول،ورجال حول الرسول ، وخلفاء الرسول ، والموعد الله .. وبصوره مركزة فى الوصية التاسعة من كتاب « الوصايا العشر لمن يريد أن يحيا » .

وهكذا عاد إلىّ العقل ، وهو يحمل للدين الخالص ولاءً موضوعيا . لا ولاءً تقليديا .. ولاء الريادة والاقتناع ، لا ولاء التبعية والاتباع ..

* * *

وكان لسلوك الحقيقة فى زيها السياسى والفلسفى معى ، شأن أى شأن ..

وأنا أرى أن الحقيقة نوعان ـ حقيقة ظاهرة .. وحقيقة ضرورة ..

والأولى « مرحلية » لأنها ترتبط أوتُعبر عن الظواهر الإجتماعية ..

والثانية مقيمة ودائمة : لأنها ترتبط أوتعبر عن الضرورات الاجتماعية ..

والفرق بين الاثنتين ـ أن الظاهرة تفرض نفسها أو تفرضها ظروفها حيناً من الدهر . ثم تنتهى بانتهاء تلك الظروف .. أما الضرورة فتمثل بنية أساسية فى تفكير المجتمع وفلسفته ووجوده وتطوره ..

فالرق مثلا « ظاهرة » اجتماعية . أَوْجَدتُه ظروف تاريخية ، ثم انتهت وانتهى معها .. والدين « ضرورة » اجتماعية ، لأنه باق ما بقى المجتمع .. وهو باق كضرورة لا كظاهرة ..

بيد أن الظاهرة ، رغم أنها موقوتة ـ وقد يطول وقتها ومكثها ـ يمكن أن تحمل وصف الحقيقة باعتبارها تمثل إدراكا عقليا لحاجة اجتماعية راسخة .. بيد أنها لما كانت ظاهرة مرشحة للزوال ، فهى إذن حقيقة مرحلية . أو هى حقيقة مجازاً وتجوّزا ..

* * *

إذا اتفقنا على أن هناك ما يمكن تسميته بالحقيقة المرحلية ، أو المجازية ، فدعونى أمهّد بالحديث عنها للحقيقة فى زيها السياسى والفلسفى .. ذلك أنه أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت البشرية تشهد « مَخَاضاً » هائلا يُرهِص بميلاد عالم جديد .. !!

وكانت تبعات هذا العالم المنتظر تُسرْبِل كل مُواطنيه من رجال الشارع إلى رؤساء الدول .. ومن الجنود المحاربين إلى كبار قوادهم وجنرلاتهم .. حتى كانت هناك « طرفة » يتندّر بها الجنود فى الميادين ، والناس فى الشوارع والأندية والبيوت وهى :

« استمتعوا بالحرب ، فالسلم قادم » .. !! أى أن مشكلات السلام ستكون أدهى وأمر من مشكلات الحرب والقتال ..؟ !

ووضعت الحرب أوزَارها عام ـ ١٩٤٥ ـ وبدأت مصاعب السلام حتى بين الحلفاء الذين قاتلوا معاً ، وضحّوا معاً ، وانتصروا معاً .. فبعد أن قامت الولايات المتحدة بتصفية دول المحور ـ ألمانيا ، واليابان

وإيطاليا - ولّت وجهها شَطر حلفائها وأصدقائها بريطانيا وفرنسا ، إلى أن يحين دور الاتحاد السوفيتى . .

لم تنس أمريكا موقف فرنسا منها ومن زعيمها « ولْسن » فى مؤتمر السلام بباريس حيث عامله « كليمنصو » رئيس وزراء فرنسا بفظاظة وتجاهل حملاه على البكاء . . وأقنعاه بالانسحاب من السياسة الدولية ودعوة بلاده إلى العُزلة التامة . .

لم تنس أمريكا أن حلفاءها يومئذ انتهزوا فرصة العُزلة ليقتسموا العالم ويستعمروا أقطاره وشعوبه ، دون أن يُقدموا أية بادرة لمجاملة أمريكا ، وكأنها لا وجود لها على خارطة الدول الكبرى . .

ومن ثمّ واتت الفرصة أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ، لتُحرر المستعمرات من وجود ونفوذ حلفائها ، ولوبالانقلابات والمؤامرات وتحريض الشعوب . . !!

فى الجانب الآخر كان الاتحاد السوفيتى يستقبل الفرصة المواتية التى تقرع أبوابه . . كان له ثأر عند أمريكا التى أرسلت جيشها لقمع الثورة الشيوعية فى روسيا وثأر آخر عندها وعند بريطانيا وفرنسا . .

وكان أهم من الثأر نشر الشيوعية فى كل مكان تبلغه خُطى روسيا الشيوعية ، وتُطاله ذِراعاها ، لا سيما بعد أن أدخلت أوربا الشرقية فى حَوْزتها . .

وكان من الطبيعى أن يصير لها تمثيل دبلوماسى على مستوى السفارات فى معظم دول العالم تتقدمها الدول الكبرى . .

وكان من الطبيعى كذلك أن تنشط كالريح المُرسلة فى الدعاية لنفسها ولمذهبها ونظامها .

* * *

كنت كما ذكرت من قبل ، ابن قرية ريفية يمتلكها مع قرى أخرى تجاورها ، ورثة الأمير « محمد عبدالحليم » وكان وارثاه سيدتين عجوزتين تقيم إحداهما فى استنبول بتركيا . . وتقيم الأخرى فى شارع الهرم بالقاهرة . .

وكان يُجْبى إليهما ثَمرات ونَتاج عرق الفلاحين التُعساء . . !!

وقد حدثتكم عن هذا كله فيماسبق من هذه المذكرات مما يُغنينا عن التكرار . .

كان المثقفون المصريون قد انتَضْوا أقلامهم وألسنتهم داحضين هذا الوضع الممعن فى الشذوذ سواء بالنسبة لإقطاعيات الأمراء ، أو للإقطاع كله بقَضّه وقضيضه . . !!

ولعل صاحبكم كان من هؤلاء المثقفين . . ولعله كان يرجَحُهم بتجربته فى قريته . .

ولم يتخذ الإقطاع هدفا لما يمثله من مظالم فحسب . . بل عاملناه أيضا كدعامة من دعامات الاستبداد السياسى والاجتماعى . وكعامل من أهم عوامل بقاء الاحتلال البريطانى . . هناك أخذنا نقرأ كل ما يُكتب عن الاستبداد والإقطاع والاستغلال ، والفوارق العاتية بين الطبقات . .

ومضيت أفكر فى الشيوعية كنظام بديل وحل أمثل . .

ونشط الإخوان المسلمون فى مواجهة الطُوفان الزاحف للفكر الشيوعى . .

ووقفت أفحص ، أمحص وأختار . .

كان يصرفنى عن الإخوان غياب التفكير الثورى لعلاج أوضاعنا الاقتصادية وسيطرة الإقطاع ورأس

المال بالذات .. كانوا يتأرجحون كحركة الزئبق أمام هذه الأوضاع الفاسدة ، في الوقت الذي تتطلب مواجهتها فكرا ثوريا صارخا وصامدا .. مدخرين ثوريتهم لاغتيال خصومهم السياسيين ، بعد أن يدثروها بالدين تارة ، وبالوطنية تارة أخرى ..

وكنت لا أزال أحمل فجيعة في الأسلوب الذي اغتال التنظيم السرى به « أحمد ماهر » فقد ألبس التنظيم جريمته ثوب الوطنية على يد القاتل « محمود العيسوى » ..

وكان هذا منتهى الاستغفال للشعب .. فلو أن « العيسوى » قتل « ماهر » بسبب اتخاذه قرار إعلان الحرب على المحور .. مع انتهاء الحرب وهزيمة المحور وانتصار الحلفاء .. فقد كان الوقت المناسب لاغتياله عندما وقف خمس ساعات كاملة ينادى بدخول الحرب . وذلك عام ـ ١٩٤٠ ـ وهو يومئذ رئيس مجلس النواب . والحرب في بدايتها فتية مشبوبة الأوار .. ولا استحق الموت معه « محمد محمود باشا » رئيس الوزراء الذي كان يؤيد ويحبذ دخول الحرب إلى جانب الحلفاء .. إما أن يترك « أحمد ماهر » ينادى بصوت جهير بالاشتراك في الحرب ، مع ما تجره تلك المشاركة من أخطار . ثم يُغتال والحرب تميل للغروب ، مع ما في المشاركة يومئذ من مغانم ..

فهذا كلام له خَبِيء

معناه ليست لنا عقول !!

لقد اغتيل الرجل ، لأنه كان خصما عنيفاً للإخوان ، وكان هذا أحد وجوه المقارنة لهم أو عليهم ..

* * *

فماذا عن الشيوعية .. ؟؟

لقد رأيتم في أحاديثي السابقة ـ إن كنتم لها ذاكرين ـ مبلغ إيماني وولائي وثقتي بالديمقراطية وبالحرية ..

وفي قراءاتي عن الشيوعية ألفيتها تضع إرادة الإنسان وحرية الجماهير في نفق مسدود ومظلم تسميه « دكتاتورية البروليتاريا » ، كما وجدتها تحبس التاريخ في النفق ذاته .. وترسم له حركة تسيرها على هواها في صرامة فادحة ..

ثم رأيت « ماركس » رغم بعض الإشادة منه بالدين في القرون الخوالي ـ يعود فيؤكد أن دوره قد انتهى .. وأنه أمسى وسيلة لاستغلال الشعوب دعما لسلطان أعدائها ..

ورفضت هذا كله ، ولكن بقى ما يدعونى إلى استمرار التفكير في الشيوعية باعتبارها حلا وبديلا ..

حل لماذا ؟؟ وبديل عن ماذا ؟؟

هذا ما سأرجئ الحديث عنه فيما يلي من المذكرات أقدم فيه « أزمة الحرية في عالمنا » الذي صدرت طبعته الأولى عام ـ ١٩٦٤ ـ وانتظم في حديث مفيض عن الشيوعية ، وعن ستالين ، وعن مستقبل الاتحاد السوفيتي ، ودكتاتورية البروليتاريا ..

بعد التحاقي بوظيفة التدريس ، رغبت في تغيير الزيّ ، مودّعا العمامة والكاكولة ومقبلا على الجاجت والبنطلون ..

وكان دافعى لهذا إحساسى بأن الوظيفة المدنية هى بداية المطاف ونهايته فَلأُلبس لها لِبَاسَها المألوف . .

وأزعج هذا التغيير المرحوم والدى . . مُحاولا زَجْرى ، فاستعصيت . . ثم محاولا إقناعى فما اقتنعت . . ثم اصطحبنى إلى عمى الأستاذ عمر خالد ليستعين به على لَىْ ذراعى ، أو إقناعى . . وفوجىء بالمرحوم عمى لا يرى أى بأس فى هذا التغيير وإنما البأس عنده فى خلع الطربوش ، والمشى حاسر الرأس . . !!

وقال لى أبى :

— طاوعنى ، وأنت حتبقى شيخ الأزهر . .

قلت له :

— وما يدريك أننى أريد أن أكون شيخا للأزهر ؟؟

سألنى :

— أمال عاوز تبقى إيه ؟؟

أجبته :

— عاوز أكون خالد محمد خالد !!

وضحك قائلا :

— هوه فيه فارق بين الاثنين ـ أن تكون شيخا للأزهر ، وخالد محمد خالد ؟؟

أجبته : الفارق كبير جداً . . ومعرفتى بنفسى تُخبرنى أننى أفقد ذاتى فى أى منصب كبير أتولّاه . . لأن المناصب الكبرى فى بلادنا تتطلب قدرا من النفاق والمُصانعة لم تعلمنا إياه أبدا . . أنت مثلا ـ يا أبى ـ كنت تستطيع أن تكون أرغد عيشا ، وأهدأ نفسا ، وأهنأ بَالا ، لو لم تقف من مفتش تفتيش الأمراء موقف الناقد والمعارض والمتهجم ، وأنت تعلم بأسَهُم الشديد والعنيد . . فلماذا لم تكن كغيرك فى القرى الخمس التابعة للتفتيش والخاضعة للمفتشين ؟؟

لماذا حملتهم على توقيع الحجز على مواشينا ، وحرماننا من ألبانها وخيراتها . .

ولماذا تركتهم يُصادرون قمحنا وذُرانا وزرعنا . . وكان من اليسير دفع ذلك كله عنك وعنا ، لو لم تتشبث بكلمة الحق ، تصرخ بها فىَ وجوههم . . ؟؟

وسكت أبى دون أن يُعقّب إلا بعبارة قصييرة واحدة :

— خلاص ، على كيفك ، وانت أدرى بمصلحتك . .

ونفعنى هذا الموقف فى مواقف كثيرة تالية : فمثلا ـ عندما تركت الكتابة فى جريدة الجمهورية بعد فترة من الكتابة فيها منذ صدور عددها الأول ، أغضبه تصرّفى هذا ، وجاء من القرية ليناقشنى فيه :

وسألنى :

— انت مش كنت فى حاجة للمرتب اللى بتأخذه منها ؟

— نعم . .

— أمال تركتها ليه ؟ وانت كنت بتكتب كلام حلو ، والناس بتحبك وتدعى لك ؟؟
— تركتها من أجل الناس الذين يُحبوننى ويدعون لى . .
— إزاى ؟؟ . .
— يا أبى - هؤلاء يسرقون حرية الشعب ، ولما واجهتهم بمعارضتى أرادوا أن يسرقوا حريتى أيضا فتركتهم !!
— خلاص . . على كيفك . . وانت أدرى بمصلحتك . .
نفس الموقف . . ونفس الكلمات !! رحمه الله أوسع الرحمات . .

* * *

كنت ولا أزال أؤمن بالحكمة القائلة : « إن السلوك القتالى هو الهدية التعسة التى يهديها الإرهاب إلى الدين والأخلاق » . . وليس الإرهاب ماثلا فى استخدام السلاح فحسب . . بل قد يكون بالكلمة المسطورة أو المنطوقة ، أو التهديد بسلطة الوظيفة . . ورفض هذه الصور من الإرهاب ضرورى لتصفية بُهتانه وعدوانه . .

وقد أتاحت لى فرصة مشكورة أن أقف هذا الموقف خلال عملى مُدرسا . . كانت المدرسة تنتظم عددا غير قليل من التلاميذ المسيحيين . . وعندما تجىء حصة الدين يقف تلميذ مسيحى وينادى زملاءه : المسيحيين ييجوا هنا . . مشيراً إلى الفصل الذى سيتلقون فيه درسهم . . وفى الوقت ذاته يُنادى تلميذ مسلم : المسلمين ييجوا هنا ، مشيراً إلى الفصل الذى سيلتقون فيه بمدرسهم . . وكان هذا المشهد يثير حفيظتى ، وأرى فيه تدريبا يوميا وكريها على التفرقة . .

وذات يوم زار المدرسة الأستاذ المفتش . . كان طويل القامة ، متحفظ الأسارير . . واسمه الأستاذ طاهر . . جمع مدرسى العربى والدين فى حجرة الناظر . . ومضى يريد التعرف على رأى كل منا ، واقتراحاته . .

وقصرت حديثى على التفرقة التى تحدثها حصة الدين كلما حان ميعادها .

وسألت - مجرد سؤال - لماذا لا نفكر فى قصر دور المدرسة على تدريس الأخلاق الدينية المجمع عليها من كل الأديان . وتقوم المساجد والكنائس بتعليم الدين وغرسه فى الأفئدة بعيداً عن عقاب التلميذ ، ودرجات النجاح والرسوب التى تحدث فجوة بين التلميذ والدين . . ؟؟ ولم يناقش الرجل سؤالى هذا ، ولم يُعلق عليه . .

ومضت أيام ، وإذا المدرسة تستقبل كالعادة التقارير التى يعدها المفتشون كى يطلع المدرسون عليها ويمهروها بتوقيعهم . .

وسلمنى الناظر التقرير الخاص بى ، والذى حرره « حضرة المفتش » . . !!

وإذا به يحمل هذه العبارة المضحكة : « إن لهذا المدرس آراء خطرة تُشينه » . . أين هذه الآراء الخطرة التى تُشين صاحبها؟؟ إنه مجرد اقتراح فى مجرد سؤال . . وعجز هو عن مُجرد التعليق عليه . . !!

هنالك تناولت القلم وكتبت : « يُؤسفنى أن هذا التقرير مشحون بالكذب والبَهتْ والجهل والافتراء » . . !!

وقرأها الناظر فكاد يُصعق إذ لم يحدث أن وجّه مدرس مثل هذه الصفعة لمفتش أبدا . .

— ما هذا يا أستاذ خالد ؟؟ ألا تعلم أن هذا التقرير سيعود إلى المنطقة . . ؟؟

— أظننى أعلم . .

— وكيف تكتب هذا ؟؟

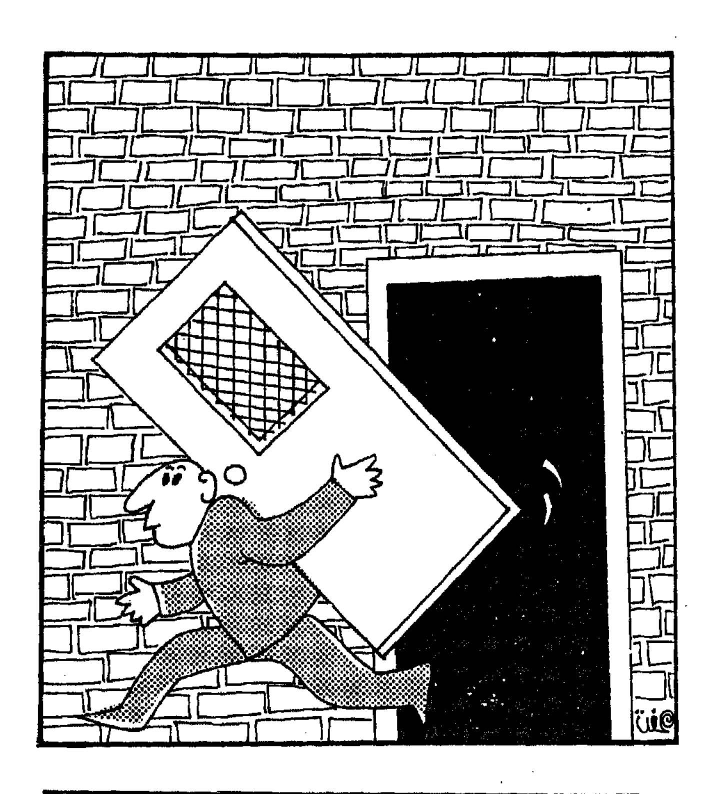
— لأننى أعلم . . ولأننى أريد أن يكون موضع تحقيق . . هذا الرجل يستغل سلطته كمفتش ويريد إرهابى بتقريره الشائن ، ويجب أن يقف عند حده ، يَبُوء بإثم ما سطرت يده . .

وحاول الناظر رِفقاً بى وحلاً للمشكلة أن يطلب من المنطقة تقريراً جديداً بحجة أن الأول قد ضاع ، وأُغلّق عليه بكلمة « عُلم » لا غير . . فرفضت . . واستأذنته ، وانصرفت . .

وحتى اليوم ـ وقد مضى على الواقعة ثلاث وأربعون سنة ، لم أتلق دعوى للتحقيق معى . . لقد زادنى هذا يقيناً بأن الاستمساك بالحق والشجاعة في الذود عنه لا يُدنيان أجلاً . . ولا يَقْطعان رزقاً . . وأن ربّنا جل جلاَلُه قد صدقنا وعده الذى ضمنّه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ لَنْ يُصيبنَا إلاّ ما كَتَب الله لَنا ﴾ . .

* * *



إقرعوا يُفتحْ لكم !!

عندما نبدأ هجرتنا إلى المستقبل حاملين تبعاته مُيَمّمين وجُوهنا شطر مطلع ضيائه يتفتح لَنا من أبوابه أعداد كثيرة بعضها يبعث الأمل وبعضها يَزُف الإحباط .. ولكن يبقى أمامنا ومعنا حلاوة الإيمان ولذات المخاطرة .

والهجرة إلى المستقبل تبدأ عفويا مع طفولتنا ، بيد أنها تُصبح حقيقة واقعة والتزاما عندما نُواجه مع اشتداد عودنا ونمو شخصيتنا وتوهج مطامحنا ما يفرضه ذلك كله من أمل وعمل .. وحين ركبت القطار إلى الأهداف التى استبانت فى وعيى ملامُحها راحتِ المفاجآت تَتْرَى وكان أولها تلك التصفية الرهيبة التى أجرتها الأحداث بين الحكومة والإخوان المسلمين ..

فالنقراشى باشا تُقدم له الأقدار « صدفة » كافة أسرار وخفايا التنظيم السرى للجماعة .. فيقرر حلها ومصادرة دورها وممتلكاتها حتى مركزها الرئيسى بميدان الحلمية الجديدة يتحول إلى قسم بوليس ومركز شرطة والتنظيم السرى يلتقط القفاز ويضرب ضربته المنتقمة والفادحة فيغتال النقراشى فى قلب عرينه بوزارة الداخلية حيث كان يومئذ رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية، ويلتقط القفاز هذه المرة أنصار الحكومة .. وقيل يومها أنه الحرس الحديدى الذى شكله القصر الملكى، فيُدعَى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا إلى مقابلة مع بعض الذين كانوا يحاولون قيام مصالحة بين الحكومة والإخوان ، وفى مُبتكر الليل وهو خارج من دار الشبان المسلمين جابهه من اغتالوه بالرصاص المقذوف حيث فاضت روحه فى المستشفى بعد أن حُمل إليه .

كانت أحداثا رهيبة أيامها مكفهرة ولياليها مُثْقلات يَلِدْنَ كل عجيبة !!

ما علينا ..

أقول ما علينا ؟؟

لا ـ فما كانت الأمور بهذه السهولة ـ فقد إلْتاث الطريق أمام السائرين ـ جميع السائرين ـ مشاة وركبانا وأمست الحياة مثل بحر لُجّى يَغْشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظُلماتٌ بعضها فوق بعض . إذ أخرج أحدنا يدَه لم يَكَدْ يَراها !! ولكن كان هُناك فئات من الناس يحملهم التصميم وتدفعهم

مقاديرهم إلى مواصلة رحلتهم ومسيرتهم مهما بَعُدت الشُّقة وكثر العناء ..

وكنت واحدا منهم ..

قلنت لكم من قبل إن قريتى كانت تقع ضمن إقطاع عريض تملكه أميرتان عجوزتان من أسرة محمد على باشا الكبير .. كان اسم هذه الإقطاعية العريضة « تفتيش الأمير محمد عبدالحليم » .. وكان كبقية التفاتيش الزراعية يكدح الفلاح فيها ويشقى من أجل السادة أصحابها كى تزداد وَجَنائهم تورُّدا وجيوبهم تورُّما !!

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت الشعوب المهيضة تقف أمام المَرايا طويلاً ليرى كل شعب نفسه جيداً وبالتالى ليرفع أعلام التمرد على أوضاعه المتدنية وليُطامن من كبرياء الرءوس المُستعلية .

كنا نحن الشباب فى مصر جمراً يَتَوقّد ولَهبا مقدسا يُرسل نوره وناره ، لم نكن نسائل أنفسنا ولا هى تسألنا .. ماذا نعمل ؟ ولا كيف نعمل . المهم أن نعمل وحسب فأدنى مميزات العمل أيامئذ أنه يشعرنا بأننا لم نمت بعد .. ولا نزال أحياء يدق فى أوصالنا وعروقنا نبض الحياة .

ويومئذ بدا لى أن أصنع لقريتى الحبيبة شيئا .. فماذا أصنع ؟؟

إنه بقدر إخلاصنا يُعطينا الله من فضله ويُلْهمنا ..

وصدقونى : إنه من غير إعمال فكر جاءنى ما يجب أن أفعله فى رسالة كأنها من الغيب وكأن صوتاً مُبشرا ومثيرا يقول لى قُمْ .. انهض وتزعّم إضراباً عاماً عن الطعام لا لوحدك بل ادع القرية كلها لمشاركتك رجالها ونساءها ، شبابها وشيوخها فتيانها وفتياتها احتشدوا فى المسجد الكبير بالقرية وفى دار الضيافة المجاورة له ـ إملأوا الشوارع المحيطة به .. والأسطح المجاورة له .

إنك لتعرف كم يُحبك أهل قريتك ويثقون فيك .. وإن شاء الله سيستجيب لك الذين يسمعون وسيكون موقفا تاريخيا نادر المثال ، ذلك أن القرية من قرى الشرقية اجتمع أهلها على قلب رجل واحد مُعلنين العصيان المدنى وباذلين أرواحهم بذل السماح من أجل قضيتهم العادلة متّحدين جبروت التفتيش وداعين الريف المصرى كله أن يتسلح بالموقف ذاته ضد الدوائر السنية والإقطاع المحتكر الأنانى البغيض .

ما أروعه من خاطر وما أجلّه من إلهام ..

وإنى لممتشق عزمى وإرادتى وإذا مفاجأة كبرى تخترم الطريق ، ذلك أن الملك « فاروق » ـ كان قد عيّن إبراهيم عبدالهادى باشا رئيسا للوزراء بعد اغتيال النقراشى باشا ترضية وتعويضا لحزب « الهيئة السعدية » وتشفيا فى جماعة الإخوان المسلمين واستمرارا فى تحدّيهم ومُطاردتهم ولكنه فجأة ـ وفى ذروة ملكية طارئة ـ عزله وأقاله إذ أرسل إليه فى السابعة صباحا « حيدر باشا » وزير الحربية مُبلّغا إياه أمراً ملَكِيا يدعوه لتقديم استقالته ومن فوره استقال بعد أن لبث فى الحكم أقل من عام .

والطغاة هكذا يفعلون ، يُسخّرون المُسبّحين بحمدهم لتحقيق أغراضهم ويمتصونهم امتصاص الفم الشّرِه لِلّيمونة الطريّة ثم يُلْقون قشرتها فى الطريق !! .

وحين يَبْشِمون ويَتّخمون من لحم ضحاياهم يثنون بطونهم صوب منافقيهم من الكبار والصغار ويفتح

شهيتهم ريح الشّواء الجديد .

وينظر إليهم الشاعر فى فزع ودهش .. ويناديهم منشدا :

فيالَك هرة أكلت بنيها

وما وَلَدوا وتنتظر الجنينا .. !!

إن فَن التوقيت وحسن اختيار المناسبة لهما من أهم عوامل نجاح العمل المُرتجي والخطة المَرسُومة والغاية المُبتغاة ، أى عمل وأيّةُ خطة وأيّة غاية .. ووفق هذا المنهاج لم يعد الميقات مناسبا ولا الظرف مواتيا لإنجاز خطة الإضراب الشامل عن الطعام فى قريتى .. إذ أن عملا كهذا يحدث لأول مرة فى تاريخ مصر كلها قديمه وحديثه لابد لنجاحه من أن يجيء مهيمنا على جميع الأحداث الطاغية فوق سطح المجتمع أبان وقوعه كيما يحوز اهتمام الوطن كله والمواطنين جميعا .. بل واهتمام الرأى العالمى العام مما يجعل تأثيره كاسحاً . ونجاحه مُحققا ..

ولو أننى استجبت يومئذ لنشوة العاطفة وقمت بالإضراب لصادف العمل العظيم إجهاضا وانتهى كما تنتهى الفقاقيع ..

فالوزارة تغيرت فجأة وأعلن الملك أن تنحية الوزارة هدية العيد يقدمها لشعبه العزيز .. وكان عيد الفطر على الأبواب .. وعرف على وجه اليقين أن وزارة حسين سرى باشا الجديدة إنما جاءت لإجراء انتخابات لبرلمان جديد ، ومشاعر الناس وتفكيرهم محصوران فى إيقاع المفاجأة والطبول تدق والمزامير تعزف والإعداد للانتخابات يجيء مُبكرا وعميما ..

وإذن فالانتظار أنجح والانتقال إلى جدول الأعمال أولى وأصلح .

كانت نوايانا ومشاعرنا ومحاولاتنا تغص بها أنْفُس توّاقة إلى العمل الوطنى فى أى من مجالاته العديدة والمجيدة ..

وإذا كان إضراب قريتى بأسرها عن الطعام حتى تسّاقَط عنها مَظَالم التفتيش وظُلماته قد حيل بيننا وبينه بفعل الظروف السياسية الطارئة فهناك الكثير الكَاثِر مما نستطيع أن نُنجز ونعمل .. مثل ماذا ؟؟؟ .

لا ـ فلا مجال هناك لإلقاء هذا السؤال،فالإرادة موجودة وإذا وُجِدت الإرادة وُجِد الطريق ..

* * *

كنت أفكر طويلا فى تأليف كتاب عن نقائص النظام السياسى ورزايا الظلم الاجتماعى .

وكنت أتتبّع عناصره وأعدُّ له الشواهد التاريخية والمعاصرة .

ومن ثَمّ لم أبحث عن العمل الذى ينتظرنى كبديل لإرجاء خطة الإضراب العام عن الطعام التى أسلفت الحديث عنها ..

وحملت قلمى وأعددت أوراقى وإنى لأجرى مع نفسى مُراجعة للموضوع وأبنى له التصوّر ، تصوّراً جديداً ، وإذ بى أرى رُؤيا صدق لا تَزال تُثلج صدرى رغم مضى أكثر من أربعين عاما عليها ..

رأيت فى منامى رجلا صالحا حسن السَّمْت مُشرق المحيا مُقبلا نحوى ومتأبطاً كتابا ـ ما كاد يقترب

منى حتى بسط يمينه نحوى بالكتاب وهو يقول لى :

خذ يا أخى كتاب ـ توالى العَطاءات ـ والله ما كذبتكم وإنى لأنقل الرُّؤيا لكم وكأنكم تبصرون مشهدها كله .

صحوت من نومى وكل كنوز الأرض وتيجانها تتواضع أمام ما امتلأ به صدرى من نشوة الرؤيا وجمالها ومن غبطة الروح وجلالها وهتفت الله أكبر .. لقد وجدتها ، إن الله بمشيئته وبفضله يُرينى الطريق ويبشّرنى به .

ومضيت أقطع الأيام وثْباً لأُنجز على خير وجه ميسور الكتاب الذى ستتوالى به وعلى أثره العطاءات .

كان أول مُؤلّف لى ومع هذا فقد أقام الدنيا وأقعدها ..

وإن شاء الله سيكون لقاؤنا معه ـ أنتم وأنا ـ مُمْتعا ورائعاً ومُثيرا ..

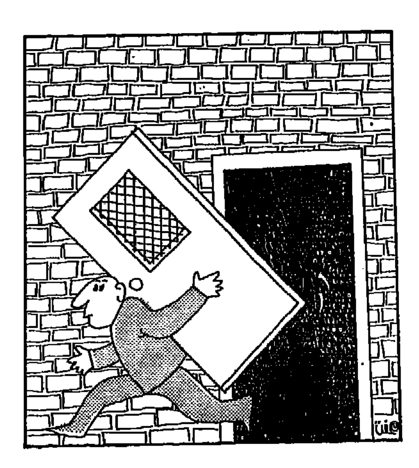
إنه لا يزال وسيظل من أحب كتبى إلىّ وأقربها من نفسى وألصقها بروحى .

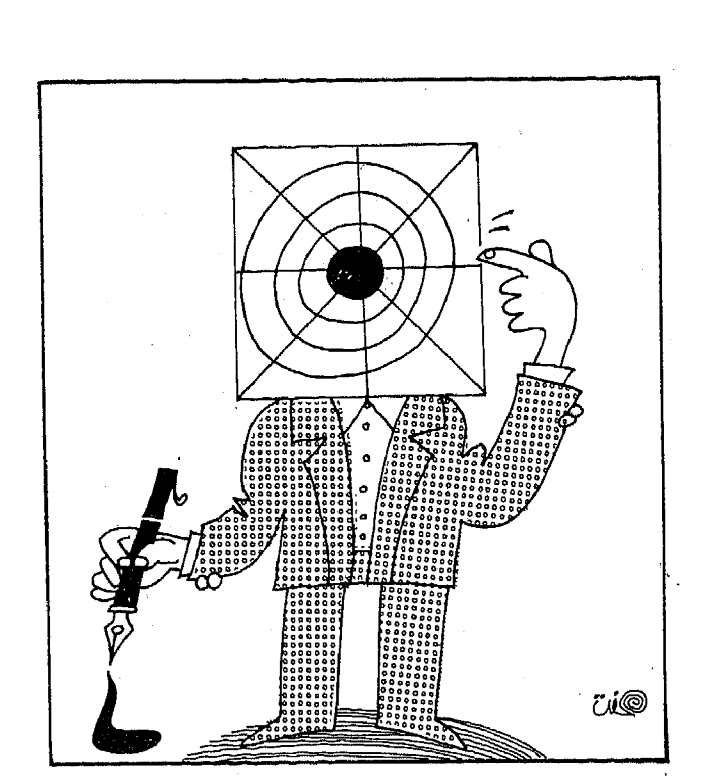
ولِمَ لا أليس هو الإبن البكر لعقلى وضميرى ..

ألم يكن أول نشيد ثورى ردده الملايين معى .

ثم ألَمْ يكن حامل البُشرى بتوالى العَطاءات . أجل ولقد كان إرهاصا صادقا بما سيفتح الله الكريم به علىّ من أفكار ومؤلفات من أجل ذلك كان أصدق الأسماء له : «من هنا نبدأ» !!!

* * *





من هنـــا .. نبــدأ ! !

فى فبراير عام - ١٩٥٠ - كنتُ أدفعُ مخطوطةَ أول مؤلفاتى « من هنا نبدأ » إلى المطبعة بعد أن أتممت تأليفه وكتابته ، حريصاً على أن يصدر فى أقرب وقت ميسور ..

بَيْدَ أنه قبل تقديمه إلى عجلات الطباعة اخترمَتْ طريقى عقباتٌ اقتضتنى جهاداً وصبرا ..
كان أُولاها موقفَ الرقابة من الكتاب .. وكانت الرقابةُ لا تزال تفرض سلطانَها وفضولَها منذ بدء الحرب العالمية الثانية ..

وكان الرقباءُ صنفين . صنف يحترف الرقابة كموظف دائم فى أجهزتها .. وصنف آخر له وظيفة أخرى ، ويُحال عليه وإليه الكتاب الذى يتقدم به مؤلفه إلى الرقابة مستأذنا فى نشره ، فيقرؤه الرقيبُ فى منازلهم .. ويكتب رأيَهُ فى تقرير يرفعُه إلى مدير الرقابة ..

وقد أُحيل كتابى على العالم الأزهرى الشاعر الشيخ « محمد الأسمر » ..

وبعد أيام غير قليلة حملتنى قدماى إلى مكتب المدير ، فقيل لى : اذهب وقابل الشاعر « محمد الأسمر » فسيخبرُكَ عن النتيجة ان كان قد فرغ من قراءة الكتاب ..

فقطعتُ الطريق وَثْبا إلى مكتبه بالجامع الأزهر حيثُ كان موظفا بالمكتبة الأزهرية ..

وحين لَقيتُه وجالستُه أخذ يتفرس فى وجهى طويلا فاحصا ومُمحصا .. ثم مضى يُناقشنى فى الكتاب مختتما حوارَهُ بهذا التعليق :

— لكن ياشيخ خالد كتابك ثورى جدا ، بينما يكسو ملامحك وحديثك وكلماتك المنتقاة هدوء لا يتوافق مع ثَوْرتِكَ فى الكتاب فابتسمت فى حُبور ، وقلت لفضيلته :

إن كنتَ تريدُ أن تشكَّ فى انتمائى إليه وانتمائه لى - فاعلم أننى لا أشرب إلا بكأسى .. ! !

فألقى ضحكة عالية الرنين وقال : صدقنى ما شككتُ فى هذا مقدار ذرَّة . ولكنى فقط مأخوذ بهدوئك الوديع الآن ، وثوريتك المشبوبة فى الكتاب ! !

إنى كما تعلمُ أزهرىٌ ، وأعرف نبوغَ الأزهرى حين يفتحُ الله عليه .. وأمامُنا « محمد عبده » و « سعد زغلول » ومئات من الأزهريين المبرزين .. وأنا مثلا شاعر ، يصف النقاد شعرى بالنبوغ ، ولعلك سمعتنى أحيانا ..

أجبتُه نعم : سمعتُك كثيرا فى الحفلات التى كان شيخ الأزهر الامام الأكبر الشيخ « الظواهرى » يقيمها احتفالا بعيد الجلوس الملكى .. حيث كنتَ والشيخَ « البديوى » كفَرسَىْ رهان ! !

وسمعتُك فى حفل تكريم الامام الأكبر الشيخ « المراغى » عندما عاد لمشيخة الأزهر رغم أنف الملك فؤاد . .

ولا أزال أذكرُ مطلعَ قصيدتِك ليلتئذ :

أيـنَ الـمـعـزُّ الـفـاطـمـىُّ وجـوهـرُ
يَـرَيَـانِ كيف الـيـومَ صـار الأزهــرُ

كما أذكر البيتَ الذى سخرت فيه من الذين كانوا يتجسسون على ثورة الأزهريين المطالبين بعودة « المراغى » إذ قلت :

فـالـيـوم ، لا ذئـب ولا مُـتـذئـب
واليـومَ ، لا نَـمِـر ولا مـتـنـمـر !!

وأحسست أنه سعيد بما سمع منى . . وختم أسئلته بهذا السؤال :

ولماذا سمّيته « من هنا . . نبدأ » وكأنك تفرض على القارىء منهجَكَ ورأيَك ؟ . .

فأجبته بنفس الهدوء الذي استطابَهُ وأعجبه . . وقلت : كان فضيلتَك بحسبانِكَ أنِّى أفرض على القارىء رأيى ، تريد أن تختبر هدوئى . . ؟ ! ولست أرى فى هذا العنوان أيةَ محاولة لفرض رأيى . . ثم إن لهذه التسمية قصةً :

فقد كان عنوانه الأول«بلاد مَنْ ؟؟»حيث كنت أتساءل من خلاله . . بلادنا هذه لمن ؟؟ وهى وطن من ؟؟

● أهى بلادُ « الكهانة » أم بلادُ الاسلام الخالص والمستنير ؟؟ فصل « الدين . . لا الكهانة » ! !

● أهى بلادُ الأغنياء المترفين ، أم هى أيضا بلاد الجياع المسحوقين ؟؟ فصل « الخبز . . هو السلام ؟ !!

● أهى بلادُ التعصبِ ووطن الطائفية ، أم هى بلادُ التسامح ووطنُ الجميع ؟؟ فصل « قومية الحكم » !!

● أهى بلادُ الرجال من دُون النساء ، أم هى بلاد الفريقين ومَجْلَى نشاطهما ، ومطلَع الضوء لكل منهما ؟؟ فصل « الرئة المعطلة » !!

وكان لى صديقٌ سعودى متوقدَ النبوغ ـ هو الأستاذ عبدالله القصيمى . . ورغبتُ فى أن يستعرض مخطوطة الكتاب ، فأشبعَهُ ثناء وتكريما ، ثم اقترح أن يكون عنوانه « من هنا . . نبدأ » معتبرا هذا المبادىء الأربعة فى فصولها الأربعة ، هى فى ذلك الحين نقطة الانطلاق التى لا بديل لها ، ولا دليل سواها . .

ثم ختمتُ حديثى مع الشيخ « الأسمر » قائلا : أمّا الثوريةُ التى تراها على صفحات الكتاب ، فلست أُشارِكك الرأى . . إن الثورية لم تأت بعد . ولكنها إن شاء الله تعالى قادمة فى

الطريق .. ولست أرى فى « من هنا .. نبدأ » إلا اختبارا للمعازف التى ستعزفُ فيما بعد اللحنَ العظيم ، والنشيدَ الثائرَ العميم .. !!

أحسست أن الشيخ الرقيب قد مُلِيء إعجابا بأفكارى وبشخصيتى . وما بقى عندى شكٌ فى أننى ربحتُ الجولةَ ، وسيأذن بنشر الكتاب عندما يخلو إلى تقريره .. وودعتُهُ مصافحا وشاكرا بعد أن قال لى : بعد ثلاثة أيام راجع الرقابة فسيكون تقريرى قد وصل .. وفى الميقات المعلوم ذهبت إلى الرقابة فأنبئت أن الشيخ الرقيب لم يوافق على نَشر الكتاب .. !! ولقد عذرتُه ولم أحقد عليه قط - فمادام يرى الكتاب ثوريا ، وإن كان لم يوضح لى عناصر أو أمائر ثوريته - فكيف يتحمل مسئولية نشره ؟؟

واستأذنتُ فى مقابلة مدير الرقابة لأناقشه فى الأمر .. وكان « الأستاذ توفيق صليب » وقد كان وطنيا شريفا ، كما كان فى شبابه عضوا فى الجماعات الفدائية التى كان يشرف عليها - ماهر ، والنقراشى - وكانت مهمتُها اقتناصَ الانجليز ضباطا وجنودا إبّان ثورة - ١٩١٩ - .. ولقد صرنا بعد لقائنا صديقين عزيزين حتى لقى رَبَّه ..

حاورته طويلا فى أسباب منع نشر الكتاب وحاورنى ، ولم تنجح محاولتى إذ قال لى : أيهما أقدر على الفصل فى هذا النزاع - أنا .. أم شيخ أزهرى مثلك ليس ذكاؤه ولا أمانته موضع ارتياب ؟؟

قلت له : إذن سأعرضُ قضيتى على رئيس الوزراء - وكان « ابراهيم عبدالهادى باشا » .. فتبسَّم ضاحكا وقال : هذا حقُّك إذا شئت .. ولكن رئيس الوزراء لن يصنعَ أكثرَ مِنْ إرسال شَكاتِك إلينا .. وتبدأ الدورة من جديد !!

ومع هذا فإننى أعدُكَ وَعْدَ رجل اننى حين أشَمُّ رائحة موافقة من رئيس الحكومة سأكون فى صفك تماما ، وأتولى بنفسى كتابة التقرير وإصدار أمرى بالافراج عن الكتاب .

وصافحته شاكرا ، وانصرفت .. وطبعا لم أرفعْ الأمرَ إلى رئيس الحكومة واستودعته الله الذى لا تضيعُ ودائعُهُ .. وَمضيتُ أرددُ قول الامام الرازى :

أأشقَى بـه غـرْسـا ، وأجْنيـهِ ذِلّـةً

إذن فـاتباعُ الجهـلِ قد كـان أحزمـا

* * *

ولما استقال « ابراهيم باشا عبدالهادى » أو أُقِيل ، أو على حدّ تعبير المرحوم « كامل الشناوى » استُقِيل .. عهد الملكُ بالوزارة إلى « حسين سرى باشا » الذى اختار زوجَ كريمته الدكتور « محمد هاشم » وزيرا للداخلية .. واختار هو بدوره صديقه الدكتور « يحيى الخشاب » مديرا للرقابة .. وهكذا انفتح بابُ أملٍ جديد .. لم أكن قد سعدْتُ بلقاء الدكتور

الخشاب من قبل . ومع ذلك ذهبت إلى لقائه من غير وسيط ولا شفيع ، فلقيته كريم النفس جليلَ الخصال . . قصصتُ عليه نبأ الكتاب ، فاتصل بمكتبه طالبا من سكرتيره أن يأتيَهُ بكتاب اسمه « من هنا . . نبدأ » . . !!

وبعد دقائق جيء بالكتاب ، فوضعَه أمامَه ، ولا أذكر أنه قلَّبَ صفحاتِه . . ثم ابتسم ابتسامته كضوء الصباح وقال لى بأدب عظيم : أأستطيع أن أستأذنك فى إمهالى خمسة أيام لا تزيد ، وأعدك أننى سأقرؤه بنفسى ، وأكوِّن رأيى ؟؟

قلت : هذا حسبى مهما يكن رأيكم . .

قال : إذن يكون لنا لقاء بعد المهلة التى تفضلت بمنحي إياها . . !!!

ترى أين نجد هذا الخلُق الكريم !! « المهلة التى تفضلتَ بمنحي إياها » . . !!

غادرته وأنا منبهر بما رأيتُ وسمعت . . ومضيتُ أقولُ لنفسى : حقا . . رُبَّ ضارة نافعة . . فلولا مصادرةُ الكتاب ما كانت هذه الفرصةُ التى قدمتنى إلى رجل عظيم . . !!

فى اليوم الموعود مضيتُ أغُذُّ السيْر إلى الرقابة . . وفتح الرجل الكبير أحد أدْراج مكتبه وأخرج الكتاب موضوعا فى مظروف أنيق ، وبسط به يمينه نحوى وهو يقول : مبروك !! وتفضل فأعطانى التقريرَ لتلاوته قبل أن يضَعَهُ بالملف الخاص به فى أضابير الرقابة . . وودعته شاكرا ، وسأظل ما حييت أذكره فأشكره ، وقررت وأنا أحمل المخطوط عائدا إلى البيت أن يكون إهداءُ النسخة الأولى إليه قبل أى إنسان آخر . . وكنتُ أتعجلُ الطبعَ لأسعدَ بإنجاز قرارى هذا . .

ولقد كان ذلك كذلك ، فحملتُ أول نسختين انفرجتْ عنهما أسارير المطبعة إليه ، وإلى السيدة قرينته الأستاذة الدكتورة « سهير القلماوى » . . !!

* * *

انزاحت عقبةُ الرقابة من طريقى . . بعد أن نادت إليها العقَبةَ الثانية !!

وهكذا العقبات كالخطايا - ينادى بعضُها بعضا . . !!!

فمن أين لى نفقاتُ النشر من ورق وطباعة ؟؟

كان مرتبى أيامئذ الذى تمنحه وزارة المعارف للمدرس خمسة عشر جنيها ، أضافت حكومة الوفد إليه إعانة الغلاء فزاد ثلاثة جنيهات أخرى . . وكان حسبها أن تُعيشنا من اليد للفم ، إذا هى فعلَتْ مشكورة . . !!

ومع ذلك فقد تبرعتُ بمرتب شهر كامل وضعتُه فى خدمة المشروع ، وعشت طوالَ الشهر على النسيئة « الشُّكُك » من بقال صديق . . وأقرضنى صديقٌ آخرَ ثلاثين جنيها ، ثم أنشأت للحصول على بقية المبلغ المطلوب مع بعض الأصدقاء جمعية كتلك التى تتوسَّلُ بها ربَّاتُ البيوت !!

وكان لى صديق يَمنى هو الأستاذ « محمد سيف » أخبرنى أنه شَغَلَ وظيفة مصحح بعض الوقت فى « دار النيل للطباعة » وأن مديرها وأحد المؤسسين لها رجلٌ رفيعُ الخلُق ، ويستطيع أن يساعدَنا برأيه وبمطبعته :

هتفتُ به : وماذا تنتظر ؟ خذنى إليه .. كانت دارُ الطباعة تقع فى شارع حسن الأكبر وكان مديرُها ـ المرحوم الأستاذ « اسماعيل شوقى » .. ولقد يعجزنى البحث عن كلمات الثناء الذى يستحقه ..

قال لى : من حيث نفقات الطباعة لا تجعلْها ضمن همومك ولا اهتمامك .. فإنى مستعد أن أطبعَ الكتابَ ، ثم نظرة إلى مَيْسَرة .. !!

وجدت نفسى أمام إنسان جديد بين جميع المشتغلين بالطباعة .. ثم هو أستاذ فى كل فن .. معه من الثقافة أكثر ممّا مع كثيرين من أساتذة الجامعات ، والمفكرين والأدباء ..

سألنى : ما عدد النسخ التى تنوى طبعها ؟؟

أجبته : ألف وخمسمائة نسخة .

قال لى : أحضر كذا رزمة من ورق طباعة وأحضر الكتاب ، والمطبعة كلها فى خدمتك .. !!

* * *

كنتُ أسمعُ أبى يقول كثيرا : « علامة الاذن التيسير » يعنى إذا أذن الله جلّ جلاله بإنجاز عمل ، هيأ وسائِلَهُ ويسَّر أسبابَهُ .. أفلا يجدُرُ بى أن أردِّدَ هذه الحكمة المبشِّرة ؟؟ فالأستاذ الدكتور يحيى الخشاب يُفرجُ عن الكتاب الحبيس .. والأستاذ إسماعيل شوقى يهيىءُ له وسائلَ الانطلاقِ .. وكلا الرجلين يغمرنى بفضله من غير لقاء سابق أو معرفة مُسبقة !!!

ذهبتُ والأستاذ محمد سيف اليمنِى إلى تاجر ورق كانَ له صديقا .. وحملنا الورق إلى المطبعة .. وفى اليوم التالى حملتُ مخطوطةَ الكتاب وأعطيتُها الصَّديقَ العظيم الراحل « إسماعيل شوقى » الذى ما كاد يحملُه بيديه حتى راح يتصفحُه ، وابتسامة شفتيه تتسعُ مع القراءة ، وعيناه تلتمعان تحتَ ضوء الاعجاب ، ثم قال : يبدو أن دارنا ستكون محظوظة جدا بنشر هذا الكتاب .. ثم تنهَّد قائلا : بَسْ ربنا يستر ، ويُعمى عنه الأبصار .. وياليته حدد أصحاب الأبَصار التى يرجو أن تَعمىَ عن الكتاب !!

ذلك أن البوليس رآهُ بعينى صقر ، وجمعُه بأمر النيابة من الباعة .. بينما عميت عنه أبصارُ القراء ، فلم يبتاعوا منه قبل مصادرته سوى نُسَخ معدودة ومحدودة ، كما سأبين فيما بعد ..

تم طبع الكتاب بخير .. وجاءت العقبةُ الثالثةُ تُدلى دَلْوَها !! وكانت مشكلة التوزيع ـ فكيف نوزع الكتاب ؟؟

أنحمل مجموعاته إلى المكتبات الكبيرة ونتركه لديها كأمانات ، ثم نحاسبها بعد حين ؟؟
لكن لهذه الطريقة محاذيرها الكثيرة ..

طَيِّب .. أنعطيه لاحدى شركات توزيع الصحف ، فتلقى به إلى الأسواق ؟؟
ومن نختار من هذه الشركات ؟؟

لعلِّي أذكرُ أنني اخترت يومها توزيع الأهرام الذى استقلل الكمية المطبوعة لأنه كلما كثر المطروحُ فى السوق أسرعت حركة الكتاب ، فكثر المبيع منه ، وكثرت بالتالى نسبةُ شركة التوزيع وعائدها .. !!

وجاءت المشكلةُ الرابعة - مشكلة الاعلان .. فإذا طرحتَ كتابا أو سلعة مّا فى السوق دون الاعلان الواسع عنها ، فلا تنتظر سوى الفُتات ..

حسن ، ولْنعلِن عن الكتاب .. وكان دون ذلك خَرْطُ القتاد - كما يقول - فالاعلان الذى يمكن أن يكون إعلاما وتنبيهاً لطلاب المعرفة وقراء المؤلَّفات يقتضى من الثمن مبلغا كبيرا ..
ليس معى منه جنيه واحد لا مصرى ولا استرلينى ولا حتى سودانى .. ؟ !!

ومع هذا ؛ فلابد مما ليس منه بُدّ .. هنالك تقدم الأخ الكبير « إسماعيل شوقى » باستعدادِه لدفع قيمة إعلان متواضع ، هدية منه للكتاب .. !! وأخجلنى كرمُه ، فكتبتُ إعلانا لا يوصف بصغر الحجم ، لأنه لم يكن له حجم على الاطلاق !!

وذهبت به إلى جريدة المصرى - ردَّ الله غُربتها - ونُشر الاعلانُ ، وكأنه لم يُنشر .. وفوضت أمرى إلى الله ..

* * *

تذكرت أننى قرأت من قبل عن « برناردشو » أنه اكتوى بنفس الموقف ، فكان يؤلفُ الكتب ويدبِّجُ المقالات ، وينتظر رسالة واحدة تأتيه من قارىء واحد دون جدوى ..

ففكَّر وقدَّر .. ثم راح يمطر الصحف بمقالاته حاملة توقيعَهُ الحقيقى .. ثم يُتبِعُها بمقالات تدحَض مقالاتِه الأولى حاملة توقيعا زائفا ليس لاسمه الحقيقى فيه مكان .

وأخذ راحته فى هذه الطريقة ، يسب ويشتم ويسخر من هذا الذى اسمه « برنارد شو » والذى يتحدَّى تقاليد الأمة ، ونُظُمها ، وميراثها ، وحضارتها .. وآتت الخطةُ أُكُلَها . وبدأ « شو » يستحوذُ على قراء كثيرين . ويتمركزُ فى دائرة اهتمامات القارئين والمواطنين .. !!!

قلت لنفسى : هذا عمل صالح ، فلأجَرِّبه لأرى ماذا سيكونُ مصيرُ الكتاب الذى لا يتحرك بين أيدى الباعة ، ولا تقع عليه العين فى زحام الحياة .. !!

كان لى صديق يصر على أنه تلميذى وكان فى السنة النهائية بكلية دار العلوم ، وكان من بلد أنسبائى - ذلكم هو المرحوم الأستاذ « محمد حسن البرِّى » وكان يتطوع بالمرور على باعة

الصحف ، ويأتينى بأخبار التوزيع حتى أتعبَ نفسَهُ وأتعبنى معه ، فطلبتُ منه أن يدخر هذا الوقت الضائع لاستذكار دروسه ويكُف عن إبلاغى أى خبر عن توزيع الكتاب .. وقلت له : هناك مثل إنجليزى تقول ترجمته : « لا أخبار .. هذه إذن أحسن الأخبار » !!!

ثم قلت له : أمامنا ما هو أهم .. اذهب الآن إلى مسكنك ، واكتبْ مقالا فى نقد الكتاب لا تترك كلمة وقحة إلا أقحمتَها عليه ..

سألنى : لماذا ؟؟ أجبته ستعرف غدا عندما تأتى بالمقال !!

وفى غد جاءنى بالمقال وراح يقرؤه علىّ ، فَهممتُ أن أعترض سبيله وأقول له ما قاله أحد الممثلين لزميله ، وكان المفروض أن يضربه فى أحد المشاهد ضربا يبدو للمتفرجين عنيفا وهو فى حقيقته هين ورقيق . بيد أن زميله لأمرمّا انتهز الفُرصة وأشبعه قساوة وأذى .. فما كان من المضروب إلا أن صاح به تحت وقْع الضربات القاسية : « لا .. احنا ما اتفقناش على كدة .. والمخرج ماقلش كده » !!! وضج المشاهدون بالضحك الشديد !! لقد طلبت من « البرىّ » أن يقسوَ فى نقده المصطنع ، بيد أنه استدعى كلَّ ، يحفظُ من وقاحات وزركَش بها مقالتَه .. ومع هذا فقد ضحكتُ كثيرا وان كنتُ قلت له : « احنا ما اتفقناش على كدة » !!!

ثم سألنى : ماذا نجعل عنوانه ؟؟ وسرح ببصره يستلهم الجدران والسقف عنوانا لمقاله الوقح ..

فقلت له : عمَّ تبحث ياغلام ؟؟

اجعل عنوانه : « كتابٌ أثيمٌ ، لعالِمٍ ضالّ » ووَجِم ، كأنما عزّ عليه أن يكون هناك من يتفوق عليه فى السّباب ؟ !

حمل المقال وذهب به إلى جريدة « منبر الشرق » وكان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ « علِى الغاياتى » وعاد يقص علىّ ما حدث .

لقد استقبله الأستاذ استقبالا حسنا وراح يتلو المقالة فاكفهرَّ وجْههُ وصاح غاضبا متى ظهر هذا الكتاب ؟؟

— هذه الأيام ولا يزال معروضا فى الأسواق ..

— وكيف سمحت الرقابة بنشره ..

— ....

— وأين الأزهر ؟؟

ولما سكت عنه الغضبُ راح يشكرُ « محمد البرى » على غيرته الدينية ويقظته وجهاده ، ويدعو أن يكثر فى المسلمين أمثالُه ..

وترقبنا صدور الجريدة فى ميقاتها المعلوم فإذا المقال منشور فى مكان بارز « وداخل إطار

لافت للأنظار » .

وفى العدد التالى والثالث والرابع شرعت الأقلام الملتاثة تهاجم الكتاب والمؤلف .. وأغلبهم لا يستمدُّ حكمه على الكتاب من الكتاب ذاته . بل من المقال الذى دبَّجه يَراعُ « محمد البرى » !!!!

* * *

تحركت لجنة الفتوى بالأزهر مطالبة النيابة بمصادرة الكتاب والتحقيق مع مؤلفه .. وذات يوم دُعِيتُ للتحقيق .. نسيت أن أقول لكم إن البوليس هاجم المكتبات وباعة الصحف ليجمع نسخ الكتاب .

وإنى لذاهب لزيارة الأستاذ« إسماعيل شوقى » فى المطبعة . فما إن رآنى حتى صاح لقد كنت على وشك أن أرسل فى طلبك الان .. أحضِرْ عربة فورا ، واحمل فيها بقية النسخ الموجودة من الكتاب فى المطبعة ، فإن لى صديقا ضابطا بالمحافظة « تَلْفَن » لى من دقائق يخبرنى أن الكتاب قد صودر ، وثَمَّةَ ضابط وثلاثة مخبرين فى الطريق إليك لتفتيش المطبعة .. !!

كانت اللهجة التى ألقى بها الأستاذ « شوقى » بِشارته « !! » توحى بالفزع والجزع .. ونقلت الكتاب إلى مكان أمين .. ثم تلقيت استدعاء النيابة إياى للتحقيق ..



من النيابة .. إلى القضاء .. إلى القيامة !!

فى مكتب وكيل النائب العام جلستُ مُدَّثِراً
بما أفاء الله علىّ من طمأنينة وسكينة ..
وأشرَقَتْ على خواطرى الآيةُ الكريمة :
« لا تَخَفْ .. إنك أنتَ الأعلى » !!

وبدأ المحقق بتوجيه الأسئلة التقليدية - عن الاسم .. والعنوان .. والوظيفة .. ثم اقتحم الموضوعَ سائلا :

— هل أنت مؤلف كتاب « من هنا نبدأ » .. ؟؟

— نعم - أنا هو ..

— وماذا تريد به ؟؟

— أريد الاصلاح ما استطعت .

— لجنة الفتوى بالأزهر تتهمك بالخروج على الدين .. ونحن نتهمك بالشيوعية !!!

— الكتاب أمامكم .. فَلْتُرِنى لجنة الفتوى سطرا واحدا فيه خروج على الدين .. ولْتُرِنى النيابة سطرا واحدا يَشِى بالشيوعية ، فضلا عن أن يدعو إليها .. !!

— أنت سفَّهت نظام الزكاة فى الاسلام ؟ !

— أنا .. ؟؟

ورفعت بصرى نحو السماءوقلت مُناجيا ربىَّ الأعلى : « سبحانك ، هذا بُهتان عظيم » !!! إنى رفعتُ الزكاة مكانا عليًا .

أوّلا : حين اعتبرتها ضريبة توازن بها الدولة المسلمة بيْن طموح الأغنياء ، وحاجات الفقراء ..

وثانيا : حين فرقتُ بينها وبيْن الصدَقة مؤكدا أن المواطن الذى يتلقَّى من مجتمعه صدقات قد يذِلُّ بها ويخزَى .. أما الذى يتلقى نصيبه من ضرائب مفروضة ومشروعة ؛ فإنه يتنفس كرامة وعزّة ..

وضربتُ المثل الأعلى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يعَفُّ وآلُ بيته عن الصدقات .. وحين رأى حفيده « الحسين » عليه السلام يأخذ وهو طفل تمرة من تُمور الصدقة ويضعها فى فمه ، يُدخِل سبّابته فى فمه نازعا التمرة منه وهو يقول له : « كَخٍ كخ .. إنها صدقَةٌ لا تَحلُّ لمحمد ، ولا لآل محمد .. !!!

واكتسى وجه المحقق بمسحة رضا وانبهار ، وسألنى : كل هذا فى الكتاب ؟؟

— نعم ، وأكثر منه ، مرصعة به صفحاته !!

— مثل ماذا ؟؟

— خُذْ إليك جوهرَ القضية كلها . فالكثرةُ الكاثرة من مثقفى العالم ، وليس مصر وحدها يرون - ولا سيما الماركسيين منهم - أن الدين ظاهرةٌ اجتماعية .. والظواهر تأتى وتروح .. تظهر وتختفى .. توجد ثم تزول .. أى أن الدين مرشحٌ للزوال !! وجئت أنا فقلت فى أول سطر من فصل « الدين ، لا الكهانة » - « الدين ضرورة اجتماعية » .. والضرورات باقية ما بقيت الحياة .. هذه تفرقة بين الضرورة والظاهرة لو وَعَتها لجنةُ الفتوى بالأزهر ما وسِعَها إلا تقريظَ الكتاب والاشادة به ودعوة الناس إلى قراءته ..

وتبسَّم وكيل النيابة ضاحكا ، وأحسست أنه سعيد بما يسمع .

وعاد يسأل :

— يتهمك الأزهر أيضا بإهانة العلماء حين أسميتهم « كَهَنة » ..

— أرجوك لا تقلْ يتهمكَ الأزهر .. فالذى يتهمنى نفر من موظفيه ، هم أعضاء لجنة الفتوى .. ثم لو صحَّ الزعم بأننى أهنت العلماء .. لم يحدث هذا .. وإن شاء الله لن يحدث أبدا .. إنما حدَث أننى تحدثتُ عن الكهانةالتى تُزاحم الدين الخالص والحق .. وتقوم بدور الأعشاب الضارة والنبات الطُّفَيْلى الذى يمتص الحياة من النبات الطيب الذى يهبُه الحياة .. !!

وتوالَت أسئلته حول اتهام لجنة الفتوى بالأزهر . حتى خُيل إلىّ أنه يستمتع بأجوبتى فهو يريد منها المزيد !!

ثم تجهم وجهه فجأة وقال :

— النيابة تتهمك بالدعوة للشيوعية والحض على كراهية النظام !!

وابتسمتُ ، لا من الاتهام .. ولكن لتجهمُّه المفاجىء الذى ابتعثه لاريب حرصُه على أن يُعرف عنه أنه صارم ضد أى محاولة لتحدى النظام ؟!!

وأجبته قائلا : سيادتك تعلم أن مهمة النيابة تصيِّد الاتهامات . وأنها بقدْر نجاحها فى تدبيج الاتهام يكون نجاحُها فى أداء دورها وإرباء مَثُوبتها .. !!

وغضب الرجل غضبا تبدَّى فى قوله :

لأ .. لأ .. ياسى الشيخ !! اعرف حدودك وأجب عن أسئلتى بلا فلسفة .. أقول لك : إن النيابة تتهمك بالدعوة إلى الشيوعية ..

آه ، والّا لأ ؟؟

— لأ .. وكما قلت لحضرتك من قبل أقول لك الان : هات سطرا واحدا من الكتاب يؤيد هذا الاتهام .. أما أنا فأجيئك بصفحات كِثار تَدحَض هذا الاتهام !!

لقد بدأتُ كتابى معتقدا وهاتفا بأن الدين « ضرورة » اجتماعية .. بينما الشيوعية تؤكد أنه « ظاهرة » اجتماعية .. وقد ذكرتُ لحضرتك من قريب الفارق الشاسع والبعيد بين من يرى الدين ضرورة ، ومن يراه مُجرد ظاهرة .. هذا - أولا - ..

وأمّا - ثانيا - فقد طالبتُ أن يجىء التغيير المنشود من أعلى ، لا من أدنى .. أى من الحكومة ، لا من الجماهير .. ومن ثَمّ لا أكون شيوعيا أبدا ؛ لأن « ماركس » نفسه يقول : إذا حدث أن مجتمعا ما أراد أن يأخذ بالنظام الشيوعى سِلْما ، فإننا لا نثق بهذا التحول السلمى .. بل لابد من انجاز التغيير بالثورة المُفضية إلى حكم « البروليتاريا » وسيادة الطبقة العاملة ..

وأمّا - ثالثا - فلأن الشيوعية تعتمد تماما على دكتاتورية « البروليتاريا » وترفض الديمقراطية رفضا مطلقا .. ويرى « ماركس » أنه لا حرية فى كل الأرض إلا بعد تحوُّل العالَم كله إلى الشيوعية بينما أنا مع سيدنا أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » فى صيحته : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتُهم أحرارا » ومع « جيفرسون » فى صرخته : « أعْطنى الحرية .. أو الموت » .. !!

والحقُّ أن التجهُّم والغضب غادرًا مُحيَّاه تاركين مكانهما لشعور عميق بالراحة أضفى على وجهه رضا وعلى نفسى حُبورا ..

استمر التحقيق ساعتين وربما ثلاثا .. ثم دعانى لاستئنافه غدا ، حيث استغرق قرابة الساعتين .. ثم صافحته شاكرا له حسن ضيافته !!!

بعد أيام تحددت جلسة المحاكمة .. وكانت المحاكمةُ سرية .. لماذا ؟؟ قيل يومها لأن الأمن علم أن بعض شباب الاخوان المسلمين سيحضرون الجلسة ويثيرون فيها شغبا .. وانعقدت المحاكمة فى مكتب رئيس محكمة مصر الابتدائية ، وكان يومها المستشار « حافظ سابق » ..

ووقف المحامى الذى تطوّع بالدفاع عنى الأستاذ الكبير « عبدالمجيد نافع » يَدْحَضُ الاتهامَ كلَّه ، ويطالب بوسام لمؤلف الكتاب ..!! والمرحوم الأستاذ « عبدالمجيد نافع » كان يتمتع بشخصية مسْتَعْلية وكاسحة .. خطيبٌ من أرفع طراز .. وإنه ليرى أنه كان أحقُّ بزعامة الأمة وقيادة الثورة من « سعد زغلول » !!

وعلى الرغم من أن مكتب رئيس المحكمة الذى شهد المحاكمة كان محدود المسافات طولا وعرضا ، بحيث يُسمِع الصوتُ الخفيضُ كل من فيه ، فإن الأستاذ « نافع » أطلق لصوته العنان حتى لكأنه يخطب فى ألوف كثيرة .. وحين قال : إنى أرى شبح الحكومة الدينية التى حذرنا منها هذا الكتاب النذير يلمع فى الأفق ، ضرب المكتب الذى أمامه بقبضة يده ضربة فزع منها رئيس المحكمة ذاته .. لبث الدفاع أكثر من ساعتين .. وحين انتهى رفعت سبّابتى مستأذنا الرئيس فى ضَميمة عابرة وقصيرة ، فأجابنى :

- «حا تقول إيه ؟ محاميك قال كل شيء .. !!
قلت : نعم ، وإنى أشكره .. بيْد أن لى تعليقا سريعا .. إن النيابة تتهمنى بالشيوعية .. صحيح أننى طالبت بالتغيير الشامل .. لكننى اشترطت أن يجىء التغيير من أعلى - أى من الدولة .. والدولة لا تثور على نفسها ، ولا تقود انقلابا ضد نظامها .. كذلك استنكفت أن يجىء التغيير من أدنى .. أى من الجماهير - الأمر الذى تحتم الشيوعية حدوثه ، لأنها ترى أن التغيير الذى يجىء سِلما ، وبلا ثورة دموية لا يلبث أن يزول .. !! وشكرا يا سيادة الرئيس ..

وهنا فاجأنى بسؤال لم أكن أتوقعه ..

قال : لى يا أستاذ .. وأنت تتحدث عن حد الزنا قلت : « أمّا حُد الزنا ، فإن أمر إقامته ، يحمل موانع تنفيذه » .. هذه العبارة لك أم أنك قرأتها لأحد ؟؟

والحق أننى أحسستُ بِزَهْو حاولتُ كتمانه .. فها هو ذا رئيس المحكمة تستوقفه معجبابها إحدى عبارات الكتاب ..

قلت لسيادته ، وأنا أبتسم وأشير بسبابتى نحو السماء : إنهامن الله ..!!!

ودلالة العبارة أن الزنا حسب حكم الشريعة الإسلامية الغراء ، لا يثبت حُده إلا بإحدى وسيلتين - الإقرار .. أو شهادة شهود أربعة يرون الخطيئة رأى العين ، كما يرى أحدنا « المِروَد » فى « المكحلة » .. !!

ونادرا مّا نجد فى هذه الأزمان من يعترف ليموت رَجما .. أويُعذَّب جَلْدا ..

كذلك لن نجد زانيا وزانية يُمكّنان أربعة من أن يروْا المِروَد فى المكحلَة .. !!

وهكذا جاء التعبير الجامع « أمر إقامته ، يحمل موانع تنفيذه » وأتبعتُ إجابتى على سؤال رئيس المحكمة قائلا : لكن هذا لا يعنى ولا ينبغى أن يعنى التيسير على الزناة فى الإسلام .. إنما يعنى حرصه على ستر الأعراض ؛ لأن فضحها يترتب عليه من الكوارث مالا يُطاق . وما يجعل إثمه أكبر من نفعه درجات ودَرجَات ..

وأعلن السيد المستشار رفع الجلسة على أن تعود بعد حين للانعقاد والنطق بالحكم ..

وبقيت والأستاذ « نافع » فى مكتب رئيس المحكمة حتى عاد بعد وقت غير بعيد ليعلن كلماته المبشِّرة :

« قررت المحكمة الإفراج عن الكتاب .. وبراءة مؤلفه مما نسب إليه » ..

وتقدمت بكلمة شكر للقاضى فصاح بى قبل أن أتمّها صيحة أخجلتنى قائلا : اسكت يا أستاذ ، إنت حتشكر المحكمة وإلا إيه ؟! ويومها عرفت أن شكر المحكمة محظور ، لأن الذى يملك أن يشكر ، يملك كذلك أن يذم ويرفض .. !! وغادرنا المحكمة - الأستاذ نافع إلى عمله .. وأنا إلى منزلى ..

وبعد يومين أو ثلاثة نشرت جريدة المصرى -رد الله غربتها- ملخصا مطوّلاً لحيثيات الحكم .. وكان الرجل العظيم المستشار « حافظ سابق » قد أعدَّ حيثيات تناهت فى الذكاء والعلم والابداع .. !! وهى حيثيات مُفيضة نشرتُها على صدر الكتاب فى كل طبعاته التالية تحت عنوان « إحدى وثائق الرقىّ والتقدم » ..

ولقد دحَض السيد المستشار اتهام لجنة الفتوى بالأزهر ، مؤكدا - « أن هذا الكتاب تمجيد لدين الله » !!

ورفض اتهام النيابة لى بالشيوعية بقوله : « هذا الكتاب دفاع عن حقوق الشعب » !!

○ ○ ○

لم تكد جريدة المصرى الغرّاء والشهيدة تنشر ملخص الحيثيات ، حتى هاجت الدنيا وماجت ، واشتعلت القلوب حقدا والعقول شيبا .. !!!

وجرى سباق لَاهِث بين الملتمسين للبرُآء العيب .. وأقسم مازايلتنى السكينة والطمأنينة ساعة من نهار .. كان فضل الله علىَّ عظيما .. وكنت أتذكر الرؤيا التى رأيتها والتى بشرنى خلالها أحد الأولياء وهو يناولنى كتابا ويقول : « خذ يا أخى كتاب توالى العَطاءات » .. !! كما أستعيدُ ما كتبتُ ، وأستدعى مشاعرى التى صاحبتنى وأنا أكتب فلا أجد إلا تلقائية صادقة واعية مخلصة تبتّلتُ بها لخدمة الإسلام والشعب ، وتحريرهما من الشعوذة والتحريف والطغيان ..

كتب فضيلة الشيخ محمود شلتوت -ولم يكن شيخا للأزهر بعد- مقالا استوعب صفحة من جريدة المصرى ، عنوانه : « هذا الكتاب يلقى ثلث القرآن فى البحر » ..

أى ثلُث ، وأى بحر ؟؟ هذا مالم يوضحه أومالم أفهمه !!!

وكتب الأستاذ « أحمد الشايب » الأستاذ بكلية دار العلوم يقول : إنه علم أننى قبضت من السفارة السوفيتيَة ، عشرة آلاف جنيه ..

وأخبرنى من سمع فضيلة الشيخ « حسنين محمد مخلوف » مفتى الديار المصرية الأسبق يقول : إنه علم أن هذا الكتاب أُلِّف فى السفارة الأمريكية ، التى أجهدت نفسها فى البحث عن عالم أزهرى يضع اسمه عليه كمؤلف له ، فأعياها البحث حتى عثرت علىّ .. فقبلتُ ما رفضه الآخرون ، وقبضت عشرة آلاف دولار أمريكى .. !!!

وكتب الأستاذ صالح عشماوى ، والشيخ عبدالرحيم فودة ، وكثيرون سقطوا من الذاكرة .. ولا أذكر أننى حقدت على أحد منهم الا على نفر أخذوا مكانهم فى المهاجين حسداً من عند أنفسهم .. وحتى مع هؤلاء كنت أضحك حين أذكر قول الشاعر :

« حتى على الموت ، لا أخلو من الحسَد » !!!

وفى الجانب الآخر كان هناك كثيرون صفقوا للكتاب وعزّزوه ونَصروه وهتفوا بأفكاره وراحوا يُبشرون بها ويدعون إليها . .

وكان من أعلاهم صوتا المرحوم الأستاذ « محمد خطاب » عضو مجلس الشيوخ . . والأستاذ سلامة موسى وأذكر أيامئذ أن جاءنى من يخبرنى أن الأستاذ « كامل الشناوى » يريد أن يراك وهو يدعوك لزيارته فى جريدة الأهرام . . ومضيت للقائه هناك ذات مساء والتقيت عنده بـ « حفنى محمود باشا » وبعض الصحفيين والأدباء . . واستأثر الكتاب بحديثنا . . وسألنى الأستاذ « حفنى محمود » : ما الذى أسْخط رافضى الكتاب ؟؟ أجبته : دفاعى عن عقل الشعب ، ولُقمته ، ومصيره ، وضميره . .

قال : أليسوا من الشعب ؟؟

قلت : بعضهم من الشعب ـ الآن ـ ولكنهم يطمعون أن يكونوا ـ غدا ـ فوق الشعب . . فيغصبهم أن يقطع عليهم الكتاب الطريق . . !!

قال : وأنت ـ بذمتك ـ تود أن تكون من الشعب أو تصير فوقه ؟؟

قلت وقد ضحك جمعنا : إننى أُصاب بالدُّوار كلما حلَّقتُ عاليا . . من أجل ذلك أوُثر أن أبقى على الأرض ، وأحلِق فى السماء . . على أن أكون فى السماء وأحلق فى الأرض ـ على حد تعبير الأستاذ « كامل الشناوى » . . !! وإنى أعشق حكمة أحفظها لـ « تُوم بين » يقول فيها :

« حيثُ لا حرية ، فَثَمَّ وطنى » !!!

أى أنه يؤثر أن يناضل مع المحرومين من الحرية على أن ينعَم مع الرافِلين فى نعيمها . . !!

كان « حفنى باشا » معروفا بالمرح وتدبير المقالب . . وهنالك قال لى :

عظيم . . عظيم . . يجب أن تستمر ، وأتنبأ لك بمنصب وزير . .

قلت له وأنا أضحك : علىَّ أن نستمر معا ونثابر معا ، يا سعادة الباشا :

قال : لا . . أنا على مذهب الشاعر الذى يقول :

وأَلَذُّ من كرسى الوزارة للفتى

عيش يريه مصارع الوزراء !!

وتعالَت ضحكاتنا وأنا أقول له : عظيم . . عظيم . . إذن سعادتك ترشحنى للوزارة ، لتنعم برؤية مصرعى . . لا ياعم . . ويُغنينى الله عن نُبوءَتِك !!!

وختمنا هذا اللقاء بعشاء من الكباب الفاخر الذى كان الأستاذ كامل الشناوى يقدمه كل ليلة تقريبا لزوّاره فى مكتبه بجريدة الأهرام . .

هذه طرفة جاءت فى أوانها لتخرجنا بعض الوقت من جو التحقيقات والاتهامات . .

وتقدم صديقى العزيز الشيخ محمد الغزالى ، فأَدلَى دَلْوه بكتاب ألَّفه ، جاعلا عنوانه : « من

هنا نعلم » . .

وعلى الرغم من صداقتنا ، فإنه حمَّل قلمه وزر بعض العبارات النابية . . كل هاتيكم المعارضة للكتاب ، وحملات التشكيك فيه والرفض له والتحريض على مؤلفه ، راحت تفىء على الكتاب من الذيوع والانتشار ما يعزُّ نظيره . . لا فى مصر وحدها ـ بل فى البلاد العربية وغير العربية ، فكانت الإذاعات الأجنبية التى تذيع باللغة العربية . كما كانت كثرة من الصحف العربية والأجنبية ، تقدم الكتاب منها من ينقدُه . ومنها من يُمجِّده . . وكان يمدنى بهذه الصحف ، وينبهنى لتلك الاذاعات الصحفى والأديب الأستاذ « وديع فلسطين » وكان يرأس تحرير مجلة « القافلة » التى تصدرها شركة « أرامكو » . . ولكن دَعُونى أقف إجلالا وتحية لواحد ممن نقدوا الكتاب وعارضوه . . ذلكم هو الأستاذ العالم الجليل « محمد فريد وجدى » . . كان عَهدئذ يرأس تحرير مجلة « الأزهر » . . وظل يكتب افتتاحيتها حوالى عشرة أشهر تحت عنوان : « ليس من هنا . . نبدأ » . .

إن أدبه وتواضعه ورفعة نفسه وجمال وجلال خُلُقه ، لَيتَعاظم كل إطراء . . !!! كان إذا تكرر اسم المؤلف فى الصفحة الواحدة عشر مرات ، تسبقه عبارة « فضيلة الأستاذ » . . وكان يمشى على مسرح النقد هَوْنا ، لا مُختالا فخورا . . نقده موضوعى . . قلمه مُهذَّب . . أسلوبه عَفٌّ وودود وكريم . . !! وكان لابد بعد أن طالعت ثلاث مقالات مما كتب أن أسعى إليه فى مكتبه بإدارة الأزهر . . فإذا مَلاك يملأ النفس روعة وأُلفة وحُبوراً . .

قلت له : أقسم بالله سبحانه أنى أعتبر كل كلمة فى نقدك وساما أرجو أن أكون له أهلا . . !!

ومضينا فى حديث غير قصير . . ومن عَجب أنه لم يُعرِّج فى حديثه على الكتاب بكلمة واحدة معتبرا زِيارتى له زيارة تعارُف ومودة ، لا زيارة للمناقشة والحوار . .

ألستُ محظوظاً وسعيداً ، لأنى عشت فى عصر هذا الطراز الرفيع من الرجال . . ؟!!

●● وإذا كانت جريدة المصرى ـ ردّ الله غربتها ـ قد قدَّمت الكتاب إلى القراء بنشرها مُلخصا واسعا لحيثيات الحكم الذى قضى بالإفراج عنه وبراءة مؤلفه ؛ فإن جريدة أخبار اليوم قد هيأت له أوسع مجال بالحديث الصحفى الذى تربع على صفحة كاملة من صفحاتها . . والذى أجراه معى المحامى يومئذ ، المستشار الآن الأستاذ « عبدالحميد يونس » وكان يهوى العمل الصحفى ، ويمارسه فى دار أخبار اليوم . . دار الحديث مُسْهبا ومُفيضا مع أسئلته الذكية والجامعة . . وحين قرأه الناس هنا فى مصر ، وهناك فى البلاد العربية . راح الكتاب يُسابق الرياح المرسلة فى التوزيع والانتشار والتأثير . . حتى إن بعض نُسَخه بيعت على قهوة الفيشاوى بجنيه مصرى للنسخة الواحدة . . مع أن سعره كان عشرة قروش . . !!

وتوالت طبعاته حثيثة سريعة حتى إن بعضها كان ينفَد فى يومين أو فى ثلاثة أيام . . وقبل أن

يحسدنى بعضكم على الأرباح التى جنيتها ، أقول : إن الربح كان من نصيب الناشرين الذين ينشرون الكتاب . . أما أنا فكان نصيبى من ذلك كله مثل حَسْوِ الطائر ،ولا يزيد . . !! لكن ربحى الأكبر والأعظم كان ماثلا فى انتشار الكتاب كالضوء ، حاملا أفكارى التى رأيتها رِأْىَ العين تغزو العقول وتفتح الأبصار ، وتُسمعُ الصُّمّ . وتستهِلُ فترة المقاومة آخذه مكانها بين أفكار الروّاد الذين خاضوا من أجل مصر والعروبة معارك التصفية لكل قوى الشر التى تعتاق زحف الجماهير نحو نهارها الآتى ، وخلاصها المنتظر ، وانتصارها الذى يبشر به تغريد العصافير . . !!!

وبعد . .

فلقد صنع الكتاب زِحاماً من المادحين والقادحين ومن الأحداث والمواقف والمفارقات التى يصعب حصرها فى هذه المذكرات . . فليكن حسبُنا . . ما تذكّرته وما ذكرَته منها . .

لكن هناك موقف يتعلق به . لا أدرى هل أرْجئه حتى يجىء زمانه ومكانه بين صفحات مذكَراتى هذه ؟؟ أم أذكره الآن مادام وثيق الصلة بالكتاب ؟؟ إنى أوثر البِدَار على الإرجاء . . فاسمعوا يا صِحاب !!



الديـن .. والـدولـة .. والعلمانيـة

عندما كنت أسطّر فصل « قومية الحكم » الفصل الثالث من كتاب « من هنا نبدأ » شغلتنى الأحداث الصعبة والمواقف المؤسفة ، والتناقضات المتداعية . . شغلتنى جميعها بهذا السؤال :

— هل من الخير للإسلام أن يكون دولة فى هذه الأزمنة الرديئة ؟؟

هل من الخير له أن يَحمل آصار وأوزار السياسةَ ، أم أن الخير أن يبقى نورا وهدى وبلاغا للناس ، وداعيا إلى الله وإلى صراط مستقيم ؟

ويومها آثرت الاختيار الثانى ، فكتبت هذا الفصل حاكياً اقتناعى بأهمية ابتعاد الإسلام وعزوفه عن أن يكون دولة . . ومن ثم ناديت بما يكاد يوحى للقارىء بأن الإسلام « دين لا دولة » . .

ولكن حدث أن حركة الترحيب بالكتاب ، لاسيما فى الخارج ، جعلتنى أسأل نفسى : أتُرانى قد قدمتُ للشانئين على الإسلام ما أثلج صدورهم وسرَّهم إلى هذا المدى من الترحيب المريب ؟!!

ومضيت أفكر عبر سنوات ، لا عبْرَ شهور وأيام أناقش مع نفسى الحقيقة الموضوعية والتاريخية لمكان الإسلام بين كونه دينا . . وكونه دولة . . وذلك منذ بدأ يتنزَّل به الوحى على رسولنا الأكرم ﷺ وحتى يوم الناس هذا . .

وأفضى بى البحث إلى أن هناك فارقا شاسعا ومسافة بعيدة جداً بين « الحكومة الدينية » و « الحكومة الإسلامية » . . فالأولى يُضرب لها المثل بحكم الكنيسة فى ظلمات القرون الوسطى فى القارة الأوروبية . . والثانية ـ أى الحكومة الإسلامية ـ يضرب لها المثل بحكم الرسول . . وبحكومة « أبى بكر » و « عمر » و « عثمان » رغم ما شهده عصره من توتّرات وفتن . . وحكومة « على بن أبى طالب » ثم حكومة « عمر بن عبدالعزيز » ـ رضى الله عنهم أجمعين . .

وإذن فالإسلام لا يعرف الحكومة الدينية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى واكتوتْ بنارها حين حكَمها القُسس والبابوات . . !! إنما يعرف الحكومة الإسلامية التى تستمد وجودها ونظامها وفكرها وضميرها من الشريعة الإسلامية التى لم تترك صغيرة ولا كبيرة من احتياجات البشَر إلا لبَّتها وغطَّتها وقالت فيها كلمة الفصل . . وإنما قلت « الشريعة الإسلامية » لأضع أمام الأعين المبصرة والقلوب الفاقهة اعتمادها على الاجتهاد وإعمال العقل واستبطان النص واحترام المعاصرة . .

وهكذا قررت أن أتحدث مع القراء فى هذا الأمر الجديد . . وكان فى نيتى أن أعكُف على تأليف كتاب بعنوان : «ماذا أردت أن أقول» . . ؟؟ أخضع فيه أفكارى المنشورة للنقد الذاتى سواء منها ما يتعلق بهذه القضية أو بغيرها من القضايا والموضوعات . .

ولعلّ الصديق الأستاذ « حلمى سلام » قد نشر نبأ هذا الكتاب المزمَع تأليفه فى إحدى صحف الخليج التى كان يرأس تحريرها منذ سنوات غير قليلة . .

بيد أن لم يُقَدَّر لهذا الكتاب النشر القريب . . وتابعتُ بحثى وتحرِّى الصواب ، أو مزيد من الصواب فى الموضوع . . مكتفيا بنشر بعض المقالات فى جريدة الأخبار . وإجراء بعض الأحاديث الصحفية ـ أجراها معى المرحوم الأستاذ « جابر رزق » المحرر يومئذ بمجلة الدعوة . . وخِلال المقالات والأحاديث فنّدْتُ ما فهمه القراء من فصل « قومية الحكم » فى كتابى الأول : « من هنا . . نبدأ » الذى أعطى انطباعا بفصل الدين عن الدولة . . وفى تلك المقالات والأحاديث أيضا أكدت أن الحقيقة التاريخية والموضوعية تهتف بأن الإسلام بهذا المعنى الذى باعَدْتُ فيه بين الحكومة الدينية والحكومة الإسلامية لا يمكن أن يكون إلا دينا ودولة . .

واكتفيت بهذا ـ مؤقتا ـ حتى يجىء كتاب : « ماذا أردت أن أقول » . .

ونطوى الزمن ونَغُذّ السير ، ونسرع الخُطى ؛ لنلتقى بعصر ، أو قولوا بحكم « السادات » . . فقد بداله ، أو أبدِىَ له . . واختَرَع أو اختُرِع له مقطعٌ يقول :

« لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة » !!! وظن أن فى هذه العبارة من الطَّلاوَة والحلاوَة ما حبَّب إليه إدمانها . . فهو يرددها فى كل مكان . فى مجلس الشعب . . وفى المؤتمرات ، والجامعات . وفى أحاديثه الصحفية والتليفزيونية . . وإذا لم يجد مُناسبة لتردادها والتغنى بها افتعل المناسبة التى تحقق له هوايته الجديدة . .

وأذكر أن صحفيا أجنبيا خبيثا سأله فى إحدى هذه المناسبات : هل تعنى بقولك لا سياسة فى الدين كل الأديان بما فيها الإسلام ؟ فأجاب وهو يَمضُغ لُعابَه : نعم أعنى كل الأديان . . كل الأديان . . !!

وعاد الصحفى الماكر يسأله :

— إذن لماذا استعنت بالدين ـ وأعنى الإسلام بصفة خاصة واحتضنت الإخوان المسلمين فى السنوات الأولى من رئاستك ؟

فأجاب ـ غفر الله له ـ هناك فرق بين الاستعانة بالدين وتحكيم الدين . . !! بين أن أقول للدين ساعدنى . . وأن أقول له : أحكُمنى . . !!

وهكذا مضى بمناسبة وبغير مناسبة يُشنِّف الأسماع بأغنيته الجديدة : « لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة » !!

قلت لنفسى : إذا كان يعنى بالدين الإسلامى -وهو قطعا يعنيه- فمعنى ذلك أن المسلم محظور عليه أن يهتم بأمر الوطن والمواطنين ؛ لأن السياسة والاشتغال بها ضروريان لخدمة الوطن فى قضاياه السياسية على الأقل .. !! وإذا كان يعنى بقوله : لا دين فى السياسة .. الإسلام بخاصة ، فمعنى ذلك أنه يحظر على الإسلام أية مشاركة فى قضايا الوطن ومشكلاته السياسية ، بما تبسُط السياسة عليه جناحيها من اقتصاد ، واجتماع ، وثقافة ، وتعليم .. !!

فأىّ لغو هذا ، وأى بهتان .. !! لا .. لا .. والآن يجب أن أتقدم بكلمتى الجديدة .. كلمتى الثانية والأخيرة فى هذا النزاع ..

o o o

إن الإسلام كما فهمتهُ تماما - لا كما يفهمه المفلِسون .. ولا كما يفهمه الغُلاة والمتطرفون .. ولا كما يفهمه المتاجرون .. هذا الإسلام الذكى ، السمْح ، الفَتِىُّ ، المضىء ، دين الإخاء القومى والوئام - العالمى - هو بيقين :

- دين ودولة ..
- حق وقوة ..
- عبادة وسياسة ..
- ثقافة وحضارة ..
- إخاء وتعارُف ..

عندئذ عكفت على تأليف كتابى : « الدولة فى الإسلام » ..

وما كان هناك بد من البدء بعرض رأيى القديم ومناقشته والتحدث معه .. وعرض الأسباب التى أقنعتنى يومئذ بذلك الرأى ..

وهنا يحسُن أن أنقل ما كتبته فى كتابى «الدولة فى الإسلام» بهذا الشأن : ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .. قلت :

— لعل أول خطأ تغشَّى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تأثرى الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عُريَها وعارها ..

أجل . فإنى أستطيع أن ألخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم وأردها إلى عاملين اثنين - كان هذا أولهما .. التأثر بما قرأته .. عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى أقول فى كتابى « من هنا نبدأ » ..

« ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتُكرتْ وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق

العلماء بالنار وهم أحياء !! » . .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت أهوال مروّعة ، حتى أن حاكما دينيا واحدا ـ هو الحجاج ـ أباد البقية الكريمة الصالحة من صحابة رسول الله ، حتى قال عنه (عمر بن عبدالعزيز) . .

« لو جاءت كل أمة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى أمية بالحجاج وحده لرجَحْناهُم . . !! » . .

إذن ، فقد كنت فى قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية إسلامية . . !!

ومضيت أدحَض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاسلام بنفس القوة التى دَحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيسة وكانت أكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

مَن قال ان الحجاج حاكم دينى . . ؟ وهل فى الاسلام كهنوت يستطيع أى حاكم أن يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون مقدسا . . ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنّيا وخطأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح أيا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لأى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته . .

من أجل هذا كانت تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها أمرا مُجافيا لكل صواب . .

O O O

أما العامل الثانى الذى شكّل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم . .

ذلك أن « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الأربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير . .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال أسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة فى أوج مجدها الباهر ، لا ندرى : هل انبثق منها ، أو اقُحِم عليها وتسلل إليها ما سمى يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة . . الدعوة التى كانت قد حققت بالاقناع والمنطق مالم تحققه دعوة أخرى . . والدعوة التى كانت لَباقة مرشدها الأستاذ حسن البنا رحمه الله وإخلاصه يفتحان له الآذان الصم

والقلوب الغُلف ، ويُسلِسان له قيادة الجماهير كافتهم ومثقفيهم . . !!

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم ، وكنت من الذين أقضّ مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسى : إذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟!

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما أعتقده وإلا لعنك الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما أعتقده وإلا قتلتك » !!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن إلى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنَح بتفكيرى إلى التحذير من قيام أى حكومة دينية باسم الاسلام . .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الأول مُضاَهاتى الحكومات الدينية الكنَسيَة بحكم الاسلام . .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السرى باسم الاسلام . .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت به من تحول بعض الشباب المسلم من نُسَّاك إلى قَتلة . . جعلت هذا وذاك « مصدر » تفكيرى ، لا « موضع » تفكيرى !! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشىء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك . .

عندما يكون مصدر تفكيرك فإنه يقودك فى طريقه هو ، لا فى طريق الحقيقة ، وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا إلى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه فى تمعُّنها ودراستها . .

أما حين يكون الشىء موضع تفكيرَك فإنه يُمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم . .

إلى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته ـ قديما ـ من حكم ضد الحكومة فى الاسلام ، هذه التى أسميتها بالحكومة الدينية . . ؟؟

هناك فارق هائل بين الحكومة الدينية والحكومة الاسلامية . .

فالأولى : حكومة الطائفة أو الطوائف ، والثانية حكومة الجميع . . وهذا يجعل الحكومة الاسلامية بالضرورة « حكومة قومية » . . أى أن « قومية الحكم » فى الاسلام تشكل جوهر هذا الحكم ، وأقوى دعاماته وركائزه . . !! وهذا بدوره ينفى تماما تقسيم الدولة المسلمة إلى أكثرية

وأقلية .. هناك فقط وطن واحد لمواطنين أكْفاء ، ومتساوين ، ولا أعرف دينا كالإسلام يحترم وجود وحياة وحرية وحقوق غير المسلمين .. فالمسلم مُواطن .. وغير المسلم مُواطن أيضا .. تجمع بينهما المُواطنة مهما تُباعِد بينهما الأديان ..

ولا أذكر أن الدولة الإسلامية خلال ما يزيد على أربعة عشر قرنا . قد خلعت صفة الأقلية على غير المسلمين فيها .. إنما خلع هذا الوصف الاستعمار ـ لاسيما فى مصر ـ حين زعم أنه باق فى بلادنا ليحمى الأقليات .. بينما كان « الصَّف المسيحى » الذى يعنيه بالأقلِّية يُسابق « الصَّف المسلم » فى دَحض الاستعمار البريطانى ورفضه وقتل جنوده وضباطه .. !!

ولقد يقول قائل : أنه ـ أى الأسلام ـ لم يستخدم كلمة « أقلِّية » .. واضعا مكانها عبارة « أهل الكتاب » ؟ والحق أن وصف المسيحيين بأهل الكتاب تكريم لهم ، لأنه بهذا الوصف يريد تمييزهم عن المشركين والوثنيين الذين لا كتاب لهم ولا رسول ..

وبهذا المعنى نكون جميعا « أهل كتاب » .. فالمسلمون أهل كتاب هو « القرآن » .. والمسيحيون أهل كتاب هو « الإنجيل » .. واليهود أهل كتاب هو « التوراة » .. !!

وبهذا المعنى كذلك نكون أصحاب وطن حر لمواطنين أحرار .. وللمسيحيين ماللمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .. ولا ينتهك أى دين مُنزَّل رشيد حُرمة المواطنة وحقوقها وكرامتها ..

وهكذا انتهيت إلى أن « الحكومة الاسلامية » مختلفة تماما ، ويجب أن تكون مختلفة عما عُرف فى التاريخ بالحكومة الدينية .. من حيث « قومية الحكم » وتقديس الحرية والعدل .. ومن حيث التكوين الإلَهى والبشَرى لها .. العَبادى والسياسى .. الروحى والمادى .. ومن حيث التركيب العضوى والفلسفى .. ومن حيث العلاقات المهَيْمِنة والمتبادَلة بين أفراد المجتمع وصفوفه .. ومن حيث التفاهم المشترك بين أفكاره وأهدافه .. ومن حيث التَّواصِى بالإخاء والتراحُم والمساواة فى الحقوق والواجبات .. ومن حيث ديمقراطية الحكم ، وديمقراطية القانون ، وديمقراطية المجتمع ..

o o o

ولا أغادر حديثى عن هذه القضية ، ولا تجربتى معها قبل أن تكون لنا وقفة عابرة مع « العلمانية » .. فهى تُذكر دائما كلما ورد ذكر للدين والدولة .. !! ولن أختار لى وللقارىء معى الخوض فى متاهات فلسفية أو تاريخية . بل سأتجه مُباشرة إلى جوهر الخلاف والاختلاف ، ولما كان نُشوء الشىء يهدى إلى صواب تصوُّره ، وفهم تطوره .. فلنلق على ذاك النشوء نظرة .. إن العَلمانية بصرف النظر عن شتَّى تعريفاتها ، لا يعنى الرافضون لها اليوم سوى موقفها من الدين ـ أو بتعبير أصح موقفها من الإسلام بالذات بوصفه « دينا ودولة » ..

وهى بهذه المثابة نشأت كَرِدٍّ فعل لحكم الكنيسة فى العصور الوسطى ، حيث تجرد ذلك الحكم من كل مَعْدلَة ومرحمة وعقل وفضيلة .. !! هنالك هبّت شعوب من مَنيّتها .. حتى لقد كان هتاف بعض ثوراتها يقول : « اشنقوا آخر امبراطور بأمعاء آخر قسيس » !!! وذلك خلال ثانى تطور لحكم الكنيسة حيث استولى الملوك والأباطرة على الحكم متخذين من الكنيسة ورجالها سندا لطغيانهم وما يأفِكُون .. !!

ولم يقف هدير الشعوب ، بل استمر فى جَيشان ثائر لَجِب .. حتى شادت لنفسها حكومات مستقلة تماما عن كل نفوذ كَنَسِىّ .. وشيئا فشيئا اعتزل الدين المسيحى السياسة كلها . وبعد أن كان أكثر الناس به من الكافرين عادوا إليه محترمين تقاليده مقدرين حياده ..

واتجه المجتمع الغربى إلى العلم الذى نبغ به وفيه نُبوغا عظيما حتى صار العالم كله عالة على حضارته وكشوفه .. فهل العلمانية فى تطورها ذاك ومفهومها هذا . كفر يُجازَى صاحبه بالقتل والطرد من رحمة الله ؟؟!!!

صحيح أن هناك ملحدين يلبسون رداء العلمانية لِيُواروا به سوءاتهم وإلحادهم ..

وصحيح أن هناك من عَمُوا وصَمُّوا وحسبوا أن العلمانية تعنى حتما نبذ الدين والمروق منه .. !! أفمن العدل أن نُلحق بهؤلاء من لا يرون فى العلمانية طريقا إلى هجر الدين والكفر بالمرسلين ؟؟

إن أبا العلم الحديث « اينشتاين » لم ير العلم قط خصما للدين .. ومن قبله « نيوتن » .. ومعهما عشرات من أفذاذ العلماء وبُناة الحضارة ، لا يعرفون العلمانية التى تنبذ الدين .. بل العلمانية التى تحترم عقل الإنسان وروحه وتعترف للدين الحق بأهميته وجَدْواه ..

وما أصدق ما قاله المفكر الأمريكى « رينولد نيبور » : - « إن الانتصار الحاسم على فوضى الإنسان . يكون من عند الله . ولا يكون من عند الإنسان » .. وما أصدق ما قاله الفيلسوف الهندى « رادا كرشنان » - « إن الدين يتضمن الإيمان بالاخوة البشرية ، والسياسة من أفضل الوسائل لتحقيقها .. وإذن فليست السياسة ، ولا ينبغى لها أن تكون إلا تطبيقا للدين » .. !!

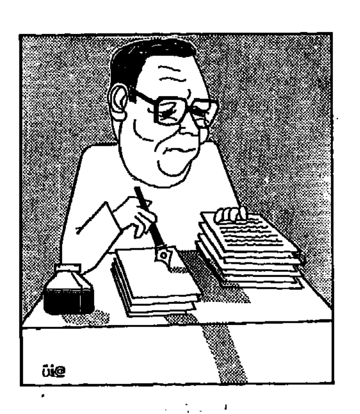
ثم ما أصدق قول « اينشتاين » :

— « إنى أوثر أن أستبدل بسؤالى : ما الدين ؟ بسؤالى عما تتميز به آمال الشخص الذى أتصور فيه التدين ؟ إن الشخص المستنير من الناحية الدينية ، يبدو لى كأنه رجل حرَّر نفسه على قدر استطاعته من قيود رغباته الذاتية ، وشغل نفسه بالأفكار والمشاعر والآمال التى يتعلق بها لقيمتها التى تسمو على ذاته ..

ثم يقول :

« العلم بغير دين أعرج .. والدين بغير علم أعمى » !!

ثم يقول : « إن الذين يُنيرون الطريق لأمثالهم فى الفكر ، المنتشرين فى الأرض وخلال القرون ، لا يستطيع أن يدرك أحد مصدر إلهامهم ، ومصدر القوة التى تجعلهم يثبتون على تحقيق أغراضهم إلا من كرَّس حياته لمثل هذه الأهداف ، « ألا أنه الشعور الدينى الكونى الشامل هو وحده الذى يمدهم بهذه القوة ويمنحهم هذا الإلهام » !!! أفهؤلاء العلمانيون والعِلميون كفرة مارِقون ؟؟ ألا قاتلَ الله الجهل الذى يجعلنا نَهْرِفُ بمالا نعرف .. ويجعلنا نحسب كل صيحة علينا وكل حضارة عدواً لنا ولديننا .. ؟!!





مواطنــــون .. لا رعــايا !!!

بعد الدَّوى الهائل الذى أحدثَه كتَاب : « من هنا نبدأ » عرفْت طريقى ، والْتقيتُ بدورى الذى بدا لى اننى جئت الحياة لأدائه ..

والوعى الذى استقبل به القراء الكتاب فى مصر وفى أقطارنا العربية ، شَحذ إرادة الاستمرار عندى ..

وقلت لنفسى :

هذا العُلا والمجدُ إن كنتَ طالباً

وإن كنتَ ترجو اللهَ ، فاللهُ أكبرُ

ولا أذكر أننى استشرت أحدا فى اختيارى .. بل اندفعت معه بكل قوة وتصميم ، غير عابىء بما قد يصيبنى من امتشاق قلمى ووضعه فوق رقاب الطغاة وأعناق المفسدين ، جاعلا شعارى :

« لا تخف .. وإذا غلَبك الخوف ، فامض فى طريقك وأنت خائف » ..!!!

ومستمدا النصح من قول الشاعر العربى :

إذا هَمَّ أَلْقَى مِن عينيه عزمة

ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا !!

وهكذا مضيت مستعينا بذى الجلال والاكرام .. ولما كان وطنى والوطن العربى كله يرزح تحت أثقال الاستعمار والاستبداد والاستغلال .. فلم يكن هناك بدٌّ من رفع راية المقاومة مع رافعيها ، وتحدى قُوى الشر مع متحدِّيها ..

وذات يوم من شهر مارس ١٩٥١ ـ استقبل القراء كتابى الثانى : « مُواطِنون .. لا رَعايا » !! ما هذا ؟؟ « مواطنون » ؟؟ لابأس ولا حرج .. لكن « لا رعايا !! كلمة مرفوضة من السلطات العليا ؛ لأنها تعنى قلب نظام الحكم .. وتضع هُتاف الثورة المنتَظرة فوق شِفاه الجماهير .. !!

وهكذا دُعيت إلى النيابة بعد أيام من صدوره ؟! النيابة ... ؟! كيف ولم يجفّ بعدُ المدادُ الذى حبِّرَت به النيابة اتهامها لِىَ ولكتابى : « من هنا .. نبدأ » ؟؟!!!

لكنْ لله الكبير حكمة يُبديها ، ولايبْتَدِيها ..

○ ○ ○

كان المحقق الذى مَثُلت أمامه هذه المرة ، هو المرحوم الأستاذ « جمال العطيفى » .. وكان رحمه الله من المعجبين بكتاب « من هنا نبدأ » ..

وسألته : لماذا صودر الكتاب ؟ هل بسبب عنوانه ؟؟ وأجابنى : يبدو أن ضابطا فى بوليس المنصورة أغراه وجود إسمك على الغلاف فقال لنفسه : لابد أن تكون هنا جريمة سياسية . وعرض الأمر على رؤسائه فصادروه من غير أن يقرأوه !!

قلت : إذن هو مصادر فى المنصورة وحدها ؟؟ قال : المصادرة بدأت فى المنصورة ثم عمَّمتها وزارة الداخلية . . ولكنهم يتعاملون معه بصَمت حتى لا يكونوا سببا فى شهرته واشهاره ـ كما حدث لكتاب : « من هنا نبدأ » . . !!

ثم ضحك وقال : تصوَّر أن وزارة الداخلية وبُختْ المسئولين فى المنصورة ، واستهجَنت مصادرتهم الكتاب !

سألته : أيضا ضَنًّا عليه بالشهرة ؟؟

قال : طبعا . .

قلت : « حتى على الموت ، لا أخلو من الحسد » . . !!!

ثم راح يثنى على الكتاب كثيرا ، مما أثار عجبى فسألته : إذن لن تحقق معى ؟؟

قال : أتظن أنكم وحدكم الوطنيون ؟؟ نحن وطنيون مثلكم ، ولنا أكباد تحترق من الغيظ والسخط !! كان هذا أول لقاء يتم بينى وبين «الأستاذ جمال العطيفى » ولعله كان اللقاء الوحيد بيننا . .

وفتح الكتاب ومضى يقلب صفحاته حتى أتى على إحداها . . هنالك قال لى : عند إعادة طبعه احذف هذه الصفحة أو أجر تعديلا فى صيغتها ؛ فإن ما فيها يعطى الحق فى المصادرة . وأنا وإن كنت سأتخذ قرارا بحفظ التحقيق والإفراج عن الكتاب . فإن من حق المسئولين أن يعيدوا مصادرته ويُحقق فيه من جديد . .

كانتَ الصَفحة تنتظَم بين سطورها هجوما غير مباشر على النظام الملكى . . أليس عنوان الكتاب : « مُواطِنون ، لا رعايا » فكذلكم كان موضوعه أيضا . .

أُفرج عن الكتاب فى صمت ، كما صودر من قبل فى صمت . . ولم يكتب عنه كاتب ولا صحيفة سطرا واحدا . . هل كانت مؤامرة صمت ؟؟ أم هو الخوف الذى أحدثته كلمة « لا رعايا » . . ؟؟ على أية حال ، نفدت الطبعة الأولى . . وأخذت أتلقى آراء القراء من أصدقائى مشافهة ومن غيرهم عن طريق البريد . .

وأذكُر أننى لقيت أيامئذ الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة . . عميد كلية آداب القاهرة ـ يومها أو فيما بعد ـ فى عيادة الدكتور « سيد عفت » . . فأبدى إعجابه بالكتاب وسألنى : هل تعلم أن عبارة « مواطنون لا رعايا » كانت على رأس هتافات وشعارات الثورة الفرنسية ؟؟ وعجبتُ وطَرِبْت لهذه المعلومة . . وأحسست بزَهْوٍ ممتع . . وسألته : صحيح كان ذلك كذلك ؟؟

قال : بيقين . .

قلت : سبحانه الله !! إنها ضمائر الثوار إذَن تُسقى بماء واحد ، وتتكلم لغة واحدة . . ؟!!

○ ○ ○

فى تلك الفترة جاءنى رسول من لَدى الأستاذ « إحسان عبدالقدوس » حاملا رغبته فى أن أزوره بمجلة « روزاليوسف » حيث كان يرأس تحريرها . . كنت أيامئذ من قراء روزاليوسف ، وقرّاء مقاله الأسبوعى بالذات . . وهكذا لم نكد نلتقى حتى وجدنا نفسَيْنا كأننا صديقان قديمان . . ودعانى لتحرير كلمة أسبوعية فى المجلة فقبلت . . ومضيت أكتب تحت عنوان الباب الصحفى « حاول أن تفهم » . . وأحمد الله على توفيقه ، فقد كانت كلها كلمات من نور ونار !!

●● كتبت : « والآن أديروا مَدافِعكُم » . . وكنت أعنى توجيه قذائفنا الفكرية والصحفية شَطْر القصر الملكى . . !!

●● وكتبت : « صاحب الجلالة ـ الشعب » . . ذاكرا أن الشعب هو الذى أقام « محمد على » واليا على مصر وحاكما لها . . وهو اليوم قادر على أن يختار لحكمه من يشاء ، ويستبدل قوما آخرين !!

●● وكتبت : « كُن ملكا يا جورج » داحِضًا طغيان الملك فاروق وفساده ، ضارباً المثَل بأم « جورج الثالث » ملك بريطانيا الذى خاض مع المستعمرات الأمريكية حرب استقلالها . . ولما أحسَّ الهزيمة أراد أن يُعطى الثوار بعض التنازلات ، فنَهرتْه أمه وصاحت به : اثبت فى قتالك وواصل حربك ، و« كن ملكا يا جورج » . . ولقد عمل بنصحِها حتى خسر الحرب كلها . . فى تلكم الأيام كانت الملكة نازلى أم الملك فاروق قد ضلّت سواء السبيل ، وسافرت إلى الولايات المتحدة فى رحلة طيش وهوى . . وكأنما انعكس موقفها الزَّرِىّ على نفسية ابنها فأسلم للشيطان حياته ، ورَبَا طغيانه وزادَ استهتاره بحقوق الأمة عابثا غير عابىء . . فكتبت مقالتى هذه : « كن ملكا ، يا جورج » . . ضمنتها هذه العبارة : « ومن الحكام من لا يجد بجواره أما تنصحه بالثبات ، فيقوم غروره مقام الأم « الغائبة » . . وفهم القراء ماأريد وأعنى . .

كان الدستور يقرر أن الملك يملك ولا يحكم . . فإذا أردتَ أن تصب على رأس الملك وتاجه كل لعَنات الأرض ، فليس عليك لكى تنجو إلا أن تخلع عليه صفة الحكم مكان صفة المُلك ، ثم تصلية سعيرا . . وكذلك كنت أفعل !!!

●● وكتبت كذلك : « وَراء كل ثورة رغيف » تحذيرا لحكومة الوفد التى كانت على وشك أن تزيد سعر الرغيف مليما واحدا « ؟؟!! » . . .

●● وكتبت : « كان رئيس وزراء ، ورئيس عصابة » . . ضاربا المثل بـ « كافور » الذى قاد مع رفيقيه « ماتزينى » و« غاريبالدى » حرب التحرير الكبرى لتوحيد ايطاليا . . وذكرت عبارته

المأثورة يومئذ : لن ندع العالم يستريح فإما ظفرنا بحريتنا ، وإما خسر العالم حريته معنا » !!!
وناديت « النحاس باشا » رئيس الوزراء يومئذ ان يصنع صنيع « كافور » . .

● ● وكتبت قُبَيْل إلغاء معاهدة « ٣٦ » كلمة بعنوان : « هاتوا القَلم » . . !!

وكان الزعيم الروحى الايرانى «آية الله الكاشانى » يقود آنئذ شعبه وبلاده للتحرر من وطأة أمريكا والشاه . . وطار الصحفى البارع الأستاذ « محمد حسنين هيكل » إلى إيران مندوبا لأخبار اليوم . . وسطر عن الثورة الايرانية تحقيقا رائعا نشرته أخبار اليوم ، جاعلا عنوانه عبارة الكاشانى : « هاتوا الكفَن » !! يعنى استعداده للموت فى سبيل قضيته وقضية شعبه . .

فجعلت عنوان كلمتى : «هاتوا القَلَم » قائلا للنحاس باشا ولوزير خارجيته الدكتور«محمد صلاح الدين » إنه ليس بيننا وبين الوثبة المباركة سوى هاتين الكلمتين : « هاتوا القلم » . . القلم الذى نلغى به المعاهدة بجرَّة قلم . . !!!

●● وكتبت : « لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا » . . وكان وراء هذا العنوان قِصَّة . . فقد كانت تركيا تتزعم محاولة استقطاب دول الشرق الأوسط وإشراكها فى حلف قيادة الشرق الأوسط الذى كان يقود خطاه انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، وتركيا ولا أذكر تماما ما أظنه قد حدث بين حكومة الوفد والحكومة التركية . . على أية حال فقد حدث يومئذ ما حمَلنى على توجيه اللوم إلى تركيا بكلمتى التى عنوانها كما ذكرت : « لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا » !! وهذا العنوان شطرة من بيت شعر تضمَّنته قصيدة لشاعر قديم يُحذر فيها إحدى القبائل التى كانت تشْغَبُ على قبيلته فيقول :

مهلاً بنى عمنّا ، مهلاً مَوالينا
لا تنبِشوا بيننا ما كان مدفونا
الله يعـلم أنّا لا نُحبِـكموا
ولا نلومُكموا ، إن لم تُحبُّونا . . !!

وكنت قبل كتابة المقال ونشره قد تلقيت دعوة من المرحوم الأستاذ « محمود أبو الفتح » صاحب جريدة المصرى ، بلَّغنى إياها الأستاذ « إحسان » للقائه فى موعد معلوم بجريدة المصرى . . وفى صالون المقابلات دخل علىَّ ومعه المرحوم الدكتور « السيد أبو النجا » . . و« السيد أبو النجا » الذى ودَّعناه فى شهر اكتوبر من هذا العام - ١٩٩٢ - رجل كبير يَصدق عليه الوصف بأنه « نسيج وحده » !!! تدعوك شِيمُه إلى مودته وتدعوك مواهبه إلى احترامه . . وياليته اشتغل بالفكر والأدب بدلا من الإدارة والإعلان اللذين تخصص فيهما دراسة وعملا . . إذن لكان فى القمة بين مفكرينا وأدبائنا ولأعطى الفكر زادًا وريًا . . دخل حجرة الاستقبال مع الراحل الكبير الأستاذ « محمود أبو الفتح » الذى راح يغمرنى بثنائه وإطرائه . . ثم قال : لقد قرأت كلمتك عن تركيا . . وأخشى

أن تكون عواطفك قد زاحمت عقلك ، وأخذتْ من مساحة المقال أكثر مما كان ينبغى لها . .
وابتسم ابتسامة لطيفة حيّتُها بابتسامة منِ عندى . . وشغلنى التفكير فى حلاوة تعبيره وإشراق تفكيره عن التعليق فاكتفيت بقولى : رُبما . . . !!

وتحادثنا ـ ثلاثتنا ـ هو ، والسيد أبو النجا ، وأنا قُرابة نصف الساعة فى موضوعات شَتى . . ثم قال لى : أرجو أن أراك مرة أخرى . . وودعتهما شاكرا ، ويممتُ وجهى شطر مجلة روزاليوسف للقاء الأستاذ إحسان الذى كان فى انتظارى . وهناك قصصتُ عليه ما حدث . .

فقال : اسمع يا سِيدى . . الأستاذ أبو الفتح كان يريدك لتكتب فى المصرى . . ولكن من سوء حظك وحسن حظنا أن مهاجمتك السياسة التركية نشرت قبل لقائكما ـ مما حمله على التريث حتى تظهر ميولك أكثر واوضح . .

والحق أقول لكم : إننى أسِفت وحزنت . . فجريدة المصرى أيامئذ كانت مَهْوَىَ أفئدة الكتاب والقراء معا ؛ لأنها جريدة يومية ، واسعة الانتشار إلى الدرجة التى أنزلَت فيها جريدة الأهرام عن عرشها . . !! ثم إنها تتبنى بشجاعة فائقة ومتفوقة ، آمال الشعب الثائر والجماهير الزاحفة . . ثم إنها تكافىء كُتّابها ماديا بمرتبات جزيلة . . !!

صحيح أن مجلة روزاليوسف كانت لها كل هذه المزايا الوطنية . . غير أن ظروفها المادية يومئذ لم تكن تسمح لها أن تُبسَط يدها كل البَسْط ، ولا بعض البَسْط . . لأن المبذّرين إخوان الشياطين . . « وكان الشيطان لربة كَفورا » . . !!

بعد بضعة شهور أمضيتها فى كتابة مقالى الأسبوعى بروزاليوسف ، بدا لى أن أستأنف دراستى اللغة الانجليزية ، وأتفرغ للتأليف ؛ فالكتاب أنفع وأبقى من المقال . .

وأقول : أستأنف ـ لا أبدأ ـ دراسة الانجليزية ؛ لأنى كنت قد بدأتها قبل إصدار « من هنا . . نبدأ » وكان المعهد البريطانى أيامئذ قد افتتح فصلا أو فصلين خصصهما للأزهريين فالتحقت بأحدهما حيث لبثتُ شهرين أو ثلاثة . . ولم يكد كتاب « من هنا . . نبدأ » يطبع وينشر حتى شغلنى تحقيق النيابة والقضاء والحملة الضارية ضدى وضده على ترك الدراسة بالمعهد . . مُضيعا فرصة ذهبية كانت لو حرصت عليها ستهيئ لى آفاقا ثقافية رحيبة رُحتُ أعوِّضها ببعض التعويض بالتوسع فى قراءة الكتب المعرَّبة لنفرٍ من مفكرى أوروبا والغرب . .

فى تلك الأيام . . أيام النصف الثانى من الأربعينات تعرفت بالأساتذة : أحمد حسين ، وفتحى رضوان ، ومصطفى مرعى ، ونور الدين طراف . . وكان ذلك بين عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥٢ ـ كما تعرفت بالأساتذة : مصطفى أمين ، وعلى أمين ، وحلمى سلام والدكتور السيد أبو النجا ، وكامل الشناوى ، والدكتور زكى نجيب محمود والمستشار الدكتور زكى عبدالبر ، والدكتور عثمان أمين . . وأخذت صداقاتى معهم ومع غيرهم تنمو مع الأيام .

بعد نشر كتابىّ « من هنا نبدأ » . . و . . « مواطنون لا رعايا » . . ومقالاتى التى حملتها مجلة روزاليوسف إلى القراء بضعة أشهر ، رُحت أعطى القراءة كل وقتى ، وكان الفكر الأوربى فى كتبه المعرَّبة مهوى فؤادى وعقلى . . لا يتخلل ذلك سوى بعض المحاضرات التى أُدعَى لإلقائها ، فتثير جَدلا حاميا وحوارا ساخنا . .

وفى تلكم الأيام كانت مصر تغلى بمشاعر التربص ، وإرادة التغيير ، وكانت جماهيرها الواعية قد أجادت لغة الحديث إلى المستقبل والاصغاء له . . فكنتَ تراها ، وكأنها على موعد تعرف ميقاته ، وزمانه ومكانه ، وتتحرك بخطى واثقة راسخة نحو هدف عرفت هويته وأعدت وسيلته . .

●● وتعددت مظاهر هذا الأمل والعمل . .

ففى انتخابات نادى القوات المسلحة ، رشح الملك فاروق أحد رجاله ، ورشح الضباط الأحرار « محمد نجيب » فاكتسح مرشحَ الملك فى مشهد من أروع مشاهد التحدّى . . !!

●● وفى مجلس النواب راحوا يكتتبون لشراء هدية تُقدم للملك فى حفل زفافه الثانى ، فوقف النائبان الجريئان ـ د . « نور الدين طراف » والأستاذ « إبراهيم شكرى » يعلنان بصوت جهير رفضهما الاشتراك فى هذا الاكتتاب . . !!

●● وقبل ذلك . . سار شباب الجامعات والمدارس فى أضخم مظاهرة يهتفون بسقوط الملك فاروق مستخدمين أقسى عبارات الإهانةلذاته العلية « ؟!! » مثل ـ « يسقط ابن الزانية » . . « الذى لا يحكم أُمَّهُ لا يحكم » . . « من بيت العُهر إلى بيت الطهر ، يا فريدة » . . وكانت فريدة ملكة مصر المحبوبة من الشعب كله ، وطلقها فاروق . . كان هذا الغَليان إرهاصا بالضربة القادمة ، والقاتلة . .



وجاءت حكومة الوفد ..

حين جاءت حكومة الوفد مع بدء عام ـ ١٩٥٠ ـ أهلَّ مع إهْلالِها ربيع لأُينسى لحرية المعارضة .. فقد تحولت أنفاس الناس إلى منشورات ثورية ، ضد القصر وضد فاروق ، بحيث كنت تستطيع من غير أن تكون عَّرافا ، أو قارىء نجوم أن تتنبأ بأن يوم التحرير الأكبر بدأ يُرسل طلائعه .. وأن وزارة الوفد هذه ـ شاءت أم أبت ـ ستنسج الكَفَن الملكى لفاروق ولحاشيته وللأسرة العلوية كلها .. !! ماذا أصاب الصحافة يومئذ يارجال ؟؟ !! وكيف حلّت فيها روح الشجعان . بل رُوح الشجاعة نفسها ؟ !

كان هناك جريدة « المصرى » يقود تحريرها وكتيبتها « أحمد أبو الفتح » .. وحين يذكر هذا الاسم يدعونا الوفاء لأن نقف له وقفة إجلال .. !! كان الرجل أُمَّةً وحده .. وكانت جريدته ثورة وحدها .. تصوروا وهى الناطقة باسم « الوفد » وحكومته .. تنشر فى عدة أيام قائمة سوداء تُضمِّنها أسماء بعض وزراء الوفد الذين لهم مع القصر هوى .. والذين أيدوا يومئذ مشروع « اسطفان باسيلى » لحماية أخبار القصر من النشر والتشهير .. !! وتصوروها ـ وهى لسان حال الوفد والحكومة ـ تعارض فى استبسال عظيم كل محاولة يخشاها على الحرية الزاحفة والثورة التى تتهيأ للانطلاق ، رئيس تحريرها الأستاذ والصديق « أحمد أبو الفتح » ..

كان معه فى نضاله « عزيز فهمى » الذى لم يمنعه منصب أبيه كرئيس لمجلس النواب من أن ينزل إلى الشارع ليقود الجماهير مع رفاق له كرام .. والذى انتهت حياته فى ظروف غريبة أومُريبة .. ففقد الثوار واحدا من أكثرهم وطنية وصلابة وتصميما ..

●● وكانت هناك مجلة « روزاليوسف » تنشر فى فدائية عرَّضت رئيس تحريرها « إحسان عبد القدوس » ذات مساء لطعنات خنجر ، نجا منها بمشيئة المقادير .

كان « إحسان » يرى هَوِيَّته ، وهِوايته ، وشعائر حياته فى الثورة .. وكان معه « سامى داود » و « عميد الامام » يَشدَّان أزره ..

●● وكان هناك « مجلة اللواء الجديد » يقود كتيبتها «فتحى رضوان» و« أحمد شوقى » و « نور الدين

طراف » و« حلمى سلام » الذى كان يمهد مقالاته المحرِّضة والثائرة بتوقيع « أبو الوليد » أو « ابن الوليد » . .

●● وكان هناك مجلة « رعاياك ، يامولاى » ؟؟ !! وهى مجلة « الاشتراكية » لسان حال الحزب الاشتراكى ، تحت زعامة « أحمد حسين » . .

وإنما وصفتها هنا بمجلة « رعاياك يامولاى » ، لأنها فى أحد أعدادها اللُّجِبَة نشرت صورة تسجيلية لنفر من الأطفال الحُفاة وأشباه العُراة . . يفترشون الأسفلت ويرقدون فى الطريق الذى يقضون عليه ليلهم متكوِّمين مهترئين . . ثم كتبتْ فوق الصورة أو تحتها بخط فاضح كبير :

« رَعَاياك ، يامولاى » !!!

أى هؤلاء هم رعاياك ـ يامن تقضى ليلك بين موائد القمار ، وعبث السُّمّار ، وأحضان العاهرات . . !!!

أصبح الناس ذلك النهار ورأوا الصورة والعنوان ، فنَسُوا الكتابات والمقالات ، وظلوا أياما يتندّرون بالعنوان . . بل حفظوه . ولايزال جيلُ تلك الأيام يحفظه ويذكُره . . !!

●● وكان هناك صحف دار أخبار اليوم . . لاسيما ملحق « صباح الخير » . .

وعلى الرغم من أن أخبار اليوم كانت ملَكية النشأة .. وتحيَّزت للقصر ضد الوفد سنين عدَدا ، إلا أنها أمام انتفاضة الشعب ، ومباذل الملك واستهتاره . . أدارت مَدافعها وراحت تُزكِّى سخط الجماهير وتُذكِى أُوارَه . . بأخبار مُوعِزة ، ومواقف ومُناورَات قد لاتجد فيها دعوة مُباشرَة للثورة والتغيير ، إلا أنها تصُبُّ فى نفس المجرَى وتسبح مع التيَّار . .

●● وكان هناك « الجمهور المصرى » جريدة أو مجلة يرأس تحريرها « أبو الخير نجيب » . .

وكما اشتهرت مجلة الاشتراكية بصورة : ـ « رعاياك يامولاى » ـ اشتهرت الجمهور المصرى بمقال : ـ « التيجان الهاوية » :

كتب المقال « أبو الخير نجيب » وكان فى أعلى ذُرى الشجاعة . . فقد ساق إحصاء بالملوك الذين سقطوا عن عروشهم فى تلك الفترة والتيجان التى هوت . . وكل سطر فى المقال يقول للملك بصيغة غير مباشرة : الدوْر عليك ياصاحب الجلالة !!!

●● ولن أنسى جريدة « صوت الأمة » التى كانت صحافة الاخوان المسلمين تسميها : ـ « صُطَل أمة » . . !! وكانت الجريدة المسائية لحزب الوفد . .

كان يرأس تحريرها الدكتور « محمد مندور » الأديب والناقد والأستاذ الكبير . . وكان يهاجم القصر والحاشية والملك ـ رغم أنه ينطق باسم الحكومة ولكنه طبعا لم يبلغ ما بلَغه الأستاذ « أحمد أبو الفتح » ولا ما بلَغته جريدة المصرى من ثورية وفدائية . .

●●●

كانت هذه الصحف كلها وغيرها معها « تُلَعلِع » بمعارضة لاتهدأ ولا تستكين كان وزير الداخلية عَهدئذ فؤاد باشا سراج الدين كان يُصادر بعض الصحف . . نَعم . . ولو لم يفعل ما استحق أن يكون

وزيرا للداخلية ـ لا فى نظر الملك ، ولا فى نظر القوانين التى تحكم البلاد . . فالصحافة كلها تقريبا أدارت أيامئذ مدافعها مركزة فُوّهاتها على القصر والملك والحاشية . . وكانت بعض المقالات صارخة لاينقصها إلا أن تُطعّم سطورها باسم الملك الصُّراح « فاروق » !!

كان هناك دستور « ٢٣ » الذى رضيته الأمة ، وكان هناك القوانين المنبثقة منه ، والتى تؤكد أن « ذات الملك مصونة لاتُمسّ » . . وتعاقب أشد العقاب كل متمرد على الملك . داعٍ إلى خلعه أو استفزازه . . !!

أفيصير خصيما للحرية أى وزير للداخلية ، يطبق الدستور والقانون ويُصادر الصحف التى تخرج على الدستور والقانون ؟ لاسيما وهو يعلم أنه بعد بضع ساعات من المصادرة سيحكم القضاء بإلغائها وبالافراج عن الصحيفة المصادَرة . . ؟؟ !!

وهكذا يؤدى واجبه كمسئول عن النظام والأمن ، وتأخذ الجريدة طريقها إلى قرائها بحكم قضائى لا إدانة فيه للوزير بالاهمال والتواطؤ . ، ولا للجريدة بالخروج على الدستور ومناهضة القانون . . !!

هذا رأى لا أقدّمه فى هذه المذكرات للمرة الأولى فلقد سبق أن هتفت به فى كتابى : ـ « دفاع عن الديمقراطية » كما سجلته فى بعض مقالاتى السياسية المنشورة بمجلة المصور . . بل أعلنته عام ١٩٥٤ عندما دُعى « فؤاد سراج الدين » للمثول أمام محكمة الثورة . . !!

كنت أيامئذ أكتب مقالا سياسيا أسبوعيا لجريدة الجمهورية . . وحين بدأت محاكمة « سراج الدين » أمام محكمة الثورة جعلت مقالى الأسبوعى عن تلك المحاكمة وجعلت عنوانه : ـ

« كان للحرية نصيرا » . . !!!

وضمّنته نفس الأفكار التى تطالعكم بها مذكراتى الان وانتظرت نشر المقال فى موعده ، فلم يُنشر . . فقلت لنفسى : « بركّه ياجامع » وعزمت على التخلى عن الكتابة بالجريدة . .

وبعد يومين أو ثلاثة تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ « حسين فهمى » وكان رئيسا لتحرير الجمهورية ، يسألنى : متى سأرسل المقال التالى ؟؟

أجبته : لن أرسل شيئا حتى تنشروا المقال الذى عندكم . .

قال : طيب . . لى عندك رجاء ، أن تشرب معى الشاى أو القهوة الآن . .

وذهبت إليه ، وجلسنا وحدنا فى مكتبه ، ثم أخرج المقال من أحد أدراجه ، وأمسك به متعمدا أن يكون بعيدا من بصرى ، ثم قال : هل ترى هذه السطور . . معذرة فإنى لم أُوذن بإطلاعك عليها !!

قلت : نعم أراها . . وكانت عبارة عن بضعة سطور مكتوبة بخط دقيق ومُتناه فى الصِّغر . .

قال : هذا تعليق مسئول كبير بمجلس قيادة الثورة ، يتضمن الأسباب المانعة من نشر المقال . .

واتفقنا على أن يكون هذا أول وآخر مقال لى يُمنع نشره . . واستأنفت كتابتى حتى جاء يوم تأزمت الأمور فيه بين الثورة والشيوعيين والاخوان ومحمد نجيب ، فكتبت ثلاث مقالات تحت عنوان : ـ « الاخوان ، والشيوعيون ، والثورة » . . نشر المقال الأول . . ثم حُجب الثانى ، والثالث ، فكان هذا آخر عهدى بالجمهورية . .

● ● ●

وإذا صعُب علَى قوم الاقتناع بأن الأستاذ « محمد فؤاد سراج الدين » كان يُصادر بعض الصحف - لا مصادرة للحرية بل إبراء لذمته أمام الملك من تهمة التواطؤ.. وأمام القانون من تهمة العجز والاهمال.. إذا صعب عليهم تصديق هذا الاحتمال، فليفسروا لنا الواقعة الآتية :

بعد عودة فاروق من « غزواته ونزواته » الصيفية فى أوربا، « دعا سراج الدين » لمقابلته.. وما إن جلس أمامه فى غرفة المكتب حتى فوجىء بكوْمة كبيرة عالية من أعداد الصحف بجواره.. وجاءت المفاجأة الثانية حين سأله الملك فى سخرية :

قلى لى ياباشا.. مصر فيها وزارة داخلية ؟؟

— طبعا يامولاى..

— وفيها وزير داخلية.. ؟؟

— نعم يامولاى..

— أمّال إيه ده ؟؟ وراح يأخذ الصحف بيمينه وبشماله ويقذف بها وجه وزير داخليته..

هذه واقعة سمعتها يومها من مصدر وثيق. كان بينه وبين الوفد وسراج الدين بالذات وُد مفقود.. !!!

وخرج وزير الداخلية من قصر عابدين إلى النحاس باشا رئيس الوزراء قائلا له : إن الرجل يدبر لنا أمرا.. ؟!!

هذه واقعة لايعلمها إلا قليل من الناس جميع الناس.. ولا أدرى لماذا لم يُذعها « فؤاد سراج الدين » ولو بعد عزل الملك.. ثم ولَوْ - مرة أخرى - أمام محكمة الثورة..

ترى - الآن وقد عرفها الذين يرفضون قولى أو زعمى بأن تلك الأيام شهدت ربيعا للحرية لايُنسى.. فهل لايزالون رافضين ؟؟ !!

● ● ●

ليس معنى ذلك أن زعيم الوفد، وحكومته، ووزير الداخلية بالذات، ماكانت لهم أخطاء. نذكرها، ونُحاول أن نَغفرها..!!

فلقد كان حق الأمة على زعيمها أن يبقى حتى الموت ممثلاً لكبرياء الشعب تجاه القصر والملك..

وكما ظل حتى آخر لحظة حاملاً راية التحدى للفرعون « الأب » فؤاد.. كان عليه أن يظل حاملا لها مُلَوِّحا بها فى وجه الفرعون « الابن » فاروق.. فلا يتقرب إليه بتقبيل يده يوم تشكيل الوزارة.. !! ولايُحَيِّيه وهو بين مَباذله فى أوربا قائلاً : « نُولِّ وجوهنا شَطر كابْرى ».. !! ولايضحى بوزيره الأول وصديقه الأول « مكرم عبيد » من أجل كتابه الأسود.. !! ولايقبل الضيم الذى نزل فى عهد وزارته بمجلس الشيوخ وبرئيسه « هيكل باشا »..

كذلك لم يكن من حق « سراج الدين باشا » أن يلقى بمجلس الشيوخ أثناء نظر استجواب « مصطفى مرعى » الذى تبناه بعد سفره الدكتور « إبراهيم بيومى مدكور » كلمة فهم المواطنون جميعا يومها أنها دفاع عن « كريم ثابت » الذى سرق خمسة آلاف جنيه من أموال جمعية المواساة بالاسكندرية.. كما فهمنا جميعا

يومها أن حكومة الوفد تتنصّل من مسئوليتها عن جرائم الأسلحة الفاسدة مُحتجّة بأنها لم تقع فى عهدها . بل فى عهد حكومات الأقلية . . !!

كذلك عجبنا أيامئذ من تصريح لهيكل باشا نشرته إحدى صحفنا ـ ولعلها أخبار اليوم ـ ولم يكذبه فؤاد باشا ، وفَحواه أنه قال لهيكل باشا وهو يعاتبه على دِفاعه عن « كريم ثابت » يا أخى إحنا لِينّا فى الشارع عشر سنين ، كاد الوفد خلالها أن يموت سياسياً . . أفلا يحق لنا أن نُساير القصر فى سياسته » ؟؟ !!

صحيح أن ما نأخذه على الوفد وزعيمه وسكرتيره العام يعتبر هَناتٍ هَيِّنات ، وهَفَوات إذا قيس بخطايا أحزاب الأقلية وزعمائها ، وحكومات القصر ووزرائها . .

ولكن ـ هل الوفد كغيره من الأحزاب ؟؟ وهل النحاس كغيره من الزعماء ؟؟ إذن فأين تراث الوفد ؟ ومن هم إذن ورثة « سعد » ؟؟

إنى لم أر « سعد زغلول » ولم أعاصره . . ولم أقابل النحاس فى حياتى كلها . . ولم أكن فى يوم من الأيام وفديا . . ومع ذلك فإن بى ضَعفا تجاههم جميعا . . وهو ضعف يُزكّيه جهادهم ووطنيتهم وتضحياتهم وشرف كفاحهم . .

من أجل ذلك تجدوننى أقول مع الشاعر العربى :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد
جاءت محاسِنُه بألف شفيع !!

ونعود إلى القول ـ لامبررين ، بل مُفسِّرين ـ إن الأحزاب وزعماءها ـ هم الذين اضطروا الوفد لأن يعاملهم بالمثل . . فهم كانوا يُوغِرون صدر الملك دائما ضد الوفد وزعيمه سواء فى عهد فؤاد أم فى عهد فاروق . . وكانوا يلقون فى رُوعه أن النحاس يرى نفسه فوق الملك ، والوفد فوق القصر والعرش . . بل إن سياسة الوفد تهدف على المدَى البعيد لإلغاء الملكية وتحويل مصر إلى جمهورية . . !! مما جعل النحاس باشا يعمل على تجريدهم من سلاحهم هذا ، بالتقرب من الملك وبَث الطمأنينة فى نفسه . .

كان الزعماء الآخرون دائمى الإفساد بين القصر والوفد . . وإنى لأذكر فى تلك الأيام واقعة لا أزال حتى اليوم عاجزا عن تصديقها . . ولكنها حدثت وكان لها دوىّ كبير !! ذلك أن هيكل باشا رفع إلى الملك فاروق عن طريق رئيس ديوانه عريضة ينبه فيها أن الوفد متواطىء مع الاتحاد السوفيتى والشيوعية الدولية ضد العرش والنظام الملكى فى مصر . . !!

رفعها هيكل باشا متضمنة ما أسموه وثيقة تثبت هذا الاتهام .

وكَم كانت الخيبة وبيلة حين أحال الملك العريضة والوثيقة إلى رئيس الوزراء ـ النحاس باشا ـ . . !!! أو أمر رئيس ديوانه باطلاعه عليها ـ ولم تمض سوى أيام حتى أخذت الفضيحة الكبرى بخناق المعارضة وزعمائها . إذ تبين أن الوثيقة المزعومة مزوّرة ، دسَّها على الزعماء وباعها لهم نصّاب عالمى متمرس بهذه الأعمال . . ؟ !! من أجل ذلك ـ عندما قدم هيكل باشا فيما بعد ـ باسم المعارضة كتابا إلى الملك يطلبون إليه فيه أن يقى مصر شر الأخطار التى تهددها بها تصرفاته . . تذكر النحاس باشا عريضتهم الأولى المتآمرة ، فعلّق على هذا البيان بقوله : ـ « إنه إجرام سافر » . . فردّ عليهم الصاع صاعَيْن ، والصفعة صفعتين . . !!!

لقد جاء الشعب بالوفد إلى الحكم فى أغلبية ساحقة فى انتخابات حرة نزيهة أجْرتها وزارة حسين سرى باشا جاء به تتوجه أغلبية مطلقة ، رغم تصريح «حسن يوسف» رئيس الديوان الملكى بالنيابة وحسين سرى باشا رئيس الحكومة بأن سياسة الملك تتمثل فى ألا يكون لحزب واحد أغلبية فى البرلمان .. ولكن الشعب كذَّب ظنونهم ، وأفسد تدبيرهم ، وكأنه أعلن رفضه لكل ما اتهم به النحاس باشا بشأن - ٤ فبراير - بهذه الأغلبية المطلقة التى حملته وحزبه إلى الحكم .

●●●

وبعد .. فقد كان لحزب الوفد ولزعيمه أخطاء كِثار وأحياناً كبار .. تسبب فى وقوع معظمها سلوك الأحزاب الأخرى وزعمائها تجاه الوفد وزعيمه ..

ويبقى أمر له أهميته القُصوى - هو أن الوفد وزعيمه الجليل ، كانا المرْفأ الذى تأوى إليه - كلما أجهدتها وَعْثاء السفر - القضية المصرية «المُبْحِرة والتائهة فى بحار الظُّلُمات !!!

نَيْرون .. فى القاهرة .. !!

لم تشهد القاهرة « نيْرون » يعود إلى الحياة حاملاً قيثارته ومختارا إياها ليعزف بين خرائبها لحنهُ المجنون - يوم ٢٦ يناير-١٩٥٢ - بل شهدته يقتحم حماها قبل ذلك بأعوام .. ورأته يحاول إشباع هوايته فى الحرق والتدمير مرات ومرات - لعل أولاها كانت عام-١٩٤٨ - يوم أسلَمت هيئة الأمم المتحدة وبريطانيا فلسطين وشعبها وتاريخها إلى إسرائيل ، فى الوقت الذى رفضت فيه مجرد النظر فى قضية مصر التى هبَّت بعد الحرب العالمية الثانية تُطالب بحقها المقدس فى الحرية والاستقلال ، وطرد جيوش الاستعمار البريطانى إلى خارج بلادها وحدودها .. ذلك أنه بعد فشل مفاوضات «صدقى - بيفن» ثم فشل مفاوضات « حكومة النقراشى - كامبل » قرر « النقراشى باشا » عرض الخلاف بين حكومته وبريطانيا على مجلس الأمن . وتم ذلك فعلا أواخر عام-١٩٤٧ - وإذا مجلس الأمن يصدر قراره المُهين بتأجيل المشكلة كلها إلى أجل غير مُسمّى .. ؟؟ !!

ولا ننسى موقف « النقراشى باشا » يومئذ ، وهو يصرخ بالكلمات التى لم يتحرك بها لسان زعيم من قبل مُوجها صرخته إلى الانجليز :

« أيها القراصِنة ، اخرجوا من بلادنا » !!!

وبعد قرار مجلس الأمن بالتأجيل إلى أجل غير مُسمى .. ، كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تنظر فى عَجلة مُريبة مشكلة فلسطين .. ثم تصدر - بأغلبية هزيلة - قرارها الأثيم بإنشاء دولة إسرائيل .. !!! وكان على مصر - زعيمة العالم العربى يومئذ - أن تهيىء نفسها لخوض معركتين شَرِسَتين :

معركتها لأخذ استقلالها . .

ومعركتها لرد فلسطين إلى أهلها . . وأمام المؤامرات التى لن تُؤْذِن بانتهاء - من بريطانيا وإسرائيل . . - كان عليها أن تتهيأ لاستقبال نيرون . . !!!

● ● ●

وزار « نيرون » مصر مرة أخرى مُشعِلاً فيها النيران . . وتمثلت هذه المرة فى كارثة الأسلحة الفاسدة . . !!

لعبت الرشوة بضمائر البعض من حاشية فاروق وحَوارييه - من الذين كان لهم نفوذ يستمدونه منه . . واشتروا للمقاتلين فى فلسطين من أبناء جيشنا العظيم أسلحة لضرب صدور حامليها من الخلف بدلا من أن تُصيب العدو من أمام . . ولعبت الأهواء المريضة أقذر لُعبة ضد مصر وشعبها وجيشها فى حرب فلسطين . . !! وكأنَّ المؤامرة حِيكَت لِيُدفن الجيش هناك ، وتعود بقاياه متخمة بالهزيمة الماحقة التى تُعجزه تماما عن أن يكون مصدر إزعاج لفرعون الصغير فى مقبل الأيام . . وتولَّى إذاعة الفضيحة على الرأى العام الأستاذ حلمى سلام والأستاذ إحسان عبد القدوس . ثم سارت بها الصحف والأحزاب ، والمعلقون ، والخطباء . . كان الحريق المتمثل فى الأسلحة الفاسدة الابن الشرعى للحريق المتمثل فى اغتصاب فلسطين . . حيث تلاهُما الحريق الأكبر يوم - ٢٦ يناير -

وقبل هذين اليومين والحريقين - يوم قرار إنشاء دولة إسرائيل . . ويوم تولَّت عصابة فاروق شراء الأسلحة الفاسدة وتسليح الجيش بها - كان هناك أيام أخرى عاد فيها وعاثَ « نيرون » . . ! لعل على رأسها يوم - ١١ نوفمبر عام ١٩١٧ - حيث تجشأ وزير خارجية بريطانيا « تصريح بلفور » الذى ضمن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وباركته أمريكا وأيدته فَوْر صدوره . . !!

ونستطيع أن نرى « نيْرون » يشعل النار فى كل مقدراتنا طوال الحقْبة التى قضاها الاستعمار البريطانى منذ مجيئه عام ١٨٨٢ - إلى يوم حَمل عصاه على كاهله ورحَل إلى غير عودة . . !!

● ● ●

وأخيرا لا آخِراً - جاء « نيرون » يوم - ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ - وكان لذلك اليوم قصته : -

فالوفد وحكومته بزعامة الرئيس الجليل « مصطفى النحاس باشا » ضاقوا ذَرْعاً بالبرود الانجليزى الذى تعالج به بريطانيا مطالب مصر ساخرة بها وبزعمائها . . والشعب كله أيّامئذ ، فرغَ صبره وضاق صدره وقرر أن يفرض - لا أن يَعْرِض - قضيته على بريطانيا التى خرجت من الحرب العالمية الثانية ذليلة عَليلة كليلة مَدينة ، عُريانة من لقبها القديم « العُظمى » . . ولْيَدْعُ إليه من التاريخ عام « ١٩ » بثورته وتضحياته . . !!

واستقبلَ « النحاس باشا » بالإجلال والامتثال نبض الشارع ، وعانَق أمل الجماهير . .

وإنّا لَماضُون مع أيامنا بين اليأس والرجاء ، وإذا بنا نُفاجأ ذات يوم بنبأ هزّ من الناس أعماقَهم ذلك أن حكومة الوفد قررت دعوة البرلمان إلى جلسة استثنائية .. وأقبل المواطنون جميعا بعضهم على بعض يتساءلون : ماذا هناك ؟؟

وأذكر أن إحدى المجلات الاشتراكية ، أو اللواء الجديد سألتنى ضمن حديث صحفى طويل ، عن ماذا عسَى سيُثار فى تلك الجلسة الاستثنائية ؟؟ فأجبت : واحدا من ثلاث :

إلغاء المعاهدة .. أو إعلان الجهاد ضد قوات الاحتلال .. أو استقالة الوزارة ..

وسألنى مندوب المجلة : وهل استقالة الوزارة تحتاج إلى جلسة برلمانية استثنائية ؟؟

قلت : هذه المرة نعم ، لأن رئيس الحكومة لن يرفع استقالته للملك .. بل سيرفعها إلى الشعب ممثلا فى نُوابه .. ولاتجادلنى بالدستور . فالشعب الآن والحكومة معه فى ثورة .. وللثورات دستورها ، وقوانينها !!

وكان هذا رأيى فعلا ..

● ● ●

وجاء اليوم المشهود من اكتوبر - ١٩٥١ - ودخل النحاس باشا قاعة البرلمان وقد تجسَّدت فيه روح ماضِينا كله - من أحمد عرابى - إلى مصطفى كامل - إلى محمد فريد - إلى سعد زغلول :

— « حضرات الشيوخ والنواب المحترمين « لقد انقضى وقت الكلام ، وجاء وقت العمل .. « سنواجه جميع الاحتمالات .. ونذلل كل العقبات .. « وستعرف أمتنا الخالدة كيف ترتفع إلى مستوى الموقف الخطير » ثم استدعى من التاريخ رُوح التاريخ .. ومن الربيع رُوح الربيع .. وصاح بصوت كأنه القدر :

« ياحضرات الشيوخ والنواب المحترمين :

« من أجل مصر ، وقعت معاهدة ٣٦ »

« ومن أجل مصر ، أطالبكم اليوم بإلغائها »

● ● ●

وقامت قيامة الغرب لاسيما بريطانيا وأمريكا .. وبدلا من أن مصر كانت تتسوّل استقلالها وتقرع الأبواب لكى تفتح لها - دون جدوى أو فائدة - استقبلت بريطانيا صباح يوم ٩ أكتوبر فى هوَس وجنون وحيْرة وهَوان .. فالعصا الغليظة التى كانت تهدد بها مصر قد سقطت من يدها المرتعشة ، والتقطتها مصر بيد قوية .. !! وتحركت كل أجهزة الاستعمار فى لندن وفى القاهرة وفى عواصم حلفائه .. وكنّا نطالع أخبار هذا الهلَع فى الصحف ونستمع له فى الاذاعات فنضحك ونضحك .. ويسأل بعضنا بعضا : « مَن بَعثنا من مَرْقَدِنا » ؟ !!

وفى الجانب الآخر وقفت الحكومة المصرية تُملى شروطها وتُعلن مطالبها ..

أما الشعب ، فكان على دِين زعيمه الجليل .. الزعيم ألغى المعاهدة ليلا .. وجحافل الشباب خرجت إلى الشارع حاملة بعض نسخ المعاهدة وراحت تمزقها وتدوسها بالأقدام . !!

●●●

تُرى هل انتهى موقف الحكومة عند إلغاء المعاهدة؟؟ لا .. بل تقدمت الصفوف وقادت الثورة التي أعلنها الشعب على جيش الاحتلال .. وإنى لفى زيارة لعمِّى الأستاذ «عمر خالد» ذات يوم إذْ لَقيت هناك ابن عمى الضابط بالداخلية «بهاء عمر خالد» ..

وكان من الطبيعى أن يدور الحديث حول الحدَث العظيم .. ورأيته يتحدث بلغة غير مألوفة من نظرائه ضباط البوليس ، فمضيت أنصحه وأحذره من استخدام أسلوبه التحريضى خارج بيته حتى لايعرض نفسه ومستقبله لخطر أكيد .. وهنا قهقه عالياً وسألنى : من أين يجىء الخطر ؟؟ قلت من وزارتك ورؤسائك ، بل ووزيرك .. فوضع راحتَيْه على كَتِفَى وقال :

— يا ابن العم - فيك من يكتم السر ؟؟ وزارتى ورؤسائى - كلنا الآن «عصابة» مُسلَّطة على الاستعمار البريطانى .. ثم قهقه ثانية وقال : ووزيرنا هو رئيس العصابة .. !! ثم راح يقص علىَّ بعض التفاصيل :

ففى الساعات التالية لإلغاء المعاهدة تحت قبة البرلمان ، كان «فؤاد سراج الدين» فى مكتبه بوزارة الداخلية يخطط للمعركة القادمة لا محالة ، والتى لن يكون فى وُسع الحكومة الوقوف بمعزل عنها ..

واختار ابن عمى الضابط «بهاء عمر خالد» ليمثل وزارة الداخلية فى تنشيط وتنظيم حركة الفدائيين مع اللجنة العليا التى شكلت لهذا الغرض برئاسة الأستاذ «أحمد أبو الفتح» ..

وأخبرنى «بهاء» أن حكومة الوفد وراء كل رصاصة يطلقها الفدائيون على معسكرات الاحتلال ، ووراء كل قنبلة .. وأنها هى التى حرضت ونظمت مقاطعة العاملين بتلك المعسكرات ، وقامت بإلحاقهم جميعا بوظائف حكومية - وكان عددهم أكثر من أربعمائة ألف عامل .. !! وأنها تمنح كل العون المادى والمسلح لـ«كتائب التحرير» التى يقودها «عزيز باشا المصرى .. وأنها تتولى إرسال الأطعمة والأسلحة لكل الفدائيين .. وأنها حظَرت على الطيران البريطانى التحليق فى أجواء مصر بغير إذن سابق .. كما حرَّمت على جنود الاحتلال مغادرة معسكراته . وبعبارة واحدة - لم يبق إجراء تتخذه دولة فى حالة حرب مع دولة أخرى إلا اتخذته مصر ضد الوجود البريطانى فى مصر سياسيا وعسكريا واقتصاديا ..

ولما حَمِىَ وطيس المعركة ورأت بريطانيا أنها قد أُحيطَ بها راحت تبحث عن مَخرج .. فطلبت من حكومات فرنسا وتركيا والولايات المتحدة أن يشترك سفراؤها مع السفير البريطانى فى طلب تهدئة مصر أو لَىِّ ذراعها .. فتقدم الأربعة إلى وزير خارجيتنا الدكتور «محمد صلاح الدين»

بمذكرة رفضتها الحكومة الوفدية . .

وتوالت ضربات الشعب لمحتلى أرضه ومغتصبى دياره . . وفقدت بريطانيا برودها المعروف عنها فأمدت قوات الاحتلال بمزيد جلبته إلى مصر . . ومضت تضرب فى لهاث وسعار أبناء الأمة الثائرة . . وكثر سقوط الشهداء رجالا وشبابا ونساء بل وأطفالا . . وخرجت الألوف فى أكثر البلاد العربية والاسلامية متظاهرة تهتف بحياة مصر وسقوط بريطانيا . . بل وفى بلاد أخرى ، لاهى عربية ولا هى إسلامية مثل الصين واليابان ـ مع أن اليابان كانت فى مأتم كبير لم تجف بعد أحزانها منه ـ وذلك بسبب القنبلة الذرية التى أمر بإلقائها على « هيروشيما » و « ناجازاكى » الرئيس الأمريكى « ترومان » فدمرتا تدميرا . . وكانت القنابل الذرية تلك أول استخدام للسلاح الذرى فى تاريخ البشرية كلها ، وباءَ « ترومان » بإثم يفوق إثم « قابيل » أول آدمى لوث روحه بالدم حين قتل أخاه « هابيل » . . !!!

● ● ●

سدرت بريطانيا فى غيها وإجرامها . . حتى لقد قررت نسف قرية بأسرها تقع قريبا من السويس ، وتسمى « كفر عبده » . . وأصدر « سراج الدين باشا » أمره إلى بوليس السويس أن يتصدى للجريمة الفاغرة فاها . . والتقى الجمعان . . ولكن جيش الاحتلال كان أقوى فأزال القرية من الوجود . . !!!

ثم أغراهم هذا النصر الرخيص والدنىء على المزيد من عدوانهم ، فزعموا أن مقر محافظة الاسماعيلية يشكل تهديدا لهم وخطرا عليهم « !!! » وطالبوا بإخلائه فوراً . .

وكانت الأخبار تترى ساعة بساعة . . ورحنا ـ نحن المواطنين ـ جميعا نتساءل : ماذا ستصنع الحكومة ووزير الداخلية بالذات ، إذا دقت الساعة معلنة انتهاء فترة الإنذار . . وكان الرأى الراجح بيننا أن الحكومة ستتراجع ، وأن وزير الداخلية سيؤثر « المسايرة » على « المخاطرة » . . وماهو إلا وقت وجيز حتى أعلن المذيع الكبير « جلال معوض » عن بيان بالغ الأهمية سيذاع بعد قليل . .

وكان صوت « جلال معوض » فى تلك الأيام فيلقاً وحده . . يبعث إلقاؤه ونبراته وصدقه من الحماس ما لايكاد يبلغه عشرة خطباء مفوهين . . !!!

وأذيع البيان :

« أيها المواطنون :

« أصدر صاحب المعالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية » أمره إلى قوة بلوك النظام المصرية المرابطة فى دار المحافظة بالاسماعيلية أن ترفض طلب الانجليز بالانسحاب ، وأن تقاوم حتى النهاية دفاعا عن مصر وعلمها وحريتها وكرامتها » . . !!

ولن أجد الكلمات التى أسْكُب فيها مشاعرنا بعدما سمعنا هذا البيان . . ؟ !!

كنا نعلم علم اليقين أن بضع عشرات من رجال البوليس لن تصمد أمام جيش الاحتلال الرهيب والمَقِيت .. ولكن أليست التضحية أزكى عناصر المقاومة ؟؟ وألَيْسَت هى قبل كلى شىء - بل قبل النصر ذاته - التى تجعل للحياة معنى وشرفا ؟؟ لماذا ترك الله العظيم رسله الكرام يُعانون ويُضطهدون ثم يُضحون ويُضحون ؟؟ أليس لأن التضحية آية صدقهم ، وشرف جهادهم ، وأروع قدوة يتركونها لأممهم ؟؟ هنالك فرحنا بقرار وزير الداخلية مع إدْراكنا سلفاً لعواقبه . .

● ● ●

اعتصمتْ قواتنا بمكانها شاحذة بنادقها وأحاط المجرمون بمبنى المحافظة والْتَفُّوا حوله الْتفاف الأفعى حول فريستها ، وأطلقوا مدافعهم فهدّموا من المبنى ما تهدّم ، وقتلوا من رجالنا مايقارب التسعين شهيدا . . وحزنت مصر دون أن تنسى أنها فى عيد !!! ألا فا حفظوا تاريخ ذلك اليوم الممجَّد يارجال . - ٢٥ يناير ١٩٥٢ - وقفوا تحية لشهدائه الخالدين . .

نشرت صحف العالم النبأ وأذاعتْ به إذاعاتُه مُنكِرة جميعها ومستنكرة ، حتى بين الدول التى أنكرَت علينا حقنا فى إلغاء المعاهدة . . !! أما فى بلادنا ، فقد أثار العدوان كل الحفائظ وحرك الاضغان والأحقاد على الحكومة البريطانية وقادة قواتها فى مصر . .

● ● ●

وجاء يوم - ٢٦ يناير - . .

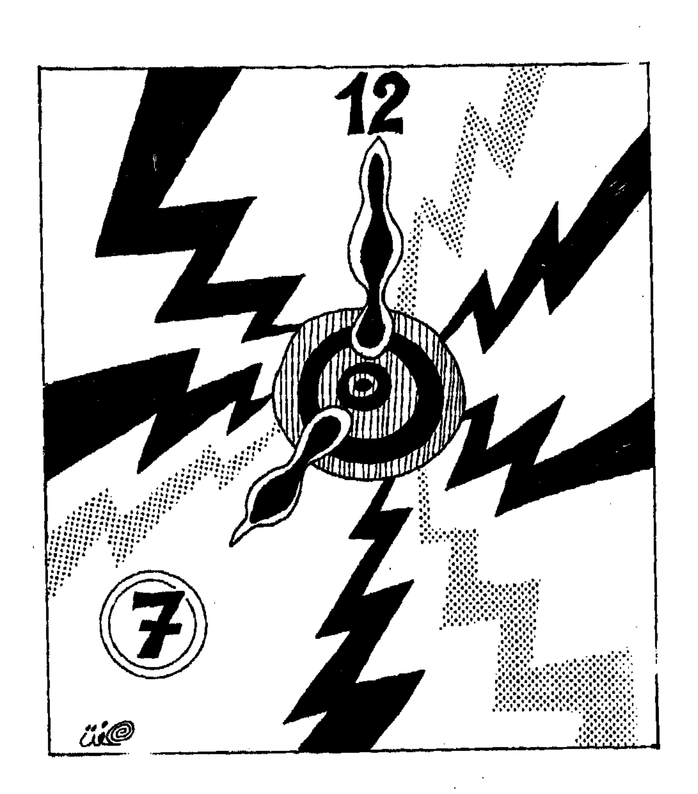
وإنى لأعبُر يومها بعض شوارع القاهرة أتبيَّن أثر العدوان وتأثيره على المواطنين . . إذا بى ألتقى بحشد هائل من رجال البوليس - ضباطا وجنودا - تنتظمهن مظاهرة لَجبة يهتفون ويتصايحون وكان من الطبيعى أن أتبع جمعهم وأمضى فى مسيرتهم . . ومَضوْا يُغِذّون السير حتى بلغوا رئاسة الوزارة . . كان العدوان الأثيم قد غَصَّ حلوقهم بمرارتَيْن - الأولى ترك بضعة عشر من إخوانهم تحصدهم مدافع جيش . . والثانية : حجم الجريمة التى اقترفها الانجليز . . !! ثم تابعتْ سيرها إلى قصر عابدين وأنا فى أثرها وهناك سمعت أن « شيكوريل وشملا » يحترقان . . فأسرعت نحوهما . . ومنهما إلى غيرهما حيث كانت الحرائق كأنها فى سباق - أيّها يحرق أكثر ، ويُدمِّر أكثر . . !! وسيطرت النار على وسط القاهرة ثم تجاوزتْه إلى أحياء أخرى . .

وحتى الآن لم يُعرف كيف بدأت الحرائق ، ولا مَن الذى بدأها ودبَّر لها . . وإن كنتُ - كما رأيت - أؤكد دور الغوغاء واللصوص فى الحرائق كلها . . ومن عجب أن محكمة ثورة ٢٣ يوليو عندما استدعت فيها بعد « فؤاد سراج الدين » كمتهم كانت أبرز التهّم الموجهة إليه - أمره إلى حرس مبنى محافظة الاسماعيلية بالمقاومة إلى النهاية ثم تعجب أكثر حين ترى ثورة يوليو ذاتها - تتخذ من ذلك اليوم بالذات عيداً سنويا للشرطة . . !!

عندما دمَّر الحريق من القاهرة مادمَّر ، وتلَمَّظ ببقيتها ليأتى عليها ـ توجه وزير الداخلية إلى قصر عابدين داعيا الملك إلى إصدار أمره للجيش كى يسيطر على الموقف الأليم والفوضى الضاربة .. ونزل الجيش إلى شوارع القاهرة بعد أن كانت أرقى متاجرها وفنادقها قد أُحرقت وبادَتْ ..

وفى يوم ٢٧ يناير وافق البرلمان على إعلان الأحكام العرفية ، وتعيين « النحاس باشا » حاكما عسكريا .. ومُنع التجول بأمر الحاكم العسكرى طِوال الليل وفى الليلة ذاتها أقال الملك حكومة النحاس باشا وألّف « على ماهر » الوزارة الجديدة .. وكان أول تصريح له قوله : إننى سأسير على نهج سَلَفِى العظيم .. وبذلك ضمن تأييد الوفد ومجلس النواب لوزارته .. ولم يمكث على ماهر إلا قليلا حتى استقال وخلَفه « نجيب الهلالى » .. ثم استقال هو الآخر وخلَفه « حسين سرى » ثم تولّى بعد حين .. وعاد « نجيب الهلالى » .. وهكذا اضطربت الأمور بين يدى الملك اضطرابا راح يُرهِصُ بتغيير شامل وعميم ..





بيان السابعة صباحاً ..

فى الصباح الباكر من يوم الأربعاء ـ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ وفى تمام الساعة السابعة صباحاً ، استقبلت الأسماع بيانا مُذاعا من الجيش ـ يتلوهُ ـ كما علمنا يومئذ الضابط « محمد أنور السادات » :

— إلى الشعب المصرى ..

« اجتازتْ مصر فترة عصيبة فى تاريخها من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم فى الأيام الأخيرة .. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش .... وتسبَّب المرتشون المغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين ..

وأما فترة مابعد هذه الحرب ، فقد تضافرت فيها عَوامل الفساد . وتآمر الخونة على الجيش .. وتولى أمره إما جاهل ، أوخائن ، أو فاسد . حتى تُصبح مصر بدون جيش يحميها .. وعلى ذلك ؛ فقد قمنا بتطهير الفساد وتولىَّ أمره فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم ، وفى خلقهم ، وفى وطنيتهم .. ولابد أن مصر كلها تتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .. وأمّا من رأينا اعْتَقَالهم من رجال الجيش السابقين ؛ فهؤلاء لن ينالهم ضرر . وسيُطلق سراحُهم فى الوقت المناسب .. وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش كله اليوم أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية .. وأنتهز هذه الفرصة وأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة أن يلجأ إلى أعمال التخريب والعنف ؛ لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة ليس لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه متعاونا مع البوليس .. وإنى أطمئن الإخوان الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم .. ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم ..

« والله ولى التوفيق »

ooo

هذا هو أول بيان أذاعه الجيش ، وقد أثبتّناه كله ، وبنَصِّه لمناسبته التاريخية .

خرج الناس أفواجا وزُمَرا يتساءلون عن النبأ العظيم .. وبدأوا يتعرفون إلى اللواء « محمد

نجيب » باعتباره القائد المخطط والمنفذ .. هذا الذى تكشفت الأيام فيما بعد عن أن حركة الجيش اتخذته واجهة تُقنع القوات المسلحة بكافة ضباطها وجنودها أن ما حدث قادم من أعلى المستويات فى الجيش .. ولكن ـ هل الذى حدث يومئذ كان ثورة ؟؟ أم حركة ؟؟ أم انقلابا ؟؟

أما الضباط الأحرار ومن يُشيرون عليهم ، فقد أسموها « حركة » وتشبثوا بهذه التسمية حتى يُطمئنوا الذين يُحاذِرُون من تدخلهم بأن الأمر أهون من أن يُخيف أحدا .. وأن المسألة لا تعدو أن تكون إصلاحا للقوات المسلحة ..

وإنى لأذكر أننى أيامئذ كتبت مقالا لمجلة « اللواء الجديد » استجابة لرغبة الصديق الراحل الأستاذ فتحى رضوان .. تحدثت فيه عن « ثورة » ٢٣ يوليو .. رافضا تسميتها بالحركة فإذا المقال يظهر وقد استبعِدت كلمة « ثورة » ووضع مكانها كلمة « حركة » !! ومرة أخرى أسأل : هل كان ما حدث ثورة ، أم حركة ، أم انقلابا ؟؟

●● فى رأيى أن الثورة أعلنت عن مَقْدِمها فى ذلك المساء الذى أعلن فيه « مصطفى النحاس » إلغاء المعاهدة .. كان هذا القرار وما تلاهُ من مقاومة وتحدٍّ لجيش الاحتلال البريطانى بمشاركة الحكومة نفسها ـ ثورة بكل ما للثورة من دلالة ومعنى ..

●● وفى يوم ٢٣ يوليو ، تحوَّلت الثورة إلى « انقلاب » .. يحمل كل خصائص الانقلاب ..

— فهو قد تم عسكريا أزْجَتْه القوات المسلحة أو بعض فصائلها ..

— ولم يشارك فيه الشعب إلا بالفرح الذى استقبله به ..

— وتشكَّل مجلس عسكرى بَحْت من بعض الضباط أسموه « قيادة الثورة » .. ولم يكن فيه مدَنى واحد .. !!

— ثم إنه لم يلبث إلا قليلا حتى اعتراه ما يعترى الانقلابات العسكرية من فتن ونزاع .. فبدأنا نسمع عن محاولات شتى لانقلابات مُضادَّة ولُهاثٍ يدفع إلى طلب السلطة من جانب والتمكين للسلطة من الجانب الآخر . حتى عُزل من الوصاية على عرش الملك الطفل ، واعتقل وقُدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن واحد من أسبق الضباط إلى احتراف الثورات أو الانقلابات . هو « القائم مقام رشاد مهَنّا » .. !!

كما حُوكم بعض العمال وأُعدِم اثنان منهم هما : « خَميس ، والبقَرى » .. !!

— ثم بعد حين بدأ الصراع بين « مجلس قيادة الثورة » برئاسة « جمال عبدالناصر » .. وبين القائد الذى لولاه ما نجح الانقلاب هو « اللواء محمد نجيب » الذى أعطى العمل العسكرى اقتناعا بجدِّيته وحتمية نجاحه لدَى جميع ضباط القوات المسلحة والشعب .. وانتهى الصراع بعزله عَزلاً مُهينا واضطهاده على نحو غير إنسانى . بل غير آدمى .. !!

ο ο ο

قلتُ إن الثورة الحقيقية بدأت يوم إلغاء معاهدة - ٣٦ - . . بَيْدَ أنها أُجْهِضَتْ كثورة ، وتحوَّلت إلى انقلاب يوم - ٢٣ يوليو - . . لكنْ ، لِأنّ أهدافها كانت تعيش في ضمير الأمة . وتتواثَبُ بين تطلّعاتها ، وتربُّصاتها ، فلم يكن ثَمَّةَ بُدٌّ من أن تفرض نفسها ، وتُنحّى الانقلاب من طريقها ، أو تطويه تحت جَناحِها وتنقله إلى بُعْدٍ جديد يعمل في خدمة غاياتها وأبعادها وأهدافها . .

وهكذا بدأت تتجلّى كثورة سياسية ، واجتماعية . . فأنشأت الإصلاح الزراعي على أنقاض الإقطاع . . وعممّت مجانية التعليم . . ونقلت الفلاح المصرى من « فلّاح أفندينا » ، إلى « فلّاح الثورة » . . !! وأتمّت كثيرا من إنجازات حكومة الوفد والحكومات الأخرى قبل الثورة . . تلك الانجازات التى كانت قد حاوَلتها فى ظروف صعبة . . من إنشاء مدراس ومعاهد وجامعات ومستشفيات ومِن توسُّع فى إرسال البعثات إلى الخارج . . وبعد حين تبنى السَّد العالى ، وتملأ الريف المصرى كله بالكهرباء ، وبما يتبع الكهرباء من حضارة فى المعيشة والحياة . . !!

ooo

وأما وجهها السياسى فبدأت ملامحه تتجلّى بعزل فاروق والنظام الملكي ثم تتكون مع تحرير الجيش من احتكار تسليحه الذى كانت تختصّ به نفسَها بريطانيا . . واتجهَتْ الثورة إلى بعض دول أوربا الشرقية « الشيوعية » مثل « تشيكوسلوفاكيا » فاشترت منها أسلحتها . . ثم أعلنتْ تأميم « قناة السويس » الذى أدّى إلى حرب العدوان الثلاثى عام - ١٩٥٦ - . . ذلك العدوان الذى أدّى بدوْره إلى إنهاء الاستعمار البريطانى لمصر إلى الأبد . . !!! ورفَضَتْ الانضمام إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط مع أمريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا . .

وأسْهَمتْ إسهاماً فعّالا فى إنشاء كتلة « عدم الانحياز » . . وانطلقت الثورة تبنى لمصر كيانا دوليا وعالميا . .

وليس من الإنصاف أبدا إنكار دور « عبدالناصر » فى هذا كله ؛ فقد كان أمامه ووراءه ، وعن يمينه وعن شماله . . !!

ooo

ولكن التوجُّه السياسى للثورة تنكَّر لأعظم مَوْعِدَة وعَدها الشعب - وهى : الديمقراطية . . فقد ألحقت الثورة بنفسها البوَار والدمار حين أخلفتْ وعدها ونكثَتْ عهدها بإقامة ديمقراطية سليمة . . فلم تُقِمها لا سليمة ولا عَرجاء !! بل أصدرت قراراتها بحلّ البرلمان ، وتسريح الأحزاب ، ووقفْ الدستور . . وإعلان فترة انتقال ، لم تنته حتى يومنا هذا ، والأدِلة كثيرة ، والشواهد أكثر . . وحسبنا منها ما سُمّى « قانون تنظيم الأحزاب » !!

فقد كان على الراغبين فى تأليف حزب ، أن يُخطِروا وزير الداخلية . . ولا يقف الأمر عند مجرد الإخطار ، بل لهذا الوزير حق الاعتراض . . ورفع النزاع إلى محكمة القضاء الإدارى . . ولم

يكْفِهم هذان القيدان المقيِّدان لحرية تكوين الأحزاب . بل زادُوها ثالثا متناهيا فى السخف والإعنات ، فأعطوا وزير الداخلية الحق فى حَلِّ الحزب ويعرض النزاع مرة أخرى على القضاء الإدارى . . !!

وهذا مالايزال يحدث حتى اليوم مع بعض التغييرات التى لا تمسُّ جوهر المشكلة ولا تُحرِّر الصحافة من ذلك القيد الثقيل . . وأذكر أنه فى الأيام الأولى للثورة جاءنى رسولان يحملان إلىَّ رغبة « جمال عبدالناصر » فى الانضمام لهيئة التحرير . .

ولَعلىَّ لا أكون قد نسيت إذا حددتُ أحد الرسولين بالأخ الأستاذ « محمد أبوالفضل الجيزاوى » المحامى وعضو مجلس الشعب الآن . . فاعتذرت بأننى منذ شهر مارس ١٩٥٠ وبعد ظهور كتابى « من هنا نبدأ » اتفقتُ مع نفسى على أن أتفرغ للكتابة مُعْرضا عن المشاركة فى أى حزب أو هيئة أو جماعة ، ومُصمماً على أن يكون « الفكر السياسى » وليس « العمل السياسى » هو منهجى وسبيلى مع السياسة . . !!

○ ○ ○

ولم تكد الثورة تعلن عن فترة الانتقال ، مُلْغية المؤسسات الدستورية حتى توجَّسْتُ خِيفَة من مستقبلها ومستقبل مصر معها !!

هنالك سألت الله ربى أن يُلهمنى رُشْدى ، ويوفقنى لما يجب علىّ أن أصنع . . ولم يكن هناك سوى أوراقى وقلمى . . وأذكُر أننى عَجِلْتُ إلى هذا العمل عَجَلة أمْرضَتْنى ، فقد قررتُ يومها أن أدْحَض إجراءات الثورة تلك ، بكتاب أسميته : « الديمقراطية . . أبدا » وقررت أن أنتهى منه تأليفا وطباعة فى أقرب فرصة ميسورة . .

وهكذا وصلتُ ليلى بنهارى حتى أتممتُه فى زمن قياسِى . . وفى الأمسيات الأخيرة من تأليفه أصابنى إعياء شديد تحوّل فى إحداها إلى انهيار ينذر بالموت وأقسم بالله إن أمانىَّ ليلتئذ تركَزَّت فى أن أنتقل حَبْوًا أوزَحْفا . ـ فما كنت قادرا على الوقوف ـ إلى الغرفة التى يرقد فيها أطفالى الثلاثة فأقبِّلهم وأعانقهم . ثم أموت بجوارهم . . !!

○ ○ ○

حدثنى صديقى الراحل الشيخ « أحمد حسن الباقورى » أنه كان والرئيس عبدالناصر وبعض رفاقهم فى رحلة بالبحر الأحمر . . وإذا الرئيس الراحل يخرج عليهم من غرفته حاملا كتاب « الديمقراطية . . أبداً » وسُئل : ما هذا الكتاب ؟؟ فأجاب : إنه لخالد محمد خالد ـ ظهر منذ أيام . . ولما أطلعهم على عنوانه ، سأله أحدهم : وماذا يقول فيه ؟؟ أجاب : إنه يشتُمنا . . !!

وأحسَب أن الرئيس عبدالناصر قال ذلك مَازحا « فليس فى الكتاب كله كلمة نابية واحدة ، اللهُّم إلا إذا اعتُبر شَتْما مطالبتى الجيش أن يرجع إلى ثُكناته ، ويدَعَ الديمقراطية تمضى فى مُستوى

أغلى إلى حيث تكون حِصْنا للوطن وملاذا .. ورَوْحا ورَيْحانا .. !!

يقول الشيخ الباقورى : إن أحد الحاضرين من مجلس قيادة الثورة قال لعبدالناصر : لماذا لم تُصادِره وأنت الآن وزيرا الداخلية ؟؟

أجاب ـ رحمه الله تعالى ـ إجابة أذكُرها له ، فأشكره عليها : إنه لا يليق بنا أن نصادر أول كتاب للكاتب الذى كتب فى عهد فاروق : « مُواطنون ، لا رَعايا » !!!

ثم كأنه أراد أن يقطع الطريق على مقترح المصادرة ، فقال : إننا إذا صادرناه سينتشر أكثر ويَذِيعُ أكثر ..

وإلى هنا لم تنته قصة هذا الكتاب مع « عبدالناصر » .. ولا مع جريدة « المصرى » ..

أما « عبدالناصر » فقد وقف يخطب فى حفل كبير انتظم عشرات الألوف ـ وكان بمدينة المنصورة واستشهد خلال خطابه بفقرتين من الكتاب دون أن يشير إليه طبعا .. !!

أما الفقرة الأولى فهى :

ــ « علىَ الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهِله ويرحَل .. أو فَلْيُقاتِل حتى الموت دفاعا عن وجوده » !!

وأما الفَقرة الثانية فهى :

ــ « إن الأمة التى تُساوِم على حريتها تُوقِّع فى ذات الوقت وثيقةَ عُبوديتها » !!

وفى اليوم التالى لهذا الحفل السياسى الضخم كانت المُلْصَقات تغطى جدران الأبنية فى القاهرة ، حاملة الفقرتين ومُمهورتين بتوقيع « جمال عبدالناصر » !!!

ولقد فرحتُ به وفرحْتُ له .. فالكتاب لم يكن قد مضى أكثر من أسبوع على ظهوره .. ومع ذلك قرأه وفهمه وانتقى من أطاييه ما يُضمِّنه خُطبَةَ .. إنه إذن لَرجل كبير ؟!!

أما قصة الكتاب مع جريدة المصرى ـ ردَّ الله غُرْبَتَها ـ فقد نشرت فى عمود الاجتماعيات الفقرتين اللتين انتحلَهما « عبدالناصر » وكتبت تحتهما : مَن قائل هذه الكلمات المضيئة ؟؟ إنه خالد محمد خالد فى كتابه الجديد ـ « الديمقراطية .. أبداً » ..

كان « عبدالناصر » لا ينسى .. ويومئذ أحسستُ أنه لن يغفر للمصرى هذه الغمزة الواشِية !! وأغَصَّ نفسَه أكثر أنه فى تلكم الأيام كانت العلاقات قد بدأت تسوء بينه وبين « محمد نجيب » .. فوقف يوما يخطب وقال : إنهم يأخذون أفكار غيرهم وكلامهم ، وينسبونه لأنفسهم وهم يخطبون الجماهير .. !!

وفى اليوم التالى وقف « عبدالناصر » يخطب ويغمز « الرئيس نجيب » غمزاً مُسِيئا ..

فسألت الله العافية لى ولجريدة المصرى بعد أن رأيت كتابى الذى رفض عبدالناصر مصادرته قد أصبح طرفا فى النزاع ومصدر غُصَّة ومرارة من هَمزات وغَمزات جريدة المصرى واللواء « محمد

نجيب » . . تلك الهَمزات واللَّمَزات التى أثارت حفيظة « عبدالناصر » وألْهبتْ أضغانه . . !!

ooo

قبل إقالة « محمد نجيب » خرج وأخرج من مجلس قيادة الثورة عُضوان من أكفأ أعضائه . . أما الذى أُخرج ، فكان « يوسف صديق » رحمه الله . . الذى كان نزوله وقواته إلى الشارع قبل الموعد المضروب للزحف سببا لا ريب فى أهميته لنجاح حركة الجيش . . لقد كان الرجل فى تلك الليلة « البُوصْلَة » التى حددت ووجَّهت المسَارَ كله نحو الفوز والانتصار . . ومع هذا فقد قضى بقية حياته مضطَهَداً من الثورة وشَقِياً بها أتْعسَ ما يكون الشقاء . . !!

هذا الذى أُخرج . . أما الذى خَرجَ مُؤْثِراً أن يعتزلهم والطريق الذى اختاروه ـ فكان « خالد محيى الدين » ـ وسأحدثكم عنه بعد قليل . .

ooo

فى أواخر عام ـ ١٩٥٣ ـ كانت الجهود تمضى سريعة لإصدار جريدة « الجمهورية » التى أرادتها الثورة منبرا لها ، وبلغ من اعتزاز « عبدالناصر » بها أن جعل ترخيص إصدارها ، وملكية امتيازها باسمه هو . . ولقد دُعيت للكتابة بها على النحو الذى ستطالعونه فيما بعد . .

كان هناك مقال يومى سياسى ورئيسى يشترك فى كتابته نَفَر كريم وكان يشرف على الصفحة التى تُنشر تلك المقالات عليها صحفى شاب ـ فى ذلك الزمن البعيد طبعا ـ وقبل أن يشتعل رأسه شيبا ـ اسمه « عبدالوارث الدسوقى » . . ولم أتعرف به ولا إليه فى الجريدة إنما كان أول لقاء بيننا فى مكتب الصديق الكبير الراحل الشيخ « أحمد حسن الباقورى » وزير الأوقاف أيَّامَئِذ . . فرأيت فيه إنسانا طيب النفس قوى الخُلُق دَمِثاً سَلِساً ، برىء الصدر من الضِّغْن والغَرض . .

سأله الشيخ الباقورى ونحن جُلوس معه :

— هِيه يا شيخ عبدالوارث . . ماذا يقول الناس عنا ؟؟؟ وفى لهجة « فَلاَّحِى » أجاب الأستاذ عبدالوارث :

— ناس ؟؟ ناس إيه ؟؟ هُوَه عَادْ فيه ناس ؟!! يا وَقْعة زَىُّ بعْضِيها !! الله يرحم الناس !!! وضحك جمْعُنا . . وقلت لنفسى :

— الجدَع ده يظهر إنه عضو فى جمعية « القَرْفانين » !! ومن ذلك اليوم نشأت صداقة حميمة بينى وبين ذلك المتمرِّد القرفان !! ورأيت بعد ذلك نفَرا من خِيار إخواننا الكتاب والصحفيين يحبونه ويحترمونه ويعتزّون بصداقته فاقترحت الإنعام عليه بلَقب « العمدة » . . لقيت العمدة . ذات يوم صُدفة فى شارع سليمان ، وكان فى طريقه إلى الجريدة ، كان يبدو مكتئبا مُتأزم الأسارير ، كأنما ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَت . .

سألته : أى بأس بك ؟؟

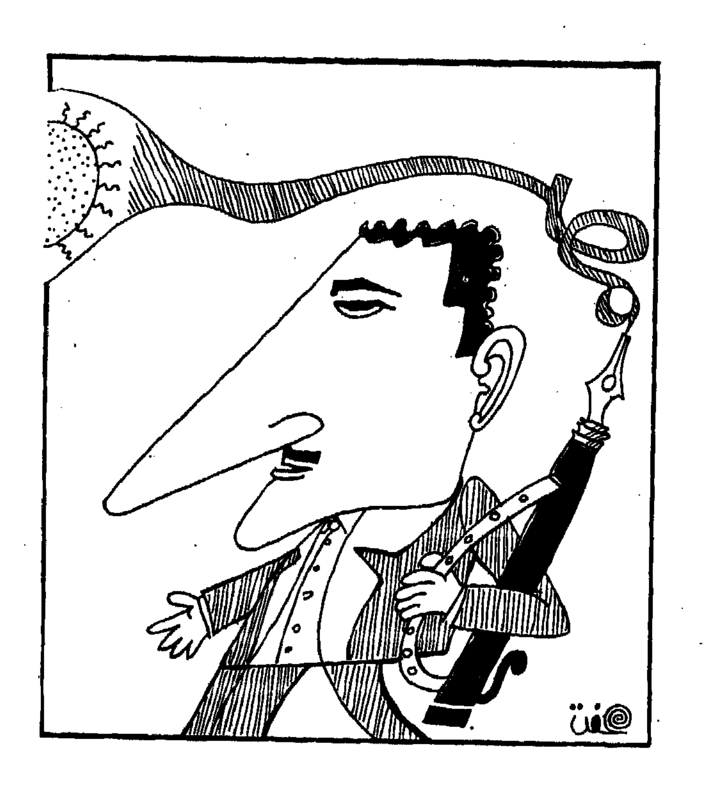
فأجابنى : يا أخى أنا ماشى أحدث نفسى : لِسّه حَاعيش يوم جديد ؟؟
قلت له : الحياة حلوة - يا أستاذ عبدالوارث - . .
أجاب : هى فين الحياة ؟ إحنا عايشين فى غابة . . تسرح فيها الذئاب وتمرح . . ثم ضحك وسألنى : بذمتك إنت مش خايف تبقى « سعيد » ؟؟
قلت له : سعيد مين ؟؟
قال وهو مستمر فى ضحكه : سعيد بتاع « أنجُ سعد ، فقد هلك سعيد » ؟!!
صِحْتُ : أعوذ بالله . . فال الله ولا فالك . . أنا يا عم عاوز أكون « سعد » لَديْك مانع ؟
ومضى كل إلى سبيله - هو إلى عمله . . وأنا إلى التفكير العميق فى الكلمة التى ذكرنى بها : « أنجُ سعد ؛ فقد هلَك سعيد » !!

ooo

لقد أفلحت الثور فى أن تجعل شعار المواطنين وتَعويذة كل مواطن ومَهرَبه وخَلاصَة هذه المَقُولة : « انج سعد ، فقد هلك سعيد » . . وحين تصبح هذه الصيحة « النائحة » هُتاف أمة ، ودعاءها ، ونَجْواها فقد تُوُدِّعَ منها . . !! إذ حيث تحكم الديمقراطية وتَسُود يصبح شعار الناس « ابْق سعد ؛ فقد إمِنَ سعيد » . وحين تكون مُواطنا ، بل شيئا فى بلاد « وَاقِ الْواق » تصبح فَزْعَتُك : « أنجُ سعد فقد هلك سعيد » فلا يعنيك إلا أن تنجو ولو هلك الناس جميعا .
والدكتاتور - أىّ دكتاتور - لا يقرّ قراره ، ولا يهدأ سُعاره إلا حين يرى خططه الجهنمية قد أثخنت عزَمات الرجال بهذا الشعار !! لقد رددت هذا القول من قبل فى كتابى « دفاع عن الديمقراطية » وقلت : إن هذا كان أخطر ما رزأت به الثورة الشعب ، بعد مُروقها من الديمقراطية ، وإيثارها الدكتاتورية . . فَعملاً بهذه النصيحة : « انج سعد ؛ فقد هلَك سعيد » تحوَّلت حقائق حياتنا إلى أكاذيب ضخمة . . وتم تطويع كثير من الناس كى يتجسَّسوا حتى على آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم وعَشائرهم . . وتردَّى الرأى ، وحَلَّ مكان الصدق زيف رخيص . .
أما حق الشعب فى الرفض ، وفى المعارضة ، وفى حرية الاختيار ؛ فقد دُفِنَ كل هذا تحت الثَّرىَ الدامى بمصرع « سعيد » !!!

ooo

كنت أكتب كثيرا فى هذه المعانى ، وأُعبرّ عن هذه الأفكار ، وأُغنىِّ للحرية بكل معازفى . . بيد أنى لم أكن لقيت « عبدالناصر » حتى أبلُوَ أمره ، وأستشرف سِرَّه . . إلى أن جاء يوم . . ودَعُونى أنقل لكم من ذاكرتى ما حدث وما سبق أن احْتواه دفاعى عن الديمقراطية . .



حــوار مع عبـد النـاصـر !!

ذات يوم عام ١٩٥٦ ، اتصل بى تليفونيا الأخ الكبير فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى قائلا : إن الرئيس جمال عبدالناصر يريد أن يراك ، وقد قال لى : إننى أريد أن ألتقى بخالد كصديق ، ولهذا فضلت أن أستقبله فى منزلى غدا الساعة ....

وفرحت بهذه الدعوة رغم نفورى الشديد من لقاء السلاطين .. !!

وفَرِحْتُ لأنه كان عندى كلام كثير عن الديمقراطية أريد أن أقوله للرئيس .. وعلى الرغم من أن هذا الكلام الذى أحمله فى نفسى كان امتدادا لكلام كثير حملته إلى القراء وإلى الرئيس الراحل معهم ، مؤلفاتى ومقالاتى ، إلا أننى توقعت أنه فى مثل هذا اللقاء الخاص يمكن أن أضيف إلى ما قلته فى كتبى شيئا جديدا ومفيدا ..

وقبل أن أتوجه بكم ومعكم إلى ذلك اللقاء ، أود أن أخبركم أن عنقى مطوق بجميل لعبدالناصر لن أجحده ما حييت ..

لن أجحده رغم اعتراضى على الأسلوب الذى حكم به البلاد ، وللنتائج والكوارث التى أفضى إليها هذا الأسلوب ..

ذلك أن « عبدالناصر » سخره الله لحمايتى ، منذ ظهر كتابى « الديمقراطية أبدا » فى الشهور الأولى للثورة وحتى اليوم الذى لقى فيه ربه .. ولولا هذه « الحماية » لاسيما بعد الحوار الجرىء الذى أجريته معه فى اللجنة التحضيرية عام ١٩٦١ .. أقول : لولا هذه الحماية لما كان أحد إلا الله يعلم ما كنت سألقاه !!

وحرص « عبدالناصر » رحمه الله على سلامى وسلامتى كان نابعا من إعجابه واحترامه لفكرى ولقلمى ، وإيمانه العميق بإخلاصى وبصدقى فى كل ما كنت أواجه به الثورة من نقد وتمحيص .. وحين كان يُسأل : لماذا يتركنى أقول ما أشاء ، كان يجيب : ان « خالدا » مخلص فى نقده ثم إنه غير موتور ..

بل على الرغم من أنه فى بدايات الثورة كان من أمانيه الكبار أن يرانى بجانبه ، إلا أنه فيما بعد قال للشيخ الباقورى : إننى صرت أفضل أن أقرأ لخالد « المعارض » على أن أقرأ لخالد « المؤيِّد » .. ومعذرة إذا رأى بعض القراء فى مقالى هذا . وربما فى المقال التالى له ،

ما يعتبرونه حديثا عن النفس . . وأملى أن يصدقونى إذا قلت : إن هذا غير مقصود بحال . إننى حين أتحدث عن الديمقراطية فلا مكان لنفسى فى هذا الحديث . كل ما فى الأمر أننى حين أكون أمام وقائع ارتبطت بى وارتبطت بها ، فلا معنى حينئذ لا ستخدام الكلمات المبنية للمجهول . . !!

توهجت ظنونى بأمل مسرف فى إمكان اقناعه بفكرى الديمقراطى ، رغم ما كان قد سبق ذلك من أحداث تمثل فيها إصرار الثورة على اختيار « الدكتاتورية » نظاما للحكم . . !!

ولابد أن ألخص هنا بواعث هذا الأمل ، الباسم والعريض . .

فأولا : كان هناك حرصه على تتبع كتاباتى حتى قبل الثورة . .

ولقد حدثنى صديق له قديم ، أنه كان يشترى من جيبه الخاص مئات النسخ من كتابى « مواطنون لا رعايا » الذى صدر عام ١٩٥١ ، ويقوم بتوزيعها على الضباط الأحرار . .

وأما ثانيا : فحين صدر كتابى « الديمقراطية أبدا » بعد قيام الثورة طُلب منه أن يصادر الكتاب - وكان يومها وزيرا للداخلية - فرفض مصادرته !! كما ذكرت من قبل . .

رفض إذن مصادرة الكتاب الذى كان صيحة عالية تزجر الثورة عن مواصلة السير على طريق الدكتاتورية الوعر - ثم كان من أول القراء الذين اقتنوه وقرأوه واستوعبوه . . !!

وأما ثالثا : فحين كانوا يُعِدّون لاصدار « جريدة الجمهورية » اتصل بى تليفونيا - الرئيس الراحل أنور السادات رحمه الله ، وكان يومها « مشرفا » على دار التحرير وجريدة الجمهورية ، ورغب فى أن نلتقى بمكتبه فى الجريدة . . والتقينا . . هو ، والأستاذ حسين فهمى ، الذى كان قد اختير رئيسا لتحرير الجريدة ، وأنا . . وأبلغنى السادات بأن عبدالناصر حمله « رجاءه » لى أن أكتب فى الجمهورية . ولما هممت أن أعتذر . ضحك الرئيس السادات وقال : اسمع هذه ليست رغبة « جمال » وحده . إنما هو « قرار » اتخذه مجلس قيادة الثورة بالاجماع . . !! وقبلت . . وأعددت فعلا المقال الأول. وأعطيته الأستاذ حسين فهمى . وعُرضت المقالات المرشحة لاختيار واحد منها يُتوج العدد الأول من الجمهورية . .

وكان رأى الرئيس الراحل السادات والأستاذ فهمى أن يحمل العدد الأول مقالا لأستاذ لنا كبير . . أستاذ جيلين ، لا جيل واحد . وطلب الرئيس الراحل - عبدالناصر - أن يطلع على هذه المقالات . ثم أمر فور اطلاعه أن يحمل العدد الأول مقالى . وكان عنوانه : « لكى نَرْبَح الثورة ، لا خطوة إلى الوراء » . .

هذا - إذن - رجل يعشق كلماتى وكتاباتى . وأنا منذ شبابى الباكر أُغنى للديمقراطية وأقرع أجراسها . أفلا يُعطينى ذلك كله الحق فى أن احتوى ، بل فى أن يحتوينى أمل عريض ومُسرف فى أن ينتفع بكلماتى وبإيمانى لاسيما إذا تحادثْنا وجهاً لوجه ؟؟

وأما رابعا : ففى عام ٥٤ ، أو ٥٥ لست أذكر تماما ـ جمعتنى صدفة كريمة بأول لقاء مع الصديق العزيز الأستاذ « خالد محيى الدين » . .

و « خالد محيى الدين » رجل يستحق الحب والاحترام . اننى احترم فيه صدقه واستقامة ضميره وصفاء روحه . . احترم فيه ذلك الشاب الذى حين سقطت كل سلطات الدولة وسلطانها فى حجر قادة الثورة وكان « خالد » فى مقدمتهم . ورأى نفسه بين خيارين : اقتناعُه ، أو طموحه ، قذف بطموحه وراء ظهره ، وعانق اقتناعه فى ولاء نادر وباهر وعظيم . . !!

أقول : جمعتْنى صدفة طيبة به فى نادى الجزيرة الذى صحبنى إليه صديقى الكبير الراحل الدكتور « عبدالعزيز عتيق » رحمه الله . . وكنت رابع أربعة شهدوا هذا اللقاء . . وتحدثنا وحملنا شُجون الحديث إلى هنا وهناك . .

كانت القطيعة بين خالد وعبدالناصر فى ذلك الحين فى ذروتها . . وفى لقائى هذا معه فاجأته بسؤال ـ قلت له : ان جمال عبدالناصر بعد الثورة قد بدأنا نعرفه ، وسنعرفه أكثر مع الأيام . لكن « عبدالناصر » قبل الثورة ماذا كان . . ؟؟ لقد كنتَ صديقه الحميم . فهل تلخصه لى فى كلمات . . ؟

وأجاب « خالد محيى الدين » وهو فى قطيعته ونفُوره مع عبدالناصر قائلا : « كان شابا يعيش فى مِثالياته » . . !! وسرحتْ خواطرى إثر سماعى هذه الشهادة ، ثم عادت لتهمس فى روعى أن إنقاذ عبدالناصر من أن يقع فى خطأ الدكتاتورية هو واجبنا . . وعلينا أن نحمل أملا وثيقا وعميقا فى إرجاع هذا الرجل إلى مثالياته . . !!

وبهذا الأمل الذى سقت لكم بعض بواعثه وهواتفه ومبرراته ، ذهبت فى صحبة أخى الشيخ الباقورى للقاء الرئيس . .

○ ○ ○

استقبلنا ـ رحمه الله ـ فى حجرة مكتبه محييا فى حفاوة ووُدود . واستغرق اللقاء ساعتين ونصف الساعة ، لم تضع منها دقيقة واحدة فى غير الحديث عن الديمقراطية . . !!

كنتُ قبل هذا اللقاء قد كتبت مقالا أنقد فيه دستور ١٩٥٦ ، وكان أول دستور تقوم الثورة بإعداده . وكان قد تم نشره قبل كتابة مقالى عنه بأسبوع . كان الدستور يتضمن الإعلان لأول مرة عن قيام « الاتحاد القومى » . . وكنت قد رفضت فى مقالى فكرة هذا التنظيم ، واعتبرته ممثلا لنظام « الحزب الواحد » . . وذهبتُ بالمقال إلى جريدة الجمهورية التى كنت قد انقطعت عن الكتابة فيها من زمن بعيد . واعطيت المقال للمرحوم « السادات » وكان لايزال مشرفا عليها ـ وفى الصباح كان قراء الجمهورية يطالعون المقال ويعجبون !!

بدأ الرئيس الراحل حديثه قائلا : لقد قرأتُ مقالك عن الدستور ، وعن الحزب الواحد . .

وعلى فكرة ، هل حذف منه شيء ؟؟ اننى حين حدثنى الأخ أنور بالتليفون عن المقال طلبت منه أن يقرأه علىّ . . وكان يقترح حذف بعض العبارات فطلبت بعد سماعى له أن ينشره دون حذف كلمة واحدة منه . . !!

قلت : وهذا هو الذى حدث فعلا يا سيادة الرئيس ، وشكرا جزيلا لك . .

ثم راح يقص بإسهاب خلافه مع أعضاء مجلس قيادة الثورة حين اجتمعوا ليتدارسوا نوع الحكم الذى سيحكمون به البلاد . . قال : إنهم أجمعوا على اختيار الدكتاتورية - على الأقل لفترة انتقال قد تقصر وقد تطول - وتمسكت أنا بالديمقراطية وتعددت الاجتماعات والمناقشات . . وأمام إصرارهم ، كتبت استقالتى من مجلس القيادة وأرسلتها إليهم ولزمت بيتى . . ثم فوجئت بهم يزورونني جميعا ، وظننت لأول وهلة أنهم غيروا رأيهم . . وإذا بهم يفاجئوننى بهذا السؤال :

ألست تؤمن بالديمقراطية ؟ قلت : طبعا . . قالوا :

أليست الديمقراطية هى حكم الأغلبية ؟ قلت : طبعا . .

قالوا : انك لست أمام أغلبية فحسب ، بل أمام إجماع . فلماذا لا تحترمه ؟! قلت : إننى احترمه . ولكن لما كنت غير مقتنع به ، فإنى أنسحب ، حتى لا أتحمل مسئوليته ، وامضوا أنتم فى طريقكم . .

ولست أدرى لماذا انتابنى إحساس ضاغط وأنا أصغى لحديثه . أن هذا الموقف ، وهذه الاستقالة كانا مناورة ذكية أعدها - عبدالناصر - ليستخدمها فيما بعد عندما يدعو لاستخدامها داع . . !! وانتهى من سرد تفاصيل هذه الواقعة إلى أنه اقتنع بأن بقاءه يُشكل ضمانا للديمقراطية بينما اعتزاله لن يحقق هذا الضمان . . فاسترد استقالته وبقى . .

وانتقل إلى نقطة أخرى من الحديث فقال : أنت تعلم أن الثورة قامت لتنقذ مصر من فساد كبير . وأنت نفسك تحدثت عن هذا الفساد فى كتبك وفى مقالاتك بمجلة « روزاليوسف » - هل نسيت ؟؟ وأجبت مبتسما : لم أنس يا سيادة الرئيس . ولكن إذا نحّينا جانبا الفساد اللا محدود والذى كان يمثله ويفرزه النظام الملكى والذى كان الشعب كله يرفضه ويقاومه بقوة - تبقى بعد ذلك « الأخطاء » التى كنت مع غيرى من الكتاب ننقدها ونقاومها بأقلامنا ، لكن بالنسبة لى على الأقل - لم يكن شجْبى لهذه الأخطاء يعنى أية إدانة للديمقراطية بسببها . .

قال : وهل أنت راض عن الديمقراطية التى كانوا يحكمون بها مصر قبل الثورة . . ؟

قلت : إذا أذنت لى ، فأنا راض عنها كل الرضا ، مع اعترافى بوجود الأخطاء التى شابت تطبيقها . ولعل سيادتك تذكر أن كتابى « الديمقراطية أبدا » الذى رفضت مصادرته قد جعلت شعاره المسطور على غلافه « إن أفضل علاج لأخطاء الديمقراطية ، هو المزيد من

الديمقراطية » . .

وهنا رأيت ضوء الفرح يغمر أساريره ، وقال وهو يضحك وكلتا عينيه على الأستاذ الباقورى : ومن أخبرك برفضى مصادرته . . ؟! وكان فضيلة الشيخ الباقورى هو الذى أخبرنى فعلا بموقفه ذاك من الكتاب . .

واستأنف الرئيس الراحل حديثه قائلا : على كل حال فإن الثورة قد قامت لترد للشعب حقوقه . وكان مكانك الطبيعى فى الدفاع عنها ـ لكنك من أول يوم وقفت تعارضها ، وأنا أسأل: إذا لم تدافع أنت عنها فمن يدافع . . ؟ فلان . . وذكر اسما كبيرا . .

وأجبته قائلا : أمَّا « فلان » هذا ، فهو فى رأيى وطنى ومخلص ، وهو بوطنيته وبإخلاصه قادر على هذا الدفاع . لاسيما وهو يتمتع بقدر هائل من الذكاء والقدرة على الاقناع . .

أما عن موقفى من الثورة ، فأنا لا أنكر أبدا أنك وإخوانك الثوار قد حررتم ظهور آبائنا ، ولقد صنعتَ لمصر كثيرا ، وإن شاء الله ستصنع لها أكثر . غير أن خيرَ ما تسديه لتاريخك الشخصى ولأمتك ، أن تجعل من مصر « أثينا » أخرى . .

وهنا قاطعنى ضاحكا : « يا أخ خالد أيام أثينا لم تكن هناك قنابل ذرية » . . وفهمت لحظتها أنه يشير إلى التغيرات الهائلة التى طرأت على المجتمع الدولى ، فانتهزت هذه السانحة : وقلت : يا سيادة الرئيس : إنه لن ينقذ العالم من القنابل الذرية ولا مما تفرضه من مواصفات وأخطار سوى الديمقراطية . . إن الديمقراطية لغة الشعوب جميعا وسفينة نجاتها الوحيدة . . ثم اننى أعتقد أن الولاء للثورة يُحتِّم الولاء للديمقراطية . . فالديمقراطية هى وحدها القادرة على حماية مكاسب الثورة . . وفى غيابها يكون الخوف من ضياع هذه المكاسب واردا وكبيرا . .

وهنا جاءت المفاجأة ، لا أقول المذهلة بل « الذاهلة » فقد أحسست أن الكلمات التى قالها قد غَشِيهَا من الذهول ما تغشّى سامعيها !!

قال ـ وكأنى أسمع الآن رنين كلماته وتصميمها : « طيب . . واحنا مستعجلين على ايه . . إحنا قاعدين فى الحكم عشرين سنة (!!) ولما الثورة تثبت أقدامها وتنتهى من أعدائها نبقى نعمل الديمقراطية اللى أنت عاوزها » . . !!

إحنا قاعدين فى الحكم عشرين سنة ؟؟! ولا أذكر ماذا قال بعد هذا فلم يكن سمعى معه . . إذْ رُحْتُ مع خواطرى المبهورة والمأخوذة أتساءل : مع أية قوة أخذ « عبدالناصر » العهد على المكث فى الحكم عشرين سنة ؟!!

كانت كلماته تلك التى قالها فى هدوء عجيب ، وفى ثقة مُفرِطة تمثل جرأة خارقة لأحلامه ، كما تمثل بصيرة نافذة لالهامه . . فقد لبث فى الحكم فعلا عشرين عاما إلا عامين . . إذا اعتبرنا بداية حكمه منذ قيام الثورة وهو اعتبار صحيح ، لأنه منذ اليوم الأول للثورة كان الحاكم

الحقيقي للبلاد .. !!

هذا كان جوهر الحوار الذى دار بيننا فى لقاء استغرق كما قلت ساعتين ونصف الساعة . وقبل انتهاء اللقاء بحوالى خمس عشرة دقيقة دخل المرحوم المشير عبدالحكيم عامر . وجلس مستمعا ومنصتا ـ وحين أردنا الاستئذان فى الانصراف ـ الشيخ الباقورى وأنا ـ قال عبدالناصر وهو ينظر إلى ساعته : إحنا ماشيين سوا . وعلى فكرة أنا وعبدالحكيم رايحين سينما . تيجوا معانا .. ؟!

وشكرناه . وودعنا حتى المكان الذى كانت تنتظره فيه سيارته ..

وفى طريق عودتنا سألنى فضيلة الشيخ الباقورى : ما رأيك فيما رأيت وفيما سمعت ؟؟

وأجبْتُه : هذا رجل ليس فى داخله عِوَج . على الأقل من خلال صدقه مع نفسه .. لقد اختار طريقه .. ولله الأمر من قبل ومن بعد .. !!

ولا أذكر أن النوم أغمض لى جفنا طوال تلك الليلة ـ لقد استلقيت على ظهرى فى فراشى ، وراحت عيناى تُحملقان فى فضاء الغرفة وسقفها ، وأنا استعيد كل خلْجة ارتسمت على وجهه ، وكل كلمة انفرجت عنها شفتاه ، وأسلمتُ نفسى طويلا للذهول الذى ناداه استعادتى لعبارته الحاسمة والحازمة .. المستعلية والمستيقنة .. « احنا مستعجلين على إيه ؟ إحنا قاعدين فى الحكم عشرين سنة » !!

وحين ترامى إلى سمعى صوت مؤذن الفجر وهو ينادى : الله أكبر . الله أكبر ، كان مستقبل الثورة والأمة ، وعبدالناصر نفسه ، ثم الديمقراطية من قبل ومن بعد ، قد انْداحَ أمامى على طريق مُضاء .. لقد حسَمَتْ تلك العبارة ظُنونا كثيرة كانت تملأ روعى ، ظنونا كان أكثرها يشوبُه رجاء وأمل . بل قولوا : إنه « أمل » كانت تشوبه بعض الظنون !!

إن مما أفاء الله علىّ من أنعُمه ، نعمة التفاؤل .. وشعارى دائما الذى أذكّر به نفسى هو ذا : « غداً ، تُغرّد العصافير » !! ولو حدث وطاف بى طائف من اليأس فإن هذا الشعار وارتباطى به لا يزولان كل الذى يحدث تغيير طفيف فى العبارة فتصير « بعد غد ، تغرد العصافير » .. !! أى أننى مع تغريدها على موعد لا تخلفه . والمسألة لا تعدو أن تكون مسألة توقيت .. غدا .. إذا سارت الأمور رُخاء .. وبعد غد .. إذا تلكأتْ فى الطريق ..!!

وتكاد مواقف التشاؤم واليأس تكون مجدودة ومعدودة فى حياتى ..

لقد أخذتكم معى إلى هذا المنحنى من الحديث لأخبركم أن غاشيه من غواشى التشاؤم قد أحكمت قبضتها علىّ فى تلك الليلة بعد مغادرتى دار الرئيس !!

ان الرجال الذين قرروا البقاء فى الحكم عشرين عاما ، قد اختاروا فى نفس الوقت الوسيلة التى ستمكنهم من هذا البقاء . وهى لن تكون « الديمقراطية » بحال ..

ان « الديمقراطية » لا تدُلِّل الحكام إلى هذا المدَى البعيد ، وهى فى مجالها المتجدد دوما تمنح أبطالها حق اعتلاء المسرح فى توقيت محسوب ، ولوقت معلوم . .

إن « تشرشل » الذى ربح لبلاده أشقى الحروب ، والذى كان المعلقون السياسيون الكبار يقولون بُعَيْدَ انتهاء الحرب العالمية الثانية : ان الحلفاء ربحوا الحرب بثلاثة ـ العتاد الأمريكى . . والجندى الروسى . . وتشرشل . . !

هذا العبقرى الذى قلما تلد الأرحام مثله ، أعطاه الشعب البريطانى ظهرَه ، فسقط وحزبه معه فى الانتخابات التالية للحرب ـ ولم يكن سقوطه فيها انتقاصا لقدره ، ولا نسيانا لدوره ، ولا غمْطا لعظمته . إنما رأى شعبه الذكى الذى أحسنت الديمقراطية تربيته وتوعيته أن حزب العمال أقدر من حزب المحافظين على مواجهة مشكلات السلام العويصة المعقدة فاختاره ليحكم بريطانيا ، مانحا تشرشل ـ فى احترام كبير ـ أجازة مفتوحة . . !!

ومثل هذا حدث من الشعب الفرنسى لمحرر فرنسا الجليل والعظيم « ديجول » . . وفى كل بلاد العالم الديمقراطى . تُحرك الديمقراطية رجالها وزعماءها من خلال حركتها الذكية المجددة والمتجددة بباعث من إيمانها أن البقاء للأصلح ، وأنه لا يصح إلا الصحيح . . !!

وما نبأ « بوش » منا ببعيد !!

من أجل ذلك كله ، أدركت البعد الحقيقى لكلمة « عبدالناصر » ـ إحنا قاعدين عشرين سنة ـ وأدركت الوسائل التى سيعتمد عليها فى تحقيق ذلك . . !!

وقلت لنفسى : لا بأس ، فبعد غد ـ لا غداً ـ تغرد العصافير . . !!

○ ○ ○

تُرى لماذا نكص على عقبيه هذا الشاب الذى كان يعيش فى مثالياته كما وصفه ـ فى صدق ـ خالد محيى الدين ؟!

وكيف اختفى من حياته الرجل الذى استقال من قيادة الثورة تعصبا للديمقراطية على حد قوله . . ؟!

وإلى أى مدى كان انعكاس يقينه بأنه سيحكم مصر عشرين سنة .. على سلوكه السياسى ؟؟

لقد كان يردد كثيرا بين خاصته هذه العبارة : « انى أوثر أن أكون زعيما (مهيبا) على أن أكون زعيما محبوبا » . . !!

وفى سؤال أخير : ماذا خسر عبدالناصر ، وماذا خسرنا معه ؟

إن تمحيص الإجابة عن هذه الأسئلة لهو أصدق درس وأعظم عبرة لكل من يريد أن يتذكر أو يخشى . .

ولكل من يريد أن يعرف سَواء السبيل . .

ooo

لبث الرئيس الراحل « جمال عبدالناصر » يحكم مصر طوال السنوات التى استشرفتْها أحلامه ، وأوعز اليه بها الهامه . .

ولعل « عبدالناصر » كان قد طاف بخواطره وتفكيره طائف الديمقراطية مرة أو مرات خلال سنوات حكمه ، بيد أننا لم نشهد لهذا أثرا فى مسلكه السياسى طوال تلك السنوات . بل شهدنا العكس متمثلا فى مضاعفات مستمرة لآثار الحكم المطلق الذى آثره على الديمقراطية وآثره معه فى السنوات الأولى للثورة رفاقه من أعضاء مجلس القيادة !!

ولقد كان ، وكانوا معه سيحملون للديمقراطية من الولاء والوفاء ما يعصمُهم من التورط فى أخطاء النظام الذى اختاروه ليحكموا به البلاد ، لوأنهم كانوا على حظ من الوعيْيْن السياسى والوطنى . . إذن لعلموا أنهم بحركة الجيش التى قادوها لم يكونوا أكثر من أبطال المشهد الأخير فى الملحمة العظيمة التى صنعتها الديمقراطية عن طريق شعب تمرس بها فى مستوى عال ورفيع من مستويات العمل السياسى . ولتذكروا تلك المواقف والمشاهد والمخاطر التى أكدت سيادة هذا الشعب وتفوقه على كل محاولات وضعه تحت الوصاية ورفضه لُكل الشكائم التى أريد بها أن تضبط حركته وفق هوى القصر وحكومات الأقلية . .

وبعد سنوات قليلة من عمر الثورة سيتفلت الكثير من أعضاء قيادتها واحدا تلو آخر ، حيث يبقى « عبدالناصر » وحوله القلة المتبقية من رفاقه يحكم البلاد والعباد بمشيئته الواحدة ، وبقراره الواحد ، وباحساسه « الغامض » بأنه أحد الملهمين الكبار الذين تزجيهم « حركة التاريخ » لتبلغ بهم أمرا !!

والآن كيف بدأت الثورة تلج مأزقها الرهيب . .

كانت مصر قبل الثورة بعامين أوأكثر تموج موجا وتمور مورا بتيارات ثورية متعددة المنابع . . بيد أنها كانت كلها إلا قليلا تنتهى إلى « مصبُ » واحد يمثل جفاء لأمريكا ورفضا لسياستها ، لاسيما بعد موقفها من حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل حيث تأكد يومها اشتراك بعض العسكريين الأمريكان فيها ، ثم بعد اعترافها المبكر بإسرائيل . ثم بعد مواقفها المتواطئة من محاولات مصر المتساوقة بعد الحرب العالمية الثانية لتوقيع معاهدة بديلة لمعاهدة ١٩٣٦ ، يتم بها جلاء الانجليز عن البلاد . . يضاف إلى ذلك كله تنمرّ الولايات المتحدة وتطلعاتها المريبة إلى أن ترث التركة التى كان على الاستعمارين البريطانى والفرنسى أن يتخليا عنها طوعا أوكرها !!

وكانت الولايات المتحدة ترى ـ رغم ديمقراطيتها فى الداخل ـ وقْف التيارات اليسارية فى

الشعوب المتملمة بحكام يتمتعون بسلطة مطلقة .. !!

فى الشهور الأولى من الثورة أيضا كانت بعض الصحف الأمريكية والانجليزية تبثُّ الكلمات المسمومة فى نفس الاتجاه . وكانت اذاعتنا وبعض صحفنا تنقل هذا الذى يكتب ويقال . وإنى لأحفظ عن ظهر قلب إحدى تلك الهمهمات التى نقلت إلينا عن إحدى الصحف الأمريكية « إن الشعب المصرى سيجنى خيرا كثيرا إذا هو أسلم نفسه لأتاتورك مصر » !!

كانت تعنى بـ « أتاتورك مصر » قائد الثورة يومئذ الرئيس الراحل « محمد نجيب » . .. وكان « طُعْماً » شهيا بقدر ما هو خبيث . بيد أن « نجيبا » كان أذكى من أن يبتلع الطعم الذى ابتلعه الآخرون .'.

فى الشهور الأولى للثورة كذلك ، أذهل انتصار الثورة السريع والحاسم جماهير الشعب التى راحت فى بحرلُجى من النشوة والفرح تفقد اهتمامها بالخطوة التالية للثورة . . وللجماهير عذرها . . لكن لا عذر أبدا لأولئك الذين يفكرون بعيدا عن الأضواء والضوضاء التى تحكم تفكير أو بتعبير أدق ، تحكم مشاعر وعواطف الجماهير من مفكرين وكتاب ، وصحفيين ، وساسة . . وإنى لأذكر أنه حين أرادت بعض الصحف وبعض كتابها أن تذكِّر ويُذكِّرون بالديمقراطية فى استحياء شديد ، وقف أحد زعماء الفكر والأدب يقول فى حفل سياسى اقيم فى أرض المعرض بالجزيرة : « ما هذا الحديث الهامس عن الديمقراطية . . ! » .

« انى أخشى أن يُصاب الناس فى بلادنا بالبطَر » !!

وكتب أستاذ جامعى فى جريدة الأخبار : « أعتقد أن الثورة ستندم على أنها تركت بعض الرؤوس فوق الأعناق » !!

وأما تلك الهيئة الكبيرة التى كانت قادرة أكثر من سواها بل دون سواها على نصرة الديمقراطية ـ قبل أن تتمكن الثورة من قوتها الباطشة ـ فقد كانت من أكثر الناس إهمالاً للديمقراطية . . ؟!

ولعلهم ظنوا أنهم سيرثون الثورة فَوْر انتهاء جَوْلتها الأولى . .

وكان ذكاء « عبدالناصر » أكثر حدة من ذكائهم ، وحساباته أوفى دقة من حساباتهم . فراح يستأنيهم ويستمهلهم ويسايرهم حتى ثبت قدميه فوق الصخر الوثيق . . حيث وقع بعد ذلك وبعد حادث المنشية الغامض الصدام المروع الذى اسْتُعِر بينه وبينهم والذى انتهت جولته الأولى فى منتصف الخمسينات باعدام فريق من قادة الهيئة الكبيرة ، وانتهت جولته الثانية فى منتصف الستينات بإعدام فريق آخر . . وافضى فى كلتا الجولتين إلى اعتقالات واسعة وعنيفة ، تلاها داخل المتعقلات والسجون من القسوة والتعذيب مالا يكاد يخطر ببال !!

وهكذا استجمعت الثورة كل قواها وأحكمت قبضتها على كل شىء ، ولكن غاب عن رُشدها

كأنها أنها ـ فى نفس الوقت ، ولنفس السبب ـ دخلت مأزقها الرهيب !!

قديما قال حكيم : « السُّلطة المطلقة ، مَفْسَدة مطلقة » . . ومطالعة التاريخ تؤكد صدق هذه الحكمة تماما . ولو جئنا بقديس ثم مكنّاه من سلطان مطلق لفقد قداسته حتما وتحول إلى النقيض !!

لذلك نلتقى بعبدالناصر ـ ذلك الشاب الذى كان يعيش فى مثالياته ، وذلك الثائر الذى استهل أيام الثورة الأولى بتحمسه للديمقراطية . . نلتقى به وقد أغرته « السلطة المطلقة » بأسلوب مُبْهِظ وفادح لحكم مسيطر وعنيف !!

ولا نستطيع أن ننفى وجود دافع وطنى وراء استسلامه للحكم المطلق ، واحتواء هذا الحكم له . فلعله قد ظن أن هذا السلطان المطلق هو وحده الذى سيمكنه من تحقيق ما يريده من إنجازات ضخمة . .

وهذا هو الوهم العريض الذى يسلب من ذوى العقول عقولهم ، وينسيهم أن أعظم وأنبل انجاز تتفيأ الشعوب ظلاله هو منحها المزيد المُثْرى من عظمة الروح وسيادة الضمير ، وحرية الارادة ، وحق الاختيار والقرار وبعبارة واحدة ـ إثراء شخصية الشعب بكل ما يمكنها من السيادة فى اختيار مسيرها وصنع مصيرها . . الأمر الذى يستحيل وجوده فى ظل حكم شمولى وسلطان مطلق . .

لقد أعدم « ستالين » سبعة ملايين من الفلاحين الروس لمجرد أنهم عارضوا سياسة الحزب الزراعية . وفى الوقت نفسه شهدت فترة حكمه الكثير من الانجازات الكبيرة والضخمة التى لم تفلح فى توفير الحد الأدنى من الحرية للشعب ثم لم تفلح فى حجز « خروشوف » والحزب والشعب عن نبش قبره ولعنه وانتزاع جثمانه من مرقده بجوار « لينين » وإلقائه فى حفرة خربة وهو كظيم !!

دخل عبدالناصر المأزق ، وأخذنا معه . . ولن تلبث الأمور أن تعقدت بين يديه ثم راح يحل العقد بتعقيدات أعوص منها ، ويعالج الأخطاء بأخطاء أكثر ضلالا وجهلا !!

ومن المأزق انتقلنا معه إلى خواء موحش أسلمه وأسلم البلاد معه إلى التخبط والضياع . .

وإذا أردنا لهذا مثلا ، فلننظر كيف عالج أزمة انفصال سوريا عن مصر ، وتمزيق الوحدة بين البلدين . . لقد شكل لجنة تحضيرية تعد لمؤتمر كبير يناقش ما ستعرضه عليه اللجنة ثم يصدر قراراته . وحشد فى تلك اللجنة أكبر عدد من السياسيين والمفكرين والاقتصاديين وجاءت ليلة الافتتاح ، ووقف يُلْقى بيانه الذى سيتضمن طبعا خطته تجاه الانفصال . . وخيب البيان آمال الراشدين وما كان أقلهم بين أعضاء اللجنة الذين بلغ عددهم مائتين وخمسين عضوا . .

نادى « عبدالناصر » فى بيانه بضرورة فَرْضِ « العزل السياسى » وغير السياسى على من

تخشاهم الثورة على نفسها من المصريين .. !!

كان ذلك عام ١٩٦١ ، ولم يكن هناك من يملكون القدرة ، أو حتى من يغامرون بالتفكير فى الإغارة على الثورة .. ولكن هكذا شاء « عبدالناصر » أن يُحمِّل مصر ونفرا كبيرا من أبنائها الذين سيحملون فوق أعناقهم نير العزل ـ مسئولية الانقلاب العسكرى السورى الذى أعلن الانفصال !!

إن ثمة اعتبارات كثيرة تتطلب قدرا من التوسع فى تفصيلات هذا الموضوع وتلك الأزمة . فليأذن القراء لى فى سوق هذه التفصيلات ..

انفضّ الاجتماع الأول للجنة التحضيرية بعد انتهاء بيان الرئيس الراحل . وكان اليوم التالى فيما أظن يوم جمعة . فاستأنفت اللجنة اجتماعها يوم السبت ليبدأ الأعضاء مناقشة البيان . كنا نجلس متجاورَيْن . الأخ الكريم ، الشيخ محمد الغزالى وأنا .. وكنا قد اتفقنا معا بعد أن فاجأنا الرئيس بنظرية العزل التى تلقيناها بمرارة واشمئزاز أن ندخر كلمتينا إلى آخر اجتماع فى آخر ليلة .. فإن سبقنا أحد المتحدثين بما نتنويه من رفض للعزل اكتفينا بالقول : إننا نؤيد « فلانا » فيما قال .. وإذا لم يظهر هذا « الفلان » قلنا رأينا ـ كما ذكرت ـ فى الدقائق الأخيرة من آخر اجتماع ..

وافتتح الرئيس الراحل « أنور السادات » الاجتماع وكان رئيسا للجنة ، وشرع ينادى طالبى الكلمة من الأعضاء .. وتقدم واحد ، ثم ثان ، ثم ثالث .. الخ ، راحوا يستنكرون العزل كعقاب ، ويطالبون بما هو أقسى وأنكى .. قال أحدهم : « عزل إيه ؟ دول عاوزين المشانق » ..

من هم أولئك الذين يقترح ذلك الغضو أن يشنقهم ؟؟ لا أحد يدرى ولا هو يدرى !! ووجدتنى أهْمس فى سمع الشيخ الغزالى بهذه الكلمات : « إن الضمير الذى سيحكُم اتجاهات هذه اللجنة قد بدأ يتشكل الآن . وإذا لم نسارع إلى تطعيمه بالكلمة الصادقة والشريفة والشّجاعة ، فستخسر العدالة قضيتها ، وسنكون شركاء فيما سَيُفضى ذلك إليه من أوزار .. ووافقنى الشيخ الغزالى على هذا الرأى .. ومن فورى أشرت إلى الموظف المختص بجمع الأوراق التى تحمل أسماء طالبى الكلام . وعلى أثر انتهاء العضو الذى كان يتحدث من حديثه دعانى رئيس اللجنة لأقول كلمتى ..

بدأت حديثى هكذا ـ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وقف السياسى الأمريكى « وندل ولكى » وكان أحد المرشحين لرياسة الولايات المتحدة .. وقف يقول : غداة إعلان الحرب تنازل الشعب عن جزء من حريته للدولة كى تتمكن من إحراز النصر على أعداء الديمقراطية وأعدائها . والآن وقد انتهت الحرب بانتصارنا ، فإن ما أخذ من حرية الشعب يجب أن يرد

إليه . لا أقول بعضه بل كله . . ولا أقول غدا بل الآن . . وإذا لم نفعل ، فسيقول التاريخ إن الذين ربحوا الحرب هم الذين خسروها . . !!

ثم استطردتُ قائلا : وهذا أيها السادة ما أريد أن أقوله تماما . . فغداة قيام الثورة تنازل الشعب أو طُلب إليه أن يتنازل عن جزء كبير من حريته تمكينا للثورة من شق طريقها . والآن بعد هذه السنوات الطوال وقد ثبّتت الثورة أقدامها ، وارتفعت أعلامها ، فإن ما أخذ من حرية الشعب يجب أن يعود إليه ـ لا أقول بعضه بل كله . . ولا أقول غدا بل الآن . . وإذا لم نفعل فسيقول التاريخ إن الذين فجروا ثورة ٢٣ يوليو . هم الذين عادوا فاعتاقوا سيرها وزحفها !!

وساد القاعة وُجوم كئيب ، واستعرضتُ وجوه المستمعين فى لحظة خاطفة ، فرأيتُ جميع العيون تحملق فى وجهى بطريقة خشيتُ أن يصيبنى منها بعض التشتت والتثبيط ، فقررت لتوى أن أتم كلمتى ، وعيناى مُغمضتان !!

وانتقلت إلى سَوْق البراهين على أن الثورة لم تعد بحاجة إلى احتجاز هذا القدر الكبير من حرية الشعب . .

ثم واجهت ـ فى توفيق كبير من الله ـ فكرة العزل ، وأجهزت عليها إجهازا غير رحيم !!

وانتهت كلمتى التى استغرقت نصف الساعة أو تزيد والتى خيبت آمال الكثيرين . ولم يمنَّ على الأعضاء بتصفيقة واحدة (!) على الرغم من وجود قلة مبرورة لا أشك فى أنهم فاضت سرائرهم غبطة وشماتة !!

ولم أكد أبلغ مقعدى حتى بَصُرت بالأستاذ محمد فؤاد جلال رحمه الله ، وكان أول وزير للإرشاد فى وزارة « محمد نجيب » بَصُرْتُ به واقفا ورافعا ذراعه وطالبا الكلمة حيث دعاه « السادات » على الفور . .

بدأ محمد فؤاد جلال كلمته قائلا : عندما نُودِى اسم الأستاذ خالد محمد خالد فرحت ، وتوقعت أن أسمع من مؤلف « من هنا . . نبدأ » و« مواطنون لا رعايا » حديثا ثوريا كما عودنا . . لكننى فوجئت به يدافع عن العهد البائد. ويطالب بالرحمة لأعداء الشعب والإقطاعيين . وراح يُقَوِّلنى مالم أقل . . وقبل أن يستقر على مقعده مُنهياً كلمته ، كنتُ قد وقفت مُلوحا بذراعى للرئيس السادات الذى أعطانى الكلمة فورا . .

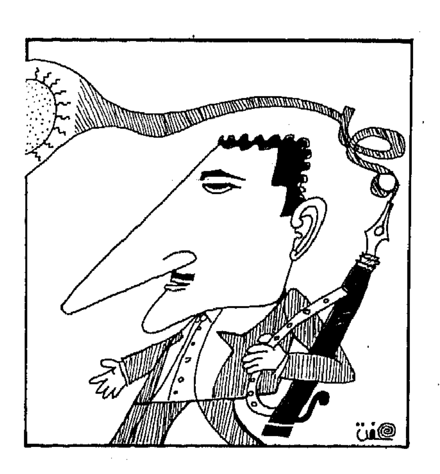
ورحت أسائل الأستاذ محمد فؤاد جلال : أين وجدتَ فى حديثى دفاعا عن الاقطاع وأين هذا الاقطاع حتى أدافع عنه ؟! ألم تنته الثورة من تصفيته منذ عهد بعيد ؟ . . ثم ما هذه التسمية « العهد البائد » التى تتخذونها عنوانا على فترة ملأها الشعب ببطولاته وبمقاومته وبزُحُوفه وباستخدامه الذكى للديمقراطية ، وحرصه الشديد على الحرية ؟؟

كانت كلمة الأستاذ فؤاد جلال فرصة باهرة هبطت علىّ من السماء إذْهيأت لى المناسبة

المواتية لأن أرد لجيل تلك الفترة - على الأقل - اعتباره . . وأن أسحق هذه التسمية الجائرة ، وأن أقدم للملايين التى كانت تتابع الجلسات عن طريق الاذاعة والتليفزوين طرفا من أمجاد تلك الفترة وبطولاتها وتضحياتها . .

وفى الصباح ظهرت الصحف واضعة على صفحاتها الأولى هذه العناوين - خالد محمد خالد يدافع عن العهد البائد . . خالد محمد خالد يطلب الرحمة لأعداء الثورة . . مُحمَّلة كلماتى الواضحة كل دخيل من القول وزور !! ولم تجرؤ صحيفة على نشر الكلمتين اللتين قلتهما فى تلك الليلة - عدا جريدة الجمهورية التى نشرتهما كاملتين . .

ولقد دفع الأستاذ ابراهيم نوار رئيس تحريرها ثمن موقفه الشجاع بعد شهرين . . ؟!!



عنـــدما تحــكم الجيــوش ؟ !!

كان « غاندى » قِدِّيس الهند ومحررها الأكبر يقول :
« إن غايتنا أن نحرر الهند من الاستعمار البريطانى .. ونُجَنِّبها حُكم القوات المسلحة ، لأن الأمة التى يحكمها الجيش لاتكون أمة حرة » .. !!
كلمات تناهَتْ فى الصدق والعظَمة .. ولو أن الشعوب تعيها وتعمل بها لوفّرتْ على نفسها الكثير من عَناء الحياة ونَزق المغامرات ..

وكلمة حق أقولها : ـ إن « جمال عبد الناصر » حاول بعد استقرار سُلطته ، وإحكام قَبضته أن يجعل الحكم مدَنيا خالصا ، ويَحُول بين الجيش وتطلعاته السياسية .. إما نأيا بالوطن عن مغامرات عسكرية وإما حِفاظا على نفسه ومنصبه من مفاجآت تلك الانقلابات ..

أقول : حاوَل .. لكنه أخفق فى محاولَته .. وظَلَّ الجيش يحكم حتى آخر أيامه .. بل إن سلطان الجيش امتد إلى تطويق « عبد الناصر » نفسه ، والتحَكُّم فيه .. ولقد اعترف بهذا ، حين وقف بعد النكسة يخطب ويقول : الحمد لله . انتهت دولة المخابرات .. !! ويقول أيضا : كانوا يُخوّفوننى من الشعب .. !! مَن الذين كانوا يخوفونه ، وعهدُنا به أنه لايخاف ؟؟ وماذا عسَى أن تكون دولة المخابرات هذه ؟؟

ألم يكن هو رئيس الدولة والجمهورية ؟ فهل كان يصطنعها للمخابرات ؟ أم أنها كانت دولة داخل الدولة . وكان يُعانى منها ويشقى بها ، ولم ينقذه منها إلا هزيمة ـ يونيه ٦٧ ـ .. ومن ثَم صاح صيحة الفرح والخلاص : ـ « انتهت دولة المخابرات » .. ؟؟ !! إنى فى كلماتى هذه لا أُحاسب « عبد الناصر » .. ولكنى أُنبِّه للعِظَة البالغة وللدرس العظيم .. وان كان الناس لايتعظون ، وان اتعظوا لايتحركون .. !!

● ● ●

كان واجبنا بعد نجاح الجيش فى حركته أن نستقبله بالزهور ، ونُودِّعه بالشكر الجزيل قائلين له : إن الجيوش فى كل الدنيا ليس لها برامج سياسية مدروسة تحكُم وَفْقَها .. وإن الديمقراطية السَّوِية والكاملة ، هى حاجتنا المُلِحَّة .. وإنها والحكم العسكرى لايجتمعان .. فعُدْ إلى ثُكناتك مشكورا مبرورا .. !!

سيقول قوم ـ وأنا معهم أقول ـ لو أن ذلك قد حدث ألم تكن الفوضى ستعصف بالبلَد وتُسْلمه إلى مصير غامض مجهول ؟؟

ثم هل كان بين رجال السياسة والأحزاب من يلعب الدور السياسى الباهر الذى لعبه « عبد الناصر » على مستوى العالم كله ؟؟ وفى شئون مصر بالذات ؟؟

هذان سؤالان لايخطئان الصواب . . وهما واردان ومقبولان لو أن « عبد الناصر » كان من أول يوم قد صاحَب الديمقراطية إيمانا ، وسلوكا . . إذن لَعَصَمتْه من الأخطاء القاتلة .

ولكن ، ماذا حدث ؟؟ حدث أن الفوضى التى خِفناها ، نمت وتفاقَمَتْ حتى اضطرت الثورة إلى مقاومتها بالعنف والارهاب . . فكانت كمن يُطفىء النار بقاذفات اللّهَب !!!

أما الدور السياسى الباهر الذى لعبه « عبد الناصر » فكان مغامرة ناجحة عاش إلى أن أجهزَت عليه مغامرة أخرى !!!

وهذه مِيْزة الديمقراطية ، فهى لاتعرف المغامرات والعمل فيها « أدَاء » وليس « مُغامرة » !!

ألم يكن الحال سيكون أفضل وأسْلَم وأحْكَم ، لو أن عُقلاء قومنا تشبثوا أيامئذ بالديمقراطية ، وأجمعوا على قلب رجل واحد على استمرارها فى مستوى أعلى وأُفق أسمى ؟؟ لكن الذى حدث جاء عكس ذلك تماما فساروا جميعا فى موكب التأييد المطلق إلا قليلا ممن هدَى الله . .

ولعلَّ الأجيال التى لم تشهد ذلك اليوم ستعجب حين تسمع أن الفئة القليلة التى آثرتْ يومئذ الوقوف مع الديمقراطية ، وأوجَسَتْ خِيفةً من تسلُّم الجيش مقاليد الحكم والسلطة ، كانت موضع استهجان واستنكار من كثيرين . . !!

وإنى لأذكر حين أصدرتُ كتابى « الديمقراطية . . أبدا » أن تصدَّى لى كاتب كبير بمقال فى مجلة « روزاليوسف » قال فيه : ـ إن خالد محمد خالد قد انتهى بعد كتابَيْه : من هنا نبدأ ، ومُواطنون لا رعايا : . . أما كتاب « الديمقراطية أبدا » فلم يكن له عنده أية أهمية أو تقدير !! مع أن الأيام سرعان ما أثبتت أن هذا الكتاب بالذات كان نذيرا خرج فى قومه بين يدَى مَصير عسير . .

● ● ●

ولما كانت الثورة قد استراحت للحكم المطلق وأمْسَتْ لامُعَقِّب لأمرها ، فقد ذهبت توكِّد سلطانها وتفرض هيبتها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . . واصطنَعْت لانجاز هذه المهمة ناساً غِلاظ الأكباد ، قُساة القلوب ـ لاتنقصهم التربية فحسب . . بل تنقصهم الآدمية ـ مجرد الآدمِيَّة . .

ووضعت نَصْبَ عينيها أن تكوْن صيحة الناس بعضهم البعض : ـ « انْجُ سعد ، فقد هلَك سعيد » !! بادئة بقلعة العدالة وحِصن القانون ـ « مجلس الدولة » !!

أرسلت مجموعة من الغوغاء بقيادة بعض الضباط هاتفين بسقوط « السنهورى باشا » رئيس المجلس ثم اقتحموا مكتبه ، واعتدوا عليه بالضرب . . ياللّعار !! والسنهورى باشا كبير القُضاة

الدستوريين فى العالم العربى كله ..

لم أسعَد برؤيته . ولكن كان بيننا احترام مُتبادَل .. وكنتُ أهديه كل كتاب جديد يصدُر لى .. وكان يحمله إليه تلميذه النابغة وصديقى العزيز الدكتور « زكى عبد البر » الفقيه والأصُولى الكبير .. كان يحمل إليه تحياتى ، وكان يحمل إلىّ تحياته وإعجابه ..

وعندما أهديت إليه كتابى : ـ « أزْمة الحرية فى عالَمنا » أعارَه صديقه « أحمد عبد الغفار باشا » لقراءته .. وحين عاد به إليه قال له : يجب أن نزور الأستاذ خالد ونُهنئه ونتعرف به ..

قال له « السنهورى باشا » كان بوُدى ذلك ولكن زيارتنا قد تُسبب له بعض الحَرَج .. ثم الْتَفَت إلى الدكتور « زكى » الذى كان حاضرا وسأله : أليس كذلكَ ؟؟ ووافقَه الأخ الصَّديق واعداً إياهما أن ينقل إلىّ رغبتهما وتحياتهما ، ولقد فعَل ..

● ● ●

ومات فى السجن تحت وطأة التعذيب « يوسف حلمى » المحامى وسكرتير اللجنة المصرية لأنصار السلام .. و « شهدى عطية » الذى سمعنا أيامها أن والده المفجوع بفقده رفض استلام برقية عزاء أرسلها « جمال عبد الناصر » !! وكان الوزراء يقفون عاجزين أمام هذه الاجراءات الشاذة والصارمة حتى حين يكون الذاهب إلى ما وراء الشمس أخ للوزير ، أو صديق ، أو قريب ..

ولقد زُرتُ ذات يوم الصديق الراحل الأستاذ « فتحى رضوان » بمكتبه بالوزارة شافِعاً لرجل برىء أُعتُقل عُدوانا وظلما ، تاركا للفاقة والجوع ذرية ضِعافا .. فقال لى الأستاذ « فتحى » والأسَى يغمر وجهه :

— إن مدير مكتبى ـ ياأخى ـ اعتُقل .. ولا أعرف فِيمَ اعتقاله ؟ ولا أين مكانه ؟

وصديقُك ـ ابن أختى ـ « سعد كامل » اعتُقل ولا أستطيع له نفعا ..

وجاء دور الاخوان المسلمين ، فبطَشَت بهم الثورة بطشتها الكبرى ..

فى الوَجْبة الأولى أعدمت مجموعة من زعمائهم ، على رأسها الأستاذ « عبد القادر عودة » والشيخ « محمد فرغلى » وفى الوَجْبة الثانية الْتهمتْ رأس الأستاذ « سيد قطب » ومَن معه .. وبين الوَجبَتين أَصْلَتِ الإخوان سعيرا .. !!

وأذكر فى تلك الأيام أن الأستاذ « على زين العابدين » رئيس الاستعلامات ترك لى بالمنزل رسالة تليفونية يرغب فى أن أزوره بمكتبه .. وحين الْتقينا بدأ حديثه ناقِلاً إلىّ تحية الصاغ « صَلاح سالم » وزير الارشاد يومئذ ، ثم رجاءه بأن أكتب ضد الإخوان كتابا سيطبعون منه مئات الألوف ويوزعونه على الشعب .. فَوَجمتُ وحزنت وسألته :

— هل هان شأنى عند الثوار إلى الحد الذى يظنون فيه أنى سأقبل هذا الرجاء ؟؟ !!

قال : إنهم يعتقدون أنك وحدك القادر على مناقشتهم وإقناع الناس بأخطائهم ..

قلت له بالحرف الواحد : ياسيادة الأخ .. لقد ناقشتُ الإخوان ، ونقَدتُ فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم .. !! ويوم كانوا من القوة بمكان .. أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب ، فقد أوصانا سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم « ألاَّ نُجْهِزَ على جَرِيح » !!!

لهذا أرجو أن تبلغ السيد صلاح سالم شكرى على تحيته ، واعتذارى عن عدم تحقيق رجائه .. وكَسَتْ أسارير الرجل ابتسامة راضية .

وقال : إذن تأذَن لنا فى طبع فصل « قومية الحكم » من كتابك .. « من هنا .. نبدأ » وتوزيعه على نطاق واسع ؟؟

أجبتُه : ولا هذا أيضا ، لأننى فى هذا الفصل كنت أناقش الاخوان ، وسميتهم باسمهم فإذا أذنتُ بنشر هذا الفصل وحده كنت كأنى ألفتُ كتابا ضدهم ..

ورأيت وجه الرجل يكتسى بسرور عجيب ، ويرمُقنى بنظرة راضية ويقول :

— « ياه .. لسَّه فى البلد رَجَّاله زيَّك ؟؟ !! » ووالله لقد خشيتُ من هذه العبارة ، فقد كنت أعرف مايعرفه الكثيرون أن كل مكان مُلَغَّم بأجهزة « التَّصنُّت » .. لاسيما مكاتب الوزراء وكبار المسئولين !! وعبارته هذه تعنى إعجابه بموقفى ورفضى رغبة الثورة ووزير إرشادها فى استخدام قلمى ضد الإخوان وهم فى محنتهم يُقاسُون ..

وكانت هذه الكلمات وِسامًا تلقيته من ذلك الراحل العظيم .

وقد سمعت هذه التحية مرة أخرى من المرحوم الأستاذ « يوسف وهبى » .. وكنا فى لجنة تناقش وتتدارس مشكلات الثقافة والفنون وكان مقررها يومئذ المرحوم الأستاذ « يوسف السباعى » .. واقترحْتُ أن تُصدر اللجنة توصية بإلغاء الرقابة . ووقف الأستاذ « صالح جودت » معارضا اقتراحى ثم تبعه الأستاذ « يوسف السباعى » ـ ثم تبعهما آخرون .. واستشهد الأستاذ « جودت » على وجهة نظره بما انقلب شاهدا ضده لا معه ..

إذ قال : إننا نرى فى بعض الصحف ونقرأ فى كثير من الكتب ما يخجلنا ويفسد أبناءنا ـ والرقابة قائمة ـ فكيف إذا غابت الرقابة .. ؟؟

وقلت : لقد أجبت أنت عن سؤالك يا أستاذ صالح .. فوجود الرقابة ـ باعترافك ـ لم يَحُلْ دون نشر المخجلات والموبقات .. إذن ففيم بقاؤها ؟ إنها باقية لتمنع نشر الآراء الجادَّة والنقد الصادق .. وطبعا رُفض الاقتراح من اللجنة الموقرة . وكنا نجلس مُتجاورَين يوسف وهبى وأنا .. فقال لى بصوت نصف مسموع نفس العبارة التى حيَّانى بها الأستاذ على زين العابدين فى مكتبه ..

وبعد ارفضاض الاجتماع قال لى الأستاذ « السباعى » أنا عارضتك ، لأنى خايف عليك ..

قلت له : لاتظن أننى أكثر منكم شجاعة ، بل لَعلىَّ أكثر خوفا .. ولكنى أكثر منكم فهما لعبد الناصر .. إنه فى رأيى لايُعاقب على النقد .. وإنما يعُاقب على الحقد .. !! كنت أرى فى مثل عبارة « على زين العابدين » و « يوسف وهبى » وفى رضاء الناس عن مواقفى وصُمودى تحية طيبة ليست مُوجَّهة لى وحدى .. وإنما هى مُوجَّهة إلى كثيرين يحملون نفس الآراء الناقدة للثورة - منهم من مَنعه عن الافصاح والمشاركة غيابه داخل السجن أو المعتقل .. ومنهم من كانت الصحف تتلقى توجيهات بعدم النشر له ، أو حتى ذكر اسمه !! من هؤلاء مثلا المرحوم الأستاذ « وحيد رأفت » فقد حدثنى الأستاذ « فتحى رضوان » بعد تركه الوزارة أنه بُعَيْد صدور دستور الثورة عام - ١٩٥٦ - تلقَّى مكالمة من الأستاذ وحيد رأفت قال له خلالَها : إنك - يا أستاذ فتحى - تطالعنا كل يوم بل كل ساعة بتصريحات تهيب بالمواطنين أن ينقدوا الدستور ويُبدوا آراءهم فيه ومآخذهم عليه .. وقد أرسلت مقالا لجريدة الأهرام منذ أيام - ولما لم يُنشر سألتهم عن السبب ، فقالوا إن الرقيب منع نشره !!

يقول الأستاذ « فتحى » إنه وعده ببحث الأمر .. واتصل من فوره تليفونيا - بالرئيس عبد الناصر الذى قال له : ماتِهتمِّش به . مش حينشروُله .. !!

فسأله الأستاذ « فتحى » لماذا ؟؟ وقد نشرنا مقال خالد محمد خالد ؟؟

فأجابه : خالد محمد خالد مش مْوتور .. إنه ينقد الثورة ولكن قلبه معها ؟ !

ولنشر مقالى قصة .. فحين صدر الدستور رأيت فيه عملا صالحا وآخر سيئا .. وكان أسوأ ما فيه مشروع « الاتحاد القومى » إذ كان يعنى أنه « الحزب الواحد » .. وإذن فقد ذهبت أدراج الرياح وُعود الثورة فى أيامها الأولى بإقامة نظام ديمقراطى سليم .. وعَصَب الديمقراطية ماثِلٌ فى تعدد الآراء والأحزاب ..

أما الحزب الواحد المسمّى فى دستور - ٥٦ - بالاتحاد القومى ، فهو إلغاء للديمقراطية .. !! حملت المقال إلى جريدة الجمهورية وكنت قد تركت الكتابة بها من زمَن .. وقابلت الرئيس الراحل « أنور السادات » الذى كان مُشرفا على دار التحرير التى تصدر « الجمهورية » عنها .. وحتى أُهَوِّن عليه أمر نشره ، قلت له : إن الدستور يُواجَه بما يمكن أن يكون « مؤامرة صَمْت» .. ولا يمكن - وهذا أول دستور للثورة - ألاّ تُحَفَّ به الآراء الناقدة والمفسِّرة .. وقد ضمَّنت هذا المقال رأيى .. فإما أن يُنشر كله ، أو يُترك كله ..

وبدأ يقرؤه .. وما أن انتهى حتى نظر إلىَّ مبتسما وقائلا : يا أخى خوفتنى بتحذيرك الأول .. وأقسم لك لو كان هذا المقال بصراحته مضروبا فى عشرة ما فكرت فى حذف كلمة واحدة منه .. !!

وشكرته وانصرفت .. وفى اليوم التالى نُشر وقرأه الناس .

في ذلك اليوم ذهبت لزيارة الأستاذ « الباقوري » بمكتبه في وزارة الأوقاف ، ورُحت أُثني على موقف السيد « السادات » معي .. فأخبرني أنه بعد مُنْصَرَفي من عنده اتصل - تليفونيا - بالرئيس « عبد الناصر » الذي طلب منه أن يتلُوَ عليه المقال .. فلما انتهى من تلاوته قال له : انشُرْه كما هو ، ولا تحذف منه كلمة واحدة ..

●●●

ونعود للأستاذ « فتحي رضوان » .. الذي أخبرني أنه تلقّى بالليل مكالمة من « عبد الناصر » يقول له :

— انت عندك مؤتمر صحفي بكره . مش كده ؟؟

أجابه : نعم ..

قال : أجّله إلى بعد بكره ..

سأله عن السبب ..

فأجابه : بكره سيظهر مقال خالد محمد خالد يقول فيه إن فكرة الاتحاد القومي هي نفس فكرة الحزب الواحد .. فأجّل المؤتمر لبعد بكره علشان ترد عليه ..

وفعلا أجل المؤتمر وفي اليوم التالي لعقْده خرجت الصحف بعنوان ضخم « وزير الارشاد يقول : الاتحاد القومي ليس حزبا واحدا » وعجبتُ يومها لهذه المصادفة ، حتى أخبرني الأستاذ فتحي رضوان .. فيما بعد بالقصة كلها .

●●●

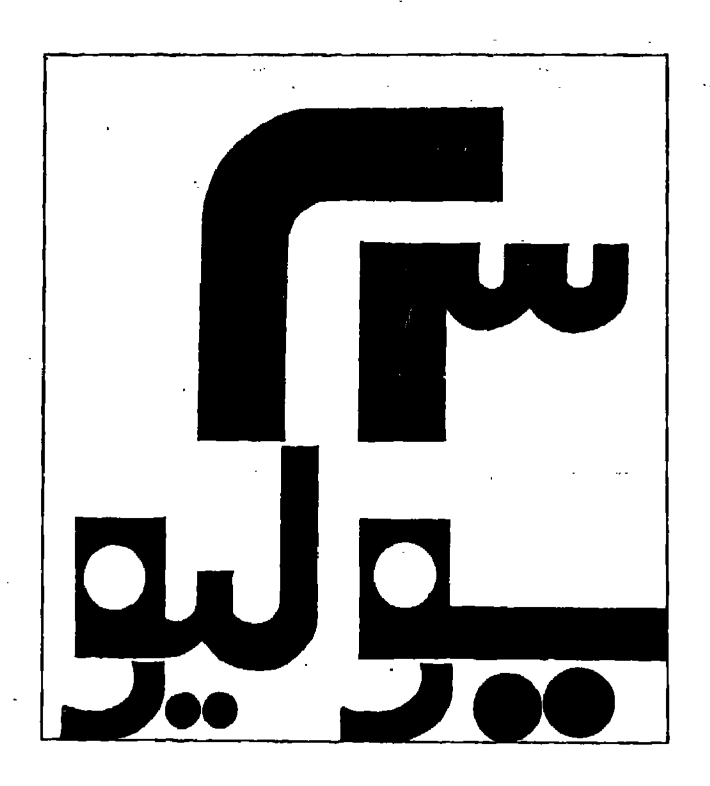
والأستاذ « فتحي رضوان » كان لي صديقا حَميا .. وكان يتمتع بشخصية جذّابة ، وفكر ثاقب ، وسلوكه قويم .. ولكن انتماءه لمبادىء الحزب الوطني ، وإيمانه الوثيق بـ « مصطفى كامل » و « محمد فريد » حملاه على أن يقف من حزب الوفد ومن « سعد زغلول » موقف الشانيء المُبغض .. !!

تحدث إليّ ذات يوم مُقترحا انضمامي إلى « اللجنة العليا للحزب الوطني » وكان قد شكّلها على أثر خلافه مع الحزب الوطني الذي كان يرأسه « حافظ رمضان باشا » .. فاعتذرت إليه بأني على عهد مع نفسي ألّا أشترك في أي حزب أو تنظيم سياسي مُكرِّسًا كل جهدي للكتابة ..

وحين أنشأ بوزارة الارشاد القومي إدارة للثقافة تمهيدا لتحويل الوزارة كلها إلى وزارة للثقافة عَرض عليّ بإلحاح أن أوافق على نقلي إليها من وزارة التربية والتعليم .. ولا أدري لماذا اعتذرت .. وذات يوم أرسل إليّ المرحوم الدكتور « حسين فوزي » لإقناعي فكررت اعتذاري - وفي اليوم التالي زُرت الأستاذ « فتحي » بمكتبه وشكرته من أعماقي ..

وجاء اليوم الذي ضاق فيه « عبد الناصر » بمعارضات « فتحي رضوان » رغم حبه له واحترامه إياه .. وقدم الأستاذ « فتحي » استقالته وعاد إلى عمله في التأليف والمحاماة ..


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



موقفي من الثورة ..

عندما قام الجيش بضربته الظافرة ، وعَزل فاروقا عن العرش واستوَى على السلطة والحكم ، ذهبتْ مواكب المهنئين ووفود المؤيدين ساعيه إلى مبنى قيادة الجيش رافعة تهنئتها معطية بيْعَتها .. ذهب كل الساسة والكتاب وذهب الصحفيون والبارزون فى كل مجالات المجتمع .. ولا أدرى تماما ـ ما اللى أقعدنى عن هذه المجاملة فلم أذهب إلى أحد ، ولم أهنىء أحدا ..

ولا أشك فى أن « عبدالناصر » ذكَرنى وافْتقَدنى .. على أية حال ، فقد كان تخلُّفى عن التهنئة خيرا ؛ إذ كان من المحتمل أن يربطنى اللقاء المبكّر معهم بأى التزام .. بينما كان الخير كله أن تظل حركتى طليقة تِجاه التطورات السريعة للثورة ، والتى أحسستُ أنها سائرة نحو الدكتاتورية لا محالة .. !!

وهكذا أُتيح لى أن أُخرج كتابى « الديمقراطية .. أبدا » الذى أسلفتُ الحديث عنه .. كما أُتيح لى أن أكتب ما أشاء فى جريدة الثورة « الجمهورية » عندما دُعيتُ للكتابة فيها .. كما أُتيح لى أن أنقد دستور « ٥٦ » مركزا على فكرة الاتحاد القومى الذى اعتبرته ممثلا لنظام الحزب الواحد .. !!

ولم أشارك فى أى عمل من أعمال الثورة أو أى تنظيم من تنظيماتها .

●● لكن حدث وأنا أطالع جريدة الأهرام أن قرأت اسمى بين أعضاء لجنة الآداب والثقافة والفنون ، وهى إحدى لجان المؤتمر الأول للاتحاد القومى .. وهى اللجنة التى أشرت إليها من قبل والتى طالبتُ فيها بإلغاء الرقابة ، وجرى حول الموضوع نقاش طويل انتهى برفض الاقتراح .. !!

●● كذلك تلقيتُ ذات يوم خطابا يُفيد بأننى اختيرت عضوا بالمجلس الأعلى للآداب والفنون ـ « لجنة النثر » ..

وتقبلت هذا الاختيار ـ وكان مقرر اللجنة المرحوم الدكتور « مهدى علام » وعضوية المرحومين الأستاذ « سعيد العريان » والأستاذ « عبدالرحمن الشرقاوى » والأستاذ « محمد عبدالحليم عبدالله » والأستاذ « عبدالحميد حسن » كما كان بين أعضائها الدكتور « عبدالقادر القط » .

وظللتُ في عضويتها حوالي خمس سنوات ، ثم حدث مادفعني إلى الاستقالة منها ..
وعكفتُ على تأليف بعض كتبي ..
ومضت الأيام ينادي بعضها بعضا حتى جاء اليومُ الذي جمعَتْ فيه بين مصر وسوريا وحدة كاملة ، وتحوَّل الشعْبان والبلَدان إلى مهرجان عظيم من الأفراح والليالي المِلاح .. !! بيْد أنه كان لي موقف من هذه الخطوة المتسرعة والتي أوْجَسْتُ منها خيفة ..
ولا أدري لماذا كنتُ منذ بدأ مجلس قيادة الثورة يحتكر السلطة أحاذِرُ وأخاف من كل ما يُقدم عليه من عمل .. ؟!
وهكذا حين طلَبتِ الإذاعة مني حديثا عن الوحدة المصرية السورية ، سطَّرت كلمة ضمَّنتُها مخاوفي ، ورأيي في أن الوحدة الكاملة بين بلَدين حديثي العهد بالاستقلال مغامرة لم تُحسَب عواقبها ..
وطبعا لم أُدْع لإلقاء الحديث الذي كنت قد أرسلتُه لمراجعته والموافقة على إذاعته .. وقلت لنفسي : لقد أديتُ واجبي ، وهذا حَسْبي .
ويشاء الله سبحانه أن أكتشف سريعا صواب موقفي .
فقد حدث أن قرر المجلس الأعلى للآداب والفنون إحياءَ ذِكرى رُوّاد الحرية والأدب والفن .. مبتدئا بالاحتفال بذكرى « عبدالرحمن الكواكبي » وهو - يرحمه الله - سوري من حَلَب .. وكنت ضمن الوفد المسافر إلى دمشق ثم حلَب .. ممثلا المجلس الأعلى ..
في دمشق أخذُونا نهاراً في جولة دِمَشْقية نرى فيها أحياءها وآثارها .. وكان مُرافقنا أستاذ جامعي ، لم نكد نبلُغ أحد الأحياء الفاخرة حتى أشار نحوه بأصبع كَلِيلة قائلا : وهنا - يا حَرام - كان حي السفارات .. !!! وكلمة - ياحَرام - في لهجتهم تعني التحسُّر والمرارة والحزن .. كما نقول نحن في لهجتنا - « فلانٌ مات يا عِيني » !!
تلقيتُ بِوعي سديد الرسالة التي تُبلِّغها كلمة - يا حرام - لكل من كان له قلب .. وأدركتُ أن الوحدة التي حرَمت سوريا من شخصيتها ، وعلَمها ، وسفاراتها موضع أسف وجزع - على الأقل عند كثير من المثقفين .
ومضت أيام أخرى مُزدحمات وليال مُثقلات حتى جاء يوم الواقعة والقارعة .. فقد قام الجيش السوري بانقلاب ضد الوحدة ، وكان مديرِ مكتب « المشير عامر » هناك وبَصره الذي يُبصر به وسمعه الذي يسمع به هو « عبدالكريم النحلاوي » الذي تولَّى كِبْر الانقلاب .. ومِن عَجب أن الانقلاب وقع والمشير هناك ، والأعجب أنه شيع إلى مصر تشييعا غير كريم .. !!
واضطربت الأمور بين يدي « عبدالناصر » اضطرابا شديدا ، فهو يعلن إرسال القوات المسلحة إلى سوريا لِوَأد الانقلاب .. ثم يعود بعد ساعات ليعلن أن الجندي المصري لن يقاتل أخاه السوري .. وهو يذيع بيانا يعترف فيه بخمسة أخطاء ، كانت وراء الانقلاب .. وأذكر أن الخطأ الثالث كان غياب النقد وإفساح الثورة صدرها لأهل الولاء مما حدَا بالمخلصين إلى الابتعاد

وحرمان الثورة من خبرتهم .. ومع ذلك لم يُوضع هذا الخطأ ولا غيره موضع التصحيح، والاعتبار !!

ثم راح الرئيس عبدالناصر يُعالج الانقلاب، الخارجى بانقلاب داخلى «!!!» فشكّل ما سُمى يومها باللجنة التحضيرية، مُفتتحا اجتماعاتها ببيان خيّب آمال كل الراشدين .. !!

ضمّن هذا البيان ـ كما قلت ـ بعزل أعدء الثورة فى مصر ..

وهل بقى فى مصر من له حول أو قوة يَشْغَب بهما على الثورة حتى يُعزل ويُهان ؟؟!!

لكن للمِحْنة تفكيرها، ولقد كان «عبدالناصر» فى مِحْنة نسجَت خيوط نهايته.

ووَقع الاختيار علىّ لأكون أحد أعضاء اللجنة، وهناك وفقنى الله توفيقا عظيما، فقلت فى الموضوع قولاً بليغا وصريحا .. وجَرى حوار طويل بينى وبين «عبدالناصر» على مدَى ليلتين .. وبعد ثلاثين ليلة فى الاجتماعات المتوالِية اقترِع على قرار العزل .. ونادى رئيس اللجنة «أنور السادات» قائلا: الذين لا يُوافقون على العزل يقفون ..

وهناك ـ وقفتُ وحدى .. وتندَّت عيناى بالدموع، فرَحا بموقفى هذا .. وحُزنا على الآخرين الذين كنت على يقين بأن ثلاثة أرباعهم ضد العزل، ولكنهم ـ ومعهم عُذْرهم ـ يخافون ويرتجفون .. !!

وصدرتْ صحف الصباح مُبَشِّرة بالفوز العظيم. ؛ فقد وُوفِق على قرار العزل بالإجماع الذى لم يشِذَّ عنه سوى عضو واحد هو: خالد محمد خالد .. !!!

ولما كانت الخطايا ينادى بعضها بعضا، فقد أفضى قرار اللجنة الذى باركَه فيما بعد المؤتمر الشعبى إلىَ خطيئة كبرى أسموْها: ـ «لجان تصفية الإقطاع» .. !!

وبهذا القرار بلَغوا قاع التخبُّط والضلال .. فأىّ إقطاع هذا الذى سيُصفُّونه ؟؟ لقد صُفِّىَ الإقطاع فى السنة أو فى السنتين الأوليين من الثورة .. ولكن لابد من خِداع الشعب حتى لا يأبه بالنَّكال الأليم الذى سيُنزلونه بضحايا هذه اللجان !!

لقد قلت لنفسى يوم هزيمة يونيه ـ ٦٧ ـ السَّاحقة والماحقة ـ أن أسبابها التى صنعناها بأيدينا كثيرة .. ولكن السبب المباشر لها كان هذه اللجان المشئومة «لجان تصفية الإقطاع» !! لقد شرَّدوا العائلات الكريمة والبريئة شرَّ تشريد.

كان ينادون ربَّ الأسرة بالهاتف ـ التليفون ـ يا فلان .. أنت وأسرتك تكونون غدا بالفيوم مثلا، أو المنيا، أو سوهاج .. !!

ويتوسَّل إليهم أن يمنحوه فرصة ولو ثلاثة أيام ليسافر ويبحث عن مكان يُؤويهم .. ويجيئه الجواب:

ـــ إحْنا قلنا بكره يعنى بكره، ويقفل التليفون فى وجهه ..

يا أولاد الأفاعى !!! هل أعطيْتم الله إجازة وجلستم على عرشه تتحكمون وتُجْرِمون ؟؟!!

● ● ●

●● ومن العزل ولجان تصفية الإقطاع إلى « التنظيم الطليعى » الذى أُريد به أن يكون أوسع وأحكم شبكة للتجسس الخبيث .. ولى مع هذا المَسْخ قصة .. فذات يوم تلقيت مكالمة تليفونية من المرحوم السيد « مجدى حسنين » يرجونى فيها أن أزوره بمكتبه .

وحين ذهبت إليه رَاعَنى منظر مكتبه الذى يقع فى شقة واسعة ، يُسْلِمُك فيها باب ، إلى باب ، إلى باب .. والأبواب كلها ثم غرفة المكتب من الداخل مُسَيَّجة بسِيَاج لا يَخترقه صوت ولا هَمس .

قلت لنفسى : كيف إذن يكون مكتب « صلاح نصر » مدير المخابرات العامة .. ؟!

استهل « مجدى حسنين » حديثه بإبلاغى تحية الرئيس « عبدالناصر » وسلامه ..

ثم ثَنى بإبلاغى رغبته فى أن أستجيب لرجائه وأقبل عضوية التنظيم الطليعى .. وكنتُ لم أسمع به من قبل .. ولما سألته : ما هذا التنظيم ؟؟ أجاب : بأنه تنظيم يعتمد على اختيار أكثر العناصر وطنية وإخلاصا .. وأنه يعتمد على السِّريَّة التامة بالنسبة لأعماله وأسماء أعضائه .. وأنه سيكون أكبر سُلطة فى مصر كلها ..

وهنا تذكرت المرحوم « الاتحاد القومى » حين شكَّلوه وأعلن الرئيس « عبدالناصر » بنفسه أنه سيكون أعلى سلطة فى الدولة ... !!

واستأنف « مجدى حسنين » حديثه قائلا : وسيتكون التنظيم من مجموعات ، لكل مجموعة مُشرف أو مُقرِّر .

وقد اجتمع بنا الرئيس عبدالناصر وطلب منا ترشيح الشخصيات الصالحة لهذه المهمة ، وبدأ هو بترشيح بعض الأسماء . وكان اسمك من بينها .. فرجوته أن تكون من مجموعتى ويترك لى أمر الاتصال بك وإقناعك ..

وأقسم بالله ، لقد كان يحكى أُقصوصته ، وأنا أتَميَّز من الغيظ والحيرة والمرارة .. !!

تنظيم طليعى إيه ؟ وهباب إيه ؟!

ألا يَزال هناك مجال للعبث والضياع ؟!

● ● ●

وكان علىَّ أن أُفصح له عن رأيى . فقلت له : -

أوّلا - يا سيد مجدى ، أرجو أن تبلغ سيادة الرئيس شكرى على حسن ظنه بى واختياره لى ..

وثانيا : تبلغه اعتذارى .. والرئيس يعلم أننى لا أشارك فى أى حزب أو جماعة أو تنظيم ..

وقاطعنى بحديث طويل محاولا إقناعى .. واستأنفتُ حديثى :

إننى فهمت مما قلت أن هذا التنظيم سِرِّى .. وأنه سيكون أعلى سلطة فى البلاد .

ومعى نصيحة أرجوك أن تنقلها عنى للرئيس .. إنه لا يليق بدولة معها الجيش والبوليس وكل أجهزة الترغيب والترهيب أن تنشىء تنظيما سِريًا .. إنه أمر غير مفهوم بقدر ما هو غير معقول !!

ثم ما معنى أن تكون هذه الخلايا السِّرية أعلى سلطة فى الدولة ؟؟
إننى من كل قلبى أتمنى وَقْف هذا المشروع واستبعاده قبل أن يقضى على البقية الباقية من الأمل فى قيام ديمقراطية حقيقية . .
وانتهى لقاؤنا بأنه سيبلغ الرئيس وجهة نظرى واعتذارى .
وذات يوم ـ تلقيت من الدكتورة ـ بنت الشاطىء ـ مكالمة تليفونية تسألنى : لماذا لم تحضر اجتماع الأمس ؟؟

— أى اجتماع يا سيدتى ؟؟
— اجتماع لجنة التنظيم الطليعى . . !!
— أى تنظيم ؟؟ لقد رفضت أن أكون عضوا فيه . .
— لقد أخبرنا مجدى حسنين أنك عضومعنا . .
— شكرا لك يا دكتورة ـ وغداً سأكشف الأكذوبة للرئيس ذاته .

● ● ●

كان الأخ « خالد محيى الدين » أيامئذ مشرفا على دار أخبار اليوم . . وفى الصباح اتصلت به تليفونيا ، ورجوته أن يتسع وقته للقاء عاجل وسريع ، فقال : إننى فى انتظارك الآن بمكتبى فى الأخبار .
وذهبتُ من فورى . . وقصصتُ عليه كل ما دار بينى وبين مجدى حسنين من حديث . ثم ما أخبرتنى به الدكتورة بنت الشاطىء .
وما كدتُ أفرغ من حديثى حتى زفْر زفرة ممرورة وقال : الله يقطعه مجدى حسنين عمل لنا مشاكل لا أول لها ولا آخر . .
وأدركت أنه ـ غفر الله له ـ أساء إلى كثيرين ، ثم قلتِ للأستاذ « خالد محيى الدين » : لى عندك رجاء أرجو تحقيقه . . أن تبلغ الرئيس ما حكيتُه لك . . وتُبلغه رجائى فى أن يأمر « مجدى حسنين » برفع اسمى من كشوف مجموعته ومن التنظيم كله . .
كنت أُحس أننى بهذا أُسِىء إلى مشاعر الرئيس ، فقد كنت أبدو كمن يرى فى هذا التنظيم وباء يَلوذ منه بالفرار . . ولكن لم يكن هناك بُد من صُنع ما صَنعت كيما يَطمئن خاطرى ونفسى . .
ووعدنى الأستاذ « خالد » بتحقيق رجائى مؤكدا أنه سيتصل بالرئيس اليوم ، ويبلغنى غدا بالنتيجة .
وفى غَدٍ وفَّى الكريمُ بوعده . . وأخبرنى أنه نقل للرئيس الصورة كاملة . . وأنه يُطمئننى إلى أن كل شىء سينتهى اليوم وسيكون لى ما أريد . .

● ● ●

هذا مَثل يُرينا كيف كانت الأمور تسير . . فمجدى حسنين من الضباط الأحرار البارزين . .

وهو ـ رحمه الله ـ منشيء مديرية التحرير . . وموضع ثقة « جمال عبدالناصر » . . ومع ذلك فحين اؤتمن على إحدى مهام التنظيم الطليعى ، كان كل همه أن يظهر أمام الرئيس كرجل قادر على أن يحشد له من الأسماء ما يسره ويرضيه ـ غير ملتزم بجانب الصدق ، ولا حتى بثقة زعيمه فيه . . !!!

● ● ●

فى مايو ـ ٦٧ ـ حمى وطيس المعركة بين أمريكا ومصر ـ أو بين « جونسون » و « عبدالناصر » وهنا فى منطقتنا اشتعل الخصام بين « الملك حسين » و « عبدالناصر » وراحت إذاعة الأردن يوميا تعيره بمرور السفن فى خليج العقبة حاملة من إسرائيل وإليها كل حاجاتها من بضائع وبترول ، وكان كل خصوم الرئيس الراحل يعيرونه محاولين استفزازه واستدراجه إلى مؤامرة محبوكة ومحسوبة !! ثم حشدت إسرائيل قواتها على الحدود بينها وبين سوريا . . وانطلقت تصريحات صقورها مهددة بضرب سوريا . .

وأمام إذاعات الأردن ونقلها أحيانا بعض ما تكتبه بعض الصحف الأمريكية الممالئة لإسرائيل استولى علىّ هاجس مُقلق بالخوف من أن يفلحوا فى استفزاز « عبدالناصر » وحمله على أن يقفز قفزة فى الظلام . . !!

وفعلا وقع ماخشيته . . ففى شهر مايو أرسلت مصر إلى السكرتير العام لهيئة الأمم قرارها بسحب القوات الدولية من غزة وخليج العقبة .

وهنا لابد من شهادة ننصف بها عبدالناصر .

فعلى الرغم من أنه أعطى الفرصة لاستدراجه ، فقد كان حذِراً فى مُخاطرته تلك ، فأعلن أنه لا يريد سحب القوات الدولية كلها ، ولا سحبها تماما . . إنما يطالب بإعادة توزيعها .

لكن كان هناك رجل خطير لم نعرف دوره إلا من إذاعة موسكو فى أعقاب الهزيمة . . ذلكم هو « رالف بانش » الذى وصفه راديو موسكو فى إذاعته العربية بأنه عميل أمريكا فى الأمم المتحدة . . واتهمه بأنه فى هذه الأزمة لعب دوراً فى منتهى السوء . . إذ قطع على « عبدالناصر » طريق الرجوع عن قرار السحب أو تعديله ، مُستفزًا عناده بإبلاغه الحكومة المصرية أنه يرفض هذا التعديل ـ وعلى « الرئيس ناصر » أن يقبل بقاء القوات الدولية كلها ، أو سحبها كلها . . !! وجميع المتآمرين من « جونسون » و « إسرائيل » إلى خصوم « عبدالناصر » فى العرب وفى الغرب يعرفون كم هو عنيد ـ فلما واجهة « بانش » بهذا التحكم « لعن أبوخاشه » وقال : فلترحل القوات كلها ، وهذا قرارنا النهائى ، لا رجعة فيه . . !!

وانسحبت القوات الدولية ، وزحفت لاحتلال مواقعها قواتنا المسلحة التى ثبت أنها كانت بحاجة إلى مزيد من الوقت تدبر فيه أمرها ، وتستوعب تدريبها ، وتستكمل استعدادها . . فى تلك الأيام كنا ـ الأستاذ فتحى غانم وأنا ـ نتناوب يوميا كتابة افتتاحية « الجمهورية » ولم تكن الظروف التى نعيشها تسمح بكلمة واحدة فيها رفض ، أو حتى التساؤل : لماذا حدث هذا ؟؟

وإلى أين نسير ؟؟

فالبلَد أصبح بين عَشِيَّة وضُحاها فى حالة حرب .. ولا مجال هناك إلا للكلمة المشجعة لجنودنا ، والمنعشِة لآمالنا .. لكننى تسلَّلتُ بين تلك الظروف وكتبت فى الجمهورية : « برقية مفتوحة إلى الرئيس « عبدالناصر » أرجوه فيها ألا يكون البادىء بالحرب ، حتى يظل الرأى العام العالمى بجانبنا .. وأعترف الآن أننى كنت مخدوعا ومخطئا ، فى رأيى ذاك .. وكان الخير كل الخير - لاسيما بعد اقتناعنا بأن إسرائيل تتهيأ لضرب سوريا ، وبعد ترحيلنا القوات الدوْلية ، وحشد قواتنا فى سيناء ..

أقول : كان الخير إذن أن نكون أصحاب الضربة الأولى ، لاسيما ونحن نعلم أن نصف قوة إسرائيل فى كل حرب تخوضها ماثل فى إجادتها توجيه الضربة الأولى لعدوها .. !!

وقد تواترت الأنباء يومئذ بأن هذا ، كان رأى المشير « عبدالحكيم عامر » وأنه ألَحَّ على الرئيس كثيرا كى يظفر بموافقته .. ولعل « عبدالناصر » كان سيأخذُ أخيرا بهذا الرأى ، لولا زيارة السفير السوفيتى له فى فجر يوم العدوان ، وإبلاغه رجاء الاتحاد السوفيتى ونصيحته ألا يكون البادىء بالحرب ..

ولكن ، إذا كان السوفييت بكل إمكاناتهم قد خُدِعوا .. أفكَثيرٌ علينا أن نُخدع أيضا .. ؟!

● ● ●

قامت الحرب فجأة .. وانتهت فجأة .. والْتهمت إسرائيل فى أيام كل سيناء .. والضفّة الغربية .. ومرتفعات الجُولان ..

وأعلن « عبدالناصر » فى بيان حزين مسئوليته الكاملة عن الهزيمة ، وعاقَب نفسه بالتنحى عن منصبه وجميع سلطاته .

وخرجت الجماهير أو أُخْرِجَتْ إلى الشارع بعد إلقاء البيان مباشرة وفى الأيام التالية رافضة التنحِّى ومطالبة ببقاء « عبدالناصر » .. وتوالَتْ صيحات أكثر زعماء العرب مطالبة ببقاء الرئيس .

● ● ●

بعد الهزيمة بيومين أعلن « عبدالناصر » أن الطيران الحربى الأمريكى اشترك فى الحرب مع الطيران الإسرائيلى .. وتبعهُ فى هذا الإعلان « الملك حسين » ..

أى وطنى شريف لا يتميَّز غيظا وحقدا على أمريكا إن صحَّ هذا الاتهام ؟!

ولقد كان يبدو لنا صحيحا .. فإذا كان « عبدالناصر » قد افْتعَلَه لِيُوارِىَ هزيمته .. فإن الملك حسين فى غير حاجة إلى هذه الكِذبة !!

وكنا يومئذ نفكر هكذا - إذا كانت أمريكا ومعها ربيبتها إسرائيل قد ائتمَروا بنا جيشا ، ووطنا ، وأمة ليشفوا غيظهم من « عبدالناصر » ، فلْيبق « عبدالناصر » إذن .. ولتكن العواقب ما تكون .. وفى صُحبة هذا التفكير كتبتُ مقالا نُشر بالجمهورية عنوانه : « ابْقَ أيها

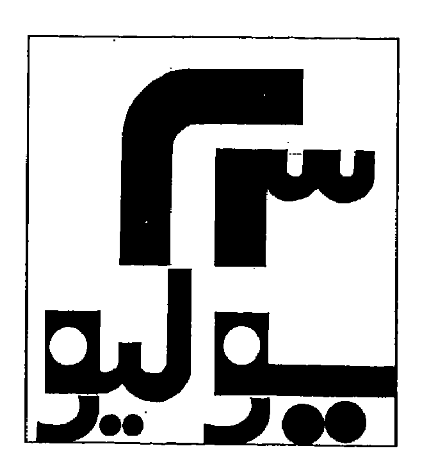
الرئيس » !! كنت فى قِمّة الانفعال والغيظ وأنا أكتبه ، حتى لقد قلتُ فيه : - « لن ندَعَ الشمس تُشرق على كل مَن يريد بك السوء » . . !! بينما كانت الشمس تُشرق على أعدائه جميعا وتختصُّنا نحن بالإظلام . . !!

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى اعترف « عبدالناصر » و « الملك حسين » بأن الطيران الأمريكى لم يشترك فى الحرب ؟؟!!

إذن فيم كان الاتهام الأول ؟؟

قالا : إن الطائرات المُغيرة على الجبهات الثلاث المصرية ، والسورية ، والأردنية كانت من الكثرة بما تفوق أعداده ما عند إسرائيل من طائرات فظنوا أن الطيران الأمريكى يقاتل مع طائراتها . . ولكنهم اكتشفوا أخيرا أن الكثرة كانت فى عدد الطلعات للطيران الإسرائيلى الذى كانت طائراته تتلقى تموينها وبنزينها من خزانات طائرة فى جو السماء . . أى أنها لم تكن بحاجة إلى قطع مسافات طويلة فى غدوِّها ورواحِها لكى تموَّن بالبنزين . . ؟!!

وعجزنا عن أن نفهم . . وقلنا : لِيَكُنْ ما يكون . . . !!



بقى « عبدالناصر » فى مكانه رئيسا للجمهورية وللوزارة . . وبدأت مفاوضات التسوية . . وسخا ببعض التنازُلات الهامة بعد أن قام بتصفية الحساب الذى كان بينه وبين المشير عامر ورجاله ، حيث طالت هذه التصفية أيضا « صلاح نصر » مدير المخابرات العامة . . و شمس بدران » مدير مكتب المشير ووزير الحربية . وبقية رجال المشير عامر الذى أنهَت التصفيات مهمتها بالإجهاز عليه . . !! ووقعَت فى تلك الفترة ما سُمى بـ « مذبحة القُضاة » التى أحدثت جِراحا عميقة فى أنْفُس الناس . .

ووقعت فى الأردن مذابح « أيلول الأسود » وقام الجيش الأردنى بأبشع حوادث القمع للفلسطينيين . . وكأنَّ الملك حسين انتهز فرصة مظاهراتهم الغاضبة ، وهى تملأ شوارع «عمان» بصياحها « يسقط جمال عبدالناصر » ـ وهى التى كانت تُسبح بحمده قبل الهزيمة والتنازُلات . . !! أقول : كأنما انتهز الملك هذه الفرصة حيث لن يثور « عبدالناصر » دفاعا عنهم إذا هو أذاقهم العذاب الأليم .

كانت القاهرة تشهد مؤتمر قمة عربيا ، وانتدب المؤتمر الرئيس « جعفر نميرى » رئيس السودان يومئذ ليرجو الملك حسين أن يرفع يده عن الفلسطينيين ، ويُجدِّد دعوته لحضور المؤتمر . . وعاد « نميرى » ليحكي للمؤتمر ما رآه من فظائع ومُوبِقات !! وأخيرا جاء الملك إلى القاهرة . . كانت حجته فى تبرير صَنِيعه ، أن الفلسطينيين فى الأردن كانوا يشكلون دولة داخل الدولة . . وأنه صابرَهم طويلا ونصحهم كثيراً دون جَدوَى !!

● ● ●

كان « عبدالناصر » يُشارف النهاية ، ولم يُفده العلاج القاسى الذى أُجرى له فى الاتحاد السوفيتي . . وذات يوم وهو فى المطار يودع أمير الكويت جاءه النذير ، وحُمل فى عربته إلى داره ، حيث فاضَت روحه .

ولعل ما أَحزنه فى ساعة الاحتضار أن الموت لم يُمهله حتى يُواصِل « حرب الاستنزاف » التى كان يَشُنُّها بنجاح على القوات الاسرائيلية . . رحمه الله . .

● ● ●

وخلَفه على « العرش » الرئيس « أنور السادات » !!

أولا ـ بوصفه نائبا للرئيس الراحل . . ثم لنتيجة الاستفتاء . . واستهلّ عهده بالقبض على « على صبرى » و« شعراوى جمعة » و« سامى شرف » و« وجيه أباظة » وآخرين من زملائه زملائهم !! متهما إياهم بمحاولة خلعه ، وإحداث فراغ دستورى يعرض البلاد للفوضى والخطر . .

ولم يشفع لأحد ماضيه . . حتى الفريق « محمد فوزى » الذى أعاد تنظيم الجيش بعد الهزيمة بصورة مُشَرفة ، ساقه إلى المحاكمة والسجن . . !!

●● كنت فى بداية حركة الاعتقال على موعد مع السيد « وجيه أباظه » فى مكتبه ، لنستأنف الحديث فى موضوع بالغ الأهمية . . وهناك لقينى بعض موظفى المكتب ، وكَسَى وجوههم الوجوم عندما علموا أننى على موعد معه . . وتبادلوا النظرات المضطربة ، وأخبرونى أنه قد لا يحضر اليوم . . وأدركتُ أن شيئا مّا قد حدث . . وفعلا كان قد اعتُقل . .

و « وجيه أباظه » رجل أجِدُنى مستعدا ، لأن أقاتل من أجله !!

ليس لأنه « بلَدِيَّاتى » أو صديقى . . بل قبلِ ذلك لأنه أيام الإعداد للثورة ، كان ثوريا أصيلا ، وكان المسئول عن طبع المنشورات السِّرية فى « دار النيل للطباعة » والمسئول عن تهريبها من المطبعة إلى مراكز توزيعها . .

وبعد الثورة حين عَمِل محافظا للبحيرة . . ثم محافظا للقاهرة . . أبْلَى بلاء حسَنا ، ونجح نجاحا متفوقا . . وكان طموحه إلى النجاح فى خدمة الناس وإجادة العمل عظيما . .

وإليكم الموضوع الذى قلتُ إننى كنت على موعد معه لنستأنف فيه الحدث يوم فُوجئت بنبأ اعتقاله . .

●● كنت فى تلك الأيام يأخذنى الحنين إلى الصلاة فى مسجد « عمرو بن العاص » بمصر القديمة . . وما كانت تفوتنى صلاة الجمعة فيه دوما . . وأتاح لى ترددى المستمر عليه أن أرى الرزايا التى يتعرض لها أول مسجد للإسلام أُنشىء فى مصر . . وثالث مسجد للإسلام فى أفريقيا كلها . .

كان من الداخل أشْعَثَ أغبر . . ومن الخارجِ مباءة لأوساخ الفضلات الآدمية . . وعلى بعد أمتار منه مساحة عريضة تستوطنها صناعة الفَخار وذَوُوها . . وتزحف عليه المقابر ـ بعضها مهجور ، وبعضها مسكون ترتادُه النساء يوم الجمعة ، فيزداد المشهد بهن نُكرا . . !!

ورأيت من واجبى لَفْت نظر المسئولين إلى هذه المأساة . . فَلِمن أذهب ؟؟ إلى محافظ القاهرة طبعا . .

أسرعت الخُطى ذات يوم إلى الصديق الكريم السيد « وجيه أباظه » محافظ القاهرة . .

وأخبرته أن هناك جريمة ارتُكبت ولا تزال تُرتكب مع أعرق مساجد مصر ، وأنصت لى فى اهتمام وتأثر . . وقال لى : بعد غد إن شاء الله تأتينى وسنذهب معاً لمعاينته . .

وفى الموعد المحدد كنت معه ، واستأنانى بعض الوقت . . ولَبثتُ مَليا ، بينما يتوافد على مكتبه رجال فاخِرون ، حسبتهم ضُيوفا ، حتى أذا بلغ عددهم حوالى عشرة . . التفت المحافظ نحوى وقال : إنهم ذاهبون معنا . . وابتسمت وأنا أقول لنفسى : لا يزال وجيه بك مُولَعا بالمظاهرات . . !!

وانطلقنا فى عربات تتسع لنا . . وعند مسجد « عمرو » أنخنا رواحلنا ، ودخلنا المسجد ، وكان خلال تَطوافنا بأنحائه يتحدث إلى بعض الذين معنا مُبديا مُلاحظاته ومعطيا توجيهاته . . وهنا أدركت أن السادة ليسوا ضيوفا بل هم كبار المسئولين فى المحافظة . . وأن المحافظ ليس فى مظاهرة ، بل فى زيارة عمل . . وطُفنا بالمسجد من الخارج فرأى « هرجلة » المقابر . . وبَصُرَ بمستعمرة الفخار . . وألقى نظرة مستوعبة على ميدان المسجد وعلى جدرانه الجانبية والخلْفية . . وأمام كل نَشاز يلقى توجيهاته ويصدر أوامره لكبار المسئولين الذى جاء بهم معه ليردوا على الطبيعة سوْءات الإهمال ، وليتخذوا معه قراراتهم بما يجب عمله ، كل واحد فى دائرة اختصاصه . . !! فأصدر إلى أحدهم أمره بنقل مستعمرة الفخار فورا إلى مكان بعيد يحسن اختياره . . وأمرا آخر بنقل المقابر الزاحفة على الجامع إن أمكن ، أو تسويرها بسور مرتفع وتجميل منظرها . . وثالثا لمسئول العمارة والبناء ، ورابعا لمسئول المرافق والنظافة . .

وهكذا بَهرنى الرجل بأسلوبه الفذّ فى المواجهة والتنفيذ . . وزادنى انبهاراً حين عدنا إلى مكتبه ، فإذا به قد أعدَّ فى ذهنه « مَلفًا » كاملا للقضية كلها . . !!

● حدثنى عن أنه سيدعو العالم العربى والإسلامى لإنشاء صندوق لحماية وصيانة الآثار الإسلامية حيث تكون .

● وحدثنى عن إنشاء دار كبرى للضيافة بجوار المسجد بعد توسعة المساحة المحيطة به وتستقبل هذه الدار جميع الشخصيات الإسلامية التى تزور القاهرة وتعقد بها المؤتمرات الإسلامية التى تستضيفها القاهرة . .

● وحدثنى عن إمكان شَق شارع فسيح يصل جامع « عمرو » بمسجد الإمام الحسين .

وأخبرنى بأنه سيُعد من فَوره مشروعا بكل هذا . . وعلىَّ أنا إعداد بحث تاريخى مُوسَّع عن المسجد ـ نشأته ، وتطوره ، وكبار الأئمة والشيوخ الذين درّسوا فيه ، وكل ما يتصل بتاريخه الدينى والعلمى .

واتفقنا على لقاء قريب ـ كان فى ذلك اليوم الذى قصدتُ فيه مكتبه أحمل فرحتى وأحلامى ، فإذا الرئيس « السادات » الذى كان قد أعلن فى أوليات عهده أنه « سَيَفْرُم » كل مَن

يرى فيه ضعف الولاء له ـ قد سبقنى إليه بالعزل والاعتقال .. !!!
ومات المشروع الكبير ، بغياب رَجُلِه الكبير .. وعندما حُوكم بتهمة باهتة ، وقضى فى سجن خاص بعض الوقت ، جاءه من ينصحه بكتابة التماس بالإفراج عنه يرفعه إلى الرئيس السادات ، فرفض .. وآثر البقاء فى سجنه حتى يخرج كريما وعظيما .. !!

● ● ●

كان الرئيس السادت شَغُوفاً بأن يُضْفى على نفسه قَداسة إلهيَّة « .... » لعله عبَّر عنها بمقُولته المأثورة : ـ « أنا آخر الفراعين الذين حكموا مصر » ... ولم لا ؟ ألم يكن فرعون إلها ؟؟!!
وبسبب هذه الثقة المفرِطة كان يعمل أعمالا طيبة ، تتحول فيما بعد إلى نتائج سيئة .. لماذا ؟؟ لأنه لم يكن يُتابعها بالرعاية والرقابة والحزم وصدق النوايا .. بل كان يتركها لبِركَاتِه فَتبُوء بالفشل والخذلان .. !!
●● من ذلك مثلا ـ عندما حاول تحرير الاقتصاد المصرى من وطأة التوجيه ، وإخراجه من النفَق المظلم ، تركَه نَهْباً للمستغلين وانتهى إلى « انفتاح » متفسخ مَوْبوء .. !!
●● ومن ذلك أيضا ـ عندما أراد الديمقراطية ، لم يَرْعَها حق رعايتها ، ولم يُسَوِّرها بصدق النية وإخلاص القصد . فجاءت ديمقراطية مُسايَرة ومُناوَرة . كما كانت ديمقراطية « إجراءات » ، لا ديمقراطية « قرارات » !! فكانت مشروعات القوانين تأخذ الشكل الديمقراطى فى الإجراءات لا غير ، فيُقدِّم المشروع إلى مجلس الشعب الذى يُناقشه ثم يُحِيله إلى اللجنة المختصة فتتدارسه .. وتكتب تقريرها .. ثم يُعاد إلى المجلس الذى يُعاوِد بحثه فى ضوء التقرير المقدَّم إليه .. وكل هذه خطوات ديمقراطية .. لكن حين تدق ساعة اتخاذ القرار تغيب الديمقراطية تماما ويأخذ مكانها قرار الرئيس الذى يُوحَى به إلى أغلبيته الحزبية فى المجلس ، أو قولوا : يُمْلَى عليها فتقترع عليه وتُصوِّت له ..
ليس ذلك فحسب ، بل ترك الديمقراطية تُعانى سوء التغذية وفقر الدم !! وهل يُغذيها شيء كحرية الكلمة ، والحركة ، والمعارضة ..
لكن الرئيس ـ رحمه الله ـ ضاق بهذه الحريات صدرُه .. وذات مساء اعتقل ألفا وخمسمائة من القادة والكتاب والصحفيين والمحامين والمهندسين والأطباء .. ومن أصحاب الرأى الذين ظنوا ـ وبعض الظن إثم ـ أنهم يَحْيَوْن فى مُناخ ديمقراطى رشيد .. !!

● ● ●

وكان أسوأ تجديف ضد الديمقراطية أيامئذ ، نوع غريب من التجسس المرهِق سلّطة

« السادات » على خصومه ، أو من يظن أنهم خصومه ، أو من يُحتمل أن يكونوا يوما من خصومه . . !!

ولقد استوصَى بى خيرا « !!! » واختصَّنى منه بنصيب كبير - مع أنى لم أكن أبدا من خصومه . . ولا يُظن بى أن أكون من خصومه . . ولا يُدركنى احتمال أن أكون من أولئك الخصوم . . !! ومع هذا ظل يطاردنى بالصوت وبالصورة فى بيتى . . ومع زوارى وأصدقائى . . وفى كل مكان يحتوينى . . بل حتى حين كنت أجالِسُ مكتبى لأسطر مقالا ، كانت أجهزته الشيطانية تلتقط صورة المقال . .

قد تعجبون ، وربما لا تصدقون !! ولكنى أقول لكم : أهناك واقع أبلغ من اليقين ؟؟ إن ما أحدثكم عنه الآن لم يكن يقينا فحسب - بل هو يَقين اليقين !!!

ولقد رجوتُ يومها الأخ الكريم المهندس « سيد مرعى » أن يبذل جُهدا لكشف الغُمَّة ، فأفلحت شفاعته حينا . . ثم « عادت رِيمَه ، لعادتها القديمة » !!!

ومات « السادات » - غفر الله له - تاركا لى تلك النزوة الشّريرة والضالّة ، وكأنها نصيبى وميراثى من تركَته ؟!

وحسبنا هذا القدر من الحديث . . فما كل ما يُعرَف يُقال . . ؟!!

● ● ●

ومهما يكن من أمر ، فلابد من الاعتراف بأن « السادات » بدأ بداية طيبة وموفقة حين أفرج عن الألوف من المواطنين الذين كادوا يتعفنون فى سجون صلاح نصر ، وشمس بدران ، وحمزة البسيونى . . والذين ذهب « عبدالناصر » بوزرهم جميعا !!

أخرجهم السادات من السجون والمعتقلات وأجرى تسويات عادلة لحالاتهم الوظيفية ، كذلك لا ننسى صلحه مع إسرائيل بعد انتصارنا العظيم فى حرب - ٧٣ - . . ذلك الصلح الذى مهما يكن فيه من قُصور ، كان خطوة فى الطريق الصحيح - وكما وصفتُه يومها بأنه لاعَيْب فيه إلا أن الطرف الآخر فيه - هو إسرائيل . . لأنها عودتنا دائما خُلف الوعد ، والنُّكث بالعهد . . !!

لن ننسى للسادات خيرا كثيرا صنَعه . . ولكنه اقْترف نفس الخطيئة التى ارتكبها « عبدالناصر » رحمه الله . . وهى الغرور بالنفس وبالسلطة وبالقوة . . ثم غِياب الإيمان الحق بالديمقراطية الكاملة والثقة بها والسَّير فى صحبتها . .

كذلك استسلامه للترف . . وإن كان المهندس « عثمان أحمد عثمان » أقسم لى بالله العظيم مرتين أن السادات مات شحاذا . . وهذا نص تعبيره لى وأنا والسيدة « سناء السعيد » جالسان معه فى حديقة منزله بالهرم . . !!

وجاء « مبارك » ـ الرئيس الثالث للجمهورية الثانية .. بادئاً بما بدأ به صاحبه من قبل . فأفرج عن المعتقلين جميعا .. وأعلن أن اسمه « محمد حسنى مبارك » أى أنه لن يكون تقليداً لغيره .. ووسَّع رقعة الديمقراطية .. ولكن أدركه ما أدرك صاحباه ـ ناصر والسادات ـ وهو « الخوف من الحرية » !!! فراح يقدم رِجلا ويؤخر أخرى ، مما حوَّل الديمقراطية إلى لون باهت ، وقد كان ـ ولا يزال ـ قادرا على تجويد طلائها ، ورفع بنائها .

وفى عهده فَشَتْ للمتطرفين الغُلاة فاشية .. وغَشِيَتْ البلاد منهم غاشية .. ولم يكن بِوُسْعِه قط أن يدَع البلاد طُعمة للنار ، لاسيَّما بعد أن بدأ يتكشف دور القُوى الأجنبية فى العمل الخبيث على تدمير مصر التى هى شَجًن فى حُلوقهم جميعا ، ناسين أو جاهلِين أنها كِنانة الله فى أرضه ، وأن من أرادها بسوء قصَمه الله ..

كَمْ بَغت دولة علىَّ وجَارتْ ثم زالتْ ، وتلك عُقبى التعدِّ

ولسوف يعلم المحرضون والمفسِدون : أىَّ مُنقلَب ينقلبون .. ؟!!!

● ● ●

لقد آثر المسئولون علاج الفتنة بالحوار .. ومتَى ؟؟ غَداةَ اغتيال رئيس الدولة وهو وسط جيشه وقِلاعه .. !!

ومتَى أيضا ؟؟ غداة مصرع أكثر من مائة وجرح مائة وخمسين من رجالنا فى الشرطة صبيحة يوم العيد ، وأطفالهم فى البيوت ينتظرون أَوْبَتَهم ، ليقابلوهم بالأحضان . و « كل سنة وأنت طيب يا بابا » .. ولكن « بابا » قد حصدته مَناجِل البغى والجريمة والضلال ... !!

فى هذه الظروف المزَلْزِلَة .. جنح المسئولون إلى السِّلم ، وقاوموا الجريمة بالحوار .. !! وكان بطل هذا الموقف وزير الداخلية يومئذ اللواء « حسن أبو باشا » الذى كافأه المعتدلون فيما بعد بكَمِّية من الرصاص المدمر ، أفرغوه فى جسده أمام داره .. فى شهر رمضان المعظم .. وهو قادم من مأدبة إفطار عند كريمته .. يتعجَّل الصعود إلى شقته المتواضعة والتى لم يبرحْها منذ اختارها سكناً له وهو نقيب فى البوليس .. يتعجل الصعود إليها ليصلى فريضة العشاء .. !!

● ● ●

عرفت « الرجل » بعد نقله من وزارة الداخلية إلى وزارة « الحكم المحلى » ..

وفى أول زيارة له ، طال حديثنا عن الديمقراطية مُثيرا بعض الاعتراضات التى يبْدو معها وكأنه فى شك من جَدْواها .. بيد أننى اكتشفت خلال لقاءاتنا المتكررة أن إيمانه بها عميق ووثيق .. وأنه يوم كان يسألنى مثيرا بعض الشكوك فيها ، بدَا وكأنه يختبر مبلغ إيمانى بها ومدَى ولائى لها .. !!

كانت الانتخابات قبل عهده كوزير للداخلية ترتفع فى نسبة الحضور ونجاح الحزب الحاكم إلى تسعين وأكثر من تسعين فى المائة . . لكن هبطت هذه النسبة الكاذبة هبوطا كشف عنصر الافتعال فيها فى أول انتخابات أشرف عليها السيد « حسن أبو باشا » . . كما أخبرنا فى مذكراته المنشورة . . ففى عام ـ ١٩٨٣ ـ كانت النسبة ـ ٥١٪ ـ فى انتخابات مجلس الشورى .

وفى عام ـ ١٩٨٤ ـ كانت النسبة الحضور لانتخابات مجلس الشعب ـ ٤٣٪ ـ وكان إعلانه هذه الأرقام الحقيقية مَثار نزاع صاخب بينه وبين المرحوم الدكتور « فؤاد محيى الدين » رئيس الوزراء الذى أغضبه إعلان الحقيقة . . وكان يريدها على هواه ـ تسعين أو أكثر من تسعين فى المائة !! بينما كان المواطنون يُباركون شجاعة الوزير ونزاهَته . . وينعته الأستاذ « نجيب محفوظ » ـ بأنه أحد أهم منعطفات الممارسة الديمقراطية . .

● ● ●

ونعود إلى حديثنا عن الرئيس مبارك . .

فعندما غزا « صدام حسين » الكويت ، وأخفقت معه كل محاولات نَهْنَهَةِ غروره وطغيانه ، حَمَلَ « مبارك » مسئوليته كاملة وحمل معها مسئولية مصر جميعها ونستطيع الآن وقد زالت غشاوة العاطفة والانفعال أن نبصر الحقيقة كضوء الشمس ، وفلَق الصباح ، فإذا الذى حدث كان جريمة ـ بكل مقاييس الجريمة ـ ضد العرب وضد الإسلام ، وضد شرف الرجال .

من هنا كان « مبارك » مُعبرا عن كل عظمة القادة الكبار ، وهو يتحدَّى « صدام حسين » صديقه بالأمس القريب ، ويكبحُ جِماحه ، ويُشارك بقواتنا المسلحة فى حملة تأديبه ، وتحرير الكويت من أكاذيبه . . !!

ولقد كان لى ـ بحمد الله تعالى وفضله ـ دور فى تلك الحرب العادلة والفاصلة أدَّيتُه كمواطن عربى ، ومسلم ، وإنسان ، وكاتب يمقت الظلم والاستبداد ، ويُقاتل مع الحرية فى خندق واحد وتحت علَمِها الخفّاق . .

● ● ●

وأحسب أن الأمور قد وضَحت واستبانت . . فجميع الذين كانوا مع « صدام » نفروا منه ، وابتعدوا عنه ، وتركوه يغرق وحده . . بعدما بَصُروا بما أنزله بشعب العراق من خزى وجوع ودمار . . !!

وكان آخر الناقمين عليه « الملك حسين » الذى حرَّض شعبه عليه من طرْف خَفِىٍّ ، وحضَّه على التخلص من طغيان الدكتاتورية ، وحثَّ الخطى إلى الديمقراطية . . !!

كما أن نفسية « صدام » وخبايَاهَا ، قد وضَحتْ واستبانت يوم حاقَتْ به الهزيمة ، فأبَى إلا تدمير الكويت قبل انسحابه ـ أشعل النار فى آبار بترولها ، وسَمَّم مياهها ، فقتل الطير المحلق

فى سمائها ، والأسماك السابحة فى خليجها .

أعوذ بالله !! فيم كان هذا كله يا صدام ؟؟

سيجد الخرّاصون مائة تبرير لهذه الجرائم . .

سيقولون : إنه قتل الأطيار والأسماك حتى لا يَغْتذى بها الأمريكان !!

وسمّم المياه حتى لا يستحم فيها الأمريكان !!

ودمّر بالحرائق آبار البترول حتى لا ينتفع بها الأمريكان !! تماما ، كما قتل الأطفال من قبل ، حتى لا يكبروا ويشبُّوا ويُصادقوا الأمريكان . . ؟!!

هذه الكلمات ليست للتشهير . . فقد قُضِىَ الأمر ، واستَوتْ على الجودِىِّ ، وانتهى صدام . . إنما هى ذِكرى لمن كان له قلب أوألْقَى السمع وهو شهيد .

ذكرى للذين أنكروا على مصر ورئيسها دورهما فى حرب الخليج . . ولا يزال حَمقَاهُم يُنكرون .



التضحية بالديمقراطية !!

كان الحل عند الرئيس الراحل عبد الناصر هو « الدكتاتورية » وظلّت تُغريه بنفسها ، وتُناديه صباحَ مساء أنْ « هَيْتَ لك » ، حتى واقَع من الأخطاء المُرْدية ما انتهى به وبنا وبالأمة العربية إلى ما لا يُستطاع تَفادِيه أو تحامِيه !!

ولعلّه أحاط به ما أحاط بأبناء جيله - وأنا أحدهم - من إعجاب بالدكتاتورية أيام كنا فى مُبتكر شبابنا . . كان هناك تيار شبه عَالمى يقود الشعوب إلى الحُنْق على الديمقراطية بسبب الاستعمار البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى وغيره من الدول الديمقراطية التى لم تمنعْها مبادىء الديمقراطية عن احتلال البلاد واستغلال العباد !!

وكان هناك نذير جديد خرج فى ألمانيا وإيطاليا - هلتر - فى الأولى . . و - موسولينى - فى الثانية . . وكنا نحتقر - موسولينى - بسبب استعمارده الوحشى لـ « ليبيا » ولأطماعه الاستعمارية الجائرة . . بينما كنا نُحب « هتلر » و تبهرنا إذاعته وخطبه واستعداده لمحق الدول المستعمرة - بريطانيا هنا وفى الهند وفى السودان وفلسطين وغيرها من الأقطار . . وفرنسا فى الشام وشمال أفريقيا وسواها . .

ويلغ فُتُوننا بهتلر مَبلَغا عظيما حتى كان كثير من الناس يسمونه « محمد هتلر » إذ يرونه مُسلما قد جاء الله به ليؤدبَ المستعمرين . . وكانوا يتبادلون الحديث عن الرُّؤى الصالحة التى يَروْنها فى المنام لهتلر . .

ولا أنسى أننى فى تلك السِّن وتلكُمُ الأيام ، رأيتُه فى منامى مُعْتلياً مِئذَنة الجامع الأزهر ، ويؤذن للصلاة بلسانٍ عربى مُبين . . . !!!

ومَضيتُ أحدّث أصدقائى ومعارفى بهذه الرؤيا فَيطرَبون ويفرحون ، ويُقسم أحدهم أنه «المهدى المنتظر» . . وغداً سيُعلنُ إسلامَه وينصر الإسلام والمسلمين فى كل مكان . . !!

وطبعا كانت هذه . . المَرائى » أضغاثُ أحلام ، أَزْجَتْها الأمانِى والتَّطلعات!!

* * *

أقول : لعلَّ . . بل لابد أن يكون « عبد الناصر » قد تأثّر بما تأثر به جيله . . لا سيما وقد مرَّ فى مسيرته بحزب مصر الفتاة - كما صرَّح هو - ومصر الفتاة كانت أيامئذ حربا على الديمقراطية والأحزاب ، وبالتالى طليعة جائحة للدكتاتورية الزاحفة ، وكان زعيم الحزب المرحوم الاستاذ « أحمد حسين » أكثر الناس افْتتانا بهتلر وبالنَّازيَّة !!

ويبدو أن إعجاب « عبد الناصر » بالدكتاتورية فى سنه المبكرة قد اختبأ داخل شخصيته مستوطِنا وجدانه وأحلامه ، بحيث لم يُفلح فى إجلائه ما عسى أن يكون قد صادفه من تقدير للديمقراطية . .

وقد كان من الممكن أن تطوينى الدكتاتورية بين أمواجها ولُجَجها حتى يومنا هذا ـ لولا فضل الله أولا وحفظه .. ثم انغماسى فى الحياة السياسية القائمة على الديمقراطية ، وقراءاتى الكثيرة عن الحرية .

ظَلّ الرئيس الراحل مفتونا بالحكم المطلق ، حتى لقد كان يضع من القوانين ما يُرضى مِزاجه ، ثم بعد حين يخالفها وينقضُ عليها ..

وراح رأيه فى الديمقراطية يزداد جُنوحا إلى نقيضها .. وكان أحيانا يَتماوج بين الرغبة فى الديمقراطية ، والولَع بالدكتاتورية التى كانت العوامل المحرِّضة عليها ، والمحببة فيها تحيط به وتَطِن فى سمعه وتستأثر بعقله وقلبه ..

ولعلّ من المفيد أن أَسُوق بعض الفقرات من ذلك الحوار الذى دار بينى وبينه عَبْر ليلتَيْن من ليالى اللجنة التحضيرية التى أسلَفْتُ الحديث عنها .. وهذه الفقرات مأخوذة من المضابط الرسمية لاجتماعات اللجنة المذكورة والمنعقدة خلال نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٦١ ـ وإنى لاختزلها هنا بالقدر الذى تتسع له هذه الحلقة من المذكرات .

* * *

السيد خالد محمد خالد ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ ربنا آتنا من لَدُنْك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشَدا ﴾ .

﴿ ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذْ هديتَنا ، وهبْ لنا من لَدُنْكَ رحمة إنك أنتَ الوهاب ﴾ ..

أيها السادة : حوْل مهمة من أجَلِّ المَهامِّ وأصعبها ، نجتمع اليوم مدعوِّين من الحكومة التى تفضلَت ـ مشكورة فنادتنا لنُشاركَها حمل أعباء الموقف ، والحكومة لم تخترنا اعتباطا . بل اختارتنا وهى تعلم أننا نَصلح لهذه المهمة الجليلة .. ومعنى ذلك أنها تريد أن تعرف حقيقة آرائنا ، لا أن تعرف الصورة المكرَّرة لآرائها .. وتريد أن ننقل إليها أفكارَنا ، لا أن نُشاطرها أفكارها .. !!

إننا نريد العَزْل لحماية الاشتراكية .. وجَوْهر الاشتراكية يعنى إلْغاء الامتيازات بين البشَر . ومن غير المعقول أن تَلغى الاشتراكية الامتيازات الاقتصادية فى المجتمع وتُقيم مكانها امتيازات سياسية فى الحكم .. ! مِن أجل ذلك يكون الوضع السليم للاشتراكية الحقة ، هو النظام الديمقراطى الكامل الذى يتقدم فيه المجتمع كله ليحمل مسئوليته عن توزيع ثروته ، وتوزيع مسئوليته .. إنكم تسألون : من الشعب ؟ ومن هم أعداء الشعب ؟؟ إن الشعب هم المواطِنون الذين يعيشون فوق هذه الأرض .. وأعداء الشعب هم من يقفون اليوم ضد آمال الشعب وحقوقه ..

وفى هذه اللحظة ، لا أجد أمامى صورة تُضىء لنا هذا المعنى أفضل ولا أمثلَ من سيدنا « محمد » ﷺ حين دخل مكة منتصراً ، وفى تقديره وحسابه احتمال أن يكون هناك من يتهيَّأون للانقضاض عليه فى الفرصة المواتية .. ومع هذا ، فقد قال لأهل مكة جميعا : « من دَخل المسجد الحرام فهو آمن » و « اذهبوا ، فأنتم الطُلَقاء » ..

أيها السادة : لا أظن أنه يخطر ببالنا أبدا أن نُقصِىَ عن صفوف الشعب أُناسا لمجرد أنهم كانوا أثرياء ؟!! إن الخيانة قد تجىء من الفقير ، كما تجىء من الغنِىّ .. إن الخيانة قد تجىء ممن يكونون

فى رأينا أمناء للشعب ، ومواطنين صالحين فى هذا الشعب .. إن الخيانة تتقمّص أصنافا شتّى من الناس لكى تلعب عن طريقهم دورها ..

* * *

السيد رئيس الجمهورية ـ عندما ينظر الإنسان إلى الاشتراكية وإلى الديمقراطية بمعناها الغربى يجد أن معنى الديمقراطية بالنسبة للاشتراكية قد يختلف .. ففى الاشتراكية نحدّ من حرّيات الناس.. حُريتهم فى التملُّك ، تدخُّل فى الحريات .. الحدُّ من حُريتهم فى إطلاق الأسعار ، تدخل فى الحريات .. الحدُّ من حريتهم فى الاستغلال ، تدخُّل فى الحرية .. إذن ، أول ما نتكلم عن الاشتراكية نفتح مباشرة باب الحرية ، وباب الديمقراطية ..

(يُلاحظ هنا الخلْط واضطرابُ الفهم واعتبار الاشتراكية والديمقراطية وَضْعَان مختلفان ، مع أنهما وضع واحد وقضية واحدة) ..

واستأنف الرئيس حديثه قائلا :

فى المناقشات جاء ذِكر الإسلام ، وقول الرسول لكفار مكة « إذهبوا فأنتم الطلقاء » و « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ـ متى حدث هذا ؟؟ حدث بعد نجاح الدعوة الإسلامية بعشرين عاما .. ؟؟!!

السيد خالد محمد خالد ـ السيد الرئيس ذكر أن عفوَ الرسول عن المشركين كان بعد أن تمَّ نصره .. والحقيقة أن الرسول ﷺ لم يَعف عنهم وقد تم له النصر عليهم .. بل فعل وهو فى اللحظات الأولى من النصر .. بدليل أنه بعد فتح مكة ظلَّ يخوض حروبا ومَغازِىَ مع أعداء الله وأعداء دينه .. لكنه كان يعلم أن كثيرين من مشركى مكة كانوا يُناوئونه ظنا منهم أنه لن ينتصر .. أمّا الآن وقد فَتح مكة وداهم قريشا فى عُقْر دارها ، فإن الكثيرين سيقبلون على دعوته ، حتى من بين الذين كانوا يُعادونه ، عندئذ فتح لهم قلبه الكبير وناداهم : « اذهبوا فأنتُمُ الطُّلقاء » !!

وصدِّقونى : إنه ليس من صالح أحد أن يُسلِّح الشعب فى فترته هذه بشعارات عنيفة ! يجب أن نسلحه بطبيعته الطيبة الممتلئة باليقظة والحب والوفاء .. هذا ما أريد أن أقوله .. وسأظل أقوله .. ، لأننى أومن بشعبى . ليس لى أية مصلحة .. لستُ غنيا ، ولا أنا من أسرة ثرية .. ولقد رأيتُ « المُحضر » يدخل بيتنا ـ وأنا طفل ـ أكثر من مرة ـ ويحجز على الماشية ، ويحرمنى وإخوتى من ألبانها .. !!

إن من تُسمونهم أعداء الشعب لم أقف لأطلب لهم الرحمة .. بل لأطلب لهم العدل .. ! لأنه لا ينبغى أبدا أن يُؤخَذوا بجريرة لم يرتكبوها فى المجتمع الاشتراكى المُزمَع قيامه ..

* * *

السيد رئيس الجمهورية .. بالنسبة لما ذكره الأخ خالد فإن حرية الكلمة موجودة .. وبالنسبة لك أنت بالذات هى موجودة .. وكنت تكتب فى الأهرام ، وأنت الذى تركته ولم يُخرجْك منه أحد .. وكنتُ أودُّ أن أسمع من الاستاذ خالد محمد خالد إذا كان قال كلاما أو كتَب كلاما ولم يُنشَر .. كل الكلام الذى كتَبه نُشِر .. وكل الكتب التى ألَّفها نُشرت .. وحرية الكلمة موجودة على أوسع مدى ..

والمسألة ليست مُحاكَمة .. والعملية ليست أن نقف هنا لنقول إننا لا نطلب الرحمة ، بل نطلب العدل ؛ لأننا لسنا فى محكمة .. !!

وإذا كنتَ تتكلم عن العدل ، فأنا مسئول عن العدل فى هذا البلد .. مسئول أمام الله ، وأمام الناس ، وأمام نفسى ..

شعبنا طيب كما تقول .. شعبنا رحيم كما تقول .. فماذا عملنا ؟؟ عملنا محكمة ثورة عام ـ ٥٣ ـ أو ـ ٥٤ ـ وأصدرت أحكاما .. وأصدرنا عفوا عن هذه الأحكام .. حُكم على « فؤاد سراج الدين » بخمسة عشر عاما ، فأخذ عفوا وخرج ، ولم يكن قد مضى عليه أشهر .. وإبراهيم عبد الهادى حُكم عليه بالإعدام .. وفى مجلس الثورة دافعت عنه حتى خُفف الإعدام إلى المؤبد .. !!

أنا أقول : ليس من صالح أحد أبدا ألا نُؤمِّن الثورة .. ومن هنا نريد من كل أحد أن يحمى هذه الثورة بدمه .

سنعمل مُقاوَمات شعبية .. وسنعمل حرساً وطنيا .. الشعب كله سنعبئه حتى يحمى هذه الثورة ..

(يُلاحظ من هذا الاتجاه أن الرئيس رحمه الله لا يثق ولا يؤمن بقدرة الديمقراطية على حماية مكاسب الثورة) .. !!

واستأنف حديثه قائلا :

أى كلام تريد أن تقوله ، تقدر تقوله .. لقد كتبتَ مقالا طويلا ، قالوا لى عنه إنك شيوعى .. قلتُ لا أظن .. انشروه .. وعادوا يقولون لى إنك رجعتَ للتصوُّف .. قلتُ : لا أظن . إنه فى مرحلة انفعال نفسى .. وكتبك كلها قرأتُها .. وكتاب .. الديمقراطية كان يُراد منع نشره . وكتاب « لكى لا تحرثوا فى البحر » منعوه ، فقلت لهم : انشروه .. وقرأتهما ..

لقد منعتُ كتابا واحدا إلحاديا ، كان ينكر وجود الله .. هذا هو الكتاب الوحيد الذى طلبتُ من الدكتور حاتم أن يمنع نشْره .. إنه كتاب لغيرك .. وليس لك ..

* * *

السيد خالد محمد خالد ـ فى الحقيقة لا أنكر أبدا أننى « شخصيا » نَعِمْتُ بحرية الكلمة فى عهد الثورة إلى أبعد آفاق هذه الحرية .. وإننى أُقسم غير حانِث أن نصف شجاعتى ، إن لم يكن أكثر ، إنما استمدَدْتُها فى التعبير عن آرائى طوال هذه السنوات العشر من حُسن ظنى بك وحُسن فهمى لك .. لقد قلتُ ـ ولا أزال أقول عنك ـ « إن هذا الرجل لا يمقتُ النقد ، ولكنه يمقُت الحقد » .. إننى يا سيادة الرئيس أعرفك تماما . وإذا كنتُ أرجو لك مزيدا من « الكمال السياسى كحاكم » فلأنى أراك أهلا لهذا الكمال الذى أرجوه .. إننى إنسان عادى ، ومع ذلك فإنى أعتزُّ بكلمتى .. وأقسم لو أننى لا أراك أهلا لهذا الذى أرجوه لك ، ما وجَهتُ إليك كلمة نقد واحدة .. وإنى كمُواطِن أتمنى أن تحكمنى عشرينْ سنة أو أكثر .. ولكن ، الحكم الديمقراطى الذى أومن به وأرجوه !!

إن خصومك وخصومنا فى الخارج لا يجدون ما يقولونه سوى حجة واحدة تتمثل فى قولهم : أين البرلمان ؟؟ أين الدستور ؟؟ أين المعارضة ؟؟ أين الديمقراطية ؟؟

السيد رئيس الجمهورية ـ بالنسبة للديمقراطية قلت فى أول المناقشة أننا نود أن نفتح موضوع الديمقراطية ، هل المقصود بالديمقراطية الغربية ، هل المقصود بالديمقراطية الديمقراطية المجردة ، وهل المقصود بالديمقراطية أننا نعمل أحزابا ، وعندما وضعتُ هذه الأسئلة وضعتها لحضراتكم ، وقلتُ فى كلامى إننى فى يوم من الأيام فكرتُ فى إقامة حزبين ، حزب يحكم وحزب يعارض ، ولو أردت أن أعمل الآن حزبين بدلا من اتحاد قومى لأمكن أن أعمل حزبا يحكم وحزبا يعارض ، ولكن فى أى إطار ؟

وفى أى نظام اجتماعى ؟ إنى أعتبر أننا فى ثورة ، ثورة اجتماعية ، لكى توجد الديمقراطية الغربية وُجدت الأحزاب . وُجِدَ نظام الإقطاع . والواقع أنه لم تكن هناك أحزاب ولا ديمقراطية بمعناها الغربى ، ثم وجدت الرأسمالية ثم بعد هذا اتجهوا إلى الأحزاب الديمقراطية بمعناها الغربى أيضا . لمصلحة من هذه الأحزاب وهذه الديمقراطية ؟ الدولة لِمَنْ فى الدولة الغربية ؟ الدولة لِمَنْ فى الدول الرأسمالية ؟ الدولة لرأس المال ، الدولة التى يسمونها دولة ديمقراطية سواء تبادلها هذا الحزب أو ذاك فهى عبارة عن دكتاتورية رأس المال . هل نريد عمل اشتراكية مثل اشتراكية « دى موليه » ونقول إننا مثل الديمقراطية الاشتراكية ونبقى أصلا فى ذيل الاستعمار أو ذيلا للاستعمار وذيلا للرجعية ؟ ليست هذه أبدا الاشتراكية التى نريدها . أنا لا أريد أبدا أن تختلط الأمور فى عقولنا أو تصورنا بالنسبة للديمقراطية ، الديمقراطية ، كلُّ الديمقراطية لهذا الشعب حتى يثبت دعائم ثورته الاجتماعية ، قلت هذا بمعنى الكلمة . قلتُ هذا بالتفصيل فى كلمتى . هل أقول الآن إنى أريد ديمقراطية وأعمل ثلاث أحزاب كما قلتُ وكما كانت الرجعية تأخذ نفوذها من الانجليز ؟

الأردن فيها برلمان وفيها ديمقراطية ، هل تعجبنا الديمقراطية التى فى الأردن ؟ يوجد برلمان ويوجد دستور وتوجد ديمقراطية أحزاب ، هل المسألة شكل ومسألة منظر ؟ كان عندنا برلمان وكان عندنا دستور كانت عندنا أحزاب ، فما الذى صرنا إليه فى سنة ١٩٥٢ ؟ وكيف كانت تُحكم البلد ؟ ولصالح مَنْ ؟ هل كانت هناك طبقات أم لا ؟ كانت هناك طبقات . هل كان هناك إقطاع أم لا ؟ كان هناك إقطاع ، وكان هناك استغلال ومستغلون . هل كان هناك إلياس اندراوس أم لم يكن هناك « إلياس أندراوس » ؟ كانت الوزارة تسقط مقابل ٥٠,٠٠٠ جنيه ، وعبود أسقط وزارة ، وكلنا نعرف هذا الكلام ، فى عهد الديمقراطية ، وتحت هذه القبة ، وفى عهد الدستور ، هل هذا هو المطلوب ؟ .. منظر . !! أنا أعتبر أننا إذا اتجهنا للمنظر نكون فرّطنا فى حق بلدنا ، بالنسبة لى يمكن يكون هذا الأمر أسهل شىء لأنى سأبقى رئيسا للجمهورية إذا كانت العملية رياسة جمهورية ، لكن يكون معنى هذا أننى تركت البلد بدون أن أحقق الثورة الاجتماعية .

أشار أحدُ الأعضاء هنا فى أول يوم لاجتماع هذه اللجنة إلى الثورة التركية ـ وقد قرأت ثورة مصطفى كمال بالتفصيل ـ فقال إنه يوم مات مصطفى كمال ضاعت الثورة التركية ، من قال هذا أظن أنه السيد الشرباصى أو السيد الغزالى وأعتقد أنه السيد الغزالى .... لماذا ماتت ثورة مصطفى كمال مع أنها كانت ثورة سياسية حارب فيها الإنجليز وحارب فيها الاحتلال وحرر تركيا ونجح وكان حكمه قويا . بعد

ذلك عمل الحزبين اللذين بقيا بعد مماته ، قام بعمل الحزبين ليقول إنها ديمقراطية ويتخلص من الانتقاد وأتى بإينينو ووضعه فى حزب وأتى بآخر ووضعه فى حزب ثان ، وسارت التجربة وإذا به يجد أن البلد بها انقسام فعاد وعمل حزبا واحدا وهو حزب الشعب ، لكنه لم يحول ثورته السياسية إلى ثورة اجتماعية فضاعت ثورته يوم وفاته لأنه كان هناك إقطاع وسيطرة وتحكم . فأملنا وسبيلنا الوحيد هو ثورتنا الاجتماعية ، وإذابة الفوارق بين الطبقات وإذا سرنا اليوم على أساس الديمقراطية الغربية لازم أعمل حزبا للرأسماليين وحزبا للشيوعيين ، ولست أنا الذى سأعمل ولكن الرجعيين هم الذين سيجتمعون ويعملون الحزب كما تجمعوا مع بعضهم فى سوريا وعملوا قائمة اليوم . . !!

والشيوعيون لم يلحقوا بالقطار ولم تعمل لهم قائمة فى سوريا ولو كانوا وصلوا قبل قيام القطار كانوا عملوا قائمة ، حزب للرجعيين ، وحزب للشيوعيين ، والشعب يضيع فى الوسط ، إما أن يعمل حساب للرجعية ويسير معها ، وإما لحساب الشيوعية ويسير عمها ، ورأيى فى الشيوعيين قلته اليوم وقلته قبل اليوم وهو أن أى واحد يتلقى تعليمات من الخارج أعتبره غير أمين على بلده . وأنا متأكد بكل أسف أنهم يأخذون تعليمات من الخارج ، الرجعيّون مصالحهم مرتبطة بمصالح الاستعمار ويضيع الشعب لأننا نريد أن نقلد الغرب ونقول إن عندنا ديمقراطية ، هل نترك الشعب لتضيع كل مكاسبه وتضيع الثورة الاجتماعية ؟ نفرض أننا سرنا فى هذا الطريق وجاء الرجعيون وأخذوا أغلبية وعملوا برلمان كما سيحدث غدا فى سوريا تضيع الثورة الاجتماعية . وإذا أردنا أن نحدد معنى الديمقراطية فلابد أن نكون على بينة ، لمن نعمل ؟ هل الديمقراطية للرجعيين ليستعيدوا حكم هذا البلد ويخضعوها للإقطاع ويخضعوها مرة أخرى لدكتاتورية رأس المال وسيطرة رأس المال تحت اسم الدميقراطية الغربية . .

نحن فى ثورة على هذا النظام ، نحن فى ثورة ضد الإقطاع ، وضد الرجعيين وضد الاستغلال ، وضد النظام الطبقى الذى كان موجودا فى بلدنا ، ونريد أن نذيب الفوارق بين الطبقات .

يوم أن نذيب الفوارق بين الطبقات ويوم أن تتساوى الناس يكون هذا هو الوضع الصحيح . إذا أقمنا اليوم أحزابا فإننا سنقيم أحزابا على أساس مصالح اجتماعية ، ما هو الداعى لإقامة أحزاب ؟ الداعى لإقامة أحزاب أن تقوم الأحزاب على أساس من المصالح الاجتماعية ، الطبقة الإقطاعية يكون لها حزب والإقطاعية والرأسمالية يكون لها حزب . والطبقة العاملة يكون لها حزب . ثم لا ننسى أننا مسرح للحرب الباردة . للمعسكرين اللذين لا يحاربان فى روسيا ولا فى أمريكا بل يحاربان هنا ويحاربان فى جنوب شرقى آسيا وفى أفريقيا ، نحن ميدان هذه الحرب . . نفتح الراديو نسمع الدعايات الموجهة ضدنا . راديو عمان ، صوت الملك حسين ، ماذا يعمل الملك حسين وصوت الملك حسين . عمان صوت الاستعمار ، الملك حسين يقبض ويتكلم ، الرجعية فى الأمام والاستعمار من ورائها يمولها ويدفعها . الملك سعود يعطى فتوى ضد الاشتراكية . . لصالح من يعطى الملك سعود هذه الفتوى ؟ لصالح الاستعمار . . هذا أمر واضح . .

عندما يقول الاشتراكية ضد الإسلام . .

الجرائد التى تصدر فى بيروت وتهاجم يوميا وتقول ضاع جمال عبدالناصر وضاعت ثورته إلى آخر هذا الكلام هل تعتقد أن هذه الجرائد تكسب لا . إنها لازم تخسر وهناك من يدفع .

نحن مسرح الحرب الباردة لنكون ضمن مناطق النفوذ . هل نترك هذه الحرب الباردة لتنفذ إلى بلدنا . ولنكون مسرحا واسعا لها لكى نقول إننا عملنا ديمقراطية . ؟

إننى أقول لا ديمقراطية لأعداء الشعب الذين هم الرجعية المتعاونة مع الاستعمار .

أى شخص يتصل بدولة أجنبية يأخذ تعليمات منها وأنا فى هذا قد أخطىء فى حكمى على شخص ما ولكنى إذا أخطأت فى حكمى أستطيع أن أصححه بعد ذلك وقد يكون هذا الخطأ له مبرر وهو أنى أريد أن أحمى هذا الشعب .

المعارضة ، الدستور سوف نعمل دستورا ، وسوف نعمل برلمان والبرلمانات باستمرار كانت فيها معارضة ، وآراؤنا التى قيلت هنا كان فيها آراء كثيرة معارضة ، نحن لا نمنع المعارضة لكنى لا أقول إنى أعمل معارضة لتأتى هذه المعارضة وتتنظم وتكون معارضة رجعية وتتفق مع الدول الاستعمارية لأجل إسقاط هذا الحكم وتتولى هى الحكم ، وتعمل لجر بلادنا إلى داخل نفوذ المعسكر الاستعمارى ، أو ليأتى الشيوعيون الذين فى الحزب الشيوعى المصرى ، والمتصلون والذين يأخذون تعليماتهم من صوفيا ورياستهم موجودة فى صوفيا ، وكانوا قبل ذلك يأخذون تعليماتهم من روما ، وقبلها كانوا يأخذون هذه التعليمات من فرنسا ، وأيام الحرب كانوا يأخذون تعليماتهم من انجلترا ، أنا أعرف كثيرا منهم وهذا كلام صريح وواضح ومعروف وطالما أن شخصا يأخذ تعليماته من الخارج لا يمكن أن يعتبر وطنيا بأى حال من الأحوال .

إذا كان هناك أناس ماركسيون لا يأخذون تعليمات من الخارج فلا يمكن أن نتخذ ضدهم إجراءات بل نتركهم لأنهم لا يمثلون هنا عنصر الخيانة .

نحن نقول إن اشتراكيتنا ليست هى الشيوعية ومع ذلك نترك كثيرا من الشيوعيين والمتشيعين والماركسيين وهم كثيرون وكل واحد منهم يتكلم كيفما شاء ، وكل منهم يبدى رأيه ولا خطر منه طالما أنه لا يأخذ أوامر من الخارج أو من دولة أجنبية .

البرلمان ، الدستور ، سيوضع الدستور سيأتى البرلمان . المعارضة ، إذا أردت معارضة منظمة لابد أن تمثل مصلحة وإلا ستكون معارضة تمثل مصلحة الإقطاع ورأس المال وأرى أن مثل هذه المعارضة لا نستطيع أن نسمح بها الآن فى فترة ثورتنا الاجتماعية ، أقول إنى سأذيب الفوارق بين الطبقات فكيف آتى بشخص يقف أمامى ويقول لى ، لا . إن بينى وبينك حربا لأنى أعلن ثورة اجتماعية لفرض هذا عليك فرضا . أيمكن ذلك بالتراضى ، والله لن يرضى بأى حال من الأحوال . أقول له من فضلك تنازل عن أرضك . . يقول لى متأسف ولا يرضى . . أقول له من فضلك نوزع أرضك على الفلاحين يقول لى متأسف .

هل من الممكن أن أقول لك من فضلك أعطنى النقود التى فى جيبك ؟ هل ترضى ؟ لا أحد يرضى بذلك أبدا ، وطالما أنه لا يرضى أحد بعمل ذلك ، فلابد من ثورة اجتماعية ، وهذه هى المرحلة التى

نسير فيها . إذا سَمحْتُ فى هذه الثورة الاجتماعية للرجعية والرأسمالية أن تأتيا ليعارضا ليكون هناك مظهرللديمقراطية أكون مقصرا فى حق هذه الثورة .

سيُوضع الدستور وسيعمل البرلمان ، أما المعارضة فلكل واحد من أبناء هذه الأمة الحق في أن يعارض ويقول ما يريد ، ولكن فى إطار أهداف الشعب ، له أن يقول إن جمال عبدالناصر أخطأ أو أنور السادات أخطأ ولكن ليس له أن يقول ارجعوا الإقطاع .

الذى يقول ارجعوا الإقطاع أنا لا أعتبره معارضا بل أعتبره خائنا لأهداف هذه الثورة الاجتماعية .

السيد خالد محمد خالد ـ السيد الرئيس ، أيها الإخوان .

اسمحوا لى أولا أن أؤكد لحضراتكم ، أنى أكره كثرة الكلام ، ولكن مناقشة السيد الرئيس ، والتحدث إليكم ، يحببان إلى النفس ما تكره ، ويحملانها على السير فى غبطة إلى مالا تريد . وأحسست بما سمعته الليلة من السيد الرئيس ، أنه قال كلاما خطيرا ، وأعنى بخطره وخطورته .أنه يستدعينا الوقوف أمامه طويلا ، يستدعينا إلى دراسته وإلى البحث عن المغزى الجليل ، الذى لا أشك فى أنه جليل ، ذلك المغزى الذى يرمى إليه الحديث الخطير الذى سمعناه . ولكننى سأبدأ وأؤكد لحضراتكم أننى من الذين يؤمنون بأننا لا نمارس اليوم ثورة ، لا ثورة اجتماعية ، ولا ثورة اشتراكية . نحن نعيش فى تحول لا فى ثورة ، نحن نعيش فى تطور ، لا فى طَفرة . . وإذا كنا نرى أننا فى ثورة جديدة ، فليشكل لها مجلس قيادة ثورة يقودها . . !! وإذا كنا نرى أننا نواجه ثورة جديدة ، ففيم إذن كانت السنوات العشر التى مضت . . . ؟ !

إن هذه الثورة لم تولد إجهاضا أيها السادة ، إنها الوليد الشرعى لكفاح طويل عظيم خالد قام به شعبنا فى مراحل مختلفة ، عشنا نحن المشهد الأخير من هذه المرحلة ، وهذه الثورة من أول أيامها أحست عبئها كله وأحست أنها جاءت لتزيح من طريق مصر وشعبها كل قوى الشر التى تصدها عن المسير ، وإنى لأذكر عبارة سمعتها ، وأنا أعبر الطريق قالها السيد الرئيس فى حفل كان مقاما فى شارع عدلى ، لا أذكر مناسبته ، وكان ذلك فى الشهور الأولى للثورة ، كنت أعبر الطريق ، وإذا صوته يصدح بهذه العبارة « لا تظنوا أننا جئنا لنعزل الملك ، إنما جئنا لنبنى مصر العظمى » وأخذ يشرح ما يعنى ببناء مصر العظمى ، وكان شرحه واعيا لمشاكل أمته .

وكان من ضمن هذه المشاكل تجديد حياتها ، وبعث إيمانها بنفسها ، وتمكينها من حقها وعلى رأس هذا الحق حقها فى ثرواتها وخيراتها ومالها . . فإذا جئنا اليوم لنقيم منهجا ونظاما اشتراكيين فليس معنى ذلك أننا نولد اليوم من جديد ، بمبادىء جديدة ، وأهداف جديد . . لا . . إننا نتطور تلقائيا تطورا ينبع من ماضينا واحتياجاتنا التى أذّن بها المؤذنون فى كل جيل ، احتياجاتنا التى حملتها الثورة ، وحملت مشيئتنا فى يوم ٢٣ يوليو . نحن الآن لا نثور ، نحن نُزْلِفُ فى أناة ووداعة وحب ، نحن نتحول إلى خطوة جديدة ، إلى مرحلة جديدة إلى واجب جديد ، ليس منفصلا عن ماضينا ، لا البعيد ، ولا القريب . . ولكنه تعبير أو استمرار فى التعبير عن وطنيتنا وعن ثورتنا وعن احتياجاتنا . .

تساءل السيد الرئيس : ما الديمقراطية ؟ ثم ضرب بعض الأمثلة ليبين لنا مفهوم الديمقراطية . وأود

ونحن نبحث ما الديمقراطية ، أود ونحن نستعرض المؤسسات الديمقراطية فى برلمانات ودستور هيئات وأحزاب ، من معارضة ، ومن حكومة ، أود ونحن نعالج المؤسسات الديمقراطية هذه ألا ندينها ولا نحاسبها اليوم بمعيار الظروف التى عملت فيها بالأمس . .

أيها السادة : فى فجر ٢٣ يوليو استمعتم إلى صوت يعلن قيام الثورة ، ويقول إننا قمنا بتطهير الجيش من الفساد . إذن كان فى الجيش فساد ، بدأت الثورة تطهره منه ، أفيحق لنا اليوم أن ندين الجيش ، أو نطالب بإلغائه أو وقفه لأنه قبل الثورة كان يعانى فسادا سببته عوامل ، نحن جميعا ، ندركها ونعرفها ؟ لا . . كذلك تماما عندما نواجه الدستور ، كذلك تماما عندما نواجه البرلمان ، كذلك تماما عندنا نواجه الأحزاب . . يجب أن نواجه هذه المؤسسات جميعا بروح الإنصاف وروح الوعى التى لا تنقصنا أبدا . ما هى ؟ وما علاقتها بالديمقراطية ، وبما نرجوه لأنفسنا من مستقبل ومصير .

أما الديمقراطية فهى عندى بسيطة ، أن يكون الشعب قادرا على اختيار حكامه باقتراع حر ، وأن يكون الشعب قادرا على أن يغير حكامه باقتراع حر ، الديمقراطية هى أن يمارس الشعب مسئوليته . وأنا لا أجامل حين أقول إننا إذا أضعنا على الشعب فرصته الكاملة فى أن يمارس الديمقراطية بمفهومها الذى ذكرته الآن ، فإننا نحرمه فرصة العمر . .

إن الشعب قد عانى ديمقراطيته كما عانى حياته قبل الثورة ، ولكن من قبل أن نعد نقائص ما قبل الثورة ، يجب أن نعرف المعيار الذى كان سائدا فى ذلك الحين . . !!

لماذا نضع أعيننا على نقائض العهد الذى اعتبرناه بائدا . هذا العهد الذى كان البرلمان يعطل فيه بمرسوم ملكى ، فيجتمع أعضاء البرلمان فى « الكونتننتال » ويعلنون بطلان هذا المرسوم ، ويضطرون ألد أعداء الديمقراطية وأعنى « زيور » إلى إجراء انتخابات حرة كاملة الحرية نزيهة كاملة النزاهة . مع أنه كان شعبا يده فى الأغلال ، كان شعبا أقدامه فى السلاسل . . !!

فإذا كان هذا الشعب قد استطاع أن يفرض سلطانه والسلاسل والأغلال تحاصره ، أنخاف أن يفرض سلطانه وقد أصبح كل شىء له ، ثورته وثروته ، آماله وآلامه وحكومته وكل شىء أصبح ملكا له ، كل شىء أصبح فى يده ، أصبح يصدر عن اقتناع لا عن إكراه ، انخاف عليه اليوم من أن يحكم نفسه على أوسع الصور الديمقراطية ؟ لا . . .

قال السيد الرئيس إن النظام السياسى والاقتصادى مرتبطان . أجل إنهما مرتبطان . ونحن حينما نقول النظام الاشتراكى ، إنما نفعل ذلك لنقسم طريقنا تماما كما نقول . حرية الكلمة ، حرية التصرف ، حرية الملكية ، حرية التجارة ، كل ذلك مسميات لشىء واحد هو الحرية .

إن الاشتراكية والديمقراطية شىء واحد ، لأن الاقتصاد لا ينفصل عن السياسة بل يؤثر فيها ويحركها كما قال سيادة الرئيس ، وهذا ما يدعونى إلى أن أشحذ فى نفسى الإيمان بالديمقراطية . وإنى أرى ياسيادة الرئيس أن ثمة أمامنا عن قريب دورا طليعيا ينادينا ، ولست أبالغ ولا أسرف حينما أقول ، إنه دور طليعى بكل معنى الكلمة ، ينادينا وينتظرنا لو أحسَنّا المسير إليه .

فى التطبيق الدولى نجد حولنا مُجتمعَيْن رأسمالية واشتراكية ، فإذا أخذنا المتوسط من هنا وهناك ،

نجد ظاهرة يجب أن نواجهها فى شجاعة ، ففى المجتمع الرأسمالى ، ولا ننسى أننا نأخذ المتوسط لا المجموع ، نرى حرية الناس موفورة أكثر منها فى المجتمع الاشتراكى .

وأنا أقصد بصفة خاصة الحريات السياسية .

وليس كذلك الحال فى المجتمع الاشتراكى حيث وضعت الحرية السياسية بكل مفاهيمها فى خدمة الحرية الاقتصادية كما يقدرها وكما يفهمها المجتمع الاشتراكى . فلماذا ؟ هل الرأسمالية أحْنَى على الحرية من الاشتراكية ؟ أبدا إنما كانت ألبق وأذكى من الاشتراكية ، فقد استطاعت رغم أن الرأسمالية تقوم على الاحتكار ، والاحتكار ضد الحرية ، وتقوم على القلق والتوتر والسيطرة والتسلط من فئة قليلة وذلك كله ضد الحرية ، استطاعت أن تخفى أنيابها بما أعطت المجتمع من حرية فى القول والمناقشة وحرية الحكم . .

فلماذا لا تأخذ الاشتراكية هذه الميزة وهى أولى بها ؟ هذا هو الدور الذى ينتظرنا ، والذى سنكون فيه روادا لا مقلدين . فالاشتراكية إنما جاءت لتحرر المجتمع بكل أفراده من الجوع والخوف والسيطرة . . الاشتراكية تعنى أن وسائل الإنتاج قد أممت وأصبحت ملك الأمة ، وأن وسائل المسئولية أيضا قد أصبحت ملك الأمة . وأنا أرى أن الرأسمالية تصيب الاشتراكية بضرر أبلغ وأشد من تغذيتها بالمخاوف التى تلجئها إلى تحديد الحرية والإسراف فى السيطرة والكبت . وإذا استطاعت أن تنفض عن نفسها هذا الذى لاتنى الرأسمالية عن تغذيتها به ، فتكون الاشتراكية قد أنقذت نفسها . وأذكر أن رئيس دولة اشتراكية كبيرة زيما حاول هذه المحاولة عندما دعا شعبه إلى النقد الذاتى ، وقد اختار هو هذا الطريق عندما بدأ فهاجم زعيما كان قبله وكاد يكون معبودا فى أمته وشعبه . . !!

قد لا يستطيع هذا الزعيم ، فيما أظن أن يواصل دوره ، فإن دولته بحكم ظروفها ومشاكلها قد تدعوه إلى أن يعود ويسير على خط معين واتجاه معين يفرضه هو أويفرضه الحزب الذى ينتمى إليه ذلك الزعيم ، فإذا وُجد مجتمع اشتراكى ليس له تلك المشاكل الدولية ، واستطاع أن يلعب هذا الدور الطليعى فيرد إلى الاشتراكية اعتبارها وجوهرها اللذين ينهضان على الديمقراطية الكاملة والحرية الكاملة ، فإن هذا المجتمع يكون قد قام بالدور الطليعى الشاغر فى التاريخ وسيكون الرجل الذى يقودها هذا المجتمع هو المعلم الجديد الذى تنتظره الاشتراكية .

نحن سنشكل مؤتمرا للقوى الشعبية ، وسيقوم فى هذه الأمة برلمان يناقش مشاكلها ويصدر قراراته فيها ، هذا الشعب مؤمن كله بثورته ، مؤمن كله بقائده وبأهدافه ، مؤمن بديمقراطيته ، واشتراكيته ، والسبيل الأمثل هو أن نسير بهذا الشعب فى تحوّل كما قلتُ لا فى ثورة ، وفى تطوز كما قلت أيضا لا فى طفرة ، فإذا أردنا أن نعتبر ببعض المجتمعات التى هى اشتراكية حادة والتى قامت تجرب ما نسميه عزل الشعب أو عزل أعداء الشعب ثم أخفقت فى تجربتها ، إذا أردنا أن نأخذ هذه العبرة فهى ماثلة أمامنا فى الصين . فقد أجهزت حقا على أشخاص كانوا من الذين حاربوا الثورة وحملوا السلاح والمدفع ، ثم أراد قوم أن يحددوا أعداء الشعب ويعزلوهم ولكن وقف « ماوتسى تونج » يدعوهم إلى رفع شعار آخر وقال « دعوا الأزهار جميعها تتفتح » وترك الأحزاب قائمة .

وترك الأحزاب قائمة .

لا داعى لأن نخاف ، ولنمض على بركة الله مؤمنين بشعبنا وبالوسائل الوديعة التى تتمثل فى التحول ولا تتمثل فى الثورة .. !!

السيد رئيس الجمهورية : فى تعليقى على كلام الأستاذ خالد ، فقد بدأ كلامه وقال إن هذا الكلام خطر ، وهذا الكلام لا أقوله لأول مرة إنما قلته مرات متعددة قبل الآن : من أول يوم فى الثورة وأنا أقول هذا الكلام بصيغ مختلفة ، فالاجتماع الذى يقول عنه والذى عقد فى شارع عدلى ، والذى عقدته رابطة أبناء قنا التى كانت موجودة بشارع عدلى فى أول الثورة . وتكلمت عن الرجعية وتكلمت عن الشعب وتكلمت عن الثورة وعن مبادىء الثورة . من أول يوم فى كل خطبة من خطبى وأنا أتكلم عن مبادىء الثورة الستة .

الأخ خالد يقول إننا لا نمارس اليوم ثورة ، وإننا نعيش فى تطور ، وأخيرا قال فى حماسة ، هذا الشعب المؤمن بثورته ، وهذا دليل على أنه فى قرارة نفسه معتقد أن هناك ثورة يؤمن بها الشعب . كيف لا توجد ثورة ؟ هناك ثورة . بل هناك ثورة مستمرة . وأنا من أول يوم فى الثورة قلت إن هذه الثورة استمرار لثورات أخرى قام بها الشعب ، وكثيرا ما قلت هذا ، إننا يجب أن نحمد الله ، إننا استطعنا أن نجنى ثمار هذه الثورة التى كافح من أجلها الآباء والأجداد ، كنت أقول باستمرار إن الآباء والأجداد كافحوا وقُتلوا قبل أن يجنوا ثمار هذه الثورة ، وإننا سعداء أننا استطعنا أن ننجح فى هذه الثورة ، واستطعنا أن نرى بأعيننا نجاح كفاحنا وكفاح آبائنا وكفاح أجدادنا ..

الأستاذ خالد:يقول إذا كانت هناك ثورة تعمل مجلس قيادة ثورة . لقد كان لدينا مجلس قيادة ثورة . نحن اليوم نريد أن نعمل من الشعب مجلس قيادة ثورة .. من الشعب الأصيل كله ..

هذا ما أقصد بالديمقراطية السليمة . هناك خلاف بيننا فى فهم الديمقراطية والديمقراطية السليمة ، الأستاذ خالد يقول إننا نتجنى على ما مضى . نحن لا نتجنى على ما مضى . قلنا فى المبدأ السادس للثورة ، إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، معنى هذا أنه لم يكن هناك حياة ديمقراطية سليمة . وقلنا فى المبدأ الخامس إقامة جيش وطنى قوى ، معنى هذا انه لم يكن هناك جيش وطنى قوى ، ومعنى هذا أن الجيش كان يستخدم ضد الشعب ، ليس من أجل الشعب ، ونريد أن نحوله ليستخدم من أجل الشعب لا ضد الشعب .

إننا لا نقول ، نلغى الديمقراطية ، هذا طبعا تعقيب على مقارنتك بأن نلغى الجيش . أبدا ، قلنا إقامة جيش وطنى قوى ، وقلنا إقامة حياة ديمقراطية سليمة . معنى هذا أن الجيش الذى كنا فيه ، كنا نشعر أنه ليس الجيش الوطنى القوى . فقد نزل يوم ٢٦ يناير ليضرب الشعب ، وما كنا نستطيع أن نقول لا ، ولو كانت صدرت أوامر لضرب الناس كنا سنضرب . العسكرى سيضرب ، والضابط سيضرب ، الضابط الذى يقول لا أضرب سيحاكم من ينقذه ؟

لم يكن هناك استعداد للثورة ، ولم تكن هناك خطة للثورة . يوم ٢٦ يناير نزلت بالليل فى عربتى ومررت على وحدات الجيش هنا فى القاهرة ، وكانت النار مندلعة وكان التجول ممنوعا ، وكان معى فى

العربة صلاح سالم . كان عندنا اجتماع يومئذ ، اجتماع لما سمى بعد ذلك بمجلس الثورة ؛ وبعد الاجتماع نزلنا لنتصل بأكبر عدد من الضباط لنقول لهم ، على قدر الإمكان « لا تضربوا فى الشعب » . ولكن من كان يضمن ؟ كم عدد الضباط الذين قاموا بالثورة ؟ كم عدد الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة ؟ كانوا مائة ضابط . وكان هناك آلاف من الضباط ، الذى أعلمه أنهم إذا لم ينفذوا الأوامر ، سيفصلون من الجيش . والجيش ينفذ الأوامر .

جيش وطنى قوى ، أى جيش من أجل حماية الشعب ، ومن أجل حماية أهداف الشعب ، ومن أجل وضع أهداف الشعب موضع التنفيذ . جيش وطنى قوى كى يحمى الديمقراطية السليمة التى نتكلم عنها وننادى بها لم نقل بعد هذا نلغى الجيش ، لأنه لم يكن قبل الثورة جيشا وطنيا قويا . لم نقل أبدا إننا سنلغى الديمقراطية ، لأن الديمقراطية قبل الثورة لم تكن ديمقراطية سليمة . قلنا نريد أن نجعل هذه الديمقراطية ، ديمقراطية سليمة . إننى فى كلامى لا أقول هذا الكلام لكى أدين ، فلو كنت أريد أن أدين لأقمت محاكم وأدنت من ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كما أقيمت محاكم فى الثورة الفرنسية وأقيمت محاكم فى الثورات الشيوعية وفى الثورات الأخرى .

العملية ليست إدانة بل كما قلت إننا نبحث عن الحقيقة ، وإننا نريد أن نأخذها من تجربتنا فى العشر السنوات ، وفى السنوات التى كانت قبل الثورة . على أى شىء كانت تدل تجربتنا ؟ هل استطعنا أن نقيم عدالة اجتماعية ؟ هل استطلعنا أن نقيم ما يمكننا من القضاء على الظلم الاجتماعى ؟ هل استطعنا أن نقضى على الاستغلال السياسى ، والاستغلال الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى ؟ أبدا لم نستطع .

أنت فى كُتبك التى ألفتها قبل الثورة كنت تقول إننا نكافح للقضاء على الاستغلال السياسى ، وعلى الاستغلال الاجتماعى . فى كل هذه الكتب وفى كل صفحة منها كنت تتكلم وتطالب بالقضاء على الاستغلال السياسى ، والاستغلال الاقتصادى ، والاستغلال الاجتماعى . هل الديمقراطية التى تتكلم عنها بمعناها القديم مكنتنا نحن الشعب من القضاء على الاستغلال السياسى ، أو الاستغلال الاقتصادى أو الاستغلال الاجتماعى ؟ أبدا ، بدليل أنه حينما قامت الثورة ، كان هناك إقطاع بأبشع صوره ، كان هناك إقطاع تكلم عنه الخطيب هنا فى نجع حمادى ، وقال لكم ماذا كانوا يفعلون بهم . لم تستطع هذه المؤسسات بجلالة قدرها أن تقضى على هذا الإقطاع . كان هناك سيطرة من العائلة المالكة وكان هناك تحكم وكان هناك سيطرة لرأس المال . وكان هناك واحد ، كما سبق أن قلت ، أسقط وزارة بـ ٥٠,٠٠٠ جنيه . هل استطعنا بهذه الديمقراطية التى نتكلم عنها أن نقضى على هذا كله ؟ لم نستطع أن نقضى على هذا إلا بالثورة ، بهذه الثورة . وهذه الثورة مستمرة حتى نقيم الديمقراطية الحقيقية ، وحتى نقيم العدالة الحقيقية . .

هل قلنا إننا سنقيم ديمقراطية ليس لها دستور ؟ من الذى قال هذا ؟ يفهم من كلامك أننا نقصد أنه ليس هناك دستور ، وليس هناك برلمان ، وليس هناك مؤسسات ديمقراطية . من أين جئت بهذا الكلام ؟ هذه الخطوات كلها الغرض منها أخيرا أن نقيم الدستور . هل نحن قلنا إننا سنعزل الشعب

ونقيم حزبا واحدا مثل الشيوعيين الذين يبلغ عدد سكان بلدهم ٢٠٠ مليون نسمة فى حين أن عدد أعضاء الحزب مليون فقط . هل قلنا إننا سنقيم حزبا واحدا ونحتكر السياسة لفئة قليلة ؟ لم نقل هذا . إنما الخلاف الوحيد على الأحزاب . لقد كان هناك أحزاب قبل الثورة . ماذا حصل ؟ . .

هل تأثر الإقطاع ؟ هل تأثرت سيطرة رأس المال ؟ هل انتهى الاستعمار ؟ هل خرج الإنجليز ؟ هل قيمة السفير البريطانى نزلت قيراطا أو قيراطين أو تغيرت من سنة ١٩٢٣ حتى ١٩٥٢ ؟ ألا نتذكر أنه فى فبراير سنة ١٩٥٢ عندما كان هناك ميعاد بين على ماهر وبين السفير البريطانى ورفض السفير مقابلته بحجة أنه مصاب بالبرد ، اضطر على ماهر أمام هذا أن يقدم استقالته فى اليوم التالى . وجاءت بعد ذلك وزارة الهلالى ، وكان هناك اتفاق . الإنجليز كانوا موجودين والإنجليز كان يحكمون والسراى كانت موجودة . ماذا فعلت الأحزاب ؟ لماذا لم يخرج الإنجليز لو كان هناك أحزاب.هل كان فى إمكاننا إخراج الإنجليز ؟ طبعا لا ؛ لأنه لو كانت الأحزاب موجودة لاتفقت مع الإنجليز كما كانت تتفق معهم قبل ذلك . هل ينكر أحد منا هذا القول ؟ ولماذا ؟ . .

طبعا من أجل الحكم ؛ من أجل السيطرة المستغلة الداخلية . ماذا يستفيدون من الحكم ؟ كانوا يكسبون من ورائه مالا ، ويشترون العزب ، أنا لا أقول هذا الكلام لأدين أحدا ، ولكننى أقوله للتاريخ ، وأقوله للبحث عن الحقيقة وأقوله لنأخذ من ماضينا ـ ونحن نبحث عن الحقيقة ـ الدرس لمعرفة ما سنفعله . وكان هناك أحزاب ، أحزاب كثيرة . وُلدْنا ووجدنا هذه الأحزاب وانضممت إلى عدد كبير منها ، وأول حزب انضممت إليه كان حزب مصر الفتاة ، ثم تركته ، عندما كنت فى السنة الثالثة الثانوية ، وبينما كنت فى ميدان المنشية بالاسكندرية وجدت معركة بين البوليس والناس وكان البوليس يضرب الناس والناس يضربون البوليس ، فاشتركت مع الناس وضربت فى البوليس ، فقبضوا علىّ وأدخلونى قسم البوليس وكان ذلك بسبب أن حزب مصر الفتاة كان مجتمعا والبوليس يفض الاجتماع . . وبقيت بالقسم إلى أن حضر شيخ الحارة وأخرجنى بضمانة . .

وأنا لما انضممت إلى حزب مصر الفتاة لم أسترح ، فتركته وانضممت إلى الوفد ، وكنت من أكثر الناس اتصالا به ، وأيضا لم أسترح ، فاتصلت بالإخوان المسلمين وكذلك لم أطمئن ، واتصلت بالشيوعيين ، واتصلت بكل الهيئات العاملة فى هذا البلد ، كما اتصلت بالأحرار الدستوريين ، والسعديين ، كنت أبحث عن الحقيقة كشاب يريد أن يكافح من أجل بلده ، ولكنى كنت تائها . وكنت أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك فائدة ، وأخيرا لم أجد أن هناك أية فائدة . .

ولما دخلت الكلية الحربية وتدرجت فى الجيش ، كان الحل الوحيد أمامى ، أنه يجب أن تقوم ثورة لتقضى على هذا كله ونبنى مجتمعا جديدا متحررا من كل أنواع الظلم السياسى ، والظلم الاجتماعى .

تقول إن الديمقراطية هى أنه يجب أن يكون الشعب قادرا على أن يختار حكامه وفق الاقتراع الحر ، وإنى موافقك على هذا ، والشعب قادر على أن يعزل حكامه بالاقتراع الحر ، وإنى أوافقك على هذا ، وأوافقك على أن يبقى دائما للشعب حرية اختيار رئيس الجمهورية ، يختاره لمدة معينة .

تعرف لو قلت كل ٣ أو ٤ شهور ممكن نعمل ثقة ، سنعود مرة ثانية للعملية الأصلية . لماذا لم نعمل

رئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء سنة ١٩٥٦ م كان يمكن أن نعمل هذه التجربة ونقول حكومة برلمانية ولكن كان يعرضنا هذا لانقسامات ونحن فى ظرف حساس ، إنهم كانوا سيحاولون أن يوقعوا بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فإذا لم يستطيعوا الوصول إليه لجأوا إلى رئيس الجمهورية ، شاهدنا هذا الكلام أيام أزمة نجيب سنة ١٩٥٣ كيف استغلوا نجيب وجمال عبدالناصر ؟ لم يقدروا على جمال عبدالناصر فجروا إلى نجيب لأجل أن يحدثوا انقساما واستطاعوا أن يعملوا أزمة ولهذا تلافينا ذلك وقلنا نعمل نظاما رئاسيا ولم يقل جمال عبدالناصر إنه يريد أن يعمل رئيس جمهورية مؤبدا . جمال عبدالناصر دخل لغاية اليوم استفتاءين فى انتخاب حر لرئاسة الجمهورية .

واليوم نأتى ونقول نعمل دستورا ونعمل برلمانا . ونريد أن نعطى الشعب كل الشعب الحرية ولكن فى نفس الوقت إذا أعطيناه الحرية يجب أن نعطيه الحرية السياسية والحرية الاجتماعية لأن الحرية الاجتماعية كان محروما منها . أنت فى كلامك تركز على الحرية السياسية وتعتبر الحرية الاجتماعية شيئا آخر . إننى ما زلتُ أقول إنك تبحث عن المظهر . أنت تقول إن البلاد الرأسمالية عملت هذه الحرية لتدارى أنيابها ، أنا أقدر أعمل اليوم أحزابا ، وأعمل حزب فيه جمال عبدالناصر وضامن ١٠٠ ٪ إن جمال سيحصل على الأغلبية وأقدر أن أشتغل على هذا الأساس ، وأمرر كل القوانين والنظم التى أريدها ، إلا أننى غير مؤمن بأن هذا الكلام السليم الذى يضمن أن البلد تسير فى حريتها الاجتماعية ، ويضمن للبلد أن تسير للقضاء على الاستغلال السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، ويضمن للبلد أن تقيم عدالة اجتماعية وهذا هو المبدأ الرابع من مبادىء الثورة الذى يضمن للبلد تكافؤ الفرص ، ويضمن إذابة الفوارق بين الطبقات .

إننا لا نقول اليوم إننا نعمل لمصلحة خاصة بل نقول إننا نريد أن نقيم حياة ديمقراطية سليمة ، إننا لا نقول بحرمان الشعب من مسئوليته ، ولا نقول بحرمان الشعب من اختيار رئيس جمهوريته ، ولا نقول بحرمان الشعب من الدستور ولا من البرلمان ، أبدا بأى حال من الأحوال ولا نقول بحرمانه من المعارضة أبدا لأنه فى أى برلمان سيكون فيه اليمين واليسار والوسط .

والمطلوب فى هذا الوقت هو تطبيق المبدأ السادس فى إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، وأنا معك فى أن الشعب مؤمن بثورته ولا يمكن بأى حال أن يتخلى عنها . إنى معك فى هذا .

السيد خالد محمد خالد ـ فى الحقيقة إننى عندما ضربت المثل بالصين الشعبية كان مثلا جانبيا بحتا ، أريد أن أقول إنه كان فى هذا المجتمع عداوات كثيرة ومحن كثيرة وقام بعض الناس ينادون بعملية عزل أعداء الشعب وجاء ماوتسى تونج وأخذ جانبا آخر فقال دعوا جميع الأزهار تتفتح . . وهو إلى الآن حين يتحدث عن المجتمع الصينى يقول البرجوازية الصغيرة ، يقول عن أصحاب الأعمال بل والمثقفين أيضا . يقول إن كثيرا من المثقفين لا يزالون يحملون أفكارا غير اشتراكية ومع ذلك فلست أنصح بمقاومتهم بل أنصح بأن تقوموهم وتساعدوهم على أن يقبلوا على الاشتراكية .

أقول هذا كمثل بعيد عندما نتحدث عن عزل من نُسميهم أعداء الشعب ، فإننى أريد كما قلت آنفا أن نتجنب هذه الشعارات العنيفة ، وأن نسير جميعا فى موكب حافل واحد بعد أن نستبين معالم

مجتمعنا الاشتراكى ، هذه المعالم التى سيوضحها الدستور . حينئذ نمضى معا يحمل قويُّنا ضعيفنا ، ويحمل سليمُنا سقيمنا .

لقد ضربت مثلا عن الصين وقلت إنه سمح فيها بقيام أحزاب واشترط أن تعمل داخل السور الاشتراكى نفسه وهذا مُباح من « ماوتسى تونج » فى شعاره : « دعوا الأزهار تتفتح » وإنى لا أنسى حديثكم فى يوم ما خلال هذا العام مع صحفى ألمانى فقد قلتم إننى أومن وأرى أن هناك أحزابا ستقوم فى المستقبل وستكون هذه الأحزاب قويمة لن تنتكس بالمجتمع إلى الوراء . . أذكر أنه قد ورد هذا فى حديث لسيادتك .

السيد رئيس الجمهورية - فى المستقبل . .

فهل جاء هذا المستقبل ؟؟

* * *



حديث مع المتطرفين !!

ما كان لهذه المذكرات ألّا تكون لها وقفة مع التطرف والمتطرفين .. لا سيّما وأن لى بهم علاقة مُثلّثة الأضلاع ..

فأنا - أولا - أعيش فى الزمن الصعب الذى يعيشون فيه .. وأرفض اتجاههم وأعارض أفكارهم بل قولوا : أوهامهم .. !!

وأنا - ثانيا - محسوب عندهم من المارقين. المرَشّحين للاغتيال !! لماذا ؟؟ لا لشىء إلا لِوَلَعِهم بالقتل .. فإن لم يجدوا خَصماً يقتلونه اتجهوا إلى أى شهيد يختارونه « بالقرعة » مرددين قول الشاعر :

وأحـيـانـاً عـلـى بَـكْـرٍ أخـيـنـا
إذا مـالـم نَـجِـدْ إلّا أخـانـا !!!

وأما - ثالثا - فلأنهم أمْسَوْا مشكلة مصر الكبرى بما يطمحون إليه ، وبما يتوسّلون به لتحقيق ذاك الطموح ..

وما من ريب فى أنه قد اخترق صفوفَهم نفر من المجرمين بطبعهم واستعدادهم ، كما اخترقهم بعض الذين يُضمِرون لمصر الشر والسوء .. ولكن يبقى أن هناك متطرفين فى فهم الإسلام .. كما هم متطرفون فى العمل لِنُصرته من الشباب المضَلَّل والمسخَّر .

ولابدّ أن تَنْتَظم هذه المذكرات حديثا مع هؤلاء فى محاولة صادقة وصائبة لجمعهم بالإسلام الحق الصحيح من واقع النصّ القرآنى والنصّ النبوى وكلمة الشريعة عسى الله أن يَهْدِيَنا جميعاًسواء السبيل .

وإنى حين أتحدث إلى المتطرفين ومُوَجِّهيهم ، لا أريد التشهير بهم ، فإنهم قد شهَّروا بأنفسهم بما فيه الكفاية .. !! ولا أريد إغراء السلطة بهم ، فهم قد حرَّضوها على أنفسهم بأكثر مما يفعل أعداؤهم أجمعون .. !!

إن ما أريده بهذا الحديث إبراء ذمتى نحْو دينى ووطنى .. إبراؤها بكلمة أخيرة أختم بها ما قلته قبل من كلمات ومقالات ، عَبْر سنوات وسنوات .

وأبدأ بتوجيه هذا السؤال :

لماذا هذه الفِتن المنكَرة والهوجاء التى تَقتُلون فيها وتُقتَلون ؟؟ أهى دفاع عن الإسلام وشريعته ؟؟ أم استجابة لتطلّعات سِّياسية واهمة ؟؟ أم هى حقد على المجتمع ؟؟ أم ضِيق بالحياة ويأس منها ؟؟ أم نِقمة على الحضارة فى شَتّى مظاهرها ؟؟ أم هى صرخة « شَمْشُون » - « عَلَىَّ وعلى الأعداء

يا رب » ؟؟ أم خروج على الدولة ورئيسها ؟ لأن الاثنين خارجان على الدين فى رأى المتطرفين . . .

كل هذا وارد ومحتمل . . بل هو مَعروض صراحة فى أقوالهم وعقائدهم وتبرير سلوكهم ، مُغلِّفين ذلك بالدين !! فهل هذا إسلام ؟ أم هو افتراء صارخ على الإسلام ؟؟ فلْنسأل كتاب الله وسنة رسول الله . .

●● يقول القرآن العظيم :

﴿ من قتـل نفسـا بغيـر نـفس ، أوفَسـادٍ
فى الأرض ؛ فكأنما قتل الناسَ جميعاً ﴾ !!

نفس بغير نفس . . أى يقع القتل عدوانا لا قِصاصا . والنَّسف والتخريب والترويع والعدوان على ممتلكات الغير ، كلُّ هذا فساد وإفساد فى الأرض يعتبر القرآن الكريم فاعله كمن قتل الناس جميعا . . !!

●● ويقول قرآننا العظيم أيضا :

﴿ ومَنْ يَقْتُـلْ مؤمنـا متعمـدا ، فجـزاؤه
جهنمُ خـالدا فيهـا . . . وغَضِبَ الله عليـه . .
ولَعنــه . . وأعـدَّ لـه عـذابـا عـظيمـا . . ﴾

●● وماذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« كلُّ ذنب عسَى الله أن يغفره ، إلا الرجل يَقْتُلُ المؤمنينَ متعمدا ، أو الرجلُ يموت كافرا » ـ أخرجه النسائى

ويقول عليه السلام :

« لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن ، لأَكَبَّهم الله تعالى فى النار »

(أخرجه التِّرمِذى]

قد يُقال لكم : هذه الأحاديث إنما تَعْصِمُ دم « المؤمن » ولوْكنا نرى الذين نقتلهم « مؤمنين » ما قتلناهم ، ولكنهم غير مؤمنين . . !!!

ونُجيبكم مُذكِّرين ـ أولا ـ بالآية الكريمة ﴿ مَنْ قتل نفسا بغير نفس ﴾ فذُكِرت النفس على إطلاقها . . ومُتتبعين ـ ثانيا ـ أحاديث سيدنا الرسول فى هذا المجال . حيث يقول عليه صلاة ربنا وسلامه !

« لا يـزالُ المؤمن فى فُسْحـة من دينـه
مـا لـم يُـصـب دمـا حـرامـا . . . . »

(أخرجه البخارى)

فالدم هنا المحرَّمُ سَفكُه بلا جنسية ، وبلا ديانة . . وكل دم يُسْفك ، وكل نفس تُقتل ، بغير عدوان منها

فقاتلها فى ضيق من دينه ، وبالتالى معرض للحرمان من رحمة ربه . .

ويقول عليه السلام :

« الإيمــانُ قَيْـدُ الـفَتْــك . . لا يَـفْـتِـك مؤمن . . »

(أخرجه الخمسة)

أى أن الإيمان يمنع المؤمن أن يَفتك بأحد ، وبالتالى يحفظه من أن يفتك به أحد . . بل لننظر ما هو أكثر جلالا وأصدق دليلا :

« عن المِقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قُلتُ يارسول الله : أرأيتَ إن لَقِيتُ رجلا من الكفار ، فاقْتَتَلْنا ، فضرب إحدى يدىَّ بالسيف فقطعها ، ثم لاَذَ منى بشجرة وقال : أسلمت لله . . أأقتُلُه بعد أن قالها ؟؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تقتُلْه . . فقلت : إنه قطع إحدى يدىّ ثم قال ذلك ؟؟ قال النبى : لا تقتُلْه . . فإن قتَلتهُ كنتَ بمنزلتِهِ قبل أن يقول كلمته ـ أى مُباح الدم » !!

(أخرجه البخارى ومُسلم ، وأبو داود)

كافر يقطع بسيفه يد مؤمن من صحابة رسول الله . . ثم يقول كلمة لينجو بها وهو لم يهتف بشهادة الإسلام كاملة فيقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، بل قالها فى محاولته الهروب من القصاص « أسلمت لله » . . وهو إنما قطع من غريمه المؤمن يده ؛ لأنه لم يستطع الوصول إلى عنقه . . ومع هذا كله يَصُون الرسول حياته ودمَه ويقول للسائل : لا تَقتُلْه . . لا تقتُلْه . . !!

ثم هناك قول الرسول عليه السلام :

« مَن سَلَّ علينا السيف فليس مِنَّا »

(أخرجه مسلم)

وقوله :

« مَن حَمل علينا السلاح : فليس منا »

(أخرجه البخارى ومسلم والترمذى)

فلماذا يحمل المتطرفون السلاح على المسلمين ـ حكاما ، ورجال شرطة ، وشعبا ، ويريدون أن يكونوا مسلمين والرسول الأمين يقول : ليسوا مِنّا . . ؟! وكيف يستبيحون دماء مُواطنينا الأقباط وهم أهلُ كتاب ـ لهم ما لَنا ، وعليهم ما علينا ؟؟ أباسم الإسلام يفعلون ؟؟ إذن فليسمعوا . .

يقول القرآن الكريم :

﴿ لا يَنهاكُم الله عن الذين لم يُقاتِلوكم فى الدين ، ولم يُخرِجوكم من دياركم ، أن تَبرُّوهم وتُقسِطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

(الآية ٨ الممتحنة)

فالأقباط لم يؤذونا ، ولم يُخرجونا من أوطاننا .. ومن ثمَّ لا ينهانا الله عن البر بهم والأقساط إليهم ، وبذل المودّة لهم ..

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكُم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهَروا على إخراجكم ﴾ .

(الآية ٩ الممتحنة)

ويقول سيدنا الرسول ﷺ :

« وَمَنْ آذى ذِمِّيا فقد آذانى .. ومن آذانى فقد آذى الله » .

وهم يُنعتُون فى الإسلام بأهل الذِّمَّة ، لا انتقاصا من وضعهم كمواطنين .. بل تأكيدا لأنهم فى ذمة الله وذمة رسوله رغم بقائهم على دينهم المسيحى ..

وذهب الإمام « مالك » و « الليث » والإمام أبو حنيفة وأصحابه إلى أن المسلم إذا قتل ذمِّيا فإنه يُقتل به .. وقد أمر الإمام « على » كرم الله وجهه بقتل مسلم ، قتَل رجلا من أهل الذمة . قائلا : « مَن كانت له ذمتُنا ، فدمُه كدمائنا ، وديَته كديَتنا » !!

وأما حديث الرسول : - « لا يُقتَلُ مُسْلم بكافر » فالمراد به الكافر المحارب .. وهناك إجماع الفقهاء والأئمة على أن المسلم إذا سرق ذميا فإن يده تقطع ، كما لو سرق مال مسلم . سواء بسواء ..

ويقول الإمام « ابن حزم » - « مَنْ كان فى الذمَّة ، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم ، ونموت دون ذلك ، صَوْنا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ .

ويقول الشيخ الفاضل الدكتور « يوسف القرضاوى » فى كتابه : (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى) :

— « وحقُّ الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم ، كما يتضمن حماية أموالهم وأعراضهم .. فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين ، وقتلهم حرام بالإجماع .. وكما حَمَى الإسلام أنفسهم من القتل ، حَمَى أبدانهم من الضرب والتعذيب .. ومثل حماية الأنفس والأبدان ، حماية الأموال ، وهذا ما اتفق عليه المسلمون فى جميع المذاهب والعصور ..

ثم يقول الدكتور القرضاوى : وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم أنه يحترم ما يروْنَه مالاً وإن لم يكن كذلك فى نظر المسلمين .. فالخمر والخنزير لا يُعتبران عند المسلمين مالا مُتقوِّما ، ولا يجوز للمسلم أن يمتلكهما أو يبيعهما للغير أمَّا إذا ملكهُما فهما يعتبران عنده مالا ، فإن اعتدى عليهما - الخمر والخنزير - وأتلفهما على الذِّمِّى غرم قيمتهما ..

ثم قال : - « ويحمى الإسلام كذلك عِرْض الذِّمِّى وكرامته ، كما يحمى عرض المسلم وكرامته » فبأى دِين إذن ، وبأى فقه يتخذ المتطرفون الأقباط هدفنا لِعُدوانهم ؟؟ !!

ثم ألم يقرأ شيوخهم وأمراؤهم عليهم عهد النبى لأهل نَجْران حيث يقول :

« ولأهل نَجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله - على

أموالهم ومِلّتهم ، وكنائسهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير » ؟ !

أولم يقرأوا عليهم عهد « خالد بن الوليد » رضى الله عنه لأهل دمشق بعد فتحها :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا ما أعطى خالد ابن الوليد أهل دمشق يوم فتحها . .

« أعطاهم أماناً على أنفسهم ، وأموالهم . وكنائسهم . . لهم على ذلك عهد الله وذمّة رسوله والخلفاء والمؤمنين » .

* * *

ثم إن هناك للمشكلة جانبا بالغ الأهمية . . فإذا شعر الأقباط أننا نضطهدهم ، ونتخذهم مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ونَضِنّ عليهم بكل حقوق المواطنة الكاملة التى مكّنهم الإسلام العظيم منها ، ألا يكون معنى هذا أنّنا نقول لهم : لا مكان لاثنين هنا . . فإما نحن وإما أنتم . . اذهبوا وابحثوا لأنفسكم عن وطن . . !!! وساعتئذ ، ماذا سيكون جوابهم ؟؟ سيكون شكرا ، وسنبحث عن وطن . . ويومئذ لن يبحثوا عن وطن فى تنجانيقا ، ولا فى جزر القمر ، ولا فى بلاد الطريد . بل سيريدون هنا . . هنا . . أتسمعون ؟؟ وسيجدون من أوربا ، وإمريكا والغرب كله سنداً وعَضُدا . . ويومئذ ـ نعوذ بالله من يومئذ ـ يجىء التقسيم . . وتُمسون أنتم ومن ورائكم « وسائل إيضاح » للدرس الجديد :

﴿ واتقوا فتنة لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة ﴾ !!

فَلننقذ مصائرنا . . واتق الفتنة يا شعبنا

فإن تَنْجُ منها تَنجُ من ذى عظيمة

وإلاّ فإنى لا إخَالُكَ ناجيا !!

* * *

وإذا كان تمرُّدكم وانقلابكم هذا ضِد المدَنية عازمين على تحطيم مظاهرها ، وطمْس جوهرها . فمن الخير لكم ـ قبل غيركم ـ أن تعلّموا أن المدنيات تنهض وتموت . . أمّا « المدَنية » ذاتها فإنها لا تموت !!

واسْتدْعوا التاريخ منذ كان الإنسان يضرب حجَرا بحجر ، باحثا عن شَرارة تمنحه وقوداأو نارا . . بل وقبل ذلك ، حين كان يجوب الغابات حافيا عاريا مَكْدودا ، وسيروا معه إلى يومنا هذا ، فستروْنه كان دائم الخُطى إلى الأمام رُوَيدا رُويدا . . وسيظل كذلك فى مُتابعة موصولة لحركة التاريخ واندلاع التطور وزحف الحضارة . . بل حتى يوم تقوم الساعة ، لن تقوم على دنيا خرِبة . . بل على دنيا تتفجر تقدما وزُخرفا وعمارة .

إقرأ قول ربنا عز وجل :

« حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخرُفها وازَّينت وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تَغْنَ بالأمس » .

إذن ، فالقيامة ستقوم ، والمدنية فى قمة صعودها وتألُّقها .. !!

ثم لماذا ترون فى الحضارة إلا « شارع الهرم » ؟ !! وأين إذن المدارس والجامعات والمشافى والمصانع والثقافة والفنون والرياضة ؟؟ أين العربات ، والطائرات والتليفونات ؟؟ أين كل مظاهر النعيم ، لا سيما تلك التى تزخر بها بيوت أو قصور شيوخكم ومُحرضيكم ؟؟ !!

إن الحياة ليست خيرا مَحضا ، ولا شرا مَحضا بل هى مَزيجٌ من الخير والشر . فإما أن تأخذوا مدَنيتها كلها ، وإما تدَعُوها كلها .

هاتوا صحابيا واحدا أو سَلَفياً واحدا ، كان أو كان أبناؤهُ يلعبون المصارعة والملاكمة ، وكرة القدم ، وكُرة السَّلة ، وسواها مما استحدثته المدنية من رياضيات شتَّى .. وإنهم لم يفعلوا الآن ذلك لم يكن له وجود يومذاك .. فهل نُحرِّم على الشباب تعَلّم وممارسة هذه الرياضات التى ترونها عبثا ولهواً يَصْرف عنه العبادات والطاعات ؟ !!

* * *

فإذا قيل لكم : إن الدولة جاهلية .. وإن حُكامنا غير مسلمين ، فقولوا لهم : « من كفَّر مسلما فقد كفَر » !! وإن قيل لكم : إنهم يحكمون بغير ما أنزل الله ، و« من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » فاسألوهم : هل كان صاحب أعظم التفاسير وهو الإمام « القُرطُبى » مُداهِناً فى دينه ، أو مُزوِّراً فى تفسيره ، أو مُحرِّفا لكتاب ربه .. ؟؟ لنتقدم منه سائلين .. وها هو ذا يقول فى تفسير الآية الكريمة :

— الآيات القائلة : ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ و﴿ والظالمون ﴾ و﴿ الفاسقون ﴾ - نزلَت كلُّها فى الكفار .. فأما المسلم فلا يُكَفَّر ، وإن ارتكب كبيرة ، وقيل المراد بمن لم يحْكم بما أنزل الله ، من رَدَّ القرآن ، وجحدَ قول الرسول عليه الصلاة والسلام .. قاله « ابن عباس » و« مجاهد » وقال « ابن مسعود ، والحسَن » الآية عامة فى كل من لم يَحْكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أى معتقدا ذلك ومُسْتحِلاً له .. وقيل : المراد من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر . أما من حكم بالتوحيد ، ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل فى هذه الآية .

ثم قال الإمام « القرطبى » بعد سرد هذه الأقوال : « والصحيح الأول » أى التفسير القائل : نزلَت كلُّها فى الكفار .

أقول : إن الآيات الثلاث واضحة المعنى مستبينة الدلالة .

●● فالآية الأولى تبدأ بأن الله أنزل التوراة فيها هُدًى ونور ليحكم بها النبيون والرَّبَّانيون والأحبار .. ثم تنتهى بِدمْغ من لم يحكم بما أنزل الله فيها بأنه من الكافرين .

وإذن ، فهى قد نزلت فى اليهود ..

●● والآية الثانية تبدأ بقوله سبحانه .. ﴿ وكتَبْنا عليهمْ فيها ﴾ - أى فى التوراة - ثم تنتهى بِدمْغ من لم يَحكم بهذا الذى كتبه الله بأنه من الظالمين .

●● والآية الثالثة تقول : ﴿ وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى بن مريم ﴾ ثم تقول : ﴿ ولْيَحكُم أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ويُراد بهذه الآية النَّصارى الذين ينأوْن عن حكم الإنجيل .. وهكذا ، وفى وضوح كضوء النهار يظهر أن الآيتين الأوليَيْن خاصَّتان بأهل التوراة .. والثالثة خاصَّة بأهل الإنجيل .

* * *

سيُقال لكم : إنكم بما تَقْترفون ، إنما تُغيرون المنكر الذى أُمِرتُم بتغييره :

وإنى سائلكم سُؤالا : لو أنكم بقوة السلاح نَهضتم لتغيير مُنْكرٍ ما .. وجاء آخرون يقولون إن ما تفعلونه هو المنكر الذى يجب علينا تغييره ورفعوا فى وجوهكم السلاح .. أيكون هذا عملا صالحا أو مشروعا .. ؟؟ ثم لنفترض أن نفراً آخرين جاءوكم قائلين : يا أيها المتقاتلان . كِلاكُما مُنكَر !! وعلينا واجب تغييره حتى لا تكون فتنة أو حرب أهلية وحكَّموا فيكم القنبلة والرصاص .. أفلا يتحول الوطن آنئذ إلى غابة ؟؟ وهل يكون هذا إسلاما ؟ !!

إنك تُغير المنكر بيدك حين تأتى البيوت من أبوابها .. فتطالب الحاكم بوسائل قانونية مشروعة بتغييره .. فإن لم تستطع فتستطيع تغييره بلسانك إذا كنت من أهل الدعوة والفقه فى الدين .. فإن لم تستطع فإنكارك بقلبك ينجيك من إثم الصمت والسكوت .

هذه الثلاث هى وحدها وسيلة المؤمن والمسلم الصادق للتغيير .. ولْتذكُر قول الرسول عليه السلام :

« إذا عُمِلت الخطيئة فى الأرض ، كان مَن شهدها فأنكرها ، كمن غاب عنها .. ومن غاب عنها ورضِيَها ، كان كمن شهدها » .

(أخرجه أبو داود)

فالإنكار - مجرد الإنكار تغيير ..

وكل حديث نبوى قد يُوحِى باستخدام القوة فى تغيير المنكر ، فإنه يخضع للقاعدة العامة التى يقررها قول الرسول :

«ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى ، ثم -يَقدِرُون- على أن يغيروا ، فلم يغيروا إلاّ يُوشِك أن يَعُمّهم الله تعالى بعقاب»

(أخرجه أبوداود والترمذى)

فشرط التغيير باليد ، القدرة عليه . .

القدرة التى لا تصيب الأبرياء بأذى ، ثم لا تصيبكم أنتم بأذى أكبر منه .

والقدرة - إن كنتم لا تعلمون - ليست البطش ، إذْ ليس الشديد بالصُّرَعَة - كما قال الرسول عليه السلام - بل هى امتلاك النفس ، واستخدام ملَكات الأمر بِحِذْق وفِطنة ورفق .

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ إنّا كُلَّ شىء خَلَقْناهُ بقَدَر ﴾

أى بحكمة ونظام واقتدار . .

فالقدرة السَّوية ، هى التهيُّؤ للأمر . . وقياس نتائجه على مُقدماته ، ثم قياس الاثنين معاً على طاقتك ومُكْنتِك ، ومَدى تأييد الشريعة لك . .

يقول العرب : تقدَّر له كذا - أى تهيّأ له . . ويقولون : تقدَّر الثوبُ عليه - أى جاء على مقاسه ومقداره . .

وفى الحديث الصحيح يقول الرسول الكريم :

«لا ينبغى للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه .

قالوا : وكيف يُذل المؤمن نفسه يارسول الله ؟؟

قال : يُعرِّضُها لما لا تُطيق من البلاء» . .

هذا ، هو معنى القدرة - يا شباب - إذا أردت أو أُريدَ لك أن تغيِّر المنكر بالقوة والعنف - أن تكون «قادرا» على التغيير دون أن تُلحق الدَّمار بك ، وبأهلك ، وبأمّتك . . !!

* * *

وإنْ أعْجبْ ، فَعجبٌ قولُ بعض الناس مُخلصين حينا ، ومُرائيين أحيانا: إن اقتصادنا المنْهَك والبطالة ، والفراغ ، والفقر ، وبعضهم يضيف إليها - الحزب الوطنى والنظام الحاكم والتليفزيون والمسارح ودور السينما هى المسئولة عن موجات التطرف والإرهاب . . !!!

ولهؤلاء أقول : إن جيل الثلاثينات وشبابها كانوا يعانون الفقر والبطالة ويعايشون الإذاعة ، والمسرح والسينما . . وكانت المنكرات تملأ القاهرة والاسكندرية وعواصم البلاد . . وبالنسبة لنظام الحكم كانوا يعانون طغيان الملك ، وأحزاب الأقليّة . . ولكن لم يحدث قط هذا الذى يسُوق به المتطرفون اليوم مصرنا إلى أسوأ مصير . . !! فلنبحث عن أسباب هذا التطرُّف فى أنفسهم وعقولهم وتطلُّعاتهم . . وقبل ذلك فى شيوخهم ومُعَلِّميهم . . ؟؟ !!

إن التطرف وباء العصر ، وإنه لَيَقذف حُمَمَه فى كل بقاع الأرض - فى أمريكا .. فى لندن .. فى باريس .. فى الهند .. وهنا فى مصر .. فى تونس .. فى الجزائر .. فى اليمن .. فى الأردن .. ثم فى الصِّرب المجْرِمة .. وفى إسرائيل مع الشباب والشيوخ والنساء والأطفال من أهل فلسطين .. ما هذا ؟ هل اقتربت الساعة التى أخبر الرسول أن إحدى علاماتها - أن يكثُر القَتل ؟؟ !!

* * *

على أية حال ، ومهما يكن مِنْ أمر ، فلابُدَّ مما ليس منه بُدّ ..

ما هذا الذى ليس منه بُدّ ؟؟

هو صَرْف أولئك الشباب عن تطرفهم الْممعِن فى الهوسِ والضلال .. صرفُهم بالحسنى . إذا كان لا يزال لها مكان .. فإن لم يستجيبوا فلا مَنْدُوحَة من الأخذ بحكم رابع الخلفاء الراشدين سيدنا الإمام « على بن أبى طالب » كرَّم الله وجهه حين قال للذين خرَجوا عليه ، وأشاعوا الرعب فى المجتمع الإسلامى كله .

« بيننا وبينكم كتابُ الله ، وهَذْىُ رسول الله » ..

« فمن صلَّى صلاتنا ، واستقبل قِبلتنا ، فله مالنا .. وعليه ما علينا » ..

« ومن قاتلَنا منكم قاتلْناه » ..

« ومن قتلَنا قتلْناه .. » !!

والله يدعو إلى دار السلامْ ، ويَهدِى من يشاء إلى صِراط مستقيم .



وأخيرا .. ما الحل ؟؟

في هذه السنوات كَثُر استخدام كلمة « الحلّ » .. تهتف بها الحناجر ، وتزخَم الشوارعَ بالملصقات !! وبها يُغنى كُلٌ على لَيْلاه ..

فالإسلاميون يرون الإسلام هو « الحل » ..

والشيوعيون يقولون ، أوكانوا يقولون : الشيوعية هى « الحل » ..

والاقتصاديون يرون أن الاقتصاد السليم القوى هو « الحل » ..

والعَلْمانيون - معتدلين ومتطرفين - يقولون : « العَلْمانية هى الحل » .

ولو أن عندنا حزبا لِلْعَوانِس ، أوحتى نِقابة ، لَملأن الجوّ هُتافا : - « الزواج هو الحل » .. !!!
ولا بأس أن تختلف الأحزاب والجماعات .. حول الحلِّ المنشود .
ولكن البأس فى ألا يُجمِعوا كافّة ويَلْتقوا جميعا فوق الأرض المشتركة التى تحمل مالا يحمله سواها من كل صالح وسليم - ألآ وهى الديمقراطية ..

* * *

فلا حلَّ هناك يقدمه الدين ، أويقدمه العلم ما لم تكن « الديمقراطية » وِعاءه ، وضياءه ، ومُناخَه ..
ولقد رأينا كيف زَلَّت قدَما « عبدالناصر » حين آثَر الاشتراكية على الديمقراطية ، أوحين أراد اشتراكية بلا ديمقراطية ، وبالتالى حين سارع إلى إنجاز إصلاحاته الاشتراكية ، مُهْمِلا أومُمْهِلاً الديمقراطية إلى المستقبل .. كما قال فى الحوار السالف ذِكره .. !!
ومع أنه ذكر فى « الميثاق » عن الحرية والديمقراطية ، ما لم يقل مثله الشعراء المادحون ، إلا أن الميثاق كله قدَّم فى هذا المجال خمسين مُقدمة « صادقة » وانتهى إلى نتيجة واحدة « كاذبة » .. !!!
إن الاشتراكية بلا ديمقراطية لا تكون أكثر من « عَلَف » تقتات به السوائم لا الشعوب .

* * *

وإن غياب الديمقراطية عن أى نظام سياسى ، يجعل هذا النظام جحيما ، ليس على الشعب وحده . بل على الحاكم قبْله .. وهذا ما حدث مع الثورة وقائدها .. ففى ظل الحكم المطلق ،

تكوَّنت مراكز قُوى ملأت البلاد فسادا وبَغْيا ، ووضعت « عبدالناصر » ذاته فى أحد جيوبها !!

فى عام ـ ٥٦ ـ وبعد جلاء الجيوش المتحالفة لدول العدوان الثلاثى ـ بريطانيا وفرنسا ، وإسرائيل ـ أراد الرئيس الراحل أن ينقل « صدقى محمود » من قيادة الطيران إلى أى وظيفة ترضيه ويختارها . . لكن « عبدالحكيم عامر » رفض أن يُمسَّ أحد رجاله بسوء ، أو يُتَّهم بتقصير . . وابتلع « ناصر » رِيقَه مُؤْثِرا السلامة . . وظلّ « صدقى محمود » على رأس طيراننا الحربى حتى هزيمة ـ عام ٦٧ ـ وكان الجو قد خلاَ لعبدالناصر ، فحاكمه وحُكم عليه بالسجن مُتَّهما بالإهمال . . !!

وكثيرة هى المواقف التى كان يُقال فيها لعبدالناصر : قِف !!! بل إنه كان يُتخذ مادة للتندُّر فى بعض مجالس رجال المشير المقربين مثل قول : « صلاح نصر » رئيس المخابرات العامة : ـ الراجل فاكر نفسه زعيم ورئيس جمهورية . . مع إننا عامْلينُه « دِيكُور » !! من أجل ذلك صاح « عبدالناصر » غَداة الهزيمة : « الحمد لله ، انتهت دولة المخابرات » ؟ ! والحكم الشُّمولى يصيب الأُمّة التى تُرزأ به بشر ما يمزقها ـ وذلك بسبب القسوة الجامحة لأن الديكتاتور يعيش فى خوف دائم وفزع موصول . . ومن ثم يصبُّ جامّ غضبه ونقمته على الشعب الذى يخشى تمرُّده ، ويخاف أن يقتحم عرينه !! وقد شهدنا ذلك واضحا عند انهيار الوحدة المصرية السورية ، فقد كان رد الفعل مُوجَّها ضد الشعب بإقرار العزل تم بلجان تصفية الإقطاع . . !! وشهدناه بعد هزيمة ـ ٦٧ ـ فرض المزيد من كبت الرأى ـ وتجلَّى مظهر هذا فى مذبحة القضاة الذين سُرِّحوا سَراحا غير جميل !!

ولقد حدثنى الصديق الكريم الأخ المستشار « مدحت سراج الدين » أن زميلا لهم مِنْ ضحايا المذبحة مات بعد إخراجه من عمله ـ فلم تجد زوجته نفقات جنازته ؟ ! ومن أين تجدها وقد تفضلوا عليه بعد طرده بمعاش تناهَى فى الضآلة والضَّحالة والشُّح ؟؟ بل إن الصديق « مدحت سراج الدين » نفسه ، تفضلوا عليه بمعاش قدره « ستة وعشرون جنيها » !! وهو مبلغ لا يفى بإيجار الشقة التى يسكنها !! وعَبْر سنوات الثورة ، كانت القسوة المستعلية على العدل والرحمة هى العصا الغليظة التى تُهشُّ بها على غَنَمِها ، ولها فيها مآرب أخرى . .

وأول إنجازاتها ـ وكان الإصلاح الزراعى ـ لم يتوافر له من الرحمة والعدل ما كان يجب ويُمكن أن يكون !! ولقد كنت خَصْما للإقطاع قبل الثورة ، ومُشيدا بتصفيته بعدها . . بيْدِ أن الأمل خاب حين رأينا شهوة الانتقام والتشفِّى تَغشَى هذا الإنجاز العظيم ، فلا تعويض لمالِكى الأرض ، ولا عَدالة فى تحديد ما يُؤخذ وما يُترك ، ولا تفرقة بين من ورث الأرض لُقمة سائغة ، ومن اشتراها فدَّانا بعد فدّان ، وسهر عليها بجهده ، ورواها بعَرقه !!

ولقد حدثنى الصديق الراحل السيد « إبراهيم أبو سيف راضى » رحمه الله تعالى : أنه كان يعشق الأرض عِشق المُوَلَّهين . . وكان يقضى أكثر أيامه معها بعيدا عن القاهرة ، ومباهجها إنه ليخرج صباح كل يوم إلى حُقوله وحَدائقه ، لأبنآ مع « الأنفار » الذين يعملون فى المزارع والحدائق . وتأتى الظهيرة وما بعد الظهيرة . . وهو بين الفلاحين الذين يزرعون ويَغرسون ، حتى يجىء وقت راحتهم وغدائهم ، فيرجع إلى داره القريبة من مزارعه وبساتينه وهو يتصبّب عَرقا ، فيبدأ بالحمام مغتسلا بمائه البارد . .

يقسم لى وهو صادق أنه كان يعتصر « فانِلّته » ويتلقى فى فمه قطرات العرق المبتلّة به ثم يبتلعها فى متعة من يتذوق شراب عَين تُسمَّى سَلْسَبيلا . . !! أفمثل هذا يُسوَّى بمن كانت الثورة تسميهم « العاطلون » بالوراثة » ؟؟ !!

و « أحمد حمزة باشا » رحمه الله تعالى - الرجل الصالح الذى كان وهو وزير التموين فى حكومة الوفد المشكلّة عام - ٤٢ - يطوف المراكز والقُرى والنجوع . . وتدركه الصلاة ، فينزل بأول مُصلًّى يلتقى بها على « الترعة » ويؤدى الفريضة - ظُهرا أو عَصْرا - ثم يستأنف رحلته التفتيشية . . ثم هو من رُواد صناعة الثلج فى مصر . . لم يكتفوا بأخذ أرضه ، فصادروا أو أمَّموا مصنعه الكبير للثلوج . .

لقد جاوزوا الأرض الزراعية إلى الأموال فى المصارف مهما تكن قليلة يستعين بها ذَوُوها على ضرورات المعيشة . . تَشفِّيا فيهم ، وانتقاما منهم !!

ولقد حدث مع صديقى الراحل الأستاذ « أحمد سراج الدين » وهو فى رأيى من خير الذين مَشَوْا على الأرض هَوْنا . . « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » لم يَقْنعوا منه بالأرض فمدُّوا أيديهم إلى رصيد له فى البنك ينفق منه على نفسه وأسرته . . بل وعلى كثير من ذوِى الخَصَاصة والحاجة ، إذ كان شعاره - رحمه الله -

أريــد بَسْــطَة كَفٍّ أستعيـنُ بـهــا
على قضــاءِ حقــوق للعُـلا قِبَلِى

فحتى « بَسْطَةُ الكفِّ » حرمَته منها ثورتنا القاسية . . !! ذات يوم أرسل ابنه المستشار « مدحت سراج الدين » إلى البنك ليصرف شيكا من رصيده . . وفوجىء الابن برفض الشيك بحجة أن والده وُضع تحت الحراسة !!

كان « أحمد بك » يروى لى الواقعة وعيناه تتندّيان بالدموع . . دموع الأسَى ، ليس على نفسه . بل على الذين تعوَّدوا أن تُهلّ عليهم عطاياه مع مطلع كل شهر جديد . . !!

وعلِمَتْ السيدة الفاضلة قرينته بما حدث ، فحررت « شيكا » للأستاذ « مدحت » يصرفه من حسابها الخاص . . وقام البنك بصرف الشيك . . وحين احتاجوا قدرا آخر من المال حرّرت له شيكا جديدا ذهب به إلى البنك الذى رفضه معتذرا . .

سألهم : لماذا ترفضونه ؟؟

أجابوا : لأن السيدة وُضِعَتْ تحت الحراسة . . !! أليست هذه المطاردة الزنيمة والذميمة تهدِف إلى إشباع رغبة شَرِسَة فى التشفى والانتقام ؟ ! لكن الله سبحانه لم يتخلَّ عن عبده الصالح « أحمد سراج الدين » بل ستره حيًا ، وأكرمه ميتا . .

وإنى لَمدِين بالتعرف إليه ، وبالصداقة النبيلة التى جمعت بيننا لفضيلة شيخنا العلاّمة الشيخ « عبدالجليل عيسى » الذى أبْلَى فى سبيل الإسلام وعلومه بلاء عظيما . .

* * *

وقد تناولتُ فى كتابى « دفاع عن الديمقراطية » الذى صدر عام ـ ١٩٨٥ ـ قصة أو مأساة الأستاذ « مصطفى أمين » مع الثورة التى أسْدى لها من الخدمات الشىء الكثير . ثم جُوزِىَ جزاء « سِنِمّار » ، فاتُّهم بالتجسس لحساب أمريكا ـ بينما كان الرئيس « عبدالناصر » قد طَلَب منه الاتصال بالأمريكان ليبْلُوَ نشاطهم تجاه الثورة . .

أُخِذ « مصطفى أمين » من الدار إلى النار ، كما يقول المثل الشعبى . . ولبث فى السجن سنين عدَدا دون أن يُمْنح فرصة للدفاع عن نفسه ! وإنى لأذكر فى هذه المناسبة أن محكمة الثورة العراقية أيام حكم « عبدالكريم قاسم » قال « المهداوى » رئيسها عندما سُئِل عن كتاب سمحوا بنشره وكان عنوانه ـ إذا صدَقتنى الذاكرة ـ « إنى أتهم الله » !!!

قال « المهداوى » : إن هذا الكتاب لم يُطْبع فى العراق . إنما طُبع فى مصر ، واستوردته بعض مكتبات بغداد ، وإن مؤلفه هو « خالد محمد خالد » قرأت هذا الخبر الكاذب فى جريدة الشعب التى كانت الثورة تصدرها مكان « المصرى » وكان يرأس تحريرها الأستاذ « أحمد بهاء » عافانى الله وعافاه . . واتصلت به تليفونيا ، فأخبرنى أن قسم الاستماع بالجريدة نقل الخبر عن إذاعة بغداد !!

عندها أرسلت برقية مطولة إلى « المهداوى » أطلب فيها تصحيح ما قاله ـ كما أطلب تلاوة برقيتى كلها فى المحكمة التى يرأسها . .

كانت صورة المهداوى عند الناس فى العراق وخارجه أنه رجل فى منتهى السوء . . !! ومع ذلك فقد قرأ برقيتى فى المحكمة وأذاعتها إذاعة بغداد التى كانت تنقل على الهواء وقائع الجلسات . . واتْبَع « المهداوى » تلاوة برقيتى باعتذارٍ منه ذاكرا أنه تلقَّى برقيات كثيرة من مواطنين عراقيين « تُبرِّىء الأستاذ خالد مما نسبتْه خطأ إليه » . . !!

أسوق هذه الواقعة لأسأل : هل وَجَد الأستاذ « مصطفى أمين » فرصة للدفاع عن نفسه فى بلده ومع ثورته ، كتلك التى وجدتُها فى بلد آخر ومع ثورة أخرى ؟ !!

إن الحكم المطلق يُلطخ بالوحل من يحكم به قبل أن يلطخ بالدم ضحاياه من الشعب . . ولقد حمل « عبدالناصر » أوزار التعذيب البَشِع الذى أنزله بالمواطنين أصحاب الطبائع الفردية الآثمة ـ ربما دون أن يكون لعبدالناصر دور مباشر فيه . .

●● فأنا مثلا ، لا أتصور أبدا أن يأمر « عبدالناصر » بتعذيب المتهم فى قضية « كمشيش » الشهيرة عن طريق الإتيان بكلب مُدرب على وَطْء الرجال ثم تمكينه منه ـ الأمر الذى أكّدته محكمة الجنايات العليا التى قامت بنظر قضايا المتظلمين فى عهد الرئيس السابق « أنور السادات » ونشرت جريدة الأخبار شهادة المحكمة فى صفحتها الأولى . . !!

●● كذلك لا أتصور أن يُجاء بإحدى السيدات المحْصَنات المؤمنات ، فتُطرح أرضا على ظهرها ويُعَرّ نصفها الأدنى من كل ما يُغطّى ويَسْتُرُ . . ويتحلّق حولها نظر من الأنذال أولاد الشياطين يطفئون سجائرهم فى فرجها . . ؟ !! ويتم هذا بأمر عبدالناصر ؟؟ مثل هذه أحداث بعيدة عن علمه لا ريب .

●● ثم لا يتصور أن يأمر ضابطا صغيرا حقيرا فى سن المراهقة أن يتلقى « محمد نجيب » بصفعة

على وجهه أمام الجنود . . قد يأمر بقتله . لكنه لا يأمر بهذه السفالات وهذا الصَّغار - لا سيما وقد أمر بعد عزل فاروق أن يُشيَّع إلى منفاه فى أدب وهدوء ؟ ! !

●● وأخيرا - لا آخراً - لا يتصور أن يُهان الأستاذ الهضيبى القاضى والمستشار ومرشد الإخوان بهذا الأسلوب السفيه ويكون هذا بأمر « عبدالناصر » . . ذلك أنه فى أعقاب حادث المنشيَّة أعتُقل كثير من الإخوان ، وأعتُقل معهم الأستاذ « الهضيبى » رحمه الله . . وفى تلك الأيام كانت « أم كلثوم » تغنى أغنية جديدة وُضِعت لهذه المناسبة ، يقول مطلعها :

يا جمال يا مثال الوطنية أجمل أعيادنا المصرية

بنجاتك ، يوم المنشيَّة

وشاعت الأغنية وذاعت حتى كاد الأطفال يحفظونها ويرددونها وهنا تفتَّق ذهنُ شريرٍ أثيم عن هذه اللعبة القذرة ، فراح يجمع كل صباح جموع الإخوان فى فِناء السجن الحربى ، ويقف أمامهم الأستاذ « حسن الهضيبى » مُرشد الجماعة ، حاملا عصا صغيرة كأنها عصا « المايسترو » ويردد معهم كلمات الأغنية - « يا جمال يا مثال الوطنية » راسما بعصا « المايسترو » إيقاع اللحن والكلمات آسِفاً على كبريائه الطريحة ، وكرامته الجريحة . . ! !

هذه الجرائم التى ذكرتُهاتمثل قدرا ضئيلا من مئات الجرائم . . وما هنالك ريب فى وجود جرائم تمَّت بعلمِ « عبدالناصر » وربما بأمره . . ولكن هذا النوع السَّافل والمُسِفّ منها والذى ذكرت لكم بعضه ، هو ما أنْفِى وجود أى دور لعبدالناصر فيه . . ومع هذا ، فقد حمل المسكين أوزارها حين اختار الديكتاتورية نظاما للحكم - وهو يعلم - أو لا يعلم - أنها أطول وأعرض مخبأ يختفى فيه المجرمون بالفطرة ، والمجرمون بالوراثة ، والأفاقون ، واللصوص ، والفاسدون والمفسدون . . ! ! !

وأخيرا . .

فهل مع هذا كله ، يبقى بيننا مَن يُجادل فى الديمقراطية ؟؟

وبأى ضمير ، أو بأى عقل ، أو بأى منطق . . بل وبأىِّ حرص على مستقبله ومستقبل أبنائه ومستقبل وطنه وأمته ؟؟ ! !

أباسم الإسلام تُحارَب الديمقراطية ؟ مرفوض . . أباسم وحدة الأمة وصالح الشعب ؟ مرفوض . .

فيا جميع هؤلاء . . هاتوا قلوبكم ؛ فإن لى معها حديثا . قد يكون حديث مُوَدِّع ؟ !

والآن يدور حديثى مع المتطرفين . .

وإن شاء الله تعالى تشهد الحلقة القادمة حديثى إلى التيار الإسلامى . .

وإلى النظام الحاكم . . أو بتعبير أدَقّ وأصْدق - إلى الرئيس « مبارك » ذاته . .

ولكن ، قبل المُضِىِّ فى هذا السبيل أريد أن أتوجَّه إلى نفسى - نيابة عن قرائى - بهذا السؤال :

كيف تُوفِّق بين إيمانك الوثيق بالديمقراطية ، وبين رِثائك الطاغية « ستالين » يوم مات بمقالة جعلتَ عنوانها : - « طِبتَ حيا وميتا يا رفيق » . . ؟؟ ! !

وأجبت ـ أولا ـ معترفا بخطئى فى اختيار هذا العنوان فى تأبينى « ستالين » حتى لو لم يكن طاغية . . ذلك أن هذه التحية المودِّعة ، قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين سعى إلى جثمان سيدنا الرسول ﷺ فكشف عن وجهه الشريف وقبَّل جبينه وقال : « طِبتَ حيا وميتا ، يا رسول الله » . . وما كان ينبغى لى أن أودع بها « ستالين » أو غيره من الناس . . واللَّهم غفْرا .

وأجبت ـ ثالثا ـ بأننى حين رثَيْت « ستالين » بالمقال المذكور ، لم تكن رائحة طغيانه قد فاحَت بعد وزكَمت الأنوف . . وكنا نحمد له مُناصَرتَه إيانا ضِد الذين يستعمروننا ويتلمَّظون بمقدَّراتنا .

●● فهو ناصَرَنا أيام المؤامرة ضد فلسطين والعرب إذْ حمَّل مندوبه فى مجلس الأمن نصيحته للنقراشى باشا أن يقبل مشروع التقسيم قبل أن ينجز الغرب مؤامرته الكبرى لتمكين إسرائيل من فلسطين كلها .

●● وهو قد وقف بجانب مصر عندما ألْغى النحاس باشا معاهدة ـ ٣٦ ـ معلنا مشروعية هذا الإلغاء ، ومعترفا بحقنا فيه . .

●● وهو قد كلَّف وزير خارجيته بتَبليغ النحاس باشا باستعداد الاتحاد السوفيتى بِمَدِّ مصر بما تشاء من ذخيرة وسلاح حين بدأت المقاومة المسلحة للانجليز من الحكومة والشعب معا . . !! ومواقف أخرى كثيرة وقفها مع الأمم المستضعفة فى كل مكان . . !!

هنالك ، ومن أجل ذلك بالَغتُ فى توديعه يوم مات . . فلما جاء المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى ووقف « خروشوف » يحكى الكثير من مخازى ستالين ودكتاتوريته وطغيانه سحبت السّجادة التى كنت قد فرشتها له ، وأنحيتُ عليه باللوم والتقريع فى مقال نشرته ، ثم فى كتابى « أزمة الحرية فى عالمنا » .

ولنأخذ العبرة والدرس مما تقدم .

هذا الدرس يقول : ان أول خُطوة نحو الحل القويم والسليم تتمثل فى تجنُّب الديكتاتورية كنظام للحكم ونبذها وقطع الطريق عليها قبل أن تملِك فتَفْتِك . . !!

إن « عبدالناصر » لم يكن جانيا ، بقدر ما كان مَجْنيا عليه . . ولو أن قدِّيساً أخذ مكانه ثم تدثَّر بالديكتاتورية واستسلم لها لفعل كل ما فعله الطغاة عَبْر التاريخ كله !!

ومهما تُطاوِل الأيام الديكتاتور . . ومهما تسخو عليه بالفرص ، فإن نهايته معروفة . . ومعروفة أيضا عاقبة الشعب الذى يشترى أمْنه بالحرية ، فيفقد الأمن ويفقد الحرية ؟ !

هَذِه هى الخطوة الأولى فى الطريق إلى الحل المنشود . . أما الخطوة الثانية ، فيخبرنا عنها حوارنا مع الإسلاميين العارفين ، أو الذين يريدون أن يعرفوا .

* * *

مع الإسلاميين المستنيرين :

إنهم مستنيرون ـ لا بمعنى أننا متفقون تماما على مفهوم الديمقراطية ، وعلى رأى الإسلام فيها ، بل بمعنى أنهم لا يُصَفُّون خلافات الرأى بالرصاص !! وهذا مكسب كبير للإسلام ، وللوطن ، ولنا

جميعا . . كما أنهم لا تأخذهم العزة بالإثم ، فيكفِّرون ويُفسِّقون من لا يَحنُون لهم الجِباه ومن لا تُسبح منهم لعبقريتهم الألسُن والشِّفاه . . !! ومع هؤلاء المستنيرين والمسالمين نحاول اللقاء حول كلمة سواء . .

إنهم يرون فى الديمقراطية شيئا دَخيلا ومَجْلُوبا ، ويرون أن « الشورى » لا « الديمقراطية » هى نظام الدولة ومنهج المجتمع فى الإسلام . .

ونسألهم : وما الشورى كنظام للحكم والسياسة يجيبون : إنها الشورى كما جاء بها الإسلام !! ويدور الحوار فى حلْقة مُفْرَغَة . . ويتركوننا نُدرك أن المسافة واسعة جدا بين الشورى والديمقراطية فى فهم إخواننا المستنيرين . .

ورأيى أن « الشورى » فى الإسلام لا تختلف قيد أنملَة ـ فى جوهرها ، ووظيفتها ، وفى الغاية المُتوَخّاة منها ـ عن الديمقراطية بنظامها السائد فى بلادها . .

وعَجْز إخواننا وامتناعهم عن تقديم نَموذج مُفصَّل للشورى فى مجال التنظير والتطبيق يعطينا الحق فى الاستمساك بوجهة نظرنا القائلة بأن الديمقراطية هى الشورى التى يدعو إليها الإسلام . . أما ما يريدونه للشورى من أن تكون عبارة عن خليفة أو حاكم يجمع حوله باختياره هو . . ـ من يستشيرهم فيما يشاء هو . . ثم يأخذ برأيهم أو يلقى به فى سَلّة المهمَلات ، فإن الإسلام لا يعرف ولا يُقر عبَثا كهذا العبث فى التشريع للدول والشعوب . . !

* * *

وأبدأ حديثى مُؤكدا أن ما كان يسمى منذ أربعة عشر قرنا بالشورى ، هو الذى يُسمَّى اليوم بالديمقراطية . . وإنى أتحدث عن الديمقراطية السياسية ـ ذلك النظام السياسى الذى يقيم علاقات الحاكم بالشعب على أساس مَكِين من الحرية والعدل . . وهى بهذا المفهوم لا تُناقض شريعتنا الإسلامية ، بل إن هذه الشريعة إذا أحسَنّا فهمها وفهم الديمقراطية فهى « الوطن الأمّ » لها . . وبالتالى فهى أفضل وأمثل مناخ لقيامها . . وإذا صحّ فى الافهام هذا الذى أقول ؛ فلا يصدُّنا عن استعمال كلمة الديمقراطية ما يردده البعض من أنها مستوردة !! فقرآننا العظيم ينتظم بين آياته بعض الكلمات التى ليست عربية على الإطلاق . .

مثل كلمة « المِشْكاة » ، وهى هندية . . وكلمتَىْ « استبرَق » و « سِجِّيل » ، وهما فارسيتان . . وكلمة « قسطاس » وهى رومية . . وكلمة « طه » وهى نبطِيَّة . .

فلماذا نضع النظام الديمقراطى تحت عنوان « الشورى » لمجرد أن كلمة « ديمقراطية » ليست عربية ؟؟ !

ومع هذا ، فلنتفق أولا على النظام السياسى الذى يُحقق الحرية والعدل ، ويحقق ما هتف به الإسلام من حقوق الإنسان ، ثم اختاروا له من الأسماء ما تشاءون . .

وإليكم عناصر الديمقراطية وأركانها :

أولا : حقُّ الشعب فى اختيار حاكمه ورئيس دولته اختيارا حُرا نزيها عن طريق الانتخابات

لا الاستفتاء .. ولمدة محددة ، لا مَدى الحياة .. !!

[فهل هذا يعارض الإسلام] ؟؟

ثانيا : اختيار الشعب نوابه وممثليه فى برلمان حر رشيد يراقب تصرفات الحكومة ، ويقترع على إسقاطها إذا انحرفت عن سواء السبيل .

[فهل هذا يُعارض الإسلام] ؟؟

ثالثا : الأمةُ مصدر السلطات ، بما فى ذلك السلطة التشريعية نفسها ، فيما لا يُناهض نَصًّا قطعىَّ الدلالة .

[فهل هذا يُعارض الإسلام] ؟؟

فإن قُلتم : نعم يُعارضه فيما يختص بالسلطة التشريعية .. قلنا لكم : إذن فأنتم تُلقُون ثلاثة أرباع الشريعة والفقه فى البحر ، لأن هذا القدر من الشريعة أو أكثر منه كانت الأمة مَصدره عن طريق الأئمة والأصوليين والفقهاء الذين استخدموا الاجتهاد والإجماع والقياس ، فوسَّعوا فى رحاب الشريعة الإسلامية ورفاقها مما جعلها أكثر الشرائع إحاطة وثَراء وتلْبية لكل مطالب الحياة وحاجات الناس ..

رابعا : لما كانت الحقيقة لا يملكها فرد واحد ، فإن الحقيقة السياسية فى كل ما يُهم الوطن من شأن ، تحتاج إلى قيام أحزاب يمثل كل منها وجهات النظر المتباينة وتُؤدى دورا رقابيا نافعا على الحزب الحاكم .. ثم إنها تقوم بتكوين « كوادِر سياسية » بحيث إذا تولَّى حزبُ الحكم كان جاهزا برجاله المتخصصين والدارسين .. ثم إن العدل والحق لا يؤتمن عليهما حزب واحد .. ولما كان قيامها واجب ، والقاعدة الفقهية تقول : ـ « مالاَ يتمّ الواجب إلا به فهو واجب » فتعدد الأحزاب إذن من مُوجبات النظام السياسى القائم على العدل ، والحق ، والديمقراطية .. فهل قيام الأحزاب يعارض الإسلام ؟؟

إن الأحزاب السياسية تُشبه تماما المذاهب الفقهية ، والفلسفية فى الإسلام ـ فهل المذاهب الفقهية أنْقضَت ظَهر الإسلام ، أم زادته قوة وثراء ، وجعلت شريعته أوسع وأجمع ما شهدت الدنيا من شرائع وقوانين ؟؟

خامسا : قيامُ معارضة برلمانية ذات طابَع دستورى تستطيع أن تكشف عورات الحكم ، وتقيم الحكومة لوجودها ألف حساب .. فهل هذا يتعارض مع الإسلام ؟؟ أم أنها تنفيذ بأسلوب العصر لقول خليفة رسول الله الصِّدّيق « أبى بكر » ومن بعده « الفاروق عمر بن الخطاب »

« إن أحسنتُ فأعِينونى »

« وإن أسأتُ فقوِّمونى »

سادساً : الفصل بين السلطات .. إن وضع السُّلْطات الثلاث ـ التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية فى قبضة حاكم واحد ، أو حزب واحد ، يعنى تكريس الظلم والطغيان .. بينما الفصل بينها ، واحترام استقلال كل جهاز منها يعنى قيام العدل والحق ما دمنا نُجَنبها أهواءنا وعدواننا غير المشروع عليها ..

فهل هذا يُعارض الإسلام ؟؟

سابعاً : قيام صحافة حرة .. حرة فى امتلاكها وحق إصدارها ، وحرة فى تحريرها .. والتمكين لحرية الفكر ، والضمير ، والتعبير ، والاعتقاد باعتبار هذه الحريات حقًا لا مِنحة .. ومن ثَمَّ فهى ترفض أى تحكُّم فيها أوتعصُّب ضدها .. فهل فى هذا مايُعارض الإسلام ؟؟

* * *

هذه - يا قومنا - هى الديمقراطية .. وهى الشُّورى في الإسلام بنصِّها وتفصيلها .. فإذا أرهقكم - نفسيا - إيثارُ كلمة الديمقراطية على كلمة الشورى ، فلْنُسَمِّها الشورى .. واعترفوا بالمبادىء التى ذكرتها ، وبَشِّروا بِها ، وعاهدوا الله سبحانه على احترامها والولاء لها .. ألا إنه لا مكان فى الإسلام لحاكم ظالم ، ولا لحاكم عابث ، ولا لحاكم ينام قرير العين فوق آلام شعبه وحاجات أمته ، ولا لحاكم يضع نفسه فوق الحق .. مما يجعل سياج الديمقراطية الصادقة والكاملة ضروريا لحماية الشعب من هذا اللون من الحكام ..

إن الحاكم « فَرد » فى الأمة .. وليس « الأمة » فى فرد .. وهذا معنى قول سيدنا « أبى بكر » رضى الله عنه :

« إنى وُلِّيتُ عليكم ، ولستُ بخيركم »

وما دام « فردا » فى الأمة ، فيجب أن يأخذ حقوقه كفرد ، لا أن يستحوذ على كل حقوق الشعب وسلطاته وقراره ومصيره .. والديمقراطية عَبْر قُرون كِثار هى التجربة الناجحة فى هذا السبيل .

وإنها لتجىء بالحاكم فى اقتراع حر .. وتعزله متى تشاء بالاقتراع الحر .. وكذلكم تفعل الشورى ويصنع الإسلام .

يقول الإمام « أبو حامد الغزالى » رضى الله عنه : - « لو لم يُبايع أبا بكر غير عمر ، وبقى كل المسلمين مُخالفين ، أو انقسموا انقساماً متكافئا لا يتميزُ فيه غالب عن مغلوب ، لما انعقدت الإمامة »

ويقول الإمام « ابن تيميَّة » فى كتابه - مِنهاج السنة - : « لو أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة ، لم يَصر أبو بكر إماما بذلك .. وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة »

ألا وإن أوَّل مايُطبَّق من الشريعة لَهُو نظام الحكم فيها ، فإن الله يَزَعُ بالسلطان ، مالاَ يَزَعُ بالقرآن .. وقد تبين فيما سبق من حديث نوع الحكم فى الإسلام .

* * *

أما الحديث عن الشريعة الإسلامية ، فأُلَخصه فى أنه لا يُوجَد إنسان منصف ومخلص يَبْخَسُها قدرها كأعظم وأجمع موسوعة تشريعية وفقهية وقانونية شهدتها دنيا الناس .. وبالتالى فهو لا يَستكثر عليها أن تكون دستورا ، وشِرْعة ، ومنهاجا .. والحق أنه لا مشكلة ولا خلاف فى هذه الحقيقة .. إنما المشكلة فى أسلوب كثيرين من المنادين بتطبيقها فى عصرنا هذا ، والمتوسِّلين لهذا التطبيق بسوء الفهم وسوء القصد .. ثم بالعنف المتعجل ، والعمَل الطائِش المتشنج والموْتور .. !!

إن هؤلاء النَّفر لا يعرفون الشريعة التى يطالبون بتطبيقها .. !! وما أكثر الأحكام والاجتهادات التى يرددونها بحجة أنها ليست فى القرآن الكريم .. مع أن الشريعة الإسلامية تنتظم القرآن والسنة وإجماع الأمة واجتهاد الأئمة ..

يقول الإمام « أبو الوفاء بن عقيل » وهو يُناظر أحد الفقهاء : ـ « إذا قلتَ لا سياسة إلا ما « وافق » الشرع فصحيح .. أنا إذا قلتَ : لا سياسة إلا ما « نَطق » به الشرع ، فغلَط وتغليط للصحابة »

ويُعقِّب الإمام « ابن القيِّم » على هذا بقوله : ـ « إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط .. فإذا ظهرت أمارات الحق ، وقامت أدلة العدل ، وأسْفَر صبحه بأى طريق كان ، فَثَمَّ شرع الله ودينه ورضاه وأمره .. والله سبحانه وتعالى لم يحصر طُرُق العدل وأدلته وأماراته فى طريق واحد . بل بيَّن بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل .. فأى طريق استُخرج بها الحق ومعرفة العدل ، وجَب الحكم بِمُوجبها ومُقتضاها » .

هذا هو الإمام ، وتلميذ الإمام يقرر أن كل طريق يحق الحق ويُقِيم العدل هو شرع الله ودِينه ورضاه وأمره ..

* * *

وما دام « الاجتهادُ » من عناصر الشريعة ، فلابد من احترام رأى كل مُجتهد مُؤَهَّل له .. وليس من حق أحد مهما يُؤْتَ من العلم إلزام الآخرين باجتهاده ..

يقول الإمام « ابن تيمية » فى الجزء الخامس من فَتاواه :

— « ليس لأحد من الناس أن يُلزِم الناس ويُوجب عليهم إلاَّ ما أوجَبه الله ورسوله .. فمن أوجب مالم يُوجِبه الله ورسوله وحَرَّم ما لم يُحرِّمه الله ورسوله ؛ فقد شرَع من الدين ما لَم يأذَن به الله .. وهذا مُضاهٍ لعمل المشركين » .. !

ويقول أيضا : ـ « كان أهل السنة والجماعة لا يُلزمون الناس بما يقولونه من موارد الاجتهاد ولا يُكرهون أحدا عليه » ..

ما معنى هذا .. ؟؟ معناه أن الشريعة أوسع مما تعلمون ، وأكبر مما تَعرفون .. فلا تُلزموا أحدا بوجهة نظركم فيما شُرِع فيه الاجتهاد .. وعلِّموا الأتباع والأشياع هذا ، حتى لا يستمرئوا تكفير العلماء وقتل الأبرياء .. !!

لقد كان الإمام « أبو حنيفة » يقول : ـ « فِقْهُنا هذا رأىٌ .. فمن جاءنا بأحسن منه قَبِلْناه .. »

ويقول الإمام « أحمد بن حَنبل » : ـ « لا ينبغى للفقيه أن يَحْمل الناس على مذهبه ، ولا أن يُشدِّد عليهم »

ولقد حكَم أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه فى قضية حكما استحسنه أصحابه حتى قال أحدهم : هذا والله ، حُكْم الله .. فزَجَره أمير المؤمنين قائلا : بئس والله ما قلت .. بل هذا رأى « عمر » إن يكن صوابا فمن « الله » وإن يكن خطأ فمن « عمر » .. !

ثم قال : « لا تجعلوا خطأ الرأى سُنَّة للأمة » ..

فالحلُّ إذن بالنسبة للإصلاح الدينى وتطبيق الشريعة هو أن نُوسِّع دائرة مصادرنا ، فتكون القرآن ، والسنة ، والإجماع ، والاجتهاد . . وأن نحترم المُعاصَرَة ، ونمضى فى طريق التعْليَة والتغيير بالتدرج لا بالطُّفرة . . فالطبيعة الإنسانية واحدة .

وقديماً قالت أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها : ـ « كان أول ما نزل من القرآن ذكر الجنَّة والنار . . ولو أنه نزل أوّل ما نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا نترك الزنا أبدا . . ولو أنه نزلَ أوَّل ما نزل : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا نَدَعُ الخمر أبدا » . . !!

ليس معنى هذا إباحة الزنا أو الخمر . . ولكن معناه أن نتعلم الأسلوب الراشد فى الدعوة إلى الشريعة وتطبيقها . . ومالاَ يُدرك كله ، لا يُترك كله . .

ولابد من كَفِّ الأهواء عن التحكّم فى مدارج الشريعة . . وكَفّ الألْسُن عن الزعم بأنكم المتحدثون وحدكم باسم الله . . !!

فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ أوْصَى أحد قُواده فقال : ـ « إذا حاصرتَ أهل حِصْن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله ، فلا تُنزلهم على حكمَ الله . ولكن أنزِلهم على حكمك . . فأنت لا تدرى أتُصِيب حكم الله فيهم أم لا » . . !!

إلى هذا المدَى البعيد يحذرنا رسولنا ﷺ من إقْحام الذات العلية فى حكم هو موضع اختلاف واجتهاد .

* * *

إذا نحن سرنا وَفْق هذا المنهج فى الدفاع عن الشريعة ، وفى الدعوة إلى تحكيمها ، فسنكون قد أسْدَيْنا لها ولمجتمعنا ولأنفسنا أعظم الخير والنفع . . وهذا الحديث لا أوجهه لإخواننا الإسلاميين فى مصر وحدها . بل فى كل بلد عربى أو مسلم تحيط به الفتنة المنكَرة والدعوة الجائرة والفهم المغلوط والخاطىء لحقيقة الإسلام وأهداف شريعته . .

* * *

هذا عن الحلِّ الدينى . فماذا عن الحلِّ السياسى ؟؟

إن حديثى عنه سيدُور مع الرئيس « مبارك » مُباشرة ـ فذلك أجْدرُ ألاَّ تضيع الحقيقة أو تتُوه فى زحام الكلمات . .

إن التاريخ السياسى للرئيس « مُبارك » يبدأ عندنا من اللحظات التى أقسم فيها اليمين كرئيس للجمهورية . . فمنذ ذلك ـ وليس قبل ذلك ـ بدأ تاريخه السياسى يخطُّ سطورَه ، ويستدعى مقاديره . . !! ورأت مصر على قمة مسئوليات الحكم ، رجلا جديدا ليس له أية التزامات تجاه تجربة ـ ناصر والسادات ـ مع الديمقراطية ، مما يمكنه أن يمضى بها إلى بُعد جديد ، مُزوَّدًا برؤيته الخاصة للمبادىء والقضايا والأحداث . . ولقد كان من حُسن حظه وحظنا أن يبدأ من هذه النقطة . .

والخطوة الأولى فى الحل السياسى القويم ماثل فى أن يُؤمن الرئيس إيمانا وثيقا بالديمقراطية ويَعمل جاهدا وسريعا على استكمالها . .

لقد كان وراء أزمة الديمقراطية مع الرئيسين الراحلين ـ ناصر والسادات ـ غياب الإيمان الصادق بالديمقراطية ، ولاعتبارات كثيرة كانت فرص « السادات » فى استدعاء هذا الإيمان أكثر من فرص « عبدالناصر » . . ومع هذا فقد راح يتخبط ويتورَّط . .

فمرة يتهم الطلبة المتظاهرين فى أوائل السبعينات من فوق منصة مجلس الشعب بأنهم : « كانوا عاوزين يحرقوا القاهرة » وهو يعلم كذب هذا الادعاء !!

ومرة أخرى لا تعجبه كلمات صادقة كتبها الأستاذ « مصطفى أمين » فيصدر قرارا بمنعه من الكتابة وتوصية بتجميد آخرين !!

ومرة ثالثة يقضى يحل مجلس الشعب لعدم رضاه عن سلوك بعض أعضائه ، ثم يجىء بمجلس جديد يُبعد عنه أولئك الأعضاء !!

ومرة رابعة تقع أحداث ١٨ ، ١٩ يناير عام ١٩٧٧ فينتهز فرصتها ليضع شرَّ قوانين أُخرجت للناس !!

ومرة خامسة يَضيق ذَرعًا بالمعارضة ، ويحسب أن الديمقراطية ستخذله ، فيعتقل ألفا وخمسمائة مُعارض ، ويزدَرِى الديمقراطية قائلا لها ما قاله الشاعر العَبْسِىّ لأحد عبيده :

لقد أردْتُكَ للهيجا تُوَازِرُنى
وإذْ تنمَّرتَ ، فاذهب غير محمود !!

* * *

أذكر للزعيم الهندى الراحل « نهرو » حكمة بليغة تقول : ـ « إن أكثر الناس تعاسة وأشدهم بُؤسا زعيم له حياة مُعْطِية ، ولا يجد دورا عظيما يُكرِّس له هذه الحياة » . . !!

وإنى لأسأل الرئيس مبارك : ما الدور العظيم الذى تريده لحياتك المِعطاءة ؟؟

ليس عندنا « فاروق » آخر ستعزله . . ولا أُسرة علوية أخرى ستُنهى وجودها . . وليس لَدَيْنا إقطاع آخر ستوزعه . . ولا قناة سويس أخرى ستُؤممها . . ولا سَدٌّ عالٍ آخر ستشيده وتُؤَثِّله . . فأين لحياتك الدور الكبير الذى يُخلِّدها ويُخلِّدك معها ؟؟

فى التنمية ؟ فى وفرة الإنتاج ؟ فى توفير الرخاء والرفاهية ؟ كل هذا جميل وجليل شريطة ألاَّ يدفع الشعب ثمنه من حريته وديمقراطيته . .

لقد أسدَى « السادات » لبلده خيرا كثيرا ، وحقق لها انتصارا كبيرا . . ومن قبله شاد « عبدالناصر » الكثير الشاهق من الأمجاد لوطنه وأمته . . بَيْدَ أنّ مُنجزات كلٍّ منهما ، كانت كما يقول الشاعر :

كُلّما أهْدَتْ شُعاعًا خلّفتْ
بعده سجنا ومدّت قُضُبا !!

* * *

وبمناسبة ذكر التنمية ، والإنتاج والرخاء ـ أذكر أننى منذ حوالى سبع سنوات طلبت من الصديق المهندس « سعد هجرس » الذى صحب الإصلاح الزراعى من أوليات أيامه ، وشغل منصب رئيسه العام . ثم عَمِل نائبا لوزير الزراعة ، وانتخب أكثر من مرة نقيبا للزراعيين ، وهو الآن عضو بمجلس

الشورى . . طلبت منه أن يمدُّنى ببيانات مُقارنة لأكبر دولتين فى العالم يومئذ ـ الولايات المتحدة ، والاتحاد السوڤيتي ـ ومدى نجاح التنمية فى كل منهما ، فأعطانى الكتاب السنوى للإحصاء عن عام ـ ١٩٨٢ ـ الذى تصدره « منظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة » فجمعتنى بهذه المفارقة العجيبة :

● فى الاتحاد السوڤيتى عام ـ ١٩٨٢ ـ كانت مساحة الأرض المزروعة بمحاصيل زراعية ـ حَقْلِيَّة وبُستانية ـ « ٥٦٦ مليونا » من الأفدنة .

●● يُقابلها فى أمريكا « ٤٧٠ مليونا » . .

● فى الاتحاد السوڤيتى ، كانت مساحة المراعى « ٩٣٢ مليونا » من الأفدنة .

●● يُقابلها فى أمريكا « ٥٧٢ مليونا » . .

● مساحة أراضى الغابات فى الاتحاد السوڤيتى « ٢٤٧٠ مليونا » من الأفدنة .

●● يقابلها فى أمريكا « ٧١٠ ملايين » . .

ومعنى هذا أن الأرض الزراعية فى الاتحاد السوڤيتى تزيد « ٩٢ مليونا » من الأفدنة على الأرض الزراعية فى أمريكا . . ثم إن مستوى كلا البلدين فى استخدام التكنولوچيا متقارب . . وتعداد الشعبين متقارب . . ومع هذا ، وعلى طول سنوات كثيرة خلَتْ ، كان الاتحاد السوڤيتى يستنجد بأمريكا وغيرها من دول الغرب الديمقراطية ؛ كى تُزودها بالقمح الذى يُطعم به شعبه . . بل إنه فى عام ـ ١٩٧٤ ـ قام باستيراد « ١٧ مليونا » من الأطنان ليُسدّ العجز فى محصوله من القمح . . وهكذا ظل يترنَّح من الإفلاس حتى انتهى تماما كدولة اسمها « الاتحاد السوڤيتى » وتمزَّق إلى أقاليم ودول صغيرة . . !!!

فهل عطلت الديمقراطية جهود التنمية فى بلادها ؟؟ أم أن الدكتاتورية فى روسيا هى التى أصابت التنمية والدولة كلها بشرٍّ ما يُمزقها ؟؟ !!

إن التنمية المادية والتنمية البشَرية ، وكل أنواع التنميات ، إنما تترعرع وتزدهر فى ظل الديمقراطية ومُناخها . . !!

وليس بنا حاجة إلى أن نصنع ما صنعه الفيلسوف اليونانى القديم الذى حمل مصباحه المُضاء ، وسار فى شوارع « أثينا » فى رائعة النهار وضوء الشمس الغامر . حتى إذا سئل عن أى شيء يبحث ؟ أجاب : « أبحث عن الحقيقة » ؟ ! فالحقيقة معنا . . وما علينا إلا أن نفتح عُيوننا لنراها . . !!!

* * *

والآن دَعُونى أقدم « مُفرَدات » الحل السياسى المنشود ، كما أتصوَّره بدون إفاضة أوشُروح . . وأقول : مُفردات . . لأنى لا أريد التوسُّع والإفاضة . . ومن أراد المزيد من وجهة نظرى تجاه الحل الدينى والحل السياسى ، فليرجع إلى كتابى « دفاع عن الديمقراطية » الصادر عام ١٩٨٥ . . أما هنا ، فأنا أقدِّم تصوُّرا للخطوات التى أرى الخير فى إنجازها .

أولا : يقوم الرئيس مبارك بدعوة الحزب الوطنى بكل هيئاته إلى مؤتمر عام ، يعلن فيه قراره بالتخلى عن رئاسة الحزب بعد شهر من تاريخه يكون الحزب خلاله قد اختار رئيسا جديدا له . .

ثانيا : خلال هذا الشهر يكون الرئيس قد أجرى مشاوراته لتشكيل وزارة ائتلافية من المستقلين والحزبيين ، ونظرا لاعتبارات ماثلة ـ يختار الرئيس بنفسه الذين يمثلون أحزاب المعارضة فى الوزارة الجديدة ؛ كى يضمن قيام الانسجام المطلوب والضرورى بين أعضاء الوزارة . .

ثالثا : بعد نهاية الشهر ، يَجْمع الرئيس البرلمان بمجلسيه ويتلو على الأعضاء قراره بالتنحى عن أية رئاسة حزبية ؛ حتى يصير ـ كما يريده ـ الشعب رئيسا للجميع وزعيما للجميع . . ويُقدم إلى المجتمعين الوزارة الائتلافية الجديدة . .

رابعا : يشكِّلُ الرئيس أو الوزارة لجنة مُوسَّعة تضع دستورا جديدا للبلاد .

ومهما تكن بواعث الخلاف حول الدستور هل يُعدَّل ، أو يُستَبدَل . . ومهما يكن موقف الرأى العام من التعديل أو التغيير فإن الخير أن يضع الشعب دستوره بعيدا عن الظروف التى وُضِع فيها دستور ـ ١٩٧١ ـ والتى لم تكن تُساعد على وضع دستورٍ بعيد عن الأهواء . . ؟ !

ولقد عُدِّل عام ـ ١٩٨٠ ـ ومع هذا لم يحقق التعديل تَفادى وجوه النقص فيه . . ثم إنه قد جاء فى البند الثالث من « وثيقة إعلان الدستور » ما يأتى :

ـــ التطوير المستمرُّ للحياة فى وطننا ، عن إيمان بأن التحدِّى الحقيقى الذى تواجهه الأوطان ، هو تحقيق التقدم . . »

وهنا نسأل : أليس من مُقْتضيات التطوير المستمر ، تطوير الدستور إلى الأَمْثل والأفضل ؟؟ وأليس من مُقتضيات التقدم ألّا يكون دستور البلاد كثير الثُّقوب ، غزير المآخذ ؟؟

خامسا : تُشكَّل لجنة الدستور من ممثلين لجميع الأحزاب والنقابات والطوائف ومن مُمثلى الدينْين الكبيريْن ـ الإسلام والمسيحية ، ويُمكَّن أعضاؤها من كل الحرية فى المناقشة . . وحتى يُشاركها المواطنون جميعا فى مناقشاتها يحسن أن تُجنِّد وسائل الإعلام لتحقيق هذه الغاية . . ويُحدد لـ « اللجنة » ميقَات معلوم تنتهى فيه من مهمتها . . وأقترح ألّا يزيد على خمسة أو ستة أشهر . .

سادسا : يوضع مع الدستور ما أسَمِّيه « الميثاق الدستورى » يكون عهدا ومَوْثِقًا يلتزم به كل المصريين حاكمين ومحكومين ويُنص فيه على وجوب مقاومة كل من يحاول ولو بشطر كلمة تقويض الحياة الدستورية عن طريق انقلاب أو تمرُّد مسلح ـ وذلك بوقف العمل بالدستور أو إلغائه ، ويُنص فيه على كل ما يضمن للدستور الإجلال له والإيمان به والحِفاظ عليه . . ويكون هذا الميثاق مُلحقا فى صُلْب الدستور بحيث حين يُعرض على الشعب يُعرض الميثاق معه . .

سابعا : إذا أقرَّ الشعب الدستور بالموافقة عليه يصدر القرار الجمهورى بتاريخ العمل به . . وينبغى أن يكون التاريخ فوْر التصديق عليه . .

ثامنا : من المعلوم بَداهة أن الدستور سينصّ على أن يكون شغل منصب رئيس الجمهورية بالانتخاب ، لا بالاستفتاء . .

وحتى تزكُو مثاليتنا بالواقع ، فلا مَندوحة من رؤية الظروف التى تعيشها البلاد وتقديرها . . ومن ثَمَّ ففى هذه المرة لا غيْر ، يمكن أن يُرشح مجلس الشعب ثلاثة يكون أحدُهم الرئيس « مبارك » وينتخبُ الشعب منهم من يراه أحق بمنصب الرئاسة .

تاسعا : عندما تجرى أيّة انتخابات للرئاسة ، أو لمجلس الشعب ، أو للمحليات تشكل لجنة عليا للانتخاب ، تضم مع وزير الداخلية خمسة من كبار القُضاة ، يختارهم « مجلس القضاء الأعلى » أو « مجلس الدولة » أو « المحكمة الدستورية »

عاشرا : ينتظم منهج الدولة بكافة أجهزتها والإعلام فى مقدمتها ـ العمل الدائب على بثّ الولاء الوثيق للدستور ، وللديمقراطية فى شتّى طوائف الشعب وبين طلابه فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وبين عماله فى المصانع وفلاّحينا فى القرى والمزارع . .

* * *

وبعد ، فقد آن لهذه المذكرات أن تبلغ تَمامَها ولقد حاولتُ فيها الصدق وإخلاص القصد ما استطعت .

وإذا كانت قد بَقِيتْ كلمات أقولها ، فهى ذى :

لِنمضِ على بركة الله ، لِنَدْعَم ديمقراطيتنا ووَحدتنا ، ونحقق مسئوليتنا نحو أنفسنا . ونحو وطننا ، ونحو الأجيال القادمة بَعدنا . . ذاكرين ـ ومُذكِّرين غيرنا ـ أنه : لا وقت هناك للخوف :

ولا وقْتَ للتَّردُّد . .

وعلَى الله قَصْدُ السَّبيل

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحتويات

الصفحة

رقم الايداع ٢٢٥٤ / ٩٣
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0424 - X







الثمن ١٢ جنيهًا

طبع بمطابع دار أخبار اليوم